مسالك الأبصار في ممالك الأمصار

لابن فضل الله العمري
شهاب الدين أحمد بن يحيى
المتوفى سنة ٧٤٩ هجرية

أشرف على تحقيق الموسوعة
وحققه هذا السفر
كامل سلمان الجبوري

الجزء الثالث

ممالك الشرق الإسلامي والترك ومصر والشام والحجاز


دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
DKi
أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مقدمة التحقيق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق أجمعين، سيدنا محمد وآله الطيبين الطاهرين، وصحبه المنتجبين.

وبعد:

فهذا هو السفر الثالث من كتاب «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لشهاب الدين، أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري الدمشقي، المتوفى بها سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م.

وهو يؤرخ ممالك الشرق الإسلامي والترك ومصر والشام والحجاز

وقد اعتمدت في تحقيقه على أربع مخطوطات وهي:

١ـ مخطوطة أحمد الثالث ـ طوبقبو سراي ـ استانبول برقم ٢٧٩٧/ ٢ ص ١٧٨ـ ٤٦٢.

والتي قام بنشرها مصوّرة العلامة الدكتور فؤاد سزكين ـ معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية ـ فرانكفورت ـ ألمانيا الإتحادية ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

وكان عليها جلّ اعتمادنا.

٢ـ مخطوطة أيا صوفيا ـ مكتبة السليمانية ـ استانبول برقم ٣٤١٨.

المصوّرة في مكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت، تحت رقم ميكروفيلم C.1، V.3، 41.

٣ـ مخطوطة أحمد الثالث ـ طوبقبو سراي ـ استانبول برقم ٢٧٩٧.

المصوّرة في مكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت، تحت رقم ميكروفيلم C.3، V.3، 41.

وقد كتبت في الأصل برسم خزانة السلطان المملوكي، والملك المؤيد شيخ ابن عبد الله المحمودي (ت ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م) ووقّفها الملك المؤيد على طلبة العلم بجامعة (المؤيدي) في القاهرة.

٤ـ مخطوطة المكتبة الوطنية ـ المخطوطات العربية ـ باريس، برقم VO، A231، 2325، R4888

المصورة في مكتبة الجامعة الأمريكية ببيروت، تحت رقم ميكروفيلم C.4، V.3، 41.

* * *

أما طريقتي في تحقيقه فقد ذكرتها في مقدمتي للسفر الأول من الموسوعة، ولا داعي لتكرارها.

* * *

وقد استفدت في تحقيقي لهذا السفر من القطعة التي نشرها د. محمد سالم بن شديد العوفي، الأستاذ المشارك في كلية العلوم الاجتماعية بالرياض ـ المملكة العربية السعودية عن (مملكة الهند والسند) مط المدني ـ القاهرة ـ مصر ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

والقطعة التي نشرها تَشْنَرْ فرانتس عن (مملكة الأتراك والروم)، في دورية الجغرافية الإسلامية، المجلد ٩٤ ص ١٩٠ـ ٢٩٠، أعاد نشرها د. فؤاد سزكين ـ لايبزغ ـ ألمانيا ١٩٩٣.

والقطعة التي نشرها الاستاذ أيمن فؤاد سيد (ممالك مصر والشام والحجاز واليمن) ط المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٨٥، وقد سبق أن طبع (القسم الخاص بمملكة اليمن) من قبل دار الاعتصام ـ القاهرة ١٩٧٤.

والقطعة التي نشرتها الاستاذة دورتيا كرافولسكي عن (مملكة مصر والشام والحجاز) ط المركز الإسلامي للبحوث ـ بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

كما أفدت من بعض التعليقات التي أوردها د. أحمد عبد القادر الشاذلي في تحقيقه للسفر الثالث من الكتاب، نشرة المجمع الثقافي ـ أبو ظبي ـ الإمارات العربية المتحدة.

هذا ما استطعت تقديمه للقارىء الكريم والباحث الفاضل، وما تمكنت منه، فعليَّ الجدّ والاجتهاد، ومن الله التوفيق والسداد.

وهو حسبي الله ونعم الوكيل

عليه توكلت وإليه أُنيب.

جمهورية العراق ـ الكوفة

كامل سلمان الجبوري

النوع الثاني في ذكر ممالك الإسلام

ممالك الاسلام واقعة بجملتها في احسن المعمور شرقا وغربا وجنوبا
وشمالا لانها لا تنتهي الى غاية الحرارة المفرطة جنوبا ولا الى غاية البرد المفرط
الا في ما قل ولا تخرج عن حد الاعتدال وسياتي بيان ذلك في تحديد كل مملكة
فغاية معمور الجنوب مساكن السودان من عباد النيران والاصنام وربما
تغلغل من جزائر الهند واطرافه والنصارى باطراف الحبشة وعباد
الحيات والشجر في سودان المغرب جنوب غانة وغاية معمور الشمال
من النصارى والكرج بلاد الصقالبة في شمالها اخر قسمي ايران المسماة
بلاد القبجاق وما سامت ذلك الخط من القسطنطينية وما وراها
الى عليه والارض الكبيرة وجزائر البحر الرومي وغاية معمور
الشرق من عباد النيران والاصنام ثالث اقسام توران من بلاد الصين
الى المحيط واما الغرب فانتهى به الاسلام الى البحر المحيط ولا طرف
في الشرق والغرب بلاد صالحة وان لم تكن الغاية فالغرب الى مستوى الغاية
في ممالك الاسلام والصين وان كان خارجا عن دعوة الاسلام فان به
ملك عظيم جليل القدر ضخم الملك وهو من عظم توران ولم يزل ملك الترك
به تحت قاهر لان القاهر من ابناء جنكز خان وسياتي ذكره عند ذكر
ابناء جنكز خان وممالك الاسلام واقعة على ما ذكرنا ووسطها الهند
والسند وهو واقع في آخر الاسلام بشرق ويميل احذا الى الجنوب في
مسامتة الصين يحدها البحر من جنوبها وبلاد الكفار من شرقها والاسلام
في احد قسمي توران من شمالها ثم احد قسمي توران مملكة الاسلام وهي مملكة
تركستان وما وراء النهر وهي واقعة بشرق يميل احذا الى الجنوب يحدها
السند من جنوبها والصين من شرقها وممالك الاسلام قسيمها الثاني وايران

٢

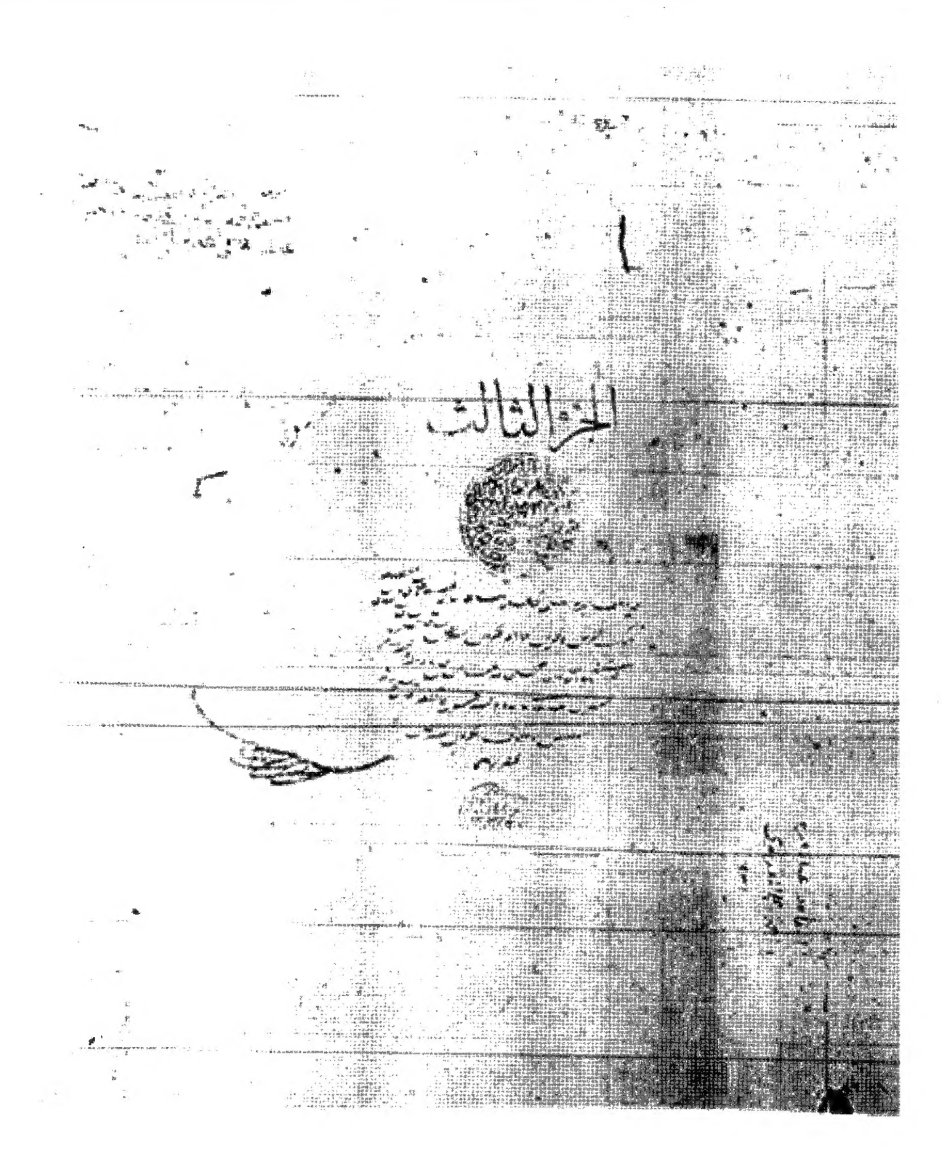
الصفحة الثانية ـ مخطوطة ـ أحمد الثالث، طوبقبوسراي ـ استانبول رقم ٢٧٩٧/٢

الملك

الى نفسه فلما نظر الى ما حول البيت من الشجر والضياع وغير ذلك
فاستحسن الموضع واشرافه على ما حوله من العمارة فقال رجاء
لسليمان لو امرت ببناء ديرها من النصارى مسجد للمسلمين وامرت
في النداء بالناس من احب ان يكون في حيز من المسلمين والنصارى فليبن
دارا الى جنب مسجده وديره لصارت مدينة ولتعطلت الكنيسة
بالدير وهذا الموضع احسن من موضع لد واعلا فعمل ذلك وبادر
الناس من كل اوب من المسلمين والنصارى يختطون المنازل والقصور
على قدر هممهم وهممهم وكان سليمان خط مسجدا صغيرا ودارا
للامارة لطيفة فقال له رجاء غير هذا فانها ستكون مدينة عظيمة فخط جامعا
عظيما كبيرا ودارا واسعة وهو هذا الجامع وهذه الدار المعروفة بدار
الامارة ثم ان سليمان اراد هدم الكنيسة واخذ رخامها وعمدها
للجامع فراجعه رجاء عند ذلك وبعث الى عبد الملك يخبره بما فعل
المسلمين من عدده وبكثرة بما فعلاه من بناء المدينة والجامع وكتب
عبد الملك الى ملك الروم وكان الاسلام في ذلك الوقت ظاهرا
على الروم فانفذ ملك الروم الى عبد الملك من دله على موضع اخرج منه
عمدا لم ير مثلها في الاعتدال والحسن واخرج معها رخاما منشورا وغير
منشور مما في الجامع وفصل عنه ما يقال انه كان في ضيعة من الدارروم
دارروم وغيره ما يقال لها عمودا وكان اكثر ما نال النصارى من ذلك ان
ملك الروم الزمهم نقل العمد والرخام من عمود الى الجامع ومجيء المدينة
الرملة باسم المراة المعروفة كرهها واحسن سليمان اليها والى اهلها.

٢٨٦

الصفحة الأخيرة من ـ مخطوطة ـ أحمد الثالث ـ طوبقبوسراي ـ استانبول رقم ٢٧٩٧/ ٢



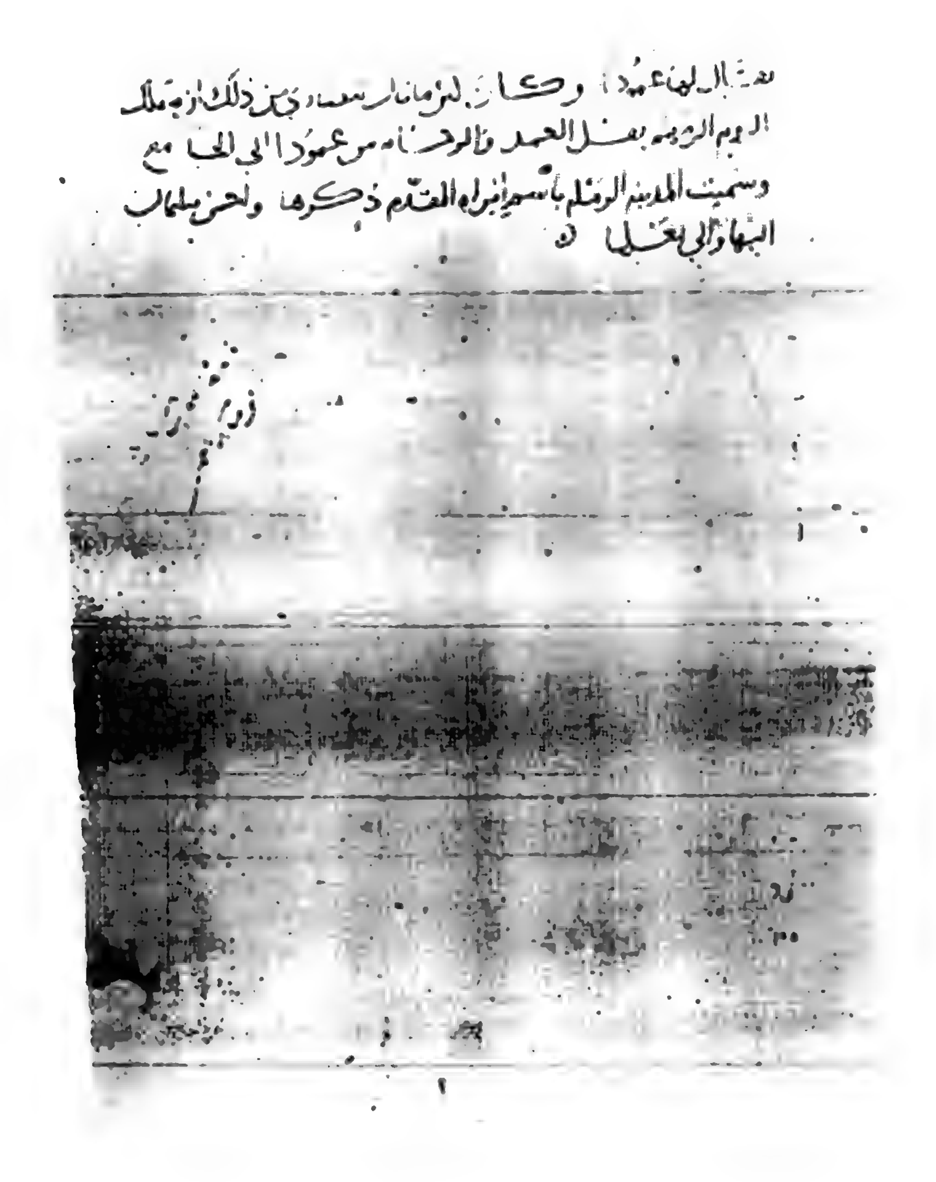
صفحة العنوان من ـ مخطوطة ـ أيا صوفيا ـ مكتبة السليمانية ـ استانبول رقم ٣٤١٨

بسم الله الرحمن الرحيم رب يسر وأعن

[illegible] ممالك الإسلام الواقعة بما بين الحيز المعمور شرقاً وغرباً
[illegible] وشمالاً لا ادعيها [illegible] عن الخران المرطة ولا الى عمائه
[illegible] الا ما [illegible] ولا اخرج شرحه المستعاب وسيأتي بيان ذلك
[illegible] بعد ممالك [illegible] الجنوب مساكن السودان من عباد
النيران والاصنام [illegible] الهند والمصارى [illegible] طراف
الحبشة وعباد الحيات والهمج في سودان المغرب جنوب غانم و[illegible]
[illegible] الشمال من النصارى والهمج بلاد الصقالب في تماسيها الجنوب
[illegible] السماوة بلاد القبجاق وما [illegible] من ذلك الخط من القسطنطينية
[illegible] الى [illegible] والارض الكبيرة وجزائر البحر الرومي وشابه
[illegible] عباد النيران والاصنام [illegible] من
[illegible] واما الغرب [illegible]
[illegible] الشرق والغرب بلاد [illegible]
[illegible] الى [illegible] في ممالك الاسلام والصين [illegible]
[illegible] دعوة الاسلام [illegible] العذر [illegible] الملك
[illegible] ملك الترك [illegible]
[illegible] من ابا جنكز خان وسيأتي ذكره عند
[illegible] جنكز خان [illegible] الاسلام واقعة على ما [illegible]

الصفحة الأولى من ـ مخطوطة ـ أيا صوفيا ـ مكتبة السليمانية ـ استانبول رقم ٣٤١٨

الصفحة ما قبل الأخيرة من ـ مخطوطة ـ أيا صوفيا ـ مكتبة السليمانية ـ استانبول رقم ٣٤١٨



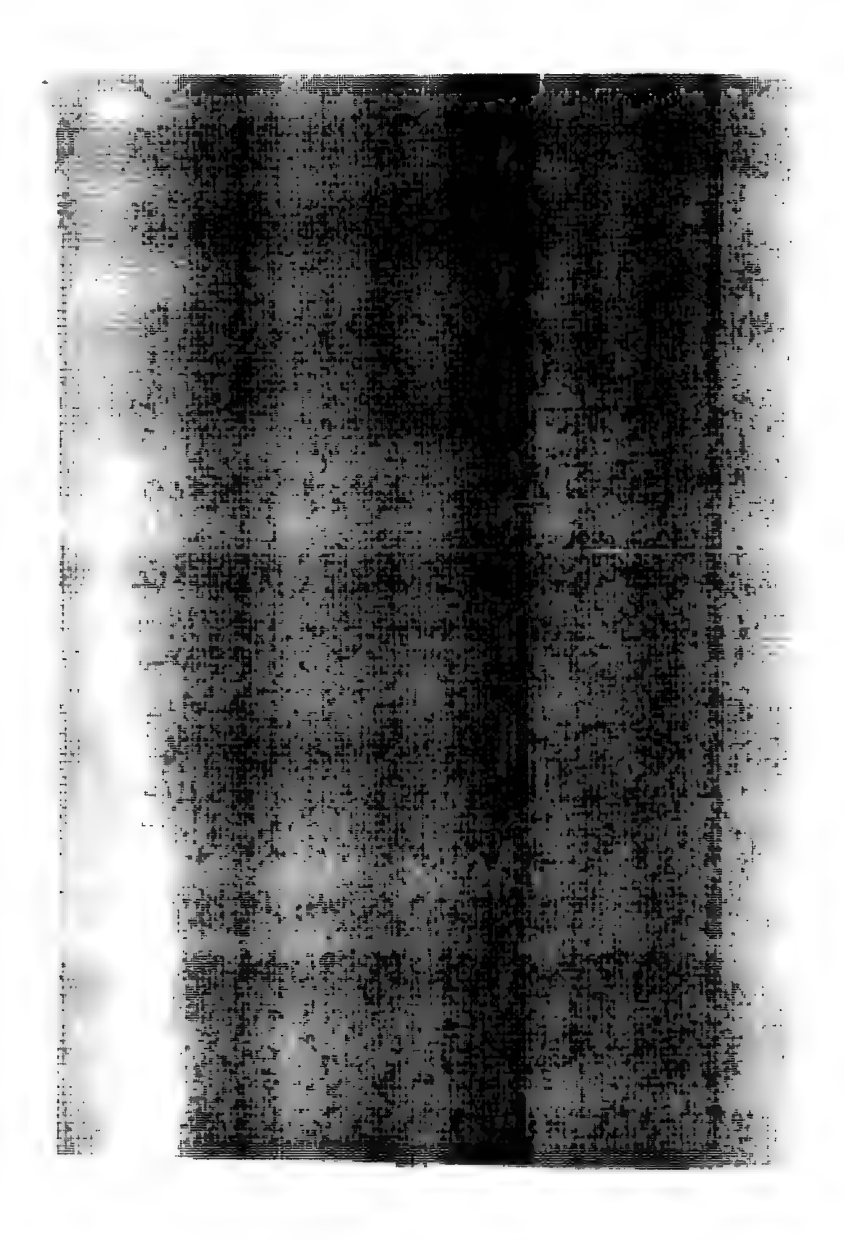
الصفحة الأخيرة من ـ مخطوطة ـ أيا صوفيا ـ مكتبة السليمانية ـ استانبول رقم ٣٤١٨



صفحة العنوان من ـ مخطوطة ـ أحمد الثالث ـ طوبقيوسراي ـ استانبول رقم ٢٧٩٧ مصوّرة مكتبة الجامعة الأمريكية ـ بيروت رقم الفيلم 41. V3. C3



الصفحة الأولى من ـ مخطوطة ـ أحمد الثالث ـ طوبقبوسراي ـ استانبول رقم ٢٧٩٧، مصوّرة مكتبة الجامعة الأمريكية، رقم الفيلم 41. V3. C3

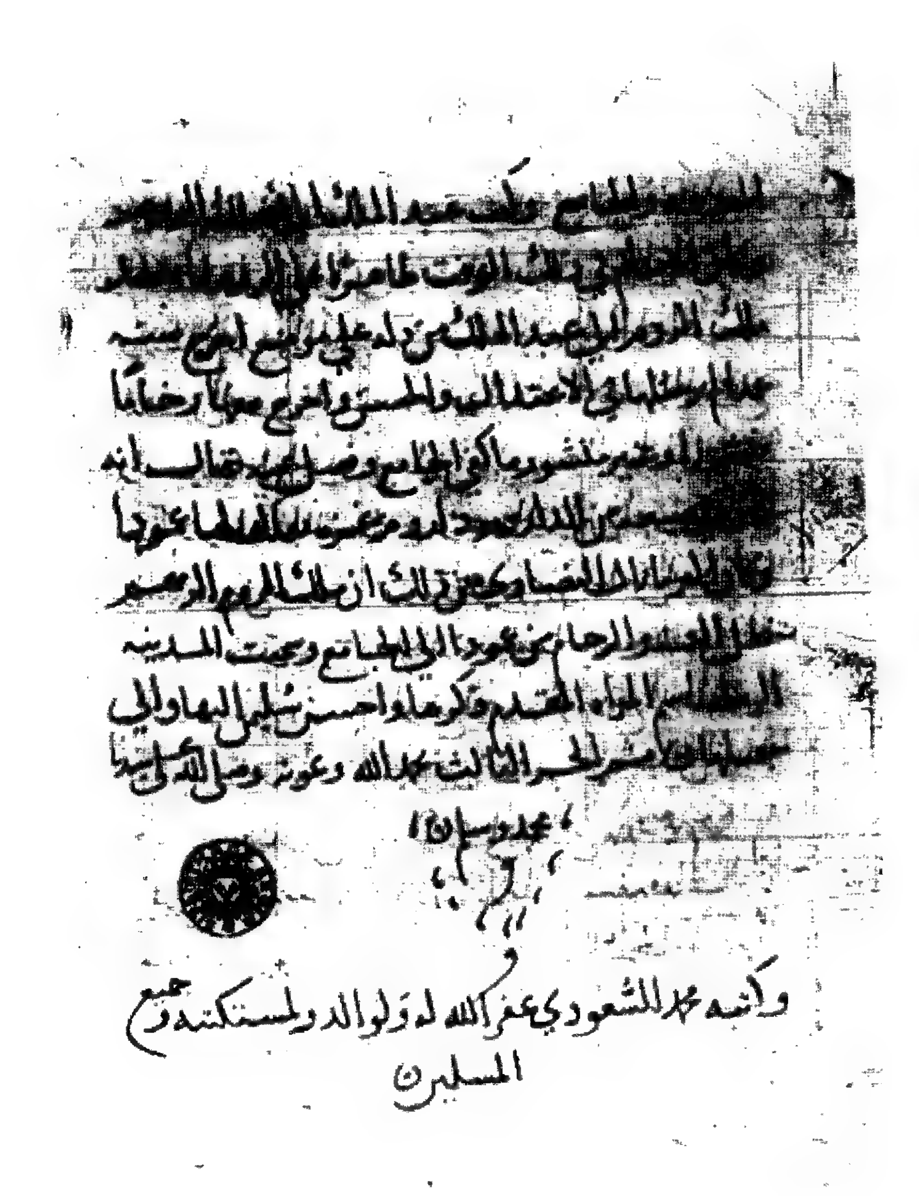


الصفحة الأخيرة من ـ مخطوطة ـ أحمد الثالث ـ طوبقبوسراي ـ استانبول رقم ٢٧٩٧، مصوّرة مكتبة الجامعة الأمريكية، رقم الفيلم 41. V3. C3



صفحة العنوان من ـ مخطوطة ـ باريس ـ المكتبة الوطنية ـ
المخطوطات العربية رقم ٧٥، 2325, A231

الصفحة الأولى من ـ مخطوطة ـ باريس



الصفحة الأخيرة من ـ مخطوطة ـ باريس

مسالك الأبصار
في ممالك الأمصار

لابن فضل الله العمري
شهاب الدين أحمد بن يحيى
المتوفى سنة ٧٤٩ هجرية

أشرف على تحقيق الموسوعة
وحقق هذا السفر
كامل سلمان الجبوري

الجزء الثالث

ممالك الشرق الإسلامي والترك ومصر والشام والحجاز



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

/٢/ النوع الثاني: في ذِكْر مَمَالكِ الإسلام جملة

ممالك الإسلام واقعةٌ بحمد الله في أحسن المعمور شَرْقاً وغَرْباً وجنوباً وشمالاً؛ لأنها لا تنتهي إلى غاية الحرارة المُفْرِطة، ولا غاية البرد المفرط إلاَّ فيما قلّ، ولا تخرج عن حَدِّ المستطاب. وسيأتي بيان ذلك في تحديد كل مملكة.

فغاية معمور الجنوب مساكن السُّودان من عُبَّاد النيران والأصنام بما تغلغل من جزائر الهند وأطرافه، والنَّصَارى بأطراف الحَبَشة، وعبَّاد الحيَّات والهَمَج في سودان المغرب جنوب غانة.

وغاية معمور الشمال من النَّصَارى والهَمَج ببلاد الصَّقْلب في شماليها، أحد قسمي إيران المسمَّاة ببلاد القبْجاق، وما سَامَت ذلك الخط من القُسْطَنْطينية وما وراءها إلى جِلِيقْية والأرض الكبيرة وجزائر البحر الرومي.

وغاية معمور الشَّرق من عبَّاد النيران والأصنام بثالث أقسام تُورَان من بلاد الصين إلى المحيط.

وأما الغرب فانتهى فيه الإسلام إلى البحر المحيط، وكِلاَ طرفي الشرق والغرب بلادٌ صالحة، وإن لم تكن الغاية، فالغرب إلى منتهى الغاية في ممالك الإسلام، والصين ـ وإن كان خارجاً عن دعوة الإسلام ـ فإنه مُلْكٌ عظيمٌ جليلُ القَدْر ضخم المُلْك، وهو معظم تُوَران، ولم يزل لملك التُرْك وبه تخْت قانِهم والآن لقَانهم[1] من أبناء جَنْكِزْخان. وسيأتي ذكره عند ذكر أبناء جنكزخان.

فممالك الإسلام واقعة على ما نذكره:

---

(١) القان: كلمة مغولية، تعني ملك كبير وسلطان عظيم.

فأولها: «الهِنْد والسِّنْد»، وهو واقعٌ في ممالك الإسلام بشرقٍ محضٍ آخذاً في الجنوب على مسامت الصين، يحدُّها البحر من جنوبها وبلاد الكفَّار من شرقها، والإسلام في أحد قسمي توران من شمالها، ثم إحدى قسمي توران مما بيَد الإسلام وهي: تُركُسْتَان، وما وراء النهر، وهي واقعةٌ بشرق محض آخذاً إلى الجنوب، يحدُّها السِّنْد /٣/ من جنوبها، والصين من شرقها، وممالك الإسلام قسمها الثاني وإيران من جنوبها.

ثم القسم الثاني مما بيد الإسلام من «مملكة توران» وهي: خُوَارَزْم وبلاد القَبْجَاق، وهي واقعة في الشمال آخذة إلى المشرق يحدُّها أطراف الصين من شرقها، وبلاد الصَّقْلَب وما يليها من شمالها، أما جنوبها فخُرَاسان وما سَامَتها، وغربها الخليج القاطع من بحر الروم على القِرْم، ووراءها ممالك الإسلام، والروم كلها من ممالك الإسلام.

ثم «إيران»، وهي تلي قسمي توران المذكورين، داخلة كالشِّعْبَة الفارقة بينهما.

وذلك القسمان متشعبٌ عليهما مثل كُمَّي السراويل على سرجه، تحدّها ممالك الإسلام من كل جهة وفي بعض جنوبها ينتهي إلى البحر الفارسي الآخذ على البصرة وما سامتها. وممالك «كَيلان» واللُّرّ والشول وشنكارة والأكراد.

وبلاد «أتراك الروم» كلها في هذا القسم، خلا أن أتراك الروم حدُّهم الشمالي بلاد القسطنطينية.

ثم يليها «مملكة مصر والشام والحجاز»، وتلك عمود الإسلام وفسطاط الدين، يحدُّها ممالك الإسلام من كل جهاتها الأربع منتهية في الجنوب إلى اليمين. واليمن والحجاز كلاهما من جزيرة العرب، على ما يأتي تبيينه، ثم إلى البحر الآخذ على جُدَّة إلى أَيْلَة وينتهي في الشمال إلى البحر الرومي.

ثم «اليمن»، وهو جنوب الحجاز في نهاية جزيرة العرب، يَحُدُّها في جنوبها البحر الآخذ إلى الهند، ومن شرقها البحر الآخذ إلى جُدَّة، ومن شمالها الحجاز، ومن غربها بحر الحَبَشة.

ثم «ممالك الإسلام بالحبشة»، والحبشة متصلة بأطراف الواحات آخذة إلى الجنوب محيط بها بحر الحبشة من شرقها، وممالك نصارى الحَبَش وكفّارهم من جنوبها، وكفّارهم ثم الصحارى القِفَار من غربها، وشمالها الواحات.

ثم «الكَانِم»، وهو على ضِفّة النيل على مَسامتة دُنْقُلَة.

ثم يليها من وراء بَرْقَة «مملكة إفريقية»، يحدُّها من جنوبها كفَّار السودان، وبقية حدودها منتهية إلى ممالك الإسلام، من شمالها البحر الشامي.

ثم «برُّ العَدْوَة» يحدها ممالك الإسلام من جنوبها بلاد البربر.

ثم «مَالي» ومن شمالها بلاد إفريقية /٤/، ومن غربها البحر المحيط، ومن شمالها بحر الزُّقاق إلى البحر الشامي.

ثم «برُّ العَدْوَة» وشرقها القِفَار ثم يليها مَالي وما معها، جنوبها غانة وبلاد كفَّار السودان، وغربها المحيط، وشمالها جبال البربر وبر العدوة، وشرقها القفار.

ثم يليها «جزيرة الأندلس»، وهي نهاية ممالك الإسلام، وليست بجزيرة ولكن كالجزيرة، يحيط بها من جانبها الجنوبي البحر الشامي، ومن غربها وشمالها البحر المحيط، ويبقى شرقها مكشوفاً متّصلاً بالأرض الكبيرة ذات الألسن الكثيرة. فلو مشى ماشٍ من نهاية غرب الأندلس عند مخرج بحر الزُّقَاق في الجانب الشمالي إلى ناحية شرقه انتهى إلى الجبل المسمى بهيكل الزهرة، وهو آخر حدِّ الأندلس وفيه الأبواب المفتوحة، وقد تقدَّم ذكرها. ثم يمشي الماشي من تلك الأبواب إلى أن يخرج من شرقي هذا الجبل ويدخل في الأرض الكبيرة ويمشي فيها إلى حيث شاء إلى الأرض شمالاً وشرقاً وجنوباً لا يقطعه بحر، حتى إنه إذا أراد مشى على ساحل البحر الشامي وما هو متَّصل به حتى ينتهي إلى حجزة، ثم يدور معها عند حجزة ببلاد الشام على شرقه، ثم يدور معه على ساحله الجنوبي حتى يعود إلى نهاية الغرب قُبَالة المكان الذي بدأ منه عند مَخْرَج [بحر] الزُّقاق في الجانب الجنوبي لا يقطعه دون ذلك قاطعٌ ولا يمنعه مانع.

واعلم أن الأمر في تحديد الأقاليم العُرْفية لا يجري في تحديد الدار والبستان ونحوهما؛ لأن غالب الدور والبساتين تكون قِطَعاً مربَّعة أو مثلَّثة أو متسَاوية الجوانب، وليس الأمر في الأقاليم العرفية كذلك فإن بعض جوانبها يكون مُدَاخلاً لإقليم آخر، وبعضها يكون فيه تقويس، وبعض جوانبها أعرض من بعض، والذي يحدِّد المكان إنما يحدده بالجهات الأربع وهي: الشَّرْق، والغَرْب، والجَنُوب، والشَّمال، وذلك لا يصفو في الأقاليم العرفية لما ذكرناه. ولو كانت الأقاليم قِطَعاً مربعة أو متساوية الجوانب لأمكن فيها ذلك، فينبغي أن يُعرف العُذْر في التقصير في تحديدها لاسيما عند منْ لم يشاهدها وإنما /٥/ نَقَلها من الأوراق وأفْوَاه الرجال، فإن عذره في التقصير أوضح. وأيضاً فإن في بعض الأقاليم يكون على شكل مثلَّث كجزيرتي الأندلس وصِقِلِّية، وبعضها يكون ذا خمسة أضلاع وأكثر وأقل فيتعذّر ذكر

ذلك بجهاته الأربع على الصحة.

ومن هذا نَشْرع في ذكر الممالك مملكة مملكة. وهذا الباب هو المراد من هذا الكتاب وبسببه أُلِّف ولأجله صُنِّف. ونحن نأخذ في هذا الباب على التحرير في أكثر ما عَرفنا، والتحقيق لأكثر ما لم نعرف بتكرار السؤال من واحد بعد واحد عما يعْلَمَه من أحوال بلاده وما فيها، وما اشتملت عليه في الغالب نواحيها. وكنت أسأل الرجل عن بلاده ثم أسأل الآخر والآخر لأقف على الحق. فما اتَّفقت عليه أقوالُهم أو تقاربت فيه أثبته، وما اختلَفَت فيه أقوالهم أو اضطربت تركته، ثم إني أترك الرجل المسئول مدَّة أُناسيه فيها عمَّا قال، ثم أعيد عليه السؤال عن بعض ما كنت سألت، فإن ثَبَت على قوله الأول أثْبَتُّ مقالَه، وإن تزلْزل أذهبت في الريح أقواله، كل هذا لأتروَّى في الرواية وأتوثَّق في التصحيح، مع أننا أهل بيتٍ وظيفتهم مَجْمَع وفود، وموضع كل صدور وورود.

ولم نزل عند ملوك مصر والشام، رحِمَ الله من مَضَى منهم وحَفِظ من بقي، بابهم المفتوح لكل طارق، وسحابهم الممنوح به كل جُودٍ دافق، فإلينا في أبوابهم أوّل كل وارد إليهم وآخر كل صادر عنهم. ومنذ نيطت بي التمائم، إلى أن أثبتت عليَّ العمائم، إلى أن صِرْت ركن هذا الباب، وكنَّ هذا السحاب، أسأل كل وارد على باب سلطاننا ـ أعزَّه الله بنصره ـ من جميع الآفاق، ووافد استكنّ تحت جَنَاح لوائه الخفَّاق، وما أخذت مع رسول يصل من ملوك الأرض في مُطَارحة حديث ومراوحة قديم وحديث إلاَّ وجريت باذلاً ذلّ السؤال عن بلادهم وأوضاع ملوكها ووظائف الرَّعَايا في سلوكها، وما للجنود بها وطبقات أرباب الرُّتب العالية من الأرْزَاق، ومقدار تفرقة خزائن الإطلاق، وكيف زي كل أناس، /٦/ وما يمتاز به أهل كل طائفة من اللِّباس على ما يُذكر ذلك إن شاء الله تعالىٰ في مكانه.

وبالله أستعين ومنه أسأل التوفيق، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العَلِيّ العظيم.

* * *

وهذا النوع أربعة عشر باباً

الباب الأول ـ في مملكة الهِنْد والسِّنْد.

الباب الثاني ـ في ممالك بيت جَنْكِزْخَان.

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول ـ في الكلام عليهم جملياً.

الفصل الثاني ـ ففي مملكة القان الكبير، صاحب التخت. وهو صاحب الصين والخَطَا[١].

الفصل الثالث ـ في التورانيين. وهو فرقتان:

الفرقة الأولى ـ فيما وراء النهر،

الفرقة الثانية ـ في خُوَارَزْم والقَبْجَاق.

الفصل الرابع ـ في الإيرانيين.

الباب الثالث ـ في مملكة الجِيل.

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول ـ في بومن.

الفصل الثاني ـ في تُولِيم.

الفصل الثالث ـ في كَسْكَر.

الفصل الرابع ـ في رَشَفْت.

الباب الرابع ـ /٧/ في مملكة الجِبَال.

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول ـ في الأكراد.

الفصل الثاني ـ في اللُّر.

الفصل الثالث ـ في الشُول.

الفصل الرابع ـ في شنكارة.

الباب الخامس ـ في مملكة الأتْرَاك بالروم.

وفيه ستة عشر فصلاً:

الفصل الأول: في مملكة كزمينان.

الفصل الثاني: في مملكة طنغرلو.

الفصل الثالث: في مملكو توازا.

الفصل الرابع: في مملكة عِيدلي.

الفصل الخامس: في مملكة كصطمونية.

---

(١) الخَطا ـ بفتح الخاء ـ هي بلاد الصين الشمالية.

الفصل السادس: في مملكة قاوِيا.

الفصل السابع: في مملكة بُرْشا.

الفصل الثامن: في مملكة أكيرا.

الفصل التاسع: في مملكة مَرْمَرا.

الفصل العاشر: في مملكة مغنيسيا.

الفصل الحادي عشر: في مملكة تيف.

الفصل الثاني عشر: في مملكة بركى.

الفصل الثالث عشر: في مملكة قوكه.

الفصل الرابع عشر: في مملكة أنطاليا.

الفصل الخامس عشر: في مملكة قراصار.

الفصل السادس عشر: في مملكة أَرْمَناك.

/٨/ الباب السادس ـ في مملكة مصر والشام والحجاز.

الباب السابع ـ في مملكة اليَمَن.

وفيه فصلان:

الفصل الأول ـ فيما بيد أولاد رسول.

الفصل الثاني ـ فيما بيد الأشراف.

الباب الثامن ـ في ممالك المسلمين بالحَبَشَة.

وفيه سبعة فصول:

الفصل الأول ـ في أوفات.

الفصل الثاني ـ في دوَارو.

الفصل الثالث ـ في أرابيني.

الفصل الرابع ـ في هَدِيّه.

الفصل الخامس ـ في شرخا.

الفصل السادس ـ في بالي.

الفصل السابع ـ في داره.

الباب التاسع ـ في ممالك مسلمي السودان على ضفة النيل الممتد إلى مصر.

وفيه فصلان:

الفصل الأول ـ في الكانم.
الفصل الثاني ـ في النُّوبة.
الباب العاشر ـ في مملكة مَالِي.
الباب الحادي عشر ـ في مملكة جبال البَرْبَر.
الباب الثاني عشر ـ في مملكة إفرِيقيَّة.
الباب الثالث عشر /٩/ ـ في مملكة برّ العَدْوَة.
الباب الرابع عشر ـ في مملكة الأَنْدَلُس.
[الباب الخامس عشر ـ في ذكر العرب الموجودين في زماننا وأماكنهم، ومضارب أخبيتهم ومساكنهم].

* * *

الباب الأول: في مملكة الهِنْد والسِّنْد

في مملكة الهِنْد والسِّنْد

هذه مملكة عظيمة الشأن، لا يُقاس في الأرض بمملكة سِواها، لاتساع أقطارها، وكثرة أموالها وعساكرها، وأُبَهَّةِ سلطانها في ركُوبه، ونزوله، ودَسْتِ[1] ملكه، وفي صيتها وسمعتها كفاية.

ولقد كنت أسمع من الأخبار الطائحة، والكتب المصنَّفة ما يملأُ العين والسَّمع، وكنت لا أقف على حقيقة أخبارها، لبُعدها مِنَّا، وتنَائِي ديارها عَنَّا، فلما شَرَعْتُ في تأليف هذا الكتاب، وتتبعت ثقات الرواة، وجدت أكثر مما كنت أَسْمَع، وأَجَلَّ مما كنت أظن، وحسبك ببلادٍ في بحرها الدُّرُّ[2]، وفي بَرِّها الذَّهَبُ، وفي جبالها الياقوتُ[3] والماسُ[4]، وفي شعابها العُودُ[5] والكافُورُ[6]، وفي مدنها أَسِرَّةُ الملوكِ، ومن

---

(١) دَسْت الملك: أي العرش، أو الكرسي. أو الأريكة التي يجلس عليها الملك. «تكملة المعاجم ٤/ ٣٤٩».

(٢) الدرّ: اللؤلؤ العظيم الكبير واحدته دُرّة»، وجاء في «الموسوعة العربية الميسرة» (٧٧٨) «الأحجار الكريمة، وهي مواد معدنية وأحياناً عضوية تستعمل في أغراض الزينة، تتصف بالجماد وقدرة الاحتمال والندرة، لها خصائص ضوئية ذات بريق وتوهج. «المصباح المنير ١/ ٢٠٥».

(٣) الياقوت: حَجَرٌ ذهبي يكثر في جبل (الرَّاهون) في إحدى الجزر الواقعة خلف (سَرَنْدِيب)، تُحْدِرُه الرياحُ والسيولُ، فليتقطه الناسُ، ومن ألوانه: الأحمر، والوردي، والأصفر، والأبيض، ومن خواصِّه، قَطْع كُلِّ الأحجار مثل الماس... «الصبح ٢/ ١٠١ - ١٠٣».

(٤) الماس: «ويتكون من معدن الياقوت، تُخْرِجُه السُّيولُ، والرياحُ من معدنه، وهو نوعان: بلَّوْري شديد البياض، زُجاجَيٌّ يخالط بياضَه صُفْرَةٌ. يقطع الحجرَ، ويمحو النقوشَ التي بجميع الأحجار. «الصبح ٢/ ١٠٦ - ١٠٧».

(٥) العُودُ: شجرٌ عظيمٌ، ينبت ببلاد الهند، وربما طُلب من قشْمير، وسَرَنْديب، وقمار. لا تصير له رائحة إلا بعد أنْ يَعْتقُ ويُبَخر، ويُقَشَّر، يستخرج من قلب الشجر. وعند قطع شجره، يدفن فتأكل الأرضُ الخَشَبَ ويبقى العود لا تؤثر فيه الأرض. ويُقال أن الأشجار العود في جبال شاهِقة لا يوصل إليها، فتنكسر بعضُ أشجارِه، وتأكل الأرض ما فيه من خشب ويبقى أصل العود الخالص فتجرّه السيول إلى البحر ويقذف به إلى الساحل فيلتقطه الناس، أجوده ما كان صلباً رَزينا ظاهر الرطوبة، كثير المائية والدُّهنية، الذي له صبر على النار، وغليان، وبقاء في الثياب، وأفضل ألوانه الأسود، والأزرق، =

وحوشها، الفيل والكركدن[١]، ومن حديدها سيوف الهند[٢]، وبها معادن الحديد والزئبق[٣] والرصاص، ومن بعض منابتها الزَّعفران، وفي بعض أوديتها البِلَّوْر[٤]. خيراتها موفورة، وأسعارها رَخِيَّة وعساكرها لا تُعَدّ، وممالكها لا تُحَد، لأهلها الحكمة، ووفور العقل. أملك الأُمم لشهواتهم، وأَبذلهم للنفوس فيما يُظَنُّ به الزُّلْفى.

قال محمد بن عبد الرحيم الإقليشي الغرناطي[٥] في تحفة الألباب: «والمُلْك

= الذي لا بياض فيه. «نهاية الأرب ١٢/ ٢٣ـ ٢٥، صبح الأعشى ٢/ ١٢٥ـ ١٢٦».

(٦) الكافُور: أشرف الصُّمُوغ قَدْراً، وأحقها بالتقديم، لفضله في التركيب، ودخوله في أصناف الأدوية والطيب، ويقال فيه (القافور) بالقاف بدل الكاف، ينبت شجرُهُ في سفوح الجبال، كما جاء في «نهاية الأرب» أيضاً عدد من الطرق في كيفية جمعه؛ منها أن يُحْدث شَقٌّ في الشجرة، ويُجْمع ما ينزل من سائل صمغي في إناء، وقيل إنه يوجد بين لحاء الشجرة وعودها مثل الصمغ صغاراً، وكباراً، وقيل إنه يوجد في قلب العود بعد الخشب منظماً مثل الملح فيُقْلع منه، وهو عدة أصناف. «نهاية الأرب ١١/ ٢٩٢ـ ٢٩٥ و٥٢٩ـ ٥٣٠».

وجاء في «إحياء التذكرة ٥٢٩ـ ٥٣٠» أن أصل شجر الكافور من الصين واليابان يبلغ ارتفاعه عادة من عشرة إلى خمسة عشر متراً، وربما يزيد يُزْرع للزينة، وَطَرْدِ الذباب.

وللمزيد من التفصيل انظر: «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤/ ٤٢ـ ٤٤».

(١) الكركدن: يكثر في بلاد الهند، ويُسَمَّى الحمار الهندي، له قرن واحدة في جبهته، مُحَدَّد الرأس إلا أنه ليس بالطويل «الصبح ٢/ ٣٥، نزهة المشتاق ٢/ ١٤٠».

(٢) سيوف الهند: تنسب إلى الهند لأنها تصنع فيها، ويقال: سيف مُهَنَّد. «الصبح ٢/ ١٤٠».

(٣) الزئبق: سيال معدني، منه ما يُسْتقى من معدنه، ومنه ما يُستْخرج من حجارة معدنية بالنار، معرَّب (زيوه) بالفارسية، والعامة تقول له: (الزِّيْبَق) وأصحاب الكيمياء المعدنية يُكَنُّونَ عنه بالعبد الفَرَّار لأنه يفر من النار، ويستخدمونه في أكثر الأعمال «محيط المحيط ٢٦٤».

كما جاء في «المعجم الوسيط ١/ ٣٨٧» أنه «عنصر فِلْزِيٌّ سائل في درجة الحرارة العادية».

(٤) البِلَّوْر: حجر بُورَقِيٌّ وأصل اليقوتية، إلا أنه قعدت به أعراضٌ عن رتبة الياقوت، اختلف في نفاسته يوجد في أماكن برية من أرض الحجاز، وهو أجوده، وما يأتي من الصين دونه، أما ما يأتي من بلاد الفرنج، فهو غاية الجودة. أجوده أصفاه، وأنقاه، وأَشَفُّه، وأبيضه وأسْلمه من التشعير، يذوب في النار، كما يذوب الزجاج، يقبل الصبغ، وإذا استقبل به الشمس ووجِّه موضع الشعاع الذي يخرج منه إلى خرقة سوداء احترقت، واشتعلت فيها النار «الصبح» (٢/ ١١٣ـ ١١٤).

(٥) محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن الربيع، أبو عبد الله، وأبو حامد المازني القيسي الأندلسي الغرناطي، عالم أديب حافظ رحالة، ولد بغرناطة سنة ٤٧٣هـ/ ١٠٨٠م، رحل إلى الإسكندرية، وحدَّث في دمشق، وسمع في بغداد، دخل خراسان، ثم رجع إلى الشام، وأقام في حلب، وتوفي في دمشق ٥٦٥هـ/ ١١٦٩م. له كتب منها: «تحفة الألباب ونخبة الإعجاب» نشره المستشرق الفرنسي جبرييل فران في المجلة الآسيوية، و«نُخْبة الأذهان في عجائب البلدان» و«عجائب المخلوقات» و«المُعْرِب عن عجائب المغرب».

ترجمته في: الوافي بالوفيات ٣/ ٢٤٥ـ ٢٤٦ وتاريخ آداب اللغة العربية ٣/ ٩٠ ومعجم المطبوعات ٢٩٩، والأعلام ٦/ ١٩٩ـ ٢٠٠.

العظيم، والعدل الكبير، والنعمة الجزيلة، والسياسة الحسنة، والرخاء الدائم، والأمن الذي لا خوف معه، في بلاد الهند والصين. وأهل الهند أعلم الناس بأنواع: الحكمة، والطب، والهندسة، والصناعات العجيبة، التي لا يُقْدَر على مثلها.

وفي جبالهم وجزائرهم ينبت شجر العُود والكافُور، وجميع أنواع الطيب: كالقَرَنْفَل(١) وجَوْز بُوا(٢)، والسُّنْبل(٣)، والدَّار صِينِي(٤) والقِرْفة(٥)، والسَّليخة(٦)، والقَاقُلَّة(٧)، والكَبابة(٨)، والبَسْبَاسة(٩)، وأنواع العقاقير، /١٠/ وعندهم غزال

---

(١) القَرَنْفَل: أَجْوَده القويُّ اليابس، الجاف الذَّكي، ومنه الزَّهْر، ومنه الثَّمر، والزَّهْر منه ما صَفُر، والثمر منه ما غَلُظ، وهو شجر عِظام يشبه شجر الدر، يجلب من بلاد سفالة الهند، وأقاصيها، وله بالمواضع التي هو بها روائح ذكية ساطعة الطيب جداً، حتى أنهم يسمون أماكن القرنفل بريح الجنة. «كتاب البلدان ١٢١ـ ١٢٢، ونهاية الأرب ١٢/ ٤٥ـ ٤٦».

(٢) جَوْز بُوا: هو جوز الطيب، شجر كبير دائم الخضرة، يوجد في جزر الهند والملايو، وسيلان، سهل الكسر، رقيق القشرة، طيب الرائحة أجوده أشده حمرة، وأدسمه وأرْزَنَه. وأدناه أشده سواداً وأخفه وأيبسه، «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ١/ ١٧٥، إحياء التذكرة ٢٢٧ـ ٢٢٨».

(٣) السُّنْبُل: الناردين، وهو إما هندي إلى السواد طيب الرائحة، أو رومي ويُسمى «الإقليطي» يشبه الهندي في رائحته وأفعاله ولكنه أضعف، وسنبل الجبل المشهور بسنبل الأسد، وهو المر، ويوجد منه عشرة أنواع، وهي نباتات عطرية أشهرها عند العطارين السنبل الهندي وسوقه العطرية رائجة، ثم الرومي، ثم الخزامي، ويقال إن الأدوية التي تنبت فيها شجرة السنبل تكثر فيها الأفاعي، «كتاب البلدان ١٢١، المخصص ٣/ ١١/ ١٩٧، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٣/ ٣٦ـ ٤٠، نهاية الأرب ١٢/ ٤٣، والصبح ٢/ ١٢٠، إحياء التذكرة ٣٧٣ـ ٣٧٦».

(٤) الدَّارصِينِي: معناه بالفارسية شجرة الصين، ومنه الصيني، ومنه المعروف بالدارصوص، ومنه المعروف بالقرفة، وهي قرفة القرنفل، والدارصيني جسمه أضخم، وأثخن، وأكثر تخلخلاً من القرفة، وهو إلى القرفة أقرب لأنَّ حمرته أقوى من سواده وأظهر، حريف الطعم، «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٢/ ٨٣ـ ٨٥، إحياء التذكرة ٢٩٢».

(٥) القِرْفة: منها غليظ، ومنها رقيق، وكلاهما أحمر وأملس مائل إلى الحلو، فيه قليلاً، وظاهره خشن أحمر اللون إلى البياض قليلاً، رائحتها ذكية عَطِرَة، وفي طعمها حِدَّة، وحرافة مع حلاوة يسيرة. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٨٣».

(٦) السَّليخة: نباتٌ عِطْريٌّ، كأنه قشر منسلخ، تسمى باليونانية (كاسيا أروماتيكم) وأنواعها كثيرة، وهي متشابهة، ولا تختلف إلا قليلا حسب النَّبْت، واسمها العطاري (قرفة الصين)، وهي من نفس فصيلة القرفة العادية، وهي أضعف من القرفة العادية، في قوة زيتها، وقشورها أغلظ، «إحياء التذكرة ٣٥٩».

(٧) القَاقُلّة: نوع من الأفاوية العطرية، وهو صنفان: كبير، وصغير؛ والكبير حَبُّ أكبر من النَّبق بقليل له أقماع، وقشر، وفي داخله حب صغير مربع طيب الرائحة، ذو دَسَم أَغْبر يؤتى به من اليمن، والهند، وهو ذو طعم حريف. أما الصغير فليس له أقماع ولا قشر وطعمه أكثر حرافة، وأقل قبضاً. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤/ ٢».

(٨) الكبابة: هو حب العروس: مثل الفلفل، لونها أصهب، منها كبير، ومنها صغير، «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤/ ٤٨».

(٩) البَسْبَاسة: هي، قشور جوز بوا الذي يكون فوق القشرة الغليظة، وهي لباسه، وقشره الغليظ لا يصلح =

المسك[١]، وقِطُّ الزَّباد[٢]، ويخرج من بلادهم، أنواع اليواقيت، وأكثرها من جزيرة سَرَنديب»[٣].

وقد حكى ابن عبد ربه[٤]، في العقد[٥]، عن نُعيم بن حَمَّاد[٦]، قال: بعث

= لشيء، وثمره يصلح للطيب، وأجودها، الحمراء، وأدناه السوداء «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ١/ ٩٣».

(١) في تحفة الألباب ٤٨ـ ٤٩: «حيوان المسك الفائق، وهو حيوان كالغزال، يجمع المسك في سرته» وجاء في «مروج الذهب ١/ ١٧٩ـ ١٨٠»، و«نهاية الأرب ١٢/ ٣ـ ٦»، و«صبح الأعشى ٢/ ١١٩»، أن أصل المسك من دابة ذات أربع أشبه بالظَّبْي الصغير، توجد في مفازات الصين، وبين التبت والصُّغْد من بلاد الترك تصاد، وتؤخذ سررها بما عليها من شعر، والمسك فيه دم عبيط.

(٢) في تحفة الألباب ٤٩: وعندهم حيوان الزباد، وهو نوع من الطيب، وذلك الحيوان كالسّنور يُحْمل إلى بلد المغرب، وذلك عرق يؤخذ من ذلك الحيوان كالقِطْران الأسود ثخيناً يسيل من جسده، وتزيد رائحته بالمغرب بحيث يكون أذكى من المسك.

(٣) سَرَنْديب: دِيبٌ بلغة أهل الهند، جزيرة في بحر (هركند) بأقصى بلاد الهند، فيها جبل (الرَّهون)، هبط عليه آدم عليه السلام. «معجم البلدان ٣/ ٢١٥ـ ٢١٦» كما يُطلق عليها أيضاً اسم (سنكلديب) «كتاب البيروني» (٢٦٨» راجع أيضاً «نزهة المشتاق ٧ـ ١٢»، وهي التي يطلق عليها اليوم، جمهورية سريلانكا «جغرافية القارات ٢٩٣».

(٤) أحمد بن محمد بن عبد ربه بن حبيب بن حُدَير بن سالم الأندلسي، أبو عمر: الفقيه، الأديب الإمام صاحب العقد الفريد. من أهل قرطبة ولد سنة ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م. كان جده الأعلى (سالم) مولى لهشام بن عبد الرحمن بن معاوية. وكان ابن عبد ربه شاعراً مذكوراً فغلب عليه الاشتغال في أخبار الأدب وجمعها. له شعر كثير، منه ما سماه «الممحَّصات» وهي قصائد ومقاطيع في المواعظ والزهد، نقض بها كل ما قاله في صباه من الغزل والنسيب. وكانت له في عصره شهرة ذائعة. وهو أحد الذين أثروا بأدبهم بعد الفقر. أما كتابه «العقد الفريد ـ ط» فمن أشهر كتب الأدب. سماه «العقد» وأضاف النُّساخ المتأخرون لفظ «الفريد». وقد طُبع ديوانه «خمس قصائد» وأصيب بالفالج قبل وفاته بأيام. توفي سنة ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م. ولجبرائيل سليمان جبور اللبناني كتاب سماه «ابن عبد ربه وعقده ـ ط» ولفؤاد أفرام البستاني «ابن عبد ربه ـ ط».

ترجمته في: جذوة المقتبس ١٠١ـ ١٠٤ رقم ١٧٢، تاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي. وبغية الملتمس ١٣٧ وابن خلكان ١/ ٣٢، وسير أعلام النبلاء / ٢٨٣ رقم ١٢٦، وفيه أن الذي كان مولى لهشام هو جده جدير بن سالم. والبداية والنهاية ١١/ ١٩٣ ومجلة المجمع ١٥/ ٤٨٨ وبروكلمان في دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٢٢٣ ويتيمة الدهر ١/ ٣٦٠ـ ٤١٢، الأعلام ١/ ٢٠٧، معجم الشعراء للجبوري ١/ ٢٠١.

(٥) هذا النص في كتاب الحيوان للجاحظ.

(٦) نُعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث بن هَمّام بن سلمة بن مالك، الإمام الحافظ، أبو عبد الله الخزاعي، المَرْوَزي، الفَرَضي، الأعور صاحب التصانيف، أول من جمع المسند في الحديث، وأعلم الناس بعلم الفرائض، من أهل مرو، طلب الحديث في العراق، والحجاز، ثم نزل مصر، وبقي بها حتى أُشخص إلى العراق في خلافة الواثق بالله بن المعتصم (٢٢٧ـ ٢٣٢هـ/ ٨٤١ـ ٨٤٦م)، =

ملك الهند إلى عمر بن عبد العزيز، كتاباً فيه:

«من ملك الأملاك الذي هو ابن ألف ملك، وتحته بنت ألف ملك، وفي مربطه ألف فيل، وله نهران ينبتان العود، والأَلُوَّة[١]، والجوز[٢] والكافور، والذي يوجد ريحه على اثني عشر ميلاً، إلى ملك العرب، الذي لا يشرك بالله شيئاً.

أما بعد: فإني بعثت بهدية، وما هي هدية، ولكنها تحية، وقد أحببت أن تبعث إليَّ رجلاً يعلمني ويفهمني الإسلام والسلام». يعني بالهدية، الكتاب.

حدثني الشيخ، العارف، المبارك، بقية السلف الكرام، مبارك بن محمود الإنبايتي[٣]، من ولد مجد شاذان، حاجب خاصي[٤]، نفع الله ببركاته، وهو الثقة الثبت، وله الاطلاع على ما يحكيه، لمكانته، ومكانة أسلافه، من ملوك هذه البلاد. قال: إن هذه المملكة متسعة غاية الاتساع، يكون طولها ثلاث سنين بالسير المعتاد، وعرضها ثلاث سنين، وعرضها ما بين سَومَنَات[٥]، وسَرَنْديب، إلى غزنة[٦]، وطولها

= وامتُحن بالقول بخلق القرآن، فلما رفض حُبس في سامراء، ولم يزل محبوساً حتى توفي في السجن يوم الأحد لثلاثة عشرة ليلة خلت من جمادى الأولى سنة (٢٢٨هـ/ ٨٤٢م)، وقيل سنة (٢٢٩هـ/ ٨٤٣م).

من كتبه: «الفتن والملاحم ـ خ» من نسخة في جامعة الرياض برقم ٢١٦.

ترجمته في: طبقات ابن سعد ٧/ ١٩٩، والتاريخ الكبير ٨/ ١٠٠، وتاريخ بغداد ١٣/ ٣٠٦ـ ٣١٤، وسير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٩٥ـ ٦١٢، تهذيب التهذيب ١٠/ ٤٥٨ـ ٤٦٣، وحسن المحاضرة ١/ ٣٤٧، ميزان الاعتدال ٣/ ٢٣٨، مناقب الأمام أحمد ٣٩٧، هدية العارفين ٢/ ٤٩٧، الأعلام ٨/ ٤٠.

(١) الأَلُوَّة: نوع من الشجر، إذا أُحرقت أعواده ظهرت منها رائحة جميلة، وهو من الفصيلة «المارزيونية» وفصيلة «الألنجوجية» يخلط بفصيلة القرينة، ويسمى «العود الهندي»، أو «النَّد». «المعجم الوسيط ٢/ ٨٤٨».

(٢) الجوز: لعله (جوز الهند)، وهو النارجيل.

(٣) هكذا وردت أيضاً في «الوافي بالوفيات ٣/ ١٧٣»، أما في «الصبح ٥/ ٦٢» (الإنباتي)، وجاء فيه (٥/ ٧١)، أن إنباتي، نسبة إلى أَنبايت، وهي مدينة على ساحل بحر الهند، جاء في «الوافي بالوفيات ٣/ ١٧٣»، أنه من كبار دولة (محمد تغلق شاه)، ثم تزهَّد، ولعله هو الذي ترجم له (الحسيني) في «نزهة الخواطر ٢/ ١١٩» وقال عنه: «الشيخ الصالح مبارك ابن القاضي كريم الدين بن برهان الدين العمري البلخي، ثم الكوباموى، أحد الرجال المعروفين بالصلاح والفضل، قدم الهند، وتقرب إلى الملوك، فجعلوه ميرداد، بدار الملك بدهلي، وتلك رتبة سامية دون الوزارة، فاشتغل بها زمنا، ثم لازم الشيخ (نظام الدين محمد بن أحمد البدايوني)، وأخذ عنه الطريقة، ورفض الدنيا وأسبابها.

(٤) حاجب خاصي: أي الحاجب الخاص.

(٥) سُومَنَات: من أشهر مدن إقليم (كجرات)، وهي بلدة كبيرة على ساحل البحر، بها كنيسة عظيمة، فتحها محمود الغزنوي، وكسر صنمها، «نزهة الخواطر ٩/ ١١٣».

(٦) غزنة: في معجم البلدان ٤/ ٢٠١»: أن صحة لفظها عند العلماء «غَزْنين»، ويعرِّبونها فيقولون: =

من الفُرْضَة[١] المقابلة لعدن، إلى سدّ الإسكندر[٢] عند مخرج البحر الهندي من البحر المحيط، متصلة المدن ذوات المنابر، والأَسِرَّة[٣] والأعمال، والقُرَى، والضِّيَاع[٤]، والرَّساتيق[٥] لا يقطع بينها، ولا يفصل بينهما خراب.

قلت: وفيما ذكره من هذه المسافة، طولاً، وعرضاً - نظر - إذْ لا تفي جميع المعمورة بهذه المسافة، اللهم إلا إن كان مراده أَنَّ هذه مسافة من ينتقل فيها حتى يحيط بجميعها، مكاناً، فيحتمل على ما فيه. قال: وفي طاعة هذا السلطان[٦]، أهل بلاد قَرَاجِل[٧] لهم منه هدنة وأمان، على قطائع[٨] تُحْمل إليه منهم يُتَحَصَّل منها مال. وهذا جبل قَرَاجل به سبعة معادن ذهباً يَحْصل منها ما لا يُحْصى، وجميع هذه البلاد

= «جَزْنة»، وهي تطلق على مجموع بلاد «زابلستان» «وغزنة» قصبتها وهي الحدّ الفاصل بين خراسان والهند، بردها شديد، نُسب إليها عدد من العلماء، اتخذها محمود بن سبكتكين عاصمة لدولته، وكذلك أبناؤه من بعده. يذكر «كي لسترنج» في «بلدان الخلافة الشرقية» (٣٨٧)، أَنَّ غَزْنَة اشتهرت في خِتام المئة الرابعة للهجرة ومطلع المئة الحادية عشرة للميلاد، عندما أَصْبحت عاصمة للغزنويين، جدد بناءها محمود الغزنوي سنة (٥٤٤هـ/ ١١٤٩م).

(١) الفُرْضَة: الفرائضُ مواضع، فقد يجوز أنْ يعني الموضع نفسه، وقد يجوز أن يعني القصور يشبهها بمشارع المياه. «لسان العرب ٩/ ٧١».

(٢) سدَ الإسكندر: هو الإسكندر ذي القرنين وهو الذي بنى سداً بين القوم الذين استنجدوا به، وبين يأجوج، ومأجوج، الذين أفسدوا في الأرض، كما قَصَّ ذلك القرآن الكريم في «سورة الكهف: الآيات ٩٣ـ ٩٨». راجع ما جاء في «كتاب أحسن التقاسيم ٣٦٢ـ ٣٦٥».

(٣) الأسِرّة: أَرْضٌ سِرٌّ كريمة طيبة، وقيل هي أطيب موضع فيه «لسان العرب ٦/ ٢٣».

(٤) الضِّيَاع: جمع (ضَيْعة) ومعناها مال الرجل من النَّخْل، والكَرْم، والأرض، كما تأتي بمعنى الأرض المُغِلَّة، وتأتي أيضاً بمعنى العقار. «لسان العرب ١٠/ ١٠٠، المصباح المنير ٢/ ١٢».

(٥) الرّساتيق: (الرُّزداق)، و(الرُّسْتاق)، واحدٌ، فارسي مُعَرَّب، ألحقوه «بقرطاس»، ويقال: (رُزْداق)، و(رستاق)، والجمع (الرَّساتيق)، وهي السَّواد، قال ابن السكيت: (رسداق) و(رزداق)، ولا تقل: (رستاق)، ومعناه بيوت مجتمعة. «لسان العرب ١١/ ٤٠٦ـ ٤٠٧».

(٦) أي (محمد تغلق شاه) أو طغلق شاه.

(٧) قَرَاجِل: جاء في رحلة ابن بطوطة ٤٨٣: أن بها جبلٌ يقال له (جبل قَرَاجل) كبير يتصل بمسيرة ثلاثة أشهر، بينه وبين دِهْلي مسيرة عشرة أيام، وسلطانه من أكبر سلاطين الكفار. كما جاء في «الوافي بالوفيات» (٣/ ١٧٣) أنه جبل يقارب المحيط الشرقي، وهي (أي بلاد قراجل) بلاد كفَّار، فيها معادن الذهب، وللسلطان (محمد تغلق شاه) أتاوة جزيلة عليها.

(٨) قطائع: الإقطاع، هو أنْ يُقْطِع لنفسه، أو لغيره أرضاً، أو أي نوع من المال الثابت، أو المنقول مما يجوز فيه تصرفه وتنفذ فيه أوامره، وهو نوعان: إقطاع تمليك، وإقطاع استغلال، وتُسمى الأرضون (قطائع)، واحدتها (قطيعة)، وقد يُطلق الإقطاع أحياناً على الضريبة، كما حدث في العهد الأيوبي. «الأحكام السلطانية ١٩٠، مفاتيح العلوم ٥٦، النظم الإقطاعية ٤٧٢».

بَراً وبحراً مجموعة لسلطانها القائم الآن. إلا الجزائر المغلقة في البحر، فأما الساحل، فلم يبق به قيد فِتْر إلا بيده فتح مَغَالِقِه، /١١/ ومُلْك معاقله، وله الآن السِّكة والخطبة في جميع هذه البلاد، لا يشاركه فيها مشارك. قال: ولقد حضرت معه من الفتوحات العظيمة، ما أقوله عن المشاهدة والعِيَان على الجملة، لا على التفصيل، خوفاً من إطالة الشرح. فأول ما فتح مملكة «تِلِنك»[١]، وهي واسعة البلاد، كثيرة القرى، عِدَّة قراها تسع مائة الف قرية وتسعمائة قرية، ثم فتح بلاد «جَاجْنكز»، وبها سبعون مدينة جليلة كلها بَنَادر[٢] دخلها من الجواهر[٣]، والفيلة، والقماش المنوّع، والطِّيب، والأَفَاوِيه[٤]. ثم فتح بلاد «لكنوتي»، وهي كرسي تسعة ملوك، ثم فتح بلاد «دَوَاكير»[٥]، ولها أربع وثمانون قلعة، كلها جليلات المقدار.

قال الشيخ برهان الدين أبو بكر بن الخلال البزي[٦]: وبها ألف ألف قرية ومائتا ألف قرية.

عدنا إلى حديث الشيخ مبارك. قال الشيخ مبارك: (ثم فتح بلاد «دَوْرسَمند»[٧]، وكان بها السلطان «بلال الدَّيو» [وخمسة] ملوك كفار، ثم فتح بلاك «المَعْبَر»[٨]، وهو

---

(١) تِلِنْك: ذكر ابن بطوطة: في رحلته ٤٣٨: أنها على مسيرة ثلاثة أشهر من (دهلي) وقد وجه إليها السلطان (محمد تغلق شاه) عندما استقر في السلطة. ابنه في عسكر عظيم، فيه كبار الأمراء، مثل الملك (تَمُور)، والملك (تكين)، والملك (كافور)، و(المهردار)، والملك (بَيْرَم)، وغيرهم.

(٢) بَنَادِر: البَنْدَر، مرسى السفينة في الميناء، وقيل هو الميناء، وقيل المدن البحرية، وقيل مقر التجار من المدن وقيل هو البلد الكبير الذي تتبعه بعض القرى. «القاموس المحيط ١/ ٣٩١، محيط المحيط ٥٥، والمعجم الوسيط ١/ ٧١».

(٣) نص الصبح: (٥/ ٨٩)، «دخلها من الجوهر، والقماش النوع، والطيب، والأفاويه».

(٤) الأَفَاوِيه: الفُوه: الطيب، والجمع أَفْوَاه، مثل قُفْل وأَقْفَال، وأَفَاوِيه جمع الجمع. ويقال لما يُعالج به الطعام من التوابل، أفواه الطيب. «المصباح المنير ٢/ ١٤١».

(٥) في «الصبح ٥/ ٨٩» زيادة (ويقال لها دَكِير)، كما جاء في «الصبح» (٥/ ٧٠)، أنها مدينة، ذات إقليم متسع، وهي مدينة قديمة جدَّدَها السلطان (محمد تغلق شاه)، وسمَّاها قبة الإسلام، وفارقها، ولم تتكامل بعد.

(٦) وردت في الأصل: «البيزي» وما صوبناه من المراجع الأخرى منها «الصبح» (٥/ ٨٩) نصها «البزي» وفي موضع آخر من «الصبح ٥/ ٦٩»: (برهان الدين بن الخلال البزِّي، الكوفي).

(٧) كما يقال لها (بَسمد) أو (قَسْمَد) وهي مدينة خصبة تقع إلى الشرق من نهر (مِهْران)، (السند) حالياً، على بُعد فرسخ، وقيل نصف فرسخ «المسالك والممالك للاصطخري ١٠٤، صورة الأرض ٢٧٦-٢٧٩، موسوعة السند والبنجاب ٢/ ٢٨٧».

(٨) المَعْبَر: جاء في تقويم البلدان ٣٦١»: «وفيها يُجلب اللانس، وبقصارتها يُضرب المثل، وفي شماليها جبال متصلة ببلاد (بلهرا) ملك ملوك الهند، وفي غربيها يصب نهر (الصوليان) في البحر».

إقليم جليل له تسعون مدينة بَنَادر على البحر يجيء من دخلها: الطيب، واللانس، والقماش المنوع، ولطائف الآفاق).

وحدثني الفقيه العلامة سراج الدين أبو الصفا عمر بن إسحاق بن أحمد الشِّبْلي العِوَضي[١]، من إقليم عِوَض، من الهند، وهو من أعيان الفقهاء، الذين يحضرون حضرة السلطان[٢] بدهلي، أن أُمهات الأقاليم التي في مملكة هذا السلطان ثلاثة وعشرون إقليماً وهي: إقليم «دِهْلي»[٣]، وإقليم «الدواكِير»، وإقليم «الملتان»[٤]، وإقليم «كهران»، وإقليم «سَامَانا»[٥]، وإقليم «سِيوسِتان»[٦]، وإقليم «وجَّا»، وإقليم «هاسي»[٧]، وإقليم «سرستي»[٨]، وإقليم «المَعْبَر» وإقليم «تِلِنْك»، وإقليم

---

(١) سراج الدين، أبو حفص، عمر ابن الشيخ نجم الدين إسحاق بن شهاب الدين أحمد الغزنوي، الهندي، المعروف بالسَّرَّاج الهندي، هندي الأصل والمولد، مصري الدار والوفاة، قاضي قضاة الحنفية في مصر خمسة عشر عاماً، ولد سنة (٧٠٤هـ/ ١٣٠٤م) وقيل سنة (٧٠٥هـ/ ١٣٠٥م) قدم القاهرة قبل (سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٣٩م) قبل الأربعين من عمره. تولى قضاء العسكر في «مصر» سنة (٧٥٨هـ/ ١٣٥٦م) وولي قاضي قضاة الحنفية استقلالاً سنة (٧٦٩هـ/ ١٣٦٧م). من تصانيفه: شرح المُغْني في أصول الفقه، للحنازي، زبدة الأحكام في اختلاف الأئمة الأعلام، شرح بديع الأصول، لابن الساعاتي، شرح الهداية، المسمى (التوشيح) الشامل في الفقه، وغيرها. توفي في سابع رجب سنة (٧٧٣هـ/ ١٣٧١م).
ترجمته في: السلوك لمعرفة دول الملوك ٣/ ١/ ١٥٨، ٢٠٠، والدرر الكامنة ٣/ ٢٣٠ـ ٢٣١، وحسن المحاضرة ١/ ٤٧٠ـ ٤٧١، والنجوم الزاهرة ١١/ ١٢٠ـ ١٢١، والمنهل الصافي ١/ ٤٩٥، وشذرات الذهب ٦/ ٢٢٨ـ ٢٢٩، ومفتاح السعادة ٢/ ٥٨، ونزهة الخواطر ٢/ ٩٥ـ ٩٦، والأعلام ٥/ ٤٢.

(٢) يقصد به السلطان (محمد تغلق شاه)، وقد ذكر ابن بطوطة في «رحلته ٥٠٣» خبر وجود هذا القاضي في حضرة السلطان. وكان يطلق عليه «قاضي قضاة الممالك في مصر».

(٣) دِهْلي: إحدى مدن (شاهجان آباد)، ويُقال لها (دَلّي) «نزهة الخواطر ٩/ ٧٦».

(٤) المُلْتان: ولاية في إقليم السِّند، وملتان أيضاً مدينة مشهورة، أُتِّخِذت قصبة لتلك الولاية، يسميها العرب «فرج بيت الذهب»، لأنها فُتحت في أول الإسلام، على يد (محمد بن يوسف) أخي (الحجاج بن يوسف الثقفي) وكان المسلمون في ضيق، وقحط، فوجدوا فيها ذهباً كثيرا فاتسعوا به، وسُمِّيت بـ(الملتان) نسبة إلى صنم كبير، كانت تعظمه الهنود. «المسالك والممالك لابن خرداذبة ٥٦، المسالك والممالك ١٠٣، صورة الأرض ٢٧٨، نزهة المشتاق ٤١ـ ٤٦، نزهة الخواطر ٩/ ١٠٩، موسوعة السند والبنجاب ٢/ ٢٨٤.

(٥) سَامَان: في نزهة الخواطر ٩/ ٨١: «سامانة كانت بلدة حسنة من توابع سرهند».

(٦) سِيوسِتان: من أشهر مدن إقليم (تهته)، وبينها وبين مُلْتان مسيرة عشرة أيام، وتُسمى اليوم (سِيوهن)، وتقع في مديرية (داود). «نزهة الخواطر ٩/ ١١١، الحكومات العربية ٦١، موسوعة السنْد والبنجاب ٢/ ٢٧٧.

(٧) هاسي: في رحلة ابن بطوطة ٤٤٨، ٥٠١: (حَانسي)، وفي نزهة الخواطر ٩/ ٨١: هَانْسي، من أشهر مدن إقليم (شاهجان آباد).

(٨) سرستي: يذكر ابن بطوطة في رحلته ٤١٣: أنه وصل إليها بعد سَفَرٍ دام أربعة أيام من مدينة =

«كَجُرَات»[(١)]، وإقليم «بَدوان»[(٢)]، وإقليم «عِوَض»، وإقليم «القِنَّوْج»[(٣)]، وإقليم «لَكْنوتي»[(٤)]، وإقليم «بِهَار»[(٥)]، وإقليم «كِرَة»[(٦)] وإقليم «ملاوة»[(٧)]، وإقليم «لَهاور»[(٨)]، وإقليم «كلافور»[(٩)]، وإقليم «جَاجَنْكز»، وإقليم «تلنج»، وإقليم «دَوْرسَمَنْد» وهذه «الأقاليم» تشتمل على ألف مدينة، ومائتي مدينة، كلها مدن ذوات نِيَابَات[(١٠)]، /١٢/ كباراً، وصغاراً، وبجميعها الأعمال، والقرى العامرة الآهلة،

= (أجُودَهَن)، وهي مدينة كبيرة تشتهر بكثرة الأرز، الذي يُحصل منها إلى مدينة (دِهْلي)، ويُقال لها (سرست)، و(سرشت). وربما تكون هي منطقة نهر (سَرْسوتي) وربما يكون موقعها الآن مدينة (سدهبور) ناحية سوراته الساحلية جنوب إقليم (كجرات)، المعروف حالياً (سوراتشر). «تعريف مدن الهند وتحديدها» (العصور مجلد ٢ جزء ١/ ١٤٠).

(١) كَجُرَات: إقليم طوله ٣٠٢ ميل، وعرضه ٢٧٠ ميل، ويشمل ثلاثة عشرة مدينة. «نزهة الخواطر ٩/ ٧١ـ ٧٢، ١١٢».

(٢) بَدوان: من مدن (شاهجان آباد) بينها وبين (دهلي) مسافة عشرين يوماً، فتحها سلطان دولة المماليك في (دهلي)، (قطب الدين أيبك). «نزهة الخواطر ٩/ ٨٠».

(٣) في الأصل «الفيوج» والتصحيح من رحلة ابن بطوطة ٤٩١ والصبح ٥/ ٧٧، وجاء اسمها في كتاب البيروني ١٥٨: «كنوج»، وذكر أنها تقع على غرب نهر (الكنك) وقد كانت بلداً كبيراً، إلا أنها تعطّلت بسبب نقل مقر الملك عنها، إلى مدينة (باري) كما جاء في «نزهة الخواطر» (٩/ ٥٩، ٨٥)، يقال لها (كسنّور)، وهي مدينة حسنة الأبنية، حصينة لها سور عظيم، كانت قاعدة مملكة الهند في القديم، فتحها (محمود بن سبكتكين الغزنوي)، ثم (قطب الدين أيبك)، وهي الآن بلدة صغيرة، خاوية على عروشها بينها وبين (دهلي) مسيرة عشرة أيام.

(٤) لكنوتي: وتُعرف بـ(لكنو)، أو (لكهنؤ)، وتقع شرق نهر (الكنك)، (الجانج)، إلى الجنوب من (القِنَّوْج). «رحلة ابن بطوطة» (٤٨٩) و«أطلس هازادر» (٤١) و«أطلس تاريخ الإسلام» (٢٤٦ـ ٢٥١).

(٥) بِهَار: من أشهر أقاليم الهند، في العصر الإسلامي، (وبِهَار) أيضاً اسمٌ لمدينة اتُخِذَت عاصمة لأقليم عُرِف باسمها، وقد كانت بلدة كبيرة، وعامرة، ثم تحولت إلى بلدة صغيرة تابعة لإقليم (عظيم آباد) في الوقت الحاضر. «نزهة الخواطر» (٩/ ٩٤ـ ٩٥).

(٦) كِرَة: ويقال لها (الكيرج، أو كهيدا) عاصمة إقليم (الكجرات)، من مدن الهند القديمة، وهي حالياً بُلَيدة صغيرة بالقرب من مدينة (أحمد آباد) التي أنشأها المسلمون في القرن التاسع الهجري، فأصبحت عاصمة للإقليم. «تعريف مدن الهند، وتحديدها» (العصور مجلد ٢ جزء ١/ ١٤١).

(٧) ملاوة: ويقال لها مَالْوه، ولاية فسيحة طولها من (كوته) إلى (سودر) ٢٤٥ ميلاً، وعرضها من (جنديري)، إلى (أندريا) ٢٣٠ ميلا. «نزهة الخواطر» (٩/ ١١٥)، راجع أيضاً «تعريف مدن الهند وتحديدها» (العصور مجلد ٢ جزء ١/ ١٤٤).

(٨) في الأصل: «نهاور» والتصحيح من «الصبح ٥/ ٧٧، ونزهة الخواطر ٩/ ٦٤، ١٠٦» وجاء فيه، أنها اسم مدينة أطلقه العرب، على مدينة (لاهُور)، وكانوا يطلقون عليها أحياناً (لَوْهَوْر)، وهي قصبة بلاد (البنجاب)، تقع على طريق القوافل بين الهند، وأفغانستان.

(٩) يُقال لها أيضاً (كلانور)، و(كلاور)، وهي من أهم مدن (لاهور). «نزهة الخواطر» (٩/ ١٠٧).

(١٠) نِيَابَات: النِّيَابَة، سلطانٌ مختصرٌ فيما هو نائب عن الحضرة، والنائب هو المتصرف المطلق التصرف =

ولا أعرف ما عدد قراها، وإنما أعرف أَنَّ إقليم «القِنَّوْج» مائة وعشرون لُكّاً، كل لك مائة ألف قرية، فيكون اثني عشر ألف ألف قرية. وإقليم «تِلِنْك» وهو ستة وثلاثون لُكاً، فيكون ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف قرية. وإقليم مالْوَه، أكبر من إقليم «القِنَّوْج»، ولكِنِّي لا أَحَزرُ كَمْ عدده. وأما «المَعْبَر» فيشتمل على عدة جزائر كبار كل واحدة منها مملكة جليلة، مثل «كَوْلَمْ» و«مَتن»، و«السِّيلان»، و«مَلِيبَار».

وقال الشيخ «مبارك»: وعلى «لَكْنُوتي» مائتا ألف مركب، صغاراً خفافاً للسير. إذا رمى الرامي في آخرها سهماً، وقع في وسطها، لسرعة جريانها، هذا غير الكبار، ولا تبلغ بعض هذا العدد. ومنها ما فيه الطواحين، والأفران، والأسواق، وربما لا يتعرف بعض سكانه ببعض، إلا بعد مدة، لاتساعها، وعظمها. وجَرَّدت من جغرافيا تحقيقاً طولها؛ وهو من الواق واق[1]، إلى قبالة عَدن، وعرضها من سَرَنْديب، إلى بوارُو الواقعة غربي قَرَاقُرْم[2]. وأقول بعبارة أبسط من هذا، وأوضح لِمَن أراد تأمّل لوح الرسم في الجغرافيا الكاملة، فنقول: طولها من مخرج البحر الهندي، من المحيط في نهاية الصين، في المشرق دون جزيرة الجوهر، والواق واق المائلة إلى

= في كل أمر يُرَاجع فيه؛ في المال، والجيش، والبريد، يَسْتَخدم الجند، ويُرَتِّب الوظائف، إلا فيما هو جليل، كالوزراء، والقضاة، وكتاب السِّرِّ، والجيش، فإنه ربما عَرَضَ على السلطان من يَصْلح، وَقَلَّ أَنْ لا يُجَاب ويسمى أكابر النُّواب (ملك الأمراء)، وتنقسم النِّيَابَات إلى صِغَارٍ تدخل في أعمال النيابات الكبار، ونيابات كِبَار كالشام مثلاً، وتولية السلطان في النيابات الكبار أكثر، بينا تولية النواب في الصِّغار أكثر، «الصبح ١٢/ ٦ـ ٧. وسيرد تفصيل ذلك في هذا السفر «ممالك مصر والشام والحجاز واليمن»،

(١) الوَاقْ وَاق، أو (الوَقْوَاق): جاء في «كتاب البيروني ١٦٩»: أنها جزيرة. من جملة (قمير)، وهو اسم، لا كما تظنه العوامُّ من شجرة حَمْلُها كرؤوس الناس تصيح، ولكن (قمير) قومٌ ألوانهم إلى البياض، قِصارُ القدود، على صُوَر الأتراك، ودين الهنود، مُخَرَّمي الآذان، وأهل جزيرة (الوَقْوَاق) منهم سود الألوان...).
كما يذكر القزويني في «آثار البلاد ٣٣»: أنها جزيرة في بحر الصين، تتكون من ألف وستمائة جزيرة، فيها ذهب وفير، حتى أن أهلها كانوا يتخذون سلاسل كلابهم وأطواق قردهم من الذهب، يأتون بالقمصان المنسوجة من الذهب.
كما يذكر في «عجائب المخلوقات ١٥٤»: أنها ألف وسبعمائة جزيرة، تملكها امرأة سُمِّيَت بهذا الاسم، لأنَّ بها شَجرٌ يَسْمَع من يمر بها صَوْتَه، كأنه يقول: «وَاقْ وَاقْ»، وأهلها يفهمون من هذا الصوت شيئاً، فيتطيرون منه. وقد أشار (البيروني) إلى خطأ هذا الاعتقاد.

(٢) قَرَاقُرْم: جاء في كتاب «تقويم البلدان ٥٠٤ـ ٥٠٥»: أنها في أقصى بلاد الترك الشرقية، وقد كانت قاعدة (التتر)، وفي جهاتها (المُغْل)، وهم خالصة (التتر)، ومنها خاناتهم. كما جاء في «رحلة ابن بطوطة ٦٤٤»: أن قَرَاقُرم كانت من بلاد (الخَطَا).

الجنوب، آخذاً في البحر إلى حيث ينعطف مغرباً على جزيرة الموجه[١] ـ أم جزائر الصين ـ مع طول البحر، حتى ينتهي إلى فُرْضَة المغرب، ثم يمتد من هناك براً وبحراً، آخذاً في الشمال إلى بوارُو غربي قَرَاقُرْم، على حد بلاد كشتغد[٢]، إلى حد بلاد مُكْران، ممتداً على نهر مُكْران[٣]، إلى أن يدخل السند في حده قريب كِرْمان[٤]، ثم ينتهي هناك إقليم الهند في البير[٥]، وآخره المنصورة[٦]، وتتصل جزائره في البحر

---

(١) جزيرة الموجه: هناك إشارة للمسعودي في «مروج الذهب ١/ ١٩٤ـ ١٩٥» يذكر فيها، أن أهل هذه الجزيرة بيض، ذوو حسن وجمال ولهم خيل كثير، يشبه أهلها، أهل الصين في لباسهم، وهي بلاد منيعة تتميز بالجبال الشاهقة.

(٢) كشتغد: لعلها تاشكند، أو طشقند، أو تاشكنت، وهي إقليم الشاس قديما تقع إلى الغرب من (فرغانه)، على ضفة نهر (سَيْحون) اليُمْنى، الشمالية الشرقية، سمَاها العربُ (الشّاش)، والفرس (جاج)، كانت أعظم المدن العربية، فيما وراء سَيْحون في العصور الوسطى، وكان يُقال لها (نبكث) لحق بها الدمار أثناء فتوحات (محمد خوارزم شاه)، ثم على يد (المغول) بعد ذلك، في أوائل المائة الثامنة الهجرية (الرابع عشرة ميلادية)، وهي عاصمة تركستان الروسية حالياً (بلدان الخلافة الشرقية ٤٤٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٤، ٥٢٥».

(٣) مُكْرَان: اسمٌ لسيف البحر، وولاية واسعة تشتمل على عدد من المدن والقرى، تقع الهند شرقيها «معجم البلدان ٥/ ١٧٩ـ ١٨٠»، وتعتبر جبال (مُكْرَان) القاحلة، امتدادا للمفازة الكبرى «بلدان الخلافة الشرقية ٣٦٧، وتقع (مُكْرَان) حالياً في أقصى الجنوب من (إيران)، على ساحل بحر (عُمان)، وهي بلاد صحراوية، يكاد يكون مِنَ المتعذر اجتيازها. «الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي ٥٩١».

(٤) كِرْمان: ولاية واسعة تقع بين فارس، وَمُكْران، وسجستان، وخراسان، ومُكْرَان، ومفازة ما بين مُكْران، والبحر شرقيها، وغربيها أرض فاس، وشماليها مفازة خراسان، وجنوبيها بحر فارس، كثيرة النخل والزرع، والمواشي والضرع، بلغت قمة ازدهارها في عهد السلاجقة. «صورة الأرض ٣٦٦، معجم البلدان ٤/ ٤٥٤، عاصمته الإسلامية (السيرجان)، أو (الشيرجان)، واتخذ بنو (بوية) مدينة (بردسير) عاصمة لهذا الإقليم، «بلدان الخلافة الشرقية ٣٣٨ـ ٣٣٩».
و(كِرْمان)، تنفصل عن (عُمَان) بمضيق (هرمز) وهي عبارة عن التواءات جبلية متراصّة بين إقليم مُكْرَان، وفارس، تمثل الحافَّة الجنوبية لهضبة إيران. «الجغرافيا التاريخية للعالم الإسلامي ٥٩ـ ٦٠».

(٥) البير: لعلها، (التِّيْز) إحدى مدن مُكْرَان) اعتبرها (البشاري) أنها الباب الثاني، لهذا الإقليم، حيث إنَّ الباب الأول هو (طوران)، وهي على البحر، تشتهر بالنخيل، وكثرة الرِّبَاطات، وجامعها الحَسَن، فهي فُرْضَةٌ مشهورة في تلك البلاد. كتاب «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ٤٧٥ـ ٤٧٨، المسالك والممالك للإصطخري ١٠٥ـ ١٠٦، نزهة المشتاق ٣٧».

(٦) المنصورة: مدينة معروفة، اسمها بالهندية (باميران)، «نزهة المشتاق ٣١ـ ٣٢»، وتقع على الجانب الشرقي لنهر السِّند، اتخذها المسلمون عاصمة لبلاد السند منذ أوائل القرن الثاني إلى أوائل القرن الخامس الهجري، بناها في أواخر العصر الأموي والي بلاد السِّند (عمرو بن محمد بن القاسم الثقفي)، سنة (١٢١هـ/ ٧٣٨م).
«موسوعة بلاد السند والبنجاب ٢/ ٢٦٧»، تُسمى (المنصورة) بـ(المحفوظة)، موقعها في الوقت =

إلى قبالة عدن، وأما عرضه، فمن سَرَنْديب، وما هو على سمتها في الجنوب، إلى بوارُو، وما على سَمْتها في الشمال وحدود هذه المملكة من الجنوب، البحر، وما يمتد معه من كورة قَرَاجِل، ومن الشرق لَهَاوُر، وكلاوَر، ومن الشمال بلاد الترك، ومن الغرب سالكوت[١]، والمفازة[٢]، /١٣/ ومدينة دِهْلي، وهي قاعدة الملك، ثم بعدها قُبّة الإسلام، وهي مدينة الدَّواكير، جددها هذا السلطان[٣]، وسَمّاها (قبة الإسلام). قال: ودِهْلي في الإقليم الرابع. قلت: وهكذا قال الملك المؤيد[٤] صاحب حماة - رحمه الله - في (تقويم البلدان)[٥]، ونقله عَمَّنْ يوثَق به من أهل هذا الشأن[٦].

قال الشيخ مبارك: وأما قُبَّة الإسلام فتكون في الثالث، وفارقتها، وما تكامَلَت ولي الآن عنها ست سنين، وما أظنها تكون قد تكَمَّلَتْ، لِعظَم ما حصل الشروع فيه، من اتساع خطة المدينة، وعظم البناء. وأن هذا السلطان، كان قد قسمها على أن تبنى

= الحاضر على بعد تسعة أميال من شهداء (ديور) بمديرية (سَاتْكهر) بالسّند وأطلالها على مسافة ميلين من نهر (حميْراؤ)، وتطلق العامة على منطقة المنصورة (دَكور)، قامت فيها دولة عربية، عُرفت بالدولة (الهبَّارية)، نسبة إلى هبَّار بن أسود الأسدي القرشي. (٢٤٠هـ - ٤١٦هـ/ ٨٥٥ـ ١٠٢٥م)، «الحكومات العربية ٦٣ـ ١٣٢».

(١) سالكوت: هكذا رُسمت في الأصل، لعلها (سيالكوت)، وهي مدينة على حدود كشمير، من أشهر مدن إقليم (لاهور)، يسميها (العرب) (سيلكوت) و(سلكوت)، تبعد عن مدينة (لاهور) مسافة خمسة وسبعين ميلا. «نزهة الخواطر ٩/ ٦٤ـ ١٦٠».

(٢) المفازة: تقع بين (كِرْمان)، و(مُكْران)، و(السِّند) وهي أكثر سكاناً وأمنا من (المفازة الكبرى) «صورة الأرض ٣٤٠».

(٣) أيْ (محمد تغلق شاه).

(٤) إسماعيل بن علي بن محمد بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، عماد الدين، صاحب حماه، ولد سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م وكان أميراً في دمشق خدم الملك الناصر عندما كان في الكَرَك، ووعده بسلطنة حماه، فوفى له بذلك، له مشاركات علمية جيدة، في الفقه، والطب، والحكمة، وعلم الهيئة، محبا للعلماء، مقرِّباً لهم. من مؤلفاته: «المختصر في أخبار البشر»، أو «تاريخ أبي الفدا»، و«تقويم البلدان»، و«تاريخ الدولة الخوارزمية»، و«نوادر العلم»، و«الكناش» في النحو والصرف، «والموازين»، وغيرها. توفي في المحرم من سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م، ولَمَّا يكمل الستين من عمره.

ترجمته في: فوات الوفيات ١/ ١٨٣، آداب اللغة ٣/ ١٨٧، طبقات الشافعية للسبكي ٦/ ٨٤، والبداية والنهاية ١٤/ ١٥٨، والدرر الكامنة ١/ ٣٩٦، والمنهل الصافي ٢/ ٣٩٩، والنجوم الزاهرة ٩/ ٢٩٢، والأعلام ١/ ٣١.

(٥) طُبع باعتناء وتصحيح (رينود)، و(البارون ماك كوكين بسلان)، في باريس، بدار الطباعة السلطانية سنة (١٨٤٠هـ).

(٦) تقويم البلدان ٣٥٨.

محلات، لأهل كل طائفة محلة؛ الجند في محلة، والوزراء والكتّاب في محلة، والقضاة والعلماء في محلة، والمشائخ والفقراء في محلة، والتجار والكسّاب في محلة. وفي كل محلة ما تحتاج إليه من المساجد، والمواذِن، والأسواق، والحمَّامات، والطواحين، والأفران، وأرباب الصنائع من كل نوع، حتى الصُّوَّاغ، والصَّبَّاغين، والدَّبَّاغين حتى لا يحتاج أهل محلة إلى أخرى، في بيع ولا شراء ولا أخذ ولا إعطاء؛ لتكون كل محلة، كأنها مدينة مفردة، قائمة بذاتها، غير مفتقرة في شيء إلى سواها، وليس في هذه المملكة خراب، إلا تقدير عشرين يوماً مما يلي غَزْنَة، لتجاذُب صاحب الهند، وصاحب تُرْكُسْتان، وما وراء النهر[١]، بأطراف المُنازَعة، أو جبال معَطَّلة، أو شَعْراء[٢] مشتبكة. ومتحصلات تلك من نبات العطر والأفاوية، والعقاقير الداخلة في أدوية الطب أعود نفعاً من الغلات المزدرعة بما لا يقاس.

قلت: وقد أَوْقَفني، الفاضلُ نظام الدين يحيى بن الحكم[٣] على تأليف قديم في البلاد، وذكر فيه: إن جميع قرى المُلْتان مائة ألف قرية وستة وعشرون ألف قرية مُثْبَتة في الدِّيوان، وهو ودِهْلِي في الرَّابع، ومعظم المملكة في الثاني، والثالث، وكلها فسيحة، وبلادها صحيحة، إلا مزارع الأرز؛ فإنها وخيمة، وبقاعها ذميمة. وحكي في ذلك التأليف أَنَّ محمد بن يوسف الثَّقفي[٤] أصاب[٥] بالسِّند أربعين

---

(١) هو، نهر (جَيْحون)، أو (أَمُودُريا).

(٢) شَعْراء: الشَّعْرَاءُ الشَّجَر الكثير والشَّعْرَاء من الأرض ذات الشَّجر. «محيط المحيط ٤٦٩».

(٣) يحيى بن عبد الرحمن الجَعْبَري، (وقيل الجعفري) الطياري البغدادي، نظام الدين، المعروف بابن النور، الحكيم، أصله من بغداد، اشتغل والده بصناعة الكحل، كَثُر ماله، وأشغل ابنه يحيى، فتأدب وبرع في الموسيقى، وكتب الخط الجيّد، وكان من كبار الخطاطين في عصره واتصل بالقان أبي سعيد، وكتب عنه الكتب بالعربية، إلى مصر، وغيرها. قدم دمشق مع الوزير نجم الدين، ثم دخل القاهرة صحبته وخدم قوصون، ثم عاد إلى دمشق، توفي سنة ٧٦٠هـ/ ١٣٥٩هـ وقيل بعد ٧٧٠هـ.
ترجمته في: ابن قاضي شهبة، وفيات سنة ٧٦٠هـ وقال: وفاته بهذه السنة أو في التي بعدها، الدرر الكامنة ٤/ ٤١٧، الموسيقى العراقية ٤٤ـ ٤٦، الأعلام ٨/ ١٥٣.

(٤) محمد بن يوسف الثقفي، أخو الحجاج، استعمله أميراً على صنعاء، وضَمَّ إليه الجند، وما زال والياً عليها إلى أن توفي سنة ٩١هـ/ ٧٠٩م وقيل سنة ٩٠هـ/ ٧١٠م.
ترجمته في: البداية والنهاية ٩/ ٨٠، والأعلام ٧/ ١٤٧، تاريخ خليفة بن خياط ٢٩٣، ٣١١، وتاريخ الرسل والملوك ٢/ ١٥٦، ٦/ ٤٩٨، تاريخ الإسلام للذهبي ٤/ ٥١، رغبة الآمل ٥/ ٣٠ و٢٣٥، تاريخ الخميس ٢/ ١٣١٣.

(٥) جاء في «المسالك والممالك لابن خرداذبة ص ١٥٦: وسُمِّيت (المُلْتان). فَرْجَ بيت الذهب، لأن (محمد بن يوسف)، أخا (الحجاج بن يوسف) أصاب في بيتٍ بها أربعين بَهَاراً ذهباً، والبَهَار ثلاثمائة =

بَهَاراً[١] من ذهب، كل بَهَار ثلاثمائة، /١٤/ وثلاثة وثلاثون مَنّاً[٢]، قال: ومن بلاد غَزْنة، والقَنْدَهار آخر حدّه.

وسألت الشيخ مبارك، كيف بَرّ الهند وضواحيه؟ فقال لي: إن به أنهاراً ممتدَّة، تُقارب ألف نهر كباراً وصغاراً، منها ما يضاهي النيل عِظَماً، ومنها ما هو دونه، ومنها ما هو دون هذا المقدار، وما هو مثل بقية الأنهار، وعلى ضفات الأنهار القرى، والمدن، وبه الأشجار الكثيفة، والمُروُج الفِيْح، وهي بلادٌ معتدلة لا تتفاوت حالات فصولها، ليست بمفرطة في حَرّ، ولا بَرْد، كأَنَّ كل أوقاتها ربيع، وتَهُبّ بها الأَهْوية، ويُتِنَسَّم النَّسِيم اللطيف، وتتوالى بها الأمطار مدة أربعة أشهر، وأكثرها في أُخريات الربيع، إلى ما يليه من الصيف، وبها أنواع من الحبوب؛ الحنْطة والأَرْز، والشَّعير، والحِمَّص، والعَدَس، والماش[٣]، واللوبياء[٤]، والسِّمسم، وأما الفول، فلا يكاد يوجد فيها ـ قلت: وأظن عدم الفول بها؛ لأنها بلاد حكماء، وعندهم أن الفول يُفْسد جوهَرَ العقل، ولهذا حرَّمته الصابئة[٥] ـ قال: وبها من الفواكه، شيء من

= وثلاثون مَنّاً، فسميت فَرْجَ بيت الذهب. والفَرْجُ: الثَّغْر، يكون مبلغ ذلك الذهب ألفي ألف وثلاثمائة ألف وسبعة وتسعين ألفا وستمائة مثقال.

(١) بَهَارا: البَهَارُ، الحِمْلُ، وقيل: هو ثلاثمائة رِطْل بالقبطية، وقيل أربعمائة رِطْل، وقيل: ستمائة رطل، وقيل: ألف رطل، وقيل: البَهَار شيء يوزَن به، وهو ثلاثمائة رطل وقيل: وعاء يوضع فيه الذهب والفضة، وقيل: كلمة بَهَار غير عربية، بل قبطية، وقيل: عربية، وهو ما يُحْمل على البعير بلغة أهل الشام، «لسان العرب ٥/ ١٥١».

(٢) مَنّاً: المن، وزنه مائتين وسبعة وخمسين (درهماً)، وسبع درهم، (وبالمثاقيل) مائة وثمانون مثقالاً، و(بالأواقي)، أربع وعشرون أوقية، كما يطلق (المنّ) على ما يكال به السمن وغيره، وقيل يوزن به رطلاً. «مفاتيح العلوم ١٩، المصباح المنير ٢/ ٢٤٩ وفي الهند، يعادل المن (٤٠) سيراً، أو (٣٧) كيلو جراماً و(٣٦٠) جراماً. «نزهة الخواطر ٩/ ٣٨٠».

(٣) الماشَ: نوع من الحبوب الصغيرة، أخضر اللون، له عين كعين اللوبياء، وهو على ثلاثة أنواع: ماش فاصوليا، واسمه العلمي (فاصيولي)، ويسمى (أقطن)، وماش (سُمْنة)، وماش (لوبيا بلدي)، والثاني، يسمى (ماشة) وتوكل جذوره، أما الأول، والثالث، فهما من اللوبياء «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤/ ١٢٦، إحياء التذكرة ٥٧٧ـ ٥٧٨».

(٤) اللوبياء: له ورق ناعم، وقُضبْان دقاق: شبيهة بالخيوط تشتبك بالنَّبات المجاور لها بعضه يستطيل، حتى يُسْتَظل تحته، له غلف، في جوفه حَب مختلف اللون، منه ما يميل إلى الحمرة، ومنه ما يميل إلى البياض، ومنه ما يميل إلى السواد «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤/ ١١٢».

(٥) الصابئة: فرْقتين أُطلق عليهما اسم الصابِئة، المَنْديا، وهي فرقة يهودية نصرانية، تمارس شعيرة التعميد في (العراق)، وصابئة حَرَّان، وهي فرقة وثنية استمرت حتى بعد ظهور الإسلام. ويقال أنّ أوّل من أحدث مذاهب الصابئة رجلٌ يُقال له (بوداسف)، الذي ظهر في عهد الملك الفارسي (طهمورث) وقال: إن الكواكب هي المدبرات، والواردات، والصادرات، وهي التي بمرورها في أفلاكها، =

التِّين، والعنب، والرّمان الكثير الحُلْو والمُزّ[١] والحامض، والموز، والخوخ، والأُتْرُجّ[٢]، والليمون، والليم، والنَّارِنْج[٣]، والجُمَّيْز[٤]، والتوت الأسود المسمى بالفِرْصاد، والبطيخ الأصفر والأخضر، والخِيار، والقِثّا، والعَجّور، والتِّين، والعنبُ هو أقل ما يوجد من بقية هذه الأنواع، وأما السَّفَرْجل[٥] فيوجد بها، ويُجْلب إليها، وأما الكُمَّثْرى، والتفاح فهما أقل وجوداً من السَّفَرْجل، وبها فواكه أُخَر لا تُعْهد في مصر والشام والعراق، وهي العِنَبا[٦]، والمَهْوَا، والكلج، والكويكا، وايجكي، والبكي، والنغزك، وغير ذلك من الفواكه الفائقة اللذيذة. فأما النَّارجيل[٧]، وهو

= وقطعها مسافاتها واتصالها بنقطة، وانفصالها عن نقطة يتم ما يكون في العالم من الآثار؛ من امتداد الأعمار وقِصَرها، وظهور المياه، وغيضها، وفي النجوم السّيّارة، وفي أَفْلاكها التدبير الأكبر، فاحتذى به، وقال بقوله جماعةٌ نشروا أفكارَه بين الناس، كما أنَّ الصابئة تذهب إلى أنَّ (أوريايس الأول)، و(أوريايس الثاني) أو (هُرْمُس)، أو (أغاثيمون) كانا يَعْلَمان الغيبَ فاتخذاهما نَبِيَّان لهم، كما تُعَدّ الصابئة من الرُّوحانيين أصحاب الهياكل، وهم فرق، أهمها (الحَرَّانيين) أو (الحِرْنَانِيّة)، و(الكيماريين)، ولكل منهما آراء تختلف مع الأخرى، وقد ظهروا في أول الأمر في شمال العراق، واتخذوا (حَرَّان)، (كاريا القديمة) مركزا لهم، ثم انتشروا بعد ذلك في أماكن أخرى، فانتشر (الكيماريون) في واسط، والبصرة والبطائح، راجع أخبار (الصابئة) مفصلة في «مروج الذهب ١/ ٢٤٦، ٢/ ١٥٢»، و«الملل والنحل ٢/ ٥ وما بعدها»، «دائرة المعارف الإسلامية ١٤/ ٨٩ـ ٩١».

(١) المُزُّ: بين الحلو والحامض «مختار الصحاح ٢٦٠».

(٢) الأُتْرُجّ: شجر معروف بأرض العرب، يعيش قرابة عشرين سنة، يثمر مرة واحدة في السنة، ثمرة طويلة شبيهة بلون الذهب، طَيِّب الرائحة مع شيء من الكراهة، وبزره مثل بزر الكمثرى، منه ما هو تَفِه مائل إلى العذوبة قليلاً، ومنه الحامض القَطّاع «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ١/ ١٠».

(٣) النَّارِنْج: شجرةٌ ورقها أَمْلَس لَيِّن، شديد الخضرة، يَحْمل حَمْلاً مُدَوَّراً أملس، في جَوْفه حمَّاض كالأترج «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤/ ١٧٤».

(٤) الجُمَّيْز: شجر كبير، وافر الفروع، مستديم الخضرة، تُصنَع من أخشابه السفن، والآلات الزراعية دائمة الاستعمال في الماء، أصله من النُّوبة ونُقِل إلى مصر والشام، يُثْمِر بعد خمسة عشر عاماً، ثلاث مرات في السنة «إحياء التذكرة ٢١٨ـ ٢١٩»، و«الموسوعة العربية الميسرة ٦٤٦».

(٥) السَّفَرْجل: اسمه باللغة اللاتينية، (سيدونيا) نسبة إلى (سيدون) جنوب فرنسا. ينمو في الأرض الطينية، والرملية، الخصبة، قليلة الرطوبة، يُغْرس متقارباً، كيلا تؤثر فيه أشعة الشمس، فَتُحْرِقَه، وتُكْسِبه طعماً قابضاً، يحتاج إلى خِدْمةٍ كثيرة، وماءٍ كثير، حتى لا يَتْلَف، كما عُرف السَّفَرْجَل في الهند، ونُسب إليها، وقيل (سفرجل هندي). «إحياء التذكرة ٣٥٥ـ ٣٥٦».

(٦) العِنَبا: شجر لا ينبت في غير (الهند)، و(الصين)، ذو ساق غليظة، وأغصان، وأوراق شبيه بشجر الجوز، وله ثمر يجمعه أهل الهند، ويكبسونه بالملح، والماء، ويُعْمل بالخل، ويكون طعمه كطعم الزيتون، «نزهة المشتاق ٢٠»، و«الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٣/ ١٣٥».

(٧) النَّارجِيل: نخلة طويلة، تميل بمرتقيها، حتى تدنيه من الأرض للينها، لها أقناء، في القنو الواحد ثلاثون نارجيلة، وشجر النارجيل يعيش سنوات طويلة، تصل إلى قرنين من الزمن، «نهاية الأرب ١١/ ١٢٩ـ ١٣٠»، و«إحياء التذكرة ١٢٧ـ ١٢٨».

المسمى بالجوز الهندي، فلا شيء يعادله وهو أخضر، مَمْلوء بدهنه. وأما الحُمَر[(١)]، وهو المسمى بالتَّمر هندي فهو شجر بري ملء الجبال، والنارجيل. والموز بدهلي أقل مما حولها من بلادها، على أنه الموجود الكثير، وأما قصب السكر، فإنه بجميع هذه البلاد كثير ممتهن، ومنه نوع أسود جفا، صُلْب /١٥/ العيدان، وهو أجود للامتصاص لا للاعتصار، وهو مما لا يوجد في سواها، ويعمل من بقية أنواعه، السكر العظيم الكثير الرخيص من السكر النَّبات والسكر المعتاد، ولكنه لا يجمد بل يكون كالسِّمِيذ الأبيض، وبها الأرز على ما حدثني به الشيخ مبارك بن مجد شاذان، على أحدٍ وعشرين نوعاً، وعندهم اللفت، والجزر، والقَرْع، والباذِنْجان، والهِلْيَوْن[(٢)]، والزَّنْجَبِيل، وهم يطبخونه إذا كان أخضر، كما يطبخ الجزر، وله طعم طيب، لا يعادله شيء. وبها السِّلْق، والبصل، والفوم، والشَّمَار[(٣)] والصَّعْتَر[(٤)] وأنواع الرياحين، من الورد، واللَّيْنُوفَر[(٥)]، والبَنَفْسَج[(٦)]، والبان[(٧)]، وهو الخِلاَف،

---

(١) الحُمَر: شجرةٌ كبيرةٌ، مثل شجر الجوز، ينبت في اليمن، والهند، والسودان، ورقة مثل ورق اللوبيا، صلب، وثمره غلف دقائق سوداء عليها عسلية تُدْبق باليد، وداخل الغلف حَبٌّ صلب أحمر اللون، فيه حلاوة مع حموضة «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ١/ ١٤٠».

(٢) الهِلْيَوْن: نباتٌ مشهور، ينبت، ويُسْتَنبت، ورقه كورق (الشَّبَت) بعضه لا شوك له، بزره مدور أخضر ثم يَسْوَدّ ويَحْمَرّ، في جوفه ثلاث حبات صلبة، وبعضه كثير الشوك تمتد قضبانه على وجه الأرض «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤/ ١٩٥»، و«إحياء التذكرة ٦١٦»، ويقول عنه ابن قتيبة في «عيون الأخبار ٣/ ٢٨٩»: «مُدِرٌّ للبول نافع من القُولَنْج».

(٣) الشَّمَار: جاء في «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٢/ ١٣٤ و٣/ ٦٩». أنه هو، الرازيانج، عند أهل (مصر) و(الشام)، ومنه يَنْبت، ومنه ما يُسْتَنبت، ثمره مستدير شبيه (بالكزبرة)، حريف مسخن طيب الرائحة.

(٤) الصَّعْتَر: نبات بَرّي، وبُسْتاني، وجَبَلي، ورقه طويل، ومُدَوَّر، ودقيق، وعريض، ولونه، منه ما هو أسود ويُعْرف بـ(الفارسي)، ومنه ما هو أبيض. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٣/ ٨٣».

(٥) اللَّيْنُوفَر: أو (النَّيْلُوفَر)، اسمٌ فارسي، معناه: (النيلي الأجنحة)، و(النيلي الأريَاش) ويُعْرف في السِّريانية بـ(كرنب الماء). كما يسميه أهل الهند (نينَوْفَر)، والنَّبَط (نِيلَوفَريا)، والعرب (نيلوفه). يَنْبت في الماء، وساقه ملساء، يطول بحسب عمق الماء، فإذا ساوى سطحه أوْرَق وأزهر، كما ينبت في البَرِّ ويُعرف في مصر بـ(عرائس النيل) وهو كبير الأوراق، متعدد الألوان، أغلبها، أصفر، وأبيض، وأزهاره تتفتح لمطلع الشمس، وعند غروبها تنقبض، وَتُطْبق على النمل فَتُميته، لذا سمى (قاتل النمل)، «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤/ ١٨٥»، و«نهاية الأرب ١١/ ٢١٩ـ ٢٢٠»، و«إحياء التذكرة ٦١٢».

(٦) البَنَفْسَج: فارسي معرَّب من كلمة (بَنَفْشَة)، وهو نباتُ زِينة، ينبت في الأماكن الظليلة، زهره اسمانجوني اللون، طيب الرائحة، معرّق، ملين، من الأدوية الصدرية، «محيط المحيط ٥٦»، و«إحياء التذكرة ١٧٨».

(٧) البان: شجرٌ سَبْطُ القوام لين، منه ما يقارب (الأثل) في ارتفاعه، ومنه قصير دون شجرة (الرّمان)، =

والنَّرْجِس[١]، وهو العَبْهَر وثامر الحنا، وهو (الفاغِيَة)[٢]، وكذلك الشيْرَج[٣]، ومنه وَقِيدهم وأما الزيت فلا يأتيهم إلا جَلَباً، وأما العسل فأكثر من الكثير، وأما الشمع فلا يوجد إلاَّ في دور السلطان، ولا يسمح فيه لأحد.

وما لا يحصى من الدواب السائمة، من الجواميس والأبقار، والأغنام، والمعز ودواجن الطير من الدجاج، والحمام البلدي، والأوز، وهو أقل أنواعه، وأما الدجاج الهندي فيكاد أن يكون كالأوز في عِظَم المقدار. وكل هذا يباع بأرخص الأسعار، واقل الأثمان. وأما السمن واللبن على اختلاف أنواعه فكثير لا يُعبأ به، ولا له قيمة. ويُباع بأسواقها من الأطعمة المُنَوَّعة، كالشَّواء، والأرز، والمطَجّن والمَقْلي، والمنوَّع، والحُلْو المنوعة على خمسة وستين نوعاً، والفُقَّاع[٤]، والأشربة، ما لا يكاد يُرى في مدينة سواها.

وبها من أصحاب الصنائع، للسيوف، والقِسِيّ[٥]، والرِّماح، وأنواع الرماح

= شديد الخضرة له زهر ناعم، يُخَلِّف قروناً مثل قرون (اللوبيا)، في داخلها حبٌّ أكبر من (الحمص) له دهن طيب الرائحة. وقد شُبّه القَدُّ بالبان، لطوله. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ١/ ٧٩»، و«محيط المحيط ٦٢».

(١) النَّرْجِس: نباتٌ ورقه شبيه بورق (الكُرَّاث) وإن كان أدق منه، وأصفر، ساقه جوفاء ليس لها ورقة، ترتفع عن الأرض أكثر من شبر، زهره أبيض في وسطه شيء أصفر، أجوده ما كان في الجبال، وهو طيب الرائحة، سمي بـ(العَبْهَر) لنعومته، لأنه العَبْهر، الناعم من كل شيء، «المخصص ١١/ ١٩٤، و«الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤/ ١٧٩»، و«محيط المحيط ٨٨٧».

(٢) الفاغِيَة: هو الزهْر، يُقال أفغى النبات، إذا نَوَّر، وقد خُصَّتْ الحِنّاء، باسم الفاغية، فَتُعرف بالفاغية من غير شبه، وهي تخرج جمعاً، ثم تظهر في رؤوسها نوّارة بيضاء صغيرة كأنها زهرة (الكزبرة) وهي نكته حمراء. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٣/ ١٥٥».

(٣) الشَّبْرَج: نبات، يظهر في المواضع التي لا تُحرث، والقبور، والحيطان القديمة، أحمر اللون، يبلغ طول قضيبه نحو الذراع، ويحيط به في الصيف ورق دقاق، إذا بَرد الجو، جَفّ وانتثر، وتبقى منه بقايا نحو أصله، يخرج في قضبانه زهر صغار في الصيف، ثم بزر صغار، رائحته حادة جداً. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٣/ ٧٤»، كما يُقال للشيرج دهن (الجلجلان) أي (السمسم) بالسريانية «إحياء التذكرة ٣٦٥ـ ٣٦٨».

(٤) الفُقَّاع: نوع من الشراب، يُعمل من أصناف متعددة؛ من الشعير، والعسل، والسكر، والخبز، مع بعض الأفاوية، كالقرنفل، والفلفل، والسُّنْبل، والكرفس، والنعنع، «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٣/ ١٦٤».

(٥) القِسّي: جمع (قوس)، والقوس مؤنَّث تصغيرها (قُوَيْس)، وتجمع أيضاً (أَقْوَاس)، و(قِياس) وكل ما انعطف وانحنى، فقد استَقْوَسَ، وتَقَوَّس، وقَوَّس. أول من عملها من العرب رجل اسمه (ماسِخَة)، من الأزد، فقيل لها (ماسِخِيّة)، ومن نعوتها الأخرى: الشَّرَيج، والكتوم، والمُرْتَهِشَة، والفرَّاء، والبائِنَة. «كتاب السلاح ٢٢»، و«المخصص ٦/ ٣٧»، و«نهاية الأرب ٦/ ٢٢٢».

والزَّرَد[١]، والصُّوَّاغ[٢]، والزَّرَاكش[٣]، والسَّرَّاجين[٤]، وغير ذلك من أرباب كل صنف مما يَخْتصُّ بالرجال والنساء، وذوي السيوف والأقلام[٥]، وعامة الناس ما لا يُحْصى لهم عدد.

وأما الجمال فقليلة، لا تكون إلا للسلطان، ومن عنده من الخانات والأمراء، والوزراء، وأكابر أرباب الدولة.

وأما الخيل فكثيرة، وهي نوعان: /١٦/ عِرَاب[٦]، وبراذين[٧]، وأكثرها مما لاَ يُحْمَد فعله.

ولهذا، يُجلب إلى الهند من جميع ما جاورها، من بلاد الترك، وتقاد إليها العِرَاب، من البحرين، وبلاد اليمن، والعراق، على أَنَّ في دواخل الهند خَيْلاً عِراباً كريمة الأحساب، يُتَغَالى في أثمانها، ولكنها قليلة، ومتى طال مكث الخيل بها انحلت.

وأما البِغَال[٨]، والحُمُر[٩]، فمما يُعاب عندهم ركوبها، ولا يَسْتَحسن فَقِيه، ولا ذو علم ركوب بغلة.

---

(١) الزَّرَد: حِلَق الدرع، والجمع زرود، ويُقال لصانِعها (زَرّاد) «كتاب السلاح ٢٩»، و«المخصص ٧٢٦».

(٢) الصُّوَّاغ: جاء في «لسان العرب ١٠/ ٣٢٥»: والشيء مَصُوغ، والصَّوْغ ما صيغ.

(٣) الزَّرَاكش: لفظ فارسي، يُطلق على النسيج المستخدم فيه الحرير، والذهب الخالص. «الملابس المملوكية ٦١».

(٤) السَّرَّاجين: السَّرَّاج: بائع السُّروج وصانعها، وحرفته السِّراجة، والسِّرَاج المصباح الذي يُسْرج بالليل «لسان العرب ٣/ ١٢٢».

(٥) ذوي السيوف والأقلام: أي أهل الحرب، والإدارة. راجع «التعريف بالمصطلح الشريف ١٠٢، ١٠٦» والفَصْل الممتع الذي كتبه «ابن خلدون في السيف والقلم في المقدمة ٢/ ٦٩٥»، و«الألقاب الإسلامية ٦٩٥».

(٦) عِرَاب: جاء في «لسان العرب ٢/ ٧٩»: «عَرَبِيَّة الفَرَس: عِتْقه وسلامته من الهجنة... وفَرّقوا بين الخيل، والناس، فقالوا في الناس، عَرَب وأَعْرَاب، وفي الخيل عِرَاب.... والخيل العِراب، خلاف البخاتي، والبراذين»، راجع أيضاً «المخصص ٦/ ١٧٧»، و«محيط المحيط ٥٨٦».

(٧) بَرَاذِين: البراذين من الخيل، ما كان من غير نَتَاج العِرَاب «لسان العرب ١٦/ ١٩٥»، وجاء في «محيط المحيط ٣٤»، أنها التركي من الخيل، وخلافها (العِرَاب).

(٨) البِغَال: البَغْل الحيوان (السحّاج) الذي يُرْكب، والأنثى (بَغْلَة)، والجمع (بِغَال)، والبَغْل أقل سرعة وأقل أهمية من الفرس، «لسان العرب» (١٣/ ٦٣)، وجاء في «محيط المحيط ٤٧»: أنه حيوان أهلي للركوب والحَمْل، أبوه حمار، وأمه فرس، وقيل بالعكس، وقد يُطلب (يطلق) مجاوزاً على كل حيوان أبوه، وأمه مختلفي الجنس.

(٩) الحُمُر: لعله يَقصد «الحمار الوحشي» راجع «لسان العرب ٥/ ١٩١». و«محيط المحيط ١٩٣».

فأما الحمار، فإن ركوبه عندهم مذلَّة كبرة، وعار عظيم، بل ركوب الكل الخيل.

وأما الأثقال، فخاصتهم تحمل على الخيل، وعامتهم تحمل على البقر، يعمل عليها الأُكف[١]، فيحمل عليها، وهي سريعة المشي، ممتدة الخُطى.

وسألت الشيخ مبارك، عن مدينة دِهْلي[٢]، وما هي عليه، وترتيب سلطانها في أحواله، فحدَّثني، أنَّ دِهْلي مدائن[٣] جُمِعَت مدينة، ولكل واحدة اسم معروف، وإنما دِهْلي واحدة منها، وقد صار يُطلق على الجميع اسمها، وهي ممتدة طولاً وعرضاً، يكون دَوْر عمرانها أربعين ميلاً، بناؤها بالحجر، والآجُرّ، وسقوفها بالأخشاب، وأرضها مفروشة بحجر أبيض شبيه بالرخام، ولا يُبنى بها أكثر من طبقتين، وفي بعضها طبقة واحدة، ولا يَفْرش بالرخام، إلا السلطان.

قال الشيخ أبو بكر بن الخلال: هذه دور دِلِّي العتيقة، فأما ما أُضيف عليها فغير ذلك. قال: وجملة ما يُطلق عليه الآن اسم دِلِّي أحد وعشرون مدينة.

وبساتينها على استقامة كل خط اثنا عشر ميلاً من ثلاث جهاتها، فأما الغربي فعاطل لمقاربته جبل لَهابة.

وفي دهلي ألف مدرسة، وبها مدرسة واحدة للشافعية، وسائرها للحنفية، ونحو سبعين مارَسْتَاناً[٤]، وتُسمى بها دور الشفا وفيها، وفي بلادها من الخَوَانِق[٥]،

---

(١) الأُكُفُ: جاء في «لسان العرب ١٠/ ٣٥١»، الأكاف من المراكب شبه (الرِّحال) و(الأقتاب) كما جاء في «القاموس المحيط ٣/ ١٢٢»، أكاف الحمار، ككتاب، وغُراب، ووكافه بَرْذَعَتُه، وجاء في «محيط المحيط ١٢». الإكاف والوكاف، برذعة الحمار.

(٢) عن (وصف دهلي) راجع «رحلة ابن بطوطة ٤١٥ـ ٤١٨»، و«كتاب تقويم البلدان ٣٥٨ـ ٣٥٩».

(٣) يذكر ابن بطوطة في «رحلته ٤١٥» أن مدينة دِهْلي كانت في الوقت الذي دخلها وهو سنة (٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م) تتكون من أربع مدن متجاورات متصلات، (دِهْلي)، وهي المدينة القديمة، و(سيرى) أو (دار الخلافة)، و(تغلق آباد) و(جهان بناه).

(٤) مارَسَتْان: ويقال: (بيمارسَتْان)، و(بيَمْرَسْتان)، كلمة فارسية مركبة من لفظين (بيمار) بمعنى مريض، أو عليل، أو مصاب، و(ستان) بمعنى مكان، أو دار، فهي (دار المرضى)، ثم اختصرت في الإستعمال فصارت (مارستان)، كما يُطلق (المارستان) على المكان المعد لإقامة المجانين. «محيط المحيط ٦٤»، و«تاريخ البيمارستانات ٤٤».

(٥) الخَوَانِق: ويُقال لها (الخوانِك)، أو (الخَانْقَاوات)، جمع (خانَقْاه)، أو (خانْكَاه)، وهي كلمة فارسية بمعناها (بيت) وقيل أصلها (خونقاه)، أي البيت الذي يأكل فيه الملك، عُرفت في الإسلام في حدود سنة أربعمائة من الهجرة، وجُعلت لِتَخَلِّي الصوُّفية فيها لعبادة الله تعالى. «الخطط ٢/ ٤١٤»، و«العصر المماليكي ٤٣٣».

والرُّبُط[١]، عدة ألفين مكاناً، وبها الدِّيارات[٢] العظيمة، والأسواق الممتدة، والحَمَّامات الكثيرة، وجميع مياهها من آبار قريبة الْمُسْتَقى أعْمق ما يكون سبعةَ أذرع، عليها السَّواقي، وأما شرب أهلها، فمن ماء المطر في أحواض وسيعة تجتمع /١٧/ فيها الأمطار، كل حوض يكون قُطْره[٣] غَلْوَة[٤] سهم أو أزيد، وبها الجامع المشهور المأذنة، التي قال: إنه ما على بسيط الأرض لها شبيه، في سَمْكها وارتفاعها. قال الشيخ برهان الدين بن الخلال البَزّي الصّوفي: إنَّ علْوُها ستمائة ذراع في الهواء.

قال الشيخ مبارك: وأما قصور السلطان، ومنازله بدِهْلي، فإنها خاصَّة يسكنه، وسكن حريمه، ومقاصير جواريه، وحظاياه[٥] وبيوت خَدَمِه، ومماليكه، لا يسكن معه أحد من الخانات[٦] والأمراء، ولا يكون به أحد منهم، إلا إذا حضروا للخدمة، ثم ينصرف كل واحد إلى بيته. وخدمتهم مَرّتين في كُلِّ نهار، في بُكْرة كُلّ يوم، وبعد العصر منه. وَرُتَب الأمراء على هذه الأنواع، أعلاهم قدراً، الخانات، ثم الملوك، ثم الأمراء، ثم الإصْفَهْسلارية[٧]، ثم الجند.

---

(١) الرُّبُط: جمع رباط، وهي هنا بمعنى بيت الصوفية، ومنزلهم، ولكل قوم دار، والرِّباط دارهم، وللرباط أصله من السُّنَّةِ، إذا اتخذ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم لفقراء الصحابة الذين لا يأوون إلى أهل، ولا مال، مكاناً من مسجده يُقِيْمُون فيه، عُرِف هؤلاء بأهل الصُّفَّة. «المصباح المنير ١/ ٢٣١»، و«الخطط ٢/ ٤٢٧».

(٢) الدِّيارات، مفردها (دار)، وهو المحلُّ، يجمع البِنَاءَ، والعَرَصَةَ، كما تأتي بمعنى المدينة. «محيط المحيط ٢٩٨».

(٣) القُطْر: قُطْر الدائرة، الخط المستقيم، والواصِل من جانب الدائرة إلى الجانب الآخر، بحيث يكون وسطه واقِعَاً على المركز. «التعريفات ١٨٦».

(٤) غَلْوة: الغَلْوة، الغاية، وهي رمية سهم أبعد ما يقدر عليه، ويُقال: هي قدر ثلاثمائة ذراع إلى أربعمائة، والجمع غَلْوات. «المصباح ٢/١٠٦».

(٥) حظاياه: القريبات إلى قلبه، ومن لَهُنّ مكانة، وحظ، ومنزلة. راجع «مختار الصحاح ٦٠»، و«محيط المحيط ١٧٨».

(٦) الخانات: الخان لقب تركي، أطلق منذ القرن الأول أو الثاني من الهجرة، على شيوخ الأمراء في قبائل الترك، ثم أُطلق على وُلاة المغول، الذين يخضعون ولو اسْمِياً لسيد الأسرة الأعظم، (الخاقان) أو (القان)، ثم لُقِّبَ به السلطان المغول في فارس والروم، وكانت أول معرفة المسلمين بهذا اللقب، عندما دخل خانات التركستان في الإسلام وبدأوا احتكاكهم بالعالم الإسلامي، فالأمير (نصر بن علي) أُطلق عليه هذا اللقب في سِكّةٍ بتاريخ (٣٩٠هـ/ ٩٩٩م)، «الألقاب الإسلامية ٢٧٤».

(٧) الإصْفَهْسَلارية: أو الاسفهسلارية: لقب من ألقاب أرباب السيوف، وكان في الدولة الفاطمية لقباً على صاحب وظيفة تلي وظيفة صاحب الباب، ومعناها (مُقَدّم العسكر)، وهو مركب من لفظين: فارسي، وتركي، (أسْفَه) بالفارسية، بمعنى (المَقَدّم)، و(سَلاَر) بالتركية بمعنى (العسكر) «الصبح ٦/ ٧-٨».

وفي خدمته (ثمانون خاناً، أو أزيد)، وعسكره تسعمائة ألف فارس، من هؤلاء من هو بحضرته، ومنهم في سائر البلاد، يجرى عليهم كلهم ديوانه[١]، ويشملهم إحسانه.

وعساكره من الأتراك، والخَطَا[٢]، والفرس، والهند، ومنهم البَهَالوين[٣]، والشُّطَّار[٤]، ومن بقية الأنواع، والأجناس، كلهم بالخيل المُسوَّمة[٥]، والسِّلاح الفائق، والتَّجَمُّل الظاهر.

وغالب الأمراء، والجند تشتغل بالفقه، ويتمذهبون خاصّة، وأهل الهند عامة لأبي حنيفة (رضي الله عنه).

وله ثلاثة آلاف فيل مُحَقَّقة[٦]، تُلَبَّس في الحروب البركصطوانات[٧] الحديد

---

(١) الديوان، موضع لحفظ ما يتعلق بحقوق السلطة، من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش، والعمال، والديوان في الفارسية اسم (الشياطين)، فَسُمّى الكُتّاب باسمهم، لحذقهم الأمور، ثم سُمّي مكان جلوسهم باسمهم، فقيل: (ديوان)، وهناك وَجْه آخر عن سبب تسميته بهذا الاسم، هو أنّ (كسرى) اطّلعَ ذات يوم على كُتَّاب ديوانه فقال: (ديوانه) أي (مجانين) فَسُمِّيَ موضعهم بهذا الاسم، وَحُذِفَت الهاء تخفيفاً فقيل (ديوان) وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه أول من استخدم الديوان في الإسلام «الأحكام السلطانية ١٩٩». راجع أيضاً «المقدمة ٦٧٥ـ ٦٧٩».

(٢) الخَطَا: قبائل أو جماعات تنتمي إلى أصول مغولية، على الأرجح، اصطبغت فيما بعد ببعض الملامح التركية، كانت تستقر في الأطراف الشمالية من بلاد الصين، وفي القرن العاشر الميلادى أَسَّسَوا لهم دولةً، عُرفت في المصادر الصيِّنية، باسم دولة أسرة ليا أو (Leao). «العلاقات السياسية. بين دولة الخطا، والدول الإسلامية المعاصرة/ بحث منشور في مجلة كلية العلوم الاجتماعية في العدد الخامس ١٤٠١هـ ص ٤٠».

(٣) البَهَالِوين: لعلها جَمْع (بَهلْوَان)، وهي كلمة فارسية، معناها الشجاع الجريء. «محيط المحيط ٥٩».

(٤) الشُّطَّار: جاء في لسان العرب ٦/ ٧٦: «وشَطَر عن أهله شُطُوراً، وشُطُوْرَةً، إذا نزح عنهم وتركهم مراغماً، أو مخالفاً، وأعْياهم خُبثاً. والشَّاطر، مأخوذ منه، وقد شَطُرَ شُطُوراً وشَطَارة، وهو الذي أعيا أهله، ومؤدبه خُبْثاً.. وفلان شاطر أي أخذ نحو غير الاستواء، ولذلك قيل له شطر، لأنه تباعد الاستواء. وجاء في كتاب «حكايات الشُّطَّار والعَيَّارين ١٣ـ ١٤»: أنهم جماعة عاشوا على هامش المجمع، وفي سنح الكيان الإجتماعي، وهم ليسوا لصوصاً بالمعنى التقليدي الشّرّير، وإنما متمرّدون سُدَّت في وجوههم السُّبُل الشَّرْعية، أو المشروعة، فلم يجدوا إلا اللصوصية والشَّطارة، والعِيَارة، وَقَطْع الطريق سبيلاً، للتعبير عن قضيتهم، وأنفسهم، وهم الطوائف الشعبية، التي تزعمت حركات المقاومة في (بغداد)، و(دمشق)، و(القاهرة) ضد الغزاة والمحتلين.

(٥) المُسَوّمَة: «الخيل المُسَوَّمة التي لها سمَة أيّ علامة».

(٦) محققة: أي تستحق أن يُحمل عليها، ويُنتفع بها. راجع «محيط المحيط ١٨٢».

(٧) البركصطوانات: لبوس للخيل عند الحرب، يُقال لها (بركستوانات) مفردها (بركستوان) أو (بركصطون) مصنوعة من الفولاذ، حَلَّت محل التجافيف «نظم دولة سلاطين المماليك ٢/ ٢٦»، «العصر المماليكي ٤١٨».

المذهب، وأما في أوقات السلم فتلبَّس جلال الديباج[١]، والوشي[٢]، وأنواع الحرير، وتُزَيّن بالقصور، والأسِرَّةِ المصفحة، وتُشَدّ عليها البروج من الخُشُب المُسَمَّرة، ويتبّوأ بها رجال الهند مقاعد للقتال، ويكون على الفيل من عشرة رجال إلى ستَّةِ رجال، على قدر احتمال الفيل.

وله عشرون ألف مملوك أتراك. قال البزّي: وعشرة آلاف خادم خَصِيّ وألف خِزَنْدار[٣]، وألف بَشْمِقدار[٤]، وله مائتا ألف عبدٍ رِكابِيّة تلبس السلاح، /١٨/ وتمشي في رِكاب السلطان، وتقاتل رجّاله بين يديه، وليس يستخدم أحدٌ من الخانات، والملوك، والأمراء، والإصفهسلارية أجناداً، تُقْطَع لهم الإقطاعات من قبلهم، كما هو في مصر والشام، بل ليس يُكَلّف الواحد منهم إلا نفسه، وعدّتُه من الجند، استخدامهم إلى السلطان، وأرزاقهم من ديوانه، ويبقى كلما تَعَيّن لذلك الخان، أو الملك أو الأمير، أو الاصفهسلار خاصّ لنفسه.

والحُجّاب[٥]، وأرباب الوظائف، وأصحاب الأشغال، من أرباب السيوف، من

---

(١) الديباج: مُعَرَّب، وهو ثوب سُداه ولحمته ابريسم «المصباح المنير ١/ ٢٠١» وجاء في «الموسوعة العربية الميسرة ٨٢٩»: أنه نسيجٌ من مختلف الأجناس استعمل كثيراً في العصور الوسطى في الشَّرق، لباساً للرجل، وكانت تصنع منه بخاصة كُسَى التشريف.

(٢) الوشي، نقش الثوب، ويكون من كل لون، والواشي الحائك. «محيط المحيط ٩٧١»، و«المعجم الوسيط ٢/ ١٠٣٦».

(٣) خِزَنْدار: الخِزَنْدار، لقبٌ يُطلق على من يقوم على خزانة السلطان، أو الأمير، أو غيرهما، وهو مُرَكَّبٌ من لفظين، عربي وهو (خِزَانة)، وهي ما يُخْزن فيها المال، وفارسي وهو (دار) ومعناها (مُمْسِك)، فَحُذِفَت الألف والهاء من (خِزَانة) استثقالاً، فصارت (خِزَنْدار)، ومعناها (مُمْسِك الخَزْنَة). ومُقَدّم الخِزَنْدار، من مُقَدَّمي الألوف. «الصبح ٤/ ٢١، ٥/ ٤٦٣»، و«زبدة كشف المماليك ١١٤»، و«تاريخ المماليك البحرية ٢٢٠ـ ٢٢٢».

(٤) بَشْمِقدار: البَشْمِقدار، هو الذي يَحمل نَعْلَ السلطان، أو الأمير، وهو مُرَكَّبٌ من لفظين أحدهما (بَشْمَق)، من اللغة التركية، ومعناه (النَّعْل) والثاني (دار) من اللغة الفارسية، ومعناه (مُمْسِك)، فيكون المعنى (مُمْسِك النَّعْلَ) ويذكر القلقشندي روايةً أخرى لِرَسْم الكلمة نقلاً عن صاحب كتاب (الأنوار الضّويّة في إظهار غَلَطِ الدرّة المضيّة في اللغة التركية) وهو (بَصْمَقدار) لأن الصواب في (النَّعْل) (بَصْمَق). «الصبح ٥/ ٤٥٩».

(٥) الحُجّاب: الحاجب، أمير وظيفته أن يُنْصف بين الأمراء والجند، إما بنفسه، أو بمراجعة نائبه ويقدم إليه من يعرض، ومن يَرِد، وعَرْض الجند وما ناسب ذلك، أول ما عُرِف هذا الاسم في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ـ ٨٦هـ/ ٦٨٤ـ ٧٠٥م)، وكانت مهمة الحاجب إذْ ذاك حَجْب السلطان عن العامة، وإغلاق بابه أو فتحه دونهم في مواقيت معينة «الصبح ٤/ ١٩ـ ٢٠»، و«المقدمة ٦٧١ـ ٦٧٥»، و«حسن المحاضرة ٢/ ١٣١، ١٣٣، ١٣٤».

الخانات، والملوك، والأمراء، لكل رتبة من يناسبها، على مقدارها.

فأما الإصفهسلارية، فلا يؤهّل منهم أحدٌ لقرب السلطان، وإنما يكون منهم نوعُ الولاة، ومن يجرى مجراهم.

والخان، يكون له عشرة آلاف فارس، والملك ألف فارس، والأمير مائة فارس، والإصفهسلارية دون ذلك.

وأما أرزاقهم، فيكون للخانات، والملوك، والأمراء، والإصفهسلارية، بلاد مقرّرة عليهم من الدِّيوان، إن كانت لا تزيد، فإنها لا تنقص، والغالب أن تَجِيء أضعاف ما عبرت[١] به.

ولكل خان لُكَّان، كل لُكٍّ مائة ألف تَنْكة[٢]، كل تَنْكَة ثمانية دراهم[٣]، هذا خاص له، لا يخرج منه لجندي من أجناده شيء، ولكل ملك من ستين ألف تَنْكة إلى خمسين الف تَنْكَة، ولكل أمير من أربعين ألف تَنْكَة إلى ثلاثين ألف تَنْكَة، والإصفهسلارية من عشرين ألف تَنْكَة، وما حولها، وأما الجند فلكل جندي مِن عشرة آلاف تَنْكَة إلى ألف تَنْكة، وأما المماليك السلطانية فلكل مملوك من خمسة آلاف تَنْكَة إلى ألف تَنْكَة، وطعامهم وكساويهم وَعَلِيقِهِم[٤]. والجند، والمماليك ليس لهم بلاد، وإنما يأخذون أموالهم نقداً من الخزانة، وأما أولئك[٥] فبلاد تلك غيرها.

قال: والآن إن لم تَزِد متحصلات البلاد المقتطعة لهم عن العَبَر، وإلا فما

---

(١) عبرت: في «مفاتيح العلوم ٥٦»: العَبَر، ثَبْت الصَّدَقات لِكُورَة من الكُور، وعَبْرة سائر الارتفاعات هو، أن يُعْتبر مثلاً ارتفاع السَّنة التي هي أقل رَيْعاً، والسنة التي هي أكثر رَيْعاً، ويُجْمعَان ويؤخذ نصفهما، فتلك العَبْرَة، بعد أن تُعْتَبَر الأسعار وسائر العوارض.
وفي كتاب «العصر المماليكي ٤٥٦»: العَبْرَة، هي «مِقْدَار المساحة، وهي مِقْدَار المربوط من الخراج، أو الأموال على كل اقطاع من الأرض وما يُتَحصل عن كل قرية، من عين أو غَلّة».

(٢) تَنْكَة: نَقْدٌ ذَهَبِيٌ، أو فِضِّيٌ، يُعادل (تُولَة، واحدة) أو (١١) جراماً، و(٦٦٤) ملي جراماً، كما يساوي أيضاً (٥٠) جيتلاً وقد عَرَفت الهند هذا النقد منذ عهد المماليك (٦٠٢ـ ٦٨٩هـ/ ١٢٠٥/ ١٢٩٠م) «نزهة الخواطر ٩/ ٣٧٨، ٣٨١».

(٣) دراهم: الدرهم فارسي معرب «المخصص» (١٢/ ٢٧) والدرهم الشرعي، هو الذي تزن (العشرة) منه (سبعة) مثاقيل من الذهب، والأوقية منه (أربعين) درهماً، وهو على هذا (سبعة أعشار) الدينار، ووزن المثقال من الذهب (اثنتان وسبعون) حبة من الشعير، فالدرهم الذي هو (سبعة أعشاره) (خمسون حبة وخُمْسا حبة) وهي مقادير ثابتة بالإجماع «المقدمة ٢/ ٧٠٣».

(٤) عَلِيقهم: أي طعامهم، راجع «المصباح المنير ٢/ ٧٦» وجاء في «محيط المحيط ٦٢٧». أن (العَلِيق) هو شعير الدَّابة، أو هو ما تُعْلَقه الدابة من الشعير ونحوه.

(٥) أي الخانات، والملوك، والأمراء، والإصفهسلارية.

تنقص، ومنهم من يحصل له قدر عبرته مرتين، وأكثر، وأما العبيد فلكل عبد منهم في كل شهر مَنّان من الحِنْطة، والأرز، طعاماً لهم، وفي كل يوم /١٩/ ثلاثة أسْيار[١] لحم، بما يحتاج إليه، وفي كل شهر عشر تَنْكات بيضاء[٢]، وفي كل سنة أربع كساوى.

ولهذا السلطان دار طِراز[٣]، فيها أربعة آلاف قَزَّاز[٤] تَعْمَل الأقمشة المنوعة للخِلَع[٥]، والكساوى، والإطلاقات[٦]، مع ما يُحمل له من قماش الصين، والعراق، والإسكندرية. وهو يُفَرِّق في كل سنة مائتي ألف كسوة كاملة؛ مائة ألف كسوة في الربيع، ومائة ألف كسوة في الخريف، فأما كسَاوَى الربيع فغالبها من القماش الإسكندري، عمل إسكندرية، وأمّا كَسَاوى الخريف، فكلها حرير من عمل دار الطِّراز بدِهْلي، وقماش الصين، والعراق. ويُفَرّق على الخوانِق والرُّبط الكَساوى. وله أربعة آلاف زَرْكشي، تعمل الزَرَاكِش لباقي الحريم، وتعمْل في مستعملاته[٧]، ولما

---

(١) أسْيَار: واحدة (سَيْر)، وهو من الأوزان الهندية، يساوي (٨٠) تولة، أو (٩٣٣) جراماً، أو (١٢٠) ملي جراماً «نزهة الخواطر ٩/ ٣٨٠».

(٢) أي من النقد الفضي.

(٣) دار طِراز: جاء في «المقدمة ٢/ ٧٠٨ـ ٧٠٩»: أنّ من أُبَّهَةِ الملك، والسلطان، ومذاهب الدول، أنْ تُرسم أسماؤهم، أو علامات تختص بهم في طراز أثوابهم المُعَدَّة للباسهم، إما بالذهب أو بخيوط ملونة غير الذهب، والقصد من ذلك التمييز بلابسها، من السلطان فما دونه، وقد كان ملوك العجم يجعلون ذلك الطراز بصور الملوك وأشكالهم، أو أشكالٍ وصورٍ معينة، ثم اعتاض ملوك الإسلام عن ذلك، بكَتْبِ أسمائهم، مع كلماتٍ أخرى تجري مجرى الفأل أو السجلات.

(٤) قَزّاز: القزّ «الحرير على الحال التي يكون عليها عندما يُستخرج من الصُّلَّجَةِ، والقَزَّازُ، بائع القَزِّ وناسِجُه». «محيط المحيط ٧٣٣»، و«المعجم الوسيط ٢/ ٧٣٢».

(٥) الخِلَع: الخِلْعة، ثوبٌ يَلْبَسُه الحاكِمُ، ويَمْنَحه هديةً بعد أن يَخْلَعه، وهو بمثابة أمان للشخص الذي يخلعه عليه أكثر منه تكريماً له، وتطور مفهوم الخُلْعة في العصر المماليكي، وأصبح هدية شائعة، حتى أنّ موظفي الدولة اعتبروا ذلك حقّاً مكتسباً، كمرتباتهم سواءً بسواء، وقد عقد «القلقشندي» في كتابه «صبح الأعشى ٤/ ٥٢» فصلاً أطلق عليه عنوان (الخُلَع والتَّشاريف) وضَّح فيه كيف تختلف الخُلَع في أنواعها، وألوانها، ورسومها، حسب طبقات رجال الدولة، والمناسبات والأماكن التي يتم الخَلْع والتشريف فيها وكذلك «المقريزي» في «الخطط ٢/ ٢١٦» ولمزيد من التفصيل حول موضوع (الخُلَع) راجع أيضاً «الملابس المملوكية ١٠١».

(٦) الإطلاقات: هي ما يُقَرِّرُه السلطان لفئةٍ من موظفي الدولة، أو لأسرة من الأسر، أو لأحد أفراد رعيته سواء من أرباب الدولة، أو من غيرهم، من مخصصات نقدية أو عَيْنِيّة، وهي على ثلاث أنواع: إما تَقْرِيرٌ لما قَرَّره غيره ممن سبقه من سلاطين أو ملوك، وإما ابتداء لتقرير ما لَمْ يَكُنْ مقرّراً قبل، وإما زيادة على ما هو مُقَرّر. تفصيل ذلك في «الصبح ١٣/ ٤١».

(٧) مستعملاته: أي الأشياء الخاصة به.

يَخْلعه على أرباب دولته، ويُعْطِي لنسائهم.

ويفرِّق في كل سنة عشرة آلاف فرسٍ عربي من الخيل العِرَاب المُسَوَّمة؛ منها ما هو مُسْرَج مُلْجَم[1]، ومنها ما هو عربي بلا سَرْج ولا لِجَام، والمُسْرَجات والمُلْجَمات على أنواع؛ منها ما هو مُلَبَّس، ومنها ما هو مُحَلّى، ثم إن تلك المُلَبّسات، والمُحَلّيَات، منها ما هو بالذّهب، ومنها ما هو بالفضة. فأما ما يُعْطِي من الخيل البراذين، فإنه بلا حساب، يُعْطي جُشَارات[2]، ويفرّق مئينا مئينا، وهو على كثرة الخيل ببلاده، وكثرة ما يُجْلَب إليه يتطلبها من كل قطر، ويبذل فيها أكثر الأثمان، لكثرة ما يُعْطي ويُطْلِق، وهي مع هذا غالية الثمن، مُرْبحة المكاسب لِمَن يتاجر فيها، لكثرة المكاسب، والعساكر، وجمهرة الخَلْق.

وحدثني علي بن منصور العُقيلي، من أمراء عَرَب البحرين وهم ممن يَجْلِبون الخيلَ إلى هذا السلطان، أن لأهل هذه البلاد علامة في الفرس يعرفونها بينهم، متى ما رأوها في فرس، اشتروه بما عسى يبلغ ثمنه.

ولهذا السلطان نائب من الخانات يُسمى (إمريت)، إقطاعه يكون قدر إقليمٍ عظيمٍ نحو العراق، ووزير، وإقطاعه يكون قدر إقليم نحو العراق، وله أربعة نواب، يُسَمى كل واحد منهم (شق)، ولكل منهم من أربعين ألف تَنْكَة إلى عشرين ألف تُنْكة، وله أربعة /٢٠/ (دبيران) أي كتاب سِرّ ـ لكل واحد منهم مدينة من المدن البَنَادر العظيمةِ الدَّخْلِ، ولكل واحدٍ منهم بقدر ثلاثمائة كاتب أصغر من فيهم، وأضيق رزقاً له عشرة آلاف تَنْكَة، وأما أكابرهم فلهم قرى وضياع، وفيهم من له خمسون قرية، ولصدرِجَهَان، وهو اسم قاضي القضاء، وهو في وقتنا كمال الدين بن البرهان[3]،

---

(١) مُلْجَم: اللّجَام فارسي مُعَرَّب، وهو حبلٌ، أو عصا، يدخل في فم الدّابة، ويُلْزَق إلى قفاه. «المخصص ٦/ ١٨٨».

(٢) جُشَارات: الجُشَار، الماشية، ويُقْصد بها أحياناً الخيول والبقر، التي تُساق مع الجيش، راجع «محيط المحيط ١١٠»، و«النظم الإقطاعية ٤٧٧».

(٣) كمال الدين محمد بن البرهان الغزنوي، الملقب بـ«صدر جهان»، الفقيه، الإمام العلامة، قاضي القضاة، بالهند والسِّند، ذكره «ابن بطوطة» في «رحلته» أثناء حديثه عن فتح مدينة دِهْلي سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م، ومن تداولها من الملوك، حيث نقل عنه خبر تلك المدينة، كما ذكر أنه تلقى منه معظم أخبار سلاطين الهند، ما عدا محمد تغلق شاه، حيث اعتمد في نقل أخباره على المشاهدة، والمعاينة عند زيارته لبلاده ٤٢١، ٤٤١ وذكر صاحب «نزهة الخواطر ٢/ ١٢٩»: أنه الشيخ الفاضل محمد بن البرهان، القاضي كمال الدين الهانسوي، أحد كبار الفقهاء الحنفية، قرأ العلم على خاله الشيخ العلامة فخر الدين الهانسوي، برع في العلم، وتأهل للفتوى، والتدريس، ولي القضاء، حتى صار =

عشر قرى، يكون متحصلها قريب ستين ألف تَنْكَة، ويُسمى صدر الإسيلام، وهو أكبر نوّاب الحُكْم بالقضاء، ولشيخ الإسلام، وهو شيخ الشيوخ مثله. وللمحتسب قرية يكون متحصلها نحو ثمانية آلاف تَنْكَة.

وله ألف طبيب ومائتا طبيب وعشرة آلاف بَزْدَار[١] تركب الخيل، وتحمل الطيور المُعَلّمة للصيد، وثلاثة آلاف سَوّاق تسوق لتحصيل الصَّيد، وخمسمائة نديم، وألفان ومائتا نفرٍ من الملاهي، غير مماليكه الملاهي؛ وهم ألف مملوك، برسم تعليم الغنا خاصَّة، وألف شاعر من اللغات الثلاثة؛ العربية، والفارسية، والهندية، من ذوي الذوق اللطيف، يجري على هؤلاء كلهم ديوانه، وتدر عليهم مواهبه. ومتى بلغه أَنَّ أحداً من ملاهيه غَنّى لأحد قتله. وسألته عما لهؤلاء من الأرزاق ؟ فقال: لا أعلم مِن أرزاق هؤلاء إلاَّ ما للندماء، فإنَّ لبعضهم قريتين، ولبعضهم قرية، ولكل واحد منهم، من أربعين ألف تَنْكة، إلى ثلاثين ألف تَنْكة، إلى عشرين ألف تَنْكَة، على مقاديرهم من الخِلع والكَسَاوى، والإفْتِقَادات[٢].

قال الشيخ مبارك: ويُمَدّ[٣] لهذا السلطان السِّمَاط أوقات الخدم في طرفي النهار مرتين في كل يوم، ويَطْعم منه عشرون ألف نفر مثل: الخانات، والملوك، والأمراء، والإصْفَهْسلارية، وأعيان الجند، وأما طعامه الخاص فيحضر معه عليه الفقهاء؛ مائتا

= أقضى قضاة الهند في عهد تغلق شاه، واستمر في هذا المنصب حتى آخر عهد (محمد تغلق شاه) الذي كان يقربه إلى نفسه، رغم غَشَمه وجوره.

(١) بَزْدَار: أو (البَازْدَار)، هو الذي يحمل الطيور الجوارح المعدّة للصيد على يده (والباز) أحد أنواع الجوارح، وخُصّ بإضافته إلى الباز دون غيره، لأنه هو المتعارف بين الملوك في الزمن القديم «الصبح ٥/ ٤٦٩».

(٢) الإفتقادات: جاء في «محيط المحيط ٦٩٧»: الفقد مصدرٌ، ونبات، أو شراب من زبيب، أو عسل.

(٣) قارن بـ«الصبح ٥/ ٩٥»، وقد ذكر (أن الخدمة، خدمتان، أحدهما الخدمة اليومية، فإنه في كل يوم يُمَدّ الخوان في قصر السلطان، ويأكل منه عشرون ألف نفر من الخانات..الخ. والثانية الجُمَعِيَّة، حيث يجلس يوم الثلاثاء من كل أسبوع جلوساً عاماً للناس في ساحة عظيمة). وكذلك في «رحلة ابن بطوطة ٤٥٠ ـ ٤٥١»، وصف لترتيب طعام السلطان ذكر فيه، أنه على صنفين، طعامٌ خاصٌّ، وطعامٌ عامٌّ، أما الطعام الخاص فيحضره الأمراء، والخواص، وأمير الحُجَّاب ابن عم السلطان، وعماد الملك (سَرتِّيز)، وأمير المجلس، وغيرهم ممن يرى السلطان تكريمه من كبار النَّاس. وقد حضر ابن بطوطة طعام العام فقد وصف كيفية تقديمه، وكيف تُسَجّل أسماء من يحضره ونوعه، وكيفية ترتيب جلوس أرباب الدولة وعامَّة الناس على السِّماط. وبما يُبْدأ به من الشراب، وكيف يُكْتَب جميع ما يحتويه الطعام أمام كل إنسان، ثم ما هي أنواع الأشربة بعد الفراغ من الطعام، كما ذكر أنَّ موعد تناول الطعام مرتين في اليوم، قبل الظهر، وبعد العصر.

فقيه في الغذاء والعَشَاء، ليأكلوا معه، ويبحثوا بين يديه.

قال الشيخ أبو بكر بن الخلال البزي: سألت طَباخ السلطان، كم يُذبح في مطابخه كل يوم؟ فقال: يُذبح ألفان وخمسمائة رأس من البقر، وألفا رأس من الغنم، غير الخيل /٢١/ المسمنة، وأنواع الطير.

قال الشيخ مبارك: ولا يحضر مجلس هذا السلطان من الجند، إلا الأعيان، ومن دعته ضرورة إلى الحضور؛ لكثرة عددهم، وكذلك مجالسة الخاصه، لا يحضر بها جميع أرباب الخدم من الندماء والمغاني إلا بالنُّوب، وكذلك أرباب الوظائف مثل: الدُّبَيْران والأطباء ومن يجري مجراهم لا يحضرون إلاّ بالنُّوب، وأما الشعراء فلحضورهم أوقات مخصوصة في السنة، مثل: العيدين، والمواسم، ودخول شهر رمضان، وعندما يتجدد نصره على أعداء، أو فتوح من الفتوحات، أو غير ذلك مما تُهَنّى به السلاطين، أو يُتَعرض إلى مدحهم فيه.

وأمور الجند خاصّة، بل الناس عامة إلى (أَمْرِيتّ)، وأمور الفقهاء والعلماء القاطنين، والواردين كلها إلى (صدرجهان)، وأمور الفقراء القاطنين، والواردين إلى (شيخ الإسلام)، وأمور عامة الواردين، والوافدين، والأدباء، والشعراء القاطنين والواردين إلى (الدبيران)، وهم كُتَّاب السرّ.

وحدّثني قاضي القضاة، أبو محمد الحسن بن محمد الغوري الحنفي[1]، أن السلطان محمد بن طغلق شاه، كان قد جَهّزَ بيغصان، أحد كتّاب سِرِّه إلى جهة السلطان أبي سعيد[2] رسولاً وبعث معه ألف ألف تَنْكة، ليتصدق بها في المشاهِد،

---

(١) حسام الدين، الحسن بن محمد الغوري، ولي قضاء الحنفية في مصر سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م ثم عُزل عنه سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م، فوصل إلى حلب في ذي الحجة سنة ٧٤٢هـ وافداً من بغداد، ومنفياً من القاهرة؛ بسبب ما اعتمده في الأحكام، ولمعاضدته لقوصون، ولسوء سيرته.

ترجمته في: تاريخ ابن الوردي ٢/ ٤٧٤ ـ ٤٧٥، والسلوك ج٢/ ق٣/ ٦١١ ـ ٦١٣ وحسن المحاضرة ٢/ ١٨٤.

(٢) القان، أبو سعيد بن خَرَبَنْده بن أرغون بن أبغا بن هولاكو المُغلي، كان يكتب الخط الجيد المنسوب، ويجيد ضرب العود، وفيه رأفة وديانة، وقلة شر، استقر في السلطة بعد وفاة والده خَرَبَنده سنة ٧١٦هـ/ ١٣١٦م وقيل في أول جمادى الأولى سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م بمدينة السُّلْطانية قرب جبال كيلان وكان عمره إحدى عشرة سنة. خضعت له العراق، والجزيرة، وأذربيجان، وخراسان وأطراف ممالك ما وراء النهر، توفي في الأزد سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م بعد عشرين سنة من الحكم ونُقل إلى مدينة السلطانية ودُفن فيها.

ترجمته في: ذيول العبر ١٠٤ ـ ١٠٥ وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨، ٤٤٤ وصبح الأعشى ٤/ ٣٥٨، والنجوم الزاهرة ٩/ ٣٠٩، وقد جاء اسمه (بوسعيد).

بالكوفة، والعراق، وتلك الآفاق، وكان هذا بيغصان مُخَبّث النّيّة، فجمع أَحْوَاله عازماً على أَنّه لا يرجع إلى حضرة مُرْسله، وصادف وصوله وفاة أبي سعيد، فتمكن مما قصده، وحضر إلى بغداد، ومعه نحو خمسمائة فرس له ولأصحابه، ثم تَوجّه إلى دمشق. قال: ثم بلغني أنه عاد منها إلى العراق، وأقام ببغداد، واستوطنها.

قلت: وقد حدثني بحال هذا، الفاضل نظام الدين، أبو الفضائل يحيى بن الحكيم، وقال لي: إنه رآه بدمشق لكنه لم يذكر مبلغ هذه الصَّدَقة وكذا حكى لي عنه [السُّبْكي][1]، والمُلْتاني، والبَزّي وإنْ تخالفت ألفاظهم، فمعناها واحد.

وقال كل منهم: إن هذا بيغصان من الفضلاء الأعيان والدَّيِّنة[2] الأخيار.

قال الشيخ أبو بكر البزي[3]: ـ وهذا السلطان ترعد الفرائص لمهابته وتتزلزل الأرض لموكبه، وهو كثير التَّصَدِّي /٢٢/ لأُمور مملكته، وهو يجلس بنفسه لإنصاف رعيته.

---

(١) السُّبكي: أكثر من واحد عاصر ابن فضل الله العمري، لُقِّب بالسُّبكي؛ منهم:
القاضي تقي الدين، أبو الفتح، محمد بن عبد اللطيف السبكي ولد في دمشق ١٧ ربيع الآخر سنة ٧٠٥/ ١٣٠٥م وتوفي في يوم السبت ١٨ ذي القعدة سنة ٧٤٤هـ/ ١٣٤٣م، وتاج الدين، عبد الوهاب بن تقي الدين علي السبكي. (٧٢٧ ـ ٧٧١هـ/ ١٣٢٦ ـ ١٣٦٩م)، وبدر الدين أبو المعالي، محمد بن محمد بن عبد اللطيف الشافعي السُّبكي ٧٣٦ ـ ٧٧١هـ/ ١٣٣٥ ـ ١٣٦٩م)، وكمال الدين أبو البركات السبكي الشافعي المتوفى سنة ٧٧٦هـ/ ١٣٠٧ ـ ١٣٧٤م، ومحمد بن عبد البر بن يحيى بن علي السبكي (٧٠٧ ـ ٧٧٧هـ/ ١٣٠٧ ـ ١٣٧٥م)، وولي الدين، أبو ذر، عبد الله بن أبي البقاء بهاء الدين محمد بن عبد البر بن يحيى بن تمام السبُّكي. ولد في مصر، في جمادى الآخرة سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٤م، أحضر على زهرة بنت الختني، وأسمع على محمد بن غالي، ويحيى بن فضل الله، وأبي نعيم الأسعردي، حفظ الحاوي، ناب في الحُكْم عن قريبه تاج الدين السبكي، ثم عن أبيه، استقل بالحكم في دمشق بعد موت أبيه، له نظم حسن، وكان قد باشر توقيع الدَّست. توفي في سابع شوال سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م بدمشق. ولعل سماعه على والد العمري (يحيى بن فضل الله) وعمله في الدّست. يرجح لدينا أنه هو المَعْني هنا.
ترجمته في: الدرر الكامنة ٣٩٨/٢، والنجوم الزاهرة ٢٩٨/١١».

(٢) الدَّيِّنة: جاء في «لسان العرب ١٧/ ٢٧» يقال: دان بكذا ديانة، وتَدَيّن به فهو دَيِّن، ومُتَدَيِّن. كما جاء في «المصباح المنير ١/ ٢٢٠»، دان بالإسلام دِيناً، بالكسر؛ تعبد به، وتَدَيَّن به، كذلك فهو دَيِّن، مثل: ساد فهو سَيِّد.
وجاء في «محيط المحيط ٣٠٢» الدَّيِّن، صاحب الدين، والمتمسك به.

(٣) راجع ما ذكر ابن بطوطة في رحلته عن قوة هذا السلطان، وحثه على تطبيق شعائر الدين، وحفظ دولته، وإنصافه للمظلومين (الرحلة ٤٤١، ٤٦٩، ٤٧٠).

قال خواجا[١] أحمد بن خواجا عمر بن مسافر[٢]، فيما حكاه عنه: إنه يجلس لقراءة قِصَص الناس عليه جلوساً عاماً، ولا يدخل عليه من معه شيء من السلاح، حتى ولا السكين، إلا كاتب السرّ لا غير، والسلطان عنده سلاح كامل، حتى التّركاش[٣]، والقوس، والنّشّاب[٤]؛ حيث قعد لا يفارقه سلاحه. قال: وهذا دأبه، دائماً أبداً[٥].

وأما ركوب هذا السلطان، فإنه يختلف؛ تارة يكون للحرب، وتارة يكون للانتقال في دِهْلي من مكان إلى مكان، وتارة يكون في قصوره، وأما إذا ركب إلى الحرب، فالجبال سائرة، والرمال سائلة، والبحار تتدفق، والبروق تلمع، وأمور تعتقد كذبها العيان، ويعتقل عن وصفها اللسان، وعن الفيلة من الأبراج مدينة، أو قلعة حصينة، ولا يَرَى الطَّرفُ إلا النَّقْعَ المُثار، ودُجَى ليل ممتد على النهار. وشعار السلطان أعلام سود[٦] في أوساطها تِنِّينٌ[٧] عظيم من الذهب، ولا يحمل أحد في الأعلام سواداً إلاّ له خاصة، وفي الميمنة له أعلام سود، وفي الميسرة أعلام

---

(١) خَوَاجا: لفظ فارسي من ألقاب أكابر التجار، ومعناه السيد، ونسبة المبالغة إليه (خَواجَكِّي) «صبح الأعشى ٦/ ١٣»، جاء في «محيط المحيط ٢٥٩»: أنها كلمة تجمل، يُلقب بها التجار ونظائرهم، أعجمية بمعنى معلم.

(٢) عمر بن مسافر الخواجا ركن الدين أستاذ الأمير شيخو المتوفى في شعبان سنة ٧٥٨هـ/ ١٣٥٦م، وغيره من المماليك العمرية. توفي في ربيع الآخر سنة ٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م، وذكره المقريزي في أحداث سنة ٧٥١هـ/ ١٣٥٠م عندما وفد مع صاحب حصن كيفا على الأمير شيخو في مصر، بعد غيبة طويلة، فَسُرّ به، لأنه هو الذي جلبه من بلاده، ونُسب إليه، فقيل: شيخو العمري «السلوك ٢/ ٣/ ٨١٥، ٩٠٦». «أيمن السيد».

(٣) التِّركاش: هو الكنانة أو الجعبة التي توضع فيها النَّشّاب، «كتاب السلاح ٣١، والمخصص ٦/ ٥٦٩، و«العصر المماليكي ٤٢٣» .

(٤) النَّشّاب: هو ما يُرْمى به عن، القيسي (الفارسية)، وفي المقابل النيل، ما يرمى به عن القِسِي (العربية) «الصبح ٢/ ١٤٢» .

(٥) كل هذه الاحتياطات، اتخذها (محمد طغلق شاه)، بسبب سياسة القمع والشدة التي مارسها مع أفراد رعيته فهو في قلق وخوف دائم من انتقامهم منه.

(٦) لعل اتخاذ السلطان (محمد تغلق شاه) السواد شعاراً، له دلالته في ارتباطه وحبه للعباسيين.

(٧) تنين: جاء في «محيط المحيط ٧٤»: التنين الحوت والحية العظيمة، وبياضٌ خفيٌ في السماء، يكون جسده في ستة بروج وذنبه في البرج السابع، دقيق أسود فيه التواء، وهو يتنقل تنقل الكواكب الجواري.
كما جاء في «الموسوعة العربية الميسرة ٥٥٢»: ذكر في الأساطير بأنه حيوان يجمع بين الزواحف والطير، له مخالب أسد، وأجنحة نسر، وذنب أفعى، كثيراً ما يتخذ شعاراً، أو رمزاً قومياً .

حُمْر[1]، وفيها التِّنِّينان الذهب، وأما بقية الأمراء، فكل واحد يحمل ما يناسبه.

وأما ما يُدَقُّ للسلطان من الرَّهْجِيّات[2] في الإقامة، والسفر، فإنه يدق له مثل الإسكندر ذي القرنين[3]، وهو مائتا حمل نَقّارات[4]، وأربعون حملاً من الكوسات[5] الكبار، وعشرون بوقاً[6]، وعشرة صُنُوج[7]، وتدق له النّوب

---

(١) إذا استطعنا أن نعلل سبب اتخاذ السلطان (محمد تغلق شاه) السواد شعاراً له، وهو الشعار الذي اتخذه العباسيون، فإننا لا نملك دليلاً واضحاً على سبب ظهور الأعلام الحُمر في ميسرته؛ هل مجرد تمييز لها عن الميمنة دون دلالة سياسة معينة؟ أم أن لها مدلولها السياسي؟ ويزيد الأمر غموضاً أن الأعلام الحمر ظهرت شعاراً لبعض فرق جيش الخليفة الأموي «مروان بن محمد» (١٢٧ ـ ١٣٢هـ/ ٧٤٤ ـ ٧٤٩م)، ثم بعد قيام الدولة العباسية سنة (١٣٢هـ) رفعت الرايات الحمر شعاراً لبعض الثائرين على العباسيين، أمثال (العباس بن محمد بن عبد الله السفياني) سنة ١٣٢هـ، و(ومسلمة بن يعقوب بن علي المرواني) زعيم القيسية سنة (١٩٥هـ/ ٨١٠م) بل إن (الخوارج) رفعوا الرايات الحمر شعاراً لهم في حروبهم مع العباسيين.
للوقوف على الألوان ودلالتها السياسية في العصر العباسي، راجع كتاب «بحوث في التاريخ العباسي لفاروق عمر ٢٤٢ ـ ٢٥٩».

(٢) الرَّهجيات: رَهْج، اسم ضرب في الإيقاعات الموسيقية، زمان دوره الأعظم، (٢٢ من ٤)، وهو من الإيقاعات المركبة بالتوصيل من أدوار صغار. «الموسوعة الميسرة ٨٨٢».

(٣) الإسكندر ذو القرنين: هو الإسكندر بن فيلفوس اليوناني، من أهل (مقدونية) استولى على جميع (بلاد الروم)، وملك (دارا)، و(العراق)، و(الشام)، و(مصر)، و(الجزيرة)، ثم استولى على (فارس)، وهدم بيوت النار، قتل (الهرابذة)، وأحرق كتبهم، كما فتح (الهند)، بعد قتل ملكها، وخرّب بيوت أصنامه، وصالح ملك (الصين)، وملك (التبت)، وسار باتجاه الشمال، وملك البلاد الواقعة في ذلك الاتجاه ودانت له مختلف الأمم، وبلغ ديار يأجوج ومأجوج، وقد اختلفت الأقوال حولهم، وأقربها إلى الصحة أنهم نوع من الترك لهم قوة وَمَنَعَة، فشكى له أهل تلك البلاد من فسادهم. فبنى لهم السد كما جاء بيانه في سورة الكهف الآية ٨٣ حتى الآية ٩٨. ثم رجع إلى العراق فمات في طريقه في (شهرزور) بعلة الخوانيق، وكان عمره ستاً وثلاثين سنة، ودفن في تابوت من ذهب مرصّع بالجوهر، وطلي بالصَّبْر، لئلا يتغير، وحُمل إلى أمه في الإسكندرية، وكانت مدة ملكه أربع عشرة سنة. «الكامل في التاريخ ١/ ٢٨٢ ـ ٢٩١».

(٤) نقارات: مفرده (نقارة)، وهي عند (المولّدين) شبه الدَّن؛ من الجلد، يُضرب عليها. «محيط المحيط ٩١١» و«الفنون الجميلة ٣٤٤».

(٥) الكوسات: صنوجات من نحاس، تشبه الترس الصغير، يُدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص. «الصبح ٤/ ٩».

(٦) بوقا: وهو ما يُنفخ فيها لإعلان النَّفير في العسكر، وإرهاب الأعداء، بسبب ما تصدره من صوت. «التعريف ٢٧٧».

(٧) الصَّنُوج: آلات نحاسية يُضرب بعضها على بعض. «الصبح ٤/ ١٣»، وجاء في «محيط المحيط ٥٢٠»، أنَّ (الصنّج) «صحيفة مدّورة من النحاس، يُضرب بها على الأخرى معرَّب (سنج) بالفارسية جمعها (صُنُوج)، ويقال، لما يجعل في إطار الدّف من الهنات المدوَّرة (صُنُوج) أيضاً، وهذا مما =

الخمس[١] أيضاً، ويحمل معه ما لا يحصى من الخزائن وغير ذلك، ما لا يكاد يعد من الجنائب[٢].

وأما في الصيد[٣]، فإنه يخرج في خف لا يكون معه أكثر من مائة ألف فارس ومائتي فيل، ويحمل معه أربعة قصور خشب على ثمان مائة جمل، كل قصر على مائتي جمل مُلَبّسة جميعها ستور حرير سود مذهبة، وكل قصر طبقتان، غير الخيم، والخَرْكاوات[٤].

وأمّا في الانتقال من مكان إلى مكان للتنزه، أو ما هذا سبيله، فيكون معه نحو ثلاثين ألف فارس، وهذه العدة من الفيلة، وألف جنيب مُسْرجَة مُلْجَمة، ما بين مُلَبّس بالذهب ومُحَلًّى /٢٣/، ومُطَوّق، ومنها المُرَصّع بالجواهر، واليواقيت.

وأمّا ركوبه في قصوره، فقال لي الشيخ محمد الخُجْنَدي[٥]، وكان ممن دخل دِهْلي واستخدم في الجند بها: إنَّه رآه، وقد خرج من قصر إلى آخر، وهو راكب، وعلى رأسه الجِتْر[٦]، والسِّلاح دَارِيّة وراءه، محمولاً بأيديهم السلاح، وحوله قريب

= تعرفه العرب، (جك) بالفارسية، كما جاء في «الموسوعة العربية الميسرة ١١٣٢» إنها آلة قديمة، من آلات الإيقاع الموسيقي، تُصنع من النحاس الأصفر الرّقيق على هيئة لوحين مستديرين، قطر كل منهما (٣٠سم) تقريباً، يمكن أن يُضرب بأحدهما فوق الآخر. وتستعمل الفرق العسكرية هذه الآلة في الوقت الحاضر، وتُسمى الكاسات، كما تستخدم في الكنائس.

(١) المقصود، بالنّوب الخمس، أوقات تغيير تناوب الوقوف لحراسة السلطان، وهي: الظهر، والعصر، والعشاء، ونصف الليل، وعند الصباح. «العصر المماليكي ٤٨٢».

(٢) الجنائب: جاء في «مشارق الأنوار ١/ ١٥٥»: «والجنب أن يجنب مع الفرس الذي يسابق عليه فرس آخر، أي يُقاد بغير راكب، حتى إذا دنا من الغاية تحمل راكبه على الفرس المجنوب ليسبق، يريد لجامه وجريه بغير راكب»

كما جاء في «لسان العرب ١/ ٢٦٨»: «وفرس طوع الجناب وطوع الجنب، إذا كان سلس القياد، أي إذا جُنِب كان سهلاً منقاداً».

(٣) تحدث (ابن بطوطة)، عن صفة خروج السلطان للصيد، راجع: «الرحلة ٥١٧ ـ ٥١٩».

(٤) الخَرْكاوات: الخَرْكاه، «بيت من خشب، مصنوع على هيئة مخصوصة، ويَغَشَّ بالجوخ، ونحوه. تُحمل في السفر، لتكون في الخيمة للمبيت في الشتاء لوقاية البرد «الصبح ٢/ ١٣٨».

(٥) هو، «محمد الخُجْندي شمس الدين، نزيل المدينة، كان صالحاً، عابداً، مواظباً على الصف الأول، منقطعاً عن الناس، يقطع الليل بالذكر، ويُحكى عنه في تكثير الطعام عجائب، أرخ ابن فرحون وفاته سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م

ترجمته في: الدرر الكامنة ٥/ ٨٥.

(٦) الجِتْر: يقول عنه ابن بطوطة في «الرحلة ٤٣٧»: والسلطان هنالك، يُعرف بالشَّطْر (جِتْر)، الذي يُرفع فوق رأسه، وهو الذي يُسمى بديار مصر (القبة، والطَّير) ويُرفع بها في الأعياد، وأما بالهند، والصين، فلا يفارق السلطان في سفر ولا حضر. =

اثني عشر ألف مملوك جميعهم مشاة، ليس فيهم راكب إلا حامل الجِتْر، والسّلاح دَارِيه[١]. والجَمَدارية[٢]؛ حملة القماش. وقال لي الشيخ مبارك: إن هذا السلطان، يَحْمل على رأسه، حيث يركب، الجِتْر، فأما في خروجه إلى الحروب، والأسفار الطويلة، فإنه يحمل على رأسه سبعة جِتورة، منها اثنان مرصعان، ليس لهما قيمة، ولدسته، من الفخامة، والعَظَمة، والقوانين الشَّاهِنْشَاهية[٣]، والأوضاع السلطانية، ما لم يكن مثله، إلا للإسكندر ذي القرنين، أو لِمَلك شاه[٤] بن ألب أرسلان، وأما الخانات والملوك والأمراء، فإنه لا يركب أحد منهم في السَّفَر والحَضَر، إلا بالأعلام، وأكثر ما يحمل الخان، تسعة أعلام.

وأقل ما يحمل الأمير ثلاثة، وأكثر ما يَجُرّ الخان في الحضرة عشرة جنائب، وأكثر ما يجر الأمير في الحضر جنيبان. فأما في الأسفار فمهما وصلت قدرة كل واحد منهم، ووسعة صدره وكرمه. مع أنهم إذا حضروا باب السلطان تضاءلوا، لطمس شمسهِ كَواكِبَهم، ولَطْم بحرِه سَحَائِبَهم.

= ويقول القلقشندي في «الصبح ٤/ ٧ ـ ٨»، : «المِظَلَّة، ويعبر عنها بـ (الجِتْر)، بجيم مكسورة، قد تبدل شيناً معجمة، وتاء مثناة فوق، وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب، على أعلاها طائر من فضة، مطلية بالذهب، تُحمل على رأسه في العيدين، وهي من بقايا الدولة الفاطمية».

(١) السلاح دارية: لقب لحملة سلاح السلطان في المجامع الجامعة، والمقدم عليهم من المماليك السلطانية، وهو المتحدث في (السلاح خاناه) السلطانية، وما يُستعمل لها، أو يُقَدم إليها، ولا يكون إلا واحداً من الأمراء مقدمي الألف، و(السلاح دار) مكون من لفظين: (سلاح)، عربي و(دار) فارسي، بمعنى ممسك، فيكون المعنى (ممسك السلاح) «الصبح ٤/ ١٨ و٥/ ٤٦٢»، و«زبدة كشف الممالك ١١٤».

(٢) الجَمَدارية: الجَمَدار «هو الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه، وأصله (جامادار) فحُذفت الألف بعد الجيم، وبعد الميم استثقالاً، وقيل: (جَمَدار)، وهو في الأصل مركب من لفظين فارسيين، أحدهما (جاما)، ومعناه الثوب، والثاني (دار) ومعناها ممسك، فيكون المعنى (ممسك الثوب) «الصبح ٥/ ٤٥٩). وجاء في «حسن المحاضرة ٢/ ١٣٤» أنَّ (الجمدار) هو «ماسك البقجة التي للقماش».

(٣) الشَّاهِنْشَّاهية: شاهِنْشاه، لقب من ألقاب ملوك الفرس، في عهد الدولة الساسانية، ويعني (ملك الملوك)، وقد جاء هذا اللقب، نتيجة إطلاق لقب «ملك» على أفراد الطبقة الأولى في الدولة الساسانية؛ وهم الأفراد الذين يحكمون في أطراف الدولة وحكام الإمارات التي كانت خاضعة للساسانيين أمثال: الأمراء العرب في (الحيرة). وهذا ما سَوّغ أن يكون لقب رأس الدولة الساسانية «ملك الملوك» (شاهِنْشاه). «الصبح ٦/ ١٦» و«إيران في عهد الساسانيين ٨٧ ـ ٨٨».

(٤) هو السلطان السلجوقي، جلال الدولة أبو الفتح مَلَكْشاه بن ألب أرسلان، جلس على عرش السلطة السلجوقية، بعد وفاة والده ألب أرسلان سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م في عهد الخليفة العباسي «القائم بأمر الله ٤٢٢ ـ ٤٦٧هـ/ ١٠٣٠ ـ ١٠٧٤م» =

وهذا السلطان مع هذا ذو بِرٍّ، وإحسان، وتواضع لله تعالىٰ. حدثني أبو الصفا عمر بن إسحاق الشِّبْلي، أنه رآه، وقد نزل إلى جنازة فقيرٍ صالح مات، وحمل نَعْشَه على عنقه.

وله فضيلة جَمَّة؛ يحفظ كتاب الله تعالىٰ، وكتاب الهداية[1] في مذهب الإمام أبي حنيفة[2] رضي الله عنه، ويجيد في المعقول[3]، ويكتب خَطّاً حَسَناً، وله يد ممهدة[4] في الرياضة وتأديب النفس والأدب، ويقول الشعر وينظمه، ويستنشده، ويفهم معانيه، ويُباحث العلماء، ويناظر الفضلاء، ويؤاخذ خصوصاً الشعراء بالفارسية، فإنه عالق بأهدابها، عارف بشعابها، قال: ولقد سمعته يبحث في معنى تقدم الأمس على اليوم، من أي قبيل هو؟! لأنهم قالوا: إنَّ التقدم، إما أن يكون بالزمان، أو بالرتبة، أو بالذات، وهذا لا يجوز أن يكون [واحداً] من هذه الأقسام، وقَرَّرَ أَنَّ /٢٤/ قولهم انتقض بهذا؛ لأن الأمس متقدم، لا بشيء من هذا. قال: ولقد رأيته يأخذ بأطراف الكلام على كل من حضر على كثرة العلماء. قال: والعلماء تحضر مجلسه، وتفطر في شهر رمضان عنده، يأمر (صدر جهان) كل ليلة واحداً ممن حضر بأن يذكر نكته، ثم تتجاذب الجماعة أطراف البحث فيها، بحضرة السلطان، وهو كواحد منهم، يتكلم

= يقول عنه «عماد الدين الأصفهاني»: «وكان ملكشاه، مَلِكا سيرته العدل، وسريرته الإنصاف، والفضل، شجاعاً، مقداما، صائب الرأي والتدبير، ضَيِّقاً بالتاج والسرير، أيامه في أيام آل سلجوق، الواسطة في العقد». كانت ولادته في التاسع من جمادى الأولى سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥» ووفاته في السادس عشر من شوال سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م). «تاريخ دولة آل سلجوق ٥٧، ٧٠، ٨٠».

(١) لعله كتاب (الهداية شرح بداية المبتدىء) لمؤلفه (برهان الدين علي بن أبي بكر بن عبد الجليل الفرغاني المرغيناني) المتوفى سنة (٥٩٣هـ/ ١١٩٩م). «كشف الظنون ٢٠٣١، والأعلام ٥/ ٧٣، ومعجم المؤلفين ٧/ ٤٥».

(٢) هو النعمان بن ثابت بن زوطي، التيمي بالولاء، الكوفي، أبو حنيفة إمام الحنفية فقيه مجتهد، أصله من فارس، وُلد بالكوفة سنة ٨٠هـ/ ٦٩٩م ونشأ بها، مارس مهنة عمل القز، وبيعه، امتنع عن القضاء لعمر بن هبيرة في الكوفة، وعن القضاء للخليفة العباسي أبي جعفر المنصور في بغداد تُقًىً وورعاً، حبسه المنصور إلى أن مات. سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٧م، وعمره سبعون سنة، من مؤلفاته: «الفقه الأكبر» في الكلام وقيل إنه منسوب إليه، و«المسند» في الحديث، و«العالم والمتعلم» في العقائد، و«المخارج» في الفقه، و«الرد على القدرية».

ترجمته في: الفهرست ٢٥٥ ـ ٢٥٦ وتاريخ بغداد ١٣/ ٣٢٣ ـ ٤٢٣، ووفيات الأعيان ٥/ ٤٠٥ ـ ٤١٥، ومرآة الجنان ١/ ٣٣٠ ـ ٣٣٣، والبداية والنهاية ١٠/ ١٠٧ ـ ١٠٨، والنجوم الزاهرة ١/ ١٢ ـ ٣٣٣، ومفتاح السعادة ٢/ ١٩٥ ـ ٢١٦، الأعلام ٨/ ٣٦.

(٣) المعقول: عِلم يُبْحث فيه عن العقل. راجع «محيط المحيط ٦٢٢».

(٤) ممهدة: متمكنة «القاموس المحيط ١/ ٣٥٢».

معهم، ويبحث بينهم وَيُورَد عليه.

وهو[١] ممن لا يُرَخّص في محذور، ولا يُقِرّ أحداً على منكر، ولا يتجاسر أحد أن يتظاهر في بلادٍ بمحرم، وأشد ما ينكر على الخمر، ويقيم الحد فيه، ويبالغ في تأديب من يتعاطاه من المقربين إليه.

حدثني السيد الشريف تاج الدين بن أبي المجاهد الحسن السمرقندي: أن بعض الخانات الأكابر بدِهْلي كان يشرب الخمرة، ويُدْمنها ويُصِرّ عليها، وكان يُنهى، فلا ينتهي، فغضب عليه هذا السلطان غضباً شديداً، وأمسكه وأخذ أمواله، فكان جُمْلة ما وجد له أربعمائة ألف ألف مثقال[٢]، وسبعة وثلاثون ألف ألف مثقال ذهباً أحمر.

وفي هذه الحكاية كفاية في مبالغته في إنكار المنكر، وفي سعة أموال هذه البلاد، فإن هذا المبلغ، إذا حُسب بالقناطير المصرية، كان ثلاثة وأربعين ألف قنطار[٣]، وسبعمائة قنطار ذهباً، وهذا مما لا يكاد يدخل تحت حصر ولا إحصاء. وحكى لي هذا الشريف، حسن السمرقندي، وهو ممن جال الأرض، وجاب الآفاق، عن أموال هذه البلاد، ما تحار العقول فيه، من مثل هذا وأشباهه.

وله[٤] من وجوه البِرِّ والصّدقات ما تسطّره الدنيا في صحائف حسناتها، وتُرَقّمه الأيام في غُرر جبهاتها، سمعت منه أحاديث جملتها ما علمت تفصيلها، حتى حدثني الشيخ المبارك. مبارك: أن هذا السلطان، يتصدق في كل يوم بلكّين، لا أقل منهما، يكون عنهما من نقد مصر والشام ألف ألف وستمائة ألف درهم، في كل يوم، ربما بَلَغتْ صدقته في بعض الأيام خمسين لُكّاً، ويتصدق عند رؤية كل هلال، من كل شهر

---

(١) راجع ما كتبه ابن بطوطة في «رحلته ٤٦٩»، عن اشتداد السلطان في إقامة الصلاة وإقامة أحكام الشرع.

(٢) مثقال: هو اسم لما ثَقُل، سواء كَبُر، أو صَغُر، وغلب عُرْفه على الصغير، كما صار في عُرف الناس إسماً على الدينار، ويُسَّمى المثقال من الفضة درهماً، ومن الذهب ديناراً، فهو وزن لم يختلف في جاهلية ولا في إسلام، حيث يساوي أربعة وعشرين قيراطاً، وهو يساوي اثنتين وسبعين حبة شعير من الوسط باتفاق العلماء، ما عدا (ابن حزم)، الذي قدَّره بأربعة وثمانين حبة. «الصبح ٣/ ٤٣٦»، و«المقدمة ٢/ ٧٠١ ـ ٧٠٢»، و«كتاب النقود الإسلامية ٤، ٥».

(٣) قنطار: القنطار، معيار، قيل: وَزْن أربعين أوقية من ذهب، وقيل: ألف ومائة دينار. وقيل: مائة وعشرين رطلا «لسان العرب ٦/ ٤٣١ ـ ٤٣٢».

(٤) راجع ما دونه، ابن بطوطة في «رحلته ٤٥٢ ـ ٤٦٤» من أخبار السلطان (محمد تغلق شاه) في الجود والكرم، وعطائه وجوائزه، للعلماء، ومن وفد على بلاده من الغرباء، يقول ابن بطوطة: «وإنما أذكر منها ما حضرته، وشاهدته، وعاينته، ويعلم الله صدق ما أقول، مع أن الذي أحكيه مستفيض، متواتر، والبلاد التي تقرب من أرض الهند، كاليمن، وخراسان، وفارس، مملؤة بأخباره، يعلمون حقيقتها، ولا سيما جوده على الغرباء». «الرحلة ٤٥٢» .

بلكين، عادة دائمة لا يقطعها. وعليه راتب مستمر لأربعين ألف فقير، لكل واحد منهم، في كل يوم درهم واحد، وخمسة / ٢٥/ أرطال[١] خبز وقمح، أو أرز. وقَرّر ألف فقيه في مكاتب[٢]، أرزاقهم على ديوانه، تعلّم الأيتام، وأولاد الناس القراءة والكتابة ولا يدع بدِهْلي سائلاً يَسْتَعْطِي الناس، بل كل من استعطى مُنع من هذا، وأُجري عليه ما يُجرى على أمثاله من الفقراء.

فأما إحسانه إلى الغرباء، ومن يؤمِّله، فما يكاد يخرج عن حد التصديق. حدثني الفاضل نظام الدين أبو الفضائل، يحيى بن الحكيم الطَّيَّاري، قال: كان عندنا بالأَرْدو، في خدمة السلطان أبي سعيد رجل اسمه عضد[٣] الدولة ابن قاضي يَزْد، يروم الوزارة، ولا يؤهل لها ولا يعد من أكفائها، فلا يزال يَشْغَب على الوزراء، ويفْتِن بين أهل الأَرْدو، فاتفق رأيهم على إبعاده، فبعثوه رسولاً إلى دِهْلي برسالة مضمونها السلام، والوداد، وللسؤال والافتقاد، وعملوا هذا صورة ظاهرة، لإبعاده، وكان قصدهم، أن لا يعود، فلما حصل في دِهْلي، وحضر في حضرة هذا السلطان، وأدى الرسالة، أقبل عليه وشَرّفه بالخِلع والعطاء، وأَحَلّه من كَنفِه[٤] في مَحَل الرَّحب والسعة، وأطلق له حِملاً من المال. ثم لما أراد الانصراف عائداً إلى مرسله، قال له: ادخل إلى الخزانة وخذ ممّا شئت، وكان هذا السيد عضد رجلاً داهية، فلما دخل الخزانة، لم يأخذ سِوى مصحف واحد، فسمع السلطان بهذا فأعجبه، وقال له: لأي شيء ما أخذت إلا هذا المصحف؟ فقال: لأن السلطان قد أغناني بفضله، ولم أجد أشرف من كتاب الله، فازداد إعجابه بفعله، وبكلامه، ووقعا منه موقع الاستحسان، وأعطاه مالاً جَمّاً[٥]، منه ما هو خاص بنفسه، ومنه ما هو معه لأبي سعيد على سبيل المهاداة، وكان جملة ما اتصل إليه منه، مما هو لأبي سعيد، وما هُوَ لَهُ ثمانمائة

---

(١) أرطال: الرَّطْل والرِّطْل، يُوزن به ويُكال، وهو اثنتا عشرة أوقية بالوزن، أمّا بالكيل، فيعادل نصف مَنٍّ. «لسان العرب ١٣/ ٣٠٤».

(٢) مكاتب: جاء في لسان العرب ٢/ ١٩٣، «المَكْتَب: موضع الكتاب، والمُكْتِب: المُعَلِّم، والكُتَّاب: موضع التعليم، والجمع الكتاتيب، والمكاتب، ويرى المبَرِّد، أنّ المكتب: موضع التعليم، والمُكْتِب: المعلم، والكُتَّاب: الصبيان.

(٣) جاء في «الدرر ٣/ ٦٩»: أنه عضد الدولة ابن قاضي يزد، التاجر الخواجا، كان مشهوراً بكثرة البيان والمعرفة، أرسله أبو سعيد إلى السلطان (محمد بن تغلق شاه) ملك الهند، فبالغ في إكرامه.

(٤) كنفه: كَنَفَه ضمه إليه، وجعله في عياله، وفلان يعيش في كنف فلان في ظله. «لسان العرب ١١/ ٢١٩».

(٥) جماً: أي كثيراً. «المصباح المنير ١/ ١٢٠».

تومان[١]؛ ـ التومان عشرة آلاف دينار[٢] رائجاً، الدينار ستة دراهم، فيكون هذا المبلغ ثمانية آلاف ألف دينارٍ رَائِجاً، عنها ثمانية وأربعون ألف ألف درهم ـ فلما عاد بهذا المال المدود، خشي أن يؤخذ في الأرْدو منه ففرّقه أقساماً، وغيّبه عن العيون، وكان أمير أحمد بن خواجا رشيد، وهو أخو الوزير، قد وقع له أمر اقتضى إخراجه من الأرْدو، وروعي لمكان أخيه الوزير غياث الدين محمد[٣]، وكتب له بأن يكون أمير الأيلكاه، ومعنى هذا، أنه يحكم، حيث حل من المملكة؛ حتى على حكامها، فصادف في طريقه هذا السيد عَضُد، فأخذ منه شيئاً كثيراً، احتمل أنه عمل منه عدة حمول من أواني الذهب، والفضة، ليقدمها إلى أبي سعيد والخواتين[٤]، وأحسبه [سأله] العود إلى الأرْدو فعاجله الموت، ثم مات أبو سعيد والسيد عضد، وتصرمت تلك الأيام، وذهب الذهب، ولم يغن أحداً ما كسب.

قال ابن الحكيم: وهذا السلطان صاحب دِهْلي كَرَمه خارق، وإحسانه إلى الغرباء عظيم، قصده بعض الفضلاء، من بلاد فارس، وقَدَّم إليه كتباً حِكْمِيّة، منها «الشفا»[٥] لابن سينا[٦]، واتَّفق أنه لما مثل بين يديه، وقدمها له أحضر إليه حِمْل

---

(١) تومان: التومان عشرة آلاف، وقطعة تساوي نحو تسعة غروش، فارسي، جمعها (تومانات)، و(توامين). «محيط المحيط ٧٥».

(٢) اختلف في أصله، فقيل عربي، وقيل فارسي، والمشهور عنه أنه قطعة من الذهب بينما الدرهم قطعة من الفضة، لذا يُشَبه الدينار بالشمس، والدرهم بالبدر، وقد تعرض كغيره من أنواع العملات إلى التعديل في وزنه؛ فالعادة، أن يكون (مثقالاً)، ولكن وُجد من السلاطين من زاد فيه، وأنقص منه. راجع «النقود الإسلامية» (٣ ـ ٥)، و«محيط المحيط ٢٩٤»، و«النظم الإقطاعية ٥٢٥».

(٣) لعله الوزير غياث الدين محمد أرباكاؤن، أقامه القان (أبو سعيد)، مكان والده، (أرباكاؤن) المتوفى سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م سلطاناً على العراق، وأذربيجان والروم. «السلوك ج٢ ق٢ ص٤٠٦».

(٤) الخواتين: جمع (خاتون)، وهي لفظة (تركية) أو (تترية) تُلَقَّب بها نساء الملوك عند العرب وإذا أضيفت إلى جنب الاسم، تقوم مقام السيدة، للإشارة إلى الجليلات من نساء المجتمع خصوصاً أميرات الأسرة الحاكمة، مثل (تركان خاتون)، راجع «محيط المحيط ٢١٧»، و«الألقاب الإسلامية ٢٦٤ ـ ٢٦٦».

(٥) كتاب في الحكمة، والمنطق، يذكر حاجي خليفة في «كشف الظنون ٢/ ١٠٥٥» أنه يقع في ثمانية عشر مجلداً، شرحه أبو عبد الله محمد بن أحمد الأديب التجاني (البجائي)، صاحب تحفة العروس، واختصره شمس الدين عبد الحميد بن عيسى الخسروشاهي التبريزي، المتوفى سنة (٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م).

(٦) أبو علي، الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، فيلسوف، طبيب شاعر، وصاحب تصانيف في الطب، والفلسفة، والمنطق، والطبيعيات والإلهيات، ولد في قرية من قرى بخارى هي (خرميثنا) وفي رواية (أفشنة) في صفر من سنة ٣٧٠هـ/ ٩٨٠. وفي العشرين من عمره، حفظ القرآن الكريم ونال حظًا وافراً من الأدب، وأصول الدين، وعلوم الحساب، والهندسة، والجبر، وغيرها من العلوم، وبرع بها حتى أنه لقب بـ(الشيخ الرئيس). توفي بهمذان يوم الجمعة من شهر رمضان سنة (٤٢٨هـ/ ١٠٣٦م).
=

جليل من الجواهر الثمينة فحثا له منه ملء يده، وأعطاه له، وكان بعشرين ألف مثقال، من الذهب، هذا غير بقية ما وصله به.

وحدثني الشريف السمرقندي: إن أهل بخارى[١]، يقصدونه بالبطيخ الأصفر المبقى عندهم في زمن الشتاء، فيعطيهم عطاء جزيلاً. قال: ومنهم واحد أعرفه، حمل إليه حِمْلين من البطيخ، فتلف غالبه، ولم يصل معه إلا اثنتان وعشرون بطيخة، فأعطاه ثلاثة آلاف مثقال من الذهب.

قال الشيخ أبو بكر بن أبي الحسن المُلْتاني، المعروف بابن التاج الحافظ: الذي بلغنا بالملتان، واستفاض عندنا بها. ثم إني سافرت إلى دهلي، وأقمت بها، ووجدت هذا أيضاً مستفيضاً فيها، أن هذا السلطان، التزم أنه لا يَنْطق في إطلاقاته بأقل من ذلك.

وحدّثني الخُجَنْدي، قال: قصدته، واتصلت به، فأنعم علي بألف مثقال من الذهب، ثم سأل، إن كنت أختار الإقامة أو العود، فقلت: اخترت الإقامة، فأجْرَاني في جملة الجند.

وحدثني الشيخ أبو بكر بن الخلال البزي الصوفي قال: بعث هذا السلطان، مع جماعة، أنا /٢٧/ منهم [ثلاثة لكوك] ذهباً إلى بلاد ما وراء النهر[٢]؛ لتُفَرَّق على العلماء لكاً منها، ويُتَصدق على الفقراء بلكٍ منها، ويُبتَاع له باللك الثالث.

قال: وقال لنا: بلغني أَنَّ الشيخ برهان الدين[٣] الصاغرجي، ـ شيخ سَمَرْقَند[٤] ـ

= من تصانيفه: «القانون في الطب»، «لسان العرب» في اللغة، «الموجز الكبير» في المنطق، «الشفا» في الحكمة.

ترجمته في: وفيات الأعيان ٢/ ١٥٧ـ ١٦٢، وسير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٣١ـ ٥٣٧، ودائرة المعارف الإسلامية ١/ ٢٠٣ـ ٢١٠، والأعلام ٢/ ٢٤١ـ ٢٤٢. ومعجم المؤلفين ٤/ ٢٠ـ ٢٣.

(١) بخارى: من أعظم مدن ما وراء النهر، وأجلها، يُعْبَر إليها من آمل الشط، وبينها وبين جَيْجون يومان من هذا الوجه، وكانت قاعدة ملك السامانيين «معجم البلدان ١/ ٣٥٣».

(٢) بلاد ما وراء النهر، اسم أطلقه العرب على المناطق الواقعة شمال نهر (جَيْجون)، «بلدان الخلافة الشرقية ٤٧٦».

(٣) يقول عنه ابن بطوطة في رحلته ٤٥٧: «كان برهان الدين أحد الوعاظ الأئمة، كثير الإيثار، باذلاً لما يملكه، حتى أنه كثيراً ما يأخذ الديون، ويؤثر على الناس، فبلغ خبره إلى السلطان، فبعث إليه أربعين ألف دينار، وطلب منه أن يصل إلى حضرته، فقبل الدنانير، وقضى دينه منه، وتوجه إلى بلاد الخَطَا، وأبى أن يصل إليه. وقال: لا أمضي إلى سلطان يقف العلماء بين يديه».

(٤) سَمَرْقَند: تقع في أعلى نهر (جَيْجون) على بعد ١٥٠ ميلاً شرق بخارى. يطلق عليها بالعربية اسم (سُمْران) كانت قاعدة للصُّغْد. «معجم البلدان ٣/ ٢٤٦» ، و«بلدان الخلافة الشرقية ٥٠٦».

فريد في العلوم والزهد، وأنه لا يُثْبِت عنده مالاً، فأعطوه أربعين ألف تَنْكة يتزود بها إلى المُلْتان، ثم إذا دخل بلادنا، جدْنا عليه بالأموال. ثم قال: وإن لم تجدوه أعطوا هذا المبلغ لأهله، ليوصلوه إليه، إذا جاء ويُعَرِّفوه بأننا نطلبه ليتزَوَّد إلى الملتان.

قال: فلما وصلنا إلى سَمَرْقند، وجدناه قد دخل إلى بلاد الصين، فأعطينا المال، لجاريته، وعَرَّفناها برغبة السلطان فيه، وحَثِّه في طلبه.

وحدثني الفقيه أبو الصفا، عمر بن إسحاق الشبلي، أن هذا السلطان، لا يفارق العلماء سَفَراً ولا حَضَراً، قال: وكنا معه في بعض غزواته، فلما كنا في أثناء الطريق جاءته من مقدمة عساكره كُتُبُ البشرى بالفتوح، ونحن بين يديه فحصل له السرور وقال: هذا ببركة هؤلاء العلماء، ثم أمر بأن يدخلوا بيت المال، ويحملوا من المال ما قَدَروا عليه، ومن كان منهم ضعيفاً يَسْتَنِيب مَنْ يحمل مِنْ ذلك المال عنه.

قال: فدخلوا إلى الخزانة، ولم أدخل أنا، ولا كثير من أمثالي؛ لأننا لم نكن من تلك الطبقة. وحمل أولئك، كل واحدٍ كيسين، كل كيس عشرة آلاف درهم، إلا واحداً منهم، فإنه حمل ثلاثة أكياس، اثنين تحت إبطيه، وآخر فوق رأسه، فلما رآهم السلطان ضحك تعجباً من حرص الذي حمل الثلاثة، وسأل عن بقية الجماعة [مِمّن] لم يدخل مثلي، فقيل له: إن هؤلاء دون أولئك، لأنّ أولئك من المدرسين؛ وهؤلاء من المعيدين[(١)]، فأمر لكل واحد منا بعشرة آلاف درهم، ففرقت علينا.

قال: ومنار الشَّرع عنده قائم، وسوق أهل العلم لديه رائج، يُشار إليهم بالتوقير والإجلال[(٢)]، وهم في غاية المحافظة على ما يَنْقَام به ناموسهم[(٣)]، من إصلاح

---

(١) المعيدين: المعيد، ثاني رتبة، بعد المدرس، الدرس، وانصرف، أعاد للطلبة ما ألقاه المدرس إليهم، ليفهموه ويحسنوه «الصبح ٥/ ٤٦٤».

(٢) بالرغم مما اشتهر به السلطان (محمد تغلق شاه) من توقير وإكرام وإحسان للعلماء، إلا أنه كان أحياناً شديد البطش ببعضهم ممن يخالف أوامره، أو يعلن معارضته لبعض تصرفاته، وممن تعرّض لبطشه الشيخ «شهاب الدين ابن شيخ الجام الخراساني»، الذي رفض خدمته، وأعلن رفضه في مجلس عام، وقال: «لا أخدم ظالماً»فنتف لحيته، ونفاه إلى (دولة آباد) سبعة أعوام، بل سقاه العُذْرة، وضرب عنقه بعد ذلك، وكذلك الفقيه المدرس (عفيف الدين الكاساني) قتله، قِتْلة شنيعة؛ قطع رأسه مع الذراع وبعض الصدر، بسبب معارضته لبعض تصرفاته. كما قتل الشيخ (زاده) المسمى بـ(هود) حفيد (ركن الدين بن بهاء الدين بن أبي زكريا المُلْتاني)، وسجن الشيخ (شمس الدين بن تاج العارفين) بعد أن سمل عينيه حتى توفي، كما قتل أيضاً أولاده وكذلك قتل الشيخ (علي الحيدري) وغيرهم، لأسباب لا توجب القتل، وإنما هو تسرع السلطان وحبه لسفك الدماء، وقد بسط (ابن بطوطة) أخباره مع هؤلاء العلماء في «رحلته ٤٧٢ـ ٤٧٨».

(٣) ناموسهم: النَّاموس هو «الشرع الذي شرعه الله» «كتاب التعريفات ٢٥٨»، ويكون المعنى على هذا، (ما ينقام به شرعهم).

الظاهر والباطن، والمداومة، على قراءة العلم /٢٨/ وإقرائه والتحري في كل أمورهم، والاقتصاد في جميع أحوالهم.

وهذا السلطان لا يَتَأَنّى عن الاجتهاد في الجهاد بَرّاً وبَحْراً، لا يثني عنه عِنَانه[(١)]، ولا سِنَانه[(٢)]، ولا يزال هذا دأبه بنصب عينيه، ودبر أذنه، وقد بلغ مبلغاً عظيماً في إعلاء كلمة الإيمان، ونشر الإسلام في تلك الأقطار حتى سطع في ذلك السواد ضوء الإسلام، وبرقت في تلك الأنواء[(٣)] بوارق الهدى، وهَدَم بيوت النيران، وكَسَر البدود[(٤)]، والأصنام، [وأخْلى] البَرّ ممن ليس بِبَرٍّ، إلا من هو تحت عقد الذِّمة[(٥)]، واتصل به الإسلام إلى أقصى الشرق، وقابل مطلع الشمس لألاء الصباح

---

(١) أي عنان فرسه، راجع «المخصص ٦/ ١٨٩».

(٢) سِنانه: السِّنَان: قيل هو (الخَرْص)، وقيل (الرّمح)، وقيل: رمح قصير، يُتّخذ من الخشب «كتاب السلاح ١٦»، و«المخصص ٦/ ٢٩»، و«نهاية الأرب ٦/ ٢١٧».

(٣) الأنواء: جمع مفرده نوء، وهو المطر، كما جاء (النوى) بمعنى الوجه الذي يقصده المسافر، راجع «لسان العرب ٢٠/ ٢٢٢»، و«المصباح المنير ٢/ ٣٠٤» .

(٤) البدود: مفردها (بدّ) وهو صنم الهند الأكبر، ويسمى كل صنم بداً. «مفاتيح العلوم ١٠١» وجاء في محيط المحيط ٣٠»، البدّ: «الصنم، وبيت الصنم، مُعَرّب (بت) بالفارسية».

(٥) عقد الذمة: رتبته دون (الأمان) بالنسبة للإمام، وذلك، إنما يُقَرِّره بعوض يأخذه منهم، بخلاف الأمان. أما معناه، فهو عبارة عن التزام تقريرهم في دار المسلمين، وحمايتهم، والذبِّ عنهم، ببذل الجزية، أو الإسلام من جهتهم، يختص بهذا العقد، على الأرجح، الإمام، أو نائبه، فهو من الأمور الكلية، التي تحتاج إلى نظر واجتهاد. ويشترط للمعقود له: التكليف، والذكورة، والحرية، وأن يكون من أهل الكتاب؛ كاليهود، والنصارى، والمجوس، ومن بهم سُنّة أهل الكتاب، والسَّامرة في حال موافقة أصولهم، أصول اليهود، والصَّابئة، في حال موافقة أصولهم أصول النصارى. مدة العقد غير مُقَيَّدة بوقت محدد ينتهي عنده.

ويقرر العقد في جميع البلاد الإسلامية، ما عدا الحجاز واليمامة، ومخالفيها. ويُطلب منهم إذا عُقِد لهم الذمة، عدة أشياء:

الجزية، وضيافة من يمر بهم من المسلمين، (مع تقييد الإقامة بثلاثة أيام، وكذلك تقييد عدد الضيفان من فرسان، ورجّاله، وعدد دوابهم..، وهي على غير الفقير من أهل الذمة)، الانقياد لأحكام المسلمين، عدم ركوب الخيل، إنزال المسلمين صدر المجلس، وصدر الطريق، التمييز عن المسلمين في اللباس، ألا يرفعوا ما يبنونه من بنيان على جيرانهم المسلمين، وألا يساوونه به، وألا يحدثوا كنيسة، ولا بيعة، فيما أحدثه المسلمون من بلاد؛ كالبصرة، والكوفة، وبغداد، والقاهرة، ولا بلد أسلم أهلها عليها: كالمدينة واليمن، وكذلك لا يجوز إحداث كنيسة، أوبيعة، أو الإبقاء على القديم منها فيما فتح عنوة، أما ما فتح صلحاً بخراج، فيجوز فيها إحداث الكنائس، وإبقاء القديم منها..

وأخيراً معرفة ما ينتقص به عهدهم. مثل قتال المسلمين بلا شبهة، منع الجزية، الزنا بمسلمة...إلخ. على ما هو مبسوط في «الصبح ١٣/ ٣٥٦ـ ٣٦٥».

المشرق، وأوصل راية الأمة المحمدية، كما قال أبو نصر العتبي[١]: إلى حيث لم تصل إليه رجاء راية، ولا تُليت به سورة، ولا آية، فعمر الجوامع والمساجد، وأبطل التطريب بالأذان، وأسكت المزمزة بالقرآن، وبَوَّأ[٢] أهل هذه الملة قمم الكفّار، وأورثهم بتأييد الله أموالهم، وديارهم، وأرضاً لم يَطَأوها، وهو مع هذا تُمَدّ له خافِقَةٌ[٣] مع كل خَافِقَةٍ[٤]، ففي البر عِقْبان[٥] الأعلام[٦]، وفي البحر غِرْبان[٧] السفن الجواري المنشآت كالأعلام، حتى إنه لا يخلو يوم من الأيام من بيع آلاف مؤلفة من الرقيق، بأقل الأثمان؛ لكثرة السبي والأخذ.

حدثني كل هؤلاء أن الجارية الخَدَّامة لا يتعدى ثمنها، بمدينة دِهْلي ثمان تَنْكات، واللواتي يصلحن للخدمة والفراش (خمس عشرة تَنْكة) وأما في غير دِهْلي فإنهن بأرخص من هذه الأثمان.

قال لي أبو الصفا عمر بن إسحاق الشبلي: إنه اشترى عبداً مراهقاً نفاعاً[٨] بأربعة دراهم. وقِسْ على مثل هذا. قال: ومع رخص قيمة الرقيق، وهو أنه يوجد من الجواري الهنديات، من يبلغ ثمنها عشرين ألف تَنْكة وأكثر. وهكذا قال لي ابن التاج الحافظ الملتاني. قلت: وكيف تبلغ الجارية هذا الثمن مع الرخص ؟ قال لي كل واحد في مجلس على انفراد: لحسن خَلْقِها، ولطف خلائِقِها، ولأن غالب مثل هذه

---

(١) أبو النصر، محمد بن عبد الجبّار العُتبي من (أبي نصر العتبي)، أصله من الرّي، نشأ في خراسان في كَنَف خاله أبي نصر العتبي، وهو من وجوه عمالها وفضلائها، عمل كاتباً للأمير (أبي علي)، ثم للأمير أبي منصور سبكتكين مع أبي الفتح البستي، كما تولى نيابة خراسان عن شمس المعالي قابوس بن وشمكير، استوطن نيسابور، وأقبل على خدمة الآداب والعلوم إلى أن توفي سنة ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م.

من مؤلفاته: «لطائف الكتاب» في الأدب، و«اليميني» نسبة إلى يمين الدولة محمود بن سبكتكين المعروف بـ«تاريخ العتبي» وقد شرحه المنيني في مجلدين.

ترجمته في: يتيمة الدهر ٤/ ٤٥٨، وكشف الظنون ١٥٥٣، ٢٠٥٢، وهدية العارفين٢/ ٦٨، والأعلام ٦/ ١٨٤، ومعجم المؤلفين ١٠/ ١٢٦.

(٢) بوأ: هنا بمعنى أَكن، «المصباح المنير ١/ ٧٥».

(٣) خافِقَةٌ: راية. «القاموس المحيط ٣/ ٢٣٥».

(٤) خَافِقَةٍ: المفازة الملساء. «لسان العرب ١٢/ ٣٧٠».

(٥) عِقبان: جمع عقاب، وهو من أعظم جوارح الطير. «المخصص ٨/ ١٤٥».

(٦) الأعلام: الجبال، والعَلَم، الجبل الطويل. «لسان العرب ١٥/ ٣١٥».

(٧) غِربان: جمع غراب، وهو طائر أسود كبير، يُضرب به المثل في السواد، والبعد، والبكور، يُقال: أحذَر من الغراب، ودون هذا شيب الغراب. «محيط المحيط ٦٥٤».

(٨) نفاعاً: أي كثير النفع، ينفع الناس، ولا يضر. «لسان العرب ١٠/ ٢٣٧».

الجواري، يحفظن القرآن، ويكتبن /٢٩/ الخط، ويروين الأشعار والأخبار، ويُجِدْن الغناء، وضرب العود، ولعب الشطرنج، والنَّرد[١]، ومثل هذه الجواري يتفاخرن في مثل هذا، فتقول الواحدة: أنا آخذ قلب سيدي في ثلاثة أيام. فتقول الأخرى: أنا آخذ قلبه في يوم. فتقول الأخرى: أنا آخذ قلبه في ساعة فتقول الأخرى: أنا آخذ قلبه في طرفة عين. قالوا: إنَّ ملاح الهنديات أكثر حُسْناً من الترك والقفجاق[٢] مع ما يتميزن به من التخريج العظيم، والتفنن الفاتن. وغالبهن ذهبيات الألوان، وفيهن بيض ذوات بياض ساطع، مختلطاً بالحمرة، وعلى كثرة وجود الترك، والقبجاق والروم، وسائر الأجناس عندهم، لا يفضل أحد على ملاح الهنديات سواهن، لكمال الحسن، والحلاوة، وأمور أخرى تدق عنها العبارة.

حدثني سراج الدين عمر الشِّبْلي أنه لا يلبس ثياب الكِتّان[٣]، المجلوبة إلى هذه المملكة، من الروس[٤]، والإسكندرية، إلا من لَبّسه السلطان منهم، وإلا فقُمُصهم

---

(١) النّرد: آلة لعب، وضعها (آردشير بن بابك) أول طبقة الأكاسرة من ملوكهم، ولذا قيل له: (نَرْدَ شير)، رَتَّب الرقعة اثني عشر بيتاً، بعدد مشهور السنة، والمهارك ثلاثين قطعة، بعدد أيام الشهر، وجعل الفصوص بمثابة الأفلاك، ورَصَّها مثل تقلبها ودورانها، وقد ورد في الشريعة ذم اللعب به. «الصبح ٢/١٤٨ـ ١٤٩».

(٢) القفْجاق: ويقال لهم (القَبْجاق) أو (الخفشاخ)، أو (الخفحاج)، وهم جنس من الترك، أهل حل وترحال، يسكنون صحارى أو إقليم (الدَّشْت) الواقع إلى الشمال، والشمال الغربي من بحر الخزر (قزوين) كان لشح مورادهم، وقسوة مناخ بلادهم، واعتمادهم على الرعي، (الذي كثيراً ما يَتْلف لشدة البرودة، فتنفق مواشيهم)، أثره فيما كانوا يعانونه من جهد وظَنَك العيش، وربما لجأوا في بعض المرات لبيع أبنائهم من شدة الفقر، وكانوا مع ذلك، يتميزون بالوفاء والشجاعة، وتجنب الغدر، مع قوة أجسامهم، وجمال صورهم وظرف شمائلهم، استكثر منهم الملك الصالح، نجم الدين أيوب، واتخذ منهم مماليكه وانخرطوا في الجيوش المصرية، ووصلوا إلى أعلى المراتب، وتَسَنَّم بعضهم ذُرْوَةَ المُلك والسلطة. «كتاب تقويم البلدان ٢٠٦»، و«التعريف بالمصطلح الشريف ٦٥»، و«صبح الأعشى ٤/٤٥١، ٤٥٦ـ ٤٥٨»، و«بلدان الخلافة الشرقية ٥٢٩».

(٣) الكتان: نبات سنوي، أول من زرعه المصريون، كان كثير الانتشار في عهد موسى عليه السلام، منه صُنعت أول الأقمشة للإنسان، انتشرت زراعته من آسيا وإفريقيا إلى أوربا منذ زمن بعيد، وتكثر زراعته حالياً في هولنده، وبلجيكا وفرنسا، ساقه أدق من ساق التيل، تتفرع نحو القمة، وتحمل أوراقاً دقيقة حادة، زهره أزرق، ثمره كالعلبة يحتوي على عشرة بذور صغيرة مفرطحة لامعة، لونها ضارب للحمرة. «إحياء التذكرة ٥٣٥».

(٤) الروس: جاء في «معجم البلدان ٣/ ٧٩»: يقال: لهم (رُس)، وهم أمة متاخمة للصّقالبة، والترك، لهم لغة، ودين وشريعة، مستقلة، عددهم مائة ألف، لا زرع لهم ولا ضرع، كثيراً ما تغير عليهم الصقالبة، ويأخذون أموالهم. بينما ذكر ابن خرداذبة في «المسالك والممالك ١٥٤»: أنهم جنس من الصقالبة، وللمزيد من المعلومات عن الروس، راجع ما كتبه (ابن فصلان) في «رسالته ١٧٥ ـ ١٨٨».

وثيابهم من القطن الرفيع، قال: تُعْمل منه ثياب شبيهات بالمقاطع البغدادية، ولكن أين المقاطع[١] البغدادية، أو النصافي[٢] منها ؟ لرفعتها، ولطافة بشرتها، فإن بعضها يوازي اللوانس في رفعتها، مع الصفق[٣] والمائية.

وحدثني الشيخ مبارك أنه لا يركب بالسروج الملبسة، أو المحلاّة بالذهب، إلا من أنعم السلطان عليه بشيء منها، فإذا أنعم عليه بشيء من المُحلى بالذهب كان إذناً له في اتخاذ ما شاء منه. وأما عامة ركوبهم، ففي المُلَبَّس أو المُحَلّى بالفضة. قال: والسلطان يُنْعِم على مَنْ في خدمته، على اختلاف أنواعهم؛ من أرباب السيف والقلم والعلم بكل شيء جليل، ونوع نفيس؛ من البلاد والأموال والجواهر والخيول، والسروج المُحَلاّة بالذّهب، والمناطق[٤] الذهبية، والأقمشة المختلفة الأنواع والأجناس إلا الفيلة، فإنها لا تكون إلا له، لا يشاركه فيها مشارك من جميع الناس.

قال: والفيلة لها رواتب كثيرة لعلوفاتها، لعل هذه الثلاثة آلاف فيل، /٣٠/ لا يكفيها إلا دخل مملكة كبيرة. فسألته كم لها ؟ قال: تختلف أجناسها، وأشكالها، وعلى قدر اختلافها علوفاتها. وأنا أقول لك، أكثر ما يريد كل فيل. في كل يوم، وأقل ما يريد، أما أكثر ما يريد في كل يوم، فهو أربعون رطلاً من رز، وستون رطلاً من شعير، وعشرون رطلاً من سمن، ونصف حِمْل حشيش[٥]. وأما ما تريده سُوّاسها[٦]، والقَوَمة[٧] عليها

---

(١) المقاطع: جاء في «لسان العرب ١٠/ ١٥٦»: أن المقطّعات، تطلق على جميع الثياب القِصار، والقِطْع ضرب من الثياب الموشّاة، والجمع قطوع، والمقطّعات، برود عليها وشيء مُقَطّع، والقِطْع، النمرقة..

(٢) النَّصافي: النَّصيف، الخِمار، والنصيف ثوب تتجلل به المرأة، فوق ثيابها كلها، سُمّي نصيفاً لأنه بين الناس، وبينها، فحَجَز أبصارهم عنها. «لسان العرب ١١/ ٢٤٥»، قماشها من نسيج الحرير، والكتان، أو القطن الخشن «العصر المماليكي ٤٨١».

(٣) الصَّفق: يقال: «ثوب صفيق متين بَيِّن الصفاقة، وقد صَفُق صفاقة، كَثُف نسجه، وأصْفَقه الحائك، وثوب صفيق وسَفِيق جيد النسيج» «لسان العرب ١٢/ ٧٣».

(٤) المناطِق: مفردها (مِنْطقة) وهي ما يُشد بها الوسط، وغالباً ما تكون من الذهب، أو الفضة، وأحياناً من الجلد أو القماش، وتسمى (حُيَّاصة) «التعريف ٢٧٣»، «صبح الأعشى ٢/ ١٣٤، ٤/ ٥٢ـ ٥٣»، و«الخطط ٢/ ٩٩» و«الملابس الملوكية ٤٧»، و«العصر المماليكي ٤٧٨».

(٥) الحشيش: هو اليابس من النبات، أو الكلأ والعشب، ولا يقال للرَّطْب منه حشيش. «المصباح المنير ١/ ١٤٨».

(٦) سواسها: جاء في «لسان العرب ٧/ ٤١٣»: «السياسة، القيام على الشيء بما يُصلحه، والسياسة فعل السائس، يُقال: هو يسوس الدوابَّ، إذا قام عليها وراضها والوالي يسوس رعيته».

(٧) القومة: أيّ المهتمين بشؤونها. راجع: «لسان العرب ١٥/ ٤٠٥».

فجملة كثيرة، وأمور كثيرة، قال: وشِحْنَة[1] الفيلة رَجُل كبير من أكابر الدولة. قال الشبلي: يكون إقطاعه، قدر إقليم كبير، مثل العراق.

وهيأة وقوف ملوك هذه المملكة في مواقف الحرب؛ أن يقف السلطان في القلب، وحوله الأئِمّةُ والعلماءُ، والرّماة قُدَّامه وخَلْفَه، وتمتد الميمنة والميسرة موصولة بالجناحين، وأمامه الفيول الملبسة بالإركصطوانات الحديد، وعليها الأبراج المُسَتَّرة فيها المقاتلة، على ما قدمنا القول فيه، وفي الأبراج منافِذ لرمي النّشّاب. ومَرْمَى قوارير النِّفْط[2]، وقُدَّام الفيول العبيد المشاة، في خفّ من اللباس، بالسيوف والسلاح، يُفْسِحون مجال الفيول، ويُعَرْقِبون[3] الخيول بالسيوف، والرُّماة في الأبراج، تكشف عليهم مَنْ خلفهم، مِنْ فَوْق، والخيل في الميمنة، والميسرة تضم أطراف الأرض على الأعداء، وتقاتل من حول الفيول، وورائها، فلا يجد الهارب مَغَاراً ولا مدخلاً، فلا يكاد يَنْجو قُدَّامهم لاحتياط العساكر المحدقة بهم، ومواقع النشَّاب والنفط من فوقهم، ومُخَالَسَةِ الرَّجَّالة لهم من تحتهم، فيأتيهم الموت من كل مكان، ويحيط بهم البلاء من كل جهة. ولقد تهيأ لهذا السلطان[4] القائم بها الآن ما لا تهيأ لأحد قبله من ملوك هذه المملكة، من النصر والاستظهار وفتوح الممالك، وَهَدْم قواعد الكفار، وحلِّ عُقَد السَّحَرة، وإبطال، ما كانت تتعلل به الهنود، من

---

(١) شِحْنَة: الشِّحْنَة، يطلق على الشرطة، ويقال لرئيس الشرطة، صاحب الشحنة، وللوظيفة الشحنكية، ولعل المقصود بـ(شحنة الفيلة) هنا هو المسؤول الأول عن رعايتها، والاهتمام بها، أي رئيس سوّاسها، والقومة عليها، قياساً برئيس الشرطة، أو صاحب الشحنة. عن معنى الشحنة، راجع: «صبح الأعشى» ٥/ ٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٤» و«النظم الإقطاعية ٤٩٦»، و«العصر المماليكي ٤٤٩».

(٢) قوارير النفط: عبارة عن قذائف من مواد ملتهبة، وقد نُسب إلى عبد الله بن الزبير، استخدامه آنية من النفط الملتهبة في حجم اليد، أثناء حصاره في مكة المكرمة، كما عُرف عن البيزنطيين استخدامهم للنار الإغريقية، وهي مزيج من النفط، والقار، والزيت النباتي، والشحم، ومعادن ومواد ملتهبة أخرى، وقد تعرف المسلمون على سِرّ صناعة النار الإغريقية من البيزنطيين، واستخدموها في حربهم ضد الصليبيين، في مصر والشام. «الموسوعة العربية الميسرة» (١٨٤١) وقد ورد في الموسوعة أن حصار عبد الله بن الزبير في مكة، كان سنة (١٠) من الهجرة (٦٣١م)، وهذا خطأ؛ لأن ابن الزبير حوصر في مكة من قبل الأمويين أكثر من مرة الأولى كانت سنة (٦٤هـ/ ٦٨٣م)، على يد (مسلم بن عقبة المُرِّي)، والثانية سنة (٧٣هـ/ ٦٩٢م) على يد (الحجاج بن يوسف الثقفي) وقد قُتل ابن الزبير في هذه السنة «الكامل في التاريخ ٤/ ١٢٣، ٣٤٨» .

(٣) أي: أنهم يقطعون عراقيب فيول العدو بسيوفهم. فقد جاء في «لسان العرب ٢/ ٨٣»: «وعَرْقَب الدَّابة، قطع عرقوبها.. والعُرْقُوب، عصب مؤثر خلف الكعبين».

(٤) المقصود به، السلطان «محمد تغلق شاه».

الصور والتماثيل ولم يبق، إلا ما هو داخل البحار من القليل، الشاذر[١]، النادر الذي لا حكم له، ولا حِلْم يُلِمّ يحفز هذا السلطان، حتى يستكمله، ويغسل بالسيف ما بقي /٣١/ منه، فتضوعت[٢] أندية الهند[٣] من ذكره بأطيب من طيبها، وتحلى زمانه بها، بأعلى قيمة من جواهرها، وهو اليوم جامع ذيول تلك الأقطار، وماسك نطاق البراري، والبحار، وإذا قيل اليوم سلطان الهند، لا يطلق على سواه، ولا يصح هذا الاسم الكريم إلا على مسماه. قال الشبلي: وحقيق على مسلم، أن يدعو لسلطانٍ هذا في الله جهاده، وذلك معروفه، وتلك سجاياه.

وحكى لي محمد الخُجْندي أنَّ لهذا السلطان في كل أسبوع يوماً عَامّاً يجلس فيه للناس جلوساً عامّاً، وهو يوم الثلاثاء؛ يجلس في ساحةٍ عظيمة، متسعة إلى غاية يُضْرب له فيها جَتْر كبير سلطاني، يجلس[٤] في صدره، على تختٍ عال[٥] مُصَفَّح بالذهب، مُرصّع بالجواهر، ويقف[٦] أرباب الدولة حوله، يميناً، ويساراً، وخَلْفَه السِّلاح دَارِية، والجَمَدارية، ومَنْ حُكْمه بين أرباب الأشغال الخاصّة حُكْمُهم، وأرباب الوظائف على منازلهم، ولا يجلس إلا الخانات، وصدرُ جهان، والدُّبيران، يعني كتَّاب السِّرِّ، بين يديه، والحُجّاب وقوفٌ، ويُنادى مناداة عامة، أنه من كان له شكوى يحضر فيحضر كُلّ منْ له شكوى، أو حاجة يسأل السلطان فيها، فإذا حضروا، ووقف بين يديه، لا يُضرب ولا يُمنع، حتى يُنْهي إليه شكواه، ويَأمرُ السلطان فيه بأمره وأما بقية الأيام فإنه يجلس في طَرَفي كل نهار، ويركب في الخانات، والملوك، والأمراء جميعهم إلى بابه، ومن رَسْمه أنَّ أحداً لا يدخل عليه بسلاحٍ[٧] كبيرٍ، ولا سكينٍ صغيرة، ومن جاءه اعتبر قبل دخوله. ودون المكان، الذي

---

(١) الشاذر: أي المتفرق في كل وجه. راجع: «لسان العرب ٦/٦٦».

(٢) أي انتشرت سمعته، راجع في معنى (تضوع) «القاموس المحيط ٣/٥٩».

(٣) أي مجالس أهل الهند، فالنادي هو، مجلس القوم، ومجتمعهم «مشارق الأنوار ٢/٧».

(٤) يقول ابن بطوطة: وأكثر جلوسه بعد العصر، وربما جلس أول النهار، وجلوسه على مصطبة مفروشة بالبياض فوقها مرتبة، ويجعل خلف ظهره مِخَدة كبيرة وعن يمينه مُتَّكأ، وعن يساره مثل ذلك، وقعوده كجلوس الإنسان للتشهد في الصلاة، وهو جلوس أهل الهند كلهم» «الرحلة ٤٤٣».

(٥) ويقال له: (سرير الملك)، «وهو» منبر من رخام بصدر إيوان السلطان الذي يجلس فيه «التعريف ٢٧٣»، و«العصر المماليكي ٤٢٢».

(٦) راجع هيئة وقوف أرباب الدولة حول السلطان في «رحلة ابن بطوطة ٤٤٣-٤٤٥».

(٧) يقول ابن بطوطة في «الرحلة ٤٤٢-٤٤٣»: «ودار السلطان بدِهلي تُسمى (دار سَرَى) ولها أبواب كثيرة»، كما ذكر أن أهل الأنفار، والأبواق، والصرنايات يجلسون على الأبواب: الأول، والثاني، والثالث، فإذا جاء أمير، أو كبير ضربوها، وقالوا: جاء فلان ابن فلان. كما ذكر أنه يوجد في خارج =

يجلس فيه سبعة أبواب بعضها داخل بعض، وعلى الباب الأول البرَّاني منها رجلٌ معه بُوق، فإذا جاء أحدٌ من الخانات، أو الملوك، أو أكابر الأمراء، نُفِخ في البوق إعلاماً للسلطان بأنَّه قد جاءه كبير، ليكون دائماً على تَيَقُّظٍ، واستعداد من أمره. ومن جاء به كائناً مَنْ كان يترجَّلُ من الباب الأول البرَّاني، ويمشي إلى أن يدخل السَّبْعة الأبواب، إلى حضرة السلطان، وثَمَّ من شرف بالإذن له، بأن يَعْبُرَ راكباً /٣٢/ إلى الباب السادس، ولا يزال البوق عَمّالاً إلى أنْ يُقارب الدّاخل البابَ السابعَ. ويجلس على ذلك الباب كُلُّ مَنْ دخل إلى أنْ يجتمعوا، فإذا تكامل المجيء أُذِنَ لهم في الدخول، فإذا دخلوا جلس حوله من له أَهْلِيَّة[1] الجلوس، ووقف سائرهم، وقعد القضاة، والوزراء، والدُّبَيْران، كُتّابُ السِّرِّ؛ وهم الموقِّعون[2] إلى جانبٍ مِنْ المكان، لا يقع فيه نظرُ السلطان عليهم، ومُدَّتِ الأَسْمِطَة[3]، وقدّمت الحُجّابُ القِصَصَ[4]، ولكل طائفة حاجب يرفع قِصصَهم، وحاجاتهم على يده. ويقدّمَ جميعُ الحجّابِ القِصَصَ إلى حاجبي صاحِبِهِ، وهو الحاجبُ الخاص، المُقَدَّمَ على الكلِّ، فيَعْرِضها

= الباب الأول الجلادون، الموكلون بضرب أعناق من يأمر السلطان بقتلهم، ويوجد دِهليز كبير يفصل بين البابين، الأول، والثاني في دكاكين مبنية من جهتيه، يجلس فيها النّوْبة من حُفَّاظِ الأبواب، وبين الباب الثاني، والثالث دكَّانة كبيرة، يجلس فيها النوبة من حفاظ الأبواب، وبين الباب الثاني، والثالث دكانة كبيرة، يجلس فيها نقيب النقباء، أما الباب الثالث ففيه دكاكين يقعد فيها كتَّاب الباب.

(١) جاء في «كتاب التعريفات ٤١»: «الأهلية، عبارة عن صلاحية لوجوب الحقوق المشروعة له، أو عليه».

(٢) جاء في «لسان العرب ١٠/ ٢٨٨»: والتَّوقيع، ما يُوَقَّعُ في الكتاب، ويُقَال: «السر»، وجاء في كتاب «زبدة كشف الممالك» (١٠٠) «وبديوان الإنشاء عدة موقعين، وهم قسمان: قسم يسمون موقِّعِي الدَّست، هم أجَلُّهم، ولهم مراتب، شيء أعلى من شيء، وقسم يسمون مُوَقِّعِي الدرج، ولهم أيضاً مراتب». كما ذكر صاحب «الصبح ٣/ ٤٨٧ـ ٤٨٨، ٥٢٢، و١٤/ ٣٢٢»، ثلاث وظائف للموقعين هي: موقع القلم الدَّقيق وهو ككاتب السر، أو كاتب الدست ورتبته تلي رتبة صاحب ديوان الإنشاء والمكاتبات، يجالس الخليفة أكثر أيام الأسبوع، يُذاكر في كتاب الله تعالى، وأخبار الأنبياء والخلفاء، ويقرأ عليه ملح السير، ويُقَوّي يده في تجويد الخط، ثم هو الذي يجلس إلى جانب وزير السيف يوقع بما يأمر به في المظالم، وموقع القلم الجليل، وذكر أنها تقوم مقام (كاتب الدرج) وهو الذي يكتب بتنفيذ ما يُوَقِّع به صاحب القلم الدقيق وبَسْطِه، وموقع الحكم. أما «المقريزي» فقد ذكر في «الخطط ١/ ٤٠٢» وظيفة التوقيع بالقلم الدقيق، ووظيفة التوقيع بالقلم الجليل فقط.

(٣) الأسْمِطة: هي موائد الطعام «الصبح ٣/ ٥٢٣».

(٤) القِصَص: هي طلبُ، وشكايات، والتماس الناس، التي ترفع إلى السلطان، راجع «الصبح ٣/ ٤٨٧ـ ٤٨٨»، وقد جاء في كتاب «العصر المماليكي ٤٦٢» أن القصص ترفع إلى حضرة السلطان، عن طريق موظف خاص اسمه (قصة دار).

على السلطان، ثم إذا قام السلطان، جلس إلى كاتب السِّرِّ، فأدى إليه الرسائلَ بما رَسَمه السلطانُ في ذلك فَيُنَفِّذها. ثم إذا قام السلطان من المجلس. جلس في مجلس خاص، واستدعى العلماءَ، فيحضر من له عادَةٌ فيجالِسَهم ويؤانِسَهم، ويأكلُ معهم، ويتحدّث هو وإيّاهُم. وهم بِطَانَتُه[١] الخاصّة، ثم يأمر بالانصراف، ويخلو بالنّدماء والمغاني، تارة يُنادم بالحديث، وتارة يُغَنَّى له، وهو على كل حال في المحافِلِ، والخَلَوات، عفيف الخَلْوَة، طَاهِرُ الذَّيْلِ، يُحَاسِب نَفْسَه على الحركاتِ والسُّكون، ويُراقب اللهَ في السِّرِّ، والعلَن، لا يرتكب مُحَرَّماً، ولا يَفْسَحُ فيه.

قال لي الشِّبْلي: حتى أنه لا يوجد بدِهْلي خمر بالجملة الكافية، لا ظاهراً، ولا مُضْمراً لتشديد هذا الرجل فيه[٢]، وإنكاره على من يعانيه[٣]، قال: مع أَنَّ أهلَ الهند لا رغبة لهم في الخمر، ولا في المسكرات استغناءً بالتَّنْبُول[٤]، وهو حلال طيب لا شُبْهة فيه، مع ما فيه من أشياء لا يوجد في الخمر بعضها، وهو أنه يُطَيِّبُ النَّكْهَةَ، ويُصَرِّف الأطعمة، ويبسط الأنفُسَ بسْطاً عظيماً، ويورثها سروراً زائداً مع ثبوت العقل، وتصفية الذهن، ولذاذة الطَّعْم. فأما أجزاؤه؛ فهو ورق التَّنْبُول، والفُوْفَل[٥]،

(١) بطانته: أي أصحابه، «القاموس المحيط ٤/ ٢٠٤».

(٢) يقصد، السلطان (محمد تغلق شاه).

(٣) يعانيه: أي يهتم به. راجع «القاموس المحيط ٤/ ٣٦٩».

(٤) التَّنْبُول، أو التَّانبول: يُعرف بـ«التُّنْبُل»، أو (تامول)، أو (شاه صيني) أو (بان)، طعم ورقه، طعم القرنفل عطري حريف، من الفصيلة (الفلفلية)، من نوع (الفلفل)، لا ثمر له، تستعمل أوراقه (مضغة)، وبعض الأمم مثل (الهند)، و(الملايو) تضيف إليه جوز (الفوفل)، و(الجير) الحي، و(القرفة)، و(الكات)، ويستعملونه مكيفاً، مهيجاً للقوة الجنسية، ناتجاً للشهية، ويستعمل الآن في (إندونيسيا) مضغة تصبغ الفم والأسنان بلون أحمر، وهو المكيف الوطني هناك. وهو من نوع الشجر المتسلق المداد، دائم الخضرة، يعمر خمسين عاماً، يغرس، كما تغرس دوالي العنب، يصنع له عريش من القصب أو يغرس مجاوراً لشجر النارجيل، فيتسلق عليه، وورقه كبير الحجم بيضاوي الشكل غير متساوي الجانبين، كان (التنبول) مدرجاً في سجل الأدوية الرسمية البريطانية (الدستور العقاري) British Pharma Copae لكنه ألغي، لأنه ليس علاجياً بل مقوٍّ وقتياً، وَكَيِّف، يسبب استعماله التعود عليه والانهيار العصبي بعد زمن. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ١/ ١٣٣» و«إحياء التذكرة ١٩٥ـ ١٩٦»، و«نزهة الخواطر ٩/ ٢٥»، و«حضارة الهند ٧٩».

(٥) الفوفل: نخلة، مثل نخلة النارجيل، تحمل كبائس، مثل التمر، يصل عدده إلى مائة حبة؛ منه أسود، ومنه أحمر، في طعمه شيء من حرارة، ويسير من مرارة، بارد، شديد القبض، مقو للأعضاء، يكثر في الهند، وسيلان، والملايو، والصين، كما يزرع في مصر وتجود زراعته في منطقة أسوان «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية٣/ ١٦٩ـ ١٧٠»، و«نهاية الأرب ١١/ ١٣٠»، و«نزهة الخواطر ٩/ ٤٢»، و«إحياء التذكرة ٩٧ـ ٤٩٩».

ونُوْرَةٌ[١] تُعْمَل خاصّة[٢].

قال: ولا يَعِدّ أهلُ تلك البلاد كرامةً أبلغ منه، فإنه إذا ضَيَّف الرَّجُل الآخر وأكرمه بما /٣٣/ عسى أنْ يكون من أنواع الأطعمة، والأشوية، والحلاوات، والأشْرِبة، والرَّياحينِ، والطِّيْبِ، ولا يحضر التَّنْبُول، لا يُعْتَدُّ له بكرامة، ولا يُعَدُّ أنه أكرمه. وكذلك، إذا أراد الرئيس إكرام أحدٍ ممن يحضره يناوله التَّنْبُول[٣]. قلت: وهذا نظير مِسْك الأيَاق في ممالك أولاد جنكزخان[٤]؛ والأياق، هو قَدَح خَمْرٍ أو تَمْرٍ يُمسِكُه الكبيرُ، لِمَن أراد إكرامه، أو الرجلُ، لِمَن أراد خِدْمتَه، وهو أبلَغُ خدمةً عندهم، وسيأتي بمشيئة الله تعالىٰ ذكر هذا في موضعه.

وحَدَّثني العلامة سِرَاجُ الدِّين أبو الصفا عمر الشبلي، أنَّ هذا السلطان مُتَطَلِّعٌ إلى معرفة أخبار ممالكه، وبلاده وأحوال مَنْ حوله من جنوده، ورعاياه، وأنَّ له ناساً يُسَمَّوْنَ المُنْهين[٥]، وطبقاتهم مختلفة؛ فمنهم من يُخالِط الجند، والعامة، فإذا عَلِمَ ما يجب إنهاؤه إلى السلطان أنهاه إلى أعلى طبقةٍ منه، ثم يُنْهيها ذلك المنتهى إلى آخرَ الأعْلَى فالأَعْلَى إلى السلطان. فأما أخبار البلاد النائية، فإن بين حضرة السلطان،

---

(١) نورة: يقال له أيضاً (الكلس)، و(الجير) أي كلس الصدف، وإذا لم يأخذ الكلس لم يحسن طعمه، ولم يخامر العقل»، راجع أيضاً «نفس المصدر ج٤/ ٧٦ـ ٧٧».

(٢) لأن كلاً من (التنبول)، و(الفوفل) مزدرع، أما (النُّورة) فتُصنع من الحجر، الذي يُحرق ويسوى منه الكِلس، أو من صدف الحيوان البحري، الذي يقال له (فروقس)، أو من رديء الرخام. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٤/ ٧٦»، و«لسان العرب ٧/ ١٠٣».

(٣) يذكر ابن بطوطة في «رحلته ٤٥٩»، أنه عندما قدم أحد الأمراء العباسيين، وهو غياث الدين محمد بن عبد القاهر بن يوسف بن عبد العزيز ابن الخليفة المستنصر بالله، على السلطان، أخذ التنبول بيده وأعطاه إياه، وهذا أعظم ما أكرمه به، فإنه لا يفعله مع أحد.

(٤) جنكز خان: اسمه (تمرجين)، مجهول النسب، عمل في بداية حياته لدى (أزبك خان) حتى غضب عليه وطرده من خدمته، بسبب وشاية بعض أقرانه، فأخذ بجمع الأتباع، والأنصار، فانضم إليه بعض الأوزبك، وقدَّمه المغول عليهم سنة (٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م) فحارب (أزبك خان) وقتله، وملك بلاده، هزم (الخَطا)، وهزم (خُوارِزْم شاه) وقتله، فاستولى على الممالك؛ تركستان، وبلاد ما وراء النهر، وبلاد الجبل، وخراسان، وأذربيجان، والعراق. دون قوانينه وتشريعاته التي عرفت بـ(الياسا) فتمسك بها أبناؤه من بعده، يقول عنها ابن كثير: «وأكثرها مخالف لشرائع الله تعالى، وكتبه». توفي في رمضان سنة (٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م) بعد أن خلَّف ستة من الأبناء.

راجع أخباره وأخبار أبنائه في: تاريخ فاتح العالم جهانكشاي، وسير أعلام النبلاء ٢٢/ ٢٤٣ـ ٢٤٤، والبداية والنهاية ١٣/ ١١٧ـ ١٢١، والنجوم الزاهرة ٦/ ٢٦٨، وشذرات الذهب ٥/ ١١٣.

(٥) المنهين: جاء في «لسان العرب ٢٠/ ٢٢٠»: «الإنهاء، الإبلاغ، وأنهيت إليه الخبر. فانتهى، وتناهى أي بلغ، وتقول: أنهيت إليه السهم أي أوصلته إليه، وأنهيت إليه الكتاب، والرسالة».

وبين أمهات الأقاليم أماكن مقاربة بعضها من بعض شبيهة بمراكز البريد[١] في مصر والشام، ولكن هذه قريبة المدى بين المكان، والمكان بقدر أَرْبعِ غَلْوَاتِ نَشَّاب أو دونها، وفي كل مكانٍ عَشْرة سُعَاة[٢]، ممن له خِفَّةٌ في الجَرْي، يحملُ الكُتبَ بَيْنَه وبين من يليه، إذا أخذ أحدُهم الكتابَ جرى به جَرْياً قوياً بأشَدِّ ما يمكنه أنْ يشتدَّ، وأقوى ما يمكنه أن يجري إلى أن يوصله إلى الآخر، فيجري كالأول، إلى المكان الذي يليه ويرجع حامله إلى مكانه على مَهْلِه، فيصل الكتابُ مِن المكان البعيد إلى المكان البعيد في أقرب الأوقات، أسرع من البريد والنَّجَّابة[٣].

قال: وفي كل مكان من هذه الأماكن المركزة، مساجد تقام بها الصلوات، ويأوى إليها السفار، وبرك ماء للشرب، وأسواق لبيع المآكل، وعلوفة الدواب، فلا يكاد يحتاج إلى حَمْلِ ماءٍ، ولا زاد، ولا خيمة.

---

(١) مراكز البريد: هي «الأماكن التي تقف فيها خيل البريد لتغيير خيل البريدية فيها فرساً بعد فرس» (الصبح ١٤/ ٣٧٢) وجاء في «التعريف» أن البريد أربعة فراسخ، والفرسخ، ثلاثة أميال، والميل ثلاثة آلاف ذراع بالهاشمي، والذراع أربعة وعشرون إصبعاً، والإصبع أربع شعيرات ظهر واحد إلى بطن أخرى، والشعيرة أربع شعرات من ذنب بغل. ومراكز البريد في عصر العُمري، مؤلف (مسالك الأبصار)، لم تكن على هذا القدر من المسافات؛ بسبب تفاوت الأبعاد، تارة لبعد الماء، وتارة للأنس بقرية، كان البريد معروفاً في عهد الأكاسرة؛ ملوك الفرس، والقياصرة؛ ملوك الروم. وفي الإسلام، أول ما نُظِّم البريد في عهد (معاوية بن أبي سفيان)، عندما استقرت له الخلافة، واحتاج إلى سرعة وصول أخبار البلاد من مختلف أطرافها. فوضع له بعض دهاقين الفرس، وأهل أعمال الروم (البُرُد) واتخذوا لها بغالاً بإكُفٍ يسافر عليها البريد، وقيل إن ذلك تم في عهد (عبد الملك بن مروان). وفي نهاية الدولة الأموية، بسبب ما ساد البلاد الإسلامية من اضطرابات صاحبت سقوط دولة بني أمية، وقيام دولة بني العباس، انقطع البريد، ولم يُشَدّ له سرجٌ، أو تلجم له دابة طيلة أيام «السفاح»، و«المنصور». وفي أيام «المهدي» نظم «البريد» ليأتيه بأخبار ابنه «الرشيد» الذي كان غازياً لبلاد الروم، فقطع البريد بعد قفول الرشيد من جهة الروم، واستمر مدة خلافة المهدي. وفي أيام «الرشيد» نظَّم «يحيى بن خالد البرمكي» البريد على ما كان عليه أيام بني أمية فرتبت البغال في المراكز، وكان لا يُجَهِّزُ عليها إلا الخليفة، أو صاحب الخبر، واستمر البريد طيلة أيام الدولة العباسية قطعه (بنو بويه) كي يخفوا عن الخليفة أخبار تحركاتهم، واستمر الأمرُ كذلك أيام السَّلاجقة، الذين استبدلوا البريد، بالرسل بينهم على الخيل، والإبل، واتخذ الزَّنكيون النَّجَّابة، وأُعِدَّت لهم البُخْتُ المُنْتَخبة، وكذلك الأيوبيون، و«المماليك» حتى أيام الملك «الظاهر بيبرس»، فأعاد تنظيم البريد على ما كان عليه في الدولة الأموية. راجع تفصيل ذلك في «التعريف ٢٣٩ـ ٢٤٢»، و«الصبح ١٤/ ٣٦٦ـ ٣٧٠» و«نظم دولة سلاطين المماليك ١/ ٦٠».

(٢) سعاة: جاء في «لسان العرب ١٩/ ١٠٧»: السَّعْيُ العدو، وسعى، عدا، وسعى إذا مشى، وسعى إذا عمل، وسعى إذا قصد.

(٣) النَّجَّابة: النَّجيب من الإبل: العتيق، الذي يُسابق عليه، والنَّجِيْبُ من الإبل أيضاً القوي، الخفيف السريع، والمقصود بالنَّجَّابة، الذين يستخدمون هذا النوع من الإبل لنقل الأخبار والرسائل، أو إبلاغ المهمات، راجع «لسان العرب ٢/ ٢٤٥»، و«التعريف ٢٤١».

قال: ومن جملة عناية هذا السلطان، جَعْلُ بين قاعدتي ملكه، وهما دِهْلي، وقُبَّة الإسلام في هذه الأماكن /٣٤/ المعدَّة لإبلاغ الأخبار طبولٍ، فحيثما كان في مدينة وفُتح باب الأخرى، أو أُغلق تَدُقّ الطبْلُ، فإذا سمعه مجاورهُ دَقَّ، فَيُعْلَمُ خَبَرُ فتحِ المدينة التي هو غاب عنها، وغَلْقه في وقت الحاضر كل يوم بنوبة.

ولهذا السلطان مهابةٌ تسقط لها القلوبُ، مع قربه من الناس، ولِينهِ في كلامه وحديثه، وكل من أراد الوصول إليه، وصل إليه لا يُبْعده عِظَمُ حِجَابٍ[1]، ولا عموم حُجَّاب، وقد أَدَرَّ الله في أيامه الأرزاق، وكَثَّر المواد، وضاعف النعم، على أن الهند ما زال موصوفاً بالرخاء، معروفاً بالسخاء. حدثني الخُجْنَدِي، قال: أكلت أنا وثلاثة نفر رفاق لي في بعض بلاد دِهْلي لحماً بقرياً وخبزاً وسمناً حتى شبعنا بِجِيتل وهو أربعة فلوس[2].

(١) حِجَاب: الحِجَاب السِّتْر، والحجاب اسم ما احتجب به، وكُلُّ ما حال بين شيئين حِجَاب والجمع حُجُب، واحْتَجَبَ المَلِكُ عن الناس، ومَلِكٌ مُحَجَّبٌ» لسان العرب ١/ ٢٨٩» .

(٢) فلوس: الفِلس معناه في اللاتينية، كيس النقود وقد أخذته اليونان من اللفظ اللاتيني(Follis) وأخذته العرب من اليونان، وقد ذكر المقريزي، في «إغاثة الأمة ٦٦ـ ٧٢»: أن سبب ضربه، هو أنه كان في المبيعات مُحَقَّرات يَقِلُّ ثمنها عن درهم، أو جزء من الدرهم، فهي لا تستحق أن تُباع بأحد النقدين؛ الذهب أو الفضة، فوضعوا إزاءها نحاساً يضربون منه قطعاً صغاراً سُمِّيَت (فلوساً)، اشتهرت في مصر، والشام، وعراقي العرب، والعجم، وفارس، والروم قديماً، وضُربت في مصر أيام الكامل الأيوبي (٦١٥ـ ٦٣٥هـ/ ١٢١٨ـ ١٢٣٧م) ثم تتابع ضربها بعد ذلك، يقول المقريزي: «وكانت الفلوس أولاً تعد في الدرهم الكاملي ثمانية وأربعون فلساً، ويُقَسَّم الفلس أربع قطع تقام كل قطعة مقام فلس. يُشترى بها ما يُشترى بالفلوس، فيحصل بذلك من الرِّفق لذوي الحاجات ما لا يكاد يوصف». وبعد سنة (٦٥٠هـ/ ١٢٥٢م)، أصبح كل فلس يزن (مثقالاً) والدرهم يُعَدُّ أربعة وعشرون فلساً وفي سنة (٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م) وُزنت الفلوس بالميزان لخِفَّتِها، فأصبح الفلس زنة درهم، ثم أصبح الرَّطل من الفلوس بدرهمين، ويذكر القلقشندي في «الصبح ٣/ ٤٣٩ـ ٤٤٠»، أنه أحدثت في سلطنة (حسن بن محمد بن قلاوون) سنة (٧٥٩هـ/ ١٣٥٧م)، فلوس اشتهرت بالجُدد، زِنَة كل فلس منها مثقال، وكل فلس منها قيراط من الدرهم، يقول القلقشندي: «فجاءت في نهاية الحسن، وبطل ما عداه من الفلوس، وهي أكثر ما يَتَعامل به أهل زماننا» ولكن هذه الفلوس أدخل عليها ما قلل قيمتها بعد ذلك، حيث أنقص وزنها عن المثقال، فأصبح منها ما هو دون الدرهم، وصار تكوينها غير مستدير، فأصبحت توزن كل مائة وثمانية عشر رطلاً بالمصري بمبلغ خمسمائة درهم، وقد حمل الناس الفلوس المضروبة من الديار المصرية، إلى الحجاز، واليمن، وغيرها من الأقاليم. وهناك نوع من الفلوس غير مطبوع، عبارة عن نحاس مُكَسّر من الأصْفَر والأحمر، يقال لها (العتق)، وهي ما أشار إليها المقريزي، بأن زِنَة الرطل منها بدرهمين، ويذكر القلقشندي أنه عندما عملت الفلوس الجدد، استقر كل رطل منها بدرهم ونصف، وعندما ارتفعت أسعار النحاس، نفذت الفلوس من الديار المصرية، وخُلط النحاس المكسور بالفلوس الجدد، وراج معها على مثل وزنها.

وسأذكر معاملاتهم، ثم ذكْر الأسعار عندهم؛ لأنها مرتبة على المعاملة. وبها تعرف.

ولقد حدثني الشيخ مبارك قال: اللّك الأحمر مائة ألف تَنْكَة، واللّك الأبيض مائة ألف تَنْكة. تنكة الذهب، وهي المسمَّاة عندهم التَّنْكَة الحمراء ثلاثة مثاقيل، والتَنْكة النُّقْرة[(١)]، وهي الفضة ثمانية دراهم فَشْتكانِيّة[(٢)]. وهذا الدرهم الفشتكاني[(٣)] هو وزن الدرهم النُّقْرة. معاملة مصر والشام، وجوازُه جوازه، لا يكاد يتفاوت ما بينهما، وهذا الدرهم الفشتكاني، هو أربعة دراهم سلطانية وهي المسماة الدگَّانية[(٤)] ـ وهذا الدرهم السلطاني يجيء ثلث درهم، سشتكاني ـ وهو درهم ثالث يُتَعامل به في الهند ـ وجوازه بنصف وربع درهم هستكاني، ولهذا الدرهم السلطاني نصْف، يُقال له: يكاني، وهو بجيتل واحد، ولهم درهم آخر اسمه دوازدهاكاني جوازه بدرهم ونصف درهم هستكاني، ودرهم آخر اسمه شازردكاني، جوازه بدرهمين، فحينئذٍ دراهم الهند، ستة: شازردكاني، ودوازديكاني، هستكاني، سشتكاني، سلطاني، ويكاني. أصغرها الدرهم السلطاني، وهذه الدراهم الثلاثة كلها مما يُتَعامل به، والمعاملات بينهم بها دائرة، والأكثر بالدرهم السلطاني، وهو الذي تقديره ربع درهم من نقد مصر والشام، وهذا الدرهم السلطاني، هو بثمانية فلوس، والثمانية فلوس هي جيتلان، كل جيتل أربعة فلوس، فيكون الدرهم الهستكاني، الذي هو مثل درهم النّقْرة مُعَاملة مصر والشام / ٣٥/ اثنين وثلاثين فِلْساً.

ورطلهم يُسمى سير، وهو وزن سبعين مثقالاً عنها بصَنْجَة[(٥)] الدراهم بمصر، فإنه

---

(١) النُّقرة: النُّقرة، من الذهب والفضة، القطعة المُذابة، وقيل مَاسُبك مجتمعاً والنُّقرة السبيكة، والجمع نقار. «المخصص ١٢/ ٣٠»، و«لسان العرب ٧/ ٨٧».

(٢) جاء في «نزهة الخواطر ٩/ ٣٧٨»: فليعلم أن النقود التي كانت مروجة أيام المملوكين، وفيما بعدهم كانت على ثلاثة أقسام: الذهبية، ويسمونها (تَنْكة) وزنها (تولة واحدة) غالباً، والفضية، يسمونها أيضاً (تنكة)، وزنها أيضاً كان (تولة واحدة)، والنحاسية، ويسمونها (جيتل) بكسر الجيم، وزنها (تولة واحدة)، وقيل: تولة وثلاثة أرباع منها، وكأن (التَّنْكة الفضية) واحدة منها، تعدل خمسين جيتلاً.

(٣) يبدو أن هذا الدرهم كان يعرف باسمين هما: فشتكاني وهستكاني، خاصة وأن المؤلف بعد أن استعرض دراهم الهند ذكر أنها تنحصر في ستة دراهم. ذكر منها الدرهم (الهستكاني) دون (الفشتكاني) وقد ورد ذلك في جميع النسخ، ومثله في ذلك مثل الدرهم (السلطاني) الذي عُرف أيضاً باسم آخر هو (الدّكاني). وكذلك، الدرهم (دواز دهكاني) الذي أطلق عليه أيضاً (دوازديدكاني) هذا أمر. ولعله الأقرب. أما الأمر الآخر، فهو أن يكون قد وقع تصحيف في الاسم لتشابه الاسمين في الرَّسم، فاستبدلت الهاء فاء، أو العكس.

(٤) جاء في «الصبح ٥/ ٨٤»: «الدرهم السلطاني، ويُسَمَّى (وكاني) وهو ربع درهم من الدَّراهم المصرية.

(٥) صنجة أو سنجة: بالفارسية (سنكة) أي الحجر، وهي وزن، ومعيار ولضبط أوزان السكة الإسلامية، =

مائة ودرهمان وثلثان، وكل أربعين سيراً مَنٌّ واحدٌ. ولا يعرف عندهم الكيل.

وأما الأسعار، فإنَّ أوسطها القمح، كُلُّ مَنٍّ بدرهم ونصف هستكاني، والشعير كل مَنّ بدرهم واحد منه، والأرز كل مَنٍّ بدرهم ونصف وربع منه، إلا أنواعاً معروفة من الأرز، فإنها أعلى من ذلك. والحمّص كل مَنَّين بدرهم واحد هستكاني، ولحم البقر والمَعْز سعرٌ واحدٌ، ويباع كل ستة أسيار بدرهم سلطاني، وهو ربع درهم هستكاني، والغنم كل أربعة أسير بدرهم سلطاني، والأوِزُّ كل طائر بدرهمين هستكانية، والدّجاج كل أربعة طيور بدرهم هستكاني، والسّكّر كل خمسة أسيار بدرهم هستكاني، والنبات[1] كل اربعة أسيار بدرهم منه.

ورأس من الغنم الجيدة السمينة الفائقة بتَنْكَة واحدة عنها ثمانية دراهم هسْتكانية، والرأس البقر الجيد بِتَنْكَتين، وربما كان بأقل، والجاموس كذلك، وأكثر مأكلهم لحوم البقر والمعز، قلت للشيخ مبارك: هذا لِقلة الغنم ؟ قال: لا، ولكن عادة، وإلا فالأغنام لا تُعَدُّ في كل قرية في الهند إلا بالآلاف [المُؤلفة] والدجاج كل أربعة طيور فائقة بدرهم واحد بالمصري، وأما الحمام والعصافير وأنواع الطير فبأقل الأشياء ثمناً.

وأما أنواع الصيد، من الوَحْش[2] والطير بها فكثير، وبها الفَنَك[3]، والْكَرْكَدَن، وإنما فِيَلَة الزّنج أجل.

وأمارتهم في الملبوس لبسهم البياض، وثياب الجوخ[4]، وثياب الصوف إذا

= اتخذ عبد الملك بن مروان صِنَجَاً من زجاج تستحيل على الزيادة، أو النقص. «لسان العرب ٣/ ١٣٦»، و«كتاب النقود الإسلامية» ضمن كتاب «تعريف النقود، والدواوين في العصر الأموي» للدكتور حسان حلاق ١١٧، والموسوعة العربية الميسرة ١١٣٢».

(١) يقصد به سكر نبات، وهو ما يسمى عند الأطباء (سكر طبرزد)، وهو سكر صلب شديد يسميه أهل مصر (السكر نبات) «شرح أسماء العُقَّار ٣١».

(٢) الوحش: كل شيء من دواب البر، مما لا يُستأنس، مؤنث، وهو وحشي والجمع وحوش. «لسان العرب ٨/ ٢٦١».

(٣) الفنك: اسم دُويبة. تشبه (الثعالب) صغير الحجم، جميل الشكل، واسع العينين، وله أذنان قائمتان، عظيمتا الحجم، صوته كالثعلب، وهو من حيوانات الصحاري يُسمى بالإنجليزية (فِنك) . Fennec له (وبر) أبيض خالطه حمرة، يتخذ من جلوده الفراء، ويعتبر من أطيب أنواعه، فهو أبرد من السَّمُّور وأحر من السنجاب، وكثيراً ما يُجلب من بلاد الصقالبة. «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية ٣/ ١٦٨»، و«الصبح ٢/ ٤٩»، و«إحياء التذكرة ٤٩٦» .

(٤) الجوخ: جمعه أجواخ: وبالتركية (جوقه)، وهي نسيج من صوف صفيق يُكتسى به، يقول المقريزي في «الخطط ٢/ ٩٨»: «أدركت الناس، وقلما تجد فيهم من يلبس الجوخ، وإنما يكون من جملة ثياب =

جُلب إليهم، يباع بأرفع الأثمان، ولا يَلْبس الصَّوْفَ إلا أهلُ العلم، والفَقْر ويلبس السلطان، والخانات، والملوك، وسائر أوباب السيوف نتريان وتَكْلاوات[(١)] وأَقْبِيَة إسلامية[(٢)] مُخَصَّرة الأوساط خُوارِزمْيّة[(٣)]، وعمائم[(٤)] صغار، لا تَعَدّى العمامة خمسة ستة أذرع، ومن اللانس الرفيع، وحدثني الشريف ناصر الدين محمد[(٥)] الحسيني الكارمي المعروف بالزُّمُرّدي، وهو ممن دخل إلى الهند مرّتين وأقام عند السلطان قطب الدين[(٦)] بدهلي، أن غالب /٣٦/ لباسهم البياض، وغالب جمعات[(٧)] أكسيتهم التترية[(٨)]

= الأكابر جوخٌ لا يلبس إلا في يوم المطر، وإنما يلبس الجوخ من يرد من بلاد المغرب، والفرنج، وأهل الإسكندرية، وبعض عوام مصر، فأما الرؤساء، والأكابر، والأعيان فلا يكاد يوجد فيهم من يلبسه، إلا في وقت المطر فإذا ارتفعت المطر نزع الجوخ» ثم ذكر بعد ذلك أنه عندما غلت الأسعار دعت الضرورة أهل مصر إلى ترك أشياء مما كانوا فيه من الترف. وصار الناس يلبسون الجوخ» راجع في معنى الجوخ «محيط المحيط ١٣٤»، «وتكملة المعاجم العربية ٢/ ٣٢٨».

(١) التكلاوات: ثياب تلبس في الهند ومصر، فوق (الأقبية) التترية ويلبس فوقها القباء الإسلامي «الصبح ٤/ ٤٠»، و«الخطط ٢/ ٢١٧»، و«الملابس المملوكية ٤٠».

(٢) أقبية إسلامية: لباس خارجي، للرجال، يُلْبس فوق التَّكلاوات، فارسي الأصل، سُمي بذلك لتقبُّضه، وقِصَره، قبوت الشيء جمعته منه (اليَلْمَق) فارسي معرب، و(الفَرُّوج) مشقوق من الخلف، ومنها ما هو طويل، ومنها ما هو قصير إلى الركبة، مفتوح عند الرقبة، كانت له أكمام ضيقة فجعلها المعتصم فضفاضة، وأكمامها عريضة بلغت ثلاثة أذرع، «المخصص ٤/ ٨٦»، و«٤٢/ ٤٣»، و«الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي ٢٨٠ـ ٢٨٤».

(٣) خُوَارِزمية: نسبة إلى (خوارزم) إقليم منقطع عن (خراسان)، وعن (بلاد ما وراء النهر) يحيط به من الغرب بعض بلاد الترك، ومن الجنوب خراسان، ومن الشرق بلاد ما وراء النهر، ومن الشمال بلاد الترك أيضاً. يقع في آخر نهر جَيْحون على جانبيه، قصبته تُسمى (خوارزمية) خربها النهر، وبنى الناس، لهم مدينة من ورائها، «كتاب تقويم البلدان ٤٧٦»، و«بلدان الخلافة الشرقية ٥٠٢».

(٤) العمائم: جاء في «المخصص ٤/ ٨٢»: أن العمامة، هي ما يُلاث على الرأس تكويراً.

(٥) لعله هو الذي أشار إليه «ابن حجر» في «الدرر ٤/ ٥١» بقوله: محمد بن الحسين الشريف، ولي توقيع الدَّست بمصر، لما ولي أبوه كتابة السّرّ بحلب، وكان يكتب من إنشاء أبيه، ولم يُسمع له بنظم، ولا نثر، وكانت وفاته في شهر ربيع الأول سنة (٧٦٣هـ/ ١٣٦١).

(٦) هو الملك المؤيد قطب الدين مبارك شاه بن محمد الخلجي، استقر له الحكم سنة (٧١٧هـ/ ١٣١٧م)، بعد أن خلع أخاه (شهاب الدين)، ثم قتله مع بقية أخوته بعد حبسه معهم في مدينة (كواليار). قُتل على يد أكبر أمرائه (خسرو خان) في خامس ربيع الأول سنة (٧٢١هـ/ ١٣٢١م). «نزهة الخواطر» (١/ ١٥ـ ١٦، و٩/ ١٩١ـ ١٩٢).

(٧) جاء في «لسان العرب ٩/ ٤٠٥»: «فجمعت علي ثيابي أي لبست الثياب التي يبرز بها إلى الناس، من الإزار، والرداء، والعمامة، والدرع، والخمار، وجمعت المرأة الثياب، ليست الدِّرع، والمِلْحفة، والخمار، كما جاء في «المصباح المنير ١/ ١١٨»، وأخذ (بجميع ثيابه) أي بمجتمعها.

(٨) التترية: نسبة إلى التتر، وهي شعوب انحدرت من أصل مُغْلي، ويختلف مدلول التتر باختلاف العصور. «دائرة المعارف الإسلامية ٤/ ٥٧٦ـ ٥٧٧».

مزركشة[١] بالذهب، ومنهم من يلبس مُطَرّز الكمين، بزركش[٢]، ومنهم من يعمل الطراز بين كتفيه، مثل المُغْل[٣]، وأقباعهم[٤] مربعة الإنبساط، مُرَصّعة بالجواهر، وغالب ترصيعهم بالياقوت، والماس، وتظفير شعورهم ذؤابات مَرْخِيّة، كما كان يفعل عسكر مصر والشام، ويُعْمل في الذؤابات[٥] شراريب[٦] حرير، وتشدّ في أوساطِهم المناطق من الذهب، أو الفضة، وأخفاف[٧]، ومهاميز[٨]، وأما السيوف، فلا تشدّ إلا في الأسفار، وأما في الحضر فلا تُشَدّ. وأما الوزراء والكتّاب فمثل زي الجند، ولكن لا يشدون المناطق، وبعضهم يرخى له عَذْبات[٩] أمامهم، مثل عذبات الصوفية، وأما القضاة، والعلماء فلبسهم فَرْجِيّات[١٠] شبيهات بالجندات، ودراريع[١١]

---

(١) مزركشة: بمعنى مطرزة، راجع «الملابس المملوكية ٤٢».

(٢) المقصود (بالزّركش) هنا، ما نُسج من الحرير، والذهب الخالص، وهو مستعار من الفارسية، «الصبح ٤/ ٤١»، و«الملابس المملوكية ٦١».

(٣) اسم عُرف به (التتر)، وانتشر في منغوليا، وآسيا الوسطى، وقد استعمله رسمياً جنكيز خان. «دائرة المعارف الإسلامية ٤/ ٥٧٦ـ ٥٧٧».

(٤) وأقباعهم: القبع، طاقية صغيرة، تُلْبس تحت العمامة. «الملابس المملوكية ٩٠».

(٥) ذؤابات: جمع (ذؤابة)، وهي الظفيرة من الشعر. «المصباح المنير ١/ ٢٢٦».

(٦) شراريب: جاء في «المحيط ٤٥٨»: أنها جمع (شَرَّاب)، وهي عند المولَّدين ضمَّة من خيوط يُعَلّق طرفها الواحد بالطربوش، وغيره، ويتدلّى طرفها الآخر.

(٧) أخفاف: جمع خُفّ، وهو ما لُبس في القدم، فارسي مُعَرّب، أصله في الفارسية (مُوزَة) وجمعها (مَوَازِجَة) يُقال للصغير منه، (الجُرْمُق)، وهي أنواع منها:
(الهِبْرِزِيّ)، وهي يمانية جيدة، و(الحَنْبَل)، و(المُوق). «المخصص ٤/ ١١٤»
وجاء في «محيط المحيط ٢٤٤ ـ ٢٤٥»: أن الخفّ «واحد الخِفاف، التي تلبس في الرجل سُمّي به لخفته، وهو شرعاً ما يستر الكعب، وأمكن به السَّفر، أو المشي فرسخاً فما فوق، والجُرمُوق ما يُلبس فوق الخف لحفظه من الوحل، ونحوه على المشهور، وقيل هو الخف الصغير» وللمزيد من المعلومات راجع «الملابس المملوكية ٦٣ـ ٦٤».

(٨) مهاميز: المِهْمَاز، آلة حديد تكون في رِجْل الفارس، فوق كعبه، فوق الخف، وما في معناهما، ومؤخَّرَهُ إصبع محدد الرأس، إذا أصاب جانب الفرس وأسرعت في المشي، وجَدَّت في العدو، وهو تارة يكون من ذهب محض، وتارة من فضة، وتارة من حديد مطلي بالذهب، أو الفضة. «الصبح ٢/ ١٣٦»، و«الخطط ٢/ ٢١٧»، و«الملابس المملوكية ٦٤».

(٩) عذْبَات: جمع (عذبة)، والعَذْبة: هي طرف الشيء. «لسان العرب ٢/ ١٧٥»، و«القاموس المحيط ١/ ١٠٥».

(١٠) فرجيات: نوعٌ من الأقبية تتألف من ثوب واسع له كُمَّان، وفيه شَقٌّ من خلفه، تصنع من الوبر، وتلبس في الشتاء، «المخصص ٤/ ٨٦»، و«الملابس العربية الإسلامية ٢٧٨ ـ ٢٨٠».

(١١) دراريع: جمع (دُرَّاعة)، ضرب من الثياب، وهي جبة مشقوقة القدم حتى أعلى القلب، ومزرورة بأزرار، وعرى ومنها أنواع لا تكون إلا من الصوف، «المخصص ٤/ ٣٦»، و«الملابس العربية الإسلامية في العصر العباسي ٢٥٥».

وأما عامة الناس فقُمُص[١]، وفرجيّات مقندَرة، ودراريع.

وحدثني الشِّبلي أن أهل دِهْلي، أهل ذكاء، وفطنة، فصحاء في اللسان الفارسي، والهندي، [ولهم] دقة أفهام، وصفاء أذهان، وغالبهم ينظمون الشعر بالفارسي، والهندي، ومنهم من ينظم الشعر بالعربي، ويجيد فيه، وكثير ممن يمدح السلطان منهم، ممن ليس لهم اسم في ديوانه، فيقبل عليهم، ويجيزهم.

قال لي الشبلي: وأحد دبيران السلطان له عادة أن يمدحه إذا تجدد له فتح، أو أمر كبير، ورسمه عليه أن يأمر بأن تُعدّ له أبيات قصيدته ويُعْطى بكل بيت عشرة آلاف تَنْكَة، وكثيراً مما يستحسن السلطان منه شيئاً أو يعلم له ضرراً، فما يأمر له بشيء مخصوص على التعيين، وإنما يأمره بأن يدخل إلى الخزانة، ليحمل ما أطاق فلما رآني عجبت مما يحكيه، من كثرة هذا الإنفاق، والبَسْطة، في المواهب، والإطلاق. قال: وهو مع هذه السّمعة المفرطة في بذل العطاء، لا ينفق نصف دخل بلاده.

وحدثني شيخنا فريد الدهر، شمس الدين الأصفهاني[٢]، قال: كان قطب الدين الشيرازي[٣] رحمه الله يُثْبت صحة الكيمياء[٤]، قال: فبحثت معه في بطلان الكيمياء،

---

(١) القُمُص: هو «الجلباب». «المخصص ٤/ ٨٤»
وجاء في «لسان العرب ٨/ ٣٥٠ ـ ٣٥١» القميص الذي يُلْبس، معروف مذكّر، وقد يُعْنى به الدّرع فيؤنث، والجمع أَقْمِصَة، وقُمُص، وقمصان، وللمزيد من المعلومات عن القمص، راجع «الملابس العربية الإسلامية ٢٠١ـ ٢٠٨».

(٢) شمس الدين محمد بن عثمان الأصفهاني، المعروف بابن العجمي الحنفي، كان مدرِّساً بالإقبالية، حدّث بالمدينة النبوية، ودَرَّس أيضاً بالمدرسة الشريفة النبوية، وحَدّث بدمشق، وكان فاضلاً، وجمع منسكاً على المذاهب، «تاريخ ابن الوردي ٢/ ٤٣٥». ويذكر صاحب «الوافي بالوفيات ٨/ ٢٥٥» أنّه من مشايخ العمري قرأ عليه، وأخذ عنه الأصول.

(٣) قطب الدين الشيرازي: هو قطب الدين، محمد بن مسعود بن مُصْلح، الفارسي، الشيرازي، الشافعي، العلاّمة، وُلِد في شيراز سنة ٦٣٤هـ/ ١٢٣٦م. تعلّم مهنة الطب من والده، ومن عمه، ومن الزّكي البَركشائي، والشمس الكتبي، وعمل طبيباً بالمرستان، كما درس علم الهيئة والإرشادات على يد النصير الطوسي، سكن تبريز وأقرأ فيها العلوم العقلية، ودرس في دمشق الكشاف، والقانون والشفاء، وغيرها، كان من أذكياء العالم، ولَقَبه عند الفضلاء الشارح العلاّمة. من تصانيفه: شرح المختصر، وشرح المفتاح للسكاكي، وشرح الكليات لابن سيناء، وشرح الإشراف للسهروردي، وله كتاب في الحكمة سماه غرة التاج. توفي في ٢٤ رمضان، وقيل ١٧ رمضان من سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م عن ست وسبعين سنة.
ترجمته في: ذيول العبر ٤/ ٢٥، وتاريخ ابن الوردي ٢/ ٣٧٠، والدرر الكامنة ٥/ ١٠٨، والسلوك جـ٢، ق١/ ٩٦، والنجوم الزاهرة ٩/ ٢١٣، والأعلام ٧/ ١٨٧ـ ١٨٨.

(٤) الكيمياء: لفظ عربي، اشتقاقه من كمى يكمي، إذا ستر وأخفى، ويُقال: كمى الشهادة يكميها، وإذا

=

فقال لي: أنت تعلم ما يَتْلَف من الذهب في الأبنية، والمستعملات، ومعادن الذهب لا يتحصل منها /٣٧/ نظير ما ينفد، وأما الهند، فإني حَرّرت أَنَّ له ثلاثة آلاف سنة، لم يخرج منه ذهب إلى البلاد، ولا دخل إليه ذهب، فخرج منه، والتّجار من الآفاق تقصد الهند بالذهب العين[١] وتتعوض عنه بأعراضٍ[٢]، حشائش[٣] وصموغ[٤] لا غير، فلولا أَنَّ الذهب يُعْمل [لَعُدِم بالجملة] الكافية.

قال شيخنا[٥] شهاب الدين: أما قوله عما يدخل إلى بلاد الهند، من الذهب، ثم لا يخرج منه فصحيح، وأما إثباته لصحة الكيثمياء، فباطل لا صحة له. قال: وبلغني أَنَّ مِمَّنْ تَقَدّم هذا السلطان، فتح فتوحاً، فأخذ من الذهب وَسَق[٦] ثلاثة عشر ألف بقرة، قُلت: والمشهور عن أهل هذه البلاد جَمْع الأموال، وتحصيلها، حتى أن بعضهم إذا سُئِل كم معك؟ فيقول: ما أعرف، إلا أَنِّي ثاني ولد يجمع على مال جَدِّه، أو ثالث ولد في هذا النَّقب[٧]، أو في هذا الجُبّ[٨]، وما نعلم كم هو؟ وهم

= كَتَمها، وتسمى (الحكمة) وتسمى (الصَّنْعة)، «مفاتيح العلوم ١٩٣». وهو العلم الذي يُعْنى بطبيعة المادة، وتركيبها، وما يتناولها من تغيرات «الموسوعة العربية الميسرة ١٥٣٠ـ ١٥٣١».

(١) أي بالذهب نفسه، فعين الشيء نفسه، راجع «محيط المحيط ٦٤٩».

(٢) أعراض: الأعراض، أو العروض، هي الأمتعة التي لا يدخلها كيل، ولا وزن، ولا تكون حيواناً، ولا تكون عقاراً، «المصباح المنير ٢/ ٥٣».

(٣) حشائش: لعله يريد ما تشتهر به بلاد الهند من منتوجات زراعية من حبوب ونحوها مما هو مزدرع، راجع في معنى الحشائش، «تاج العروس ٤/ ٢٩٧ـ ٢٩٩»، و«تكملة المعاجم العربية ٣/ ١٧٥ـ ١٩٩».

(٤) صمُوغ: جاء في «كتاب النبات ٣/ ٨٦ـ ٨٧»: الصَّمْغُ، ما جَمُد من نَضْح الشجر، ولم يكن له مَمْضَغَة، يُقال: أَصْمغَ الشَّجرُ، إذا أخرج صَمْغَه، فهو نضوح ينضحها الشجر، بلا استخراج مستخرج، كما أطلق النويري الصموغ على أصناف كثيرة، بلغت ثمانية وعشرين صنفاً، مثل: الكافور، المُصْطَكا، الصَّبْر، المُرّ، الحلتيت، القطران، الزِّفْت، الأَنْزَرت، القمح العربي. وغيرها. راجع «نهاية الأرب ١١/ ٢٩١ـ ٣٢٥».

(٥) محمد بن المجد عبد الله الحسين الأزبلِّي، ثم الدِّمشقي الزرزاري، شهاب الدين، أبو الفرج، وُلِد سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٣م، تولى قضاء قضاة الشافعية بدمشق في ذي القعدة سنة ٧٣٤هـ/ ١٣٣٣م، توفي في دمشق في رجب من سنة ٧٣٨هـ/ ١٣٣٧م.
ترجمته في: تاريخ ابن الوردي ٢/ ٤٥٠، والدرر الكامنة ٤/ ٨٦ـ ٨٧.

(٦) وَسَق: الوَسَق، حِمْل بعير، والجمع وُسُوق، والوَسَق، ستون صاعاً، بصاع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، والصَّاع خمسة أرطال وثلث، وهو على هذا الحساب مائة وستون مَنًّا، والوَسَق ثلاثة أقْفِزة، وحكى بعضهم الكسر لغة، وجمعه أوساق، مثل حِمْل وأحمال. «المصباح المنير ٢/ ٣٣٦».

(٧) النَّقْب: جاء في «المصباح المنير ٢/ ٢٩١»: نقبت الحائط، ونحوه، من باب قتل، خَرَقْته. وجاء في «محيط المحيط ٩١٠»: نقب الحائط، خرقه وهو كالثقب في الخشب.

(٨) الجُبّ: هو البئر التي لم تُطْوَ، ومِمّا وجد لا مما حفَرَه الناس «القاموس المحيط ١/ ٤٥». وفي «محيط =

يتخذون أجباباً، لجمع الأموال، ومنهم من ينقب في بيته، ويتخذ به بركة ويسدها، ولا يدع إلا مقدار ما يسقط منه الدنانير، ليُجْمَع فيها الذهب وهم لا يأخذون الذهب المصوغ[(١)]، ولا المكسور، ولا السَّبَائِك[(٢)]، خَوْفاً من الغَبْن[(٣)]، ولا يأخذون إلا الدنانير المسكوكة[(٤)]، وفي بعض جزائرهم من يَنْصب على سطح داره علماً، كلما تكامل لأحدهم جَرَّة ذهب، حتى يكون لبعضهم عشرة أعلام وأكثر.

وحدّثني الشّيخ برهان الدين أبو بكر بن الخلال محمد البزّي الصّوفي، قال: بعث هذا السلطان عسكراً إلى بلادٍ وهي مجاورة للدواكير في نهاية حدودها، وأهلها كفار يدعى كل مَنْ ملَكَ منهم (الرَّا)، فلما نازله جيوش السلطان، بعث يقول لهم: قولوا للسلطان، أنه يكف عنا، ومهما أراد مِن المال نبعث له ما أراد من الدواب، لأحمله له. فبعث أمير الجيش يُعَرِّفه بما قال، فأعاد جوابه، بأَنَّه يكفّ عنهم القتال، ويؤمنه للحضرة معه، فلما حضر إلى السلطان أكرمه إكراماً كثيراً، وقال له: ما سمعت مثل ما قلت، فكم عندك من المال، حتى قلت إنَّا نبعث لك مهما أردنا من الدواب لتحملها ؟ فقال: تقدَّمني سبعُ رآات في هذه المملكة جمع كل واحد منهم سبعين ألف بايين[(٥)] /٣٨/ أموالاً، وكلها عندي حاصلة. فقال: والبايين؛ هو صهريج

= المحيط ٩٠»: الجبُّ، البئر، أو الكثيرة الماء، البعيدة القعر، أو الجيدة الموضع من الكلأ. أو التي لم تُطْوَ، مما وُجِد محفورا لا مما حفره الناس، ويطلق على الهُوَّة، التي لا يُعرف قرارها، جمعها أَجْبَاب، وجِبَاب، وجِبَبَة.

(١) المصوغ: جاء في «محيط المحيط ٥٢٤»: «صاغ الشيء هَيّأه على مثال مستقيم، كما يُفعل في صوغ الحلي، والأواني من الذهب والفضة، والصَّوْغ عند الصرفيين، هو أن يُؤْخَذُ مادَّة أصلٍ، ويُتَصرَفّ فيها بإحداث هيئة، وزيادة معنى، فتبقى مادّةُ الأصل، ومعناه في الفرع، كما في صوغ الحلي، والأواني من الذهب والفضة.

(٢) السَّبائِك: السَّبيكة، القطعة المذوَّبة من الذهب، أو الفضة وجمعها سَبَائك. «المخصص ١٢/ ٣١»، و«محيط المحيط ٣٩٤».

(٣) الغبن: في البيع والشراء، الوكس، أو الخداع، ومنه ما هو يسير وهو ما يقوّم به مقوّم، ومنها ما هو فاحش، وهو ما لا يدخل تحت تقويم المقومين.

(٤) المسكوكة: السِّكَّة، هي الخَتْم على الدنانير، والدراهم، المُتَعامل بها بين الناس بطابع حديد يُنْقش فيه صُوَرٌ، أو كلماتٌ مقلوبة، ويُضْرب بها على الدينار، والدرهم، فتخرج رسوم تلك النقوش عليها ظاهرة مستقيمة، ولفظ السِّكة، كان اسماً للطابع، وهي الحديدة المُتَّخذة لذلك، ثم نُقل إلى أثرها، وهي النقوش الماثلة على الدنانير، والدراهم، ثم نقل إلى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته، وشروطه، وهي الوظيفة فصار عَلَماً عليها في عُرف الدول، وهي وظيفة ضرورية للمُلْك «المقدمة ٢/ ٧٠٠ ـ ٧٠١».

(٥) ورد في «رحلة ابن بطوطة ٥٣٥، ٥٦٢» اسم (البايين) وذكر أنه في الهند، عبارة عن بئر متسعة جداً =

متسع جداً يُنزل له بسلالم من أربع جهات فأعجب السلطانَ مقالُه، وأمر بأن يُخْتم على الأموال باسمه، فخُتمت باسم السلطان، ثم أمر (الرّا) بأن يجعل له نوّاباً في مملكته، ويُقيم هو بنفسه في حضرته بدِهْلي، وعرض عليه الإسلام، فأبى فأقرّه على دِيْنِه، وأقام في حضرته، وجعل له نُوّاباً في مملكته، وأجرى السلطان عليه ما يليق بمثله، وبعث إلى تلك المملكة أموالاً جَمّةً فُرّقت على أهله صدقة عليهم؛ لكونهم انتظموا في عديد رعاياه، ولم يتعرض إلى البايينات وإنما ختم عليها وأبقاها على حالها تحت ختمه. وقد ذكرت هذا على ما ذكره البزّي، وهو معروف بالصدق، والعهدة عليه، والعائد فيها إن كان يعود فإليه.

وحدثني علي بن منصور العُقَيلي، من أمراء عرب البحرين[1]، قال: إن سِفَارَنا ما تنقطع عن الهند، وعندنا كثير من أخباره، وتواترت الأخبار عندنا، أن هذا السلطان محمد بن طغلق شاه، فتح فتوحات جليلة، وأنه مما فتح مدينة لها بحيرة ماء، في وسطها بيت بدّ معظم عندهم، يُقْصَد بالنذور، وكان كل نَذْر يجيء إليه، يُرمى في تلك البحيرة فلما فتحها قيل له عن ذلك، فشَقّ نهراً من تلك البحيرة، وصَرَّف الماء منها إلى أنْ تَصَرّف، ثم أخذ ما كان هناك من الذهب، وحمل منه وسَقَ مائتي فيل وآلاف من البقر.

قال: وهو رجل جواد كريم، يُحسن إلى الغرباء، سافر مِنّا رجلان إليه، وشملتهما السعادة بالحضور عنده فأنعم عليهما، وشَرفهما بالخِلَع وأجرى عليهما الأموال الجمَّة، وكانا مِمّن لا يؤبه إليه، من عَرَبِنا، ثم خيرهما في المقام، أو العَوْد، فاختار الواحد منهما المقام فأعطاه بلداً جليلاً، ومالاً جزيلاً، وشيئاً كثيراً من مواشي، الغنم والبقر، وهو الآن هناك مُمَوّلاً مُخَوّلاً[2] وأما الآخر فسأل العَوْدة فأنعم عليه بثلاثة آلاف تَنْكةٍ ذهباً، وأعاده مَحْبُوّاً مَحْبُوراً[3].

= مطوّية بالحجارة، لها دَرَج يُنزل عليها إلى وُرْدِ الماء، وبعضها يكون في وسطه وجوانبه القباب، من الحجر، والسَّقائف، والمجالس. ويتفاخر ملوك البلاد وأمراؤها بعمارتها في الطرقات التي لا ماء بها.

(١) البحرين: إقليم على ساحل بحر الهند، بين البصرة وعمان، من أهم مدنه، الخطّ، والقطيف، والآرة، وهجر، وهي العاصمة، وبينونة، والزّارة، وجواثا، والسابور، ودارين، والغابة، سُمّي بهذا الاسم، لأنّ في ناحية قراه بحيرة على باب الأحساء، صالح أهلُها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في السّنة الثامنة من الهجرة وأمَّرَ عليهم (العلاء بن عبد الله بن عماد الحضرمي) حليف بني عبد شمس. «الطبقات الكبرى ١/ ٢٦٣»، و«معجم ما استعجم ١/ ٢٢٨» و«معجم البلدان ١/ ٣٤٦ـ ٣٤٨».

(٢) مُخَوّلاً: جاء في «لسان العرب ١٣/ ٢٣٨»: الخَوَل، ما أعطى الله تعالى الإنسان من العبيد والخَدَم. وخَول الرجل، الذي يملك أمورهم، وخوّلك الله مالاً أي ملكك.

(٣) مَحْبَوراً: أي مسرورا «القاموس المحيط ٢/ ٢»، و«محيط المحيط ١٤٢».

الباب الثاني: في ممالك بيت جنكز خان

/ ٣٩/ وفيه فصول:

* الفصل الأول: في الكلام عليهم جُملياً.
* الفصل الثاني: في مملكة القان الكبير صاحب التخت؛ وهو صاحب الصين والخطا.
* الفصل الثالث: في التورانيين، وهم فرقتان:

الفرقة الأولىٰ فيما وراء النهر.

والفرقة الثانية في خوارزم والقبجاق.

* الفصل الرابع في الإيرانيّين.



= الفصل الأول

في الكلام عليهم جُملياً

جعلتُ هذا فصلاً جامعاً لذكرهم قبل ذكرهم علىٰ التفصيل في ممالكهم؛ لأنَّ هؤلاء منهم أربعة سلاطين بيد كل منهم مملكة عظيمةٍ، استولوا بها علىٰ غالب المعمور من حدود الفرات إلىٰ نهاية الشرق علىٰ الخط المستقيم المتصل بالسند(١) فالمسمىٰ منهم بالقان(٢) الكبير ـ وهو المتغلغل في الشرق منهم ـ وهو القائم مقام جنكزخان والجالس علىٰ تخته(٣)، وسيأتي ذكره ـ إن شاء الله تعالىٰ ـ.

والثاني منهم؛ هو صاحب إيران بجموعها وهي التي كانت بيد الأكاسرة(٤).

والثالث منهم؛ هو صاحب القبجاق.

والرابع منهم؛ صاحب مملكة ما وراء النهر، فانقسمت بينهم مملكة توران؛ وهي مملكة الترك القديمة وبها كان أفراسياب(٥).

وأما صاحب إيران فهو يفخر علىٰ الملكين صاحب القبجاق وصاحب ما وراء النهر بأنَّ جدَّه الأكبر هولاكو بن تولي بن جنكزخان(٦) ـ وهو جدّ القان الأكبر الآن ـ.

---

(١) السند: هو النهر الفاصل بين إيران والهند قديماً، والسند إقليم بباكستان الحديثة ونهر يجري بها. «رحلة ابن بطوطة، تحقيق الشيال ٢٦٢».

(٢) القان: كلمة مغولية، تعني ملك كبير وسلطان عظيم، وقد سبق تعريفها.

(٣) التخت: كلمة فارسية، تعني العرش، كرسي الحكم. «لسان العرب ١/ ٤٢٢».

(٤) الأكاسرة: جمع كسرى، مأخوذة من اللفظ الفارسي خسرو، وهو لقب ملوك الفرس قبل الإسلام.

(٥) أفراسياب: أكبر الملوك الاسطوريين التورانيين من نسل تنورين افريدون، جلس على ملك توران بعد يشنگ.

(٦) هولاكو بن تولوي: الابن الرابع لجنكزخان، وأمه سيورقو قيتي بيكي ابنة جاكمبو أخي اونك خان ملك أقوام (كرايت)، قاد جيوش المغول جنوب البلاد الإسلامية وقضى على الإسماعيلية والخلافة العباسية، واستولى على الشام، وهزمت جيوشه في عين جالوت سنة ٦٥٨هـ أمام المصريين، وتوفي سنة ٦٦٣هـ .

انظر: «جامع التواريخ لرشيد الدين ٢/ ٢١٩».

والملكان الآخران يفخران بأن جنكزخان لمّا قسّم البلاد بين بنيه ملك جديهما ولم يملك تولي ولا هولاكو ولده ـ جدّ صاحب إيران ـ بل كان هولاكو بن تولي مندوباً من جهة أخيه منكو كبكاخان[١] وارث الملك والتخت.

حدّثني الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيىٰ بن الحكيم نور الدين عبد الرحمان الطياري /٤٠/ الكاتب البوسعيدي[٢]: أنّه كان أرسله لدفع الإسماعيلية[٣] والأكراد[٤]؛ فلمّا أخذ بغداد[٥] تمكّن وعصىٰ واستقلّ بنفسه.

والواضح الجلي ما سنذكره عن شيخنا الفرد نادرة الوجود أبي الثناء الأصفهاني[٦] ـ إن شاء الله ـ في ذلك.

---

(١) منكو كبكاخان: ابن تولوي بن جنكزخان، حكم ما بين ١٢٥١ـ ١٢٥٨م نجان باليق.

(٢) البوسعيدي: نسبة إلى أبي سعيد هاد بن أولجايتو وخدابندة بن أرغون بن آباقا بن هولاكو، من سلاطين الإيلخانيين. «انظر: الدرر الكامنة ٣/ ٤٦٩».

(٣) الإسماعيلية: وهم فرقة من المسلمين تعتقد بإمامة إسماعيل ابن الإمام جعفر الصادق، ولهم أسماء مختلفة في شتى المناطق منها: الباطنية، والتعليمية، والسبعية، والحشيشية، والملاحدة، والقرامطة. «انظر: موسوعة الفرق الإسلامية ١٠٢ـ ١٠٨».

(٤) الأكراد: شعب يسكن هضبة فسيحة في آسيا الوسطى، وبلادهم موزعة بين تركيا وإيران والعراق وغيرها. «المعجم الوسيط ٢/ ٨١٣».

(٥) بغداد: عاصمة العراق، مدينة السلام، تقع على نهر دجلة، كانت حاضرة الدولة العباسية، أسسها أبو جعفر المنصور. «مراصد الاطلاع ٢/ ٢٠٩».

(٦) أبو الثناء الأصفهاني: محمود بن عبد الرحمن (أبي القاسم) ابن أحمد بن محمد، شمس الدين الأصفهاني، أو الأصبهاني: مفسر، وصوفي، كان عالماً بالعقليات. ولد بأصبهان سنة ٦٧٤هـ/ ١٢٧٦م، وتعلم فيها. ورحل إلى دمشق فأكرمه أهلها، وأعجب به ابن تيمية. وانتقل إلى القاهرة فبنى له الأمير «قوصون» الخانقاه بالقرافة، ورتبه شيخاً فيها، فاستمر إلى أن مات بالطاعون في القاهرة سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م. من كتبه «التفسير ـ خ» في صوفية (دار الكتب الشعبية ١/ ٤٣) مخطوطة كاملة نفيسة (٨٤٣ ورقة) كبير، منه الجزء الرابع مخطوط، سماه «أنوار الحقائق الربانية» قال الصفدي: رأيته يكتب في تفسيره من خاطره من غير مراجعة، و«تشييد القواعد ـ خ» في شرح تجريد العقائد للنصير الطوسي، و«شرح فصول النسفي ـ خ» و«مطالع الأنظار في شرح طوالع الأنوار للبيضاوي ـ ط» و«ناظرة العين ـ خ» مصور في معهد المخطوطات، في المنطق، مع «شرحه ـ خ» ـ ناضرة العين ـ لأحمد بن عمر المالكي (٧٩٥)، و«البيان ـ خ» في شرح مختصر ابن الحاجب، أصول، و«بيان معاني البديع ـ خ» شرح البديع لابن الساعاتي في أصول الفقه، و«شرح مطالع الأنوار» للأرموي في المنطق، و«شرح كافية ابن الحاجب ـ خ» و«شرح منهاج البيضاوي».

ترجمته في: الدرر الكامنة ٤/ ٣٢٧ وبغية الوعاة ٣٨٨ وفهرست الكتبخانة ١/ ١٤٢، و٢/ ١١ و٥٤ و٢٣٩ و٢٧٢ والبدر الطالع ٢/ ٢٩٨ وشذرات الذهب ٦/ ١٦٥، وPrinceton 450 وطبقات الشافعية ٦/ ٢٤٧ والطبقات الوسطى ـ خ. وBrock.S.2:137 والفوائد البهية ١٩٨ والصادقية، الرابع من الزيتونة ٨ وفي مفتاح السعادة ٢/ ٤٩ وفاته سنة «٧٤٧» تصحيف تسع وأربعين. وكشف الظنون ١٩٢١ =

[جنكزخان]

وأمّا أصل جنكزخان جدّ هؤلاء الملوك في النسب، فنحن نذكر من منتهىٰ نسبهم إلىٰ أن نأتي إلىٰ جنكزخان منبعهم ومشرع الياسة[١] لهم، ثم نفرّع نسب كل ملك من هؤلاء الأربعة فنقول وبالله التوفيق:

قيل: إن جنكزخان ينتهي نسبه إلىٰ امرأة تسمّىٰ آلان قوا. كانت متزوجة بزوج أولدها ولدين اسم أحدهما: بكتوت، والآخر: بلكتوت. وأبناء هذين الولدين يسميان عند المغل[٢] الدرلكية.

ثم مات زوجها وبقيت مرملة بغير زوج، فحملت فأنكر عليها الحمل، وحملت إلىٰ من له الحكم بينهم لينظر في أمرها فسألها ممّن حملت؟ فقالت: ما حملتُ من أحدٍ إلاّ أني كنت قاعدة وفرجي مكشوف فنزل نور دخل في فرجي ثلاث مرات فحملت منه هذا الحمل، وأنا حامل بثلاثة ذكور؛ لأنَّ دخول ذلك النور كل مرَّة بولد ذكر فأمهلوني حتىٰ أضع، فإن وضعت ثلاثة ذكور، فاعلموا مصداق قولي وإلاّ فرأيكم فيَّ، فولدت ثلاثة أولاد ذكور في بطن واحد؛ بوقن فوغاغي، وبوسن سالجي، وبوذنجر. وهؤلاء الثلاثة المسمُّون بالنورانيين نسبة بالنور الذي ادَّعت أمهم أنه نزل في فرجها؛ ولهذا يقال عن جنكزخان إنَّه ابن الشمس.

وبوذنجر عليه عمود النسب إلىٰ جنكزخان، فنقول: إنَّ هذا بوذنجر بن الآن قوا أولد بغا، وبغا أولد ذو توم منن، وذو توم منن أولد قيدو، وقيدو أولد باي سنقر، وباي سنقر أولد تومنية خان، وتومنية خان أولد قيل خان، وقيل خان أولد تربان، وتربان أولد بيسوكي بهادر، وبيسوكي بهادر أولد جنكزخان جدّ هؤلاء الأربعة.

/٤١/ ونحن الآن نسرد نسبه منه إلىٰ الآن، فواصل أن نفرع أنساب هؤلاء الأربعة منه فنقول: جنكزخان بن بيسوكي بهادر بن تريان بن قبل خان بن تومنيه

= وأخبار التراث العربي، العدد ٦٤ ص ٣٦ و«نشرة مكتبية / ١» علوم العربية/ ٢.

(١) الياسا: وهي بالمغولية يساي، وتعني الأحكام والقانون، وهي مجموعة من القوانين التي وضعها جنكزخان ليسير عليها قومه.
«تاريخ جهانكشاي وعطا الله جويني، ترجمة د. محمد التونجي، حلب ١٩٨٥، ١/ ٦٢».

(٢) المغل: هم المنغول، شعب لم يكن على عهد جنكزخان، سوى مصطلح رسمي، وكان مجهولاً لدى بقية الشعوب، وكان حكام الصين يطلقون عليهم التتار.
والمغول: هم المغال، والمنغووا قبائل تركية سكنت قرب نهر اونون «تاريخ التمدن الإسلامي ٣/ ٥٠٨».

خان بن باي سنقر بن قيدو بن ذو تومِ منن بن بغا بن بوذنجر بن الآن قوا، إلىٰ هذه المرأة منتهىٰ نسبهم.

وهذه الحكاية في نسب جنكِز خان أكذوبة قبيحة، وأحدوثة غير صحيحة وإن صحت عن المرأة، فلعلَّها احتالت علىٰ سلامة نفسها من القتل، ولعلَّها سمعت قصّة مريم الزكيّة، فتعلَّقت بحبل الشبهة حتىٰ أضلَّت أقواماً بشبيه ذلك الحق وزورت كذباً علىٰ مثل ذلك الصدق: [من البسيط]

قد يبعد الشيء من شيءٍ يشابهُهُ   إنَّ السماءَ نظيرُ الماءِ في الزُّرَقِ

وها نحن نبدأ بذكر نبذة من ابتداء حال جنكزخان، وترقّيه إلىٰ أن ملك، ودانت له ملوك تلك الديار قبل الخوض في سياقة أنساب هؤلاء الملوك واتصالهم به، فنقول: حكىٰ الصاحب علاء الدين عطا ملك الجويني(١): أنَّه كان ملك عظيم في قبيلة عظيمة يدعىٰ أونك خان(٢). وكان مطاعاً في قبيلته، يُنقاد غليه عظماء رعيته فتردّد إليه جنكزخان في حال صباه وقربه وأدناه، وتوسم فيه النجابة والرئاسة، فزاد في ارتقائه علىٰ أقربائه، وأعلاه علىٰ من سواه حتىٰ نشأ بينهما الاتحاد، وانتسج الوداد فشبَّت نار الحسد في أقرباء ذلك السلطان، ونفخ في روعهم فحيل الشيطان أن وضعوا لجنكزخان المراصد والمصايد، ودفنوا له الأوابد والمكائد، وأعملوا الفكر في قطع حبل اتصاله عنه، ووضع موجبات قتله وانفصاله منه؛ فلمّا بالغوا في الوقيعة، وأسرفوا في الغيبة والشنيعة، تغيَّر أونك خان علىٰ جنكزخان تغيراً لم يظهره، وأسرَّ كدراً لم ينفره، وجمع فكراً في ذنب يأخذه به أو ينتحله أو جرم يتقوّله، واستشار فيه أصحابه، وجعل التوقع لذلك دأبه؛ فاتفق أنْ سخط أونك خان علىٰ صبيين /٤٢/ من مماليكه، فخافاه والتجئا إلىٰ حوزة جنكزخان واستجارا به؛ فأحسن إليهما وحنا عليهما ووعدهما بإزالة كدر السلطان وتلافي ما كان، فأنطقهما لسان الإحسان بهذه: [من الطويل]

إذا التزمَ المقدارُ حبلَ سعادةٍ   أتاكَ جميعُ الكائناتِ مُساعدا

---

(١) علاء الدين عطا ملك بن بهاء الدين الجويني: من كتاب التاريخ الإيرانيين المعروفين في العصر المغولي، كان أبوه وأخوه أصحاب ديوان جوين، عمل في بغداد أربعة أعوام، ولكنه قبض عليه بوشاية وزير باقاخان وتوفي سنة ٧٨١هـ أهم مؤلفاته: جهانگشاي.
«انظر: عطا ملك جويني وكتابه جهانگشاي: د. محمد السباعي رسالة دكتوراه ـ جامعة القاهرة. ط ـ إيران ص١٦٧».

(٢) أونك خان: رئيس قبائل الكرايت والساتيز، وكان ذا قوة ومكانة تفوق غيرها.

وإذا جرىٰ القضاء علىٰ صعب سهَّله وإذا أرادك الله لأمرٍ هياك له

وقالا له: إنَّ السلطان أونك خان يتوقع لك الوقيعة، ويتربص لك الإحن الشنيعة؛ فخذ حذرك، وأصلح أمرك، فرحل من ليلته بأتباعه وجماعته، ودهمه أعداؤه سحراً فلم يجدوا له أثراً ولا عرفوا له خبراً، ونفر العسكر ميّلوه فلم يلقوه، وقيل: بل لحقوه فعطف بجماعته إليهم وقاتلهم حتىٰ أتىٰ عليهم وغنم مالهم؛ فلما جمع أتباعه وأقاربه وأعزَّ مقامه وحمى جانبه، ودبَّ رجاله وآله، وبذل لهم قوته وماله، وخصَّ بإحسانه ذينك الصغيرين دون الناس، وأنزلهما منزلة العينين من الرأس وسمّىٰ كُلاً منهما ترّخاناً[1]، وكتب له أماناً وفرماناً[2] بفراغه من جميع المؤن والكلف وتفرغه لانتهاز الفرصة، واقتطاف الطرف، وأن ينهب في الفتوح قبل كل ناهب، وليسلب قبل كلّ سالب ويدخل علىٰ يده عامة البيوت فلا يمنع، ويحكم فلا يدفع، وأن لا يؤخذ بذنوب كثيرة؛ ولو تكررت ذنوبه واستمرت عيوبه، وأجرىٰ ذلك لجملتهما وآحادهما، وأن يستمرَّ ذلك إلىٰ سبعة أبطن من أولادهما.

ومن نسلهما الآن قوم لا عادية عليهم ولا لوم، محترمون عند الملوك، جارون علىٰ ذلك النهج المسلوك.

ثم شرع في الإحسان إلىٰ جميع من رحل عن أونك خان وباعده واتصلّ به وعاضده، وأفشىٰ فيهم الإنعام، وبثّ فيهم الإعزاز والإكرام حتىٰ تتالوا إليه أفواجاً، وتواردوا إليه فرادى وأزواجاً.

وأولادهم الآن أقرب الأخصين وأخصّ الأقربين، فقوي بذلك أمره وإمارته واشتدّت شوكته ومهابته، وراسل القوّاد فانقادت، واستلان القلوب /٤٣/ فلانت أو كادت فحينئذٍ جرد عسكراً كثيفاً وتبعاً ولفيفاً لمحاربة السلطان أونك خان وأمدّه بآخر يتلوه فنازلته العساكر الجنكزخانية، فقتل في أقرب أمد، وملك جنكز خان ما كان له من عدّة وعدد.

ثم بعث جنكز خان إلىٰ القبائل المتباعدة، والبطون المتباينة بما عرفهم به من حاله وعدله وبأسه وفضله وعلو شأنهم إن انضموا إليه، وتأييد سلطانهم إن عكفوا عليه، فتوالوا إليه كالسيل ورمل الفلا ورِجْل الجراد.

(١) ترخان: أو طرخان، طرخون، لقب يحمله أمراء وملوك تركستان. «جامع التواريخ ٢/ ١٧ هـ».
(٢) فرمان: كلمة فارسية تعني أمر وحكم سلطاني، وتجمع: فرامين وفرمانات. «معجم الألفاظ العامية، لانيس فريحة ١٢٩».

وكان من أعظم القبائل المجيبة لدعوته الداخلة في إيالته القانعة برياسته قبيلتان بالغتان في العدد، نهايتان في الاستعداد والعدد؛ إحداهما تدعىٰ أويرات(١)، والأخرىٰ قنقورات(٢).

وأما القبيلة التي هي خدمه، ومنها عظمه تسمّىٰ قيات؛ وهي أكثر القبائل شهرة، وأتمّها كثرة.

وكان اسمه القديم «تموجين»؛ فلمَّا توطد أمره وعلا قدره سمّي جنكزخان(٣).

نبذة من عقيدته وياسته وقاعدته وعدّته:

قال الصاحب علاء الدين عطا ملك الجويني: الظاهر من عموم مذاهبهم الإدانة بوحدانية الله تعالىٰ، وأنَّه خلق السماوات والأرض، وأنَّه يحيي ويميت، ويغني ويفقر، ويعطي ويمنع، وأنَّه علىٰ كل شيء قدير.

قال: وفي جهانكشاي(٤): أنَّ من أولاده من كان بملّة عيسىٰ، ومن دان بملّة موسىٰ، ومنهم من اطرح الجميع، وكل من اعتقد من بنيه مذهباً لم يكن له تعصب علىٰ غيره، ومنهم من تقرَّب بالأصنام.

وكان جنكزخان إذا تهدَّد أحداً من الملوك أو كاتبه بالتحذير من صولته، قال له: إن أطعت كان لك كذا وكذا من الإعزاز والتقريب، وإن عصيت فالله أعلم بما يكون حالك معنا.

قال: ويلمح من هذا القول نوع من التوكل والتفويض.

وأمّا الياسة وأحوالها كثيرة؛ فمنها ما يوافق الشريعة المحمدية، قال: وليُعلم أنَّ هذا الرجل لم يقف علىٰ سيرة ملوك، ولا طالع كتاباً؛ وجميع ما نسب إليه من ذلك صادر عن قوة ذهنه /٤٤/ وحسّه، واستدراك الأصلح من قبل نفسه؛ فإنَّه استخرج لكلّ منهم سَهْماً، وفقَدَ قاعدة مقررة، ولكلّ ذنب عقوبة مقدرة، وعين حدوداً لا إمهال له عندهم ولا مغيّر. وأوعز أن يتعلم ذلك صغار أهله ويسرى امتثاله عن عقب

---

(١) اويرات: إحدى القبائل المغولية. «جهانگشاي ١/ ٧١».

(٢) قنقورات: أيضاً احدى القبائل المغولية «جهانگشاي ١/ ٧١».

(٣) في رحلة ابن بطوطة ٢٤٤: «إنه كان يعمل حداداً بأرض الخطا، وكان له كرم نفس وقوة وبسطة في الجسم، كان يجمع الناس ويطعمهم حتى صار له جماعة، فقدموه على أنفسهم، وغلب على بلده وقوي واستفحل أمره، فغلب على ملك الخطا وملك الصين والختن وكاشخر والمالق».

(٤) جهانكشاي: من تواريخ العصر المغولي، تأليف علاء الدين عطا ملك الجويني، أُلف سنة ٦٥٨هـ، ويقع في ثلاث مجلدات عن أحوال وقائع المغول حتى سنة ٦٥٥هـ.

الرجل منهم وكنسله؛ بعد أن أثبتها في كتاب سمّاه «الياسا الكبيرة»[١]. وأمر أن يوضع في خزانته ويتوارثها أقارب عصبته وذريته، ونسخ ما كان لهم من قديم عوائد مذمومة بتنسكات محمودة مفهومة؛ فمن ذلك:

أنَّ من زنىٰ سواء إن كان محصناً أو غير محصن قتل.

ومن لاط قتل.

ومن تعمَّد الكذب قتل.

ومن سحر قتل.

ومن تجسس علىٰ قوم قتل.

ومن دخل بين اثنين يختصمان فأعان أحدهما قتل.

ومن بال في الماء قتل.

ومن أعطي بضاعة وخسر ثم أعطي ثانية وخسر إلىٰ الثالثة قتل.

ومن أطعم أسير قوم أو كساه أو سقاه بغير إذنهم قتل.

ومن وجد هارباً أو أسيراً أو عبداً ولا يردّه قتل.

وكانوا يعتمدون في ذبح الحيوان أن تكتف قوائمه ويشق جوفه ويدخل أحدهم يده إلىٰ قلبه ويمرسه فركاً حتىٰ يموت، أو يخرج قلبه.

ومن ذبح كذبيحة المسلمين ذُبح.

ومن وقع جمله أو فرسه وثقله في كرٍّ أو فرٍّ ومرَّ عليه من يتلوه بعده ولم ينزل لمساعدته قتل.

وقيل: كانت لهم ياسة قديمة: «إنَّ من ارتمس في الماء قتل».

وكان جنكزخان يعظم رؤساء كلّ أمةٍ وملّة، ويتخذ تعظيمهم وسيلة إلىٰ الله تعالىٰ.

قال: والمشهور من حالهم إسقاط المؤن والكلف عن العلويين[٢] والفقراء[٣] والقراء والفقهاء والأطباء وأرباب العلوم علىٰ اختلافهم والزهاد حتىٰ عن المؤذنين، ومغسلّي الموتىٰ. ومن آدابهم المستعملة وقوانينهم أشياء كثيرة منها: أن لا يأكل أحد

---

(١) كتاب القواعد الكبير «جهانگشاي ١/ ٦٢»: وهو القانون العرفي للمغول.

(٢) العلويون: وهم ذرية الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٣) الفقراء: المتصوفة.

من يد أحد طعاماً حتىٰ يأكل المطعم منه أولاً؛ ولو كان المُطعِم أميراً والمُطْعم أسيراً ولا يختص أحد بالأكل وحده دون أن يطعم جميع من وقع نظره عليه ذلك الطعام، ولا يمتاز أمير بالشبع من الزاد دون أصحابه، بل يقسمون الزاد بالسّوية، ولا يرمي أحد بالمأكول رمياً وقد قابل /٤٥/ مناولة باليد، ولا يخطو أحد موقد نار ولا طبق زاد، ومن اجتاز بقوم يأكلون فله أن يجلس إليهم ويأكل معهم من غير استئذان، وإن لا يدخل الإنسان يده في الماء بل يأخذ ملء فيه ويغسل يديه ووجهه، ولا يبول أحد علىٰ الرماد، ولا يطأ عتبة الخركاه[1].

قال: وسمعت أنَّهم كانوا لا يرون غسل الثياب البتة ولا يميزون بين ما يميزه المسلمون في شيء من طاهرٍ ونجسٍ البتة.

قال: ومن قوانينهم التي ألفت منهم: أن لا يتعصبوا لمذهب من المذاهب علىٰ مذهب، وأن لا يفخموا الألفاظ والألقاب في كلام، بل يتلفظ باسم السلطان كما يسمّىٰ غيره، فيقال قد تقدّم قاآن أو خان بكذا وكذا، وأن لا يتعرَّضوا لمال ميت أصلاً ولو ترك ملء الأرض ولا يدخلونه خزانة السلطان.

قال: وأما ترتيب العساكر والقانون المقرر في ذلك فاعلم أنه لا ينقل في تاريخ قديم ولا حديث أنَّ عسكراً اجتمع لسلطان كثرة كما اجتمع لهم كثرة عَدد وعُددٍ وقوة وصبراً وطاعة لسلطانهم إلاّ لأجل مشاهرةٍ ولا توقع مال وجاه، بل لمجرد الطاعة حسب.

ثم إذا رجعوا من القتال وكرب الحرب إلىٰ السكون والسلم أخذ السلطان منهم القلان[2] والقبجور[3] والأولاق[4] والبدرقة[5] من غير ضجر منهم ولا تأسف منهم؛ بل يؤدّونه إليه مختارين، ومتىٰ تجهزُّوا لقتال عرضوا آلات الحرب وغيرها علىٰ أمرائهم حتىٰ تعتبر أمراؤهم الخيط والإبرة، ويؤاخذونهم علىٰ تجويد آلةٍ أو تقصير في سلاح.

---

(١) الخركاه: بيت يسمى عندهم الخرقة، وهي عصى من الخشب يجمع شبه قبة، وتجعل عليها اللبود، ويفتح أعلاه لدخول الضوء والريح جعل البادهج ويسدّ متى احتيج إلى سدّه «رحلة ابن بطوطة ٢٠٠». وورد أنه: خيمة كبيرة، سرادق سلطاني.

(٢) في هامش الأصل، «القلان: دراهم ترصد برسم الكلق مقررة على البلاد».
وهي ضريبة كانت موجودة قبل القبجور، تجبىٰ من المسلمين وغير المسلمين. «تركستان ٦٥٦».

(٣) القبجور: ضريبة تجبى بنسبة ١٪ من المواشي، وتوزع على الفقراء والمعوزين.

(٤) في هامش الأصل، «الأولاق: خيل البريد».

(٥) في هامش الأصل: «البدرقة: في معنى البائزة، البائز: لوح البريد»
والبائز: لوح من الذهب أو الفضة أو الخشب أحياناً. «تركستان ٦٨٨ـ ٧٣٨».

قال: وأغرب من ذلك أنَّ نساءهم تنهض في حال بُعدهم وسفرهم بجميع ما يتوجه علىٰ رجالهم الغياب من الكلف والسخر السلطانية.

ومن ذلك: أنَّ كل بنت حسناء تجمع من كل مكان ويحملن جميعاً في رأس كل سنة إلىٰ السلطان فيختار منهن ما يصطفيه له ولأولاده، ويردّ الباقي.

ومن أحسن الترتيبات وضعهم أمراء الألوف[١] والمئات[٢] والعشرات[٣] فهو أخبط نظام لما يحاولونه، وأسرع إفهام لما يطلبونه.

ومن جملة بأسهم: أنه إذا كان أمير في غاية القوة والفطنة وبينه وبين السلطان كما بين المشرق /٤٦/ والمغرب حتىٰ أذنب ذنباً يوجب عقوبة بعث إليه، ولو من أخسّ أصحابه من يؤذيه بموجب ما يقتضيه ذنبه، ولو كان في ذنبه ما يوجب قتله ألقىٰ نفسه بين يديه ذليلاً، وأخذه الرسول بموجب جرمه حقيراً كان أو جليلاً.

ومنها: أنَّ كل أمير لا يتردد إلىٰ سواه، ولا يتغير عن موضعه؛ فإن فعل ذلك عوقب أو قتل، لا يتردد إلىٰ أحدهم أولاده.

ومنها: وضعهم البريد بكلّ مكان طلباً لحفظ الأموال وسرعة إيصال الأخبار ومستجدّات الأحوال.

وكان لجنكزخان عادة مستمرة؛ وإن كانت إلىٰ الآن سارية في الأولاد وهي وفور الرغبة في الصيد والأمر به والركوب إليه في كل وقت يتفرغ فيه من القتال والمنازلة، وربّما اشتملت حركته علىٰ مسيرة ثلاثة أشهر، ويحافظ العسكر علىٰ ما تحويه تلك الحلقة، ويضايقون ما بين الخراكي[٤] والبيوت بالحبال. ولم يكن غرض السلطان من ذلك مجرد الصيد خاصة؛ وإنما مراده تمرين عساكره، واستمرار وامره، وإدمانهم علىٰ استعمال السلاح وسفك الدماء، وتغلُّب القوة الغضبية والمقاهرة علىٰ الأرواح.

ومن عاداتهم: أنَّه متى خرج من قبل واحدٍ منهم شيء من الصيود أدّبَ بحسبِ ما يتقدّم في أمره؛ بل ربّما قتلوه.

ويسوقون تلك الصيود كسوق الغنم، وتتواتر الرسل إلىٰ السلطان بصورة حالها

---

(١) أمير الألف: أي تحت إمرته ألف جندي، وهو عادة لا يقل عن (خان).

(٢) أمير المائة: أي تحت إمرته مائة جندي، وهو عادة لا يقل عن (بيك).

(٣) أمير العشرة: أي تحت إمرته عشرة جنود، ويسمى (أونباشي) وأون بمعنى عشرة، وباشي بمعنى رئيس.

(٤) الخراكي: جمع خركاه، وهي الخيمة الكبيرة.

وكثرتها وقلّتها فإذا ضاقت الحلقة وتراكمت الصيود مشحونة بغرائب الوحوش والحيوانات السهلية والجبلية دخل هو وأولاده وخواصه وتتوقوا في القتل والقنص والتفرّج؛ وربّما استشرف القان من مكانٍ عال لينظر فروسية أولاده، وقوّة مراسهم؛ وإذا تخلّف من تلك الصيود بعد ذلك شيء اجتمع ولدانهم وصبيانهم وشفعوا إلىٰ السلطان في إطلاق ذلك المتخلّف.

وحكي في بعض صيودهم واجتماع ما اجتمع في بعض تلك الحلق لهم من الوحش وضاقت عليهم المذاهب، وعاينت التلف فاستقبلت السلطان بوجهها وجاء إليه بالصياح العالي علىٰ هيأة المستعطف /٤٧/ المستجير فتقدَّم بفكّ الحلقة وإطلاق تلك الوحوش.

قال الصاحب علاء الدين الجويني: كان له عدّة أولاد ذكور[١] وإناث من الخواتين[٢] والسراري[٣]. وكان أعظم نسائه أو يولجين بيكي. وفي رسم المغول تعظيم الولد بنسبة والدته فكان له من هذه المذكورة أربعة أولاد معدين للأمور الخطرة وهم كتخت ملكه بمنزلة أربعة قوائم سدته.

وكان أكبرهم توشى والد قردوا[٤]، وباته[٥]، وبركة[٦]، وتركجار[٧]؛ فوثب توشى علىٰ الصيد والقنص؛ لأنه امرؤ محبوب إليهم موصوف عندهم.

ورتب جغتاي ـ الذي هو أصغر منه ـ لتنفيذ الياسات والآرغوا[٨] والمقابلات وأمثال ذلك.

ورتب أوكتاي[٩] لما يتعلق بالعقل والرأي والتدبير والولاية والعزل، واختيار الرجال، واختيار الأعمال، وعرض الجيوش وتجهيزها.

وحكي: أنَّه قال لأولاده في جملة وصاياه إليهم وحثه لهم علىٰ المُوافقة وإجراء

---

(١) وهم: جوجي وجغتاي واوگداي وتولوي «تركستان ٧١٥».
(٢) الخواتين: جمع خاتون، وهي السيدة عريقة النسب أو زوجة الملك.
(٣) السراري: جمع سرية، وهي الجارية.
(٤) لعله: جوجي بن جنكزخان.
(٥) باته: أي باتو بن جوجي.
(٦) بركة: هو بركا وبركاي وبركاء «جامع التواريخ ١/ ١٤، ٢/ ٢٣٢».
(٧) تركجار: لعله تولوي، الابن الرابع لجنكزخان لوروده حسب ترتيب أولاده.
(٨) الأرغوا: أو يرغو أو يارغو: كلمة مغولية بمعنى العدل والقانون، ويارغوجي بمعنى القاضي «جامع التواريخ ١/ ٢٢٧، تركستان ٥٥٩ـ ٦٨٣».
(٩) أوكتاي: هو أو گتاي قآن بن جنگز خان «جامع التواريخ ٢/ ٢١».

الأمور علىٰ انقياد الصغير للكبير، وضرب لهم أمثالاً منها: أنه دفع إليهم عدّة أسهم مفردةٍ، وأمر بكسر كل واحد منها فكسر في أسرع وقت، ثم جمع من تلك الأسهم عدّة كبيرة وأمر كل واحدٍ منهم بكسرها مجتمعة فعجزوا، قال: كذا حالكم في الوهن متفرقين.

ولما عرضت لهم الممالك وذلّت لهم المسالك عيَّن لكل منهم أقليماً بمفرده ومنزلاً يختصّ بحشده وعدده؛ فعيَّن لأخيه أوتكين نويان[1] حدود بلاد الخطا[2]، وعين لولده الكبير توشىٰ من حدود قيالق غلىٰ أقصىٰ شفشين وبلغار[3]؛ وعيّن لجغتاي من حدود الإيغور[4] إلىٰ سمرقند وبخارىٰ. وجعل لنفسه مقاماً في قياس مجاورا ومالق، وجعل ولده أوكتاي ولي عهده.

وكان موضعه في عهد حدود اعل وقراباق؛ فلما جلس علىٰ تخت السلطنة انتقل إلىٰ الموضع الأصلي بين الخطا وبلاد الإيغور، وأعطىٰ ذلك الموضع لولده كبوك.

وكان ولده تولي متصلاً به، وبالجملة كان موضعه نقطة دائرة ملكه وبنوه حوله كمحيط الدائرة. وكان أولاده وأحفادُه أزيد من عشرة آلاف؛ هذا ما ذكره الصاحب علاء الدين.

وقد سألت شيخنا فريد الدهرَ شمس الدين /٤٨/ الأصفهاني عن بني جنكزخان، فقال: إنَّ جنكزخان أولد أربعة أولاد هم: جوخي، وأجدى، وطولي، وأوكتاي؛ فقتل جوخي في حياة أبيه. وكان أكبر أولاده وأعزَّهم، وخلّف أولاداً.

قال ابن الحكيم: هم؛ باتواقا، وأورده، وبركة، ويووك، وجمني.

قال شيخنا شمس الدين: المشهور باتو وبركة ابنا جوخي؛ فلمّا قتل أبوهم كان جنكزخان أبوه قد عيّن له دست القبجاق وما معه وأضاف إليه آراك وتبريز وهمدان

---

(١) يقصد به تولوي، حيث كان يحمل لقب نوين الأكبر، وكان أصغر إخوته، واللقب بالمغولية يكه نوين «جامع التواريخ ق٨/ ١٢٧ط برزين».

(٢) الخطا: قبائل سكنت شمال شرقي إيران في عهد السلاجقة وأقاموا دولة سنة ٥١٨هـ، كانت بين ممالك المغول وخوارزم، قضي عليهم سنة ٦٠٩هـ «جامع التواريخ ١/ ١١٥».

(٣) البلغار: من بلغار القولجا، وهي مدينة الصقالبة، شديدة البرد لا يكاد البرد يقلع عن أرضهم صيفاً ولا شتاءً. «انظر: مراصد الإطلاع ١/ ٢١٩».

(٤) الإيغور: قوم من الأتراك يدينون بالمسيحية واليهودية والمانوية، وهم أكثر أقوام الأتراك والمغول تمدناً، كانوا يقطنون شمال شرقي تركستان، وشمال نهر قاريم، وكان لهم خط خاص بهم و هو الخط الإيغوري. «جامع التواريخ ١/ ١٩٥هـ».

ومُراغة، وأوصىٰ جنكزخان بأن يكون تخته لولده الصغير أوكتاي، وأن تكون مملكة ما وراء النهر وما معه لولده الآخر جداي[١]، ولم يجعل لطولي شيئاً؛ فاستقلَّ أوكداي بتخت أبيه جنكزخان، واستقلَّ بدست القبجاق وما معه ولم يتمكن جداي ممّا له من مملكة ما وراء النهر.

ثم مات أوكتاي وأرث التخت وملك بعده ولده كيوك. وكان رجلاً شرّيراً جباراً متسلّطاً، قوي النفس، فقوي علىٰ بني أبيه، وحكم عليهم حكماً قاهراً[٢]، وهمَّ بمعانده باتو ونزع يده. وبعث أميراً اسمه الجكداي إلىٰ أران وبقية المضافات معها إلىٰ باتو وأمره بإمساك نواب باتو بها وحملهم إليه، وسمع نواب باتو بذلك فكتبوا إلىٰ باتوا بالاستئذان علىٰ ما يكون اعتمادهم عليهم، فوصل الجكداي المجهز من جهة كيوك.

وفي تلك الساعة بعينها عاد جواب باتوا علىٰ نوابه بمسك الجكداي وتقييده وحمله إليه، فقامت شيعة أولئك النواب المقيدين، ففكُّوا قيودهم، وأمسكوا الجكداي وقيّدوه وحملوه إلىٰ حضرة باتوا فسلقه بالماء؛ فلما بلغ هذا كيوك مُرسله عزَّ عليه وعظم لديه، وجمع ستمائة ألف فارس، وسار كل واحدٍ منهما لملتقىٰ الآخر وقتاله؛ فلمَّا تقاربا حتىٰ كان بينهما نحو عشرة أيام مات كيوك فاضطرب من كان معه.

ثم اتفق رأي الخواتين والأمراء علىٰ مكاتبة باتو فكتبوا إليه بإعلامه بموت كيوك، وإنه هو أحقّ بتخته فيفعل ما يراه.

فقال باتو: لا حاجة لي به؛ وإنما أبعث إليه بعض أولاد تولي. وعيَّن له منكوقان بن تولي وجهَّز إليه هو وأخوه قبيلة قان / ٤٩/ وهولاكو، وجهَّز معهم باتو أخاه بركة في مائة ألف فارس من بهادرية[٣] العسكر ليجلسه علىٰ التخت، ثم يعود فأخذه معه وتوجّه به، ثم أجلسه وعاد؛ فلمّا مرَّ ببخارىٰ اجتمع بالشيخ سيف الدين الباخرزي[٤] من أصحاب شيخ الطريقة نجم الدين كبرى[٥]، وحسن موقع كلام

---

(١) جداي: وهو أوكداي.

(٢) كان كيرك سفاحاً، عقد حلفاً بين المغول والعالم المسيحي ضد المسلمين. «تركستان ٦٩٤».

(٣) البهادرية: جمع بهادر، وهي لفظة فارسية تركية بمعنى شجاع، بطل، وكان هؤلاء يشكلون فرقة للحرب الخاص للقاآن «تركستان ٥٤٩».

(٤) الشيخ سيف الدين الباخرزي: من شعراء القرن السادس الهجري، ومن مشايخ المتصوّفة، كان مريداً للشيخ نجم الدين كبرى، عاصر العطار، أشعاره بالفارسية، مات سنة ٦٢٩هـ «فرهنك أدبيات فارسي ٨٣».

(٥) نجم الدين كبرى: أبو الجناب، أحمد بن عمر، من رجال التصوف، مؤسس السلسلة الكبروية، قتل =

الباخرزي عنده وأسلم علىٰ يده، وتأكدت الصحبة بينه وبين الباخرزي فأشار عليه الباخرزي بمكاتبة المستعصم الخليفة[1] ومتابعته ومهاداته، فكاتب الخليفة وبعث إليه هدية وتردّدت بينهما الرسل والمكاتبات والتحف والمهاداة.

ثم إنَّ منكوقان لمّا استقلَّ بالتخت ملك أولاد جغطاي مملكة ما وراء النهر تقيّداً لما كان جنكزخان أوصىٰ به لأبيهم جغطاي ومات دونه.

وعلت كلمة منكوقان وجاءت إليه رسل أهل قزوين وبلاد الجبال يشكون من سوء مجاورة الملاحدة لهم وضررهم بهم، فجهزهم أخا هولاكو في جيوش جمةٍ لقتال الملاحدة وأخذ قلاعهم وقطع دابر دولتهم؛ فحسَّن هولاكو لأخيه منكوقان أخذ ممالك الخليفة، وخرج علىٰ هذا؛ فبلغ هذا بركة بن جوخي فصعب عليه لما تأكد بينه وبين الخليفة من الصحبة، وقال لأخيه باتو: إننا نحن أقمنا منكوقان وما جزاءنا منه أنه يكافئنا بالسوء في أصحابنا، وينقض عهدنا، ويخفر ذمتنا ويتعرّض إلىٰ ممالك الخليفة وهو صاحبي وبيني وبينه مكاتبات وعقود مودَّة، وفي هذا ما فيه من القبح.

وقبح علىٰ أخيه باتو فعل هولاكو، فبعث باتو إلىٰ هولاكو بأنّه لا يتعدّى مكانه فجاءته رسالة باتو؛ وهو وراء نهو جيحون ما عَبَرَه، فأقام في موضعه بمن معه سنتين كاملتين حتىٰ مات باتو، وتسلّطن أخوه بركة بعده فحينئذٍ قويت أطماع هولاكو وبعث إلىٰ أخيه منكوقان يستأذنه في إمضاء ما كان أمره به من قصد ممالك الخليفة وانتزاعها منه وحسَّن له ذلك فأجابه إليه.

ودخل هولاكو إلىٰ البلاد وأوقع بالملاحدة[2] واتَّهم سبعمائة نفرٍ من أكابر همدان وتلك البلاد المضافة إلىٰ باتو، ثم إلىٰ بركة / ٥٠/ بالميل إلىٰ بركة، والمباطنة علىٰ هولاكو ومنكوقان، وقتلهم عن آخرهم وامتدَّ في البلاد وقصد دست القبجاق وعدا إليه، وأقام ثلاثة أيام لا يجد مقاتلاً؛ فلمّا كان في اليوم الرابع دهمتهم الخيل

= سنة ٦١٠هـ، له: فواتح الجمال، ورسالة الخائف الهائم، وله أشعار كثيرة، قتل في هجوم المغول. «فرهنك أدبيات ٥٠٢».

(١) المستعصم: آخر خلفاء العباسيين، تولى الخلافة العباسية سنة ٦٤٠هـ وقتل سنة ٦٥٦هـ على يد المغول، كان ضعيف الرأي لم يكن له من الحكم شيئاً، سيطر عليه نساؤه ووزراءه. «البداية والنهاية ١٣/ ٢٠٠».

(٢) يقصد بهم الإسماعيلية، وهم عدة فرق ويخص منهم الصباحية أتباع حسن الصباح المسمى بشيخ الجبل، وآخر حكامهم خورشاه المعتزل سنة ٦٥٥هـ، سكنوا قلاع أصفهان وقهستان، وأشهر قلاعهم آل موت. «انظر: فتوحات هولاكو خان ٧ـ ١٠» وقد أوردنا تفاصيلاً عنهم في هامش سابق.

وداسهم بركة بجنوده وعساكره، ودارت الدائرة علىٰ هولاكو حتىٰ همَّ بالهزيمة فترك أمير كبير كان معه اسمه سنتاي وهو المنسوب إليه عقبة سنتاي بالعراق، وأمسك برأس فرس هولاكو، وقال له: أين تروح ؟

ثم استمرَّ القتل في أصحابه، فتأخر حتىٰ صار نهر الكرّ بينه وبين بركة، وجاء بركة حتىٰ وثب علىٰ نهر الكرّ، ولم يجد له سبيلاً إلىٰ العبور، ورجع هولاكو وعاث في البلاد. وعامَ في تيار الفساد، وفعل فعلته، وقويت العداوة بينه وبين بركة قان، وخف حاذة من الجيش لمقاومة أعدائه.

ثم لمّا جرىٰ علىٰ بغداد ما أجرىٰ العيون دماً، وأسَال النفوس أسفاً استأثر هولاكو بجلال الدين ابن الدوادار[١] الخليفة المستعصمي، واتخذه هولاكو موضع رأيه، ومكان سرِّه؛ فلمّا كسر هولاكو وتضعضعت رعان جيشه ـ كما ذكرنا ـ شكا إلىٰ جلال الدين بن الدوادار ما أصابه من الكسرة وفناء جنوده، فقال له جلال الدين: عندي عسكر جيد خير من هؤلاء، قال: من هم ؟ قال: عسكر الخليفة، فإن ابن العلقمي[٢] قطعهم وإلا فهم أحياء موجودون وأنا أجيبهم إليك فأعجب هولاكو

(١) جلال الدين بن الدوادار: أحد أركان الحكم في عهد الخليفة المستعصم آخر الخلفاء العباسيين، وكان ينوي خلع الخليفة وإجلاس آخر. «تاريخ الخلفاء للسيوطي ٤٦٤».

(٢) ابن العلقمي: محمد بن أحمد (أو محمد بن محمد بن أحمد) بن علي، أبو طالب، مؤيد الدين الأسدي البغدادي المعروف بابن العلقمي: وزير المستعصم العباسي. ولد سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م. اشتغل في صباه بالأدب. وارتقى إلى رتبة الوزارة سنة ٦٤٢هـ، فوليها أربعة عشر عاماً. ووثق به «المستعصم» فألقى إليه زمام أموره. وكان حازماً خبيراً بسياسة الملك، كاتباً فصيح الإنشاء. اشتملت خزانته على عشرة آلاف مجلد، وصنف له الصغاني «العباب» وابن أبي الحديد «شرح نهج البلاغة» ونفى عنه بعض ثقات المؤرخين خبر المخامرة على المستعصم حين أغار هولاكو على بغداد سنة ٦٥٦هـ، وولي له الوزارة مدة قصيرة ومات سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م، ودفن في مشهد الإمام موسى بن جعفر الكاظم ببغداد، وخلفه في الوزارة ابنه عز الدين «محمد بن محمد بن أحمد» جاء عنه في العسجد المسبوك: «.. كان ـ ابن العلقمي ـ عالماً، أديباً، حسن المحاضرة، دمث الأخلاق، كريم الطباع، خيّر النفس، كارهاً للظلم، خبيراً بتدبير الملك، لم يباشر قلع بيتٍ ولا استئصال مالٍ..» ولمحمد الشيخ حسين الساعدي كتاب بعنوان «مؤيد الدين ابن العلقمي» ط. وغيره.
ترجمته في: الحوادث الجامعة، المنسوب لابن الفوطي، ٢٠٨ و٣٣٦ وما بينهما. والفخري، لابن الطقطقي. والبداية والنهاية ١٣/ ٢١٢ وفير T.H.Weir في دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٢٤١ وشذرات الذهب ٥/ ٢٧٢ والعسجد المسبوك ٦٤٠ ،والوافي بالوفيات ١/ ١٨٥ وتاريخ الخميس ٢/ ٣٧٧ ومرآة الجنان ٤/ ١٤٧ وابن الوردي ٢/ ٢٠١ والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٠ وفوات الوفيات ٢/ ١٥٢ وابن خلدون ٥٣٦ و٥٣٧ والسلوك للمقريزي ١/ ٣٢٠ و٤٠٠ وأخبار الدول للقرماني ١٨٠ـ ١٨٢، الأعلام ٥/ ٣٢١.

كلامه، ووقع منه موقعاً حسناً، وكتب له يراليغ[١] مضمونها: «إننا قد جهزنا جلال الدين بن الدوادار في شُغل مهمّ لنا ورسمنا له بما يفعل، ومرسومنا أن يمتثل جميع الخوانين والأمراء والنواب والقراولات وكافة الناس أمر جلال الدين المذكور، وأنَّه مهما فعل يقتل من يريد ويخلّي من يريد!، وأن لا يعارض في أمرٍ من الأمور، ولا يعترض عليه بسببٍ من الأسباب، ومن هذا ومثله فتوجّه جلال الدين وحطّ يده في كلّ من بقي يجده من أمراء المغل وأكابرهم والمقربين عند هولاكو، وفعل فيهم ما أراد وفتك فيهم أنواع الفتك حتىٰ وصل إلىٰ بغداد واستعدَّ فيها /٥١/ لما يريد أن يعمله، وأخذ منها ما أراد ومن أراد ؟! ودخل البرية هارباً من هولاكو علىٰ عزم الوصول إلىٰ مملكة مصر فأدركه أجله قبل الوصول إليها.

وبلغ هولاكو ما فعله جلال الدين في المغل من الفتك والقتل والتنكيل، ثم ما أخذه من بعده وخرج به هارباً منه، فانفطرت كبده ومات غمّاً[٢].

قال شيخنا شمس الدين الأصفهاني: ومات هولاكو ولم يملك ملكاً مستقلاً؛ وإنَّما كان نائباً عن أخيه منكوقان ولا ضربت باسمه صكة درهم ولا دينار؛ وإنَّما كانت تضرب باسم أخيه منكوقان.

ثم كان هكذا أبغا[٣]، ومن بعده إلىٰ أن استقلَّ أرغون بن أبغا[٤] بالملك وأضاف اسمه في السكة إلىٰ اسم صاحب التخت أمير لا يزال مقيم في مملكة إيران مع هولاكو، وبنيه له عندهم حرمة كبيرة، ومكانة محفوظة حتىٰ ملك محمود غازان بن أبغا[٥] فكتب اسمه بمفرده علىٰ السكة وأسقط اسم القان ـ صاحب التخت ـ وأهان أمر أميره حتىٰ لم يبق له وضع ولا حرمة، وامتهن ذلك الجانب، واستقلَّ بالملك والسلطنة في بلاده.

---

(١) يراليغ: مفردها يرليغ، وهي كلمة مغولية بمعنى حكم وأمر، تعادل كلمة فرمان الفارسية. «صبح الأعشىٰ ٤/ ٤٢٣».

(٢) مات هولاكو سنة ٦٦٣هـ، ودفن في جبل شاهو قبال دهخوارقان.

(٣) أبغا بن هولاكو: هو آباقا، حكم بعد والده ثمانية عشر عاماً، ومات سنة ٦٨٠هـ. «جامع التواريخ مج٢/ ح١/ ٣ـ ٨٦».

(٤) أرغون بن أبغا: هو أرغون بن آباقا، حكم بعد أبيه (٦٨٣ـ ٦٩٠هـ). «جامع التواريخ مج٢/ ح١/ ١٢٣ـ ١٦٧».

(٥) محمود غازان بن أبغا: هو محمود قازان بن أباقا، صاحب العراقين وخراسان وفارس وآذربيجان والروم، أسلم وحسن إسلامه سنة ٦٩٤، وفشا الإسلام في التتار، طرق الشام وغلب عليه، مات قرب همدان سنة ٧٠٣هـ. «فوات الوفيات ٤/ ٩٧، جامع التواريخ ٢/ ١٤».

قال: أنا ما أخذت البلاد إلاّ بالسيف وقام الأمر علىٰ هذا مدَّة محمود غازان ومن بعده.

قال الشيخ: ولهذا ينتقص ملوك بني جنكزخان بيت هولاكو، يقولون: إنهم ما نقلوا الملك عن جنكزخان ولا عن ورّاث جنكزخان؛ وإنما أخذوه باليد والعدوان، ومطاولة الأيام.

وسأذكر في ترجمة مملكة إيران شبهةً أخرىٰ في دعوىٰ ملوك دست القبجاق إنَّ مراغة وتوريز لهم علىٰ ما كان يبلغنا من أخبارهم في كل وقت، ثم ما حدَّث به الفاضل نظام الدين أبي الفضائل يحيىٰ بن الحكيم.

وسألت ابن الحكيم والشريف محمد بن حيدرة الشيرازي: عمّن يعلمانه بقي من أولاد هولاكو؟ فقال كل منهما: إنَّه لم يبق أحد محقق النسب إلاّ ما قيل عن محمد المنسوب إلىٰ عنبرجي علىٰ كثرة اختلاف فيه.

ثم جاءت الأخبار وصحت بعدم هذا محمد.

وقال لي / ٥٢/ نظام الدين بن الحكيم: إنَّ أهل هذا البيت تفانوا بعضهم علىٰ يد بعض لخوف القائم منهم علىٰ ملكه حتىٰ إنَّ كثيراً من أبناء ملوكهم كانوا يتخفون من الملك القائم، حتىٰ إنَّ بعضهم كان يخلد إلىٰ الحرف والمهانات لتستسقط همّته فيترك ويجعل هذا سبيله للخلاص وطلباً للسلامة حتىٰ إنَّ بعضهم كان قد عمل نساجة، وبعضهم عمل في الأدم، وبعضهم باع الشعير علافاً.

ومن هذا قال ويقال في أنساب كل منتسب منهم لكثرة التخليط من الأمهات ومخالط آبائهم للعوام حتىٰ خفت أنسابهم فجهلت أحوالهم.

وأخبرني الأمير الكبير المقدم نسيب السلطنة طايربغا: أنَّه أوّل من استقلَّ من هذا البيت لسلطان جدّهم جنكزخان[1] ـ والتلفظ الصحيح جنكص خان[2] بالصاد ـ

---

(١) حكم بعد محمو غازان بن أرغون:
اولجايتو خدابنده رغون (٧٠٣ـ ٧١٦هـ).
أبو سعيد بهادر بن اولجايتو (٧١٦ـ ٧٣٦هـ).
أياقا خان بن أرتو.
موسىٰ خان بن علي (٧٣٦ـ ٧٣٩هـ)
محمد خان بن منگو تيمور.
ساتي بيك بنت أولجايتو(٧٣٩هـ).
شاهجان تيمور بن ألا فرنگ (٧٣٩ـ ٧٤٠هـ).

ثم أوكديه ـ والتلفظ الصحيح به أوكداي[١] ـ ثم كيوك قان[٢]، ثم مونككا قان[٣] بن طولي بن جنكزخان ثم آدي يكا، ثم قبلى قان[٤]، ثم دمرقان[٥]، ثم برياي، ثم تزي طيزي، ثم قيسان قان، ثم سندمرقان.

فأما نسبه إلىٰ جنكزخان فهو: سندمر قان بن طرمالا بن خمكم بن قبلى قان بن طولي بن جنكز خان. وهذا نسبه.

وأما ملوك الترك ـ وهي تركستان وما وراء النهر ـ

وأوّلهم جغطاي بن جنكزخان، وقد نبهنا علىٰ أنَّه لم يستقل، ثم ولده مكتوكان، ثم ابنه قراهولاوو، ثم ولده مبارك شاه.

ثم إنَّ القان بلغه إنَّ قيدو بن توشا بن كيوك بن أوكداي بن جنكزخان تسلّطن بهذه المملكة، فخافه لكون كيوك عمّه كان وارث التخت عن أبيه أوكداي، وأبوه أوكداي كان وارثه عن أبيه جنكزخان فسيّر براق[٦] بن بسنطو بن منكوقان بن جغطاي لدفع قيدو فدفعه وقعد مكانه.

ثم استقلَّ براق، ثم دوا[٧] ـ ولد براق ـ، ثم أولاد دوا، واحداً بعد واحد وهم: كيجان[٨]، ثم أسنبغا[٩]، ثم كيك[١٠]، ثم الجكداي[١١]، ثم دواتمس[١٢]، ثم

= سليمان خان (٧٤١ـ ٧٤٥هـ).
طغا تيمور خان (٧٤٦ـ ٧٥٣هـ).
أنو شيروان العادل (٧٥٤ـ ٧٥٦هـ). «جامع التواريخ ٢/ ١٤».

(٢) فترة حكمه (١٢٠٦ـ ١٢٢٧م).
(١) فترة حكمه (١٢٢٩ـ ١٢٤١م).
(٢) فترة حكمه (١٢٤٦ـ ١٢٤٨م).
(٣) فترة حكمه (١٢٥١ـ ١٢٥٨م).
(٤) قوبيلاي قاآن (١٢٦٠ـ ١٢٩٤م).
(٥) تيمور قاآن (١٢٩٤ـ ١٣٠٧م).
(٦) هو براق بن اسن دوا بن موتكن بن جغتاي، حكم ما بين ١٢٦٦ـ ١٢٧١م.
(٧) دوا بن براق، حكم ما بين سنة ١٢٨٢ـ ١٣٠٧م وهو الحاكم العاشر في السلسلة الجغتاتية.
(٨) هو قونجوق بن دوا حكم سنة ١٣٠٨م.
(٩) هو ابن بغا بن دوا، حكم ما بين ١٣١٠ـ ١٣١٨م.
(١٠) كيك: كان كافراً تولى حكم ما وراء النهر (رحلة ابن بطوطة ٢٤٦) حكم ما بين سنة ١٣١٨ـ ١٣٢٦م.
(١١) جكداي: هو الجكطي كان كافراً تولى الحكم بعد أخيه بگ «رحلة ابن بطوطة وهو ايلجيداي بن دوا، حكم سنة ١٣٢٦م».
(١٢) هو دواتمر بن دوا، حكم سنة ١٣٢٦م.

ترماشيرين[١] ـ رحمه الله ـ ثم رجل ليس هو بابن دوا اسمه توزون[٢] بن أوكاكان بن [جنكز خان] وتخللّ من خلال هؤلاء من توثب علىٰ الملك ولم ينتظم لهم حال، / ٥٣/ ولا علت لهم أعلام دولة. وممن أراد الملك وعلت كلمته، ولم يُملَّك، ساوو بن أركتمر بن بغا تمر بن براق.

وبقي الملك بعد موت ترما شيرين ـ رحمه الله ـ متخبطاً حتىٰ قام هذا جنغصوا؛ فأمّا نسبه إلىٰ جنكز خان فهو: جنغصو بن ذراتمر بن طوا بن براق بن بسنطو بن منكوقان بن جغطاي بن جنكزخان باسمه جداي وهو مصحح لما يقول، عارف به.

وأمّا ملوك دشت القبجاق فأوّل من ملك منهم باتو بن جوجي بن جنكزخان، ثم أخوه بركة[٣].

ثم وجميع ملوك بني جنكزخان يغلب عليهم الكرم، وتخويل من قصدهم لا يرضىٰ أحد منهم بالقليل. فأمّا القان الكبير منهم ـ صاحب الخطا ـ فتلك شيمته لا تسمح إلاّ بالذهب ليس هذا من واحدٍ بعينه، بل كل من تسنَّم منهم ذروة ذلك التخت كانت هذه سجاياه.

أما ما يحكىٰ في القديم منهم عن منكوقان بن طولي بن جنكزخان، فيخشىٰ حاكيه أن ينسب إلىٰ الخرافة في حديثه والمجازفة في قوله.

حكىٰ الشيخ الفاضل شمس الدين أبو العباس أحمد بن أبي المحاسن الطيبي، قال: حدّثني عزّ الدين أبو البقاء الأردويلي، قال: سمعت بكرم القان منكوتمر فقصدت حضرته متفرّجاً بتلك البلاد ومتوصلاً إليه، ولازمت بابه مدّة وما لي من يُوصلني إليه ولا لي أحد من أرباب دولته؛ فبينا أنا ذات يوم هناك من جملة الناس طُلِبت التخصيص فحملت إلىٰ رجلٍ سري بباب منكوتمرقان[٤]، فأمر الترجمان ذلك الرجل فسألني عن اسمي وبلدي وحالي ومقدمي، فشرحت له أمري، فقال: أشرف

---

(١) ترما شيرين: سلطان ما وراء النهر هو طرمشيرين، عظيم المقدار، كثير الجيوش والعساكر، ضخم المملكة شديد القوة، عادل الحكم، بلاده متوسطة بين أربعة ملوك «رحلة ابن بطوطة ٢٤٦ هو ابن دوا حكم ١٣٢٦ـ ١٣٣٤م».

(٢) هو بوزن بن دوا تيمور، حكم سنة ١٣٣٤م.

(٣) بركه بن جوجي بن بركايّ جوجي بن جنكيزخان، حكم ما بين ١٢٥٧ـ ١٢٦٦م، «جامع التواريخ ٢/ ٣٣٢».

(٤) منكوتمرقان: هو موتكو تيمور بن كوقوخان بن باتوني جوجي، حكم ما بين سنة ١٢٦٧ـ ١٢٨٠م «شجرة النسب، تركستان ٧١٩».

القان فرآك فاستغربك فأمر بالسؤال عنك ونحن نعلمه، ثم ذهب الرجل هنيهة، ثم طلبني، فأحضرت إلىٰ بين يدي منكوتمر قان وهو في خفّ من الناس، وبقي يحدّث ذلك الرجل؛ وهو يحدث الترجمان ويسألني عن أشياء من أمور بلادي وطريقي وما رأيت.

ثم قال: القان؛ يقول لك: ما جاء بك من بلادك البعيدة إلىٰ هنا وأيُّ شي معك من طرف البلاد تقدّمه له، فقلت / ٥٤/ له: ما جاءني إلاّ ما سمعت من كرم القان وليس معي شيء، ولو كان معي شيء ما فارقت أهلي ووطني وجئت؛ فلمّا أعادوا عليه كلامي ضحك خفياً، ثم أشار إليهم ـ أيْ أنه صدق ـ وأمر لي بشيء ما فهمته؛ فلمّا خرجنا قال لي ذلك الرجل المخاطب لي: قد أمر لك القان بما يصل إليك، ثم قال لي: علىٰ أي جهة تعود إلىٰ بلادك ؟ قلت له: في البحر إلىٰ الحجاز لأحجّ ثم أعود إلىٰ بلادي، فحمل لي إلىٰ المركب هناك أمتعة بعتها بعدن ومكة بألف ألف درهم.

وحكىٰ لي الفاضل نظام الدين أبو الفضل يحيىٰ بن الحكيم قال: قصد رجل منكو تمرقان بزجاج من عمل حلب، ووصل إليه وقدّمه له، فشرب في بعض أوانيه فأعجبه ما شفَّ من جوهر الزجاج عن حمرة الشراب، فقال: هذا من أين ؟ فقيل له: من حلب، فقال: تُعطىٰ له حلب!، فقال بعضُ وزرائه: إنَّ حلب ليست لنا، فقال: فيوقف هذا الرجل ويصبُّ عليه الذهب، حتىٰ يغطيه! فقالوا له: توقفه في خركاه ويصبّ عليه الذهب، فقال: أنتم غرضكم بهذا لن يموت ولا يكون في فضاء، فعملوا ما قاله فجاء جُملاً كثيرة عظيمة فجمعوها، وقالوا له: قد عملنا ما رسم القان، ولكننا نريد أن يقع نظر القان عليه قبل أن يأخذه، فقال: هاتوه؛ فلما رآه، قال: أنتم ما قصدكم إلاّ أني أبصر هذا فأستكثره. أعطوه هذا وقدره معه مرة أخرىٰ فأعطوه.

وحكىٰ أيضاً: أنَّ فراشاً كان يخدم تولي بن جنكزخان ـ أبا منكوتمر ـ ثم خدم منكوتمر قان بعده، ثم عدم وتطلبه منكوتمر فلم يجده فبينما هو يوماً في الصيد رأىٰ الفراش في بعض الجبال وقد ساءت حاله وطال شعره وظفره، فقال له: أين كنت ؟ فقال: في هذه البرية، فقال: ما حملك علىٰ هذا ؟ قال: التسمية، قال: لا قُل لي الصحيح ؟ فقال: هو ما أقول للقان، فقال له منكوتمر: لا ما حملك علىٰ هذا إلاّ العشق فأطرق فقال له منكوتمر: فلمن أنت عاشق ؟ فسكت، فعلم منكوتمر أنه عاشق في أحد من جهته، فقال له: كأنك عاشق فلانة ؟ / ٥٥/ لا فلانة ؟ لا فلانة ؟ يعد عليه واحدة بعد واحدة من خواتينه وأتباعهن، وهو يقول: لا، إلىٰ أن ذكر واحدة من

أجلّ حظاياه، فسكت الفراش، فقال منكوتمر: أنت عاشق في هذه بلا شك.

ثم إنَّه طلبها وقال لها: فلان له علىٰ أبي حقّ وعليّ، وهو عاشق فيك، وما له في هذا ذنب ولا لكِ، هذا شيء يتعلَّق بقلبه ما له فيه حيلة، وأريد أن أزوّجك به فبكت، وقالت: يا قان بعدك أتزوج بهذا ؟ فقال: سوف تبصرين ما أعمل.

ثم إنَّه عمل طوي وسأل الأمراء أن ينصب للفراش كرسياً فوقهم وأجلسه فوق الجميع، فقالوا له: الأمرُ أمرُ القان فنصب له كرسياً فوقهم وأجلسه عليه، وزوّجه بتلك الحظية، وعمل له يرتاً[1] عظيماً لا يصلح إلاّ للقوامين الكبار وأجراه مجرىٰ واحد منهم.

قلت: ومن تأمّل هذه الحكاية عرف سعة إحسان هذا الرجل وكرمه، فإنه أخذ غلاماً لا يُؤبَه إليه جعله ملكاً، وسمح له بما لا يسمح بمثله من المال والجاه والمحبوب.

* * *

(١) يرت: كلمة مغولية تعني خيمة أو مقر إقامة. «فرهنك عميد ٢/ ٢٠٠١».

الفصل الثاني

في مملكة القان الكبير صاحب التخت، وهو صاحب الصين

قد ذكرنا في صدر الفصل الأول: أنَّ القان الكبير هو القائم مقام جنكزخان، والجالس علىٰ تخته؛ وهو متغلغل في الشرق، ومقامه نجان بالق من بلاد الخطا؛ وهو أجلّ ملوك توران التي في مملكة الترك[1] من قديم الدهور والآباء، وبها وبما جاورها أو قاربها كان أفراسياب[2]، غير أَنَّه خرج عن هذا القان ما هو الآن لابني عمة الدين؛ تقدّم ذكرهما.

وإلىٰ هذا القان إشارة الثلاثة أبناء عمّه؛ وهو كالخليفة عليهم، فإذا تجدّد في مملكة أحدٍ منهم مهم كبير[3] مثل لقاء عسكر، أو قتل أمير كبير بذنب، أو صلة إليه اليسق ـ أي الحكم أو ما يناسب هذا ـ أرسل إليه وأعلمه ولا افتقار إلىٰ استيذانه، ولكنّها عادة مرعية.

/٥٦/ قال الفاضل نظام الدين ابن الحكيم الكاتب البوسعيدي[4]: إنَّ هذا القان ما يزال يكتب إلىٰ كل من القانات[5] الثلاثة يأمرهم بالاتحاد والألفة، وإنَّه إذا كتب إليهم بدأ باسمه قبلهم، وكلّهم مذعنون له بالتقدّم عليهم.

وحدّثني بكثير مما عليه صاحب هذه المملكة، وأَنَّهم علىٰ ما هم عليه من الجاهلية علىٰ السيرة الفاضلة الشاملة لأهل مملكته، ومن يرد إليها بجناح العدل

---

(١) المغول فرع من الأتراك.

(٢) بطل أسطوري توراني قديم، حارب رستم حروباً طويلة، وأخيراً قتله رستم، وهو جزء من الصراع الإيراني التوراني «انظر: شاهنامة الفردوسي ٣٥».

(٣) أمر هام مشكلة كبرى ويسمى هذا الاجتماع باسم الطوى أي الضيافة «رحلة ابن بطوطة ٢٤٨» أما القوريلتاي فهو اجتماع لتنصيب إلقاآن «تركستان ٦٤٩».

(٤) نسبة إلى أبي سعيد بهادر بن أولجايتو خدابنده بن أرغون بن القاآن هولاكو.

(٥) القانات جمع مفرده قان، وهي في الأصل قاآن تعادل كلمة شاهنشاه وخاقان وقيصر ـ والقاآن سمة لكل من يلي الملك عند المغول «رحلة ابن بطوطة ٤٢٣».

والإحسان ومعاملتهم بقشور من لحاء شجر التوت[١] مطبوعاً باسمه، فإذا عشق ذلك المتعاطي به حمله إلىٰ نواب هذا القان، وأخذ عوضه مع خسارة لطيفة[٢] كما يؤخذ في دار الضرب علىٰ ما يؤخذ إليها من الذهب والفضة ليضرب بها؛ وأهل مملكته هم أهل الأعمال اللطيفة والصنائع البديعة التي سلمت إليهم فيها الأمم، وقد ملئت الكتب من أحوالهم بما أغنانا عن ذكره، ومن عادة المجيدين في الصنائع أَنَّهم إذا عملوا عملاً بديعاً حملوه إلىٰ باب الملك، وعلق به ليراه الناس، ويبقى سنة كاملة؛ فإن سلم من عائب أسدىٰ إلىٰ صانعه صنائع الإحسان، وإنْ عيب عليه وتوجّه العيب وضع قدر الصانع، وإنْ لم يتوجه العيب قوبل من عاب عيباً غير متوجه قصد الأذية.

ومما حكي في هذا: إنَّ صانعاً منهم صور في نقوش الثياب الكمخا عصفوراً علىٰ سنبلة حتىٰ مثله كأَنَّه حقيقة؛ فلما علقه حيث يعلق مثله استحسنه كُلُّ من رآه حتىٰ مرّ به رجل فعابه فسئل: لأي شيء عبته ؟ فقال: لأنَّ العصفور إذا قعد علىٰ سنبلة أمالها وهذه مستقيمة ما هي مائلة فاستحسن قوله، ووضع قدر الصانع، هذا مما يُحكىٰ عنهم.

وأما ما يُحكى لي عن المشاهدة والعيان؛ فحكىٰ لي الصدر[٣] بدر الدين حسن الأسعردي التاجر: أنَّ بعض صنّاعهم عمل سرجاً من أختاء البقر ودهنه وأبدع صناعته، ثم قدّمه إلىٰ القان فأعجبه ووقع منه موقع الاستحسان، ولم يشك أَنَّه معمول من خشب / ٥٧/ مثل بقية السروج، فقال له صانعه: أما علمتم هذا ممّا خشبه ؟ فقالوا: لا فأوقفهم علىٰ إنه من آختاء البقر فاستحسنوا جودة صناعته ولطف تدقيقه.

وحكىٰ لي: أنَّ بعض صناعهم عمل ثياباً من الورق وباعها من التجار على أنَّها من الكمخاوات الخطائية[٤] لا يشك فيها أحد، ثم إنَّه لما جاز هذا عليهم أطلعهم علىٰ حقيقة حالها فعجبوا لهذا.

قال بدر الدين حسن: ولقد رأيت منهم من هذه الأعمال ما تُحار فيه العقول، ويذهل الأفكار.

---

(١) هي نوع من العملة المستعملة، فهناك عملة من الذهب والفضة ولحاء الشجر وتسمى جميعها بايزه. «جامع التواريخ ١/ ٢٤٧».

(٢) وتسمى كانمد وهي مختومة بخاتم السلطان «رحلة ابن بطوطة ٤١٥».

(٣) الصدر، هي وظيفة مرموقة تقارب وزير، وصدر أعظم الآن بمعنى رئيس الوزراء في الأردية، وصدر تعني هنا الزعامة الدينية ومنها صدر جهان وصدر الصدور وهي ألقاب تمنح لرجال الدين آنذاك.

(٤) الخطائية نسبة إلى الخطا، وهم قوم من الترك سبق التعريف بهم ـ وتأتي الخطا والختا والقراخانية.

وأمّا ما حدّثني به السيد الشريف تاج الدين حسن بن الجلال السمرقندي؛ وهو ممن جال في الأرض، وجال في الآفاق؛ وهو من الثقاة، وقد دخل الصين وجاز بلاده، وجاب آفاقه، وجاس خلاله، وجال في أقطاره، قال: إنَّ قاعدة الملك به مدينة خان بالق[١]؛ وهي مدينتان قديمة وجديدة بناها ديدو ـ أحد ملوكها ـ سميت باسمه ديدوا، وفي وسط مدينة ديدو المذكورة منزل القان الكبير؛ وهو قصر عظيم يسمّى «كوك طاق» ومعناه في اللغة المغولية «القصر الأخضر»؛ لأن القصر عندهم طاق، والأخضر كوك؛ وهي خلاف اللغة التركية فإن كوك فيها هو الأزرق. ونزول الأمراء حوله خارج قصره.

قالا: وأما ترتيب هذه المملكة فإنَّ لهذا القان أميرين كبيرين هم الوزراء، ويسمّى كل من يكون في هذه الرتبة «جنكصان»[٢]، ودونهما أميران آخران يسمّى كل من يكون في هذه الرتبة «بنجار»، ودونهما أميران آخران يسمّىٰ كل من يكون في هذه الرتبة «زوجين»، ودونهما أميران آخران يسمّى كل من يكون في هذه الرتبة «سمجين»، ودونهما أميران آخران يسمّىٰ كل من يكون في هذه الرتبة «يوجين». ورأس الكتاب /٥٨/ ويسمّىٰ كل من يكون في هذه الرتبة «كنجون» وهو بمنزلة كاتب السرّ.

ويجلس القان كلّ يوم في صدر دار فسيحة تسمّىٰ «شن» هي عندهم مثل دار العدل عندنا، ويقف حوله الأمراء المذكورون عن اليمين وعن الشمال علىٰ مقادير الرتب ورأس الكتاب المسمّى كنجون في آخرهم؛ فإذا شكا أحد شكوىٰ، وسأل حاجة المذكور فيقف عليها هو ومن معه في الرتبة، ثم يوصلانها إلىٰ من يليهما في الرتبة، وكذا إلى أن تصل إلىٰ القان ويأمر فيها بما يراه مع العدل التام والإنصاف المفرط.

قال: وهذا القان الكبير ذو ملك كبير وعسكر مديد.

قال: والذي أعلم من أمره أَنَّ له بزْدَاراً يركب الخيل، وعساكره من المغل عشرون توماناً؛ وهي بمائتي ألف فارس، وأما من الخطا فما لا يحصىٰ.

قال: وبلاد الصين تشمل علىٰ ألف مدينة درتُ كثيراً منها، والطريق إلىٰ سمرقند إلىٰ خان بالق ـ علىٰ ما يذكر من سمرقند إلىٰ نيلي ـ عشرون يوماً.

---

(١) مدينة خان بالق أو خان بالغ أو باليق اسم قديم لمدينة بكين الحالية عاصمة الصين «انظر: فرهنك عميد ١/ ٨٢٨» وخان بالق من أعظم مدن الدنيا ـ مدينة السلطان في وسطها «رحلة ابن بطوطة ٤٢٣».

(٢) جنكسان: أمير يعادل درجة وزير وهي جنكساتك.

ونيلي هي أربعة مدن بين كل مدينة والأخرىٰ فرسخ واحد، ولكلٍّ واحدة منها اسم يخصُّها؛ فالواحدة نيلي، والأخرىٰ نيلي بالق، والأخرىٰ كنجك، والأخرىٰ تلان.

ومن مدينة نيلي المذكورة إلىٰ المالق عشرون يوماً، ومن المالق إلىٰ قراجواجا إلىٰ قمحو ـ هي أول بلاد الخطا ـ أربعون يوماً، ومن قمحو إلىٰ خان بالق أربعون يوماً، ثم من خان بالق إلىٰ الخنسا[١] طريقان طريق في البر، وطريق في البحر؛ وفي كلّ منهما من خان بالق إلىٰ الخنسا أربعون يوماً، وطول الخنسا[٢] يوم كامل، وعرضها نصف يوم، وفي وسطها سوق واحد ممتد من أولها إلىٰ آخرها، وكلّ شوارعها وأسواقها مُبلطة بالبلاط، وبناؤها خمس طبقات بعضها فوق بعض، وكلّها مبنية بالأخشاب والمسامير، وشرب أهلها من الآبار. وأهلها في قشف عيش وغالب أكلهم لحوم الجواميس والأوز والدجاج والأرز والموز وقصب السكر والليمون، وقليل رُمان؛ وهي شبيهة بمزاج مصر في حرّها وهوائها، وأسعارها متوسطة، ويجلب إليها الغنم والقمح ولكنه قليل، ولا يوجد بها من الخيل إلاّ ما قلَّ عند الأعيان الأكابر. وأما الجمال فلا يوجد بها شيء منها البتة، فإن دخل إليها جمل عجبوا منه.

قال الشريف جلال الدين حسن السمرقندي: وأما مدينة خان بالق فمدينة طيبة وافرة الأقوات، رخية الأسعار، ويجمد بها الماء في زمن /٥٩/ الشتاء، ويسيل إلىٰ الصيف فيبرد به الماء، ويشقّ أحد المدينتين منها وهي مدينة ديدو نهر، وبها أنواع الفواكه إلاّ العنب فإنه قليل، وليس بها نارنج ولا ليمون ولا زيتون، ويعمل بها السكر والنبات مما يحمل إلينا من مدينة الزيتون. وأما ما بها من الزروع والدواب والجمال والخيل والأبقار والأغنام فما لا يدخل في الإحصاء.

قال: وبين خان بالق ومدينة الزيتون[٣] شهر واحد تقديراً، ومدينة الزيتون بندر علىٰ البحر المحيط؛ وهي آخر العمارة.

---

(١) الخنساء: هي كانتون الآن وهي ميناء صيني، أسماه ابن بطوطة الخنساء أو الخنسا «رحلة ابن بطوطة ٤٢٠» والبحارة العرب اطلقوا عليها اسم الخنساء وحُرف إلى خانسو ثم كانتون «انظر: العالم الإسلامي ـ محمود شاكر، القاهرة ١٩٨١ ص٢٠٣».

(٢) انظر: وصف الخنساء وهي عاصمة الصين الجنوبية آنذاك بتاريخ وصّاف المعروف بتجزية الأمصار وتزجيه الأعصار لعبد الله بن فضل الله الشيرازي، وكذلك عند ابن بطوطة ص٤٢٠.

(٣) مدينة الزيتون على المحيط الهادي، وهي مدينة ليس بها زيتون، وهي مدينة كبيرة تصنع بها ثياب الكمخا والأطلس وتعرف بالنسبة إليها، وبها مرسىٰ كبير. «رحلة ابن بطوطة ٤١٧».

قال: وأمّا مدينة قراقرم فإنَّها مدينة جليلة فيها غالب عساكر القان الكبير، ويعمل بها القماش المليح الفاخر، والصنائع الفائقة، وغالب ما يحتاج القان إليه يستدعى منها؛ لأنّها دار استعمال، وأهلها أهل صناعات فائقة وأعمال.

قال الشريف حسن السمرقندي: وبلاد الصين كلها عمارة متّصلة من بلدٍ إلىٰ بلدٍومن قريةٍ إلىٰ قريةٍ، ومعاملتهم بورق التوت، ومنها كبار ومنها صغار، فمنها ما يقوم في المعاملة مقام الدرهم الواحد، ومنها ما يقوم مقام درهمين، ومنها ما يقوم مقام خمسة دراهم وأكثر إلىٰ ثلاثين وأربعين وخمسين ومائة؛ وهو يُوجد من لحاء شجر التوت اللين، ويختم باسم القان وتجري به المعاملات فإذا عتق واضمحل حمل إلىٰ الخزانة وأعطي عوضه مع غرم قليل.

قال لي الشريف السمرقندي: ومن عجائب ما رأيت في مملكة هذا القان الكبير أنَّه رجل كافر، وفي رعاياه من المسلمين أمم كثيرة، وهم عنده مكرمون محترمون، ومتىٰ قتل أحد من الكفار مسلماً قُتل الكافر القاتل هو وأهل بيته وتنتهب أموالهم، وإن قتل مسلم كافراً لا يقتل وإنَّما يطلب بالدية، ودية الكافر عندهم حمار لا يُطلب منه غير ذلك.

وسألته عن أهل الصين وما يحكىٰ عنهم من رزانة العقل وإتقان الأعمال، فقال: هم أكثر مما يقال.

وكنا جماعة بحضرة سيدنا وشيخنا فريد الدهر وارث العلم والحكمة شمس الدين /٦٠/ أبي الثناء محمود الأصفهاني، فقال الشريف السمرقندي: أنا أحكي لكم ما جرىٰ لي؛ كنت أشكو ضرساً في فمي، فرآني بعض من كنت ألفت به في بلاد الصين، وأنا أتألم لشدَّة الضربات، فسألني عمّا بي فشكوتُ إليه وجع ضرسي فاستدعىٰ شخصاً حطّاباً قصير القامة، فقال له: ابصر حال هذا المسكين، فنظر إلىٰ فمي، وبقي يقلّب أضراسي بيده هنيهةً، ثم أخرج ضرسي الواحد ونصف الآخر ولم أشعر لهما بألم، ثم أخرج من خريطة له كانت معه أضراساً كانت كوامل وأنصافاً وأثلاثاً وأرباعاً معدَّة عنده لوضعها في مواضع ما يقلع، ثم لم يزل يقيس مواضع ما قلع لي حتىٰ وضع موضعها من تلك الأضراس ثم ذرَّ عليها ذروراً ودهنها بدهن التأمت به لوقتها، وأمرني أن لا أشرب عليها الماء يومي كلّه، ففعلت كأنّي ما قلعت شيئاً وأراني أضراسه فوجدناها كأحسن ما يكون المستجدين ظاهر عليها إنها ليسوا من نوع البقية، والضرس المشعوب، يظهر أَنَّ نصف الشعب من غير النصف الأول.

وحدّثني الفاضل نظام الدين يحيىٰ بن الحكيم: أَنَّ لأهل هذه البلاد عقولاً راجحة،

وأعمالاً دقيقة، وهم يقولون: الفرنج عور، وباقي الناس عُمّى - يعني إنَّ صنائعهم صناعة بصير بعين، وباقي الناس صناعتهم صناعة من هو أعمىٰ ما يبصر ما يعمل.

وحكىٰ لي من أحوال هؤلاء القوم ما يُنبيء عن عقول جمّة وترتيب حسن وقهقنة في الأمور؛ فمّما حكىٰ لي عنهم: أَنَّ في مدن الخطا مطابخ يطبخ فيها الأطعمة الفائقة والمشروب اللذيذ مما لا يوصف حسنه، أن يقدّم منه إلىٰ الملوك معدّة لمن يشتري منه من الأكابر حتىٰ إنَّ أحدهم إذا اهتمَّ بضيافة كبير بعث إلىٰ صاحب المطبخ من تلك المطابخ، وقال له: عندي ضيف وأريد له ضيافة بكذا في وقت كذا؛ فإذا كان ذلك الوقت حمل إليه ما يناسب إرادته وشرطه من بدائع المأكول والمشروب؛ كل شيء في وقته وإنْ كان المضيف ما له مكان / ٦١/ يصلح للضيافة أعدّ له صاحب المطبخ مكاناً بكلّ ما يحتاج إليه من البسط والفرش والآلات والغلمان علىٰ قدر ما حدّه له المضيّف من القيمة بحسب صاحب المطبخ حساب مكسبه في كل ذلك عن أجرته والمطبخ والدار والفرش وكلفة الطعام والشراب وإتمام كلّ شيءٍ بحسابه بقانون معين لا يزيد ولا ينقص من غير أن يحصل علىٰ المضيف تفريط ولا خيانة في شيء مما قلّ أو جلّ.

قلتُ: وحدثني الشريف الفاضل أبو الحسن علي الكربلائي التاجر - رحمه الله - وكان قد اجتمع بقان هذه البلاد وكثير من ملوك الأرض مع ما شاهده من عظمة سلطان هذا السلطان، وطاعة رعاياه له، وأمنهم في دولته، وقال لي: إنَّ لهذا القان أربعة وزراء يصدرون الأمر في مملكته كلها، ولا يراجع القان إلاّ في القليل النادر.

ووصف لي: أنَّه إذا أراد الركوب أنَّه لا يركبْ إلاّ في محفّةٍ، لا يظهر للناس إلاّ في يوم واحد؛ وهو مثل يوم مولده من كلّ سنة؛ فإنه يركب فرساً ويخرج إلىٰ الصحراء ويعمل بها من الأطعمة والسماطات ما يغمر الناس ويكون مثل يوم العيد عندهم.

وحدّثني الصدر بدر الدين عبد الوهاب بن الحداد البغدادي التاجر: أنَّه وصل إلىٰ الخنسا ووصف عظمة بنائها وسعة رقعة مدينتها مع تشحط الأقوات بها، ووفور المكاسب فيها، ورخص الرقيق الجيد فيها، وفي كُلّ تلك البلاد.

قال: وأهلها يتفاخرون بكثرة الجواري والسراري حتىٰ إنَّه ليوجد لأحد التجار وآحاد الناس أربعون سرية فما زاد علىٰ ذلك.

قلت: وكل ما ذكرناه في هذا هو علىٰ سبيل الاستطراد وإلاّ فالبسط المقصود: أَنَّ هذا القان هو أكبر الملوك الجنكزخانية الأربعة.

* * *

الفصل الثالث

في التورانيين

وهم فرقتان:

/٦٢/ الفرقة الأولىٰ في ما وراء النهر.

والفرقة الثانية في خوارزم والقبجاق.

الفرقة الأولىٰ: في ما وراء النهر وما قبلها وما بعدها من ممالك تركستان

هي من أجل الممالك وأشهرها، والنهر المشتهر بهم هو جيحون[١]؛ وهو النهر الذي ينبع من ونج[٢] حتىٰ يصبّ في بحيرة خوارزم[٣].

وهي ممالك طائرة السمعة، طائلة البقعة. أسرة ملوك، وأفق علماء، ودارة أكابر، ومقعد ألوية وبنود[٤]، ومجرىٰ سوابق وجنود.

كانت بها سلطنة الخانية[٥]، وآل سامان[٦]، وبني سبكتكين[٧]،

---

(١) نهر جيحون ببلاد ما وراء النهر ويعرف في الفارسية بآموديا والاسم الآري القديم له فخشوا أو وكشو وأحد روافده الآن وخش وعرف عند العرب تجريات «تركستان ١٤٦».

(٢) ونج وهي ونه وهي ببلاد ما وراء النهر «انظر: معجم البلدان ٤/ ٩٣١».

(٣) بحيرة خوارزم هي بحيرة آرال في الوقت الحاضر ويصب بها نهرا سيحون وجيحون.

(٤) بنود جمع مفرده بند، والبند هو العلم الكبير «المعجم الوسيط ١/ ٧٣».

(٥) يقصد خانية خوارزم، والخانية هو إقليم أو منطقة وخوارزم أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها، لها الأسواق المليحة والشوارع الفسيحة، والعمارة الكبيرة والمحاسن الأثيرة «رحلة ابن بطوطة ٢٣٩».

(٦) آل سامان: هم أولاد سامان المنسوب إلى بهرام جوبين، وكان أسد بن سامان في خدمة غسان بن عباد والي خراسان فأكرمه وأنعم على أولاده وجعلهم ولاة على سمرقند وفرغانة واشروسنه وهرات، وقد استقلوا فيما بعد وأسسوا دولة آل سامان التي تكونت على يد إسماعيل الساماني سنة ٢٧٩هـ واستمرت حتى قضى عليها محمود الغزنوي آواخر القرن الرابع الهجري «انظر: روضة الصفا ـ النسخة العربية ٧٩ وما بعدها».

(٧) بنو سبكتكين: هم أولاد ناصر الدين سبكتكين، كان علاماً تركياً وليتّكين صاحب خراسان في عهد =

والغورية[(١)]، ومن أفقها بزغت شمس آل سلجوق[(٢)]، وامتدت في الإشراق والشروق؛ وغير هذه الدول مما طمَّ سيول هذه الممالك علىٰ قربها.

فأما قبل انتقالها إلىٰ الإسلام فكانت في ملوك الترك لا تُرامى ولا ترام، ولا تشقّ لها سهام، خيَّم بها الإسلام، وجازت ملكها هذه الأمة. برقت بالإيمان أسرتها، وتطرزت بالجوامع والمساجد قراها.

ثم بنيت بها المدارس والخوانق والربط والزوايا، وأجرىٰ الوقف عليها، وكثر من العلماء أهلها، وسارت لهم التصانيف المشهورة في الفقه والحديث والأصول والخلاف. وكان منهم الرؤساء والأعيان والأعلام والكبراء أهل البحث والنظر.

ولبخارىٰ[(٣)] في هذه المزايا الفاضلة أوفر الأقسام، ولم يعدَّ علم الفقه هذه الآفاق مشرقاً، ولم يعد علم هذه الأرض محققاً. وما يقال في مملكة من بلادها بخارىٰ وسمرقند[(٤)] وترمذ[(٥)] وخجند[(٦)] والمالق[(٧)] وغزنة[(٨)]؛ وأخوات هذه

= منصور بن نوح الساماني، ولما مات اليتكين وابنه إسحاق استقل سبكتكين بحكم غزنة سنة ٣٦٦هـ وأسس الدولة الغزنوية «انظر: روضة الصفا النسخة الفارسية ٢٨/٤ـ النسخة العربية ١٢٩، ابن الأثير ٨٦/٧، ابن كثير ٢٨٦/١١».

(١) الغوريون: هم أهل بلاد الغور، حارب قائدهم محمد بن سوري محمود الغزنوي وذكر صاحب طبقات ناصري أنهم أسلموا في عهد خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ونقصه ذلك القول العتبي في تاريخ اليميني، وقد أسس الغوريون دولة واتخذوا من غزنة عاصمة لها «انظر: روضة الصفا ـ الترجمة العربية ١٤١».

(٢) آل سلجوق: ظهر السلاجقة في بلاد ما وراء النهر واستولوا على خراسان بقيادة طغرل بيك السلجوقي وحاربوا مسعود الغزنوي حتى طرده خارج خراسان وغزنة وأسسوا دولة السلاجقة.

(٣) بخارى: قاعدة ما وراء نهر جيحون، ينسب إليها الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، خربها اللعين تنكيزخان «رحلة ابن بطوطة ٢٤٤، مراصد الاطلاع ١٦٩/١» ما زالت بخارى قائمة الآن في جمهورية أزبكستان.

(٤) سمرقند: من أكبر المدن وأحسنها وأتمها جمالاً، مبنية على شاطىء وادٍ يعرف بوادي القصارين عليها النواعير «رحلة ابن بطوطة ٢٥١» مدينة ما زالت قائمة في جمهورية أزبكستان، بلد معروف مشهور بما وراء النهر «مراصد الاطلاع ٧٣٦/١».

(٥) ترمذ: مدينة كبيرة حسنة العمارة والأسواق، تخترقها الأنهار، بها البساتين الكثيرة «رحلة ابن بطوطة ٢٥٢».

(٦) خجند هي خجنده من أعمال فرغانة ثم صارت في القرن العاشر الهجري وحدة إدارية قائمة بذاتها، ومدينة خجند من كبريات مدن ما وراء النهر بها قلعة وشهرستان وريصة «الاصطخري ٣٣٣، ابن حوقل ٣٩٤ـ ٣٩٥، الطبري ١٤٣٩/٢».

(٧) المالق: الماليق أو الماليغ: مدينة كانت تقع بالقرب من مدينة كولجه الحالية على شاطىء نهر أيلي الذي يصب في بحيرة بلكاشن «انظر: حاشية بوشيه على جامع التواريخ ٤١٠ـ ٤١١».

(٨) غزنة: هي غزني وغزنين، بلد محمود الغزنوي، شديدة البرد «رحلة ابن بطوطة ٢٦١» وهي قاعدة ملك =

الأمهات، وأخبارها مشهورة، وآثارها مشهودة.

ومن نظر في كتب التواريخ رأىٰ مثل يمين المتوسم من أحوال هذه البلاد ومن فيها؛ وهي واقعة في الرابع، ونادر منه في الثالث أو مائل إلىٰ الخامس لا يكاد يبلغه في أوسط المعمور، وأوسع الأرض، إذا قيل: إنَّها أخصب بلاد الله وأكثر ماءً ومرعًى لم يعد القائل الحقّ في أوصافها ذات الأنهار السارحة، والمروج الممتدّة كأنَّما نشرت الحلل علىٰ آفاقها أو كسرت الحلي علىٰ حصبائها.

وهذه المملكة طولها من ماء السند إلىٰ ماء إيلا /٦٣/ المسمّىٰ قراخوجا؛ وهو برّ الخطا.

وعرضها من ونج ـ وهو منبع ماء جيحون ـ إلىٰ حدود كركانج[١].

قاعدة خوارزم

وحدُّها من الجنوب جبال البتم[٢] وماء السند الفاصل بينهما وبين السند، ومن المشرق أوائل بلاد الخطا علىٰ خيلاط وكلكسان؛ وما هو علىٰ سمت ذلك، من الشمال مراعي باران وكجند وبعض خراسان إلىٰ بحيرة خوارزم، ومن الغرب بعض خراسان إلىٰ خوارزم إلىٰ مجرىٰ النهر أخذاً إلىٰ الختل[٣].

ومن بلاد هذه المملكة فرغانة[٤] والشاش[٥] والسنجاب[٦] وأشروسنة[٧] وبلاد الختل، وفيها طرف من السند من غزنة إلىٰ جنوبها.

= محمود الغزنوي، وتقع الآن في إفغانستان.

(١) كركانج: هي جرجانية، حاضرة أمراء المأمونية في خوارزم، وهي گرگانج «تركستان ٢٤٨ـ ٢٥٠، فرهنگ أدبيات فارسي ٢٦» وأطلق العرب عليها جرجانية، وأطلق عليها المغول أرگينج «المقدسي ٢٨٨ـ ٢٨٩».

(٢) البتم: مرتفعات وجبال ينبع منها نهر زرفشان، وهي أيضاً تأتي بتمان «تركستان ١٦٨».

(٣) الختل: مقاطعة واقعة بين نهري ينج ووخش وهي تسمى ختل وختلان، وأهم نواحيها وادي نهر كجي سرخاب «تركستان ١٥١».

(٤) فرغانة: مدينة عامرة في بلاد ما وراء النهر، ما زالت حتى الآن تابعة لجمهورية أزبكستان ـ «انظر: وصف فرغانة عند بارتولد ٢٧٢ وما بعدها».

(٥) الشاش: هي جاج من أعمال أشروسنة، وهي ناحية من نواحي ما وراء نهر سيحون متاخمة لبلاد الترك وهي أكثر ثغر كان في وجه الترك وجاج هي طشقند الحالية «انظر: آثار البلاد ٥٤٨، تاريخ بخارى لغامبري ٩٤».

(٦) استيجاب: هي اسفيجاب أو اسبيجاب وهي قرب الشاش من بلاد فرغانة «معجم البلدان ٤/ ١٠١٤».

(٧) أسروشنة: من قصبات ما وراء النهر من أعمال بخارى «آثار البلاد ٥٤٠».

وأقاليم هذه المملكة واقعة فيها علىٰ ما يذكر، وبلاد الختل آخذة علىٰ جانب جبال البتم مغرّباً بشمال، ويليها الصعورامات في الشمال، ثم تزيد إلىٰ ما يُتاخِم خوارزم، وبلاد فرغانة آخذة علىٰ جانب جبال البتم شرقاً بشمال؛ ويليها بلاد السابون في الشمال، وأعمالها إلىٰ حيط عبد الله بن حميد ـ المعروف بحائط القلاص ـ في خارجه بلاد استجاب في الشمال بشرق.

وبلاد الغزنة ممتدة في نهاية الشمال من أطراف بحيرة خوارزم في الغرب إلىٰ بلاد استيجاب في الشرق. ومراعي باران وحجندة داخل بلاد الغزنة بينها وبين حائط القلاص وبلاد أشروسنة في الوسط علىٰ نهاية الأنهار النازلة من جبال البتم من جهة المشرق.

وأمّا أكابر مدنها المشهورة

وهي القواعد العظام والأمهات الكبار فإقليم غزنة، وإقليم ما وراء النهر؛ وهو بخارىٰ، وسمرقند، وخجندة، وترمذ، وإقليم الشاس ـ وهو الشاش ـ ومغالاق؛ وإقليم فرغانة وهو بدغينان[١] ورباط سرهنك، وأيدكان، وأوس؛ وإقليم تركستان شهر كند وجند ونار جندو وأطرار[٢] وشبرم ومكل وجاص كن وبرساكن وأفردابان ونيلي وكنجك وطوان ـ وهو المسمّىٰ بلاس ـ ونيكي كن وشيكول والمالق وبيش مالق وحبوك وقرشا وختن وكاشغر وبدخشان ودراوران / ٦٤/ ودرّة وبلاصاغاون. كل واحدة ذات مدن وأعمال ورساتق[٣] وقرىٰ وضياع، مأوى الأتراك وغيل أسودهم، وجوّ عقبانهم.

وقرشا قاعدة الملك بها الآن؛ وهي علىٰ نهر قراجوجا في نهاية الحد، ثم بخارىٰ، ثم سمرقند، ثم غزنة. وإن كانت بخارىٰ مما لا تسير إليها ركابهم، ولا ترسي عليها خيامهم؛ ولكن لعظمة مكانها، وسالف سلطانها، وسيأتي ذكر هذه القواعد في مواضعها.

ولم يسلم ملوك هذه المملكة إلاّ من عهدٍ قريب فيما بعد خمس وعشرين

---

(١) مرغينان: وهي أهم مدن القراخانيين ومن أشهر نواحي فرغانة «معجم البلدان ٤/ ٥٠٠».

(٢) أطرار وهي أترار: مدينة من بلاد الترك آخر ولاية خوارزم شاه قتل حاكمها جماعة من التجار المغول سنة ٦١٧هـ، وكان هذا سبباً في غزو المغول للمسلمين «ابن الأثير ١٢/ ٣٦١ـ ٣٦٢».

(٣) رساتق: جمع مفرده رستاق وهي القرية «فرهنگ رازي ٤٠٨».

وسبعمائة[١]؛ أوّل من أسلم منهم برماسيرين[٢] ـ رحمه الله ـ وأخلص لله، وأيّد الإسلام، وقام به أشدّ القيام، وأمر به أمراءه وعساكره، فمنهم من كان قد سبق إسلامه، ومنهم من أجاب داعيه وأسلم. وفشا فيهم الإسلام، وعلا عليهم لواؤه حتىٰ لم تمضِ عشرة أعوام حتىٰ اشتمل فيها بملئه الخاص والعام، وأعان علىٰ هذا ما في تلك الممالك من الأئمة العلماء والمشايخ الأتقياء، فاغتنموا من الترك فرصة الإذعان فعاجلوهم بدعوة الإيمان؛ وهم الآن علىٰ ما اشتهر عندنا واستفاض أحرص الناس علىٰ دين، وأوقفهم علىٰ الشبهات بين الحلال والحرام، وعساكرهم هم أهل النجدة والبأس لا يجحد هذا من طوائف الترك جاحد ولا يخالف فيه مخالف.

حدثني خواجا مجد الدين إسماعيل السلامي، قال: إذا قيل في بيت هولاكو: إنَّ العساكر قد تحرّكت من باب الحديد ـ يعني من بلاد خوارزم والقبجاق ـ لا يحمل أحد منهم لهم همّاً؛ فإذا قيل: إنَّ العساكر تحركت من خراسان ـ يعني من جهة هؤلاء السقط، لأن هؤلاء أقوىٰ ناصراً وأولئك أكثر عدداً؛ إلاّ أنه يقال: إنَّ واحداً من هؤلاء بمائة من أولئك.

قال: ولهذا خراسان عندهم ثغر عظيم لا يهمل سداده، ولا يزال فيه من يستحق ميراث التخت، أو من يقوم مقامه لما وقر لهؤلاء في صدورهم من مهابة لا يقلقل طودها فإنهم طالما بلوهم في الحروب، وابتلوا بهم فيها.

وحدَّثني الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيىٰ بن الحكيم ما معناه: إنَّ بلاد هؤلاء متصلة /٦٥/ بخراسان متداخلة بعضها ببعض لا يفصل بينهما بحر ولا نهر ولا جبل ولا مفازة، ولا شيء مما يمنع أهل هذه البلاد عن قصد خراسان، وبينها وبين خراسان أنهار جارية ومراعٍ متصلة؛ فإذا أرادوا خراسان تنقلوا في المرعىٰ واستدرجوا استدراجاً لا يبين ولا يظهر إنَّه لقصد بلاد بل للتوسع في المرعىٰ فلا يشعر بهم إلاّ وهم بخراسان حتىٰ إذا صاروا فيها جاسوا بها خلال الديار وعاثوا فيها عيث الذئاب؛ وهم مع سيرهم المجد من بلادهم إلىٰ خراسان لا مشقة عليهم ولا علىٰ دوابهم؛ لأنهم من ماءٍ إلىٰ ماء ومن مرعىٰ إلىٰ مرعىٰ.

---

(١) علاء الدين طرمشيرين (ترما شيرين) سلطان ما وراء النهر ولي الملك بعد أخيه، وكان أخوه كافراً ويدعى الجكطي، كما كان أخوه الملك الأسبق كبگ كافراً، وقد أسلم طرمشرين، وملك بلاداً واسعة «انظر: رحلة ابن بطوطة ٢٤٦ـ ٢٤٨».

(٢) كذا ورد اسمه في الأصل، وصوابه «ترماشيرين».

قال ابن الحكيم: ولهذا يخاف ملوكنا عادية هؤلاء؛ لأنَّهم لا يعلمون بهم إلاّ وهم معهم.

قلت: ومن هذه البلاد نجم سلطان الدولة السلجوقية في عهد السلطان مسعود السبكتكيني[١]، وأوّل ما بزغ كوكبهم ثم استعلىٰ نيرهم، ونبع معينهم ثم فاضت أبحرهم. وكان الاحتجاج بالتنقل في المرعىٰ هو السبب لجرّ الملك إليهم حتىٰ أشهرت أعلامهم، وانتشرت أيامهم علىٰ ما هو مرقوم في صدور السير وصفحات التواريخ، ولم يزل لأهل هذه المملكتين قديمة.

وكان سكان الهند لا يلزمون مقاومتهم، ولا يتَّقون إلاّ بصدور الأفيال مصادمتهم حتىٰ علت ـ والحمد لله ـ بالهند دولة الإسلام، وزادت اليوم بسلطانها القائم علوّاً، وتناهت غلوّاً، فنامت عيون أهل هذه البلاد لهيبة ذلك السلطان لعدم هجوده، وسكنت ثعالبهم المخاتلة بزئير أسوده.

ولقد كان أهل هذه المملكة لا تزال تجوس أطراف الهند خيولهم، وتحتجف به الأموال والأولاد سيولهم حتىٰ نشأ بالهند سلطانه الآن، وشمَّر للحرب ذيله، وجاهد الأعداء في كل قطر.

واختلفت كلمة أهل هذه البلاد علىٰ ملوكها فانكفُّوا لبأس ذلك السلطان، واختلاف ذات البين، فكان ملوك هذه المملكة من أولاد جنكزخان وأتباعهم من المحافظة علىٰ ياسة جنكزخان والتعبدات المعهودة /٦٦/ من أهل هذا البيت من تعظيم الشمس والميل إلىٰ آراء البخشية[٢]، تابعين لما وجدوا عليه آباءهم يعضّون عليهم بالنواجذ مثل تمسك القان الكبير، ومن في مملكته بها بخلاف الفخذين الآخرين ببلاد خوارزم والقبجاق وأهل مملكة إيران؛ وإنْ كان الملوك الأربعة من أولاد جنكزخان ومن نبعته نبعوا، ومن أفقه طلعوا؛ لكنَّ بهذه المملكة والخطا أشدّ بياسته تمسكاً، ولطريقته اتباعاً، وهما مع هذا أعدل بني أبيهما حكماً، وأنشرهما له في بلادهما ورعاياهما.

---

(١) مسعود بن محمود الغزنوي حكم سنة ٤٢٢هـ بعد حبس أخيه محمد، ولم يستطع أن يواجه السلاجقة والغوريين ففر إلى الهند، ولكنه قتل على يد جماعة من أتباع ابن أخيه أحمد «روضة الصفا ١٦٠ـ ١٦٤».

(٢) البخشية: كانت ديانة المغول الشامانية، وهي عبادة الخان الأعظم ابن الإله المعبود «فتوحات هولاكو ٥ـ ٦» ولفظ بخشي من السنسكريتيت Bhikkshu وهو لقب يطلق في الأصل على الرهبان البوذيين «تركستان ٥٥٥».

وقد قدمنا التنبيه: على أنَّ رعايا هذه المملكة وقرارية أهلها من قدماء الإسلام السابقين إليه. وكانوا مع كفرهم ملوكهم في جانب لا تتطرف إليهم أذية في دين ولا حال ولا مال؛ فلما آل الملك إلىٰ ترماشيرين[1] ـ كما ذكرنا ـ دان للإسلام وأظهرَهُ في بلاده، ونشره في خافقي ملكه، واتبع الأحكام الشرعية، واقتدىٰ بها، وأكرم التجار الواردين عليه من كل صوب. وكانت قبله الطرقات لا تفتح لتجّار مصر والشام إليها، ولا يهمّ مضطرب في الأرض منهم بالمرور عليها؛ فلمّا ملك ترماشيرين كثر قصد التجار له، وعادوا شاكرين منه حتىٰ صارت بلاده لهم طريقاً قاصداً ومنهجاً مسلوكاً.

حدَّثني الصدر بدر الدين حسن الأسعردي: كان ترماشيرين يعامل به التجّار والواردين عليه من الإكرام ومزيد الإحسان، وأخذ قلوبهم بكل إمكان.

قال صاحب كتاب صفة أشكال الأرض ومقدارها[2]: «ما وراء النهر من أخصب الأقاليم منزلة وأنزهها وأكثرها خيراً، وأهلها يرجعون إلىٰ رغبة في الخير، واستجابة لمن دعاهم إليه مع قلَّة غائلة، وسلامة ناجية، وسماحة بما ملكت أيديهم مع شدّة شوكة ومنعةٍ وبأس ونجدة وعدة وعِدّة وآلة وكراع وبسالة وعلم وصلاح. فأمّا الخصب [بها] فليس من إقليم إلاّ يقحط أهله مراراً قبل أن يقحط ما وراء النهر /٦٧/ مرة واحدةٍ، ثم إن أُصيبوا ببردٍ أو بحرٍّ أو بآفة تأتي علىٰ زروعهم وغلاتهم ففي فضل ما يسلم في عروض بلادهم ما يقوم بأودهم، حتىٰ يستغنوا به عن شيء ينقلَ إليهم من غير بلدهم، وليس بما وراء النهر مكان يخلو من مدن أو قرىٰ ومراع لسوائمهم[3]، وليس شيء لا بُدَّ للناس [منه] إلاّ وعندهم منه ما يقيم به أودهم، ويفضل عنهم لغيرهم؛ فأمّا طعامهم في السَّعة والكثرة فعلىٰ ما ذكرناه.

---

(١) وهو السلطان المعظم علاء الدين طرمشيرين «ابن بطوطة ٢٤٦» وهو ترمشيرين بن دوا بن براق بن أسن دوا بن موتكن بن جغتاي بن جنكيزخان، حكم خانية جغتاي ما بين سنة ١٣٢٦ـ ١٣٣٤م.

(٢) وهو كتاب «صورة الأرض» نشرته دار مكتبة الحياة ـ بيروت [دت].

لابن حوقل، محمد بن حوقل البغدادي الموصلي النصيبيني، أبو القاسم، رحّالة من علماء البلدان، كان تاجراً، رحل من بغداد سنة ٣٣١هـ ودخل المغرب وصقلية، وجاب بلاد الأندلس وغيرها .

ويقال: كان عيناً للفاطميين. له: «المسالك والممالك، وقد طبع باسم صورة الأرض» المذكور أعلاه، توفي بعد سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م .

ترجمته في: دائرة المعارف الإسلامية ١/ ١٤٥، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ٣٩ـ ٤٢، الأعلام ٦/ ١١١.

(٣) السوائم: مفردها سائمة وهي كل إبل أو ماشية ترسل للرعي ولا تعلف «المعجم الوسيط ١/ ٤٨٣».

وأما مياههم فإنَّها أعذب المياه وأبردها وأخفّها، قد عمّت جبالها وضواحيها ومدنها إلىٰ التمكن من الجمد في جميع أقطارها، والثلوج من جميع نواحيها، وأمّا الدواب ففيها من النتاج ما فيه كفايتهم.

ولهم من نتاج الغنم الكثير، والسائمة المفرطة، وكذلك الملبوس فإنَّ لهم من الصوف والقزّ(١) وطرائف البز(٢).

وببلادهم من المعادن وخصوصاً الزئبق الذي لا يقاربه في الغزارة والكثرة معدن.

وأمّا فواكههم فإنَّك إذا تبطنت الصغد وآشروسنة وفرغانة والشاش رأيت من فواكههم ما يزيد علىٰ سائر الآفاق حتىٰ ترعاها دوابهم، ويجلب إليها من محاسن الأشياء وطرف البلاد ما يتنافس الملوك فيه.

وأما سماحتهم فإنَّ الناس في ما وراء النهر كأنهم في دار واحدة، ما ينزل أحدٌ بأحدٍ إلاّ كانه رجل دخل دار نفسه، لا يجد المضيّف من طارق يطرقه كراهية؛ بل يستفرغ جهده في إقامة أوده من غير معرفةٍ تقدَّمت، ولا توقع لمكافأة بل اعتقاد السماحة بأموالهم؛ وهم في كل امرىءٍ علىٰ قدره فيما ملكت يده. وحسبك أنك لا ترىٰ صاحب ضيعة يستقلّ بمؤنته إلاّ كانت همّته اقتناء قصر فسيح ومنزل للأضياف، فتراه [عامة] نهاره في إعداد ما يصلح لمن يطرقه، وهو متشوق إلىٰ وارد عليه ليكرمه؛ فإذا حلّ بأهل ناحية طارق تنافسوا فيه.

وهم فيما بينهم يتبارون في مثل هذا الشأن حتىٰ يجحف بأموالهم كما يتبارىٰ سائر الناس في الجمع والمكاثرة والمال.

قال: ولقد شهدت /٦٨/ آثار منزل بالصغد قد ضربت الأوتاد علىٰ باب داره بخيول الضيفان إنَّ ما بها مكث لا يغلق ما يزيد علىٰ مائة سنة لا يمنع من نزولها طارق؛ وإنَّما نزل به ليلاً علىٰ بغتة المائة والمائتان. والأكثر من الناس بدوابهم وحشمهم من طعامهم ودثارهم وعلف دوابهم ما يكفيهم من غير أن يتكلف صاحب المنزل أمراً بذلك، أو يتجشم عياله وأمه مع البشاشة بأضيافه لعلم سروره بهم كل من شهده.

قال: وترىٰ الغالب علىٰ أهل المال والثروة صرف أموالهم علىٰ خاصة أنفسهم في الملاهي وما لا يرضي الله تعالىٰ، والمنافسات فيما بينهم.

---

(١) القز: وهو الخز ويعني الحرير الخام.

(٢) البز: نوع من الثياب «المعجم الوسيط ١/ ٥٦».

والغالب علىٰ أهل الثروة والمال في ما وراء النهر صرف أموالهم في عمل المدارس وبناء الرباطات وعمارة الطرق والأوقاف علىٰ سُبُل الجهاد، ووجوه الخير، وعقد القناطر، إلاّ القليل من ذوي البطالة. وليس من بلدٍ ولا سبيل مطروق، ولا قرية آهلة إلاّ وفيها من الرباطات(١) ما يفضل عمن ينزل به.

قال: وبلغني أَنَّ بما وراء النهر زيادة علىٰ عشرة آلاف رباط، وفي كثير منها إذا ترك النازل أطعم وعلّق علىٰ دابته.

قال: وقلَّ ما رأيت خاناً(٢) أو طرف سكّة أو محلّة أو مجمع ناس [إلى حائط] بسمرقند في المدينة وظاهرها إلاّ وبه ماء مسبّل بجمد.

قال: وحدّثني من له خبرة: إنَّ بسمرقند وظواهرها ما يزيد علىٰ ألفي مكان يسقىٰ فيها ماء الجمد مسبل عليه الوقوف من بين سقاية مبنية وحباب نحاس منصوبة وقلال خزف مثبتة في الحيطان.

وأما بأسهم فمشهور مستفيض؛ وفي بعض الأخبار أَنَّ المعتصم سأل عبد الله(٣) أو كتب إليه يسأله عن من يمكنه حشده من خراسان وما وراء النهر؛ فأنفذ إلىٰ نوح بن أسد بن سامان(٤)، فكتب إليه: أن ثمَّ ثلاثمائة ألف قرية إذا خرج من كل قرية فارس

---

(١) مفرده رباط وهو ملجأ الفقراء من المتصوفة «المعجم الوسيط ١/ ٣٣٥».

(٢) الخان مكان فسيح خاص لنزول التجار، وهو مكون من طابقين، طابق لنزول الدواب والثاني لإقامة التجار «انظر: فرهنگ رازي ٢٦٠» والخان: الفندق «المعجم الوسيط ١/ ٢٧٢».

(٣) عبد الله بن طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق الخزاعي، بالولاء، أبو العباس: أمير خراسان، ومن أشهر الولاة في العصر العباسي. أصله من «باذغيس» بخراسان، وكان جده الأعلى «زريق» من موالي طلحة بن عبد الله (المعروف بطلحة الطلحات) ولد سنة ١٨٢هـ/ ٩٧٨م. وولي صاحب الترجمة إمرة الشم، مدة ونقل إلى الدينور. ثم ولاه المأمون خراسان، وظهرت كفاءته فكانت له طبرستان وكرمان وخراسان والريّ والسواد وما يتصل بتلك الأطراف. واستمر إلى أن توفي بنيسابور (وقيل: بمرو) سنة ٢٣٠هـ/ ٨٤٤م وللمؤرخين إعجاب بأعماله وثناء عليه، قال ابن الأثير: كان عبد الله من أكثر الناس بذلاً للمال، مع علم ومعرفة وتجربة، وللشعراء فيه مراثٍ كثيرة، وقال ابن خلكان: كان عبد الله سيداً نبيلاً عالي الهمة شهماً، وكان المأمون كثير الاعتماد عليه. وقال الذهبي في دول الاسلام: كان عبد الله من كبار الملوك. وقال الشابشتي: كان المأمون تبنّاه وربّاه.

ترجمته في: ابن دقماق ٤/ ٦٥، المحبر ٣٧٦، ابن الأثير ٧/ ٥، الطبري ١١/ ١٣، وفيات الأعيان ١/ ٢٦٠، تاريخ بغداد ٩/ ٤٨٣، الولاة والقضاة ١٨٠، البستاني ١/ ٥٥٩، الديارات ٨٦ـ ٩١، التاج ٨/ ٢، الأعلام ٤/ ٩٣.

(٤) نوح بن أسد بن سامان: صاحب سمرقند. وليها في أيام المأمون العباسي، سنة ٢٠٤هـ. ثم صحب المأمون في إحدى زياراته لخراسان، وعاد معه إلى بغداد، فلزم خدمته إلى أن ولاه ما وراء النهر (سنة =

وراجل لم يبن [على] أهلها فقدهم»[(١)].

قلت: ولقد حدّثني الصدر مجد الملك يوسف بن زاذان /٦٩/ البخاري: أَنه يوجد عند آحاد العامة من عشرين دابة إلىٰ خمسمائة دابة لاطفة عليها في إقتنائها لكثرة الماء والمرعىٰ.

قال: وهم أهل طاعة لسلاطينهم، وانقياد لأمرائهم، حتىٰ إنَّ المتولي لأمورهم يتصرف في أموالهم وأمورهم وسائر أحوالهم تصرف المالك في ملكه، والمستحقّ في حقّه منبسطاً في ذلك ماداً يده لا هو يتخشىٰ، ولا صاحب المال والحال يتشكّىٰ؛ كلاهما طيب القلب، قرير العين، راضٍ بصاحبه.

حدَّثني الشريف السمرقندي: أَنَّ أهل هذه البلاد في الغالب لهم بواعث همم علىٰ طلب العلم والمظاهرة علىٰ الحقّ، والمضاهاة في الخلال الحميدة إلاّ من قلّ، وقليل ما هم.

وقد ذكر علي بن مشرف[(٢)] في كتاب ألفه باسم الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ ـ صاحب الموصل[(٣)] ـ ذكر فيه ما وراء النهر، فقال: وهي في الدنيا أنموذج الجنة في الآخرة، لا يحمل المسافر فيها ماءً ولا زاداً، ولا يحتاج رفيقاً ولا يستشكل طريقاً، مكان فاتك وناسك ورد إليها قفل تجّار مات منهم واحد له بضائع جليلة وأموال، ولم يكن ثم له وارث، فاحتاط نواب الديوان علىٰ ماله، وبلغ هذا سلطان الناحية فأنكر غاية الإنكار، فقال: ما لنا نحن والأموال وإلاّ فهم أحقّ برفيقهم وأولىٰ بماله، ثم طلب التجّار وأمرهم بتسليمه فامتنعوا، وقالوا: هذا رجل لا وارث له منّا، ولا في

= ٢٣٧) تابعاً لبني طاهر. فأقام إلى أن توفي فيها نحو سنة ٢٤٥هـ/ نحو ٨٦٠م. وخلفه أخوه «أحمد بن أسد».

وهو أحد أبناء أسد بن سامان مؤسس الدولة السامانية.

ترجمته في: النجوم الزاهرة ٣/ ٨٣ وحمزة الأصفهاني ١٥٠، ودائرة المعارف الإسلامية ١١/ ٧٧، وابن خلدون ٤/ ٣٣٣ الأعلام ٨/ ٥٠.

(١) صورة الأرض ٣٨٤ـ ٣٨٧.

(٢) علي بن مشرف: هو علاء الدين، أبو الحسن، علي بن مشرف المارديني الشافعي الأديب، كان في حدود سنة ٦٢٠هـ، له: إثبات الدليل في صفات الخليل وهو ديوان شعر «هدية العارفين ١/ ٧٠٥».

(٣) بدر الدين لؤلؤ: صاحب الموصل في عهد أرسلان شاه بن مسعود ثم في عهد ولده القاهر، ولما توفي القاهر سنة ٦١٥هـ، انفرد بالسلطة ودام حكمه ثلاثة وأربعين عاماً، وقد صالح هولاكو، ودخل في طاعته وحمل إليه الأموال في بغداد، توفي سنة ٦٥٦هـ.

ترجمته في: أبي الفداء ٣/ ١٩٨ـ تاريخ ابن خلدون ٥/ ١١٥١ـ دائرة المعارف للبستاني ٥/ ٢٤١ـ ٢٤٣.

بلده، ولا نعرف له وارثاً بالجملة، ولا نعلم [من] يرثه إلاّ بيت المال، وتجارته تقارب ثمانمائة ألف درهم وقد مات منّا وأنتم أحقّ به فغضب، وقال: لا والله نحن ما نأخذ إلاّ ميراث من مات من بلادنا ولا وارث له؛ وأما هذا فملك بلاده أحقّ بميراثه، خذوا المال فاحملوه إليه، قال: فأخذوه معهم إلىٰ توريز وأعطوه لصاحبها؛ لأن الرجل كان منها.

ورأيت في كتاب آخر سمّاهُ مؤلّفه «تفضيل الرحلة» ألّفه لبدر الدين لؤلؤ أيضاً، ولم يسم مؤلّفه نفسه، قال: /٧٠/ وعبر في طريقنا إلىٰ خان بالق ببلاد كثيرة أجلُّها ما وراء النهر، وهي مما تنفذ العبارة دونها ما شئت من حسن وإحسان، ومورد ولدان، وفاكهة صنوان وغير صنوان[1]، وماء كما قال عن برد إحسان، ملك كبير وخير كثير، وأقوام بهم يلذ العيش، ويليق عند ثباتهم الطيش، قوم كرام لا يخف لهم أطواد أحلام، وفي بلادهم معادن أشرفها الرجال ومنها اللعل الأحمر، واللازورد الأزرق، وما هو من هذه الأمثال.

قلت: وبالغ في وصفها؛ وهي كذلك، وأمّا ما أشار إليه من المعادن فيها فهو بذخشان؛ وهي مع مملكة ما وراء النهر وليست حقيقة منه ولا من تركستان، بل هو إقليم قائم بدواته معدود للمجاورة مع أخواته قد حوىٰ كل بديع من حيوانه ومعدنه ونباته.

قلت: ويلغني ممن أثق به منهم: أنَّ من يسق ملوكهم إنَّه إذ راح من عساكرهم ألف فارس إلىٰ مكان، وقتل منهم تسعمائة وتسع وتسعون فارساً، وسلم ذلك الفارس الواحد، قتل ذلك الواحد لكونه لم يقتل مع البقية، اللهم إلاّ إن حصل النصر لمن سلم.

وملوك هذه المملكة من بني جنكزخان، وقد قدّمنا القول: أنَّ أحوال بني جنكزخان متقاربة في ممالكهم لمشيهم علىٰ ياسة جنكزخان، ولا تكاد تمتاز أهل مملكة من ممالكهم عن الآخرين إلاّ فيما قلّ ومعاملة ممالك قسمي إيران هؤلاء وأهل خوارزم والقبجاق ومعظم إيران بالدينار الرائج ـ وهو ستة دراهم ـ وفي بعض هذه بالخراساني؛ وهو أربعة دراهم. ودارهم هذه المملكة خاصة من فضة خالصة غير

---

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الرعد: الآية ٤].

مغشوشة؛ فهي وإن قلَّ وزنها عن الدرهم معاملة مصر والشام فإنها تجوز مثل جوازها لخلوص هذه الدراهم وغش تلك لأن...[١]

ثم إنَّ تلك الدراهم نوعان؛ درهم بثمانية فلوس، ودرهم بأربعة فلوس. ويوجد بهذه المملكة من الحبوب والقمح والشعير والحمص والأرز والدخن وسائر الحبوب خلا الفول، وأسعارها جميعاً رخية؛ / ٧١/ فإذا غلت فيها الأسعار أغلىٰ الغلو كانت مثل أرخص الرخص بمصر والشام وبها من الفواكه المنوعة الثمار؛ العنب، والتين، والرمان، والتفاح، والكمثرىٰ، والسفرجل، والخوخ، والعين، والمشمش، والتوت، والبطيخ الأصفر، والبطيخ الأخضر، والبطيخ الأصفر بهذه البلاد نهاية، والبخاري والسمرقندي أحسن أنواعه، وإن كان الخوارزمي يزيد عليه في الحسن واللذاذة علىٰ ما نذكره في مكانه.

وبها الخيار والقثاء واللفت والجزر والكرنب والباذنجان والقرع وسائر أنواع البقول، وأنواع الرياحين من الورد والنرجس والآس واللينوفر والحبق والبنفسج، وإنْ قل.

ولا يوجد بها الأترج والنارنج والليمون والليم ولا الموز ولا قصب السكر ولا القلقاس ولا الملوخيا؛ فإنها من ذلك عارية الحدائق خالية الدوح إلاّ يأتي من المحمضات إليها مجلوباً.

فأما الدواب: الخيل والبغال والحمير والإبل البخت[٢] والبقر والغنم، وأقلّها البغال والحمر، وأكثرها الأغنام؛ فإنَّها في هذه البلاد كما يقال أعوزتها الزرايب وبالمالق[٣] وما يليها يملأ الفضاء ويسدّ عين الشمس.

وهي بلاد قريبة من الاعتدال لا تفرط في حرّ ولا برد ذات عيون دافقة، وأنهار سارحة، ومراع متسعة مريعة، وخصب مفرط؛ يزكو حيوانها ونباتها ومعادنها.

قال لي الشيخان صدر الدين محمد ومحمد الخنديان الصوفيان بالخانقاه القوصية: إنّه لولا موتان يقع في خيل المالق وأغنامها في بعض السنوات لما أبتيعت ولا يوجد من يشتريها لكثرتها وبركات نتاجها.

قالا: ومدينة بدخشان بها معدن اللعل البدخشاني؛ وهو المسمّىٰ في البلاد

---

(١) بياض بالأصل.

(٢) الإبل البخت: هي الإبل الخراسانية واحدها بختي. وجمعها بخاتي وبخات «المعجم الوسيط ١/ ٤٢».

(٣) المالق أو الماليق مدينة كانت قرب كولجه الحالية على شاطىء نهر إيلي الذي يصب في بحيرة بالكاش «انظر: حاشية بلوشيه على جامع التواريخ ٤١٠ـ ٤١١».

بالبلخش، ومعدن اللازورد الفائق؛ وهما في جبل بها يحفر عليهما في معادنهما فيوجد اللازورد بسهولة ولا يوجد اللعل إلاّ بتعب كثير وإنفاق زائد وقد لا يوجد بعد التعب الشديد والإنفاق الكبير؛ ولهذا عزّ وجوده، وغلت قيمته فكثر طالبه، والتقت الأعناق إلى التحلي به.

/ ٧٢/ قلتُ: وأنفس قطعة وصلت إلىٰ بلادنا من البلخش قطعة وصلت مع تاجر في الأيام العادلية الزينية، وأحضرت إلىٰ العادل كتبغا وهو بدمشق إذ ذاك[١].

قال لي أحمد ناظر الصاغة: أحضرني الصاحب شهاب الدين أحمد الحنفي ومن يعرف الجوهر، وجماعة من الأكابر منهم نجم الدين الجوهري وأرانا تلك القطعة فرأيناها قطعة جليلة مثلثة علىٰ هيأة المشط زنتها خمسون درهماً؛ وهي نهاية في الحسن وغاية في الجودة، كاد يضيء إليها المكان، وسألنا عن قيمتها كم تساوي ؟ فأشرنا كلنا إلىٰ نجم الدين الجوهري؛ لأنّا لم يمكنا أن نتكلم بشيء قبله، فقال له: كم قيمة هذه القطعة يا نجم الدين ؟ فقال: ما يعرف قيمة هذه إلاّ من ملك مثلها، أو رأىٰ مثلها، وأنا وأنت والسلطان وجميع من حضر ما رأىٰ مثلها ولا قريباً منها فكيف نعرف قيمتها ؟ فاستحسن هو وكل من حضر قوله، وصالحوا صاحبها.

وسنذكر جملة مما هي عليه قواعد هذه البلاد؛ وأول ما نبدأ بقرشا قاعدة الملك بها وإنْ لم تكن شيئاً مذكوراً. ولها شيء علىٰ اختلاف حالات الزمان شهرة تذكر، ولكن لما شملتها به في دولة ملوكها إلاّ من نظرات السعادة لنسبتها إلىٰ أنَّها سكن لهم، وإن كانوا ليسوا بسكان جدار ولا متدبرين في ديار؛ ولكن لاسم وسمت به وسمت به.

وأما بخارىٰ

فأمّ أقاليم ويمُّ تقاسيم، وقد كانت للدولة السامانية قطب نجومهم السائرة، ومركز أفلاكهم الدائرة. وكانت تلك الممالك كلها تبعاً له. وكان السامان بها وإن لم يتسمّوا بالسلطنة، ولا وسموا بغير الإمرة كالخلفاء، ولا يباشر الأمور إلاّ نوابهم ولا يخرج إلىٰ الحروب إلاّ قوادهم، ودست[٢] قواعد دولتهم، وأذعنت لهم ملوك الأقطار، ولم تكن ملوك بني بويه[٣] علىٰ عظمة سلطانهم إلاّ كالأتباع لهم يحملون

---

(١) العادل كتبغا هو أنوشيروان بن طغا تيمور، حكم ما بين ٧٤٤ـ/ ٧٥٦هـ «جامع التواريخ ٢/ ١٤».

(٢) دست: مقر حكم السلاطين. «المعجم الوسيط ١/ ٢٩٢».

(٣) بنو بويه: ينسبون إلى بهرام گور، قيل إنهم من نسب ديلم بن ضبة، وذكرهم ابن مسكويه في تجارب =

إليهم الحمول والقماش المطرّز بأسمائهم وأسماء أرباب دولتهم كالوزير والحاجب.

وحكىٰ أبو نصر العتبي[(١)] /٧٣/ : وكتب نوح بن [أسد] الساماني[(٢)] إلىٰ ابن بويه كتاباً يهدّده فيه؛ فكتب جوابه: ﴿يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[(٣)].

ثم لم يرسل هذا الجواب خوفاً لما وقر في صدورهم من مهابة آل سامان إلىٰ أن قضىٰ الله فيهم بأمره، وولّىٰ زمانهم وجاء زمان سبكتكين علىٰ أثره.

قال العتبي: وحمدت تلك العلة.

قال صاحب كتاب «أشكال الأرض»[(٤)]: ومقدارها: «لم أرَ ولم أسمع بظاهر بلد أحسن من بخارىٰ؛ لأنك إذا علوت لم يقع نظرك من جميع النواحي إلاّ علىٰ خضرة تتصل خضرتها بلون السماء؛ فكأنَّ السماء مكبّة زرقاء علىٰ بساط أخضر تلوح القصور في ما بين ذلك التراس التبتيّة والحجب الملطية، أو كالكواكب العلوية بياضاً ونوراً بين أراضٍ، وضياع مقسومة بالاستواء مهندمة كوجه المرآة بغاية الهندسة؛ وليس بما وراء النهر ولا غيرها من البلاد أحسن قياماً بالعمارة للضياع منهم مع كثرة متنزهات في سعة المسافة، وفسحة المساحة متصلة بعضد سمرقند»[(٥)].

قال: «ويحيط ببخارىٰ وقراها ومزارعها سور[(٦)] نظره اثنا عشر فرسخاً في مثلها

= الأمم: يزعمون إنهم أبناء يزدجرد وأكد ذلك صاحب الكامل في التاريخ، جدهم أبو شجاع بويه استولى أبناؤه على بلاد الديلم طبرستان وكيلان ومازندران والري وقزوين وهمدان وأصفهان، وسيطروا على الخليفة العباسي، واستمرت دولتهم حتى سنة ٤٨٧هـ «انظر: روضة الصفا ١٨١ وما بعدها، تجارب الأمم ٦/ ٢٧٩، ابن كثير ١١/ ١٧٣ وما بعدها، ابن الأثير ٧/ ٢٣١ وما بعدها» .

(١) أبو نصر العتبي: أبو نصر، محمد بن عبد الجبار العتبي: مؤرخ من الكتاب الشعراء، أصله من الري، نشأ في خراسان، وولي نيابتها، ثم استوطن نيسابور وانتهت إليه رياسة الإنشاء في خراسان والعراق، وناب عن شمس المعالي قابوس بن وشكمير في خراسان إلى أن توفي سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٦م. له كتاب «تاريخ اليميني» ألفه للسلطان محمود الغزنوي،و«لطائف الكتاب» في الأدب.
ترجمته في: «فرهنگ أدبيات فارسي ٢٣٩، يتيمة الدهر ٤/ ٢٨١ـ ٢٨٩، الذريعة ٣/ ٢٥٦، الأعلام ٦/ ١٨٤ـ ١٨٥.

(٢) يعده بياض في الأصل بمقدار سطر واحد، وبياض بمقدار ٣ أسطر في مقدمة الصفحة القادمة.

(٣) سورة هود: الآية ٣٢.

(٤) يقصد: صورة الأرض.

(٥) انظر: صورة الأرض ٣٩١.

(٦) انظر: أسوار القلعة وأبوابها في تاريخ بخارى للنرشخي، وتاريخ بخارى لغامبري ترجمته د.أحمد الساداتي.

كلّها عامرة ناضرة زاهرة.

ولبخارىٰ سبعة أبواب حديد؛ وهي باب المدينة، وباب بور، وباب حفرة، وباب الحديد، وباب قهندز[١]، وباب بني أسد[٢]، وباب بني سعد[٣].

ولقهندز هنا بابان أحدهما يعرف الريكستان[٤]، والأخرىٰ باب الجامع[٥] يشرع إلىٰ المسجد الجامع.

وعلىٰ الربض دروب؛ فمنها درب يخرج إلىٰ خراسان يعرف بدرب الميدان، ودرب يلي المشرق ويعرف بدرب إبراهيم، ويليه درب يعرف بالربعة، ويليه درب المردكسان[٦]، ويليه درب كلاباذ[٧]، ويليه درب الوفهار[٨]، ويليه درب سمرقند، ويليه درب / ٧٤/ بغاشلوز[٩]، ويليه درب الرامينية[١٠]، ويليه درب حدس[١١]، ويليه درب غشج[١٢].

وليس في مدينة بخارىٰ ولا قهندز[١٣] ماء جارٍ لارتفاعها، ومياهها من النهر الأعظم الجاري من سمرقند، ويتشعب من هذا النهر الأعظم في مدينة بخارى نهر يعرف بنهر فشيرديز[١٤] فيأخذ من نهر بخارىٰ ويجري في درب المردكسان علىٰ حدّ

(١) يقصد به كهن دز، وقد أوردها في كل المخطوط قهندز، وكهن دز تعني القلعة القديمة «فرهنگ رازي ٣٣١ ـ ٧٣٧».

(٢) بنو أسد وبنو سعد بطون من قبائل عربية الأصل، صحبت قتيبة بن مسلم الباهلي عند فتحه بخارى واستوطنت بجوار المدينة القديمة وبعضهم استقر بالمدينة.

(٣) يذكر الاصطخري أن أبوابها كانت أحد عشر باباً وهي: باب الميدان، إبراهيم، الريو، المردكشان، كلاباذ، النوبهار، سمرقند، فغاسكون، الراميثنة، حدشرون، غشج «المسالك والممالك ٣٠٦ وما يليها».

(٤) الريكستان في الغرب، وكان يسمى باب علف خروشان أوكاه فروشان (أي باعة العلف) «تاريخ بخارى نرشخى ٧/ ٢٢».

(٥) باب المسجد الجامع في الشرق-وأطلق عليه النرشخي باب غوريان.

(٦) المردكشان وهو باب سلخانه الحالي «تركستان ١٩٦».

(٧) كلاّباذ وهو باب كوله (قرشي). الحالي «تركستان ١٩٦».

(٨) وهو النوبهار وهو الآن باب مزار.

(٩) فغاسكون وهو باب إمام خاليا.

(١٠) الراميثنة وهو الآن باب أوغلان.

(١١) باب جدشرون وهو الآبن باب طليج.

(١٢) باب غشج وهو الآن باب شيركيران.

(١٣) القلاع القديمة.

(١٤) وهي منارة زر الكبرى كما ذكرها الاصطخري ص٣٠٧ وما يليها.

باب إبراهيم حتىٰ ينتهي إلىٰ باب البلعمي[١]، ويقع في نهر نوكندة[٢]، وعلىٰ هذا النهر نحو ألفي بستان وقصور وأراض كثيرة شهرتها منه.

ومن فم هذا النهر إلىٰ مغيضه نحو فرسخ ونهر يعرف بجوبار يكاد يأخذ من المذكور آنفاً في وسط المدينة بموضع يعرف بمسجد أحمد ويغيض بني كندة. وعلىٰ هذا النهر شرب بعض الربض ونحو ألف بستان.

ونهر يعرف بجوبار القوارير يأخذ من النهر المذكور، وبموضع يعرف بمسجد العارض فيسقي بعض الربض؛ وهو أغزر وأعمر الأراضي من نهر بكار.

ونهر بنو كندة يأخذ من النهر المذكور ومن المدينة عند رأس سكّة خنع فيسقي بعض الربض ويغيض في المفازة.

ويليه نهر الطاحونة يأخذ من النهر المذكور في المدينة بموضع يعرف بالنوبها[٣]، وعليه بيوت أهل الربض، ويدير أرحية كثيرة حتىٰ ينتهي إلىٰ بيكند[٤]، ومنه شرب أهل بيكند.

ونهر يعرف بنهر كشنة يأخذ من النهر في المدينة عند النوبهار، عليه شرب أهل النوبهار فيفضي إلىٰ حصون وضياع وبساتين حتىٰ يجاوز كشنة.

ونهر يعرف بنهر تاج يأخذ من النهر المعروف بالريكسان، ويسقي بعض الربض وينتهي إلىٰ قصر رباح؛ فيسقي نحو ألف بستان وقصوراً هناك وأراضي كثيرة دون البساتين.

ونهر الريكستان يأخذ من النهر المذكور يقرب إلىٰ الريكستان ومنه يشرب الريكستان وأهل القهندز ودار الإمارة حتىٰ ينتهي إلىٰ قصور جلال ديزه.

ونهر يأخذ من النهر المذكور بقرب قنطرة حمدونة تحت الأرض إلىٰ حياض بباب بني أسد، ويقع فضله في فارقين القهندز.

وهذه الأنهار طائفة ببخارىٰ وجنانها.

---

(١) باب الشيخ الجليل أبي الفضل، هذا هو اسمها ويقصد به أبا الفضل البلعمي وزير السامانيين المتوفى سنة ٣٢٩هـ «تركستان ١٩٩».

(٢) هو قناة نوكنده وتأخذ من القناة الرئيسية عند دار حمدونه وهي مصب لبقية القنوات.

(٣) النوبهار: موضع قديم كان به صنم، وبه معبد يعد من أعظم بيوت الأصنام في بلخ ببلاد خراسان والتي بناها منوجهر بن أيرج بن افريدون «آثار البلاد ٩/ ٤٧٦».

(٤) بيكند: اسم مدينة ببلاد ما وراء النهر قرب بخارى، وبيكند هنا قناة تأخذ من القناة الرئيسية وتصب في نوكنده.

ولها رساتق كثيرة ونواح نفيسة وأعمال جليلة وضياع ليس /٧٥/ مثلها لأهل بلد، وإن كان لأهل ناحية أو إقليم ما يضاهي بعضها فليس كهي علىٰ وفورها وكثرتها»[١].

«وجميع أبنية بخارىٰ علىٰ اشتباك البناء والتقدير في المساكن وارتفاع أراضي الأبنية فهي مُحصّنة بالقهندزات، وليس في داخل هذا الحائط جبل ولا مغارة ولا أرض عامرة.

وأقرب الجبال إليها جبل وزكر، ومنه حجارة أبنيتهم وفرش أرضهم، ومنه طين الأواني والكلس والجص، ولهم خارج المدينة ملاّحات.

ومحتطبهم من بساتينهم وما يحمل إليهم من المفاوز من الغضا والطرفاء.

وأراضي بخارىٰ كلها قريبة من الماء؛ لأنها مغيض ماء السغد؛ ولذلك لا تثبت الأشجار العالية بها مثل المركب والجوز وما أشبهها؛ وإذا كان من هذا الشجر شيء فهو قصير غير تام.

ومن عمارة بخارىٰ أنَّ الرجل ربما أقام علىٰ الجريب[٢] الواحد من الأرض فيكون فيه معاشه وكفافه هو وجماعة أهله.

ولبخارىٰ مدن في داخل حائطها وخارجه؛ فأمّا داخله فالطواويس[٣]، ومحلب، ومغركلس، وزبيدة، وحجارة[٤]؛ وهي كلها من داخل الحائط وكلها ذوات منابر ومن خارجه بيكند، وفرير، وكرمنينة، وجدمنكن، وجزعامكث، ومديا محدث[٥].

وجميع المدن التي داخل الحائط متقاربة في القدر والعمارة، ولجميعها قهندزات

---

(١) انظر: صورة الأرض ٣٩٨ـ ٤٠٠.

(٢) الجريب: مساحة من الأرض المزروعة تعادل عشرة آلاف متر مربع «فرهنگ رازي ١٩٦» وتعني المزرعة ومكيال مقداره أربعة أقفزة «المعجم الوسيط ١/ ١١٩، انظر: دائرة المعارف الإسلامية/ مادة (جريب)، وتاج العروس ١/ ١٧٩».

(٣) الطواويس على مسافة سبعة أو ثمانية فراسخ من بخارى، ولكنها داخل السور الذي يحيط ببخارى وضواحيها وقد أخذت أسمها منذ سنة ٩١هـ حين شاهد العرب الطواويس، وكان الاسم القديم لهذه الناحية أرفود «انظر: الاصطخري ٣١٣، المقدسي ٢٨١، الطبري ٢/ ١٢٣٠، معجم البلدان ١/ ٢٠٩».

(٤) وردت المدن التالية: زرمان، وربنجن، وحذيمتكن، وطواويس «انظر: الاصطخري ٣٣٤، ابن خرداذبة ٢٦، الطبري ٢/ ٥٢٩ النرشخي ١٠، معجم البلدان ٤/ ٢٦٨».

(٥) خراجر كرمينية، وخديمنكن، وجرغا نكث، ومذيا مجكث.

عامرة وأسواق جادة وبساتين كثيرة، سيما ما كان ببكند فإنَّ بها من الرباطات ما ليس ببلدان ما وراء النهر كرباط هوا وما يقاربه، ويقال: إنَّه كان بها ألف رباط، ولها سور عظيم حصين، ولها مسجد جامع قد تنوّق فيه وفي بنائه وزخرف محرابه، وليس بما وراء النهر أحسن زخرفة منه.

وفرير مدينة قريبة من جيحون؛ ولها قرى عامرة؛ وهي في نفسها حصينة مقصودة بفاخر المطاعم والمآكل الطيبة اللذيذة، وهي مدينة بقية الحفَّاظ قدوة أهل المشرق والمغرب أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري[1]، وكفىٰ به فخراً باقياً، وذكراً دائماً.

وأهل بخارىٰ يرجعون إلىٰ أدب وعلم وفقه وديانة وأمانة، وحسن سيرة، وجميل معاملة، وإفاضة خير، وبذل معروف، وسلامة /٧٦/ نية، ونقاء طوية.

ويتحدث أهل بخارىٰ علىٰ قديم الأيام بطريف من أحاديثهم؛ وهو أنَّهم يتفاوضون من غير خلاف.

إنَّ من بركة وقهندز أنه ما أخرج منها جنازة والٍ قطّ، ولا عقد فيها لواء ولا راية خرجت منها.

وكان أول من اتخذها داراً وجعلها قراراً من آل سامان أبو إبراهيم إسماعيل بن

---

(١) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البُخَاري، أبو عبد الله: حبر الإسلام، والحافظ لحديث رسول الله ﷺ، صاحب «الجامع الصحيح ـ ط» المعروف بصحيح البخاري، «والتاريخ ـ ط» أجزاء منه، و«الضعفاء ـ ط» في رجال الحديث، و«خلق أفعال العباد ـ ط» و«الأدب المفرد ـ ط». ولد في بخارى سنة ١٩٤هـ/ ٨١٠م، ونشأ يتيماً، وقام برحلة طويلة (سنة ٢١٠) في طلب الحديث، فزار خراسان والعراق ومصر والشام، وسمع من نحو ألف شيخ، وجمع نحو ست مئة ألف حديث اختار منها في صحيحه ما وثق برواته. وهو أول من وضع في الإسلام كتاباً على هذا النحو. وأقام في بخارى، فتعصب عليه جماعة ورموه بالتهم. فأخرج إلى خَرْتَنْك (من قرى سمرقند) فمات فيها سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م. ويعتبر كتابه في الحديث من طليعة الكتب الست المعول عليها، وهي: صحيح البخاري (صاحب الترجمة) وصحيح مسلم (٢٠١ـ ٢٦١هـ) وسنن أبي داود (٢٠٢ـ ٢٧٥هـ) وسنن الترمذي ٢٠٩ـ ٢٧٩هـ) وسنن ابن ماجه (٢٠٩ـ ٢٧٣هـ) وسنن النسائي (٢١٥ـ ٣٠٣هـ).
ترجمته في: تذكرة الحفاظ ٢/ ١٢٢ وتهذيب التهذيب ٩/ ٤٧ الوفيات ١/ ٤٥٥ وتاريخ بغداد ٢/ ٤ـ ٣٦ وتهذيب الأسماء واللغات، القسم الأول من الجزء الأول ٦٧ والسبكي ٢/ ٢ والخميس ٢/ ٣٤٢ وآداب اللغة ٢/ ٢١٠ ودائرة المعارف الإسلامية ٣/ ٤١٩ـ ٤٢٦ وطبقات الحنابلة ١/ ٢٧١ـ ٢٧٩ ومعجم المطبوعات ٥٣٤، وانظر: هدى الساري مقدمة فتح البخاري ٢/ ١٩٣ـ ٢٠٦ وفي مجلة «العرب» الباكستانية (رمضان ١٣٧٩) أن قبر البخاري اندثر وبني مكانه قبر آخر، وهو في قرية تعرف الآن بقرية «خواجه صاحب» على ٣٠ كيلو متراً من سمرقند، في طريق بخارى، الأعلام ٦/ ٣٤.

أحمد[١]؛ فإنَّه جاءته ولاية خراسان وهو مقيم بها، فنزل بساحتها واتخذها قاعدة له، ثم توالىٰ عليها بنوه إلىٰ آخر أيامهم، وانقضاء أحكامهم علىٰ ما قدمنا.

وأما سمرقند فإنها مدينة مرتفعة ولها قهندز، وربض يشرف الناظر بها علىٰ شجر أخضر وقصور تزهر، وأنهار تطرد، وعمارة تتقد، لا يقع الطرف بها على مكان إلاّ ملأه، ولا علىٰ بستان إلاّ استحسنه»[٢].

قال صاحب كتاب أشكال الأرض: «وقد قصّصت أشكال السرو فشهت بطرائف الحيوان من الأفيلة والإبل والبقر والوحوش المقبلة بعضها علىٰ بعض كالمتناجية؛ هذا إلىٰ أنها تُطرد، وبرك مبخورة ظريفة المعاني وقصور مستشرفات»[٣].

قال مسلم بن قتيبة: لما أشرفت علىٰ سمرقند: شبهوها ، فلم يأتوا بشيء، فقال: كأنها السماء في الخضرة، وكأنَّ قصورها النجوم الزاهرة، وكأنَّ جداولها أنهار المجرّة فاستحسنوا هذا التشبيه.

«وبسمرقند حصن، ولها أربعة أبواب؛ باب مما يلي المشرق ويعرف بباب الصين مرتفع عن وجه الأرض، ينزل إليه بدرج كثيرة، مطلّ علىٰ وادي السغد؛ وباب مما يلي المغرب يعرف بباب النوبهار؛ وهو علىٰ نشزٍ من الأرض؛ وباب مما يلي الشمال يعرف بباب بخارىٰ، وباب مما يلي الجنوب يعرف بباب كش»[٤].

وفي سمرقند ما في المدن العظام من الأسواق الحسان والحمامات والخانات[٥]

---

(١) إسماعيل بن أحمد بن أسد بن سامان، أبو إبراهيم: ثاني أمراء الدولة السامانية في ما وراء النهر (Transoxiane) ولد بفرغانة سنة ٢٣٤هـ/ ٨٤٧م. وولي بعد وفاة أخيه (نصر بن أحمد) وأقره المعتضد العباسي في ولايته سنة ٢٧٩هـ. ثم ولاه خراسان مضافة إلى ما وراء النهر. وكان موفقاً في قمع الثورات، حازماً في سياسته، وثق به المعتضد واعتمد عليه المكتفي، وصفا له جو الإمارة في خراسان وما وراء النهر إلى أن توفي في بخارى سنة ٢٩٥هـ/ ٩٠٧م. وكان يلقب بالأمير الماضي. وله اشتغال بالحديث. وجمع أحد الفضلاء «شمائله» في كتاب.

ترجمته في: ابن خلدون ٤/ ٣٣٤ وسير أعلام النبلاء ١٤/ ١٥٤ـ ١٥٥ رقم ٩٠، واللباب ١/ ٥٢٣، وابن الأثير ٨/ ٢ والعتبي ١/ ٣٤٨ وهو يعتبر إسماعيل هذا أول رجال الدولة السامانية، وشذرات الذهب ٢/ ٢١٩، وتاريخ سني ملوك الأرض ١٥٢، الأعلام ١/ ٣٠٨.

(٢) انظر: صورة الأرض ٤٠٢ـ ٤٠٥.

(٣) انظر: صورة الأرض ٤٠٥ـ ٤٠٦.

(٤) ذكر الاصطخري أن لها أربعة أبواب هي: باب الصين، وباب النوبهار أو الحديد، وباب بخارى أو أشروسنة، وباب كش أو الباب الكبير «المسالك والممالك ٣١٦ـ ٣١٧، ابن حوقل ٣٦٥ـ ٣٦٦، المقدسي ٣٧٨ـ ٣٧٩».

(٥) الخانات: مفردها خان، وهو بناء لإقامة التجار يدعونه أحياناً الفندق كما عند ابن بطوطة.

والمساكن، ولها مياه جارية تدخل إليها في نهر، وقد بني عليه مسناة عالية من الأرض، وفي بعض المواضع بل في وسط المشرق من حجارة يجري عليها الماء من موضع يُعرف بالصفارين[١] إلىٰ أن يدخل باب المدينة خندق عظيم مستقل، فاحتيج إلىٰ مسناة في هذا الخندق /٧٧/ حتىٰ يجري الماء إلىٰ المدينة.

وهو نهر قديم جاهلي في وسط أسواقها بموضع يعرف برأس الطاق من أعظم موضع بسمرقند؛ ولهذا النهر علىٰ حاشية مستغلات موقوفة علىٰ مرماته ومصالحه وعليه الحفظة صيفاً وشتاءً الربض بها أبواب تغلق.

ويزعم بعض الناس: أنَّ تبعاً المسمّىٰ أسعد أبا كرب ابتنىٰ مدينة سمرقند، وأنَّ ذا القرنين أتمَّ بعض بنائها[٢].

قال صاحب كتاب أشكال الأرض: «وأخبرني أبو بكر الدمشقي، قال: رأيت علىٰ بابها الكبير صفيحة حديد وعليها كتابة زعم أهلها أنها بالحميرية[٣]، وأنَّهم يتوارثون ذلك إنَّها من صنعة تُبّع[٤]، وبعض الكتابة: إنَّ من صنعاء إلىٰ سمرقند ألف فرسخ.

قال: ثم وقعت الفتنة بسمرقند وأُحرق الباب الذي كانت عليه هذه الصفيحة وأعاده أبو المظفر محمد بن لقمان بن نصر بن أحمد بن أسد[٥] حديداً كما كان من حديد، ويعرف بالصفيحة.

قال بعض الأطباء: وتربة سمرقند صحيحة يابسة لولا كثرة البخارات من المياه الجارية في سكنهم ودورهم وكثرة أشجار الخلاف عندهم لأضرَّ بهم فرط يبسها وبناؤها من طين وخشب.

وكان أهلها في إظهار المروءات أكثر ممن سواهم، والبلد كلّه طرقه وسككه وأسواقه وأزقته مفروشة بالحجارة.

ومياههم من وادي السغد، وهذا الوادي من بلاد البتم علىٰ ظهر الصاغانيات وله

---

(١) الصفّارون: جمع مفرده صفّار بفتح الصاد وتشديد الفاء بمعنى صانع النحاس «فرهنگ رازي ٥٦٢».

(٢) انظر: صورة الأرض ٤٠٦ـ ٤٠٧.

(٣) الحميرية: لغة أهل اليمن، وحمير دولة ذات حضارة قامت في اليمن عقب دولة معين وقبيل دولة سبأ، وينسب إليها الخط واللغة الحميرية.

(٤) تُبّع: لقب أعاظم ملوك اليمن وجمعه تبابعة «المعجم الوسيط ١/ ٨٥» وهي مثل شاه، ملك، وقيصر، وكسرى، وخان.

(٥) ابن عم الأمير نصر بن أحمد بن إسماعيل الساماني المتوفى ٣٣١هـ «روضة الصفا ٨٩».

مجمع ماء يعرف بمحي مثل بحيرة. حواليها القرىٰ. ومن مبدأ هذا الوادي إلىٰ أن ينتهي إلىٰ سمرقند أزيد من عشرين فرسخاً، فإذا جاوز سمرقند بنحو مرحلتين انشعب منه نهر يعرف بقيّ. وليس بالصغد نهر أوفر عمارة منه، ولا أعظم قصوراً وقرىٰ وماشية.

ونهر قي هو ثلث السغد ويتشعب من هذا النهر المسمّىٰ قيّ أنهار كثيرة، ويسقي زيادة علىٰ مرحلتين، ثم يتشعب من وادي الصغد أنهار كثيرة إلىٰ حدّ بخارىٰ حيث تأخذ منه أنهار بخارىٰ المذكورة ستة مشتبكة القرىٰ والبساتين والأنهار؛ /٧٨/ ولو اطلع مطلع من الجبل علىٰ وادي الصغد لرأىٰ خضرةً متصلةً لا يرىٰ في أضعافها غير قهندز أبيض أو قصر سامق مشيد؛ فأمّا فرجه منقطعة عن الخضرة أو أرض بائرة أو غامرة، فقل ما ترى»[1].

قال صاحب كتاب أشكال الأرض: «ومن حدّ بخارى إلىٰ وادي السغد يميناً وشمالاً ضياع تتصل إلىٰ جبال المتم لا تنقطع خضرتها، ومقدارها في المسافة ثمانية أيام، مشتبكة البساتين، والخضرة والرياض محفوفة بالأنهار الجارية والأحواض في صدور رياضها ومبانيها مخضرة الأشجار والزروع ممتدّة علىٰ جانبي واديها من وراء الخضرة، ومن وراء الخضرة علىٰ جانبي النهر مزارعها وقصورها والقهندزات من كل مدينة ومدينة من كل مدينة، ومدينة تبصر في أضعاف خضرتها كأنها ثوب ديباج أخضر قد شهر بمجاري مياهها وزينت بين صيف قصورها في ارعىٰ بلاد الله وأحسنها أشجاراً، وأطيبها ثماراً.

وعامة مساكن سمرقند بالبساتين والحياض والمياه الجارية فما تخلو سكّة ولا محلّة ولا ناحية ولا سوق ولا دار ولا قصبة من نهر جار أو بركة واقفة، وبسائر ما وراء النهر من الأنهار المتخرقة، والرياض المتصلة، والأشجار الملتفة، والثمار الكثيرة ما لا يوجد مثله في سائر الأمصار لا دمشق ولا غيرها؛ وإن قيل: إنَّ متنزهات الدنيا أربعة؛ غوطة دمشق أحدها. وقال بعضهم: إنها أفضلها؛ ولكنَّ سغد سمرقند أطول وأعرض وأفسح وأكثر ماءاً وأمدُّ مدى تجول العين في فضائِهِ»[2].

حدَّثني السيد الشريف جلال الدين حسن بن أبي المجاهد الحسيني السمرقندي عن طول مدى السغد، فقال: يقدر عشرة أيام بالسير المعتاد.

قلت وقد قال صاحب أشكال الأرض: إنَّه يكون ثمانية أيام، فقال: لا، لا يكاد

---

(١) انظر: صورة الأرض ٤٠٧ـ ٤٠٩.
(٢) انظر: صورة الأرض ٤٠٩ـ ٤١٠.

يقصر عن عشرة أيام فأين غوطة دمشق من هذا ؟ أو كلها من منبع الماء من واديها إلىٰ تناهيه لا يبلغ نصف يوم مع كون السغد مكشوفاً كتنافر العين من أوله إلىٰ آخره / ٧٩/ في فرد مدىٰ نظر وما غوطة دمشق هكذا لاكتناف الجبلين لواديها؛ ولأنَّ أنهار السغد واضحة في خلل خمائلها ممتدة في بسيط الحضرة لا يحتجب ولا يخفىٰ عن العين، وليست الأنهار بدمشق مكشوفة إلاّ في مجرىٰ الوادي بها. فأمّا إذا أشرف المستشرف عليها فإنه لا يرىٰ إلاّ ما يليه، ولا تقع عينه إلاّ علىٰ ما يحاذيه، ولقد بقي من سمرقند منعة الأبصار علىٰ ما نابها من النوائب، واعترت أنهارها من الشوائب، وبليت به أغصانها مما تشيب له الذوائب أيام جنكزخان وأبنائه، وما رميت به من حوادث الحدثان في تلك المُدَد، وإذا حصل الإنصاف قيل: إنَّ غوطة دمشق قطعة من سُغد سمرقند.

«وأمّا البتم فهو جبال شاهقة سامقة منيعة، والغالب عليها النزهة والخضرة والبقلة المعروفة بالطرخون[١]؛ وهي قرىٰ آهلة بالناس.

وبالبتم حصون منيعة جداً، وفيها معادن ذهب وفضّة وزاج ونوشاذر؛ وفي كل جبل من جبال البتم كالغار وقد بني عليه واستوثق من أبوابه وكواه. وفيها عين يرتفع منها بخار يشبه الدخان بالنهار والنار بالليل؛ فإذا تلبد هذا الدخان في حائط ذلك البيت وسقفه قُلع منه النوشاذر. وداخل هذا البيت من شدة الحرّ ما لا يتهيأ لأحدٍ أن يدخله إلاّ احترق إلاّ أن يلبس اللبود المبلولة، ويدخل المختلس ويأخذ ما يقدر عليه حتىٰ يظهر، فإذا خفي في مكان حفر عليه في آخر إلىٰ [أن] يوجد؛ وإذا لم يكن عليه مبنياً يمنع البخار من التفرّق لم يضر من قاربه حتىٰ إذا اختنق في بيت احترق من يدخله لشدَّة الحرّ»[٢].

وأما غزنة[٣] فكانت مستقر سبكتكين[٤] ـ والد السلطان يمين الدولة وأمين الملّة محمود ـ فلمّا انقرضت الدولة السامانية بابتداء أيامه وتبدلت ملاهيهم بحد حسامه.

---

(١) الطرخون: هو الترخون نوع من الخضروات (فرهنگ رازي ٥٧٤) بقلة زراعية معمرة، أوراقها تؤكل «المعجم الوسيط ٢/ ٥٧٣».

(٢) انظر: صورة الأرض ٤١٥.

(٣) غزنة: بلد السلطان محمود بن سبكتكين، كانت كبيرة، شديدة البرد «رحلة ابن بطوطة ٢٦١».

(٤) سبكتكين هو ناصر الدين سبكتكين، كان مملوكاً لأليتگين وعمل بحجابة أبي إسحاق حتى مات الأخير فتولى أمر غزنة وأسس دولة الغزنويين «انظر: أخبارها في زين الأخبار رديزي ٥٤، روضة الصفا ١٢٩ وما بعدها، ابن كثير ١١/ ٢٨٦، ابن الأثير ٧/ ٨٦».

وكانت غزنة دارهم ومثواهم استمرُّوا بها، ونقلوا عن بخارىٰ قاعدة الملك إليها، ثم تناوب بنوه /٨٠/ الجلوس علىٰ سريرها، ثم استقرَّت الملوك الغورية وقاعدة سلطانهم ومنبع أعوانهم.

وغزنة مخصوصة بصحة الهواء، وعذوبة الماء والأعراض بها قليلة؛ وأرضها لا تولد الحيات والعقارب والحشرات المؤذية؛ ومنها خرج الرجال الأنجاد. وتأمل مواقف ملوكها في غزو الهند والترك وذبّهم عن بيضة الإسلام والملك وما أبقت آثار الغورية - رحمهم الله - علىٰ قصور عددهم وقصر مددهم، لقد كمّلوا ما بدأ به السلطان محمود بن سبكتكين في غزوات الهند وشنُّوا بها الفتوح حتىٰ دخل الإسلام تلك الممالك العظمىٰ.

وعلىٰ الحقيقة ما فتحوا الهند، بل فتحوا الدنيا وبذلك علىٰ هذا ما تقدَّم ذكره.

وأما غزنة فهي مدينة مضايفة للسند، وقيل: إنها منها.

وقال صاحب كتاب صفة الأرض: إنَّ غزنة من بلاد السند؛ وهي واقعة في الثالث.

قال أبو سعيد منصور - زعيم جرجان[1] - ولم أر بلدة في الصيف أطيب، وفي الربيع أشبه، وفي الخيرات أنظف من غزنة؛ وهي قليلة الأشجار؛ ولهذا صحّ هوائها وسلم من مرورها علىٰ النقائع الوخمة، وأصول الشجر المعَفَّنة.

وأما تركستان فمملكة لو انفردت، لكانت ملكاً كبيراً وسلطنة جليلة، زهرة الدنيا وطراز الأرض. بلاد الترك حقيقة. من كناسها رتعت غزلانها، ومن غاباتها أصحرت ليوثهم.

وهي إقليم فسيح المدىٰ، قديم الذكر منشأ حماة ومشرب كماة؛ وهي المرادة بقولهم: بلاد الترك، ولم تزل الملوك تلحظها لاتقاء بوادرها، والتقاء زواخرها فأشدّ ما أنكرت فجاءت قدامهم في سورة غضبهم ولفحة نارهم فأمالت السيوف حصائد آجالهم، ولم يبق إلاّ من قلَّ عديدهُ.

حكىٰ لي من جال في رساتيقها وجاز في قراها: أنَّه لم يبق من معالمها إلاّ رسوم دائرة، وأطلال بالية علىٰ البعد.

والقرية /٨١/ مشيدة البناء مخضرة الأكناف، فيأنس لعلّه يجد بها أنيساً ساكناً، فإذا جاءها وجدها عالية البنيان، خالية من الأهل والسكان إلاّ أهل العمد وأصحاب

(١) جرجان هي گرگان، إقليم في شمال إيران مجاور لخوارزم ويقع الآن في جمهورية تركمانستان.

السائمة، ليست بذات حرث ولا زرع؛ وإنما خضرتها أطلعتها تباريها، وبها من النباتات البرية لا يذرها باذر، ولا زرعها زارع ويوجد بها خلف من بقايا العلماء وتجري البتم بالترب لعدم الماء.

«وأما الشاش[١] فمقدار عرضها مسيرة يومين في ثلاثة أيام، وليس بخراسان ولا ما وراء النهر إقليم صغير علىٰ قدرها في صغر المساحة أكثر منها منابر وقرىٰ عامرة وقوة شوكة؛ وهي في أرض سهلةٍ ليس بها جبل ولا أرض مرتفعة حزنة؛ هي أكبر ثغرٍ، وأبنيتهم من طين، وعامة دورهم تجري فيها المياه؛ وكلُّها مستترة بالخضرة؛ ولها مدن كثيرة تتدانىٰ وتتقارب مسافتها»[٢].

وأما استيجاب[٣] فمدينة لها قهندز وربض؛ أما القهندز فخراب، والمدينة والربض عامران.

وعلىٰ المدينة سور يحيط بها مقدار فرسخ، وفي ربضها مياه وبساتين، وبناؤها بطين؛ وهي مستوٍ من الأرض، ولها أربعة أبواب.

وهي مدينة ذات خصب وسعة، ولا خراج عليها، ومن مدنها: الطراز[٤]، وبوحكرت، وكحندة.

وأمّا باراب[٥] فهو اسم الناحية، ومقدارها في الطول والعرض أقلّ من يوم، وبها منعة وبأس؛ وهي في سبخة؛ وأما غياض ومزارع وقصبتها تسمّىٰ كندر، ومنها فيلسوف الإسلام أبو نصر البارابي[٦] مفسِّر كتب القدماء، المتقدّم في العلوم العقلية

---

(١) الشاش: هي جاج من أعمال أشروسنة «آثار البلاد ٥٤٨ـ تاريخ بخارى لغامبري ٩٤».

(٢) انظر: صورة الأرض ٤١٦.

(٣) استيجاب: هي واسبيجاب قرية قرب الشاش من بلاد فرغانة «معجم البلدان ٤/ ١٠١٤».

(٤) الطراز هي تلاس الواقعة في صحراء لامس «الجويني ٢/ ٧٧ـ ٩١».

(٥) باراب تقع على ضفتي سيردريا (سيحون) «تركستان ٢٩٢».

(٦) محمد بن محمد بن طَرْخان بن أوزلغ، أبو نصر الفارابي، ويعرف بالمعلم الثاني: أكبر فلاسفة المسلمين. تركي الأصل، مستعرب. ولد في فاراب (على نهر جيحون) سنة ٢٦٠هـ/ ٨٧٤م وانتقل إلى بغداد، فنشأ فيها، وألف بها أكثر كتبه. ورحل إلى مصر والشام. واتصل بسيف الدولة ابن حمدان. وتوفي بدمشق سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م كان يحسن اليونانية وأكثر اللغات الشرقية المعروفة في عصره، ويقال إن الآلة المعروفة بالقانون من وضعه؛ ولعله أخذها عن الفرس فوسعها وزادها إتقاناً فنسبها الناس إليه. وعرف بالمعلم الثاني، لشرحه مؤلفات أرسطو (المعلم الأول) وكان زاهداً في الزخارف، لا يحفل بأمر مسكن أو مكسب، يميل إلى الانفراد بنفسه، ولم يكن يوجد غالباً في مدة إقامته بدمشق إلا عند مجتمع ماء أو مشتبك رياض. له نحو مئة كتاب، منها «الفصوص ـ ط» ترجم إلى الألمانية، «وإحصاء العلوم والتعريف بأغراضها ـ ط» و«آراء أهل المدينة الفاضلة ـ ط» و«إحصاء الإيقاعات ـ خ» =

علىٰ كل متقدّم ومتأخر.

والناس يقولون: الفارابي، والصحيح البارابي ـ بالباء الموحدة ـ لأنَّ هذه تسمية تركية، وليس في اللغة التركية فاء.

وأمّا خجنده[1] **فإنها متاخمة لفرغانة؛ وهي في جملتها، وهي منفردة بأعمال خاصة؛ وهي علىٰ نهر الشاش في غربيه، وطولها أكثر من عرضها وبساتينها ودورها متفرقة، ولها قرًى يسيرة.**

وهي مدينة نزهة وفواكهها حسنة /٨٢/ ولكنّها تضيق بها من درعاتها فتجلب الغلات من فرغانه وآشروسنة إليها، وينحدر إليهم بها السفن من نهر الشاش؛ وهو نهر عظيم، ويعظم بأنهار تجتمع إليه في حدود الترك وعموده نهر يخرج من بلاد الترك في حدود دوازكند، ثم يجتمع إليه أنهار فيغزر، ويمتد علىٰ خجندة يمرُّ علىٰ ساكت فيجري إلىٰ باراب، وإذا جاوز حدّ صيران جرىٰ في بريَّة يكون في حاشية بلد الأتراك العرن فيمتد حتىٰ يقع في بحيرة خوارزم.

قال صاحب كتاب أشكال الأرض: «وهو نهر إذا امتدّ يكون نحو ثلثي نهر جيحون.

وأما فرغانة فهو اسم الإقليم؛ وهو عمل عريض موضوع علىٰ سعة مدنها وقراها وقاعدتها مدينة أخشيلب[2]؛ وهي علىٰ شطّ نهر الشاش علىٰ أرض مستوية؛ ولها

= في النغم، نحو ٣٠ ورقة، في معهد المخطوطات، و«المدخل إلى صناعة الموسيقى ـ خ» و«الموسيقى الكبير ـ ط» و«الآداب الملوكية ـ خ» و«مبادىء الموجودات» رسالة ترجمت إلى العبرية وطبعت بها، و«إبطال أحكام النجوم ـ خ» نسخته بطهران، و«أغراض ما بعد الطبية ـ خ» و«السياسة المدنية ـ خ» و«جوامع السياسة ـ ط» رسالة، و«النواميس» و«الخطابة» و«وما ينبغي أن يتقدم الفلسفة» وكتاب في أن «حركة الفلك سرمدية» ولمصطفى عبد الرازق، كتاب «فيلسوف العرب ـ ط» في سيرته، ومثله «الفارابي ـ ط» لإلياس فرح، و«الفارابي ـ ط» لعباس محمود.

ترجمته في: وفيات الأعيان ٢/ ٧٦ وطبقات الأطباء ٢/ ١٣٤ـ ١٤٠ وBrock. I: 232 (210),S. I:375 وتاريخ حكماء الإسلام ٣٠ وابن الوردي ١/ ٢٨٤ وآداب اللغة ٢/ ٢١٣ والبداية والنهاية ١١/ ٢٢٤ وفيه: «كان يقول بالمعاد الروحاني لا الجثماني» وفي المقتطف ٥٧/ ٣١٤ و٤٠٢ و٤٩٠ بحث مستفيض عنه. والوافي بالوفيات ١/ ١٠٦ وPrinceton 26 I,589 ومفتاح السعادة ١/ ٢٥٩ وأخبار الحكماء ١٨٢ وكارادوفو B.Carra de Vaux في دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٤٠٧ـ ٤١٢ والذريعة ١/ ٦٦ ثم ٢: ٢٣٦ وإحصاء العلوم/ مقدمته. وانظر Huart 28I، ومحاضرات الفلسفة العربية للكونت دي جلارزا ٤ـ ٣٥ ومجلة معهد المخطوطات ٤/ ٣٩، الأعلام ٧/ ٢٠.

(١) لينين آباد الحالية في تاجيكستان.

(٢) هي أخسيكث قصبة فرغانة آنذاك ـ جنوب غربي نامجان تقع على نهر سردريار الأيمن، لها خمسة أبواب «انظر وصفها عند ابن حوقل ٣٩٣ـ ٣٩٤، المقدسي ٣٧١».

قهندز وربض ومقدارها نحو ثلث فرسخ، وبناؤها من طين، وعلىٰ ربضها سور وعليه أبواب من المدينة.

وفي الربض مياه جارية، وحياض كثيرة؛ وكل باب من أبواب ربضها يفضي إلىٰ بساتين ملتفة، وأنهارها لا تنقطع مقدار فرسخين وبجادتها إذا عبر نهر الشاس مروج ومزارع كثيرة ومال مقدار مرحلة، ويليها مدينة قنا ـ وهي من فرغانة ـ من أنزه مدنها؛ لها قهندز وربض؛ والقهندز خراب، والجامع في القهندز، وأسواقها في ربضها، ودار الإمارة في الربض وعليه سور محيط به، ولها بساتين كثيرة، ومياه غزيرة، ويليها في الكبر أوش[1] من فرغانة ملاصقة للجبل وهي مدينة عامرة ذات قهندز عامر، ولها ربض وعليه سور ولها ثلاثة أبواب[2].

وأوزكند[3] وهي آخر مدن فرغانة لها قهندز وربض وأسواقها في الربض مطرّزة بالبساتين والمياه الجارية»[4].

قال صاحب كتاب أشكال الأرض: «وليس بما وراء النهر أكثر قرىٰ من فرغانة؛ وربّما بلغ حدّ القرية مرحلة لكثرة أهلها وانتشار مواشيهم في المرعىٰ»[5].

وسألتُ عن هذا العميد أبا المكارم حميد بن محمد الفرغاني، فقال: كانت أكثر مما قال، والبلاد باقية علىٰ هذا الحال في الاتساع؛ /٨٣/ ولكن قد قلَّ ناسها.

وأما أشروسنة[6] فهو اسم الإقليم كالسغد، وقاعدتها مدينة بومحكت[7]، وبها من المدن أرسبا نيكت[8] وعرق[9] وفنكث[10] وساباط[11] ورامين[12].

---

(١) أوش: إحدى مدن فرغانة، وكانت من أكبر مدن الثغور مع الترك، وهي ثالث مدن فرغانة من حيث الرقعة وتتكون من شهرستان وقلعة وربض (الاصطخري ٣٣٥).

(٢) الأبواب الثلاثة هي: باب الجبل، وباب النهر، وباب مغكدرة «تركستان ٢٦٧».

(٣) أوزكند: تكتب أيضاً يوزكند بها شهرستان وقلعة وربض ولها أربعة أبواب، وتقع على نهر قرادريا «ابن خرداذبه ٣٠».

(٤) انظر: صورة الأرض ٤٢٠. (٥) انظر: صورة الأرض ٤٢٠.

(٦) أشروسنة: إقليم من بلاد الترك عاصمته بونجكث وهي تكتب أسروشنة «انظر: ابن خرداذبة ٢٩، الأصطخري ٣٤٣».

(٧) بومحكت هي بونجكث أو ينجكث كانت تتكون من قلعة وشهرستان يشقه النهر، وربض «الأصطخري ٣٢٦ـ ٣٢٧، ابن حوقل ٣٧٩ـ ٣٨٠، المقدسي ٣٧٧».

(٨) هي مدينة ارسبانيكث أو ارسيانيكث، على حدود فرغانة «المقدسي ٣٦٥».

(٩) عرق وهي غزن على فرسخين من فغكث وستة من خجند «الاصطخري ٣٢٦».

(١٠) فنكث: هي فغكث على ثلاثة فراسخ بونجكث على طريق خجند «ابن حوقل ٤٠٤، الاصطخري ٣٢٦».

(١١) ساباط: وتقع ما بين سمرقند وخجند، بينها وبين زامين ثلاثة فراسخ «انظر: الاصطخري ٣٤٣، =

قال صاحب الروض المعطار في أخبار الأقطار: «أشروسنة أرض يحيط بها من إقليم ما وراء النهر من شرقيها بعض فرغانة، ومن غربيها بلاد الصغد والصغانيات، وشمالها بلاد الشاس»[(١)].

ولاشروسنة مدن كثيرة ومملكتها واسعة جليلة، ويقال: إنَّ فيها اربع مائة حصنٍ، ولها وادٍ عظيم يأتي من نهر سمرقند، ويوجد في ذلك الوادي سبائك الذهب.

وقال صاحب كتاب أشكال الأرض: «أما مدينة تومجكث[(٢)] فهي مسكن الولاة تحرز رجالها نحو عشرة آلاف رجل[(٣)]، وبناؤها بطين وخشبٍ، وعليها سور، ولها ربض وعلىٰ ربضها سور، ولها سور ثالث من [وراء] ذلك.

وللمدينة الداخلة بابان[(٤)]؛ وداخل المدينة المسجد الجامع والقهندز، ودار الإمارة في الربض في مربعة الأمير.

ويجري بالمدينة الداخلة نهر كبير عليه رحىٰ وأسواقها في المدينة الداخلة؛ ولها بساتين وكروم وزروع؛ وذلك كلّه دون السغد، ولها أربعة أبواب، ولها ستة أنهار جميعها من عين واحدة ومنبع واحد. مقدار مائها يزيد علىٰ عشرة أرحية، ومن المدينة إلىٰ منبع الماء مقدار نصف فرسخ، ويليها في الكبر مدينة زامين[(٥)] وهي علىٰ طريق فرغانة إلىٰ السغد، وباقي بلادها متقاربة في الكبر والنزهة والبساتين والمياه»[(٦)].

الفرقة الثانية: في خوارزم والقبجاق

حدّثني الشيخ نجم الدين بن الشمّام الموصلي: أنَّ هذه المملكة مُتسعة الجوانب طولاً وعرضاً كثيرة الصحراء، قليلة المدن، وبها عالم كثير لا تدخل تحت حدّ؛ وليس لهم كبير بقع لقلّة السلاح ورداءة الخيل. /٨٤/ وأرضهم سهلة قليلة الحجر لا

= المقدسي ٣٤٢، ابن خرداذبة ٢٧» ويذكر اسكفارسكي إنها قرية اسكي سقط «تركستان حاشية ص٢٧٩».

(١٢) رامين: هي زامين الواقعة على ضفتي نهر، بجوار مدينة سرسنده الجديدة «ابن حوقل ٣٨٠ـ ٣٨١، المقدسي ٢٧٧».

(١) الروض المعطار في أخبار الأقطار: لمحمد عبد المنعم الحميري (ت أوائل القرن الثامن الهجري).

(٢) بونجكث: كبرى مدن أسروشنة وقصبتها.

(٣) في القرن العاشر الهجري «انظر: الأصطخري ٣٢٧».

(٤) الباب الأعلى وباب المدينة «ابن حوقل ٣٧٩ـ ٣٨٠».

(٥) زامين: تقع على ضفتي نهر ليس بعيداً عن مخرجه من الجبال «ابن حوقل ٣٨٠ـ ٣٨١، المقدسي ٢٧٧».

(٦) انظر: صورة الأرض ٤١٤.

تطيق خيل ربيت فيها الأوعار؛ فلهذا يقلّ غناء أهل هذه المملكة في الحروب، وليس لملوكهم عظيم عناية بالأوضاع، وترتيب سلطان هذه البلاد في أمور جيشه وسلطانه ترتيب مملكة العراق والعجم في عدّة الأمراء والأحكام والخدم؛ ولكن ليس لأمير الألوس[١]. والوزير بها تصرف أمير والألوس والوزير بتلك المملكة. ولا لسُلطان هذه المملكة نظير ما لذلك السلطان من الدخل والمجابي وعدد المدن والقرىٰ، ولا مشىٰ أهل هذه المملكة علىٰ قواعد الخلفاء مثل أولئك.

ولخواتين هؤلاء مشاركة في الحكم معهم وإصدار الأمور عنهم مثل أولئك وأكثر إلاّ ما كانت عليه بغداذ بنت جوبان[٢] ـ امرأة أبي سعيد بهادر بن خدابنده ـ فإننا ما رأينا في زماننا ولا سمعنا عمن قارب زماننا أن امرأة تحكمت بحكمها. وقد وقفت علىٰ الكثير من الكتب الصادرة عن ملوك هذه البلاد من عهد بركة[٣] وما بعده وفيها: واتفقت آراء الخواتين والأمراء علىٰ كذا أو ما يجري هذا المجرىٰ.

وقاعدة الملك بها السراي[٤] وهي مدينة صغيرة بين رملٍ ونهر، وقد بنىٰ بها سلطانها القائم بها الآن أزبك خان[٥] مدرسة للعلم؛ وهو معظّم لجانب العلم وأهله.

وحدّثني الصدر زين الدين عمر بن مسافر: أنَّ هذا السلطان أزبك غير ملتفتٍ من أمور مملكته إلاّ إلىٰ جمليات الأمور دون تفصيل الأحوال، يقنع بما جمل إليه ولا

---

(١) الإلوس: كلمة مغولية تعني قبيلة وجماعة، فهناك الوس جوجي والوس جغتاي والوس هولاكو.

(٢) بغداد بنت جوبان: هي بنت جوبان أمير أمراء أبي سعيد بهادر وقد قتل أبو سعيد بهادر أخاها ثم قتل أبوها وأخويها على يد حاكم هراة، وتزوج أبو سعيد بهادر من بغداد خاتون وكانت أجمل النساء وتحت الشيخ حسن فطلقها الشيخ حسن وتزوجها، وكانت أحظى النساء لديه حتى قتلت أبا سعيد بهادر لأنه هجرها فقتلها الشيخ حسن وجلس على العرش «رحلة ابن بطوطة ١٥٢ـ ١٥٤».

(٣) بركاي خان من نسل جغتاي حارب هولاكو وابنه آباقاخان، وكان قد أسلم وحسن إسلامه «انظر: جامع التواريخ ١/ ٣٤١، ٢/ ١٤» وهو بركة بن جوجي حكم ما بين سنة ١٢٥٧ـ ١٢٦٦، «تركستان ٧١٩».

(٤) مدينة السراي: حاضرة السلطان أزبك، وهي من أحسن المدن قال عنها ابن بطوطة أنها في بسيط من الأرض تغص بأهلها كثرة، حسنة الأسواق متسعة الشوارع بها الآص وهم مسلمون والقفجق والجركس والروس والروم وهم نصارى «رحلة ابن بطوطة ٢٣٧ـ ٢٣٨».

(٥) أزبك خان: أحد الملوك السبعة الكبار، عظيم المملكة، شديدة القوة، كبير الشأن، رفيع المكان، قاهر لأعداء الله أهل قسطنطينية العظمى، مجتهد في جهادهم، وبلاده متسعة، ومدنه عظيمة منها الكفا والقرم والماجر وآزاق وسودان وخوارزم وحاضرته سرا «رحلة ابن بطوطة ٢٢٠» وهو أزبك بن طوغريلجه بن مونكو تيمور بن توقوخان بن باتو بن جوجي، حكم ما بين ١٣١٣ـ ١٣٤١م «تركستان ٧١٩».

يفحص عن وجوهه في القبض والصرف؛ وأنَّ لكل امرأة من خواتينه جانباً من الحمل[١]؛ وهو يركب كلّ يوم إلىٰ امرأةٍ منهن يقيم ذلك اليوم عندها يأكل في بيتها ويشرب[٢]، وتلبسه بذلة قماش كاملة، ويخلع التي كانت عليه؛ وممن يتفق من حوله وقماشه ليس بفائق الجنس ولا غالي الثمن.

وهو مسلمٌ، حسن الإسلام، متظاهر بالديانة والتمسك بالشريعة، محافظ علىٰ إقامة الصلاة ومداومة الصيام مع قربه من الرعايا والقاصدين إليه. /٨٥/ وليست يده بمبسوطة بالعطاء، ولو أراد هذا لما وفىٰ له به دَخْلُ بلاده.

وغالب رعاياه أصحاب عُمد في الصحراء أقواتهم من بواسيتهم من الخيل والبقر والغنم، والزرع عندهم قليل؛ وأقلّه القمح والشعير.

وأمّا الفول فلا يكاد يوجد، وأكثر الموجود عندهم من الزروع الدخن منه أكلهم، وعليه فيما يخرج الأرض كلّهم.

والأسعار في جميع هذه المملكة رخية إلىٰ غاية.

الأكركانج[٣] أم إقليم خوارزم؛ وهي المعبّر عنها بخوارزم؛ فإنها متماسكة في أسعار الغلاّت؛ قلَّ أن ترخص، بل هي إما فعلية أو متوسطة لا تعرف الرخص أبداً.

وأمّا اللحوم فإنَّها رخيصة وكثيراً ما تذبح الخيل بهذه البلاد.

وأمّا سكان البرّ منهم فإنَّه لا يباع ولا يشترىٰ بينهم اللحم، وغالب أكلهم من لحوم الصيد واللبن والسمن والدخن؛ فإن تلفت لأحد منهم دابة مثل فرس أو بقرة أو شاة ذبحها وأكل هو وأهله منها، وأهدىٰ إلىٰ جيرانه؛ فإذا تلفت لهم أيضاً شاة أو بقرة أو فرس ذبحها وأهدى إلىٰ من أهدىٰ إليه فلا يكاد تخلو بيوتهم من اللحم بهذا السبب؛ لأنَّ هذا معروف بينهم كأنَّ هدية اللحم بينهم قرض يُوفّىٰ.

وفي سلطان هذه المملكة طوائف الجركس[٤] والروس[٥] والآص[٦]؛ وهم أهل

---

(١) وكذلك كان يفعل أبو سعيد بهادر «انظر: رحلة ابن بطوطة ١٥٤».

(٢) تكون كل خاتون من خواتينه على حدة في محلتها، فإذا أراد أن يكون عند واحدة منهن، بعث إليها بمن يعلمها بذلك فتتهيأ له «رحلة ابن بطوطة ٢٢١».

(٣) أي گرگانج التي سماها العرب المسلمون جرجانية وسماها المغول أوركنج.

(٤) الجركس: أو الشركس أو نشركسيا، قوم يقطنون إقليماً شاسعاً من ولاية كوبان في روسيا أوروبا، والشراكسة رعاة ومقاتلة، في الغالب طوال القامات، عراض المنكبين، نحاف الجسوم صغار اليدين والرجليين، «دائرة معارف البستاني ١٠/ ٤٣٩».

(٥) الروس: قوم كانوا ضمن أملاك جوجي وأولاده وكان بعضهم يسكن مدينة السرا عاصمة دولتهم في القرن الثامن الهجري، وكانوا في المنطقة الواقعة شرقي جبال آرال.

(٦) الآص: هم الآس ويعرفون عند بعض الكتاب بالآلان والأوسنيت «جامع التواريخ ١/ ٢١٢»

=

مدن عامرة آهلة وجبال مشجرة مثمرة ينبت عندهم الزرع، ويدرّ الضرع، وتجري الأنهار، وتجنى الثمار، ولا طاقة لهم بسلطان هذه البلاد، وهم معه وإنْ كانت لهم ملوك كالرعايا؛ فإن دارَوْه بالطاعة والتحف والطرف كفَّ عنهم وإلاّ شنَّ عليهم الغارات وضايقهم بالحصار.

وكم مرة قتل رجالهم وسبىٰ نساءهم وذراريهم وجلب رقيقهم إلىٰ أقطار الأرض.

ومما ينظم إلىٰ جناح هذا السلطان قوم من الترك في نهاية الشمال من حدوده، وهم في جهدٍ من قشف العيش؛ لأنّهم ليسوا أهل حاضرة لهم زرع. وشدّة البرد تهلك مواشيهم؛ وهم همج رعاع لا لهم مسكة بدينٍ ولا رزانة في عقل، وهم لشدّة ما بهم من سوء الحال؛ إذا /٨٦/ وجد أحدهم لحماً سلقه ولم ينضجه، وشرب مرقه وترك اللحم ليأكله مرة أخرىٰ، ثم يجمع العظام ويعاود صلقها مرة أخرىٰ وشرب مرقها، وقس علىٰ هذا بقية عيشهم.

وأخبرني الصدر جمال الدين عبد الله الحصني التاجر: أنَّ لبس كثير من أهل بادية هذه المملكة الجلود سواء أكانت مذكاة أو ميتة مدبوغة أو غير مذبوغة من الحيوان الطاهر أو غير الحيوان الطاهر، ولا يعرفون في المأكل ما يعاف مما لا يعاف ولا التحريم من التحليل، وأنَّهم في الأزمات يبيعون أولادهم ليتقوَّتوا بأثمانهم إذا ضاقت بهم الأحوال في بعض السنين، ويقولون عمَّن يبيعون من أولادهم: نعيش نحن ولا وهو خير مما نموت نحن وهو.

وجاريت الصدر زين الدين عمر بن مسافر في حديث هذه البلاد وسألته عما قاله عبد الله الحصني، فقال لي: كلّ ما أخبرك به صحيح.

قلت: وترك هذه البلاد هم خيار الترك أجناساً؛ لوفائهم وشجاعتهم وتجنبهم الغدر مع تمام قاماتهم، وحسن صورهم، وظرافة شمائلهم؛ ومنهم معظم جيش مصر؛ لأن سلاطينها وأمراءها منهم منذ رغب الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل[1] في مشترى المماليك القبجاق.

= والأوسيت الآن إقليم ذات حكم ذاتي في الاتحاد الروسي وتسمى أوسيتيا الشمالية وآخر تابع لجورجيا ويسمى أوسيتيا الجنوبية وبها يسكن الآص.

(١) أيوب (الملك الصالح) بن محمد (الملك الكامل) بن أبي بكر (العادل) بن أيوب، أبو الفتح نجم الدين: من كبار الملوك الأيوبيين بمصر. ولد في القاهرة سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٦م ونشأ بها. وولي بعد خلع أخيه (العادل) سنة ٦٣٧هـ. وضبط الدولة بحزم. وكان شجاعاً مهيباً عفيفاً صموتاً. عمر بمصر ما لم يعمره أحد من ملوك بني أيوب. وفي أواخر أيامه أغار الإفرنج على دمياط (سنة٦٤٧هـ) واحتلوها =

ثم انتقل الملك إليهم مالت ملوكهم إلىٰ الحبشية[١] ورغبت في الاستكثار منهم حتىٰ أصبحت مصر بهم آهلة المعالم محميّة الجوانب منهم أقمار مواكبها وصدور مجالسها وزعماء جيوشها وعظماء أرضها، وحمد الإسلام مواقفهم في حماية الدين وجهادهم أقاربهم وأهل جنسهم في الله لا تميل لهم حنه ولا تأخذهم في الله لومة لائم وكفىٰ بالنصرة الأولىٰ نوبة.

«عين جالوت» [٢]

لما خرج الملك المظفر قطز[٣] ـ صاحب مصر إذ ذاك ـ في سنة ثمان وخمسين وستمائة وكسر عساكر هولاكو علىٰ عين جالوت، ورحل هولاكو عن حلب عائداً، ونهض الجيش المصري بما عجزت عنه ملوك أقطار الأرض مع اجتهاد السلطان جلال الدين محمد بن خوارزم شاه[٤] /٨٧/ ـ رحمه الله تعالىٰ ـ حتىٰ قتل.

= وأصاب البلاد ضيق شديد، وكان الصالح غائباً في دمشق، فقدم ونزل أمام الفرنج وهو مريض بالسلّ فمات بناحية المنصورة سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م، ونقل إلى القاهرة. من آثاره قلعة الروضة بالقاهرة.
ترجمته في: خطط المقريزي ٢/ ٢٣٦ وابن إياس ١/ ٨٣ والسلوك للمقريزي ١/ ٢٩٦ـ ٣٤٢ وتاريخ الإسحاقي ١٨٩ ومرآة الزمان ٨/ ٧٧٥ والأعلام ٢/ ٣٨.

(١) المماليك الذين يجلبون من الحبشة.

(٢) عين جالوت: من مدن الشام، وفيها وقعت معركة حامية بين المغول والمصريين بقيادة قطز في ٢ سبتمبر سنة ٦٥٨هـ «النجوم الزاهرة ٧/ ٧٩، ابن كثير ١٣/ ٢٢٠، السيوطي ٤٧٥، ابن إياس ١/ ٣٠٦، القلقشندي ٢/ ١٠٥».

(٣) قطز بن عبد الله المعزي، الملك المظفر، سيف الدين: ثالث ملوك الترك المماليك بمصر والشام. كان مملوكاً للمعز «أيبك» التركماني. وترقى إلى أن كان في دولة المنصور بن المعز «أتابك» العساكر. ثم خلع المنصور، وتسلطن مكانه (سنة ٦٥٧هـ) وخلع على الأمير ركن الدين «بيبرس» البندقداري وجعله «أتابك» العساكر وفوض إليه جميع أمور المملكة. ونهض لقتال «التتار» وكانوا بعد تخريب بغداد قد وصلوا إلى دمشق، وهددوا مصر؛ فجمع الأموال والرجال، وخرج من مصر، فلقي جيشاً منهم في «عين جالوت» بفلسطين، فكسره (سنة ٦٥٨) وطارد فلوله إلى «بيسان» فظفر بهم، ودخل دمشق في موكب عظيم، وعزل من بقي من أولاد بني أيوب واستبدل بهم من اختار من رجاله. ورحل يريد مصر. وبينما هو في الطريق تقدم منه أتابك عسكره «بيبرس» ووراءه عدد كبير من أمراء الجيش، فتناولوه بسيوفهم فقتلوه سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م. ودفن بالقصير. ثم نقل إلى القاهرة.
ترجمته في: مورد اللطافة، لابن تغري بردي ٣٥ـ ٣٨ وابن إياس ١/ ٩٦ والسلوك للمقريزي ١/ ٤١٧ـ ٤٣٥ وفيه: يقال: إن اسمه محمود بن ممدود وإن أمه أخت السلطان جلال الدين خوارزم شاه، وإن أباه ابن عم السلطان جلال الدين، وإنما سبي عند غلبة التتار، فبيع بدمشق ثم انتقل إلى القاهرة. والنجوم الزاهرة ٧/ ٧٢ وفوات الوفيات ٢/ ١٣٢ وذيل الروضتين ٢١٠ والأعلام ٥/ ٢٠١.

(٤) جلال الدين محمد بن خوارزمشاه وآخر سلاطين الدولة الخوارزمية، حارب التتار وقاومهم، وضاعت دولته في أول هجماتهم، قتل سنة ٦٢٩هـ «العبر ٥/ ١١٤»، وهو جلال الدين منكبرتي أو منكبرتي بن =

ولم يكن الجيش المصري بالنسبة إلىٰ الجيوش الجلالية إلاّ كالنقطة في الدائرة والنغبة من البحر والله يؤيد بنصره من يشاء ﴿...كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[١]. وهذا من المعجزات النبوية؛ وهو قوله[٢] ـ ﷺ ـ: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين علىٰ من عاداهم إلىٰ يوم القيامة، لا يضرّهم من خذلهم حتىٰ يأتي أمر الله، وهم علىٰ ذلك، ألا وهم الجند العربي»، وقوله: «ألا وهم الجند العربي» زيادة في بعض الروايات، وهذه الرواية إنْ لم تصح روايتها صحَّت بالمعنىٰ؛ لأنَّ هذه الطائفة هي كانت الطائفة الظاهرة التي أرادها النبي ـ ﷺ ـ في قولهم وعناهم بها؛ لأنه لم يظهر علىٰ التتار سواهم، وبهذه النصرة دامت النصرة علىٰ التتار. وكانت بهم لا بغيرهم مع كثرة من كان من ملوك الإسلام واجتهادهم في الجهاد فتماسك بهذه المرَّة رمق الإسلام وبقيت بقية الدين ولولا لانصدع شعب الأمة وهي عمود الملّة وصلت خيل عبدة الشمس إلىٰ أقصىٰ المغارب، ودكّت جميع رعان الأرض.

وهذه جملة معترضة ساقها الاستطراد بذكر أهل البلاد.

ونعود الآن إلىٰ ذكر ما كنا فيه من ذكر بلادهم وأحوالهم فيها.

هذه البلاد من أكثر الأرض ماءً ومرعًى وأخصبها زرعاً إذا زرع بها؛ ولكنّهم أهل حلّ وترحال، وأصحاب ماشية ليس لهم مبالاة بالزرع والغراس؛ ولقد كانت قبل استيلاء التتار عليها معمورة الجوانب؛ وهي الآن في بقايا تلك العمارة إذا زرع بها، ولكنهم فيها الأشجار المختلفة الأنواع من الفواكه العنب والرمان والسفرجل والتفاح والكمثرىٰ والمشمش والخوخ والجوز، وبها فاكهة تسمىٰ بلغة القبجاق بابيك شبيهة بالتين.

والفواكه الموجودة عندهم الآن من بقايا ماباد من غراس من كان قبل هؤلاء ممن كان لهم عناية بالزرع والنصب؛ وهي كثيرة الوجود في جبالهم وما يحدث إلىٰ المدن /٨٨/ مع كثرة ماباد.

وأمّا البطيخ فشحّت عندهم سحابه وشحّت علىٰ غيرها خاصة الأصفر، فإنَّه يبقىٰ

= علاء الدين محمد ابن نكش بن إيل أرسلان بن أتسز بن قطب الدين محمد بن أنوشتكين غرجة حكم ١٢٢٠ ـ ١٢٣١م «تركستان ٥١١».

(١) سورة البقرة: الآية ٢٤٩.

(٢) انظر: الحديث النبوي الشريف في سنن الترمذي ٢١٩٢، مستدركات الحاكم تصوير بيروت ٤/ ٥٥٠، سنن ابن ماجه، عيسى الحلبي القاهرة ٦.

عندهم طول السنة ويقدد منه، وهو في غاية صدق الحلاوة وطيب الطعم مع ما يحكىٰ من كثرة وجوده ورخصه. ومنهم من يستخرج ماءه ويعقد منه الحلواء.

وبمدنهم كثير من الخضراوات كاللفت والجزر والكرنب وغير ذلك، فأمّا في مدن الجركس والروس والآص، فإنه كثير عندهم جدّاً. وبها العسل الكثير الأبيض اللون اللذيذ الطعم الخالي من الحدّة.

وقد فشى الآن فيهم الإسلام، واشرق علىٰ أقطارهم نور الإيمان. وكان أوّل من دان بالدين الحنيف من ملوكهم بركة بن جوجي بن جنكزخان(١) ومنه لمعت في آفاقهم الشوارق إلىٰ أن صدع الآن الضحىٰ وتقلّصت في جمهورهم جلابيب الدجىٰ إلاّ في النادر القليل.

ومع استعلائهم علىٰ جيوش الجركس والروس والماجار(٢) والأرمن(٣) يختلس تلك الطوائف أولاد هؤلاء وتبيعهم من التجار مع ظهور الإسلام في هذه الطائفة وإقرارهم بالشهادتين فهم مخالفون لأحكامها في كثير من الأمور.

وأول هذه الطائفة وآخرها لا يقفون مع ياسة جنكزخان وقوف غيرهم مع مؤاخذة بعضهم لبعض أشدّ المؤاخذة في الكذب والزنى ونبذ المواثيق والعهود.

ومن شأن ملوكهم إذا غضبوا علىٰ أحد من أتباعهم أخذوا ماله وباعوا أولاده؛ وكذلك إذا سرق سرقة استحقّ المسروق له مال السارق وأولاده وباعهم.

ومن خطب إلىٰ أحدٍ بنته وأعطاه القليل زوّجه لها ثم لا يعود يسأله عنها كما ذكرنا في مملكة ما وراء النهر.

وقال لي المولىٰ الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيىٰ بن الحكيم: إنَّ لسلطان هذه المملكة علىٰ جميعهم خراج يتأدّىٰ منهم؛ وربّما طولبوا بالخراج في سنة ممحلة لوقوع الموتان بدوابّهم وسقوط الثلج وجماد الجمد فباعوا أولادهم لأداء ما عليهم.

وحدّثني الشريف /٨٩/ شمس الدين محمد الحسيني الكربلائي التاجر في شهر رجب الفرد سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة حال عوده من هذه البلاد، وكان قد تجوّل

---

(١) أسلم بركة بن جوجي بن جنكيزخان على يد معلمه المسلم «طبقات ناصري طبعه سخاو ٤٤٦».

(٢) الماجار: قوم من الترك كانوا يسكنون في مدينة الماجر وهي مدينة كبيرة من أحسن مدن الترك على نهر كبير وبها البساتين والفواكه الكثيرة «انظر: رحلة ابن بطوطة ٢١٩».

(٣) الأرمن هم أهل أرمينية (أرمنستان) الذين بقاياهم ببلاد سيس «صبح الأعشى ١/ ٣٧٠» وهي الآن جمهورية أرمينيا.

فيها في سفره وغرب فيها، ووصل إلىٰ أقجاكرمان وبلاد البلغار، وقال لي: إنَّه اشترىٰ في سفرته هذه مماليك وجواري من آبائهم وأمهاتهم لاحتياجهم لخروج يسق ملكهم إليهم بالركوب إلىٰ بلاد إيران واحتاجوا إلىٰ بيع أولادهم، وجلب رقيقاً عالياً غالياً.

وهذه المملكة قديماً هي بلاد القبجاق فلمّا فاضت عليها التتار صارت القبجاق لهم رعايا، ثم خالطوهم وناسبوهم، وغلبت الأرض علىٰ الجبلة والأصل، فصار الكلّ كالقبجاق كأَنَّهم جنس واحد لسكن المغل أرض القبجاق ومصاهرتهم لهم وبلادهم في أرضهم وهكذا طول المكث في كل بلد وأرض يحوز الحائز إليها، ويحول الغرائز إلىٰ طباعها ـ كما قدمنا ذكره ـ وقد يقلّ اختلاف الألوان أو يزيد لسبب آخر غير البلدية.

قلتُ: ولقد كان في السرب والبلغار من قديم دار اسلام، ومستقر إيمان، ذكر هذا المسعودي في مروج الذهب وغيره[1]. فأمّا الآن فقد تبدلت بإيمانها كفراً، وتداولتها طائفة من عباد الصليب، ووصلت منهم رسل إلىٰ حضرة سلطان مصر سنة إحدىٰ وثلاثين بكتاب إلىٰ سلطانها من صاحب السرب والبلغار يعرض نفسه علىٰ

---

(١) مروج الذهب ومعادن الجوهر، من أهم كتب التاريخ في القرن الرابع الهجري مؤلفه أبو الحسن بن علي حسين المسعودي، ويتناول الكتاب وقائع البشر من مولد آدم حتى سنة ٣٣٢هـ وهذا الكتاب مطبوع في أربعة مجلدات في عدة طبعات في القاهرة وبيروت ودمشق.
أما المؤلف فهو علي بن الحسين بن علي، أبو الحسن المسعودي، من ذرية عبد الله بن مسعود: مؤرخ، رحالة، بحاثة، من أهل بغداد. أقام بمصر وتوفي فيها سنة ٣٤٦هـ/ ٩٥٧م. قال الذهبي: «عداده في أهل بغداد، نزل مصر مدة، وكان معتزلياً». من تصانيفه «مروج الذهب ـ ط» و«أخبار الزمان ومن أباده الحدثان» تاريخ في نحو ثلاثين مجلداً، بقي منه الجزء الأول مخطوطاً، و«التنبيه والإشراف ـ ط» و«أخبار الخوارج» و«ذخائر العلوم وما كان في سالف الدهور» و«الرسائل» و«الاستذكار بما مر في سالف الأعصار» و«أخبار الأمم من العرب والعجم» و«خزائن الملوك وسر العالمين» و«المقالات في أصول الديانات» و«البيان» في أسماء الأئمة، و«المسائل والعلل في المذاهب والملل» و«الإبانة عن أصول الديانة» و«سر الحياة» و«الاستبصار» في الإمامة، و«السياحة المدنية» في السياسة والاجتماع. وهو غير المسعودي الفقيه الشافعي وغير شارح المقامات الحريرية.
ترجمته في: فوات الوفيات ٢/ ٤٥ ولسان الميزان ٤/ ٢٢٤ وطبقات الشافعية ٢/ ٣٠٧ والنجوم الزاهرة ٣/ ٣١٥ وسير أعلام النبلاء ١٥/ ٥٦٩ رقم ٣٤٣. وتذكرة الحفاظ ٣/ ٧٠ وS.i: 220 BROCK وقال «فازيليف» في كتابه العرب والروم ٣٨٢ إن كتب المسعودي مما يقرأه المسلمون والأوربيون على السواء ويجدونه ممتعاً طلياً. ولذا استحق لقب «هيرودوت العرب» وهو اللقب الذي أضفاه عليه «كريمر» في «الثقافة في الشرق» ٢/ ٤٢٣ ووفاته في بعض المصادر سنة ٣٤٥، الأعلام ٤/ ٢٧٧.

مودّته ويسأل منه سيفاً يتقلّده وسنجقاً[١] يقهر أعداءه به فأكرم رسوله وأعدّ نزله وجهّز له معه خلعة كاملة: طرد وحش مقضب بسنجاب مقندس على إسكندري وكلوته زركش وشاش بطرزين رقم ومنطقةُ ذهب وكلاليب ذهب وسيف محلّىٰ وسنجق سلطاني أصفر مذهب.

وهم يدارون سلطان القبجاق لعظمة سلطانه عليهم، /٩٠/ وأخذه بخناقهم لقهرهم منه.

قلت: والقسطنطينية[٢] مجاورة لأطراف ملك القبجاق وملك الروم معه في طلب دائم واقتراحات متعددة في كل وقت. وملك الروم علىٰ توقد جمرته، وكثرة حماته وأنصاره يخاف عادية شرّه، ويتقرّب إليه بالمدارة، ويدافع معه الأيام من وقت إلىٰ وقت.

وما زالت الأيام هكذا وما زالت تلك حالهم مع ملوك هذه من أبناء جنكزخان منذ تدبروا هذه الأرض وما تخلو منهم مدّة من تجديد عهود ومسالمة إلىٰ مدد تؤجل بينهم، وأشياء تحمل من جهة ملوك الروم إلىٰ القان بمملكة القبجاق.

ذكر العزّ حسن الإربلي: أنَّ بدر الدين حسن الرومي التاجر السفار حدّثه: أنَّ حدود هذه المملكة من جهة جيحون خوارزم وصقناق وسوداق وباركند وجند وسراي، ومدينة ماجر وازاق وأقجا كرمان وكفه وسوداق وسقمسين ولكل وبلغار، وأعمال سبريا وامل.

حدود بلاد الخطا:

قال: ومدينة باكوى[٣] هي أحد مدن إقليم شروان[٤] وعندها الباب الحديد الذي يسمّيه الترك دمر قبو، ومن الباب الحديدي الذي هو عبارة عن مدينة باكو إلىٰ حدود بلاد الخطا من جهة سبروابر يكون مسير القفل مسيرة خمسة أشهر، هذا هو طول هذه المملكة.

---

(١) سنجق: اللواء «المعجم الوسيط ١/ ٤٧١».

(٢) القسطنطينية: مدينة متناهية في الكبر، منقسمة قسمين بينها نهر، عظيم المد والجزر، أحد القسمين يسمى أصطنبول والثاني الغوطة «رحلة ابن بطوطة ٢٣٢ـ ٢٣٣».

(٣) باكو: مدينة عامرة على شاطىء بحر الخزر، عاصمة جمهورية آذربيجان الحالية.

(٤) شروان: إقليم في بلاد القوقاز وهي غير شيروان إحدى قرى بخارى بجوار بمجكث، وذكر البغدادي شروان قرب بحر الخزر «مراصد الإطلاع ٢/ ٧٩٣».

وفي هذه المملكة من الأنهار الكثيرة المشهورة: سيحون، وجيحون، وطرنا، وايقل، وباين، وتن، وطونو؛ فمن سيحون إلىٰ طونا مسيرة أربعة أشهر، وبين سيحون وجيحون خمسة عشر يوماً، ومن جيحون إلىٰ باين خمسة عشر يوماً، ومن باين إلىٰ أتيل عشرة أيام، ومن أتيل إلىٰ تن شهر واحد، ومن تن إلىٰ طرلو عشرة أيام، ومن طرلو إلىٰ طونا شهر واحد. ويقلب جيحون وأتيل إلىٰ بحر القلزم وسيحون /٩١/ فهي إلىٰ مقصبة ورمل تحت مدينة جند بثلاثة أيام فيقلب هناك وتأتي الأنهر المذكورة تقلب إلىٰ بحر عمان، وهذه السبعة أنهر في هذه المملكة ويتصل منها إلىٰ إقليم ما وراء النهر سيحون وجيحون.

قلت: الذي يصحّ أنَّ جيحون يقلب في بحيرة ملح نحو مائة فرسخ، ويقع بها نهر الشاش أيضاً.

وأمّا من زعم أَنَّ جيحون يرمي في القلزم[١] فغلط منه؛ وإنَّما اشتبه ذلك لعظم هذه البحرة، وبين مرمىٰ جيحون ونهر الشاش نحو من عشرة أيام وتعرف هذه ببحيرة خوارزم[٢]، وعلىٰ وسطها جبل يسمّىٰ جغر يجمد عند الماء حتىٰ يبقىٰ إلىٰ الصيف.

قال الإربلي: ومن مشاهير مدنها بلغار، وأقصر ليلها أربع ساعات ونصف.

قال حسن الرومي: ثم سألت مسعود الموقت بالبلغار عن هذا ؟ فقال: جربناها بالآلات الرصدية فوجدناها أربع ساعات ونصفاً تحريراً؛ وهو غاية نقصان الليل بها. وأمّا قصبة أفتكون فحررناها فوجدنا أقصر ليلها ثلاث ساعات ونصفاً أقصر من ليل البلغار بساعة واحدة، قال: وبين بلغار وأفتكون مسافة عشرين يوماً بالسير المعتاد.

والقصبة في مصطلح العجم: المدينة الصغيرة.

قال: وبعد أفتكون بلاد سبر وابر، ثم بعدها بلاد جولمان، فإذا سافر المسافر من جولمان ـ علىٰ شرقيها ـ يصل إلىٰ مدينة قراقرم، ثم إلىٰ بلاد الخطا، وبها القان الكبير، وهي بلاد الصين.

قال: وإن سافر المسافر ـ علىٰ غربيها ـ وصل إلىٰ بلاد الروس، ثم إلىٰ بلاد الفرنج وسكان البحر الغربي.

قلت: أمّا الآن فمقر القان خان بالق.

---

(١) القلزم أيضاً هو البحر الأحمر الآن، نسبة إلى مدينة على ساحل بحر اليمن (الأحمر) وهي على آخره من جهة مصر وهي السويس حالياً «انظر: مراصد الإطلاع ٣/ ١١١٧».

(٢) بحيرة خوارزم: يصب بها ماء جيحون وسيحون، ماؤها ملح ولا ينقص «مراصد الإطلاع ١/ ١٦٨».

قال: وبلاد السبر وجولمان مضافة إلىٰ باشقرد[١]، وفي بلاد باشقرد قاضي مسلم معتبر.

وبلاد السبر وجولمان شديدة البرد لا يفارقهم الثلج مدّة ستة أشهر لا يزل يسقط علىٰ جبالهم وبيوتهم وبلادهم؛ ولهذا /٩٢/ تقل مواشيهم عندهم، وهم سكان قلب الشمال والواصل عندهم وإليهم من الناس قليل، والأقوات عندهم قليلة.

ويحكىٰ عنهم: أنَّ الإنسان منهم يجمع عظام أيّ حيوان كان، ثم إنه يغلي عليها بقدر كفايته، ثم يتركها وبعد سبع مرات لا يبقىٰ فيها شيء من الدهن.

قال: وهم مع ضيق العيش ليس في أجناس الرقيق أنعم من أجسامهم ولا أحسن من بياضهم، صورهم تامة الخلقة في حسن وبياض ونعومة عجيبة، زرق العيون.

قال العزّ حسن الإربلي: وحسن الرومي سافر في هذه البلاد وذكر أكثرها.

وقال؛ قال الشيخ علاء الدين بن النعمان الخورازمي: إنَّ طول هذه المملكة من بحر إسطنبول إلىٰ نهر آرليس ستة أشهر، وعرضها من بلغار إلىٰ بلاد البلغار إلىٰ باب الحديد أربعة أشهر تقريباً.

وأما الشبهة في دعوى ملوك القبجاق أنَّ توريز ومراغة لهم علىٰ ما أخبرني به المولىٰ نظام الدين أبو الفضائل يحيىٰ الطياري: أنَّ القان الكبير لمّا جرّد هولاكو لقتل الإسماعيلية ومن كان يتعصىٰ بالجبال سأله هولاكو في تكثير الجيوش معه فجرّد معه من عسكر كل واحد من ملوك بني جنكزخان عسكراً؛ فلمّا فتح بهم ما فتح من البلاد بقيت تلك العساكر معه فرتب لكل فرقة منهم علوفة علىٰ قطر من الأقطار فكان ما رتب للعسكر المجرّد معه من جهة صاحب بلاد القبجاق وخوارزم علىٰ توريز ومراغة فبقوا يأخذون علوفتهم منها.

ثم لمّا مات هولاكو وملك ولده أبغا خادعوه بطريق أَنَّ سلطانهم بركة يريد أن يبني جامعاً بتوريز فمكنهم منه فبنوه، وكتبوا عليه اسم السلطان بركة، ثم سألوا أن يعملوا لهم كرخاناه لاستعمال أقمشة لهم بها فمكنهم منها، وبقوا يستعملون بها القماش للسلطان بركة ودام الحال علىٰ هذا إلىٰ أن وقع بينهما وتلاقيا وكسر بركة لأبغا فخنق أبغا /٩٣/ وأبطل الكرخاناه[٢].

---

(١) باشغرد: هي باشكرد أحد أقاليم بلاد ما وراء النهر، وهم جنس من الترك باسم البشكردية، لهم إقليم مستقل الآن داخل الإتحاد الروسي. وباشغرد بلاد بين القسطنطينية وبلغار «مراصد الإطلاع ١/١٥٣».

(٢) كرخاناه: هي كارخانه وتعني مصنع أو معمل، من الكلمة الفارسية كارخاته بنفس المعنى «فرهنگ رازي ٦٧٦».

ثم لمّا نشبت تلك الوقعة الكائنة وهدي ما بين ملكي الملكين أعيدت الكرخانا، على أنَّهم هم يحضرون من بلادهم أموالاً لاستعمال ما شاءوا فيها كلما تمادت المدد، وجعلوا الجامع والكرخاناه المبنيين باسم السلطان بركة سبباً لهذه الدعوى، ولقد جاءت رسلهم إلىٰ محمود غازان بطلب توريز ومراغة، وقالوا له: هذه جيوش أبينا فتحها سيوفهم، وهي لنا وحقنا بالإرث عنهم فأعطنا حقنا

فقال لهم قازان[١]: أنا ما أخذت الملك إلاّ بالسيف لا بالميراث؛ ومما أخذته وحزته بسيفي توريز ومراغا وبيني وبينكم السيف فيها.

ثم لم يزل السلطان القائم الآن بمملكة القبجاق يتعلق بحبال هذه الشبهة ويطالب بدعوىٰ هذه الوراثة.

وسئل الشيخ علاء الدين بن النعمان عن جيوشه ؟ فقال: كثيرة تفوت الحصر، فقال: كم هم بالتقريب؛ فقال: لا أعلم، لكن خرج مرّة عليه وعلىٰ القان الكبير أسنبغا[٢] سلطان ما وراء النهر وتغلّب وقطع الطريق، وقال: أنا أحقّ بالملك منهما، ونهب السيارة وأخرج يداً عن طاعة القان، فكتب القان إلىٰ تقيقا بأن يقاتله فجرّد إليه من كل عشرة واحداً، فبلغ عدّة المجردين مائتين وخمسين ألفاً.

قال النعمان: وهذا الذي دخل تحت العدد والإحصاء سوىٰ المجتمعة والطماغة.

قال: وألزم كلّ فارس بغلامين وثلاثين رأساً من الغنم وخمسة أرؤس من الخيل، وقد زين نحاساً وعجلة برسم حمل السلاح وغزا أسنبغا وكسره وانتصر عليه نصرة ظاهرة ثم عاد مؤيداً منصوراً.

قال: النعمان: مبدأ عرض هذه المملكة من دمر قبود؛ وهي مدينة من بناء الإسكندر كان عليها باب من الحديد، وليس هو الآن إلىٰ بلاد بوغز، وطولها من ماء لمرنس ـ وهو أعظم من نيل مصر بكثير ـ من ناحية بلاد الخطا إلىٰ إسطنبول[٣] ويتجاوز هذا الطول قليلاً إلىٰ بلاد تسمّىٰ نمج[٤].

---

(١) قازان: هو غازان بن أرغون بن آباقا بن هولاكو حكم ما بين ١٢٩٥ـ ١٣٠٤م «تركستان ٧١٧».

(٢) أسن بغا بن دوا بن براق بن أسن دوا بن موتكن بن جغتاي، حكم ما وراء النهر ١٣١٠ـ١٣١٨ «تركستان ٧٢١».

(٣) أصطنبول: هي أسطنبول، وهي القسم الواقع بالعدوة الشرقية من النهر، وهي مدينة في سفح جبل داخل البحر نحو تسعة أميال وهي قسم من القسطنطينية «رحلة ابن بطوطة ٢٣٣» وهي الآن إستانبول وأسلامبول والأستانة.

(٤) نمج من بلاد الروس.

/ ٩٤/ قال: وبلاد نمج مشتركة بين بلاد الروس والفرنج.

قال النعمان: والتجار لا يتعدُّون مدينة بلغار، يسافرون إلىٰ بلاد جولمان، وتجار جولمان يسافرون إلىٰ بلاد بوعزة؛ لأنّها من أقصىٰ الشمال، وليس بعدها عمارة غير برج عظيم من بناء الإسكندر علىٰ هيأة المنارة العالية وليس بعده مذهب إلاّ الظلمات.

فسُئل: أيُّ شيء عندك الظلمات؟ قال: صحارٍ وجبال لا يفارقها الثلج والبرد ولا تطلع عليها الشمس ولا ينبت فيها نبات، ولا يعيش فيها حيوان أصلاً[1]، متصلّة ببحر أسود لا يزال يمطر والغيم منعقد عليها ولا تطلع عليه الشمس أصلاً أبداً.

قال النعمان: وقيل: إنَّ الإسكندر مرّ بأطراف أوايل ـ جبال الظلمات القريبة من العمارة ـ فرأىٰ فيها إنساناً من جنس الأتراك أشبه الناس بالوحوش لا يعرف أحد بلغتهم، وإذا أمسكهم أحد فرُّوا من يده يأكلون من نبات الجبال المجاورة لهم فإذا قحطوا أكل بعضهم بعضاً، فمرَّ بهم ولم يعترضهم.

قال النعمان ـ وقد ذكر صاحب مملكة القبجاق ـ: وأكثر رعية هذا الملك سكان غربي الشمال وهم أمم لا يحصون وأكثرهم روس، ثم من بعدهم أتراك دشت القبجاق؛ وهم قبائل كثيرة فيهم مسلمون، وفيهم كفار ويبيعون أولادهم وقت الغلاء والقحط.

وأما وقت الرخص فيسمحون ببيع البنات دون البنين ولا يبيعون الولد الذكر إلاّ عن غلبة.

وحدّثني الفاضل شجاع الدين عبد الرحمن الخوارزمي الترجمان: أنَّ مدينة السراي بناها بركة قان على شط نهر توران[2]؛ وهي في أرض سبخة بغير سور، ودار الملك بها قصر عظيم علىٰ عليائه هلال ذهب قنطاران بالمصري، ويحيط بالقصر أبراج مساكن لأمرائه، وبهذا القصر مشتاهم.

قال: وهذا النهر يكون قدر النيل ثلاث مرات أو أكثر وتجري به السفن الكبار /

---

(١) والسفر إليها لا يكون إلا في عجلات صغار تجرها كلاب كبار فإن تلك المفازة فيها الجليد، فلا تثبت قدم الآدمي ولا حافر الدابة فيها، والكلاب لها الأظفار فتثبت أقدامها في الجليد «رحلة ابن بطوطة ووصف أرض الظلمة ٢٢٥ـ ٢٢٦».

(٢) نهر توران: اسم منطقة يحدها من الغرب خوارزم ومن الجنوب نهر جيحون (تقويم البلدان ٤٨٣) ومدينة سراي بركة وسراي واقعة على نهر يسمى الآن بنهر أتيل، وذكره ابن بطوطة نهر اتل «رحلة ابن بطوطة ٢٣٧».

/٩٥ تسافر إلىٰ الروس والصقلب[١]، وأصل هذا النهر أيضاً من بلاد الصقلب.

قال: وهي ـ يعني السراي ـ[٢] مدينة كبيرة ذات أسواق وحمامات، ووجوه بر مقصودة بالأجلاب، في وسطها بركة ماء من هذا النهر، يستعمل ماؤها للاستعمال.

وأما شربهم فمن النهر يستقىٰ لهم في جرارٍ فخار وتصف علىٰ العجلات وتجر إلىٰ المدينة وتباع بها.

وبعدها عن خوارزم نحو شهر ونصف، وبينها وبين السراي مدينة وحق ومدينة قطلو عنه ستة دراهم.

قال: والأسعار في خوارزم والسراي لا يكاد يتباين ما بينهما، والرطل الخورازمي وزنه ثلاثمائة وثلاثون درهماً وأقواتها فيما يذكر من القمح والشعير والدخن ـ ويسمّىٰ عندهم الأزرن[٣]، والماش[٤]، والجاورس[٥]، وهو شبيه بحب البرسيم ـ وليس يباع عندهم هذه الحبوب إلاّ بالرطل. يقال: كل حمل حمار بكذا، وحمل الحمار عندهم مائة رطل بهذا الرطل.

والسعر المتوسط للقمح بدينارين ونصف، وكذلك الماش والشعير بدينارين وكذلك الدخن، وكذلك الجاروش أو أزيد، والغالب أن يكون سعره قياس سعر القمح، وسعر الشعير واللحم الضاني علىٰ السعر المتوسط في كل ثلاثة أرطال بدرهم.

وبها من جميع الفواكه إلاّ النخل والزيتون وقصب السكر والموز والأترج والليمون والنارنج.

وفيها من أنواع الطير والوحش، وبها الغزلان كباراً جداً يكون الغزال قدر بقر الوحش.

وبها معدن يخرج منه أحجار يعمل منها قدور، تقيم القدرة نحو ستين سنة لا تتغير.

---

(١) الصقلب: هم الصقالبة، جيل الناس من الناس كانت مساكنهم إلى الشمال من بلاد البلغار وانتشروا الآن في كثير من شرقي أوروبا وهم المسمون الآن بالسُّلاف.

(٢) هناك مدينتان باسم السراي، أحدهما باسم سراي بركة والأخرى السراي ويقعان على نهر واحد مع بلغار.

(٣) الأزرن: نوع من الحبوب شبيه بالأرز وليس هو وقريب من القمح والشعير «فرهنگ عميد ١/ ١١٢».

(٤) الماش: نوع من الحبوب يشبه العدس وهو من نوعية القمح «انظر: فرهنگ عميد ٢/ ١٧٣٧».

(٥) الجاورس هو گاورس الذرة العويجة، نوع من الذرة ثمرته في أعلاه «انظر: فرهنگ عميد ٢/ ١٦٧٤».

وبها جبل يقال له جبل الخيل من خوارزم به عين تعرف به ذوو الأمراض المزمنة، ويقيمون عندها سبعة أيام، في كل يوم يغتسلون بمائها بكرةً وعشية، ويشربون عقيب كل اغتسال إلىٰ أن يتضلعوا فيحصل لهم البرء وبجيحون سمكة لا يوجد بها عظم إلاّ الميل الذي في سلسلة الظهر وإلاّ فكلها لحم ورأسها /٩٦/ غضروف.

وخوارزم[١] علىٰ جيحون بين شعبتين منه مثل السراويل، وبخوارزم مائة بيت يهود ومائة بيت نصارىٰ لا غير ولا يسمح لهم في الزيادة علىٰ ذلك.

ويلي خوارزم أرض مدورة، وتسمّىٰ هذه الأرض المدورة منقشلاغ[٢] طولها خمسة أشهر وعرضها كذلك وكلّها صحراء وسكّانها اسم كثيرة من البرجان، ويفصل بين هذه الأرض وبين جيحون جبل اسمه آق بلقان شمالي خراسان وخوارزم إقليم منقطع عن خراسان وعمّا وراء النهر ويحيط فيها المفاوز من كل جانب وحده متصل بحدّ الغربة مما يلي الشمال والغرب وجنوبيه وشرقيه خراسان وهو علىٰ جانبي جيحون، وقصبته في الجانب الشمالي منه ويسمىٰ كات[٣] باللغة الخوارزمية، وفي الجانب الجنوبي الجرجانية.

وفي هذا الإقليم عدّة مدن؛ وأول مدن خوارزم بلد يسمىٰ الظاهرية مما يلي آمل، وتمتدّ العمارة في جانبي جيحون معاً.

وملوك هذه المملكة مَشْتاهم السراي ـ كما ذكرنا ـ ومصيفهم ...

ثم وجميع ملوك توران وتتارها بجبل اسمه آراق طاغ طوله من أقصىٰ الصين إلىٰ أقصىٰ الغرب ينقطع بالبحر المحيط عند منتهىٰ سبته، ويقع البحر الرومي كلما اشتق منه وسائر بلاد توران في جنوبه.

وحدود مجموع مملكة أزبك طولاً من درعان خوارزم من المشرق إلىٰ كاشغر وعرضاً من خوارزم إلىٰ أقصىٰ بلاد سبر التي يجلب منها السمور والسنجاب وهي من بلاد الصقالبة.

قال: وليس بعدهم في العمارة شيء.

(١) أكبر مدن الأتراك وأعظمها وأجملها وأضخمها، لها الأسواق المليحة والشوارع الفسيحة والعمارة الكبيرة «رحلة ابن بطوطة ٢٣٩» .

(٢) منقشلاغ، شبه جزيرة «انظر: معجم البلدان ٤/ ٦٧٠».

(٣) كات: رستاق عاصمة خوارزم «تركستان ٢٥٠».

وقال: وقد جاء جدي فُتيا من بعض أهلها كيف تكون صلاة أهل بلد لا يغيب عندهم الشفق حتىٰ يطلع الصبح لسرعة انقضاء الليل.

قال: فلمّا صارت هذه المملكة بعد ملوك الخوارزمية إلىٰ بني جنكزخان استمروا بعساكر خوارزم علىٰ حالهم علىٰ إقطاعاتهم؛ وكل من كان بيد آبائه شيء هو الآن بيد أبنائه.

قال: والأمراء لهم بلاد منهم من يعمل بلاده /٩٧/ في السنة مائتي ألف دينار رائجاً وما دون ذلك إلىٰ مائة ألف دينار رائج.

وأما الجند فليس لأحد منهم إلاّ نقود تؤخذ من علىٰ النطع وكلّهم سواء؛ لكل واحدٍ منهم في السنة مائتا دينار رائج.

وقد كان زيّهم زي عسكر مصر والشام في الدولة الإسلامية وما يناسب ذلك؛ فأمّا الآن فزيّهم زي التتار إلاّ أَنَّهم بعمائم صغار مدورة.

* * *

في مملكة الإيرانيين

وهي العراق والعجم[1] وخراسان[2]، هذه المملكة طولاً من نهر جيحون المحيط بآخر حدّ خراسان إلىٰ الفرات القاطع بينهما وبين الشام. وعرضاً من كرمان المتصل بالبحر الفارسي المنقسم من البحر الهندي إلىٰ نهاية ما كان بيد بقايا الملوك السلجوقية بالروم علىٰ نهاية حدود العلايا وأنطاكية من البحر الرومي[3].

ويفصل في الجانب الشمالي بين هذه المملكة وبين بلاد القبجاق النهر المجاور لباب الحديد وهو المسمّىٰ باللغة التركية دمر قابو[4]، وبحر طبرستان وهو المسمّىٰ بحر الخزر والقلزم[5].

أخبرني الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيىٰ بن الحكيم الطياري: أنَّ هذه المملكة تكاد تكون تربيعية[6]؛ فيكون طولها بالسير المعتاد أربعة أشهر، وعرضها أربعة أشهر.

وهذه هي المملكة الصائرة إلىٰ بيت هولاكو بن طولي بن جنكزخان وتداولها السلاطين من أبنائها إلىٰ الآن، وهي متوسطة في المعمور من أجلّ ممالك الأرض وأوسطها في الطول والعرض، وبها تخت الأكاسرة[7] إلىٰ أن تسلَّمه الإسلام.

ثم استقرّت بها قاعدة الخلافة العباسية إلىٰ آخر الأيام، ذات أقاليم كثيرة، ومدن كثيرة مشتملة علىٰ رساتيق[8] وأعمال وخطط وجهات.

---

(١) إيران: العراق العجمي.

(٢) خراسان: أحد الأقاليم الإيرانية المشهورة يقع شمال شرق إيران، وعاصمته نيسابور .

(٣) البحر الرومي: البحر الأبيض المتوسط.

(٤) دمر قابو: من اللغة التركية بمعنى الباب الحديد.

(٥) ويدعى أيضاً بحر قزوين وبحر مازندران وبحر طبرستان وبحر گيلان.

(٦) أي مربعة الشكل.

(٧) جمع مفرده كسرى وهو حاكم الفرس من الكلمة البهلوية خسرو «فرهنگ رازي ٢٧٧».

(٨) جمع مفرده رستاق وتعني قرى «فرهنگ رازي ٤٠٨، فرهنگ عميد ٢/ ١٠٧٢».

وقاعدة الملك بها الآن توريز[١] ثم السلطانية.

وبيت هولاكو يرون أنَّ الملك من قعد علىٰ التخت بأوجان، وأوجان /٩٨/ في ظواهر توريز، وفيها من المماليك العظيمة العراقان؛ عراق العرب، وعراق العجم وخراسان وكرمان وفارس وأذربيجان وآران والري والجبال وديار بكر وربيعة والجزيرة وأرمينية[٢] وكرجسان[٣] والروم[٤].

وإذا أنصفت هذه المملكة كانت قلب الدنيا علىٰ الحقيقة؛ وهذه المملكة تندرج في مطاويها عدّة ملوك كلهم عبيد سلطانها كصاحب هرى[٥] ـ وأصل اسمها حقيقة هرات ـ وصاحب كرمان[٦]، وصاحب گيلان[٧]، وصاحب سمنان، وصاحب مالاين، وصاحب أزرق ونحن نتكلم عن قواعد الملك بها.

أمّا توريز فواقعة في أذربيجان، وهي مدينة قديمة اعرقت في السعادة أنسابها، وثبتت في النعمة قواعدها.

وأمّا السلطانية فواقعة في عراق العجم بناها السلطان محمد خدابنده، أو ابن أرغون بن أبغا بن هولاكو[٨] بناها ووسع فناها وأتقنت قسمتها في الخطط والأسواق، وجلب إليها الناس من أقطار الأرض، ومن أقطار مملكته واستجلبهم إليها بما بسط لسكانها من العدل والإحسان، وهي الآن عامرة آهلة كأَنَّما مرَّت عليها مئين السنين لكثرة من استوطنها، وتأهل بها وأولد من الولد فيها، وقد مضت عليها مدَّة يبلغ بنوها مبالغ الرجال، ومنهم من جاز إلىٰ رتبة الاكتهال.

وأمّا أوجان فهي بظاهر توريز ذات مروج ممتدة وماء جمّ وبها قصر اتخذه أواخر ملوكهم صار معداً لمنزل السلطان. وبنى أكابر الأمراء قصوراً لمنازلهم حوله.

فأمّا عامة الخواتين والأمراء والكبراء فإنَّهم يتخذون زورباً[٩] من القصب كالحظائر ينزلون بها أيام نزولهم بأوجاب في مشاتيهم، وينصبون مع حظائرهم الخركاوات[١٠] والخيم وتمدّ السواق وتبقى مدة مشتاهم بها، مدينة متسعة الجوانب، فسيحة المذاهب حتى إذا إلى مصيفهم راحلين منها أحرقوا تلك الحظائر لكثرة ما

(١) وهي تبريز.
(٢) هي جمهورية أرمينيا الآن.
(٣) هي جمهورية جورجيا الآن.
(٤) هي جمهورية تركيا الآن.
(٥) هرى وهراة: وهي مدينة قائمة الآن في أفغانستان.
(٦) كرمان: إقليم شرقي إيران.
(٧) كيلان هي گيلان وجيلان.
(٨) أولجايتو بن أرغون بن آباقا بن هولاكو المعروف عجمد خربنده ثم خدابنده حكم ما بين ١٣٠٤ـ ١٣١٦ في إيران والعراق وهو السلطان الثامن في سلسلة أبناء هولاكو «تركستان ٧١٧».
(٩) زورباً جمع مفرده زربية وهي الحظيرة.
(١٠) خركاوات جمع مفرده خركاه وهي خيمة كبيرة «فرهنگك عميد ١/ ٨٥٠».

يتولد فيها لا يحرق من الأفاعي /٩٩/ والحيات.

أخبرني الفاضل نظام الدين أبو الفضل يحيى بن الحكيم: أنَّه يُغرم على تلك الحظائر خزائن أموال، ثم يحرقونها لا يبالون بها.

وملوك هذه المملكة مشتاهم بأوجان، وفي بعض السنين ببغداد؛ وأمّا مصيفهم فبقراباغ[1] - باللغة التركية معناه البستان الأسود - وتربته سوداء، وثَمَّ قرى ممتدة؛ وهو صحيح الهواء والماء كثير المرعى؛ وإذا نزل به الأردو والأردو هو محلّة السلطان، وأخذت الأمراء به والخواتين منازلهم ينصب به مساجد جامعة وأسواق منوعة يوجد بها من كل ما في أمهات المدن الكبار حتى يكون للخياطات أسواق ومحلات، ولا مكر على أحد بل كل امرىء وما استحسن؛ وإنما الموجودات على كثرتها من الملابس والمآكل والمشارب والماعون وأجر الصنايع غالية جداً لكلفة المحمل ومؤنة الأسفار حتى يبلغ الشيء ثمن مثله مرتين وأكثر.

وأما الكلام في توريز، فإنها مدينة غير كبيرة المقدار، والماء مساق مجلوب إليها، وبها أنواع الفواكه، ولكنها ليست بغاية من الكثرة.

وأمّا أهلها فمن أظهر الناس حشمة، وأكثرهم تظاهراً بنعمة، ولهم الأموال المديدة والنعم الوافرة والنفوس الأبية للدنايا، ولهم التجمل في زيهم جميعه من المأكول والمشروب والملبوس والمركوب، وما منهم إلّا من يأنف أن يذكر الدرهم في معاملته بل لا معاملة بينهم إلاّ بالدينار، وهو مسمّىٰ عندهم بالرائج عندهم ستة دراهم، هو معاملة تلك المملكة إلاّ بغداد وبلادها وخراسان.

فأمّا معاملات بغداد فستأتي في مكانها.

وأمّا خراسان فدينارها أربعة دراهم - كما تقدّم ذكره في مملكة ما وراء النهر - وفي بعضها هذا الرائج.

ولنرجع إلىٰ ما كنا في ذكره من أمور توريز، فذكرنا أنها مدينة ليست بخارقة في الكبر، ولا لها حواضر في خارجها، وهي اليوم أم أيران جميعاً لتوجُّه القاصد / /١٠٠/ من كلّ جهة إليها، وبها محط رحال التجار والسفار، وبها دور أكثر الأمراء الكبراء المصاحبين لسلطانها، لقربها من أوجان؛ وهي مستقر أكثر أوقاتهم.

ويشتدّ البرد بتوريز كثيراً وتتوالىٰ الثلوج بها حتىٰ إنه ليتخذ سروات أهلها في أدرهم أدراً مستوية لا انفراج في سقوفها ولا في دوائرها ولا ضوء لها إلاّ ما تؤديه طاقات حيطانها من وراء الزجاج المركّب عليها.

وأما السلطانية فأوسع بقعة وفضاء وأكثر فاكهة وماء؛ وهي مع كون بعض سلاطين

---

(١) قراباغ: إقليم ذات حكم ذاتي تابع لأرمينيا.

هذا البيت أنشأها إلمامهم بها أقلَّ من توريز، وبها قلعة مبنية مرحلة علىٰ بسيطها، فأمّا الموجود بتوريز وبالسلطانية من الفواكه فمن أنواعها خلا ما لا يطلع في البلاد المفرطة البرد كالأترج والنارنج والليم والليموا والرطب والقصب والموز وما يجري هذا المجرىٰ فإنه لا يجيء إليها إلاّ محمولاً من العراق؛ وهي بلاد ما للزيتون بها نبات.

فأمّا ما عدا هذا من الثمار والرياحين وغالب الخضروات، فإنها لا تعدم أنواعها من كثير متوسط وقليل على اختلاف الشجر والنبات والقمح والشعير والحمص والعدس والفول متوسط الوجود بها، ولو توفرت الدواعي علىٰ الفلاحة والزرع لكثرت مغلاتها وعظمت جباياتها، لكن ملوكها لا التفات لهم إلىٰ ذلك.

فأما الأسعار بتوريز والسلطانية فمتىٰ نزل السلطان علىٰ جهة غلت أسعارها لكثرة أتباعه والنازلين معه مع قلّة الزرع في الأصل.

وأمّا ما لا ينزل عليه السلطان فأسعاره رخية ولا إلىٰ الغاية ولا يباع بتوريز والسلطانية وبلادهم ـ يعني أهل هذه المملكة ـ غالباً في الغالب قمح ولا شعير ولا شيء مما سوى هذا إلاَّ بالميزان، وليس لهم إلاّ المن[1]؛ وهو بتوريز رطلان بالبغدادي فيكون زنته مائتين وستين درهماً وبالسلطانية المن زنته ستّ مائة درهم، وما معاملتهم ـ فكما تقدم ـ بالدينار الرائج.

سألت الفاضل نظام الدين أبا الفضل يحيىٰ بن /١٠١/ الحكيم عن السعر المتوسط في توريز والسلطانية؟ فقال: أمّا مع نزول السلطان فغلا حيث كان، وأمّا مع عدم نزوله فلا يكاد يتفاوت يباع الخبز كل منين بسدس الدينار وهو درهم واحد، وهكذا الشعير إذا رخص قليلاً.

وأمّا في السلطانية فعلىٰ نسبة هذا السعر، وأمّا ما يباع بالأردو فأغلىٰ لتكلف حمولته، وأمّا اللحم في الكل فكثير جداً.

ومما لابُدَّ من ذكره في هذه المملكة مدينة بغداد دار السلام ومدار الإسلام؛ لأنّه مما لا يجوز إهمال ذكرها وإخلاء هذا الكتاب من شيء من حالها؛ فإنَّها وإن لم تكن اليوم كرسي ملك؛ فإنها كرسي ملك الوجود.

وقد تقدّم القول: إنَّ أبا جعفر المنصور[2] بناها وهي جنبان علىٰ ضفتي دجلة شرقي

---

(١) المن: ميزان يختلف مقداره من مكان لآخر.

(٢) عبد الله بن محمد بن علي بن العباس، أبو جعفر، المنصور: ثاني خلفاء بني العباس، وأول من عني بالعلوم من ملوك العرب. كان عارفاً بالفقه والأدب، مقدماً في الفلسفة والفلك، محباً للعلماء. ولد في الحميمة من أرض الشراة (قرب معان) سنة ٩٥هـ/ ٧١٤م وولي الخلافة بعد وفاة أخيه السفاح سنة ١٣٦هـ وهو باني مدينة «بغداد» أمر بتخطيطها سنة ١٤٥ وجعلها دار ملكه بدلاً من «الهاشمية» التي =

وغربي كل منهما مدينة كبيرة عظيمة غنية بنفسها عن الأخرى إحداهما بناء المنصور، والأخرىٰ بناها المهدي[1] موضع معسكره وبينهما جسران منصوبان أحدهما يعرف بالعتيق، والثاني بالجديد، وهما منصوبان علىٰ دجلة شرقاً بغرب علىٰ سفن وزواريق أوقفت في الماء ومدّت بينها السلاسل الحديد المكعبة بالكعاب الثقال وفوقها الخشب الممدد، وعليها التراب مغدف بالقير[2] يمرّ عليها أهل كل جانب إلىٰ الآخر بالجمال والخيل والحمول.

= بناها السفاح. ومن آثاره مدينة (المصيصة) و«الرافقة» بالرقة، وزيادة في المسجد الحرام. وفي أيامه شرع العرب يطلبون علوم اليونانيين والفرس، وعمل أول أسطرلاب في الإسلام، صنعه محمد بن إبراهيم الفزاري. وكان بعيداً عن اللهو والعبث، كثير الجد والتفكير، وله تواقيع غاية في البلاغة. وهو والد الخلفاء العباسيين جميعاً. وكان أفلحهم شجاعة وحزماً إلا أنه قتل خلقاً كثيراً حتى استقام ملكه. توفي ببئر ميمون (من أرض مكة) محرماً بالحج سنة ١٥٨هـ/ ٧٧٥م، ودفن في الحجون (بمكة) ومدة خلافته ٢٢ عاماً. يؤخذ عليه قتله لأبي مسلم الخراساني (سنة ١٣٧هـ) ومعذرته أنه لما ولي الخلافة دعاه إليه، فامتنع في خراسان، فألح في طلبه، فجاءه ،فخاف شره، فقتله في المدائن. وكان المنصور أسمر نحيفاً طويل القامة خفيف العارضين معرّق الوجه رحب اللحية يخضب بالسواد، عريض الجبهة «كأن عينيه لسانان ناطقان، تخالطه أبهة الملوك بزيّ النساك» أمه بربرية تدعى سلامة. وكان نقش خاتمه «الله ثقة عبد الله وبه يؤمن» ومما كُتب في سيرته «أخبار المنصور» لعمر بن شبة النميري.
ترجمته في: ابن الأثير ٥/ ١٧٢ ثم ٦/٦ والطبري ٩/ ٢٩٢ـ ٣٢٢ والبدء والتاريخ ٦/ ٩٠ واليعقوبي ٣/ ١٠٠ وتاريخ الخميس ٢/ ٣٢٤ و٣٢٩ وفيه: «كان في صغره يلقب بمدرك التراب ،وبالطويل، ثم لقب في خلافته بأبي الدوانيق، لمحاسبته العمال والصناع على الدوانيق؛ وكان مع هذا يعطي العطاء العظيم». والنبراس لابن دحية ٢٤ـ ٣٠ وفيه: «قتل من لا يحصى من قريش ومضر وربيعة واليمن وأهل البيوتات من العجم والفقهاء والشعراء. وكانت طبوله من جلود الكلاب» والمسعودي ٢/ ١٨٠ـ ١٩٤ وفيه: «كان يقول: ولدت في ذي الحجة، ووليت في ذي الحجة، وأعذرت في ذي الحجة، ووليت الخلافة في ذي الحجة، وأحسب أن الأمر يكون في ذي الحجة؛ فكان كما ذكر، توفي في ذي الحجة». وتاريخ بغداد ١٠/ ٥٣ وابن الساعي ١١ـ ٢٣ وفوات الوفيات ١/ ٢٣٢، الأعلام ٤/ ١١٧ .

(١) محمد بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي العباسي، أبو عبد الله، المهدي بالله: من خلفاء الدولة العباسية في العراق. ولد بإيذج (من كور الأهواز) سنة ١٢٧هـ/ ٧٤٤م وولي بعد وفاة أبيه وبعهد منه (سنة ١٥٨هـ) وأقام في الخلافة عشر سنين وشهراً، ومات في ماسبذان، صريعاً عن دابته. في الصيد، وقيل مسموماً سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م. كان محمود العهد والسيرة، محبباً إلى الرعية، حسن الخَلق والخُلق، جواداً، يقال: إنه أجاز شاعراً بخمسين ألف دينار؟ وكان يجلس للمظالم ويقول: أدخلوا عليّ القضاة فلو لم يكن ردّي للمظالم إلا حياءً منهم لكفى. وهو أول من مُشي بين يديه بالسيوف المصلتة والقسي والنشاب والعمد، وأول من لعب بالصوالجة في الإسلام. وهو الذي بنى جامع الرصافة، وتربته بها، وانمحى أثر الجامع والتربة بعد ذلك .
ترجمته في: فوات الوفيات ٢/ ٢٢٥ ودول الإسلام للذهبي ١/ ٨٦ والبدء والتاريخ ٦/ ٩٥ وفيها أن المهدي «رد ولاء آل زياد، من نسبهم إلى أبي سفيان، إلى عبيد الثقفي، وكتب بذلك إلى المدن والأمصار» واليعقوبي ٣/ ١٢٥ وابن الأثير ٦/ ١١ و٢٧ والطبري ١٠/ ١١ـ ٢١ والنبراس ٣١ـ ٣٥ والمسعودي ٢/ ١٩٤ـ ٢٠١ وتاريخ بغداد ٥/ ٣٩١ وابن الساعي ٢٣ والوافي بالوفيات ٣/ ٣٠٠، الأعلام ٦/ ٢٢١.

(٢) مغدف بالقير: مغطى بالقير «انظر: المعجم الوسيط ٢/ ٦٦٩».

وعلىٰ ضفتي دجلة قصور الخلافة والمدارس والأبنية العلية بالشبابيك والطاقات[١] المطلّة علىٰ دجلة، وبناؤها بالآجر ـ وهو المسمّىٰ بمصر بالطوب ـ ومن بيوتها ما هو مفروش بالطوب، وما هو مفروش بالقير. ولهم الصنائع العجيبة في التزويق بالطوب. وبها تتلاقىٰ دجلة والفرات وبها البساتين المونقة والحدائق المحدقة.

وأمّا النخيل فلثمراتها فضل علىٰ ما سواها من أنواع منوعة من التمر والرطب، وبها أنواع الرياحين والخضروات والغلات وسعرها متوسط في الغالب لا يكاد يرخص.

وبها ديناران أحدهما يسمّىٰ العوال عنه اثني عشر درهماً، الدرهم بقيراط، وجنين وذلك الدينار عشرون قيراطاً، كل قيراط ثلاث حبات، كل حبة أربع فلوس نقره[٢] عن كل فلس فلسان أحمران.

والثاني الدينار المرسل وبه أكثر مبايعتهم ومعاملات تجارهم عنه عشرة دراهم.

فأمّا الرطل البغدادي فوزنه مائة وثلاثون درهماً، والمن بها مثله من توريز وهو رطلان بالتوراني.

وأمّا كيل الغلال بها فأكثرها الكز[٣] وهو ثلاثون كارة، كل كارة[٤] قفيزان[٥]، فيكون الكرستون قفيزان والقفيز مكوكان[٦]، والمكوك خمس عشر أق[٧].

وتختلف الكارة في الغلال والقمح والهرطبان وهو كارة كلّ منهما مائتان وأربعون رطلاً، وكارة الأرز ثلاث مائة رطل، وكارة كل من الشعير والحمص والعدس والهرطبان مائتا رطل، وكارة الحبة السوداء المسمّاة بالشونيز مائة رطل.

قال الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيىٰ بن الحكيم: أنَّ القانون ببغداد إنَّ كر القمح تسعة وثلاثون ديناراً ونصف دينار، والشعير خمسة عشر ديناراً كلاهما من العوال.

قال: ولعلَّ هذا هو السعر المتوسط لا يكاد يميل فيه القانون عن معدله، وأمّا إذا كان المشتىٰ ببغداد فناهيك بقلَّة الأقوات والغلاء الزائد. وإذا شتّىٰ السلطان ببغداد

---

(١) الطاقات: جمع مفرده طاقة وهو النافذة، الفتحة.

(٢) النقرة: هي الفضة «فرهنگ عميد ٢/ ١٩١٥، فرهنگ رازي ٩٥٩».

(٣) الكز: گز، مقياس يعادل متر، وهو گز بالكاف الفارسية «فرهنگ رازي ٧٥٨».

(٤) كاره: مقياس قديم.

(٥) القفيز: مقياس قديم «فرهنگ رزاي ٦٦٥».

(٦) مكوك: مكيال قديم يختلف مقداره باختلاف اصطلاح الناس عليه في البلاد، قيل: يسع صاعاً ونصفاً، جمعه مكاكيك «المعجم الوسيط ٢/٩١٧».

(٧) آق: هي آقة: نقد قدره أربعمائة درهم أو ثمانية وأربعون وألف جرام، بطل استعمالها في مصر جمعها أقق «المعجم الوسيط ١/ ٢٢».

فناهيك بقلَّة الأقوات، نزل بدار تعرف بالجاثيلق[١] من أدر الخلافة هي الآن باقية البناء تامة البهجة صالحة المنازل للملوك.

قال قاضي القضاة أبو محمد الحسن الغوري: إنها ليست من ديار الخلفاء بل هي دار الدوادار[٢] الكبير، وكان قد نزلها الجاثليق في زمان هولاكو. وكان معظّماً عنده لمكانه من قطر خاتون زوجة هولاكو[٣].

ولقد سألت الصدر مجد الدين بن الدوري عن السبب في قلَّة الغلال ببلاد العراق مع امتداد سوادها وقبول أرضها للنبات؟ فقال: لهذا سببان! قلّة الزرع لما استهلكه القتل زمان هولاكو، وميرة العراق لما جاوره من البلاد.

وببغداد خاصة، وهذه المملكة عامة الآثار الجميلة والآثار الباقية من الجوامع والمساجد والمدارس والخوانق[٤] /١٠٣/ والربط والبيمارستانات[٥] والصدقات الجارية ووجوه البر المتعددة، ومن يوفي صفات محاسن العراق، وقد كانت قبلة ملوك الآفاق وما بالعهد من قدم، ومنها قلائد الأعناق، وترابها لُمىٰ القبل وإثمد الأحداق.

وسألتُ الفاضل نظام الدين أبا الفضل يحيىٰ بن الحكيم: إن كانت الأوقاف باقية في نواحي هذه المملكة عليها الآن أم تناولتها أيدي العدوان فأخبرني بأنها جميعها جارية في مجاريها لم يتعرَّض إليها متعرّض لا في دولة هولاكو ولا فيما بعدها، بل كل وقف بيد متوليه ومن له الولاية عليه؛ وكل ما يقال من نقص أحوال الأوقاف بالإيران جميعاً هو من سوء ولاة أمورها لا من سواهم.

وحدّثني هذا الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيىٰ بن الحكيم الطياري بكثير من أحوال هذه المملكة وقواعد ملوكها وترتيب جنودها وجيوشها؛ فمما حدثني: أنَّ السلاطين بها لا التفات لهم إلىٰ أمرٍ ولا نهيٍ في البلاد ولا في متحصلات الدخل والخرج فيها، بل الوزير هو حامل هذه الأعباء، وله التصرف المطلق في الولاية والعزل والعطاء والمنع لا يشاور السلطان إلاّ علىٰ ما جلّ من المهمّات فيما قلّ من الأمور كلها وبيده عقدها وحلّها.

---

(١) الجاثليق: رئاسة رؤساء الكهنة السريان في بلاد المشرق «الأعلام ٥/ ٣٠٨» ومقدم الأساقفة جمعه جثالقة «المعجم الوسيط ١/ ١١١».

(٢) الدوادار: من الكلمة دوات دار أي صاحب الدواة، يعني الكاتب «انظر: فرهنگ رازي ٣٥٦».

(٣) قطر خاتون: زوجة هولاكو هي دوقوز ختون كانت مسيحية وهي ابنة ملك الكرايت «جامع التواريخ ٢/ ٢٢٠».

(٤) خوانق: جمع مفرده خانقاه، مكان يقيم فيه المتصوفة، وهي الصومعة والتكية «فرهنگ رازي ٢٦١».

(٥) البيمارستانات جمع مفرده بيمارستان، وترد أحياناً مارستان في الفارسية وغالباً في العربية وهي دار الشفاء «فرهنگ رازي ٧٤» ويذكرها ابن بطوطة مانستار «رحلته ص ٢٣٥».

فأمّا أمر الجيوش والعساكر فإلىٰ كبير أمراء الألوس؛ وهو المسمّى بكلاري بك ـ أي أمير الأمراء ـ كما كان قطلوشاه[1] مع السلطانين محمود غازان وأخيه محمد خدابنده، وجوبان مع محمد خدابنده، ثم بعده مع ولده السلطان أبو سعيد بهادرخان.

وهذا القائم الآن الشيخ حسن بن حسين بن أقبغا[2] مع السلطان محمد بن طشتمر بن استنتمر بن عبرجي[3].

وأمراء الألوس أربعة: بكلاري بك وثلاثة آخرون، ويسمّىٰ هؤلاء الأربعة أمراء القول، ويشترط أن يكون هؤلاء هم الذين تكتب أسماؤهم في اليراليغ[4] والفرمانات[5] بعد اسم السلطان ثم اسم الوزير بعدهم ولا يتوقف في كتابه.. /١٠٤/ اسم من الأسماء ممن هو غائب منهم عن الأردو، بل تكتب أسماؤهم كلّهم حضر منهم من حضر، وغاب من غاب، وكل ذي سيف لا يخرج أمره عن القائم بهذه الوظيفة التي هي إمرة أمراء الألوس، وكل ذي قلم ومنصب شرعي لا يخرج عن الوزير.

وطبقات الأمراء أعلاها النوين[6] وهو أمير عشرة آلاف، ثم أمير ألف، ثم أمير مائة، ثم أمير عشرة. هذه طبقات رتبهم لا نقص فيها ولا مزيد عليها.

وعامة العسكر لا تزال أسماؤهم في دواوينهم علىٰ الأفراد، بل كلّ طائفة عليهم في الديوان فارس معين إذا رسم له بالركوب ركب منهم العدة المطلوبة.

وسألت الفاضل أبا الفضائل يحيىٰ بن الحكيم عن مقدار عدّة الجيش؟ فقال: أما المنزل في دواوينهم فما يبلغ عشرين توماناً[7]، وأمّا إذا أرادوا ركبوا بثلاثين توماناً وما يزيد عليها، وهم اليوم في انبتات شمل، وشتات آراء لا يلتئم لهم جمع ولا يضمُّهم وفاق.

قلتُ له: فكم مقدار ما لهؤلاء من الأرزاق، فقال: أمّا ما هو مستقرّ لهم في دواوينهم من زمان هولاكو فلا يرضىٰ أحدهم من كبارهم به ولا بأضعافه مرات.

---

(١) قطلوشاه أو قتلوشاه من كبار القادة المغول، قتل سنة ٧٠٧هـ «انظر: الدرر الكامنة ٧/ ٣٣٩».

(٢) حسن بن حسين بن أقبغا وهو ابن عمة السلطان أبو سعيد بهادر وقد تغلب على الملك بعد موت السلطان «انظر رحلة ابن بطوطة ١٥٤».

(٣) طشتمر بن استنتمر بن عبرجي هو طاش دمر.

(٤) يراليغ: جمع مفرده يرليغ وهي كلمة مغولية بمعنى حكم أو أمر «فرهنگ رازي ١٠٣٨».

(٥) الفرمانات جمع مفرده فرمان والفرمان هو الحكم أو الأمر.

(٦) نوين: نوين ونويان، لفظ مغولي لأمراء وقواد المغول الكبار «فرهنگ رازي ٩٧١، فرهنگ عميد ١/ ٢٣٤ـ ٢٣٥» ونوين معناها رئيس تومان أي رئيس فرقة من عشرة آلاف «انظر: حاشية كاترمير على جامع التواريخ ٨٦، صبح الأعشى ٤/ ٤٢٣».

(٧) تومان: قائد ألف في العصر المغولي «فرهنگ عميد ١/ ٢٣٤» وهي تعادل عشرة آلاف دينار «فرهنگ رازي ١٧٩» وتومان تعني عشرة ريالات في العصر الحديث.

وأما الصغار فما يتجاوز أحدهم المستقرّ له، قلت: فكم هو المستقرّ في الديوان، وبكم تقنع كبارهم الآن؟ فقال: المقرر من قديم لكل نونين أمير تومان تومان ـ وهو عشرة آلاف دينار رائج ـ منها ستون ألف درهم.

وأمّا اليوم فما يقنع النوين منهم إلاّ بخمسين توماناً ـ وهي خمسمائة ألف دينار رائج ـ عنها ثلاثة آلاف ألف درهم، ومن خمسين توماناً إلىٰ أربعين توماناً.

وأمّا كبيرهم بكلاري بك فالذي استقرَّ لجوبان ثم لمن بعده ثلاث مائة تومان ـ وهي ثلاثة آلاف ألف دينار، عنها ثمانية عشر ألف ألف درهم ـ مع ما يحصل لكل من أمراء الألوس الأربعة من الخدم الكثيرة في البلاد جميعاً عند تقريرات الضمان لها علىٰ ضمانها، علىٰ ما نُنبّه عليه في موضعه.

قال: وأمّا أمير الألف ومن دونه فلا يتجاوز أحد منهم مقرّره القديم في الديوان لأمير الألف ألف دينار رائج عنها ستة آلاف /١٠٥/ درهم.

وأما أمير المائة والعشر وكل واحد من العسكر ـ أي الجند ـ فمائة دينار رائج عنها ستمائة درهم لا تفاوت بينهم، هذا هو المقرر الجاري من قديم؛ وإنما تبقىٰ مزية أمير المائة أو العشرة أنه يأخذ لنفسه شيئاً مما هو للعسكرية.

ولكلّ طائفة أرض لنزولهم توارثها الخلف عن السلف منذ ملك هولاكو هذه البلاد، وفيها منازلهم، ولهم بها مزدرع لأقواتهم لكنّهم لا يعيشون بالحرث والزرع، هذه جملة ما هو لعساكر إيران ما ازداد وما هو مستقر في الديوان.

وأمّا الخواتين فالذي لهنّ الآن منه ما يبلغ للخاتون الواحدة مائتا توماناً؛ وهو ألف ألف دينار، عنها اثنا عشر الف ألف درهم وما دون ذلك إلىٰ عشرين توماناً؛ وهو مائتا ألف دينار عنها ألفا ألف ومائتا ألف درهم.

وقال لي الفاضل أبو الفضل يحيىٰ بن الحكيم: وهذا قد يزيد وينقص؛ وأمّا الوزير فله مائة وخمسون توماناً؛ وهو ألف ألف وخمسمائة ألف دينار رائج عنها تسعة آلاف ألف درهم.

قال: ولا يقنع بعشرة أضعاف هذا في تقارير البلاد.

وأمّا الخواجكية[1] من أرباب الأقلام فمنهم من يبلغ في السنة ثلاثين توماناً؛ وهي ثلاث مائة ألف دينار عنها ألف ألف وثمانمائة ألف درهم.

قال: وبهذه المملكة ما لا يحصىٰ من الإدارات والمعيشات والمرسومات حتىٰ إنَّ بعض الرواتب تبلغ عشرين ألف دينار. وأمّا الادرارات من المبلغ فإنها تبقىٰ

---

(١) الخواجكية: جمع مفرده خواجة، وهو لقب يعادل كلمة السيد والرئيس، وهنا تعني الكاتب، وكان هذا اللقب يطلق على أهل العلم والأدب «انظر: فرهنگ رازي ٢٩٠».

لصاحبها كالملك يتصرف فيه كيف يشاء من بيع وهبة ووقف لمن أراد، والمعايش لمدة الحياة لا غير والمرسومات والإنعامات.

قال: وهي مما لا يحصىٰ.

قال: ومن هؤلاء من المستوفين[١] من له الضبط علىٰ اتساع أقطار الممالك.

قال: وأما وظيفة القضاء فعادة هذه المملكة أن يكون بها في صحبة السلطان قاضي قضاة الممالك؛ وهو يولّي في جميع المملكة علىٰ تنائي أقطارها إلاّ العراق فإنَّ لبغداد قاضي قضاة /١٠٦/ مستقلّ بها يولّي بها، وفي بلادها جميع عراق العرب.

وقال لي قاضي القضاة أبو محمد الحسن الغوري: إنَّ آخر ما استقرّ له ستّ قريّ وتومان عشرة آلاف دينار في السنة.

قال الفاضل نظام الدين أبو الفضائل يحيىٰ بن الحكيم: إنَّ ملوك هذه المملكة وأمراءها لهم ميلٌ كليّ إلىٰ الشراب؛ فملوكها اشتغالهم كلّه بلذاتهم، وأمور دولتهم منقسمة بين أمير الألوس والوزير علىٰ ما تقدّم، ولاشتغال سلاطينهم باللذات وانعكافهم علىٰ منىٰ نفوسهم، ومنتهىٰ شهواتهم، عرضوا عن تدبير البلاد وأحوالها ولم يفكروا في مالها إن كثر أو قل. وبملّتهم كيش[٢] ونعمان وهما مغاص اللؤلؤ، وبالدامغان في حيلها معدن ذهب.

قال لي شيخنا الإمام العلاّمة فريد الدهر شمس الدين أبو الثناء محمود الأصفهاني: إنَّ هذا المعدن قليل المتحصل لكثرة ما يحتاج من الكلف حتىٰ يستخرج. وبشنكاوة شرقي العجم البازهر[٣] الحيواني يوجد بمعاليق الايايل؛ وهو الذي لا يباريه شيء في مقاومة السموم.

قال ابن البيطار[٤]: وأجوده الأصفر ثم الأغبر، وخاصة النقع من السموم

---

(١) المستوفي: هو المحاسب والمحصل للحقوق وهي وظيفة «انظر: فرهنگ رازي ٨٦٠».

(٢) كيس: تعجيم قيس، جزيرة في وسط البحر تعد من أعمال فارس، وتعد من أعمال عمان «مراصد الاطلاع ٣/ ١١٩٢» وهي الآن جزيرة كيش.

(٣) البازهر: هو من الكلمة الفارسية باد زهر المأخوذة من البلهوية Patyahr وتعني ضد السم، الترياق المضاد للسم «فرهنك عميد ١/ ٤١٧».

(٤) عبد الله بن أحمد المالقي، أبو محمد، ضياء الدين، المعروف بابن البيطار: إمام النباتيين وعلماء الأعشاب. ولد في مالقة، وتعلم الطب، ورحل إلى بلاد الأغارقة (Grece) وأقصى بلاد الروم، باحثاً عن الأعشاب والعارفين بها، حتى كان الحجة في معرفة أنواع النبات وتحقيقه وصفاته وأسمائه وأماكنه. واتصل بالكامل الأيوبي (محمد بن أبي بكر) فجعله رئيس العشابين في الديار المصرية. ولما توفي الكامل استبقاه ابنه (الملك الصالح أيوب) وحظي عنده واشتهر شهرة عظيمة. وهو صاحب كتاب «الأدوية المفردة ـ ط» في مجلدين، المعروف بمفردات ابن البيطار. وله «المغني في الأدوية المفردة ـ خ» مرتب على مداواة =

الحيوانية والنباتية ومن عضّ الهوام ولدغها؛ وإذا شرب منه مسحوقاً أو مسحولاً وزن اثني عشرة شعيرة خلص من الموت، وإذا امتصه تبادر للسم نفعه، وإن نثر علىٰ موضع لسع الهوام حين يلسع اجتذب السم.

وبها الإثمد علىٰ مسافة يوم من أصبهان[١] في حفر بالأرض وهو الذي لا يقوم شيء مقامه؛ وإنَّما قلّ النوع الجيد الآن.

سألت شيخنا شمس الدين محمود الأصفهاني عن سبب قلّته ؟ فقال: لانقطاع عرقه فما بقي منه يوجد إلاّ ما يُرىٰ منه.

وبهذه المملكة مستعملات القماش الفاخر من النخ والمخمل[٢]، والكمخا، والعتابي والنصافي والصوف الأبيض المارديني[٣]؛ وهو النهاية في بابه.

وتُعمل البُسط الفاخرة في مواضع بها مثل شيراز[٤] واقصرا[٥] وتوريز.

وحدّثني شيخنا فريد الدهر شمس الدين أبو الثناء محمود الأصفهاني: أنَّ بمدينة قشمير مسيرة ثلاثة أيام عن أصفهان عين ماء سارحة نزرة يسمّىٰ ماؤها بماء الجرادلة خاصية أنْ يحمل من مائها في إناء إلىٰ الأرض التي أتاها الجراد فيعلق ذلك الإناء في تلك الأرض فيقصدها ما لا يحصىٰ من طير يقال له سار[٦] يأكل ما فيها من الجراد حتىٰ يفنىٰ.

قال لي شيخنا شمس الدين: وتعليق هذه الإناء شرط في خاصيته بحيث لا يمسّ الأرض في طريقه، ولا في مكان تعليقه.

وحكىٰ لي الأمير السيد المجيد في كتابه محمد بن حيدر الشيرازي: أنَّه بين الدامغان واستراباذ من خراسان عيناً ظاهرة إذا ألقي فيها نجاسة فار ماؤها وأزبدت

= الأعضاء، و«ميزان الطبيب ـ خ» و«الإبانة والإعلام، بما في المنهاج من الخلل والأوهام ـ خ» في مكتبة الحرم المكي (٣٦ طب) نقد فيه منهاج البيان لابن جزلة. توفي في دمشق سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م.

ترجمته في: طبقات الأطباء ٢/ ١٣٣ ونفح الطيب ٢/ ٦٨٣ وآداب اللغة ٢/ ٣٤١ و Brock I: 647 ودائرة المعارف الإسلامية ١/ ١٠٤ وفوات الوفيات ١/ ٢٠٤ والفهرس التمهيدي ٥٢٤ وفهرس المخطوطات المصورة ٣ طب ٥، الأعلام ٤/ ٦٧.

(١) أصبهان: هي أصفهان إحدى المدن الإيرانية مجاورة لبلاد اللور «معجم البلدان ٢/ ٤٠٤».

(٢) النخ والمخمل: النخ، نوع من القماش القطني أو الحريري «فرهنك رازي ٩٤٤» والمخمل، نوع من القماش الناعم «فرهنك رازي ٨٣٩».

(٣) الكمخا والعتابي والنصافي والمارديني: أنواع من الأقمشة.

(٤) شيراز: قاعدة فارس، وهي مدينة أصيلة البناء، تضارع دمشق «انظر وصفها عند: ابن بطوطة ص١٣٦».

(٥) أقصرا: من بلاد الروم وتابعة لملك العراق «انظر: رحلة ابن بطوطة ١٩٦».

(٦) سار: طائر صغير أكبر من العصفور يظهر أول الربيع، غذاؤه العنب والتوت لحمه حلال «فرهنگ عميد ٢/ ١١٤٣».

وتكدّر جوّها[١].

وحدّثني /١٠٧/ شيخنا فريد الدهر شمس الدين الأصفهاني: أنَّ بمازندران وهي المسماة طبرستان عين ماء، من حمل من مائها تبعته دودة طول أنملة الإنسان؛ فلو حمل الماء تسعة وكان معهم عاشر لم يحمل الماء تبع كل واحد منهم تلك الدودة واستحال الماء مرّاً لوقته، واستحال ماء كل من هو وراءه مُرّاً، وأمّا من هو علىٰ جانبه فلا يستحيل ماؤه.

ومن عادة هذا السلطان أن يصحبه في الأردو في كل حلٍ ومرتحل أعيان من العلماء والمدرسين برواتب جاريات علىٰ السلطان، ومع كل منهم فقهاء وطلباء.

وهؤلاء هم المسمّون بمدرسي السيارة، ومعهم أعيان الحواصلية الرؤساء، وطوائف الدواوين والكتاب ومن جميع أرباب الصنائع والمهن حتىٰ يكون الأردو كالمدينة العظيمة يترك ويرحل معه.

وأخبرني الصدر مجد الدين إسماعيل السلامي: أنّه يوجد بالأردو خيم وخركاوات منصوبة تكترى للناس[٢] لمن يصحب الأردو وما له مأوى أو من يجيء غريباً إليها يكتريها وينزلها فيها وبها الكبار والمتوسطات والصغار. وأسواقهم وهي المسماة بالبازار[٣] مشتملة علىٰ ما يكون في المدن العظام من الملبوس والمطعوم والمشروب وغير ذلك /١٠٨/ مما لا حاجة بنا إلىٰ ذكره، وليس يعترض ناسكهم علىٰ فاتكهم، ولا قاتلهم من بأسهم.

ومن قاعدة هذا السلطان أنه إذا ترك منزلاً وهو المسمّىٰ عندهم اليرق[٤] ينصبه بالبعد منه غلمان لا يتجاوزهم راكبه، وأمراؤه يلتزم معه أعظم الآداب فما منهم أحد إذا قارب خركاة القان علىٰ نحو عشرين غلوة نشاب أو أكثر إلا ينزل عن فرسه ويمشي.

قال لي الصدر مجد الدين إسماعيل: إنّه رأىٰ جوبان علىٰ ما كان بلغ من

---

(١) وردت هذه القصة عند كثير من المؤرخين وفي أماكن أخرى، فقد ذكرها ميرخواند في كتابه روضة الصفا «انظر: الترجمة العربية ص١٣٢» كما ذكرها نظام الدين أحمد في الطبقات الكبرى «انظر: الترجمة في رسالة الدكتوراه للدكتور أحمد عبد القادر الشاذلي بجامعة القاهرة ٦/١، وعند ابن الأثير في كامله ٨٧/٧، وابن كثير في البداية والنهاية ٢٨٦/١١».

(٢) تؤجر للناس.

(٣) البازار: السوق «فرهنگ رازي ٤٢».

(٤) يرق: وهي يورت بمعنى مقام، خيمة «فرهنگ رازي ١٠٤٣» وتأتي بمعنى أردو «تركستان ٥٦١».

العظمة، وأبو سعيد معه اسم بلا معنىٰ، وهو متىٰ وقعت عينه علىٰ الأردو نزل ومشىٰ فيتعب لبعد المسافة فيقعد علىٰ كرسي صندلي[١] ليستريح ثم يمشي ثم يقعد ليستريح مرات حتىٰ يصل إلىٰ باب الكرباس[٢]؛ وهو باب الخان.

قال: ولكل من الخواتين، وكل من الأمراء الأكابر يرق بذاته ينزل فيه، وكل يرق من هذه كامل بالأسواق، وكل ما يحتاج إليه من عادة هذا السلطان أن لا يعمل مواكب ولا يجلس لخدمة ولا لقراءة قصص عليه، وإبلاغ مظالم إليه، بل له من أبناء الأمراء خاصة له يقال لهم الأبناء فيه هؤلاء هم حوله لا يكاد منهم من يفارقه.

فأمّا الأمراء، فإنهم يركبون في غالب الأيام إلىٰ باب الكرباس، وينصب لهم هناك كراسي صندلية[٣] يجلس كل أمير علىٰ كرسي بحسب مراتبهم الأعلىٰ ثم الأدنىٰ، ويدخل الوزير في بكرة كل يوم علىٰ القان ويبقىٰ الأمراء علىٰ باب الكرباس إما يخرج القان أو يأذن لهم، أو لا هذا ولا هذا فإذا حضر طعام القان بعث إلىٰ كل أمير منهم شيئاً للأكل بمفرده يأكله هو ومن انضم معه ثمّ يتفرقون، كل واحد إلىٰ من اتفق بحضوره من الأمراء حضر، ومن لم يحضر لم يطلب بحضور إلاّ إن دعت الحاجة إلىٰ طلب أحد منهم طلباً.

ولهؤلاء شغل شاغل بالركوب إلىٰ الصيد في غالب أيامهم فهم يجتمعون بعضهم ببعض ولهذا ما لهم يوم مخصوص بموكب ولا خدمة. فأمّا من له ظلامة فشكواه إنْ كانت متعلقة بالعسكرية /١٠٩/ إلىٰ أمير الألوس، وإنْ كانت متعلّقة بالبلاد والأموال والرعايا فشكواه إلىٰ الوزير.

وفي الغالب ما يكون أمير الألوس بالأردو لانفراده في المصيف أو في المشتىٰ أو الصيد أو قصد ثغر من الثغور، فغالب الشكاوي علىٰ أطلاقها مردودة إلىٰ الوزير وليست في هذه البلاد قاعدة محفوظة تمشي علىٰ نظامها بل كل من انضوىٰ إلىٰ خاتون من الخواتين، أو أمير من الأمراء أو كبير من الخواجكية قام بأمره إمّا في قضاء حاجة يطلبها أو إزالة ظلامة يشكوها حتىٰ من الخواتين والأمراء من يقتل ويوسط بيده بغير أمر القان ولأمير الألوس.

---

(١) صندلي: وهو الكرسي «فرهنگ رازي ٥٦٤».

(٢) الكرباس: بفتح الكاف، قماش قطني ينسج باليد «فرهنگ رازي ٦٩٥».

(٣) كراسي صندلية: وهي كنبة بمخدع، كرسي مخصوص بجوانب «فرهنگ رازي ٥٦٤».

وأما اليرالغ[١] والأحكام الصادرة عنهم فالمتعلق بالأموال يسمىٰ الطرطمغا[٢]، وهذه صادرة عن رأي الوزارة، وأمره المتعلّق بالألجية[٣] وهو البريد يسمّى... وهي أيضاً صادرة عن الوزير قد أقام لها أناساً بذاتهم ومرجوعهم إليه المتعلق بالعسكر يسمّى.. وهو صادر عن أمير الألوس.

وليس لأحدٍ علىٰ الجميع خطّ إلاّ الوزير، وإنما العادة أن يأمر الوزير بكتابة ما يرى ثم تؤخذ خطوط المتحدّثين في ذلك الذي يكتب ثم تحرر مسّودة وتعرض علىٰ الوزير فيأمر بتبيضها فإذا بيضت كتبت؛ كما نبهنا عليه من قبل اسم السلطان ثم تحته اسم الأمراء الأربعة ويخلّى تحته مكان هو غير من يكتب ثم يأتي الوزير ويكتب في المكان الخالي: فلان سووي ـ أي هذا كلام فلان ـ يسمىٰ نفسه، ثم إن كان متعلقاً بالمال أثبت حيث يشبته مثله وإلاّ فلا.

وأما المتعلق بالعسكر فمنشأ الأمر فيه عن أمير الألوس يأمر به، ثمّ علىٰ بقية الترتيب ولا خطّ لأمير الألوس بيده.

وقاعدة أصحاب الولائم من الدواوين عندهم ـ كما هو بمصر والشام ـ لا يعلم صاحب علامة حتىٰ يرىٰ خطّ نائبه عليه أولاً، ليعلم أنه قد نزله عنده.

وأخبرني الفاضل أبو الفضائل يحيىٰ بن الحكيم: أنَّ الذي للأمراء والعسكرية لا يكتب به / ١١٠/ مرسوم؛ لأنَّ كلَّ طائفة ورثت طائفة ورثت مالها من ذلك عن آبائها وهم علىٰ الجهات التي قرّرها لهم هولاكو لا يتغير بزيادة ولا نقص إلاّ أكابر الأمراء الذين حصلت لهم الزيادات فإن ذلك الوقت كتب لهم بها بأمر القان أصدر بها الوزراء عنه.

قال: ومن الخواتين والأمراء من أخذ بماله و ببعضه بلاداً فهي له مما له وكثيراً من أخذ بلداً عن مبلغ متحصل ذلك الملك أضعافه وأقلّ هذه المملكة قد داخلهم العجم وزوّجوهم وتزوّجوا منهم وخلطوهم بالنفوس في الأمور فلهذا تفخمت قواعدهم وجرت علىٰ عوائد الخلفاء والملوك في غالب الأمور قوانينهم.

ولقد كان هولاكو من أول ما أخذ بغداد علىٰ نية إجراء الأمور في مجاريها وإبقاء الأحوال علىٰ ما كانت، ولكنه ما تهيأ له لشدّة من كان معه علىٰ المغولية

---

(١) اليراليغ: جمع مفرده يرليغ، لفظ مغولي بمعنى حكم، مرسوم «صبح الأعشى ٤/ ٤٢٣ـ ٤٢٨».

(٢) الطرطمغا: المرسوم الخاص بالأموال يسمى بهذا الاسم.

(٣) الألجية: المرسوم الخاص بالوزارة.

وإفراط تخوف الناس منهم؛ فإنَّهم لكثرة خوفهم منه تجنبوا لقاءه فزالت عنهم رتبهم وتغيرت عليهم أحوالهم. ولقد كان يقنع منهم بالطاعة والانقياد والمدارة بالمال عن استئصال البلاد ولكن المقادير لا ترد سهامها ولا تصدّ أحكامها.

وفي هذه المملكة عدّة ملوك مثل صاحب هرى[١] وهي ـ هرى من خراسان ـ في أخريات البلاد مجاورة لكرمان، وبها ملك من بقايا ملوك السبكتكينية يتوارثون ملكها ذات بلاد وأعمال وجباية وأموال وسلطانها عسكر، يقال: إنها عشرون ألفاً، وهم لا يبلغون ذلك. وكان قد آل ملكها إلىٰ غياث الدين محمد السبكتكيني، وإليه لجأ جوبان بن جلو ـ أمير ألوس إيران ـ في واقعته مع السلطان أبو سعيد فإن لصحبة كانت بينهما، وكان مع جوبان ولده خلوقان وهو ابن بنت السلطان محمد أولجايتو خدابندة ـ وهي أخت السلطان أبي سعيد فتلقاهما وأنزلهما في القلعة عنده ثم خنقهما تقرّباً إلىٰ السلطان أبي سعيد وبعث بإبهام جوبان وكان بها /١١١/ إصبع زائدة إلىٰ حضرة بوسعيد إعلاماً بتحقيق قتله. وكان بوسعيد قد تزوج ببغداد خاتون بنت جوبان بعد تحيده منه فأمر بإقامة العزاء عليها، ثم نقل جثتهما إلىٰ حضرته وجدد العزاء عليهما، ثم حملا إلىٰ مكة المعظمة فطيف بهما، ثم حملا إلىٰ المدينة الشريفة النبوية فدفنا بالبقيع منها[٢].

ومات غياث الدين ـ المذكور ـ وانتقل الملك بعده لولده.

وهذه هري مدينة جليلة من أجلّ مدن خراسان مشهورة موصوفة بالحسن والنعمة وبها الماء السارح والشجر الكثير رخية الأسعار حكمها حكم ما سواها من خراسان إلاّ إنَّها مملكة تتداولها ملوك، وكلهم في طاعة صاحب إيران وتحت أمره. وعسكر هري من الفرس وفيهم البهالوين[٣] ذوو البأس والقوة.

وأخبرني شيخنا فريد الدهر شمس الدين أبو الثناء محمود الأصفهاني: أنَّ بالقرب من هري شيخ موجود اسمه شهاب الدين أحمد الجامي جليل القدر واسع الحرمة والمال، له خمسة آلاف مملوك يصرفهم في أرزاقه، ومكاسبهم كثيرة ومستغلات أملاكه وزروعه وتربية دود القز واستخراج الحرير له، وعمله بما يجيء منه

---

(١) هراة: مدينة عظيمة من مدن خراسان بناها الإسكندر وحولها سور عظيم، وليس بخراسان أجمل ولا أعمر ولا أخصب ولا أكثر خيراً منها «آثار البلاد ٤٨١» ولأهلها صلاح وعفاف وديانة «رحلة ابن بطوطة ٢٥٤».

(٢) وفي رحلة ابن بطوطة ١٥٤ إنهما دفنا في مكة.

(٣) البهالوين: جمع مفرده بهلوي ويعني الشجاع والبطل.

الجمل الكثيرة التي لا تكاد تحصر.

قال: وهذا الجامي مرعيّ الجانب عند سلاطين إيران، كان يفرش سجادته إلىٰ جانب السلطان خدابنده، فقيل لخدابنده: كيف بلغ هذا منك هذه الرتبة ؟ قال: كنت مجرداً في زمان أخي محمود غازان بستين ألف فارس فضاق بنا الوقت لقلّة ما نأكل نحن ودوابنا فأقام بنا جميعاً هذا الشيخ أربعة أشهر من ماله.

وحكى لي من أثق بقوله: أنَّه رآه علىٰ منىٰ وهو حاج ومعه ألف جمل أو أثقل عليها أمواله وأثقاله.

قال ورأيت غياث الدين صاحب هرى واقفاً في خدمة الجامي والجامي[١]، قاعد لا يكترث بوقوف صاحب هرى بين يديه.

وبهذه المملكة أبلّة البصرة[٢] وشِعْب بَوَّان[٣] / ١١٢/ وهما نصف متنزهات الدنيا الأربعة ذات المحاسن المنوعة.

فأمّا الأبلة فمدينة قديمة دثرت الآن وبقي متنزهها علىٰ ما كان، والأبله نهر مشتق من دجلة مرفوع إلىٰ البصرة لسقي بساتينها.

والبصرة أشهر من أن توصف حدائقها الملتفة، وجداولها المحتفة وما تفتر به رياضها من بدائع الزهرات، وتفردت به حدائقها من يانع الثمرات.

قال الجاحظ[٤]: ونهر الأبلة شقّه زياد مقابلة نهر معقل، وبينهما البساتين

(١) جامي: أبو نصر أحمد بن أبي الحسن المعروف بشيخ جام، من مشايخ المتصوفة في النصف الأول من القرن السادس الهجري قضى عمره في الرياضة والإرشاد، مات سنة ٥٣٦هـ وله عدة كتب أهمها: أنيس التائبين، كنوز الرحمة، روضة المذنبين، بحار الحقيقة ومفتاح النجاة، وهو غير الشاعر عبد الرحمن الجامي المتوفى سنة٨٩٨هـ «انظر: فرهنگ أدبيات فارسي ١٥٧».

(٢) أبلة البصرة: بينها وبين البصرة عشرة أميال، كانت مدينة عظيمة يقصدها التجار من الهند وفارس «رحلة ابن بطوطة ١٢٧».

(٣) شعب بوان: شعب بإقليم فارس به الرياض والأشجار الكثيفة والزهور الرقيقة، وهو مكان بديع.

(٤) عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ: كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة. مولده. سنة ١٦٣هـ/ ٧٨٠م. ووفاته سنة ٢٥٥هـ/ ٨٦٩م في البصرة. فلج في آخر عمره. وكان مشوّه الخلقة. ومات والكتاب على صدره. قتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه. له تصانيف كثيرة، منها «الحيوان ـ ط» أربعة مجلدات، و«البيان والتبيين ـ ط» و«سحر البيان ـ خ» و«التاج ـ ط» ويسمى أخلاق الملوك، و«البخلاء ـ ط» و«المحاسن والأضداد ـ ط» و«التبصرة بالتجارة ـ ط» رسالة نشرت في مجلة المجمع العلمي العربي، و«مجموع رسائل ـ ط» اشتمل على أربع، هي: المعاد والمعاش، وكتمان السر وحفظ اللسان، والجد والهزل، والحسد والعداوة. وله «ذم القوّاد ـ ط» رسالة صغيرة، و«تنبيه الملوك ـ خ» في ٤٤٠ ورقة، و«الدلائل والاعتبار =

والقصور العالية والمباني البديعة، يتسلل مجراه، وتتهلل بكرهُ وعشاياه، وتظلّه الشجر وتغني به زمر الطير وهي من الحسن حيث يشهده العيان ويظهره فنون الأفنان.

والأبلّة هي المدينة القديمة وإنّما اختطت البصرة عرضها، وفيه يقول القاضي التنوخي[1]: [من الكامل]

أحبِبْ إليَّ بنهرِ معقلِ الذي فيهِ التسلّي عَنْ همومي معقلُ
عَذبٌ إذا ما عَلَّ منهُ ناهلٌ فكأنَّهُ في ريقِ حِبّ يَنْهَلُ
مُتسلسلٌ وكأنَّهُ لصفائِهِ دمعٌ بخَدَّي كاعبٍ يتسلسلُ
وكأنهُ ياقوتةٌ أو أعينٌ زُرقٍ تلاءمُ بينها وتفصّلُ
عَذبٌ فما تدري أماءٌ ماؤُها عندَ المذاقةِ أم رحيقٌ سَلسل
ولهُ بِمَدٌّ بعدَ جزرٍ ذاهبٍ جيشانِ يذهبُ ذا وهذا يُقبلُ
وإذا نظرتَ إلىٰ الأبلّةِ خلتَها مِنْ جنةِ الفردوسِ حينَ تخيّلُ
كَمْ منزلٍ في نهرِها إلىٰ السرور بأنَّهُ في غيرِها لا ينزلُ

= على الخلق والتدبير - ط» و«فضائل - الأتراك - ط» و«العرافة والفراسة - خ» و«الربيع والخريف - ط» و«الحنين إلى الأوطان - ط» رسالة. و«النبيّ والمتنبي» و«مسائل القرآن» و«العبر والاعتبار في النظر في معرفة الصانع وإبطال مقالة أهل الطبائع - خ» و«فضيلة المعتزلة» و«صياغة الكلام» و«الأصنام» و«كتاب المعلمين» و«الجواري» و«النساء» و«البلدان» و«جمهرة الملوك» و«الفرق في اللغة - خ» في تذكرة النوادر، و«البرصان والعرجان والعميان والحولان - ط» و«القول في البغال - ط» و«كتاب المغنين» و«الاستبداد والمشاورة في الحرب». ولأبي حيان التوحيدي كتاب في أخباره سماه «تقريظ الجاحظ» اطلع عليه ياقوت. وجمع محمد جبار المعيبد العراقي، ما ظفر به متفرقاً في شعره، في «رسالة - ط»، ولشفيق جبري «الجاحظ معلم العقل والأدب - ط»، ولحسن السندوبي «أدب الجاحظ - ط»، ولفؤاد أفرام البستاني «الجاحظ - ط»، ومثله لحنا الفاخوري.

ترجمته في: إرشاد الأريب ٦/ ٥٦- ٨٠ والوفيات ١/ ٣٨٨ وأمراء البيان ٣١١- ٤٨٧ وابن الشحنة: حوادث سنة ٢٥٥ وفيه: عن الجاحظ، قال: «ذكرت للمتوكل لأعلم أولاده، فلما استحضرني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف دينار وصرفني». وآداب اللغة ٢/ ١٦٧ ولسان الميزان ٤/ ٣٥٥ والفهرس التمهيدي ٥٥٠ ومجلة لغة العرب ٩/ ٢٦ وتاريخ بغداد ١٢/ ٢١٢ وأمالي المرتضى ١/ ١٣٨ ونزهة الألبا ٢٥٤ والبعثة المصرية ٤٠ ودائرة المعارف الإسلامية ٦/ ٢٣٥ وBrock I: 185 (152), S.I:239 وتذكرة النوادر ١٠٨ وانظر «مشاركة العراق» لكوركيس عواد، الرقم ١٨٢ ففيه رسائل أخرى من تأليفه نشرت في العراق. الأعلام ٥/ ٧٤.

(١) هو محمد بن محمد بن محمد بن عمرو، زين الدين التنوخي (نسبة إلى عدة قبائل تدعى بتنوخ أقاموا بالبحرين) وهو الدمشقي ثم البغدادي الأديب المتوفى سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م، له: أقصى الغرب في صناعة الأدب».

ترجمته في: «هدية العارفين ٢/ ١٥٤، والأعلام ٧/ ٣٥».

وكـأنَّـمـا تـلـكَ الـقـصـورُ عـرايـسٌ والـروضُ حَـلْـيٌ وهـو فـيـه تَـرفـلُ
غـنـتْ قـيـانُ الـطـيـرِ فـي أرجـائِـهـا هَـزجـاً يُـفـلُّ لـهـا الـثـقـيـلُ الأوّلُ
وتـعـانـقـتْ تـلـك الـغـصـونُ فـأذكـرتْ يـومَ الـوَداعِ وغـيـرُهـم يـتـرحَّـلُ
رَبَـعَ الـربـيـعُ بـهـا فـحِـاكـتْ كـفُّـهُ حُـلـلاً بـهِـا عَـقَـدُ الـهُـمـومِ مُـحـلَّـلُ
/١١٣/ فَـمُـدَبَّـجٌ ومُـوشَّـحٌ ومـدنَّـرٌ ومُـعـمّـدٌ ومُـحـبّـرٌ ومُـهـلَـلُ
فـتـخـالُ ذا عَـيْـنـاً وذا خَـداً وذا ثـغـراً يُـعـضَّـضُ مَـرّةً ويُـقـبّـلُ

ويحيط بالأبلة نهرها المشتق لها ونهر المعقل؛ فلهذا صارت بين سلكيهما في أبهىٰ منظر وأحرز معقل، وبها النخيل المائسات القدودُ المائلات في خُضْر البرود شيء رطبها الجنية، وثمراتها الهنية كأنها السكر المذاب بل شفاه لعس معسولة الرضاب.

وأمّا شعب بوان فهو بظاهر همدان يشرف عليها من جبل يقال له بالفارسية الرند، والشعب في سفحه يضاحك في الأفق ثغر صبحه، والأنهار تنحط عليه من أعلىٰ الجبل، ويناجيه صبها برقة الغزل، يتيه علىٰ أنديتها مقبلاً، ويترامىٰ علىٰ شفاهها الحُوّ مقبّلاً، قد تكسّرت علىٰ ريّاها فأوهمت الغواني في حلاها بقلب عوارضها المُخضرَّة كالعذار، والتفتت حدائقها إليها كأنَّها اعتذار؛ وهو من أبدع بقاع الأرض منظراً، وأندىٰ دوحاً نضراً.

قال المبرد[1]: أشرفت علىٰ شعب بوان فنظرت فإذا بماءٍ منحدرٍ كأنَّه سلاسل فضّة وتربة كالكافورة، وروضة كالثوب الموشىٰ، واشجار متهادلة، وأطيار متجاوبة.

ولقد حدّثني من رآها، وطيب مفارقه بثراها، أنَّها تذهب بالألباب، ويذهب بها عصر الشباب، لا تكاد الشمس تسقط من إردانها، ولا الكوكب تغيب من فرجات أغصانها.

---

(١) محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي، أبو العباس، المعروف بالمبرد: إمام العربية ببغداد في زمنه، وأحد أئمة الأدب والأخبار. مولده بالبصرة سنة ٢١٠هـ/ ٨٢٦م. ووفاته ببغداد سنة ٢٨٦هـ/ ٨٩٩م. من كتبه: «الكامل ـ ط» و«المذكر والمؤنث ـ خ» نسخة منه في أول المجموعة ٥٣٤ في الاسكوريال، و«شرح لامية العرب ـ ط» مع شرح الزمخشري، و«إعراب القرآن» و«طبقات النحاة البصريين» و«نسب عدنان وقحطان ـ ط» رسالة. و«المقرب ـ خ» قال الزبيدي في شرح خطبة القاموس: المبرّد بفتح الراء المشددة عند الأكثر وبعضهم يكسر.

ترجمته في: بغية الوعاة ١١٦، ووفيات الأعيان ١/ ٤٩٥ وفيه: «وفاته سنة ٢٨٦ وقيل ٢٨٥» وسمط اللآلي ٣٤٠ والسيرافي ٩٦ وتاريخ بغداد ٣/ ٣٨٠ وآداب اللغة ٢/ ١٨٦ ولسان الميزان ٥/ ٤٣٠ ونزهة الألبا ٢٧٩ وطبقات النحويين ١٠٨ـ ١٢٠، وعاشر افندي ٦٧، الأعلام ٧/ ١٤٤.

ولقد مرَّ أبو الطيب المتنبي[١] بشعب بوان لمّا توجه إلىٰ عضد الدولة ابن بويه[٢] واستطابه واستطال نزولاً به، واستطار إعجاباً بما هزّه فيه هزّة الحمام من

---

(١) أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي، أبو الطيب المتنبي: الشاعر الحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي. له الأمثال السائرة والحكم البالغة والمعاني المبتكرة. وفي علماء الأدب من يعده أشعر الإسلاميين. ولد بالكوفة سنة ٣٠٣هـ/ ٩١٥م في محلة تسمى «كندة» وإليها نسبته. ونشأ بالشام، ثم تنقل في البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس. وقال الشعر صبياً. ووفد على سيف الدولة ابن حمدان (صاحب حلب) سنة ٣٣٧هـ فمدحه وحظي عنده. ومضى إلى مصر فمدح كافور الإخشيدي وطلب منه أن يوليه، فلم يوله كافور، فغضب أبو الطيب وانصرف يهجوه، وقصد العراق، فقرىء عليه ديوانه. وزار بلاد فارس فمر بأرجان ومدح فيها ابن العميد وكانت له معه مساجلات. ورحل إلى شيراز فمدح عضد الدولة ابن بويه الديلمي. وعاد يريد بغداد فالكوفة، فعرض له فاتك بن أبي جهل الأسدي في الطريق بجماعة من أصحابه، ومع المتنبي جماعة أيضاً، فاقتتل الفريقان، فقتل أبو الطيب وابنه محسد وغلامه مفلح، بالنعمانية، بالقرب من دير العاقول (في الجانب الغربي من سواد بغداد) سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م. وفاتك هذا هو خال ضبة بن يزيد الأسدي العيني، الذي هجاه المتنبي بقصيدته البائية المعروفة. وهي من سقطات المتنبي. أما «ديوان شعره ـ ط» فمشروح شروحاً وافية. وقد جمع الصاحب ابن عباد لفخر الدولة «نخبة من أمثال المتنبي وحكمه ـ ط» وتبارى الكتاب قديماً وحديثاً في الكتابة عنه، فألف الجرجاني «الوساطة بين المتنبي وخصومه ـ ط» والحاتمي «الرسالة الموضحة في سرقات أبي الطيب وساقط شعره ـ خ» والبديعي «الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ـ ط» والصاحب ابن عباد «الكشف عن مساوىء شعر المتنبي ـ ط» والثعالبي «أبو الطيب المتنبي وما له وما عليه ـ ط» والمتيم الإفريقي «الانتصار المنبي عن فضل المتنبي» وعبد الوهاب عزام «ذكرى أبي الطيب بعد ألف عام ـ ط» وشفيق جبري «المتنبي ـ ط» وطه حسين «مع المتنبي ـ ط» جزآن، ومحمد عبد المجيد «أبو الطيب المتنبي، ما له وما عليه ـ ط» ومحمد مهدي علام «فلسفة المتنبي من شعره ـ ط» ومحمد كمال حلمي «أبو الطيب المتنبي ـ ط» ومثله لفؤاد البستاني، ولمحمود محمد شاكر، ولزكي المحاسني.

ترجمته في: ابن خلكان ١/ ٣٦ ومعاهد التنصيص ١/ ٢٧ وابن الوردي ١/ ٢٩٠ وابن الشحنة: حوادث سنة ٣٥٤هـ. ولسان الميزان ١/ ١٥٩ وفيه: «كان إذا ذكر له حادث تنبؤه يستنكره ويقول: ذلك شيء كان في الحداثة! وإذا سئل عن معنى المتنبي يقول: هو لقب من الألقاب» وفيه: «كان والده يلقب عيدان ـ بفتح فسكون». وتاريخ بغداد ٤/ ١٠٢ والمنتظم ٧/ ٢٤ والمستشرق بلاشير **R.Blachere** في دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٣٦٣ـ ٣٧١ ودار الكتب ٧/ ٢٠٠ الاعلام ١/ ١١٥.

(٢) فنَّاخُسرو، الملقب عضد الدولة، ابن الحسن الملقب ركن الدولة ابن بويه الديلمي، أبو شجاع: أحد المتغلبين على الملك في عهد الدولة العباسية بالعراق. ولد سنة ٣٢٤هـ/ ٩٨٣م. تولى ملك فارس ثم ملك الموصل وبلاد الجزيرة. وهو أول من خطب له على المنابر بعد الخليفة، وأول من لقب في الإسلام «شاهنشاه» قال الزمخشري (في ربيع الأبرار): «وصف رجل عضد الدولة فقال: وجهٌ فيه ألف عين، وفم فيه ألف لسان، وصدر فيه ألف قلب!». كان شديد الهيبة، جباراً عسوفاً، أديباً، عالماً بالعربية، ينظم الشعر، نعته الذهبي بالنحوي، وصنف له أبو علي الفارسي «الإيضاح» و«التكلمة». كما صنف له أبو إسحاق الصابي كتاب «التاجي» في أخبار بنى بويه، ولقبه بتاج الملة، ومدحه فحول الشعراء كالمتنبِّي والسلامي. وكان شيعياً، وهو الذي عمر مرقد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام =

طربه؛ فلمّا سمع لغة أهله العجم، وقاس إلىٰ فصاحته قومه البكم استغرب بينهم نفسه، فقال[(١)]: [من الوافر]

مغاني الشِّعْبِ طِيباً في المَغاني ... بمنزلةِ الربيعِ منَ الزمانِ
ولكنَّ الفتىٰ العربيَّ فيها ... غريبُ الوجهِ واليدِ واللسانِ
مَلاعِبُ جِنَّةٍ لو سارَ فيها ... سُليمانٌ لسارَ بتُرجمانِ
/ ١١٤/ طَبَتْ فرسانَنا والخيلَ حتىٰ ... خَشِيْتُ وإنْ كُرمنَ منَ الحِرانِ
غَدونا تنفضُ الأغصانُ فيهِ ... علىٰ أعرافِها مثلَ الجُمانِ
فَسِرْتُ وقدْ حَجَبنَ الشمسَ عني ... وجِئْنَ منَ الضياءِ بما كفاني
وألقىٰ الشرقُ منها في ثيابي ... دنانيراً تَفِرُّ منَ البَنانِ
لها ثمرٌ تُشيرُ إليكَ منها ... بأشربةٍ وقفنَ بلا أواني
يقولُ بشعبِ بَوَّانٍ حِصاني ... أعَنْ هذا يُسارُ إلى الطِّعانِ

وقد ذكرنا ما اشتملت عليه هذه المملكة الجليلة من الأقاليم، وجملاً من محاسن هذه المملكة وترتيبها، وسنذكر الآن ما لابُدَّ منه؛ فمن ذلك:

«بلاد الجبال»: وهي تشتمل علىٰ المياه التي تجري علىٰ البصرة والكوفة، وحدّها الشرقي مفازة خراسان وفارس وأصبهان، والغربي أذربيجان، والشمالي الديلم والري وقزوين والجنوبي العراق وخوزستان.

وتشتمل علىٰ مدن مشهورة ـ ذكرناها فيما تقدّم من الكتاب ـ

وبلاد الديلم: وهي سهل وجبلان؛ فأما السهل فهو بلاد الجيل وما معها؛ وهي الآن تسمّىٰ كَيلان، والجبل ممتد عليها من الجنوب إلىٰ الشمال، وطبرستان هي كيلان أو في حكمها، وكذلك مازندران.

وكيلان وإن كانت من هذه المملكة فإنها مفردة لملوك سيأتي ذكرهم.

= في النجف، وكان كثير العمران، أنشأ ببغداد البيمارستان العضدي وعمر القناطر والجسور، وبنى سوراً حول مدينة الرسول ﷺ. أخباره كثيرة متفرقة أتى على معظمها ابن الأثير في الكامل. توفي ببغداد سنة ٣٧٢هـ/ ٩٨٣م وحمل في تابوت، فدفن في مشهد النجف.

ترجمته في: ابن الأثير/ الجزآن ٨ و٩ وبغية الوعاة ٣٧٤ وسيرأعلام النبلاء ١٧/ ٣٤٥ـ ٣٤٧ رقم ٢١٤، وابن الوردي ١/ ٣٠٥ وابن خلكان ١/ ٤١٦ والبداية والنهاية ١١/ ٢٩٩ ومرآة الجنان ٢/ ٣٩٨ ويتيمة الدهر ٢/ ٢ وروض الأخبار المختصر من ربيع الأبرار ـ خ الأعلام ٥/ ١٥٦.

(١) من قصيدة قوامها ٤٨ بيتاً في ديوانه ٥٤١ـ ٥٤٥.

وسجستان ومنها هرمز بلاد تحيط بها مما يلي الشرق مفازة بين أرض مكران وأرض السند وبين سجستان وفارس، ومن ناحية الغرب خراسان، وشيء من أرض الهند، ومما يلي الشمال أرض الهند، ومما يلي الجنوب المفازة التي بين سجستان وفارس وكرمان وخراسان ويشتمل علىٰ كور ويحيط به من شرقيه نواحي سجستان وبلاد الهند وجبال الغور وغربيهُ مفازة العرية وناحية جرجان، وشماليه ما وراء النهر، وشيء من بلاد الترك، وجنوبيه مفازة فارس وريفه، ومن الغرب من حدّ قومس إلىٰ المغرب وفيها من حدّ جرجان وبحر الخزر إلىٰ خوارزم علىٰ العمارة.

ومن الناس من يعدُّ هراة / ١١٥/ من خراسان ومنهم من يعدها بذاتها، وأقدم مدنها بناءً مرو الشاهجان.

قال: إنها من بناء ذي القرنين وهي في أرض مستوية بعيدة عن الجبال لا يرىٰ فيها جبل وهي كثيرة الرمال، وفيها ظهرت دولة بني العباس في دار آل أبي النجم المعيطي.

وأحصن مدنها مدينة نسا؛ وهي في غاية الحصانة كثيرة المياه والبساتين.

ومن خراسان قوهستان وأهلها كلهم شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ـ عليه السلام ـ، وأرمينية وأران وأذربيجان.

حدودها مما يلي الشرق الجبال وبلاد الديلم وشرقي بحر الخزر، ومما يلي الغرب حدود بلاد الأرمن، ومن جهة الشمال اللان وجبال القبق، ومن الجنوب العراق وبعض الجزيرة.

وأجلّ هذه النواحي أذربيجان، وأجل مدنها قديماً أردبيل.

قال الزواوي: تكون أعمالها ثلاثين فرسخاً وبها كانت كبار الإمارة في صدر الإسلام، ثم كانت تليها مراغة. وكانت قديماً مقرّاً للجند وتليها أرمينية وبينها وبين مراغة بحيرة كيودان وهي مالحة، وليس بها سمك ولا دابة وتختلف فيها المراكب بين أرمينية ومراغة وطولها نحو عشرين فرسخاً. فأمّا مُذ بنيت توريز لم تبق يذكره معها سواها.

وفي أرّان باب الأبواب وهي مدينة علىٰ بحر الخزر؛ وهي ميناء ذلك البحر واليها مرسىٰ السفن.

وكرجستان هي داخلة في حدود ما ذكرنا مع أرمينية ومدينتها تفليس[١] علىٰ نهر

---

(١) هي تبليس الحالية عاصمة جمهورية جورجيا.

الكرّ ـ وقد تقدّم ذكر الحال مفصلاً فيما تقدّم ـ.

والجزيرة وديار بكر وربيعة ومضر وهي مصاقبة لبلاد العراق وجزيرة العرب والجزيرة بين الفرات ودجلة، وقد كانت هذه بمجموعها مملكة جليلة قائمة بذاتها في الدولة الأتابكية وخوزستان.

وشرقيها حدّ فارس وأصبهان، وغربيها رستاق واسط، وشماليها حدّ الصيمرة والكرج ـ كرج أبي دلف وهو قصور مفرقة ـ والكرّ حتىٰ يتصل علىٰ غربي الجبال، أي إلىٰ أصبهان والجنوبي ينتهي بعضه /١١٦/ إلىٰ بحر فارس وبعضه إلىٰ رستاق واسط، والبحر دائر عليها من آخر الشرقي إلىٰ أوّل الغربي وجبال القفص والبلوص في حدّها الجنوبي مما يلي الجنوب قريبة من البحر، وقربها جبال الفضة قريب مدينة جيرفت من كرمان؛ وكلّها جبال عامرة.

وأمّا البلوص ففي سفح جبال القفص ولا يخاف أهل القفص من أحدٍ إلاّ منهم وهم بادية يسكنون بيوت الشعر ولا يؤذون أحداً، وجبال بادن خصبة منيعة ذات أشجار. وكان أهلها مجوساً زمان بني أمية ثم أسلموا في أوائل الدولة العباسية وبقوا في منعةٍ حتىٰ ولي يعقوب[١] وعمرو[٢] ابنا الصفَّار فملكوا جبالهم.

---

(١) يعقوب بن الليث الصفّار، أبو يوسف: من أبطال العالم، وأحد الأمراء الدهاة الكبار. كان في صغره يعمل الصفر (النحاس) في خراسان ويظهر الزهد. ثم تطوع في قتال الشراة، فانضوى إليه جمع، فظفر في معركة معهم. وأطاعه أصحابه، واشتدت شوكته، فغلب على سجستان (سنة ٢٤٧هـ) ثم امتلك هراة وبوشنج. واعترضته الترك، فقتل ملوكهم وشتت جموعهم، فهابه أمير خراسان وغيره من أمراء الأطراف. ثم امتلك كرمان وشيراز، واستولى على فارس، فجبى خراجها. ورحل عنها إلى سجستان قاعدة ملكه. وكتب إلى الخليفة ببغداد، وهو يومئذ «المعتز بالله» يعرض طاعته ويقدم له هدايا من نفائس غنمها بفارس. وفي سنة ٢٥٩ انتحل لنفسه عذراً في اقتحام نيسابور، فدخلها عنوة، وقبض على أميرها محمد بن طاهر (آخر الأمراء من هذه الأسرة) وتم له ملك خراسان وفارس، فطمع ببغداد، فزحف إليها بجيشه، وكان الخليفه فيها «المعتمد على الله» فخرج جيش المعتمد، ونشبت بينهما حرب طاحنة، ولم يظفر الصفار، فعاد إلى واسط ينظر في شؤون إمارته الواسعة، فتوفي بجنديسابور (من بلاد خوزستان) سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٩م وكان الحسن بن زيد العلوي يسميه «السندان» لثباته.
ترجمته في: ابن خلكان ٢/ ٣١٢ وابن الأثير ٧/ ٦٠ـ ١٠٧ والمسعودي، طبعة باريس: انظر فهرسته. وابن خلدون ٤/ ٣٢١ والطبري ١١/ ٢٥٣ وما قبلها، والنجوم الزاهرة ٣/ ٤٠ ومطالع البدور ٢/ ١٣٥ ومرآة الجنان ٢/ ١٨٠ وحمزة الأصفهاني ١٤٨، الأعلام ٨/ ٢٠١ـ ٢٠٢.

(٢) عمرو بن الليث، الصفّار (أخو يعقوب): ثاني أمراء الدولة الصفارية. وأحد الشجعان الدهاة. ولي بعد وفاة مؤسس الدولة أخيه يعقوب بن الليث (سنة ٢٦٥هـ) وأقره المعتمد العباسي على أعمال أخيه كلها، وهي: خراسان وأصبهان وسجستان والسند وكرمان، فأقام ست سنين. وعزله المعتمد سنة ٢٧٤هـ فامتنع فسيّر إليه جيشاً، فانهزم الصفار إلى كرمان ثم قاتل عسكر الموفقّ سنة ٢٧٤هـ ورده عن =

وكرمان ومدينتهم السيرجان ثم جيرفت وهي بلد خراسان، والأختان التوءمتان، وقد رخص فيهما الجمع بين الأختين، والفريدتان اليتيمتان، ولا يوصف باليتم إلاّ الواحدة إلاّ إذا كانت اثنتين: السمع والبصر، والبحر والمطر.

وأفضل ما جهز له أبو بكر الجيوش، وفتحه عمر الفرقدان المعتنقان، والنيّران المتألقان مركز الاعلام والإعلام والسيوف والأقلام قطبا تلك الدائرة، وافقا نجومها الزاهرة؛ عراق العرب، وعراق العجم.

وعراق العرب والأول أكبر والثاني أشهر لمكان الخلفاء منها، وكور عراق العجم عظيمة جليلة ـ ذكرنا فيما تقدّم عنه ذكر الأقاليم ما نبني عليه ـ.

وأما عراق العرب فهو دونه وإن كان غاية في الفخامة، ونهاية في الضخامة.

وكان ملوك الفرس دل إيران[1] شهر ومعناه...، وهو اثنتا عشرة كورة.

وقال لي الفاضل أبو الفضائل يحيىٰ بن الحكيم الطياري البوسعيدي: إنَّ كل كورة منها أستان[2] وطساسجة[3] ستون طسوجاً وترجمة أحازه وترجمة الطسوج ناحية.

فالكورة الأولىٰ: كورة ستارساذ فيروز: وهو خمسة طساسيج وطسوج خانقين، ومن الجانب الشرقي سقي ثامرا.

= كرمان وسجستان. ورضي عنه المعتمد سنة ٢٧٦هـ فولاه شرطة بغداد، وكتب اسمه على الأعلام. وولاه «المعتضد» خراسان بعد وفاة «المعتمد» سنة ٢٧٩هـ وأضاف إليه الريّ سنة ٢٨٤هـ ثم ولاية ما وراء النهر. قال ابن الجوزي (في حوادث سنة ٢٨٦هـ): «ووردت يوم الخميس لثمان بقين من جمادى الآخرة هدية عمرو بن الليث من نيسابور، وكان مبلغ المال الذي وجه به أربعة آلاف ألف درهم، مع عشرين من الدواب بسروج ولجم محلاة، ومئة وعشرين دابة بجلال مشهرة، وكسوة حسنة وطيب وبزاة وطرف» وعظمت مكانته عند المعتضد، فطلب أن يوليه ما وراء النهر، فجاءه اللواء بذلك، وهو بنيسابور. وامتنع عليه إسماعيل بن أحمد الساماني (وكان والي ما وراء النهر) فنشبت بينهما معارك إنتهت بظفر الساماني في «بلخ» وأسر الصفار (سنة ٢٨٧هـ) فبعث المعتضد إلى الساماني بولاية خراسان، وأمر بالصفار فجيء به إلى بغداد، فسجن فيها إلى أن توفي سنة ٢٨٩هـ/ ٩٠٢م، وقيل خُنق، قبل موت المعتضد بيسير.

ترجمته في: ابن الأثير ٧/ ١٧٠، ابن خلدون ٤/ ٣٢٦، العتبي ١/ ٣٤٨، منقريوس ١/ ٢٦٩، المنتظم ٦/ ١٧، ٣٧، الأعلام ٥/ ٨٤ـ ٨٥.

(١) يقصد بعراق العجم إيران.
دليرات إيران: أبطال إيران، ودليرات جمع مفرده دلير وهي كلمة فارسية بمعنى شجاع وبطل «فرهنگ رازي ٣٥٠».

(٢) أستان: إقليم أو محافظة، كلمة فارسية من البهلوية Ostan وتعني ولاية «فرهنگ عميد ١/ ١٣٤».

(٣) طساسجة: جمع مفرده طسوج وهي من تسو التركية بمعنى جزء من أربعة وعشرين جزءاً «انظر: فرهنگ عميد ١/ ٥٧٦».

والكورة الثانية: كورة سارشاد مهز: وهي ثمانية طساسيج: طسوج جشابور، وطسوج نهر بوق، وطسوج كلواذا وبها كلواذا؛ وهي /١١٧/ مدينة قديمة، وبها يسمّىٰ الكلدانيون الطائفة المشهورة المعدود منها كيومرث[١] وطمهورث[٢] وجمشيد[٣] والضّحاك[٤].

وطسوج نهر بين طسوج حازر وطسوج المدينة العتيقة، وطسوج زاذان. الأعلى، وطسوج زاذان الأسفل.

والكورة الثالثة «كورة سارشاه قبادو»: وهي ثمانية طساسيج: طسوج رستاقباذ، وطسوج سلسل، وطسوج الدستين، وطسوج السدمحين، وطسوج براز الرود، وطسوج الدسكرة والرساتيق.

والكورة الرابعة «كورة باريجان خسره»: وهي خمسة طساسيج: طسوج النهروان الأعلىٰ، وطسوج النهروان الأوسط، وطسوج النهروان الأسفل، وطسوج بادرايا، وطسوج باكسيا.

والكورة الخامسة «كورة ساره شاه سابور»: وهي خمسة طساسيج: طسوج دجلة والفرات، وطسوج الزندورد، وطسوج الثرثور، وطسوج الأستان، وطسوج الخوارج.

الكورة السادسة «كورة ستار شاه بهمن»: وهو أربعة طساسيج: طسوج بهمن أردشير، وطسوج ميسان، وطسوج دست ميسان؛ وهو الأبلة، وطسوج أبرقاد.

والكورة السابعة «كورة ستان العليا»: وهي أربعة طساسيج: طسوج فيروز سابور ـ وهي الأنبار ـ وطسوج مسكن وهو دجيل، وطسوج قطربّل، وطسوج بادرويا.

والكورة الثامنة «وهي كورة ستان سيرايكان»: وهي خمسة طساسيج؛ طسوج نهر سير وطسوج، وطسوج الرومتان، وطسوج كومى، وطسوج نهر درفيط، وطسوج نهر جوير.

---

(١) كيومرث: أول ملك أسطوري حكم على الأرض وهو في العربية جيومرث وبالبهلوية كيومرد أوكيه مرت «حماسهء سراي در إيران ص ٣٩٩».

(٢) طهمورث: تهمورث ملك أسطوري حكم بعد هوشنك ورد في شاهنامة الفردوسي بأنه تعلم ثلاثين لغة وحكم ثلاثين عاماً «حماسهء سراي در إيران ٤١٨ـ ٤٢٣».

(٣) جمشيد: هو ابن تهمورث، حكم بعد أبيه، وهو أيضاً من الملوك الأسطوريين «حماسهء سراي در إيران ٤٢٤».

(٤) الضحّاك بن مرداس، العربي الذي قتل جمشيد، وحكم بلاد إيران حتى قتله أفريدون البطل الأسطوري الإيراني «ن. م ٤٥١ وما بعدها».

والكورة التاسعة «هي كورة بدرويرشان»: وهي الرواني وهي ثلاثة طساسيج: طسوج الزاب الأعلىٰ، وطسوج الزاب الأوسط، وطسوج الزاب الأسفل.

والكورة العاشرة «وهي كورة ستان لهقياد الأعلىٰ»: وهي ستة طساسيج: طسوج بابل، طسوج حطروبة، /١١٨/ وطسوج الفلوجة العليا، وطسوج الفلوجة السفلىٰ، وطسوج النهرين، وطسوج عين التمر.

الكورة الحادية عشرة «وهي كورة ستان مهقياد الأوسط»: وهي أربعة طساسيج: طسوج الحبة والده، وطسوج سورا وبارسوما، وطسوج نهر الملك.

والكورة الثانية عشرة وهي تمام «وهي كورة ستان لهقياد الأسفل: وهي خمسة طساسيج: طسوج فرات وبادفلي، وطسوج السالحين، وطسوج نستر، وطسوج رومستان، وطسوج هرمز دخره.

قلت: ولم أذكر مدن هذه المملكة هنا لكثرتها؛ ولأنها قد تقدّم عند ذكر الأقاليم ما لا يحتاج معه إلىٰ إعادة ولا فيه نقص يفتقر إلىٰ زيادة، والذي ذكرناه الآن من كور العراق هو عمل بغداد الداخل حسابه فيما يختص بها من السوداء دون ما هو مفرد لبقية ما معها من المدن والبلاد، والذي أعدنا ذكره هنا مما تقدّم ذكره؛ إنما هو للإعلام بمقدار هذه المملكة وما جمعت أطرافها من الأقاليم والأمصار والممالك العظيمة، والمدن الكبار مما اجتمعت في جمعه الأكاسرة، ودأبت الدولة العباسية في تحصيله، وقد صارت كلها بيد ملوك بيت هولاكو؛ وهي واسطة الأرض وخالصة المعمورة، وسرُّة الدنيا، وأسرة العلياء فسبحان الله العظيم الوهاب الكريم يرزق من يشاء بغير حساب، ويعطي بلا احتساب؛ لا رادّ لما قضىٰ، ولا مانع لما أعطىٰ يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء[1].

علىٰ أنَّ هذا البيت في وقتنا هذا قد وهىٰ نظمه، وهوىٰ نجمه، وهوان علىٰ الناس أمره، وخمد تحت الرماد جمره منذ مات أبو سعيد بهادرخان آخر ملوكهم المجمع علىٰ طاعته.

ثم هم بعده في دهياء مظلمة، وعمياء معتمة، لا يفضي ليلهم إلىٰ صباح، ولا جملتهم المفرقة إلىٰ اجتماع ولا فساد ذات بينهم إلىٰ صلاح؛ في كل ناحية هاتف يدعىٰ باسمه، /١١٩/ وخائف آخذاً جانباً إلىٰ قسمه؛ وكل طائفة تتغلب وتقيم قائماً

---

(١) **إشارة إلى الآية الكريمة**: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾ «سورة آل عمران: الآية ٢٦».

يقول هو من ابناء القان، وتنسبه إلىٰ فلان ابن فلان، ثم يضمحل أمره عن قريب، ولا تلحق دعوته تبلغ حتىٰ يدعان لا يجيب، وما ذلك من الدهر بعجيب، وملوك هذا البيت وإن كانوا ملوكاً من قديم الزمان، وبينهم وبين ما يكون بين الملوك من الشنآن.

وكان متألفهم علىٰ ما وجدوا عليه آباءهم لا يسمون للإسلام، ولا يتركون آباءهم فإنهم أهل همم تدكّ لها الجبال، وكرم تدهك به الأموال.

فأمّا نجدتهم وبأسهم فأول دليل علىٰ مبلغهم منه ما ملكوه بسيوفهم من المشرق إلىٰ الشام، وإلىٰ الآن ما تقادمت الأيام. وأما كرمهم قد ذكرنا منه ما يدل عليه.

حدّثني شيخنا فريد الدهر أبو الثناء محمود بن أبي القاسم الأصفهاني ـ أطال الله بقاه ـ أنَّ خواجا رشيد الدولة[١] ألَّف كتاباً سمّاه ......[٢] وقدّمه للسلطان خدابنده، وقال له: إنَّ أرسطو عمل كتابه المسمّىٰ.. وقدّمه للاسكندر فأجازه عليه ألف ألف دينار، وما أنت ممن يرضىٰ أن يكون دون الإسكندر؛ فقبل خدابنده الكتاب وأمر له

---

(١) فضل الله (رشيد الدولة، أو رشيد الدين) ابن أبي الخير (عماد الدولة) ابن علي (موفق الدولة) أبو الفضل الهمذاني: وزير، من المشتغلين بالفلسفة والطب والتاريخ. اتصل بملك التتار «محمود غازان» وخدمه بطبه إلى أن ولي الوزارة له، ثم لأخيه «خدابنده» من بعده. وقام بكثير من أعمال البّر في «تبريز» كالخوانك ـ جمع خانكاه ـ والمدارس. وصنف كتاباً في «تفسير القرآن» على طريقة الفلاسفة، فنسب إلى الإلحاد. ومرض القان «خدابنده» فاشترك رشيد الدولة في علاجه، فمات، فقالوا إنه كان سبب موته، فقتلوه سنة ٧١٦هـ/ ١٣١٦م وفصلت أعضاؤه وأرسل إلى كل بلد عضو منها. وحمل رأسه إلى «تبريز» ونودي عليه: هذا رأس اليهودي الملحد. وقالوا: إن أباه كان يهودياً عطاراً، وإنه، أي رشيد الدولة، أسلم قبل أن يتصل بغازان. وقد احترقت ـ أو أحرقت ـ كتبه بعد قتله، وبقي منها «جامع التواريخ ـ خ» أربع مجلدات، بالعربية والفارسية، طبعت النسخة الفارسية منه باسم «تاريخ غازاني» و«مفتاح التفاسير ـ خ» في دار الكتب، مقدمة لتفسير له يعرف بالتفسير الرشيدي، و«الأسئلة والأجوبة الرشيدية ـ خ» في استنبول، ويسمى «جامع التصانيف الرشيدية» و«مجموعة رسائل ـ خ» تشتمل على ٥٢ رسالة، جمعها كاتبه شمس الدين محمد الأبرقوئي وصدرها بمقدمة. قال الذهبي: كان له رأي ودهاء ومروءة. عاش نحو ٧٥ سنة.

ترجمته في: الدرر الكامنة ٣/ ٢٣٢ـ ٢٣٣ وفيه تحقيق مقتله سنة ٧١٦ وعرف برشيد الدولة، وسماه «فضل الله بن أبي الخير بن غالي» وصححه صاحب الذريعة ٣/ ٢٦٩ بابن «علي» مكان «غالي» وعرفه برشيد الدين، كما في تاريخ العراق ١/ ١٥ و٣٩٩ و٤٥٢ وما بعدها. وفي السلوك للمقريزي ٢/ ١٨٩ مقتله سنة ٧١٨ واسم جده فيه «عالي». وفي شذرات الذهب ٦: ٤٤ مقتله سنة ٧١٧ وانظر دار الكتب، ملحق الأول ٧ و٥: ٩٩ وطوبقبو ٣/ ٦٢، ٥٩٨ والذريعة ١٠/ ٢٤٧ وفيه أسماء الرسائل، الأعلام ٥/ ١٥٢.

(٢) فراغ في الأصل بمقدار ٤ سم وأظنه كتاب «جامع التواريخ».

بنظير ما أمر به الإسكندر لأرسطو فأخذ به خواجا رشيد الدولة أملاكاً وعقاراً قيمتها قدر المبلغ ثلاث مرات.

قال: والأملاك إلىٰ الآن في يد أولاده وذريته.

قلت: وأحبّ السلطان المذكور ـ علىٰ ما بلغنا ـ امرأة مغنية من بغداد فأطلق لها ما لا يحصىٰ ولا يدخل في حساب.

وحدّثني من أثق به: أنَّ أبغا بن هولاكو كان يأنس برجل فاتفق أن صحبه في سفر إلىٰ جهة ملا، وكانت يوم ذاك خزانة أموالهم فأمر به أن يدخل إليها ويأخذ ما أراد منها؛ فلمّا دخل إليها لم يأخذ سوىٰ دينار واحد عمله في فيه؛ فلمّا حضر بين يديه سأله عمّا أخذ فألقىٰ الدينار من فيه، وقال: يا قان شبعت وامتلأت حتىٰ خرج من فمي فضحك وأعجبه منه ما قاله وأمر له بعشرة توامين عنها مائة ألف رائج بستمائة ألف درهم فأخذها.

وحدّثني قاضي /١٢٠/ القضاة أبو محمد الحسن الغوري: أنَّ فقيراً وقف كيختو[1] في أيام سلطنته وشكا إليه ضرره، فأمر له بثلاثة توامين ـ وهي ثلاثون ألف بمائة وثمانين ألف درهم ـ فاستكثر هذا طاجار وزيره وما تجاسر أن يشاوره فسكبها في قطع في طريق كيختو ليبصرها فيستكثر المبلغ؛ فلما عبر عليها ليختو رآها سأل عنها، فقيل له: هذا الذي رسمت به لذلك الفقير، فقال: هذا هو كيس ؟ قالوا: نعم، قال: والله مسكين، أنا والله كنت أعتقد إنَّا أعطيناه شيئاً وهذا ما هو شي اعطوه مثله مرّةً أخرىٰ فأعطوه.

* * *

(١) هو كيخانو بن آباقا خان بن هولاكو، حكم ما بين سنة ٦٩٠ـ ٦٩٤هـ «جامع التواريخ ٢/ ١٤، تركستان ٨١٨».

الباب الثالث: في مملكة الجيل

وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: في بومن.

الفصل الثاني: في توليم.

الفصل الثالث: في كسكر.

الفصل الرابع: في رسفت.

في مملكة الجيل

ونحن نذكر في هذا الباب في رسفت من مملكة الجيل[1] ما تيسر لنا ذكره جملة.

حدّثني الشريف محمد بن أحمد بن عبد الواحد الجيلي: أنَّ بلاد كيلان في وطأةٍ يحيط بها أربع حدود من الشرق: إقليم مازندران[2]، ومن الغرب موقان[3]، ومن الغرب عراق العجم يفصل بينهما جبل يعرف مازندران، يعرف بإسناده في سفحه الجنوبي قرًى ممتدة تسمّىٰ بلاد التارم[4] داخلة في مملكة كيلان، وبأيدي ملوكها.

وهو جبل عالٍ لا يرقىٰ إلاّ من طلوع الشمس إلىٰ العصر؛ وهو جبل مشجر فيه عيون كثيرة، وبه سكان من الأكراد ومن الشمال بحر القلزم ويأخذ علىٰ توريز فيه وكيلان مشتمل علىٰ أربعة مدن كبار لكل مدينة منها في الغالب ملك ينفرد بذاته منها وبأعماله المضافة إليه، وهي تومن قريبة من الجبل إلىٰ وسطه، وتوليم تليها إلىٰ البحر بشرق وكسكر[5] يليها إلىٰ جهة موقان مصاقبة للبحر وطول مجموع كيلان مما في أيدي هؤلاء الملوك الأربعة؛ وهو شرق بغرب نحو عشرة أيام وعرضها وهو جنوب بشمال نحو ثلاثة أيام تزيد وتنقص، وجميع أهلها حنابلة.

قال: وهي شديدة الأمطار والأنهار كثيرة الفواكه خلا النخل والموز وقصب السكر /١٢١/ والمشمش ويجلب إليها المحمضات من مازندران.

---

(١) الجيل: طائفة تسكن گيلان أو جيلان، والجيلان نزل قوم من أبناء فارس من أهل اصطخر من طرف من البحرين «مراصد الاطلاع ١/ ٣٦٨».

(٢) مازندران: اسم ولاية طبرستان «مراصد الاطلاع ٣/ ١٢١٩».

(٣) موقان: ولاية فيها قرى ومروج يحتلها التركمان للرعي وهي من آذربيجان «مراصد الاطلاع ٣/ ١٣٣٥».

(٤) بلاد التارم: كورة واسعة في الجبال بين قزوين وجيلان «مراصد الاطلاع ١/ ٢٤٩».

(٥) كسكر: كورة واسعة وقصبتها واسط القصب التي بين الكوفة والبصرة «مراصد الاطلاع ٣/ ١١٦٦»، الآن تابعة لإقليم فارس.

ومدن مازندران غير مسورة، ولملوكهم قصور عليّة، وجميع مباني كيلان بالطوب المشوي مفرشة بالطوب مثل بغداد مسقفة بالخشب، وبعضها معقودة أقباء وعليها قس مظفور.

وفي غالب ديارها آبار قريبة المستقىٰ نحو ذراعين أو ثلاثة أو أقل، والأنهار تحكم علىٰ كل مدينة.

وغالب أقوات كيلان الأرز يعمل منه خبز مليح ورقاق مع تيسر القمح والشعير.

والغنم والبقر كثيرة عندهم وأسعارها متوسطة إلىٰ الرخص.

وبها المساجد الجليلة ومدارس تسمّىٰ عندهم الخوانق وزوايا وحمامات لطاف يجري إليها الماء من الأنهار.

وبها الحرير الكثير، ولها حصون في نواحي مازندران وجزائر في القلزم بها رمان وبلوط وفواكه، ولا يجري بها ماء، وبها تحصنهم عند مغالبة العدو لهم ولملوكهم زيّ جمل علىٰ قدر دخل بلادهم فإنَّه ليس بالكثير ضيق بلادهم؛ ولأنها لا مسكن بها ولا مؤذي فيها لهم أمراء الطبلخانات(١).

ويركب الملك بالرقبة السلطانية والحجاب والسلاح دارية(٢) والجمدارية(٣) والجنائب المجرورة، ويركب الأمير ووراءه صاحب أربعة وخمسة وأكثر ولباسهم فيه إسلامية ضيقة الأكمام وتخافيف صغار، ويشدون المناطق والبنود(٤)، وخيلهم براذين جياد مشكورة وسروج منها المحلّىٰ بالفضة، وزيهم كلهم قريب من الزيّ العسكري الخوارزمي.

ويتخذ بظواهر قصورهم ملوكهم ميادين خضراً يعمل في أوساطها قصوراً صغاراً من الخشب فيها جلوسهم للخدم والمظالم وجميع جنود هؤلاء الملوك الأربعة نحو عشرين ألف فارس ما بين ميدونة(٥) ومطوعة(٦) ممن يضمهم الجموع والحشود من الفارس والراجل.

---

(١) الطبلخانات جمع مفرده طبل خانه، بيت الطبل، والمقصود بها هنا الأمراء الذين يدقون لهم الطبل.

(٢) السلاح دارية: جمع مفرده سلاح دار وتعني حملة السلاح.

(٣) الجمدارية: جمع مفرده جمدار وهو من اللفظ الفارسي جامة دار أي حملة الملابس «فرهنگ رازي ١٩١».

(٤) البنود: جمع مفرده بند وتعني العلم الكبير.

(٥) ميدانه أي المسجلين في الديوان، والديوان وهو الدفتر يكتب فيه أسماء الجيش وأهل العطاء «المعجم الوسيط ١/ ٣١٦».

(٦) مطوعة: هم المتطوعة الذين يتطوعون للجهاد ونحوه، يقال: لهم مطوعة بتخفيف الطاء «المعجم الوسيط ٢/ ٥٩١» ويأتي اللفظ باسم غازيان وإحدات «انظر: تركستان ١٣٤٧».

وهؤلاء الملوك الأربعة لا يزال بينهم الخلف حتىٰ إذا قصدهم عدوّ خارجي عنهم تألفت قلوبهم واجتمعت كلمتهم وصاروا حزباً واحداً علىٰ عدوّهم.

ولقد قصدوا أيام هولاكو فما قدر عليهم، ثم قطلوشاه في سبعين ألف فارس وانتصر علىٰ صاحب /١٢٢/ تومن وكسكر، وامتنع صاحب توليم وضرب معه مصافاً بالفارس والراجل وحمل بنفسه علىٰ قطلوشاه علىٰ أنه معقر إليه؛ فلمّا قاربه أحسَّ قطلوشاه بالغدر منه فولّى منهزماً فطعنه فألقاه عن فرسه قتيلاً فنزل إليه وقطع أذنيه بالحلقتين اللتين فيهما.

ثم ركب وساق إلىٰ التتار وقطع عليهما المياه، وسدّ عليهم الطرق بالأخشاب العظيمة فأفناهم إلاّ الشديد فراحوا أهلهم بين قتيل وغريق متوحل في الطين وضال بالجبال؛ وهم بحصانة بلادهم بالبحر من جانب، وتوعير المسالك إليهم، لا يدينون لملوك إيران، ولا يطمع أحد في ملكهم وطبرستان ومازندران والجبل كما قال الله تعالىٰ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾[1] ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾[2].

قلت: وبما ذكره من شدّة أهل بأسها ذكرت قول صاحب شاه غاه في تاريخ الفرس ـ وقد ذكر مازندران وعصيان أهلها، قال: وهم مردة الجن.

قال الشريف: وبلاد الجيل مقسومة بين ثماني ملوك؛ ملك اللاّهجان[3]، وملك سخام، وملك برشب، وملك كسفت، وملك بومن، وملك توليم، وملك كسكر، وملك برشب والملوك الأربعة الآخرون دون هؤلاء، ومع هذا فلا ينقاد منهم ملك لملك، ولا يذعن واحد لآخر.

قال: وجملة بلاد الجيل بلاد خصبة ورخاء ولحم وحبّ وفاكهة أقطارها سخية، وأسعارها رخية، ولا يخطب بها للتتار، وإنما تضرب السكة باسم ملوك التتار؛ لأنه لو ضرب واحد من ملوك الجيل السكة باسمه لم تخرج دراهمه في بلد جاره الآخر لشدّة ما بينهم من الإحن والجفوة.

قال: ولا يدخل بلاد الجيل مملوك ولا جارية، بل كلاهما أحرار ولا يتعدّىٰ واحد منهم شأن أبيه، وما كان عليه حتىٰ إنَّ الفلاح منهم ليقتني العدد الكثير /١٢٣/

---

(١) سورة الرعد: الآية ٤. (٢) سورة فاطر: الآية ٢٧.

(٣) اللاهيجان: وهي بلد منحاز عن بقية بلدان جيلان، يقطع بينهما نهر، وأهلها من الشيعة الزيدية في القرن الثامن الهجري «مراصد الاطلاع ٣/ ١١٩٥».

من الخيل ليبيعها ويربح بأثمانها، ومع هذا لا يتجاسر علىٰ ركوبها ولو ركبها قتل.

وبالجيل ربض وخوانق، وغالب ما يجري بها أحكام مذهب الإمام أحمد بن حنبل(١) ـ رضي الله عنه ـ.

ونحن لا نذكر من ملوكها إلاّ أربعة المشاهير المترجم لهم في هذا الكتاب علىٰ ما ذكرناه.

الفصل الأول: في بومن

صاحب بومن شافعي المذهب دون من معه من بلاد الجيل. مذهب نشأ عليه ملوكها وعسكرهم يزيد علىٰ الألف فارس؛ وهو صاحب اللاهجان بلادهم قليلة وإنما غالب دخلها من التجار؛ والحرير بها كثير؛ ولهذا بينهما وبين التتار مكارمة ومهاداة لدخول التجار لبلادهما لجلب الحرير منهما واحتياجهما إلىٰ ما عندهما من الحرير علىٰ من يدخل إليهما، وبقية بلاد الجيل محتاجة أيضاً إلىٰ بومن واللاهجان لأجل هذا وحاجتهما إلىٰ بومن أكثر لما يوجد بها من القماس والمعمولات؛ وبها فيما يحاذيها من الجيل معدن حديد.

---

(١) الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، أبو عبد الله، الشيباني الوائلي: إمام المذهب الحنبليّ، وأحد الأئمة الأربعة. أصله من مرو، وكان أبوه والي سرخس. وولد ببغداد سنة ١٦٤هـ/ ٧٨٠م. فنشأ منكبًّا على طلب العلم، وسافر في سبيله أسفاراً كبيرة إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والثغور والمغرب والجزائر والعراقين وفارس وخراسان والجبال والأطراف. وصنَّف «المسند ـ ط» ستة مجلدات، يحتوي على ثلاثين ألف حديث. وله كتب في «التاريخ» و«الناسخ والمنسوخ» و«الردّ على الزنادقة فيما ادعت به من متشابه القرآن ـ ط» و«التفسير» و«فضائل الصحابة» و«المناسك» و«الزهد ـ خ» في خزانة الرباط (٢٩٢ك) و«الأشربة ـ خ» و«المسائل ـ خ» و«العلل والرجال ـ خ» في أيا صوفية (الرقم ٣٣٨) وكان أسمر اللون، حسن الوجه، طويل القامة، يلبس الأبيض ويخضب رأسه ولحيته بالحناء. وفي أيامه دعا المأمون إلى القول بخلق القرآن ومات قبل أن يناظر ابن حنبل، وتولى المعتصم فسجن ابن حنبل ثمانية وعشرين شهراً لامتناعه عن القول بخلق القرآن، وأطلق سنة ٢٢٠هـ. ولم يصبه شرّ في زمن الواثق بالله ـ بعد المعتصم ـ ولما توفي الواثق وولي أخوه المتوكل ابن المعتصم أكرم الإمام ابن حنبل وقدّمه، ومكث مدة لا يولي أحداً إلاّ بمشورته. وتوفي الإمام وهو على تقدمه عند المتوكل سنة ٢٤١هـ/ ٨٥٥م. ومما صُنف في سيرته «مناقب الإمام أحمد ـ ط» لابن الجوزي. و«ابن حنبل ـ ط» لمحمد أبي زهرة.

ترجمته في: تاريخ دمشق ٢/ ٢٨ وحلية الأولياء ٩/ ١٦١ والجمع ٥ وصفة الصفوة ٢/ ١٩٠ وإشراق التاريخ ـ خ وابن خلكان ١/ ١٧ وتاريخ بغداد ٤/ ٤١٢ والبداية والنهاية ١٠/ ٣٢٥ـ ٣٢٦ والفهرس التمهيدي. وجولدسيهر Goldziher في دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٤٩١ـ ٤٩٦ ومخطوطات الظاهرية ٢٣٢ وتذكرة النوادر، الأعلام١/ ٢٠٣ .

قال: وصاحب بومن يدعي النسب إلىٰ بيت الشرف، وله اعتناء بأهل العلم والفضل، ولباس الملك والجند والملك بها نوع من لباس التتار، ولباس علمائها قريب من زيّ التجار، ولهم عذبات[1] كالصوفية إلىٰ قدّامهم وعامة أهلها كعامة من جاورهم.

* * *

الفصل الثاني: في صاحب توليم

صاحبها أمره قريب من صاحب بومن، ولكن لا حرير في بلاده؛ وهو حنبلي المذهب، وعدّة عسكره نحو ألف فارس؛ وهم أفرس أخوانهم.

ولصاحبها ـ في وقتنا هذا ـ علىٰ ملوك الجيل سيماء استظهار؛ لأن عسكر توليم كان لهم في واقعة قطلوشاه اليد الطولىٰ والبطش الغالب فثبت لهم في قلوب جيرانهم ما هو ظاهر عليهم إلىٰ الآن، وزيّها كزيِّ أخواتها.

* * *

الفصل الثالث: في كسكر

وصاحبها له جولة في ملوك توليم، وجيشه أكثر عدداً من بقية ملوك الجيل وبلاده أوسع وأرضُه أخصب وأكثر حبّاً وفاكهة /١٢٤/ وأغناماً وأبقاراً مما حولها، ولها رفق زائد ممن يجاورها من الأكراد، وما تجلبه إليها من الأجلاب، وأسعارها أرخى وأرخص مما سواها وزيّها كزيّ أخواتها.

* * *

الفصل الرابع: في رسفت

وهم أميل إلىٰ الجبل، وأبعد عن البحر؛ وإنما رسفت أدنىٰ إلىٰ الجيل منها.

وهي مناسبة لأخواتها في غالب أحوالها؛ وهي كثيرة السمك والطير.

ومنها الشيخ العارف السيد عبد القادر الكيلاني[2] ـ قدس الله روحه، ونوّر

---

(١) عذبات: جمع مفردها عذبة، وهي طرف الشيء «المعجم الوسيط ٢/ ٦١١».

(٢) عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست، أبو محمد، محيي الدين الجيلاني، أو الكيلاني، أو الجيلي: مؤسس الطريقة القادرية. من كبار الزهاد والمتصوفين. ولد في جيلان (وراء طبرستان) سنة ٤٧١هـ/١٠٧٨م وانتقل إلى بغداد شاباً، سنة ٤٨٨هـ، فاتصل بشيوخ العلم والتصوف، وبرع في =

ضريحه ـ وهو القليل مِثلاً، العديم مَثَلاً، الواحد علماً وعملاً، وستأتي إن شاء الله ترجمته في مكانها.

=

أساليب الوعظ، وتفقه، وسمع الحديث، وقرأ الأدب، واشتهر. وكان يأكل من عمل يده. وتصدر للتدريس والإفتاء في بغداد سنة ٥٢٨هـ وتوفي بها سنة ٥٦١هـ/ ١١٦٦م له كتب، منها «الغنية لطالب طريق الحق ـ ط» و«الفتح الرباني ـ ط» و«للمستشرق مرجليوث الإنجليزي رسالة في ترجمته نشرها ملحقة بالمجلة الأسياوية الإنكليزية. ولموسى بن محمد اليوتيني كتاب «مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني ـ خ» ولعلي بن يوسف الشطنوفي «بهجة الأسرار ـ ط» في مناقبه، ولمحمد بن يحيى التاذفي «قلائد الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر ـ ط» وترجم عبد القادر بن محيي الدين الإربلي عن الفارسية «تفريح الخاطر في مناقب الشيخ عبد القادر ـ ط».

ترجمته في: النجوم الزاهرة ٥/ ٣٧١ وطبقات الشعراني ١/ ١٠٨ ـ ١١٤ فوات الوفيات ٢/ ٢ ونور الأبصار ٢٢٤ وشذارت الذهب ٤/ ١٩٨ وهو فيه: «عبد القادر بن عبد الله» ومثله في الإعلام لابن قاضي شهبة ـ خ. وتاريخ السليمانية ٢١١ وهو فيه: «عبد القادر الجيلي ـ الكيلاني ـ نجل أبي صالح زنكي دوست، وفي بعض الروايات جنكي دوست» والكامل لابن الأثير ١١/ ١٢١ وهو فيه «الشيخ عبد القادر بن أبي صالح أبو محمد الجيلي. كان من الصلاح على حال، وهو حنبلي المذهب، وفي معجم الشيوخ ١/ ٥٢ «جنكي دوست، أي: العظيم القدر» وفي دليل خارطة بغداد (١٧٨) أن مشهده أي: موضع دفنه. يعد من المواقع المهمة التي كانت داخل سور بغداد الشرقية. وذلك من الناحية الخططية لمدينة بغداد القديمة. لأنه من الأماكن القديمة القليلة التي لا تزال قائمة في مواضعها الأصلية إلى الآن؛ وقد أنشىء عند المرقد مسجد جامع واسع. وعلى مصلاه قبة فخمة متقنة الهندسة مبنية بالحجر الكاشاني الملون بالأصباغ المختلفة مع النقش الجميل. تحيط بها المآذن. وحول المصلى رواق واسع عقد على أساطين من الرخام الأبيض. وانظر: بهجة الأسرار ٨٨، الأعلام ٤/ ٤٧.

الباب الرابع: في مملكة الجبال

وهي أربعة فصول:

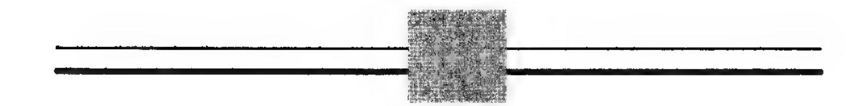
الفصل الأول: في الأكراد وفيه فصل جامع لأحوال سكان الجبال.

الفصل الثاني: في اللرّ.

الفصل الثالث: في الشول.

الفصل الرابع: في شنكارة.

وبلادهم جميعها بلاد خصب زائد ومزارع وموارد وزروع وفواكه وثمر متشابه وغير متشابه؛ وكلهم أهل غناء ودفاع وحصانة وامتناع.



الفصل الأول

في الأكراد

الذي نقول ـ وبالله التوفيق ـ إنَّ الأكراد وإنْ دخل في نوعهم كل جنس أتىٰ ذكره في هذه الفصول فإنَّهم جنس خاص من نوع عام وهم ما قارب العراق وديار العرب دون من توغل في بلاد العجم، ومنهم طوائف بالشام واليمن. ومنهم فرق مفترقة في الأقطار وما حول العراق وديار العرب جمهرتهم.

وغلب في زماننا بما يقارب ماردين منهم إبراهيم بن علي المسمّى بالعزيز مالو[1]، واستفحل أمره وقويت شوكته، واجتمعت عليه جموع وبرقت لها أسنة ودروع وثوّب باسمه الداعي، وتقيدت دون غابته المساعي.

ثم مات وقام ابنه بعده، ولكنه ما حكىٰ الوالد الولد، ولا سدّ الشبل موضع الأسد.

وأما الفصل الجامع لأحوال سكان الجبال هؤلاء وغيرهم، فإنا نقول ـ وبالله التوفيق ـ: إنَّ المراد بالجبال علىٰ المصطلح؛ /١٢٥/ هي الجبال الحاجزة بين ديار العرب وديار العجم وابتداؤها جبال همدان وشهرزور[2] وانتهاؤها صياصي الكفرة، بل بلاد التكفور[3]؛ وهي مملكة سيس وما هو مضاف إليها بأيدي بيت لارن ولم أذكر من عشائرهم إلاّ من كنت بهم خبيراً، ولم اسم فيها منهم إلاّ بيت ملك أو إمارة تبدأ بجبال همدان وشهرزور وأربل[4] وتنتهي إلىٰ دجلة الجزيرة من كوار الموصل ونترك

---

(١) هو إبراهيم شاه ابن الأمير سنيته، تغلب على الموصل وديار بكر «رحلة ابن بطوطة ١٥٤».

(٢) شهرزور: كورة واسعة في الجبال بين إربل وهمذان «مراصد الإطلاع ٢/ ٨٢٢».

(٣) بلاد التكفور: نسبة إلى تكفور ابن السلطان جرجيس وهي القسطنطينية العظمى «رحلة ابن بطوطة ٢٣٢ـ ٢٣٣».

(٤) إربل: مدينة كبيرة في فضاء من الأرض واسع «مراصد الإطلاع ١/ ٥١» في شمال العراق وهي اليوم جزء من إقليم كرد ستان ـ العراق.

ما وراء النهر دجلة إلىٰ نهر الفرات لقلة الاحتفال به علىٰ أنَّ الذي ذكرته هو خلاصة المقصود إذ لم يبق إلا أكراد الجزيرة وقرى ماردين[1]؛ وهم لكل من جاورهم من الأعداء الماردين مع أنَّ أماكنهم ليست منيعة، ومساكنهم للعصيان غير مستطيعة فهم طائفة بجبال همدان وشهرزور يقال لهم الكورانية منهم؛ حمد، ورعيه؛ وكلّهم أُلوا شوكة وحمية مقيمون بموضع يقال له رياومست الأمير محمد، ومكان ثانٍ يقال له درشك أميرهم الأمير محمد وعدّة القوم تزيد علىٰ خمسة آلاف لا بين بينهم ولا خلاف، ومن بعدهم الكلالية وهم قوم لهم مقدار وكمية تعرف بجماعة سيف الدين صبور ومقامهم دانرك ونهاوند إلىٰ قرب شهرزور وعدّتهم ألف رجل مقاتلة قوية، وأميرهم يحكم علىٰ من جاورهم من العصابة الكردية حكم الملك علىٰ جنده، ويقدر علىٰ جمع عدد أصناف عشيرته؛ لأنهم واقفون بصدق كلمته، وحسن سيرته.

ومن الكلالية سوى هؤلاء طائفتان؛ أحداهما مقيمة بنواحي دقوق وعدهم ألف أو دونها، والأخرىٰ باشنة من نواحي أذربيجان عدّة رجالها مئتان، وكانوا أكثر من ذلك عدداً، وأوفر مدداً لما كان الملك شرف الدين بن سلاّر ـ صاحب إربل ـ من جهة التتر، قتله رجل من الكفار فعصىٰ قومه علىٰ الكفار، وهاجر بعضهم إلىٰ مصر والشام وبقي ولده الأمير محمد حاكماً علىٰ من باشنة /١٢٦/ من قبيلته، وولده الأمير عثمان ـ أمير المن ـ أقام بوطنه من عشيرته؛ فلما توفي ولده توفاهم سواهم.

ويلي الكلالية بجبال همدان قوم يقال لهم رنكلية أصحاب شجاعة وحيلة وعدتهم ألفان يقال لهم جماعة جمال الدين بالان بجكم يحكم علىٰ بلاد كنكور وما جاورها من البقاع والكور.

وأما بلاد شهرزور فكان يسكنها طوائف من الأكراد قبل خراب البلاد أكثرهم رجالاً وأوفرهم أموالاً طائفتان؛ أحداهما يقال إنها اللوسة، والأخرىٰ تعرف بالبابيريّة رجال حرب وأقيال طعن وضرب نزحوا عنها بعد واقعة بغداد في عدد كثير من أهل السواد بالنساء والأولاد وأخلو ديارهم ووفدوا إلىٰ مصر والشام، وتفرقت منهم الأحزاب، وأصابتهم الأوصاب، وعظم فيهم المصاب، ولكل أجل كتاب، وقد بقي في أماكنهم، وسكن في مساكنهم قوم يقال لهم الخركيسة ليسوا من صميم الأكراد وببلاده شهرزور قوم اخر بينها وبين اشنه يبلغ عددهم ألفي نفر، فقال لهم السيولية

---

(١) ماردين: مدينة عظيمة على سفح جبل، من أحسن مدن الإسلام، لها قلعة تسمى الشهباء «رحلة ابن بطوطة ١٥٩».

ذوو شجاعة وحمية لهم، وهم قسمان: قسم مورك آين عز الدين محمود، والآخر قسم يعرف بالأمير داود ويعرف بداود بدران.

ثم يليهم الغرياوية وهم يسكنون بعض بلاد بستار وبيدهم من بلاد إربل أماكن أخر يزيد عددهم علىٰ أربعة آلاف نفر. كان أميرهم أبو بكر يلقب بسيف الدين وتولاهم بعدهم ولده شهاب الدين.

ثم يليهم قبيلة يقال لهم الحسنانية ذوو أنفس قوية ينقسمون علىٰ ثلاث بطون وهم نحو الألف، أكبر بطونهم طائفة عيسىٰ بن شهاب الدين كراي؛ ولهم الجغر لقلعة بري والحامي وثاني، وثاني بطونهم نفران؛ نفر يقال لهم البليّة، والآخر يعرف بالجاكية.

وكان الأمير عبد الله بن شهاب الدين زنكي أمير النفرين، وثالث بطونهم كان / ١٢٧/ لفخر الدين أمير قيم، والآن أخوه اختيار الدين عمر بن أبي بكر.

وتختص الحسنانية ببلاد الكركار وتشاركهم العرباوية في آخر الخفارة المأخوذة بدربند قرايلي مشاركة الآخرين.

ثم يليهم بلاد الكرحين ودقموق السافية عدّتهم تزيد علىٰ سبعمائة. وكان أميرهم شجاع الدين بابكر ذاباً عن دينه محارباً عن حزبه.

ومن ذلك موضع يقال له بين الجبلين من أعمال إربل قوم يخدمون للدولتين ويدارون الفئتين فهم في الشتاء يعاملون التتر بالمجاملة، وفي الصيف يعينون سرايا الشام في المحاملة وعددهم كعدد الكلالية. وكان أميرهم تاج الدين الخضر بن سليمان كاتباً ذا بنان ولسان، وفدا إلىٰ الباب الملكي المنصور السيفي قلاوون[1] بمصر.

---

(١) قلاوون الألفي العلائي الصالحي النجمي، أبو المعالي، سيف الدين، السلطان الملك المنصور: أول ملوك الدولة القلاوونية بمصر والشام، والسابع من ملوك الترك وأولادهم بمصر. كان من المماليك، قبجاقي الأصل، ولد سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م أعتقه الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٧هـ، فأخلص الخدمة للظاهر بيبرس. وقام بأمور الدولة في أيام العادل سلامش ابن الظاهر، فكان يخطب له وللعادل على منابر مصر. وضربت السكة باسمهما. ثم خلع العادل، وتولى السلطنة منفرداً (سنة ٦٧٨) وجلس على سرير الملك في قلعة الجبل. وأغار التتار على بلاده، فقاتلهم وظفر بهم. وهاجم ملك النوبة مدينة أسوان ونهبها، فأرسل إليه قلاوون من هزمه وغنم منه مغانم كثيرة. واستمر إلى أن توفي بالقاهرة سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م. وكان من أجل ملوك «المماليك» قدراً ومن أكثرهم آثاراً، شجاعاً، كثير الفتوحات، أبطل بعض المظالم. ومن آثاره «البيمارستان» بين القصرين. قال ابن إياس: كان قليل الكلام بالعربي. مدة ملكه إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر.

ترجمته في: مورد اللطافة، لابن تغري بردي ٤٢ـ ٤٤ وابن إياس ١/ ١١٤ وخطط المقريزي ٢/ ٢٣٨ ووليم موير ٥٥ والسلوك ١/ ٦٦٣ والنجوم الزاهرة ٧/ ٢٩٢ وفوات الوفيات ٢/ ١٣٣ وفيه: اشتري بألف دينار ولهذا كان يقال له: الألفي. والنهج السديد ٤٧٥ وما بعدها، الأعلام ٥/ ٢٠٣.

ثم اخترمته المنية وعاد أولاده الأربعة إلىٰ أوطانهم في الأيام العادلية الزينية مع عزّ الدين سنقر من الشهرزورية، والمبارزين شجاع الدين من الأزخية وبهاء الدين بن جمال الدين خوش من الحميدية. إذ لم يجدوا لهم في الدولة الزينية حرمة مرعية ولا أخباراً مرضية.

ثم يلي هؤلاء من إربل المازنجانية وهم طائفة ينسبون إلىٰ الحميدية لم يبق لهم أمير غير أمرائهم وعدّتهم تنضاف إليهم في شدّتهم ورخائهم ولا تنقص عدّة الحميدية عن ألف مقاتل.

وهؤلاء المازنجانية يتعانون الصلافة، ويتشبهون بالناس في الآلات واللباس؛ لأن أميرهم كان من أمراء الخلافة من الدولة العباسية، لقب من ديوان الخلافة بمبارز الدين واسمه كك. وكان يدعىٰ الصلاح وتنذر له النذور فإذا... إليه قبلها ثم أضاف إليها مثلها من عنده وصدّق بهما معاً.

قال الحكيم الفاضل شمس الدين أبو عبد الله محمد بن ساعد الأنصاري ـ وقد ذكره ـ: كان ذا شجاعة وصبر وتحيل ومكر وعقل وفكر وتدبر وسياسة وتثبت ورياسة، /١٢٨/ لا يهمل عدداً لصغره وحقارته، ولا يهاب من أراد به سُوءاً لعظمه وجسارته.

نُقل عن ابن الصلايا ـ رحمه الله ـ أنه قال ـ حين أعطاه خبز أبيه سيف الدين محمد وحباه: لقد توسَّمت في هذا الشاب سعادة لم أتوسمها في أحد سواه فكان كما توسّمه الصاحب ـ رحمه الله ـ فرآه كذلك إذا قام في التتر في ذلك المقام وتمكّن ابن يافث من ابن سام وتشتت أهل الإسلام، وانحل ما عهد من النظام، ولم يبق من الرجال القادرين علىٰ القتال إلاّ سكان الجبال، فما أعجز الكفار استئصالهم وتحققوا أنَّ سهامهم لا تنالهم عاملوهم بالمكر والخديعة، وهادنوهم علىٰ تخلية الخراج سدّاً للذريعة، وقدّموا منهم اثنين، وحكموهما عليهم من الوجهين؛ فما كان من وجه بلاد العجم كان مبارز الدين كك متحدّثاً فيه، وما كان من مدن العجم كان الأسد بن سكاكين الحائز لنواحيه وجعلوهما ملكين، وأعطوهما بايزتين.

ثم استنابوا المبارز كنك في إربل وأعمالها وصرفوه في سيفها ومالها، وأقطعوه عقر سوسن بكمالها، وأضافوا إليه هراوتل ، وقدّموه علىٰ خمسمائة فارس أو يزيدون. وسعد بسعادته قومه، وأناف علىٰ أمسه يومه، وكثر في عشيرته الأمراء لاشتباكهم معه في النسب، وغلب أقرانه بعناية الدولة والدنيا لمن غلب. وكان ترىٰ همّته

همّة الشبان وهو ابن تسعين، وتولّىٰ هذه المملكة وهو ابن عشرين، ما قصده عدوّ إلاّ مكنه الله منه، ولا رسم ملك من ملوك التتر بقتله إلاّ هلك قبل نفاذ أمره وامتثاله، ولم يبلغ ما بلغ من ملكه وكثرة رجاله، ولا تمنعه جباله، ولكن سعادته وإقباله.

ثم مات وخلفه ولده عزّ الدين. وكان يكنّىٰ به فيما ألف منه وعرف به. ثم أخوه نجم الدين خضر. وكان من الرفاهية علىٰ سرر مرفوعة، وأكواب موضوعة، ونمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة[١]، ونعم مما ترك أبوه موروثة، إلىٰ /١٢٩/ حاشية وغاشية، وعقار وماشية، وسعادات قديمة وناشيه.

ومكانته في الدولتين الإسلامية والتتارية لا تطاول، ورتبته عالية في الجهتين لا تحاول، وانبساط في اللذات، وشرف بالعرض والذات، ويد لا تقصر في أدب، ولا تبالي بلاغتها بما تنفق من كنوز الفضة والذهب. وكانت ترد علىٰ الأبواب السلطانية بمصر ونواب الشام منه كتب تنهل بماء الفصاحة كالسحب، وتسرح من أحيافها الأبكار العرب.

ثم مـات ـ رحمه الله ـ وخلفه ولده وجرىٰ علىٰ سنته، ونمت به في أهل بيته منته.

ويلي يسار وأعمالها، وتل حفتون، وبلادها بلاد السهرية المشهورين باللصوصية؛ وهي من بلاد شقلاباذ[٢] إلىٰ خفتيان[٣] أبي علي، ويعرف بخفتيان الصغير، وما بين ذلك من الدست والدربند[٤] الكبير؛ وهم قوم لا يبلغ عددهم ألفاً، وجبالهم عاصية، ودربندهم بين جبلين شاهقين يشقهما الزاب[٥] الكبير، وينقلب علىٰ صخورهما بصوت مفزع، وهدير قوي عليه ثلاث قناطر؛ اثنتان منهما بالحجر والجير، والوسطىٰ مظفورة من الخشب كالحصير، علوّها عن جهة الماء مائة ذراع في

---

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾﴾ «سورة الغاشية: الآيات ١٣ ـ ١٦».

(٢) شقلاباذ: قرية كبيرة في سفح الجبل المطل على إربل، بينها وبين إربل ثمانية فراسخ «مراصد الإطلاع ٢/٨٠٦».

(٣) خفتيان: قعلتان عظيمتان من أعمال إربل إحداهما على طريق مراغة والأخرى في طريق شهرزور «مراصد الإطلاع ١/٤٧٥».

(٤) دوبند بشروان وهو باب الأبواب «مراصد الإطلاع ٢/٥٢١».

(٥) هو الزاب الأعلى بين الموصل وإربل «مراصد الإطلاع ٢/٦٥٢».

الهواء، وطولها بين الجبلين خمسون ذراعاً في عرض ذراعين.

وقد ينقل تارة من أرضه فينقص من طوله أو يزاد في عرضه، تمرّ عليه الدواب بأحمالها، والخيل برجالها.

وهي ترتفع وتنخفض وتنبسط وتنقبض، يخاطر المجتاز عليها بنفسه، ويقامر بعقله، وهم يأخذون الخفارة عندها، يجيلون ما شاءوا بعدها؛ فإنَّ الدربند مضيق علىٰ نهر عميق.

وهم أهل غدر وخديعة، وقبائح شنيعة، لا يستطيع المسافر مدافعتهم فيه بل ترضيه سلامته بنفسه.

قال الحكيم شمس الدين محمد بن ساعد: إنْ نُسب أحد من الأكراد إلىٰ الجن فهم هؤلاء حقاً، وإن صعب مسلك دربند فهذا أصعب المسالك وأشقىٰ. كان أميرهم الحسام بن عمقيان أبقىٰ ما ترك ولا أبقىٰ.

ومجاورهم قوم يقال لهم الزرزارية؛ وهي كلمة أعجمية معناها ولد الذئب؛ ويقال /١٣٠/ إنهم ممن تكرّد من العجم المنسوبين إلىٰ ملوكهم، ذكره بعض أهل التاريخ.

ولهم عدد جمّ منهم زرّاع وأمراء وأغنياء وفقراء، يبلغ عدّة رجالهم خمسة آلاف، قليل بينهم الخلاف، ومنهم زهّاد يشار إليهم، وفقهاء يعتمد في الفتوىٰ عليهم.

مساكنهم من مرت[1] إلىٰ جبل خنجرين المشرف علىٰ أسنة من ذات اليمين؛ وهو جبل عالٍ مشرف بمكانه علىٰ جميع الجبال. كأنَّ هواءه الزمهرير. وكأنَّه للسحب مغناطيس يجذبها بالخاصة قد نصب عليه للتحذير ثلاثة أحجار طول كل حجرة عشرة أشبار وعرضه ربع هذا المقدار، ثخانته نحو ثلثي ذراع، منحوت من جميع الأضلاع، مركب من حجر مربع، ثخانته تزيد علىٰ ذراع في التقدير. علىٰ كل من الثلاثة كتابة قديمة لم يبق منها سوى المعالم؛ وهي من الحجر المانع الأخضر الذي لا يغيره البرد ولا الحر ولا يتأثر إلاّ في ألوف السنين تأثير لا يكاد يبين، فالوسط منها علىٰ بسطة رأس جبل، والآخران في ثلث عقبته لمن صعد أو نزل يقال: إنها نصبت لمعنىٰ الإنذار، وإنَّ المكتوب عليها أخبار من أهلكه الثلج والبرد في الصيف، وهم يأخذون

(١) مرت: قرية بينها وبين أرمية منزل واحد في طريق تبريز «مراصد الإطلاع ٣/ ١٢٥٤».

الخفارة تحته ويدركون أو يوارون من هلك ببرده.

وبيد الزرزارية أيضاً بلاد ملازكرد والرستاق بقلاعها ومزارعها وضياعها ولا يحملون لأحدٍ شيئاً من ارتفاعها. وكان لهم أمير جامع لكلمتهم مانع لشوكتهم يسمّىٰ نجم الدين بن باساك.

ثم توفي وتولاهم من بعده ولده المسمّىٰ جيدة؛ ولما أدركه الأجل وتوفي تولآهم ولده عبد الله. وكان لهم أيضاً أمير شجاع عفيف له رأي وتدبير يقال له: الحسام شير الصغير، حوله من عشيرته عصبة تسير بسيرته، وكذلك كان لهم أمير آخر جيد السير يسمّىٰ باساك بن الحسام شير الكبير.

وآخر منهم له بابك قوي يدعىٰ بهاء الدين بن جمال الدين أبي عليّ، وأمراء غير هؤلاء ممن ينطوي في طائفتهم ويدخل في جماعتهم إذ لا يبلغ قدر استطاعتهم يستغنىٰ عن ذكر اسمه عن تقدّم.

وينضم إلىٰ الزرزارية شرذمة قليلة العدد، هي لهم كالمدد، تسمّىٰ /١٣١/ باسم قرينها بالكان منفردة بمكان مشرف علىٰ عقبة الخان يأخذون عليها الخفارة باليد القوية ويحولون بين الحسنانية قتل أميرهم توبك مع نجم الدين وعاد قومه لهم بالرعية تبلغ عدّتهم ثلاثمائة رجل.

ومنهم الجولمركية وهم قوم نسبوا إلىٰ الوطن لا إلىٰ النفر بل هم طائفة من بني أمية يقال إنَّها حكمية[1] اعتصموا بالجبال عند غلبة الرجال عليهم واستغنوا بمنعتها عند استعمال البأس ومخالطة الناس طلباً للسلامة من أعدائهم وفراراً من اعتدائهم فانخرطوا في سلك الأكراد فسلموا.

وهم الآن في عدد كثير يزيدون علىٰ ثلاثة آلاف كان ملكهم عماد الدين بن الأسد بن مشكلان.

ثم خلفه ولده الملك أسد الدين وتحت يده من المعادن ما ينقل من الزرينحين إلىٰ سائر الأماكن. وكان ظهر له معدن اللازورد فأخفاه لئلا تسمع به ملوك التتر فيطلبونه، ومعقله الذي يعمد عليه من أمنع المعاقل علىٰ جبل عال مقطوع بذاته قرن الجبال قائم في وسطها مع الانفصال شامخ في الهواء، راسخ فيما حوله من الماء،

(١) حكمية نسبة إلى مروان بن الحكم.

والزاب الكبير محدق به، فاصل بينه وبينهما بإذن ربّه لا محطّ للجيش عليه، ولا وصول للسهام إليه سطحه للزراعة متسع، وفي كل ضلع من جوانبه كهف مرتفع يأوي إليه من شاء للامتناع فيمتنع والماء محيط بأساسه، والثلج لا يزال يشتعل سببه برأسه والصعود إليه في بعض الطريق يستدعي العبور علىٰ أوتاد مضروبة مصلحة لمن يطيق ومن لا يستطيع التسليق جرّاً بالحبال يعلّق بها، وكذلك ترفع البغال للطواحين والذخائر التي يحتاج إليها في كل حين.

والملك عليهم معتبر علىٰ الأكراد، ولهم علىٰ كلمته إعقاد، يدعىٰ بهاء الدين ابن قطب الدين، وولده في الملك يجري مجراه، ويخلف في سيرته أباه. وكان له ابن عمّ آخر يدعىٰ بشمس الدين داود عصىٰ علىٰ دولة الأعداء مدّة، وعجزوا عنه وقد اجتهدوا في غيلته بكلّ حيلة فلم يقدروا عليه فبالغوا في الإحسان إليه، وأمروه بالانتقال عن الجبل ليأمنوا اعتصامه فاختص التوصل في التوسل حتىٰ سكن ببعض المدن؛ / ١٣٢/ فلمّا قرأ في دار كانت بُنيت للسلطان وغرس في ما حولها بستاناً جامعاً لأشجار ذات أفنان مختلفة الثمار، محفوفة بالارتفاع ارتفاع مغله من دنانيرهم عشرون ألف دينار.

والدار أعظم ما يكون من دور السلطنة لما فيها من البسط والآلات المثمنة فخولوه في سكنها، وسمحوا له بالفاكهة وثمنها، إلىٰ أن اخترمه ريب المنون، فترك ولده الحركة وعاد إلىٰ حربهم يؤدّى إليه خراج بلاده، ويقطع منها ما شاء من أقاربه وأجناده، ويأخذ الخفارة من جميع الطرقات من أذربيجان، من تبريز إلىٰ خوئي ونقشوان[1].

وكلّ وظائف مستخدميه بضمان من الكتاب والمشدين والنواب والمتصرفين والوكلاء ولا يقدّم طعامهم ضيفانه إلىٰ ثلث الليل إلىٰ نصف نصف النهار، أي غداء كان ولا يطعم ضيفانه إلىٰ ثلث الليل عشاء، ولا يجعل في خبزه ملحاً ليأكل منه من كان حرباً وصلحاً.

ويجاور الجولمركية من الأكراد قوم يسكنون الجبال من بلاد تدعىٰ مركوان كثيرة الثلوج والأمطار، مخصبة ربيعها زاهر بأنواع النبات والأزهار ووصفها منوط بألحان الأطيار وشتاؤها وافر الأسمان والألبان غزير اللحوم المنوعة وهي مترخمة لا رمية

---

(١) نخجوان: وهي منطقة واقعة بين إيران وأرمينيا وتابعة لآذربيجان.

من بلاد أذربيجان. وكان لهم بها أميران بدر الدين والأمير حسن أخوان شقيقان، وبالرعايا رفيقان، تبلغ عدّتهم ثلاثة آلاف وهم لمن جاورهم من الزرزارية والجولمركية أخلاف ويعاملونهم بالرأفة والإحسان.

ويجاور الجولمركية من قبل بلاد الروم جبال وبلاد يقال لها كوار ذات سعة وإمكان ومرعىٰ للحيوان وخصب مستمر في سائر الأحيان، وإليها ينسب من بها من الشمال فيحسب أنه من قبيله. وكان الأمير شمس الدين هو المداري عنهم وعدّة قومه ثلاثة آلاف.

ويلي الجولمركية وجه عقر شوشن، وبلاد العمادية، وبلاد الزيبار، وبلادالهكلر.

أما الزيبارية فيبلغون خمسمائة عدداً أصحاب بازارية[1] لهم سوق وبلد. وكان حروب بينهم وبين المارنجارية /١٣٣/ مدداً.

ثم قر قرارهم وأنجدوا وأركان ملكهم أحدهما الأمير إبراهيم ابن الأمير محمّد الزامي. وكان موقراً في زمن الخلافة، معروفاً بالحشمة، وبقي ولده بعده صغيراً فاحتاج إلىٰ الاعتقاد بالمبارزكنك ليكون له ظهيراً.

والثاني الشهاب بن بدر الدين برش توفي أبوه وخلّفه كبيراً؛ ولولا المارنجانية لم يدع لهم سواه أميراً فاستولىٰ علىٰ الرعية استيلاء كثيراً.

وأمّا الهكارية فإنَّهم مقيمون ببلاد العمادية تزيد عدّتهم علىٰ أربعة آلاف حربية. وكانت إمارتهم إلىٰ أميرين أخوين؛ أحدهما الأمير أبو بكر، والآخر الأمير علي؛ يعرف والدهما بالطراوسي.

فأمّا أبو بكر فإنَّه كان ممتنعاً برجاله وكثرة احتياله وقوة جباله ونوابه وجيوشه وأحزابه، وبقي مدّةً لا يعبأ بهم ولا به مع أنه سيّر له العساكر واستعان عليه بكلّ ما كرّ إلىٰ أن حكم بالموصل نصراني يقال له مسعود البرقوطي عزل عنها الأمير رضي الدين بابا القزويني البكري ـ رحمه الله ـ فاحتال النصراني علىٰ الأمير أبي بكر بكل حيلة وأعانه عليه في المكيدة بعض القبيلة فحسنوا له الوثوق إليه، والنزول في الطاعة علىٰ يديه، وسيّر له الرهائن أربعة من الصبيان إلىٰ السلطان أحدهم مبارك شاه،

(١) أي رجال السوق والتجار نسبة إلى البازار وهو السوق.

والثاني سيف الدين ابن المبارزكنك الذي استنابه في العقر أبوه. والآخران أحمد وجركتم والدهما فبلغ بكر الدين كان بإربل نائباً في ذلك الزمان فاغتر ونزل إلىٰ البابا وبقي عند السلطان معظم المقدار إلىٰ عدت فيه ذوو الاعتراض، وقالوا: إنْ أحضر ولده وأهله فما عليه اعتراض.

ولما طلبوا منه سيَّر إليهم بالنزول فلم يأخذوا أمره بالقبول، وعاد مؤكداً لطلبهم برسول، وتأخر حضورهم فاشتبهت علىٰ السلطان أمورهم فأمر بالاحتياط عليه وعلىٰ من معه من أصحابه. وكان إذ ذاك متوجهاً إلىٰ حمص في أحزابه.

فلمّا وصلوا إلىٰ مراغة أذربيجان توجه حسان أجابه الداعي السلطان، وكان موثوقاً عنده في المكان / ١٣٤/ فانتهز الفرصة في الخروج من الوثاق، وخلص من معه من الرفاق. وركب ما وجد من الخيل عرياً وساق، بناءً علىٰ أنَّ الجبل قريب، وطمعاً في أن يدركه الليل فيستتر فلمّا أحسّ القوم بفراره، وخافوا صولة سلطانهم ونادوا أولام أولام علىٰ آثاره، فتنبه عليه قوم من الأختاجية وهم رعاة الخيل، وهو تحت فرسه بكزلك؛ وهي مدية فرماه أحدهم بسهم أصابه به، وتواثب عليه أصحابه فلم ينج منهم أحد إلاّ رجل كان لمّا انهزموا قد دخل البلد.

وأمّا أكثر الرهائن فإنَّ البارز شير سيَّر من سرق ولده وهرب كل منهم فلحق ولده، وبقي الأمير عليّ أخوه مستقلاً بالهكارية وحده إلىٰ أن أتاه اليقين فخلف فيهم ولده غرس الدين صاحب قلعة هروز.

ونشأ الأمير محمد ابن الأمير أبي بكر شجاعاً فقصد قلعة الجبال فأخذها وأحرق بايان الدور وأراد أن يقيم بها إن ساعده القدر المقدور.

والهكارية يأخذون الخفارة في أماكن كثيرة من بخارى إلىٰ جبل الجزيرة، ويليهم من قبل المرج جبال القمرانية وكهف داود وهذه الأماكن أوطان النستبكية وقليل ما هم لكنّها حماة رماة وطعامهم مبذول علىٰ خصاصه، وعدّتهم لا تزيد علىٰ خمسمائة، وأميرهم مقيم بالقمرانية يقال له...[1]

ويقابل الجولمركية من قبل الموصل التحتية، وهم قوم كانوا يضاهون الحميدية لكنهم شعبهم أكثر، وقبيلتهم أكثر؛ فكان لهم كبراء وأعيان فهلك أمراؤهم، وتشتت كبراؤهم، وتفرّق جمعهم المعهود، ولم يبق منهم إلاّ شرذمة قليلة تفرقت بين القبائل والشعوب.

---

(١) بياض بالأصل.

وكان مــن بقايا أمرائهم فخر الدين ـ خدم صاحب ماردين ـ فأبعده لأقوال قيلت.

وشعبهم كثيرة، وقبائلهم متفرقة؛ منهم السندية وهم أكثر شعبهم عدداً، وأوفرهم مدداً، يبلغون ثلاثين ألف مقاتل مختال مخاتل. والمحمدية وكان أميرهم شروين لا تزيد علىٰ ستمائة رجل؛ والراسنية كانوا أولي عددٍ وعُددٍ وجمع ومدد إلىٰ أن نزح أميرهم البدر بن كيابك /١٣٥/ من ذلك البلد بالأهل والولد إلىٰ منعة، وقد تشتت شملهم، وتفرّق جمعهم. عدّتهم لا تزيد في بلد الموصل لا تزيد علىٰ ألف رجل، وأميرهم علاء الدين كودك بن إبراهيم، ولا ينقص في بلد الفقر خمسمائة وأميرهم عمر بن أبي علي، وموسىٰ بن بهاء الدين.

والدنبلية وهم يسكنون الجبال المقلوب والمختار مطلوبون بالخفارة؛ أميرهم كليّ ولا تزيد عدّتهم علىٰ ألف متفرقين في البلاد، متمزّقين بكل واد.

* * *

الفصل الثاني: في اللرّ

وهؤلاء طائفة كثيرة العدد، ومنهم فرق مفرقة في البلاد، وفيهم ملك وإمارة، وإقدام وشطارة، ولهم خفّة في الحركات، وصدق في القول.

يقف الرجل منهم إلىٰ جانب البناء المرتفق، ويلصق بطنه بأحد الزوايا القائمة به، ثم يصعد فيه إلىٰ أن يرتقي صهوته العليا. ومنهم من يخالس الرجل ماله ويأخذه منه وهو لا يدري؛ وربما أمسك الرجل منهم وضرب بالسياط وعوقب أشدّ العقاب فلا يقرُّ أنَّه أخذ ولا يعرف فإذا حلّف بستر الله وأقسم عليه به أقرّ واعترف.

وفي بلاد مصر والشام منهم طوائف، وفي البلاد الشامية معظمهم، ولهم في هذا وقائع مشهورة، وأحوال مشهودة.

ومـمــا يُحكى: أنَّ السلطان صلاح الديــن أبا المظفر يوسف بن أيوب[1]

---

(١) يوسف بن أيوب بن شاذي، أبو المظفر، صلاح الدين الأيوبي، الملقب بالملك الناصر: من أشهر ملوك الإسلام. كان أبوه وأهله من قرية دُوين (في شرقي أذربيجان) وهم من بطن الروادية، من قبيلة الهذانية، من الأكراد. نزلوا بتكريت، وولد بها صلاح الدين سنة ٥٣٢هـ/ ١١٣٧م، وتوفي بها جده شاذي. ثم ولي أبوه (أيوب) أعمالاً في بغداد والموصل ودمشق. ونشأ في دمشق، وتفقه وتأدب وروى الحديث بها وبمصر والإسكندرية، وحدّث في القدس. ودخل مع أبيه (نجم الدين) وعمه (شيركوه) في =

. . . .

= خدمة نور الدين محمود ابن عماد الدين زنكي (صاحب دمشق وحلب والموصل) واشترك صلاح الدين مع عمه شيركوه في حملة وجهها نور الدين للاستيلاء على مصر (سنة ٥٥٩هـ) فكانت وقائع ظهرت فيها مزايا صلاح الدين العسكرية. وتم لشيركوه الظفر أخيراً، باسم السلطان نور الدين، فاستولى على زمام الأمور بمصر، واستوزره خليفتها العاضد الفاطمي. ولكن شيركوه ما لبث أن مات. فاختار العاضد للوزارة وقيادة الجيش صلاح الدين، ولقبه بالملك الناصر. وهاجم الفرنج دمياط، فصدهم صلاح الدين. ثم استقل بملك مصر، مع اعترافه بسيادة نور الدين. ومرض العاضد مرض موته، فقطع صلاح الدين خطبته، وخطب للعباسيين، وانتهى بذلك أمر الفاطميين، ومات نور الدين (سنة ٥٦٩هـ) فاضطربت البلاد الشامية والجزيرة، ودُعي صلاح الدين لضبطها، فأقبل على دمشق (سنة ٥٧٠) فاستقبلته بحفاوة. وانصرف إلى ما وراءها، فاستولى على بعلبك وحمص وحماة وحلب. ثم ترك حلب للملك الصالح إسماعيل بن نور الدين، وانصرف إلى عملين جديين: أحدهما الإصلاح الداخلي في مصر والشام، بحيث كان يتردد بين القطرين، والثاني دفع غارات الصليبيين ومهاجمة حصونهم وقلاعهم في بلاد الشام. فبدأ بعمارة قلعة مصر، وأنشأ مدارس وآثاراً فيها. ثم انقطع عن مصر بعد رحيله عنها سنة ٥٧٨ إذ تتابعت أمامه حوادث الغارات وصد الاعتداءات الفرنجية في الديار الشامية، فشغلته بقية حياته. ودانت لصلاح الدين البلاد من آخر حدود النوبة جنوباً وبرقة غرباً إلى بلاد الأرمن شمالاً، وبلاد الجزيرة والموصل شرقاً. وكان أعظم انتصار له على الفرنج في فلسطين والساحل الشامي «يوم حطين» الذي تلاه استرداد طبرية وعكا ويافا إلى ما بعد بيروت، ثم افتتاح القدس (سنة ٥٨٣) ووقائع على أبواب صور، فدفاع مجيد عن عكا انتهى بخروجها من يده (سنة ٥٨٧) بعد أن اجتمع لحربه ملكا فرنسا وانكلترا بجيشهما وأسطوليهما. وأخيراً عقد الصلح بينه وبين كبير الفرنج ريكارد قلب الأسد Richard Cocur de Lion (ملك انكلترة) على أن يحتفظ الفرنج بالساحل من عكا ويافا، وأن يسمح لحجاجهم بزيارة بيت المقدس، وأن تخرب عسقلان ويكون الساحل من أولها إلى الجنوب لصلاح الدين. وعاد «ركارد» إلى بلاده. وانصرف صلاح الدين من القدس، بعد أن بنى فيها مدارس ومستشفيات ومكث في دمشق مدة قصيرة انتهت بوفاته سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م. وكان رقيق النفس والقلب، على شدة بطولته، رجل سياسة وحرب، بعيد النظر، متواضعاً مع جنده وأمراء جيشه، لا يستطيع المتقرب منه إلا أن يحس بحب له ممزوج بهيبة، اطلع على جانب حسن من الحديث والفقه والأدب ولا سيما أنساب العرب ووقائعهم، وحفظ ديوان الحماسة. ولم يدخر لنفسه مالاً ولا عقاراً. وكانت مدة حكمه بمصر ٢٤ سنة، وبسورية ١٩ سنة، وخلف من الأولاد ١٧ ذكراً وأنثى واحدة. وللمصنفين كتب كثيرة في سيرته، منها: «الروضتين ـ ط» لأبي شامة، في تاريخ دولته ودولة نور الدين، و«النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ـ ط» لابن شداد، ويسمى «سيرة صلاح الدين» و«البرق الشامي ـ خ» سبعة أجزاء، في أخباره وفتوحاته وحوادث الشام في أيامه، لعماد الدين الكاتب، و«النفح القُسي في الفتح القدسي ـ ط» لعماد الدين أيضاً، و«صلاح الدين الأيوبي وعصره ـ ط» لمحمد فريد أبي حديد، و«حياة صلاح الدين الأيوبي ـ ط» لأحمد بيلي المصري.

ترجمته في: وفيات الأعيان ٢/ ٣٧٦، وتاريخ الخميس ٢/ ٣٨٧ وابن إياس ١/ ٦٩ وابن خلدون ٤/ ٧٩ و٥/ ٢٥٠ـ ٣٣٠ وابن الأثير ١٢/ ٣٧ والسلوك للمقريزي ١/ ٤١ـ ١١٤ والإسلام والحضارة العربية ١/ ٢٨١، ٢٩٠ و٢/ ٢٨٩ وطبقات السبكي ٤/ ٣٢٥ والدارس ٢/ ١٧٨ـ ١٨٨ ومرآة الزمان ٨/ ٣٢٥ =

ـ رحمه الله ـ حضر إليه رجل منهم، وأظهر له أشياء من أفعاله اللطيفة، وحركاته الخفيفة حتىٰ إنه وقف إلىٰ جانب بناءٍ مرتفع وارتفع والتصق به وارتفع حتىٰ استوىٰ علىٰ أعلاه؛ وصلاح الدين ـ رحمه الله ـ يظهر العجب من شطارته، وخفَّة حركته وقدرته علىٰ ما لا يقدر عليه مثله؛ فلما نزل خلع عليه وأكرمه وحمله علىٰ فرس وأقطعه إقطاعاً جليلاً، وقال له: اشتهي أن يكون عندنا جماعة منكم فإنَّنا ما نستغني عنكم لنتوصّل بكم.

/١٣٦/ إلى حصون الأعداء، فبقي ذلك اللرّي[١] يجلب له واحداً بعد واحد ممن يقدر على هذا منهم؛ فكلما جاء واحد منهم أكرمه صلاح الدين وخلع عليه وأقطعه الإقطاع حتى لم يبق أحد منهم، وبقي مدةً لم يُحضر أحداً إلى صلاح الدين، فقال له: لأيّ شيء ما عدت جبت لها أحداً، فقال: والله يا مولاي ما بقي أحد يقدر على هذا مثلنا؛ فلمّا تحقق صلاح الدين في ذلك أسرَّها في نفسه ثم جمعهم وأوقف خلف كل رجل منهم رجلاً وأومأ إليه فضربوا رقاب أولئك النفر؛ لأن صلاح الدين لما رأى ذلك فزع منهم على نفسه وخاف إن هو قتله وحده يبقى وراءه من يفعل مثل فعله فاحتال عليهم بذلك لئلا ينزل عليه أحدهم فيقتله به.

وأما ما يروى من مشي هذه الطائفة على الجبال المنصوبة على قامات من الأرض وانقلابهم عليها في الهواء حتى يصير رأس الرجل منهم منكوساً إلى الأرض ورجله متعلقة بالجبل، ثم يستوي على قامته ثم يمشي على الحبل بالقبقاب ويلعب فوقها بالمخاريق ما تحار له الألباب، ويحال فيه إلى نوادر العجب العجاب. أنَّ نساءهم يفعلن وتركضها أشدّ ركض ثم تطيح عنها في قوة جريها إلى الأرض ثم تثب عليها فيستوي على ظهرها ثم تصير حزاماً لبطنها ثم تترك صهوة الفرس وتعتنق العنق تارة من أعلاها، وتارة من تلقاء صدرها إلى غير ذلك من عجائب الأفعال، وغرائب الخفّة في المجال.

ودأب من هو منهم في الشام أحد ما قدروا عليه، ووصلت أيديهم إليه. وقد عرف صبرهم على الضرب فما بقي يضرب أحد منهم إذا اتهم بل يحلف بستر الله ويقسم عليه به فيقرّ ويعترف ويردّ ما أخذ ويقول: نحن نأخذ قبيح، ونردّ مليح. وقد

= ومفرج الكروب ١/ ١٦٨ وما بعدها. وترويح القلوب ٨٧، ٨٨ وحلى القاهرة ١٠٧ـ ١٩٤ والإعلام، لابن قاضي شهبة ـ خ. والنجوم الزاهرة ٦/ ٣ـ ٦٣ وشذرات الذهب ٤/ ٢٩٨ والفاطميون في مصر ٣٠٨ والشر فنامه ٨٠ـ ٩١ و,Huart i89 ومختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي، لسيد أمير علي ٣٠٣ـ ٣٢٠ ودوائر المعارف البريطانية والفرنسية والإسلامية، الأعلام ٨/ ٢٢٠.

(١) نسبة إلى اللّر واللار واللور، وهي من بلاد إقليم فارس، تقع قرب شيراز.

أوردنا هاتين اللفظتين بعبارتهم على ما هي عليه.

وهم ببلادهم أهل منعة؛ وهي اللران كبير وصغير، ومأمور وأمير، وسارقهم لا يقطع /١٣٧/ على السرقة هكذا جرت عادتهم في بلادنا.

الفصل الثالث: في الشول

وهؤلاء حكمهم حكم شنكارة، وما يبعد بعضهم من بعض في موازنة العقول؛ إلاّ أنه لا يخلو بينهم من دماء تطلّ، ومواثيق فيما بينهم تحلّ؛ وفيهم كرم وسماح تقصدهم الفقراء[1] وتنزل في قُراهم، وتقيم في ضيافتهم وقِراهم. ولهم فيهم حسن الظنّ إذا نزلهم الفقير أنزلوه في بيوتهم يمسي ويصبح عندهم وبين نسائهم؛ فإن أطلعوا علىٰ أحد منهم أنَّه خان أو تطرق إلىٰ حريم أخرجوه من بيوتهم وتبعوه فإمّا نجا وإما أدرك فقتل. ولا يقتلون أحداً منهم في بيوتهم ستراً علىٰ حريمهم، وخوفاً من تنفير الفقراء عنهم لحسن ظنّهم فيهم.

* * *

الفصل الرابع: في شنكارة

وهم أحسن من اللر طريقاً، وأقلّ فريقاً، وفيهم رعاية الذمام، وتمسّك من الشريعة المطهرة بزمام، ولهم بأس وشجاعة، وعندهم لأمرائهم سمع وطاعة علىٰ أنَّهم أشدّ من الأسود إذا غضبوا، وأخفّ من البروق إذا وثبوا، يكون الرجل منهم في أسفل الجبل العالي، ثم يأخذ في الصعود ويرشق محاذيه السهم فيكاد يسبق السهم وقد بلغ غايته وما انحدر أو يوافي هو وإياه علىٰ قدر.

* * *

(١) الفقراء: المتصوفة.

الباب الخامس: في مملكة الأتراك بالروم

في مملكة الأتراك بالروم

أمّا المسمّاة الآن بمملكة الروم فقد كانت مملكة لا تُرام، ولا يحلق إليها مرام وهي مما هو من الخليج القسطنطيني[1]، ممتداً على جنوب بحر نيطش[2] ومانيطش محجوزة بجبال يزل الطرف عن صهواتها، ويخل الطرف بعوائدها في اقتحام حجراتها، وكانت آخر وقت زمان بقايا بني سلجوق معدن الخيرة والخير، ومسلك مسكن الملك صاحب القبة والطير، وكان لسلطانها من إرث آبائه حرمة محفوظة، ونعمة على معاطف الملوك ملحوظة.

وقد تقدم /١٣٨/ في هذا الكتاب ما ينبّه على ما لهذه البلاد من المجد من الطارف والتلاد.

كانت على عهد الروم الباقي عليها نعتهم إلى الآن محتبك الأعنة، ومشتبك الأسنة دار القياصرة، ومكسر الأكاسرة، وكان لملكها الرتبة العليا، وكانت بقسمة التعديل ثلث الدنيا؛ لأنه لم يكن يسمى من ملوك الأرض إلا ملوك الفرس والروم والترك.

وهكذا قسَّم أفريدون[3] جدّ هؤلاء الملوك الثلاثة الأرض بينهم بالأثلات، فالروم لهم الثلث وهم أهل التثليث[4] وهذا الذي نحن في ذكره الآن مما وقع في

---

(١) الخليج القسطنطيني هو بحر مرمرة أو بحر إيجة الواصل بين بحر بنطس والبحر الرومي.

(٢) بحر بنطس هو البحر الأسود، وهو في وسط المعمورة بأرض الصقالبة والروس، يخرج منه خليج يمر بسور قسطنطينية، ولا يزال يتضايق حتى يقع في بحر الشام «مراصد الاطلاع ١/ ١٦٥».

(٣) فريدون: من الأبطال الأسطوريين عند الفرس، وهو من نسل جمشيد، أبوه آبتين وأمه فرانك، قتل الضحاك، وله ثلاثة أولاد هم: ايرج وسلم وتور، قسّم عليهم العالم المعروف آنذاك فكان هناك التوارنيون والإيرانيون، أما سلم فكان في الشام وما يليها «حماسهء سراي ٤٦١ـ ٤٦٩».

(٤) لقولهم الأب والابن والروح القدس.

قسمهم وطبع إلى وقتنا بطبائع اسمهم هو الواقع على شرقي الخليج القسطنطيني متصلاً بأرمينية وديار العرب والعواصم والشام.

وهو أثرى الممالك بلا احتشام، خلا أنه بكثرة الثلوج كالح الوجه في شبابه، أشيب اللمة في قبابه، لا يستسقي له محب لاتراك ولا يسام، ولا بارق فيه لعارضة برق ولا يشام، إلا أن صخوره تتفجر ماء، وتتبخر أنواء، تعقد دون السماء سماء، فتخصب زرعها، ويخصم المحل ضرعها، ويخصف ورق الجنة على الحدائق ثمرها، وينعها وتطرب ورقها لمنظرها البديع ومخبرها، من صناعة صنعاء الربيع، فلا تسمع إلاّ كل مطربة تناجي النجيّ، وتشجي الشجي، وتخلب قلب الخلي، وتهب الغواني ما في أطواقها من الحلي، يعجب ثوبها السندسي، ونباتها المتعلق بذيل البهار سجافها القندسي، فلا تجول في أرضها إلا على أرائك، ولا تنظر إلا نساء كالحور العين وولداناً كالملائك.

وآخر ما كانت في الأيام السلجوقية على ما قدمنا ذكره دار بهجة وسناء، ومجلس أنس لكؤوس وغناء، انتهبوا العيش بها نهباً، وقطعوا الأيام بالمسرات فيها وثباً، ثم جرى عليها ملك أولاد جنكزخان، لما فاضوا على الأرض من كل مكان، إلا أنهم أبقوا على بقايا السلجوقية الملك بالروم وحكموا معهم من يمنع أسودهم الرابضة أن تثب، ويستدر لهم غبّر ما خلوا من الثدي وتحتلب، ثم أزالتهم الأيام، وأزاحتهم لتمتدّ ستور الظلام.

وكان من دخول الملك الظاهر أبي الفتح بيبرس البندقداري / ١٣٩/ الصالحي[١]

---

(١) بيبرس العلائي البندقداري الصالحي، ركن الدين، الملك الظاهر: صاحب الفتوحات والأخبار والآثار. مولده بأرض القبجاق سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م. وأسر فبيع في سيواس، ثم نقل إلى حلب، ومنها إلى القاهرة. فاشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار، وبقي عنده، فلما قبض عليه الملك الصالح (نجم الدين أيوب) أخذ بيبرس، فجعله في خاصة خدمه، ثم أعتقه. ولم تزل همته تصعد به حتى كان «أتابك» العساكر بمصر، في أيام الملك «المظفر» قُطُز، وقاتل معه التتار في فلسطين. ثم اتفق مع أمراء الجيش على قتل قطز، فقتلوه، وتولى «بيبرس» سلطنة مصر والشام (سنة ٦٥٨هـ) وتلقب بالملك «القاهر، أبي الفتوحات» ثم ترك هذا اللقب وتلقب بالملك «الظاهر». وكان شجاعاً جباراً يباشر الحروب بنفسه. وله الوقائع الهائلة مع التتار والإفرنج (الصليبيين) وله الفتوحات العظيمة، منها بلاد «النوبة» و«دنقلة» ولم تفتح قبله مع كثرة غزو الخلفاء والسلاطين لها. وفي أيامه انتقلت الخلافة إلى الديار المصرية سنة ٦٥٩هـ.

وآثاره وعمائره وأخباره كثيرة جداً. توفي في دمشق سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م ومرقده فيها معروف أقيمت =

إلى قيسارية ما هو مشهور وكسر عليها طائفة من رؤوس التتار، ثم عاد ولم يقرّ له بها قرار، بعد أن جلس على تخت آل سلجوق ولبس التاج وضرب باسمه الدينار والدرهم، واستبشرت به أهل تلك الدار لكنه خاف عاقبة لموافقة طالع الوقت لتجم سعدهم، ورجم ضدّهم ولم يكن قد آن لجمرتهم أن يخمد لهبها، ولا لجداول سيوفهم أن تجمد عليها قربها، فاستمرت أيدي المغل عليها واضمحل ملك آل سلجوق حتى سقط من يديها فغلبت طوائف الأتراك هنالك على كثير من تلك الممالك إلا بقية حفظت المغل مطالع أفقها، وأمسكت آخر رمقها، ودارت طوائف الأتراك ملوك المغل على ما غلبت عليه وبقي منهم من يدخل في طاعتهم على أنه يسلم إليهم ولا يخرج شيء من يديه واستمرت أحوالهم معهم من الطاعة والعصيان والتذكار والنسيان حتى تمادت المدد، وخر رواق الدولة الجنكزخانية أو وهى منه بعض العمد، فحينئذ ثبتت أقدامهم، ونبتت في مغارس الاستمرار أيامهم.

ومنذ غلبوا على الروم كاتبوا ملوك مصر[١] واتخذوهم ظهراً، وعدوهم لحوادث الأيام ذخراً، حتى إن منهم من رغب في تقليد يكتب له بالنيابة فيما هو فيه فكتب له وجهز إليه بالصناجق[٢] والألوية والأعلام والتشاريف التمام والسيف المحلى والحصان المركوب والجنائب وهم إلى يومنا هذا أهل ود وصفاء وحسن عهد ووفاء ولكثرة ما خلطهم به الامتزاج وصل منهم من اتخذ مصر والشام داراً وأخذ بهما الأمرة والإقطاع، وجرى فيهما تحت حكم الأمر المطاع، ورسلهم حتى الآن لا تنقطع عن مصر والشام والمكاتبات واردات وصادرات، والهدايا مقيمة وسائرات، ومع هذا كله كل واحد منهم بما آتاه الله من فضله.

ونحن الآن نذكرهم على التفصيل، ونكتفي بالقليل، وها نحن نشرح حال كل

= حوله المكتبة الظاهرية. ولمحمد جمال الدين كتاب «الظاهر بيبرس وحضارة مصر في عصره ـ ط» .
ترجمته في: فوات الوفيات ١/ ٨٥ والنجوم الزاهرة ٧/ ٩٤ وابن إياس ١/ ٩٨ و١١٢ وفيه اسم أبيه «بركة خان» وابن الوردي ٢/ ٢٢٤ ووليم موير ٤١ والنعيمي ١/ ٣٤٩ والسلوك للمقريزي ١/ ٤٣٦ـ ٦٤١ وسوبر نهيم M.Sobernheim في دائرة المعارف الإسلامية ٤/ ٣٦٣ وهو يذكر مولده سنة ٦٢٠هـ، الأعلام ٢/ ٧٩.

(١) يقصد مكاتبات بركة خان إلى الظاهر بيبرس والتي بدأت سنة ١٢٦٢م.
(٢) الصناجق جمع مفرده صنجق أو سنجق وهو اللواء وحاكم اللواء.

طائفة متغلبة على هذه البلاد، والمملكة التي استولت عليها، وما استقر في يديها، على ما ننبّه عليه في موضعه.

وقد ذكر أبو الفضل / ١٤٠/ عبد الله بن عبد الظاهر[١] دخول الملك الظاهر ـ رحمه الله ـ هذه البلاد وخروجه منها في رسالة قال فيها[٢]:

وسرنا لا يستقرّ بنا قرار، ولا يقتدح من غير سنابك الخيل نار، ولا نقيم إلا بقدر ما يتزيد الزائر، من الأهبة أو يتزوّد الطائر، من النغبة تحمل همّنا الخيل العاق، ويكبو البرق خلفنا إذا حاول بنا اللحاق. وكان السلطان من حلب قد أمر جميع عساكره بادّراع لامات حربهم، وحمل آلات طعنهم وضربهم.

ورحلوا من حلب جرائد على الأمر المعهود، قد خففوا كل شيء حتى عن السيوف الغمود، فسرنا في جبال يشتهى فيها سلوك الأرض، وأودية تهلك الأشواط فيها إذا ملئت الفروج من الركض[٣]، واستقبلنا الدرب كما قال المتنبي[٤]: [من الطويل]

رمى الدربَ بالخيل العتاقِ إلى العِدا ... وما علموا أنَّ السِّهامَ خُيولُ

فلما تجلَّى منْ دَلُوكَ وصنجةٍ ... علتْ كلَّ طَودٍ رَنَّةٌ وعويلُ

على طُرُقٍ فيها على الطُرْقِ رِفعةٌ ... وفي ذكرِها عندَ الأنيسِ خُمولُ

---

(١) عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان الجذامي الروحي السعدي القاضي، محي الدين، مؤرخ مصري عاش ما بين ٦٢٠ـ ٦٩٢هـ (١٢٢٣ـ ١٢٩٢م) نشأ بالقاهرة وخدم السلاطين الثلاثة الأوائل في دولة المماليك البحرية في مصر وهم الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، وخليل بن قلاوون، صارت له رئاسة ديوان الإنشاء.
له ثلاثة مؤلفات عن السلاطين الثلاثة وهي: الروض الزاهر في سيرة المالك الناصر، وتشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، والروضة البهية الزاهرة في خطط المعزية القاهرة «موسوعة العلوم الإسلامية والعلماء والمسلمين ـ حققها وراجعها بول غليونجي وآخرون ـ بيروت ١/ ١٣٠» وكتاب الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ـ تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر، الرياض ١٩٧٦ ـ وكتاب تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور تحقيق د. مراد كامل، القاهرة ١٩٦١.

(٢) كتب هذه الرسالة إلى الصاحب بهاء الدين بن حنا، وزير الملك الظاهر. بعض فقراتها في كتاب الزاهر في سيرة الملك الظاهر للقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر، تحقيق عبد العزيز الخويطر، ط الرياض ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م، ص٤٥٤ـ ٤٧١.
وهي في صبح الأعشى ١٤/ ١٣٩.

(٣) في الأصل: «الأرض» وما صوّبناه من الروض الزاهر.

(٤) ديوان المتنبي بشرح البرقوقي ٣/ ٢٢١ـ ٢٢٨.

ومررنا على دلوك وهي رسوم باكية على سكانها، ضاحكة عن تبسم أزهارها، وقهقة غدرانها، ذات بروج مشيدة، وأركان موطدة، ونيران تزاويق موقدة، في عمد من كنائسها ممددة، وسرنا إلى مرج الديباج نتعادى، وذلك في ليلة مدلهمة ذات أندية، وإن لم تكن من جمادى، لا يثبت تربها تحت قدم المارّ، وكأنما سالكها يمشي على شفا جرف هار[١].

وبتنا نستخف بالنسبة إليها ليلة الملسوع، وتتمنى العين فيها هجمة هجوع، وأخذنا في اختراق غابات أشجار تخفي الرفيق عن رفيقه، وتشغله عن اقتفاء طريقه، حولها معاثر أحجار كأنها قبور بعثرت، أو جبال تفطرت، بينها مخائض، لا بل مغائض، كأنها بحار فجّرت[٢]، ما خرجنا منها إلا إلى جبال قد تمنطقت بالجداول، وتعممت بالثلوج، وعميت مسالكها فلا أحد إلا وهو قائل: ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ﴾[٣] أو إلى سبيل من خروج، تضيق مناهجها بمشي الواحد، وتلتف شجراتها التفاف /١٤١/ الأكمام على الساعد، ذات أوعار زلقة، وصدور شرقه وأودية بالمزدحمين مختنقة، حتى وصلنا إلى الحدث الحمراء، المسماة الآن بكينوك، ومعناها المحترقة كان قسطنطين والد صاحب سيس[٤] قد أخذها من أصحاب الروم وأحرقها وتملكها، وعمّ بها الضرر لبلاد الإسلام، ثم سير السلطان إليها عساكراً من حلب، فافتتحها بالسيف، وقتل كل من كان بها من الرجال وسبي الحريم والذرية وخربت من ذلك الحين، وما بقي بها من يكاد يبين وشاهدنا منها ما بناه سيف الدولة بن حمدان[٥]: [من الطويل]

---

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ «سورة التوبة: الآية ١٠٩».

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾﴾ «سورة الانفطار: الآية ٣».

(٣) سورة غافر: الآية ١١.

(٤) سيس: هي سيواس، من بلاد ملك العراق، سنة العمارة، واسعة الشوارع على حدود الروم «رحلة ابن بطوطة ١٩٧».

(٥) علي بن عبد الله بن حمدان التغلبي الربعي، أبو الحسن، سيف الدولة الحمداني: الأمير، صاحب المتنبي وممدوحه. يقال: لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ العلم ونجوم الدهر! ولد في ميافارقين (بديار بكر) سنة ٣٠٣هـ/ ٩١٥م ونشأ شجاعاً مهذباً عالي الهمة. وملك واسطاً وما جاورها. ومال إلى الشام فامتلك دمشق. وعاد إلى حلب فملكها سنة ٣٣٣هـ، وتوفي فيها سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م. ودفن في ميافارقين. أخباره ووقائعه مع الروم كثيرة. وكان كثير العطايا، مقرباً لأهل الأدب، يقول الشعر الجيد الرقيق، وقد يُنسب إليه ما ليس له.

=

بناها فأعلى والقَنا يقرعُ القنا ... وموجُ المنايا حولَهم مُتلاطمُ
وقيلَ لسلطاننا هناكَ ... على قدرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ
غصبَ الدهرُ والملوكُ عليها ... فبناها في وجنةِ الدهرِ خالا

فبتنا بها وجيادنا إذا زلقت مشت كالأراقم على البطون، وإن تكاسلت جرّ بعضها بعضاً بالصهيل والحديث شجون، وخضنا في أثناء ذلك مخائض سوافح، كأنها لأجل عوم الخيل بها سمي كل منها لأجل ذلك سابح، كلّما قلنا هذا بحر قد قطعناه، اعرض لنا جبل، وكلما قلنا هذا جبل قد طلعناه بأن لنا وادٍ نستهون دون الهوي فيه نفاد الأجل، ثم وصلنا كوكصو وهو النهر الأزرق، الذي رد الملك الكامل منه سنة الدربندات، لما قصد التوجه إلى الروم، وللوقت عبرنا ركضاً، واعجلت الخيل فما درت هل خاضت لجّة أم قطعت أرضاً، وبات الناس من بر هذا النهر الآخر وأصبحوا متسللين في تلك الشمّ، ووقع السنابك يسمع من تلك الجبال الصم، حتى وصلوا إلى أقجا دربند، فما ثبتت يد فرس لمصافحة صفاها، ولا نعله لمكافحة رحاها، ولا رجله لمطارحة قواها.

وتمرنت الخيل على الاقتحام والازدحام في التطرق، وتعوّدت ما تعوّدت الأوعال في الأوعار من التسرب والتسلق، تنحطّ انحطاط الهيدب، وترتفع ارتفاع الكوكب، حتى حصل الخروج من منتهى الدربند، وبات السلطان في وطأة هناك، وسمحت السحب بما شاءت من بَرْد وبَرَد، /١٤٢/ وجاءت الريح بما آلم الجِلْد واستنقد الجَلَد

وانتشرت العساكر حتى ملأت المفاوز، وملكت الطرق على المارّ وأخذتها على الجائز وقدم سنقر الأشقر في الجاليش، فوقع على ثلاثة آلاف فارس من التتار مقدمهم كراي، فانهزموا من بين يديه، وأخذ منهم من قدم للسيف السلطاني فأكل نهمته وأسار، واستمرّت تلك سنة فيمن يؤخذ من التتار ويؤسر، وبات التتار على

= وهو أول من ملك حلب من بني حمدان، وله أخبار كثيرة مع الشعراء، خصوصاً المتنبي والسري الرفاء والنامي والببغاء والوأواء وتلك الطبقة.
ومماكتب في سيرته «سيف الدولة وعصر الحمدانيين ـ ط» لسامي الكيالي.
ترجمته في: يتيمة الدهر ١/ ٨-٢٢ وفيات الأعيان ١/ ٣٦٤، زبدة الحلب ١/ ١١١ـ ١٢٢، الاعلام ٤/ ٣٠٣ـ ٣٠٤.

أجمل ترتيب ونظر، وبات المسلمون على أتم تيقظ وحذر، فلما كان يوم الجمعة عاشر ذي القعدة تتابع الخبر بعد الخبر، بان القوم قد قربوا، وأنهم ثابوا ووثبوا، ووصّى السلطان جنوده في التثبت على ما يجب، وأراهم من نور رأيه ما لا يحتجب.

وطلعت العساكر من جبال مشرفة على صخرات منا من بلد ابلستين، وكان العدو ليلته تلك بائتاً على نهر زمان، وهو أصل نهر جهان، وأصل اسمه جيحان، فترتب المغل أحد عشر طلباً[1] كل طلب يزيد على ألف فارس، وعزلوا عسكر الروم خيفةً منهم، وجعلوا عسكر الكرج[2] طلباً واحداً بمفرده، ولما شاهدوا صناجق السلطان ومن حولها وعليهم الخوذ الصفر المقترحة، وكأنها في شعاع الشمس نيران مقتدحة، رجعوا إلى ما كانوا عقدوا من العزائم فحلوا وسقط في أيديهم ورأوا أنهم قد ضلّوا، وانصبّت الخيل إليهم من أعلى الجبل انصباب السيل، وبطلت الحيلة منهم وبقي الحيل، فشمروا عن السواعد، ووقفوا وقفة الرجل الواحد، وكان هؤلاء المغل قد اختارهم ابغا من كل ألف مائة ومن كل مائة عشرة ومن كل عشرة واحداً لأجل هذا اليوم، وكان فيهم من المقدمين الكبار تداون وتقو وإليه أمر بلاد الروم وارختو أخو تداون ونمادر يخشى ومن أمراء الألوف زيرك وصهر ابنا وقرلق، واخلدت من المغل فرقة إلى الأرض فقاتلت، وعاجت على نفوسهم وعاجلت، وجاء الموت العدوّ من كل مكان، وأصبح ما هان منهم وقد هان، وكم فيه من شهم ما سلم قوسه حتى لم يبق في كنانته سهم، وذي /١٤٣/ سنّ طارح فما طارحه حتى تثلم وذي سيف حادثه بالصقال فما جلا محادثته حتى كلم، واشتدت فرقة من العدو من جهة الميسرة، معرجين على الصناجق السلطانية [من الوافر]

فَلَزّهمُ الطِّرادُ إلى قتالٍ أحَدّ سلاحِهِمْ فيهِ الفِرارُ

وثاب السلطان إليهم ووثب عليهم، فضحّى منهم بكل أشمط، وأقرى سباع الوحش والطير فأفرط، ولحق من قصد التحصن في الجبال فأخذهم في كل رابية

(١) الطلب: فرقة مقاتلة.
(٢) الكرج: جيل من النصارى كانوا يسكنون في جبال القبق وبلاد السرير، ثم قويت شوكتهم، وملكوا مدينة تفليس، ولهم ولاية تنسب لهم وملك ولغة وشوكة وعدد «ياقوت الحموي ٤/ ٤٤٦، صبح الاعشى ١/ ٣٦٩»، وهي الآن دولة جورجيا .

الأخذة الرابية، وقتلهم ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝٨﴾[(١)] وانهزمت جماعة يسيرة طمع فيها من العوام من لا كان يدفع عن نفسه، وأخذتهم المهاوي فما نجا منهم إلا آيس من حياة غده في أمسه [من الوافر]

مَضَوا مُتسابقي الأعضاءِ فيها لأرجُلِهم بأرؤسِهم عِثارُ

إذا فاتُوا الرماحَ تناولتْهم بأرماحٍ منَ العطشِ القِفارُ

وقصدت ميمنة عسكرنا جماعة من المغل ذوو بأس شديد، فقاتلهم المسلمون حتى ضجر الحديد من الحديد، وأما العدو فتقاسمت الأيدي ما يمتطونه من الصواهل والصوافن، وما يصولون به من سيوف وقسيّ وكنائن[(٢)]، وما يلبسونه من خوذ ودروع وجواشن[(٣)]، وما يتمولونه من جميع أصناف المعادن، فغنم ما هنالك، وتسلم من استشهد من المسلمين رضوان، ومن قتل من التتار مالك، وأورث الله المسلمين منازلهم فنزلوها، ووطاقاتهم وخركاواتهم فتمولوها، وكان السلطان مع أعدائه كما قيل: [من الوافر]

فَمسَّاهُمْ وبُسطُهمُ حَريرٌ وصبَّحَهمْ وبُسْطُهمُ تُرابُ

وأصبح الأعداء كأنما جزر، أجسادهم يتخللها من الدماء السيل، وكأنما رؤسهم المجموعة لدى الدهليز المنصور أكر تلعب بها صوالجة الأيدي والأرجل من الخيل.

وكم فيهم من مهيب الهامة، حسن الوسامة، يتفرس في جهامة، وجهه الفخامة، قد فضّ الرمح فاه، فقرع السن على الحقيقة ندامة، وكثرت الأسارى، فاختار السلطان من كبرائهم البعض، وعمل فيهم بقول الله ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ / ١٤٤ / لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[(٤)] ودخل البرواناه[(٥)]، مدينة قيصرية في سحر يوم الأحد ثاني عشر الشهر، فأفهم غياث الدين سلطانها والصاحب فخر الدين علياً، والأتابك مجد الدين، والأمير جمال الدين المستوفي، والأمير بدر الدين ميكائيل النائب،

---

(١) سورة الحاقة: الآية ٨.

(٢) كناين: جمع مفرده كنانة وهي جعبة السهام.

(٣) جواشن: جمع مفرده جوشن، والجوشن هو الدرع بالفارسية «فرهنگ رازي ٢٠٧».

(٤) سورة الأنفال: الآية ٦٧.

(٥) البرواناه هو حامل الرسائل وهو مشتق من الكلمة الفارسية بروانه أي الخادم «انظر: تركستان حاشية ص ٣٥٩».

والأمير الطغرائي[١] وهو ولد عز الدين أخي البرواناه وهو يكتب طرر المناشير أن المسلمين كسروا بعض المغل وبقيتهم منهزمون ويخشى منهم دخول قيصرية واتلاف من يكون بها، فأخذ زوجته كرجي خاتون بنت غياث الدين صاحب ازر، وأمها ملكة الكرج، وزوجها السلطان غياث الدين صاحب الروم في أربعمائة جارية، وكان لها مال كان لصاحب الروم من البخاتي والخيام والآلات، وتوجهوا كلهم إلى جهة توقات وهو حصن عن قيصرية أربعة أيام، وهوّل على بقية أمراء الروم فاتبعوه إلا قليل منهم، وأخفى البرواناه أمره وأمر من معه حتى لا يخبر عنهم.

ورحل السلطان فنزل قريب قرية رمّان، وبيوتها حول سن جبل قائم كالهرم إلا أنه ملموم، وعمرت البيوت في سفحه حوله بيتاً فوق بيت، وبدت كأنها مجرة النجوم، وما منها بيت إلا وبه مقاعد ذوات درابزينات[٢] منجورة، ورواشن قد بدت في أحسن صورة، يختمها من أعلاها أحسن بنيان، ويعلوها من رأسها منزل مسنم الرأس كما يعلو الصعدة السنان، ويطوف بها الجبال كأنها لها أسوار بل سوار، وكأنها في وسطها إناء فيه جذوة نار، وفيها أنهار ذوات قناطر لا تسع غير راكب ومضايق لا تلقى غيرها لمناكب، فنزلنا قريباً منها حتى تخلّص من تخلّص، وحضر من كان في المضايق قد تربّص، وقال كل (الآن حصحص)[٣] ورحلنا والسماء قد حيت الأرض بتيجان أمطارها، وأغرقت الهوام في أحجارها والفتخ في أوكارها، وأصبحت الأرض لا تتماسك حتى ولا لمرور الأراقم، والجبال لا تتمالك أن تكون للعصم عواصم (تضع) بها من الدوابّ (كل ذات حمل)[٤]، وتزلق على صقيلها أرجل النمل سرنا على هذه الحالة نهارنا كله إلى قريب الغروب، وقطعناه بتسلمنا /١٤٥/ أيدي الدروب من الدؤوب، فنزلنا عشاء في منتقع أرض يطوف بها جبال شاهقة ومياه دافقة تعرف قاعة تلك الأرض بوطأة قشلار بينار من أعمال صاروس العتيق، ويقرب من تلك الجهة معدن الفضة. وبينما نحن قد شرعنا في أهبة المبيت، ولم نجمع

---

(١) الطغرائي: وهو القائم بوضع الشعار السلطاني (الطغراء) على الرسائل. «فرهنگ رازي ٥٧٥».

(٢) درابيزينات: جمع مفردة درا بيزين، وهي كلمة فارسية تعني سياج يتكيء عليه المرء أثناء صعوده على السلالم أو على الكراسي «فرهنگ عميد ١/٩٢٨».

(٣) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿...قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ... ﴿٥١﴾﴾ «سورة يوسف: الاية ٥١».

(٤) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا﴾ «سورة الحج: الآية ٢».

الشمل الشتيت فإذا بالصارخ قد عقر عقيرته بان فوجاً من التتار هنالك في فجوة قد استتروا، وفي نجوة لغرّة قد انتظروا، فركب السلطان والناس في السلاح، وعزموا على المطار، فعاقهم تتابع الغيث، وكيف يطير مبلول الجناح؟! ثم لطف الله وعاد السلطان وهو يقول: لابأس. فنمنا نومة السليم وصارت أفكارنا شاعرة سالمة في كل واد تهيم، وأصبحنا فسلكنا جبالاً لا يحيط بها الوصف، ونبسط عذر الطّرف فيها حين يكبو الطرف ننحط منها إلى جنادل تضعف عن الهوي إليها قوى الأجادل، ومررنا على قرية أوزاك وتحتها قناطر وخان من حجر منحوت، ثم خان آخر للسبيل على رأس رابية هناك قريب حصن سمندو الذي عرض أبو الطيب به في قوله[١]: [من الوافر]

فإنْ نـقـدمْ فـقـدْ زُرنـا سـمـنـدو وإن نُـحـجـمْ فـمـوعـدُهُ الـخَـلـيـجُ

وكان السلطان قد سيّر إليها خواصه بكتاب إلى نائبها، فقبله وقبّله، وأذعن بالتسليم لحصنها المنيع والنزول لأمر السلطان عنها إن استنزله، فشكر السلطان له تلك الإجابة، ووفاه من الشكر حسابه، وكذلك إلى قلعة درندة، وإلى قلعة دوالو فكلهم أجابوا وأطاعوا، ولكلمة الاذعان والوا، ونزلنا في وطأة قريب قرية تعرف بحمرها، وكان الناس قد فرغت علوفات خيلهم أو كادت وباتت الخيل ليالي بلا عليق فمالت ومادت وشاركتها خيول الكسوب في عليقها، وما ساعدتها في طروقها ولا طريقها، فصادفنا في هذه الليلة بعض أتبان أمسكت أرماقها وأحسنت ارفاقها، وأصبحنا راحلين في جبال كأنها تلك الأول هابطين في أودية /١٤٦/ يتمنى سالكها لشدة مضايقها، لو عاد ترقى قنّة الجبل.

ثم أشرفنا على خان هناك يعرف بقرطاي، يدل على شرف همة بانيه، وطلب ثواب الله تعالىٰ فيه وهو من أكبر الأبنية سعةً وارتفاعاً وأحسنها شكلاً وأوضاعاً كله مبني بالحجر المنحوت المصقول الأحمر الذي كأنه رخام، ومن ظاهر أسواره وأركانه نقوش لا يمكن أن يرسم مثلها بالقلم، وله خارج بابه مثل الربض ببابين بأسوار حصينة مبلط الأرض فيه حوانيت وأبواب الخان حديد من أحسن ما يكون استعماله وداخله أواوين[٢] صيفية وأمكنة شتوية واصطبلات على هذه الصورة لا

(١) ديوان المتنبي بشرح البرقوقي ١/ ٣٦٢.

(٢) أواوين: جمع مفرده إيوان، فضاء مسقوف «فرهنگ رازي ٣٨».

يحسن الإنسان أن يعبر عنها بكيف وما منها إلا ما يجده المسافر رحلة الشتاء والصيف[١]، وفيه الحمام والمرستان[٢] والأدوية والفرش والأواني والضيافة، لكل طارق على قدره، وحمل إلى السلطان لما مرّ عليه وكثر الناس، فما وصل أحد إليها ولا إليه، وعليه أوقاف عظيمة، وضياع كثيرة حوله وفي غيره من البلاد وله دواوين وكتّاب ومباشرون يتولون استخراج أمواله والإنفاق فيه ولم تتعرض التتار إلى إبطال شيء من رسومه، وأبقوه على عوائد تكريمه وأهل الروم يبالغون في تبجيل بانيه رحمه الله وتعظيمه، فنزلنا تلك الليلة قريب قرية قريبة من قيصرية شرقي الجبل المعروف بعسيب[٣]، وفيه قبر امرىء القيس[٤] الشاعر وفيه يقول: [من الطويل]

أجارتنا إن الخطوب تنوبُ　　وإني مقيمٌ ما أقام عسيبُ

أجارتنا إنا غريبانِ ههنا　　وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيبُ[٥]

وهذا الجبل يعلوه جبل أرجاس، وهو الذي يضرب به الروم الأمثال لتساميه، وتتضاءل الجبال في جميع الدنيا لتعاليه، لا تسحب ذيول السحاب إلا دون سفحه، ولا يعرف شتاؤه من صيفه، من ثلوجه، ولا لهيال الأبخرة المتصعدة عشاؤه من صبحه.

فلما كان يوم الأربعاء منتصف ذي القعدة وهو يوم شرف الزهرة، ركبت العساكر المنصورة مترتبة وملأت الفضا /١٤٧/ متسربة، فركب السلطان في زمرته، وذوي

---

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾ «سورة قريش: الآيتان ١-٢».

(٢) المارستان: دار الشفاء، المستشفى.

(٣) جبل عسيب: جبل قرب دومة الجندل.

(٤) امرؤ القيس بن عانس بن المنذر بن امرىء القيس بن السمط بن عمرو بن معاوية. من كندة: شاعر مخضرم من أهل حضرموت. ولد بها في مدينة «تريم» وأسلم عند ظهور الإسلام ووصول الدعوى إلى بلاده، ووفد إلى النبي ﷺ، ثم لما ارتدت حضرموت ثبت على إسلامه.
وشهد فتح حصن النجير وخباية (في شرقي تريم) وانتقل في أواخر عمره إلى الكوفة فتوفي بها نحو سنة ٢٥٠هـ/ نحو ٦٤٥م. وهو صاحب القصيدة المشهورة التي أولها:
«تطاول ليلك بالإثمد　　ونام الخليّ ولم ترقد»
وفي الرواة من ينسبها إلى امرىء القيس بن حجر، والصحيح أنها لابن عانس كما حققه العيني.
ترجمة في: العيني ١/ ٣٠-٣٢ وتاريخ الشعراء الحضرميين ١/ ٤٤ وضوء المشكاة - خ -، الاعلام ٢/ ١٢.

(٥) ديوان امرىء القيس، ط دار صادر - بيروت ١٩٥٨ ص ٧٩.

أمره وأمرته، يختال به جواده في أفسح ميدان، ويصبح به مرحاً وفرحاً كأنه نشوان، دري أنه سلطان: [من الطويل]

تظلُّ ملوكُ الأرضِ خاشعةً لهُ تفارقُهُ هَلْكى وتَلقاهُ سُجّدا

وخرج أهل قيصرية وأكابرها وعلماؤها وزهادها وتجارها ورعاياها ونساؤها وصغارها، فأكرم السلطان ممشاهم، وشكر مسعاهم، وتلقى قضاتهم وعلماءهم ركباناً، وحادثهم إنساناً إنساناً، وحصلت لجماعة من الفقراء والناس حالات وجد مطربة وصرخات ذكر معجبة، وكان شعار السلطان غياث الدين صاحب الروم وخيامه وشعار سلطنته قد بقي جميعه في وطأة قريب الجوسق والبستان المعروف بكيخسرو، فترجّل الناس على اختلاف طبقاتهم في الركاب الشريف من ملك وأمير ومأمور وارتفعت الأصوات بالتهليل والتكبير، ونزل السلطان في تلك المضارب

وضربت نوبة بني سلجوق على باب دهليزه على العادة، وأذن السلطان للناس في التقرب إلى شريف فسطاطه، وحضر أصحاب الملاهي فما ظفروا بغير النواهي وقيل لهم ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟﴾[1] واذهبوا إلى واد غير هذا الوادي فاقتبسوا، وهذه الهنات لا تنفق هنا وما هذا موضع الغناء، بل موضع الغنى.

وشرع السلطان في إنفاق اللُّهَىٰ، وعيّن في كل جهة شخصاً، وقال: «أنت لها»، وحكم وحكّم، وعلم وعلّم، واعتمد على الأمير جاليش في النيابة، وأعطى كلا بيمينه كتابه[2]، وأقام الحجّة على من نزح بالاستعطاف، وتأمين من خاف، فلما علم أنهم لا يفلحون، ولغير التتار لا يصلحون، وأنهم إن أصبحوا في الطاعة لا يمسون، وإن أمسوا لا يصبحون، عاد عن تلك الوعود، واختار أنّ ما بدا إليه يعود، فركب يوم الجمعة سابع عشر ذي القعدة مستقبلاً من الله الخير، ونصب جتر بني سلجوق على رأسه، فرأى الناس منه صاحب القنّة والسبع وصاحب تاقبة والطير، ودخل قيصرية في بكرة هذا اليوم وكانت دار السلطنة قد فرشت لنزوله، وتخت بني سلجوق قد هيىء لحلوله، وهي /١٤٨/ منازل تزهو ومنازه من يتعبد ويلهو أنيقة المبتنى، تحف بها بساتين عذبة المجتنى، جدرانها بأحسن أصناف القاشاني مصفحة، وباجمل

---

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿...قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا... ﴿١٣﴾﴾ «سورة الحديد: الآية ١٣».

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ «سورة الحاقة: الآية ١٩».

نقوشه مصرّحة، فجلس السلطان في مرتبة الملك في أسعد وقت، ونال التخت بحلوله أسعد البخت: [من الطويل]

وما كانَ هذا التختُ منْ حين نصبِهِ لغيرِ المليكِ الظاهرِ الندبِ يصلحُ
مليكٌ على اسمِ اللهِ ما فتحتْ له صوارمُهُ البيضُ المَواضي وتفتحُ
أتتهُ وفودُ الرومِ والكلُّ قائلٌ رأيناكَ تعفو عنْ كثيرٍ وتصفحُ
فأوسعَهمْ حِلماً وجادَ لهمْ ندًى وأمسوا على منّ وأمنٍ وأصبحوا

وأقبل الناس على السلطان يهنّؤونه، وعلى كفّه الشريف يقبلونه، ثم حضرت القضاة والفقهاء والصوفية، وذوو المراتب من أصحاب العمائم على عادة بني سلجوق في كل جمعة، ووقف أمير المحفل، وهو كبير المعدلة عندهم، وله وسامة وفخامة، وله أوسع كمّ وأكبر عمامة وأخذ في ترتيب المحفل على قدر الأقدار، وانتصب قائماً بين يدي السلطان منتظراً ما إليه به يشار، وشرع القراء يقرؤون جميعاً وفرادى بأحسن تلحين، وأجمل تحسين، ولما فرغوا شرع أمير المحفل صارخاً، وبكور فمه نافخاً، فأنشد وأورد بالفارسية ما يعجب مدلوله، ويهول مقوله، وأطال وما أطاب، واستصوب من يعرف مقالة قوله، والله أعلم بالصواب.

ولما انقضى ذلك مدوا سماطاً ليس يناسب همم الملوك، فأكل الناس منه للشرف لا للسرف، ثم عاد كل إلى مكانه فوقف وقام السلطان إلى مكان الراحة فأقام ساعة أو ساعتين، ثم خرج إلى مخيمه قرير العين، وكان بدار الملك حرم السلجوقية على أبوابهم أسمال ستور حرير ومشايخ خدام يستحق كل منهم أن يدعى بالكبير فجبرهم السلطان وآنسهم وأحسن إليهم وتوجّه إلى صلاة الجمعة بقيصريّة، وبها سبع جمع تقام فيها خطباء إلا أنهم كالأنعام، فصلينا في جامع السلطان وهو جامع لا يدل على /١٤٩/ احتفال ملوكها ببيوت عباداتهم، ولا فيه من دلائل الخير ما يقضى بحسن إراداتهم

فحضر أهل المدينة وأكابرها وجلسوا حلقاً لا صفوفاً وأجروا من البحث بالعجمية صنوفاً واجتمعت جماعة من حفاظ الكتاب العزيز، فتخارجوا القراءة آية آية وهي قراءة بعيدة عن الدراية، بل إنها تبرزها أصوات مترنمة وألحان لتفريق الكلمات مقسمة، ينطقون بالحروف كيف اتفقت ولا يتوقفون على مخارج الحروف أنها بها نطقت أو لا نطقت. ولما آن وقت الأذان قام صبي عليه قباء من وسط جماعة عليهم

أقبية قعود على دكّة المؤذنين، فابتدأ بالتكبير أولاً وثانياً بمفرده من غير إعانة ولا إبانة، ولما تشهد ساعدوه جميعهم بأصوات مجمجمة ملعلة ونغمات متنوّعة يمسكون له النغم بأطيب تلحين، ويترنمون بالأصوات إلى آخر التأذين. وفرغ الأذان وكلهم قعود ما منهم أحد غير الصبي قد وقف، وما منا أحد لكلمة من الأذان عرف، ولما فرغ الأذان طلع شيخ كبير السن يعرف بأمير محفل المنبر، فصعد إلى ذروة المنبر وشرع في دعاء لا نعرفه وادّعاء لا نألفه، كأنه مخاصم أو وكيل شرع أحضره لمشادّة خصمه خصم بين يدي حاكم، وطلع الخطيب بعد ذلك فخطب ودعا للسلطان بغير مشاركة، وانقضت الجمعة على هذه الصورة المسطورة

وضربت السكة باسم السلطان وأحضرت الدراهم إليه في هذا اليوم فشاهدنا وجهاً متهللاً باسمه الميمون وأقرت الألسنة بهذه النعمة، وقرت العيون، وشاهدت بقيصرية مدراس وخوانق وربطاً تدل على اهتمام بانيها ورغبتهم في العلوم الشريفة مشيدة بأحسن الحجار الحمر المصقولة المنقوشة، وأراضيها بأجمل ذلك مفروشة، وأواتيها وصففها موزرة بالقاشاني الأجمل صورة، وجميعها مفروشة بالبسط الكرجية والقالية[1]، وفيها المياه الجارية، ولها الشبابيك على البساتين الحسنة وسوق قيصرية طائف، بها من حولها وليس داخل المدينة دكان ولا سوق.

والوزير في بلاد الروم يعرف /١٥٠/ بالصاحب فخر الدين خواجا علي، وهو لا يحسن الكتابة ولا الخط، وخلقه من مماليكه خاصة مائتا مملوك، ودخله غير دخل أولاده وغير الإقطاعات التي له ولأولاده وخواصه سبعة آلاف درهم سلطانية ولقد شاهدت في مدرسته من خيامه وخركاواته شيئاً لا يكون لأكبر الملوك، وله برّ ومعروف وبالخير معروف.

وأما معين الدين سليمان البرواناه وزوجته كرجي خاتون، فظهر لهما من الموجود البادي للعيون كل نفيس، واستولى السلطان من موجودهما على ملك سليمان وعرش بلقيس.

ولما أقام بقيصرية هذه المدّة، فكّر في أمر عساكره ومصالحهم بما لا يعرفه سواه، ونظر في حالهم بما أراه الله، وذلك لأن الأقوات قلت، والسيوف من

---

(١) القالية: من قالى، كلمة تركية تعني السجادة الكبيرة من الصوف بألوان ونقوش مختلفة «فرهنگ رازي ٦٥٥».

المضاربة ملت، والسواعد من المصادمة كلّت؛ وأنه ما بقي بالروم من الكفار من يغزى، ولا بجزاء السوء يجزى، وما بقي في البلاد إلا رعايا كالسوائم الهاملة، ولا دية لكفر منهم على عاقل ولا عاقلة، وإن أقام بالبلاد لا تحمله، ومواد بلاده لا تصله، وأعشاب الروم بالدوس قد اضمحلت، وعلوفاتها قد قلت، وزروعها لا ترتجى لكفاية، ولا ترضى خيول العساكر المنصورة بما ترضى به خيول الروم من الرعاء والرعاية، وإن الحسام الصقيل الذي قتل به التتار في يد القاتل، وإنه إن كان أعجبهم عامهم فيعودون إلى الروم من قابل، فرحل يوم الاثنين العشرين من ذي القعدة بعد أن أعطى أمراءه وخواصه كلما أحضر إليه من الأعنة والأزمة، وكلما يطلق على تموله اسم النعمة، فنزل في منزلة تعرف بقبرلو، وفيها وصل إليه رسول غياث الدين والبرواناه يستوقفونه وكان الأمر شائعاً أنها إلى سيواس، فعدد السلطان عليه حسن وفاء عهده، وأنه أجاب دعاءهم مرة بعد مرة من أقصى ملكه مع بعده، وأنهم ما وقفوا عند الشرائط المقررة، ولا وفوا بمضمون الرسائل المسيرة؛ وأنه لما ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ﴾(١) طلبوا ﴿فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾(٢).

وعلم /١٥١/ السلطان أن عساكر الروم أهل التذاذ، لا أهل نفاذ، وأهل طرب، لا أهل حرب، وأهل طيبة عيش، لا قواد جيش، فرد إلى سليمان البرواناه وهدده وقال قل له: قل له إنني قد عرفت الروم وطرقاته، وأمه أسيرة معي وابن بنته وولده ويكفينا ما جرى من النصر الوجيز، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾(٣) ولا كل من قضى فريضة الحج تجب عليه المجاورة، ولا بعد هذه المهاجرة مهاجرة، ونحن فقد ابتغينا فيما آتانا الله من حقن دماء أهل الروم وعدم نهب أموالهم الدار الآخرة، وما كان جلوسنا في تخت سلطنتكم لزيادة تبجح بتخت آل سلجوق، إلاّ لنعلمكم أنه لا عائق لنا عن أمر من الأمور يعوق، وأن أحداً لا ينبغي أن يأمن لنا سطوة، وليتحقّق كل أن كل مسافة جمعة لنا خطوة، وسروجنا بحمد الله أعظم من ذلك التخت جلالاً وأرفع منالاً، وكم في ممالكنا كرسي ملك نحن آية ذلك الكرسي، وكم لنا فتح والحمد لله فوق الفتح القدسي.

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨١.
(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٠.
(٣) سورة الحج: الآية ٤٠.

واستصحب السلطان معه أكابر الروميين، ثم رحل فنزل قريب خان السلطان علاء الدين كيقباذ ويعـرف بكروانصراي، وهذا الخان بنية عظيمة من نسبة خان قرطاي وعليه أوقاف عظيمة من جملتها أغنام كثيرة يذبح نتاجها للواردين عليه، ثم نزلنا في وطأة رويزان كودلو وكودلو اسم جبال تلك الوطأة، ثم رحلنا فعارضنا نهر في وطأة خلف حصن سمندو من طريق غير التي كنا توجهنا عليها بمكان يعرف بنهر قزل صو، وهو صعب المخاض، واسع الاعتراض، عالي المهبط، زلق المسقط، مرتفع المرتقى، بعيد المستقى، لا يجد السالك من أوحال حافتيه إلاّ (صعيداً زلقا)، فوقف السلطان عليه بنفسه وجرّد سيفه بيده، وباشر العمل هو وجميع خواصه حتى هيّأ المكان جميعه، ووقف راجلاً يعبر الناس أولاً فأولاً من كبير وصغير وغلام وهو في أثناء ذلك يكبر على من يزدحم ويكرر التأديب / ١٥٢/ لمن يطلب بأذية رفيقة أنه يقتحم، فلما خفت البرور، ولم يبق إلا المرور، ركب فرسه وعبر الماء، ونزل في واد هناك به مرعى، ولا كالسعدان ومرأى، ولا كشِعْب بوّان، ثم رحل فنزل عند صخرات قراجا حصار وهـي قرية كانت عامرة فيما مضى قبالة بازار بلو، وهذا البازار هو الذي كانت الخلائق تجتمع إليه من أقطار الأرض، ويباع فيه من كل شيء يجلب من الأقاليم، ثم سرنا حتى نزلنا وطأة الابلستين، وعبر السلطان على مكان المعركة المتقدمة مع التتار، ورأى كيف تعاقبت عليهم من العقبان كواسرها، ومن النسور مناسرها، وكيف أصبحوا لا تندبهم إلا البوم، وكيف تحققوا أن التي أهلكتهم زرق الأسنة لا زرق الروم، وشاهدهم والهوام في أجسادهم متصرفة، قد هزأ بهم كل شيء حتى الوحوش والرياح فهذه من صديدهم متكرعة وهذه عليهم متقصفة: [من الكامل]

قد سوّدتْ شجرَ الجبالِ شعورُهم ... فكأنّ فيهِ مسفّةَ الغِربانِ

وحضرت من أهل الابلستين هناك جماعة من أهل التقى والدين، فاستخبرهم السلطان عن عدة قتلى المغل، فقالوا ﴿فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ﴾[1] فاستفهم من كبيرهم عن عدة المغل كم من قتيل فقال: ﴿قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[2] فقال الذي عنده

(١) سورة المؤمنين: الآية ١١٣.
(٢) سورة الكهف: الآية ٢٢.

علم من الكتاب:[١] أنا عددت ستة آلاف وسبعمائة وسبعين نفراً وضاع الحساب هذا غير من أوى إلى جبل يعصمه من ماء السيوف[٢] فما عصمه، ومن اعتقد أن فرسه يسلمه فما سلمه فتركهم السلطان ورسم بتقديم الأثقال والخزائن والدهليز المنصور على أقجا دربند، ثم أقام يومين ينتظر صيداً من العدوّ يعنّ، أو دماً من دمائهم إلى السيف يحن، فلما لم يجد أحداً رحل من طريق غير التي حضر منها فسلك على الأوعار «طريقاً يبساً»[٣]، وطلع من قنن الجبال في هضاب كأنَّ كلاً منها كف حملت من الأنجم قبساً فقاسى الناس، في هذا اليوم من الشدة ما لا يدخل في قياس.

/١٥٣/ وكاد الناس أن يهلكوا لولا أن الله تدارك الناس، فساقوا ولكن على مثل حد السيف، وتسللوا ولكن سل حوافر الخيل. كيف وهبطوا من جبال يستصعبها كل شيء حتى طارق الطيف يستصعب الحجر المحلق وقوعه في عقابها، ويستهول النجم الثاقب تعلقه بشعابها. وعدينا كوك صو وهو النهر الأزرق، وبات السلطان هناك وكان قضيم الخيل في تلك الليلة ورق البلوط إلا من أمست عناية الله له بيسير شعير تحوط.

ورحل السلطان، ونزل كينوك المقدم ذكرها، وعدل إلى طريق مرعش فزال بحمد الله عقاب تلك العقاب وقالت الأنهار المتلقية لكل منا ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾[٤] ونزلنا قريب قلعة خراب تعرف بالأسكركيس إلى جانب نهر يعرف بالحان، ثم رحل السلطان قريب بركلوجا من بلاد مرعش، ثم رحل فنزل عقبة مرّى أحد دربندات سيس إلى جانب النهر الأسود، ورحل فنزل قبالة دربساك، ورحل فنزل قريب حارم فنزل قريب منزله الذي كان به فيما تقدم وألقى عصا التسيار وقال لأهل الخيام هذه الخيام ولأهل تلك الديار هذه الدار».

وهذه الرسالة كافية في كثير من أحوال الروم وفيما ذكره عن دخل هذا الوزير

---

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ «سورة النمل: الآية ٤٠».

(٢) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ «سورة هود: الآية ٤٣».

(٣) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا﴾ «سورة طه: الآية ٧٧».

(٤) «سورة ص: الآية ٤٢».

ومن له المماليك غير بقية من لعله يكون له من الجند والأتباع ما يعرف به عظم شأن هذه المملكة، ووفور دخلها، ووفود السعود إلى محلها، وتستر أبناء الزمان من عين دهرهم بظلها، ولو قد اجتمعت هذه البلاد لسلطان واحد، وكفت بها أكف المفاسد لما وسع ملوك الأرض إلا انتجاع سحابه وارتجاع كل زمان ذاهب في غير جنابه.

وهذا الذي دخله الملك الظاهر بيبرس من بلاد الروم هو بعض ما لبيت جنكزخان وهو من جلالة المقدار، وكثرة المال على ما قد أشرنا إليه فكيف جميع ما هو من الخليج القسطنطيني / ١٥٤/ إلى بحر نيطش. الله أكبر إن ذلك ملك عقيم، وسلك نظيم، وسلطنة كبرى، ودنيا أخرى ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

أمّا ما نحن بصدد ذكره من ممالك الأتراك في الروم:

فقد حدثني الشيخ حيدر العريان السبرحصري الرومي وهو من أهل مدينة سبر حصر من بلاد الروم مما هو في أيدي ملوك بيت جنكزخان قال: إن لهؤلاء أمراء الأتراك نقوداً لا يخرج نقد واحد منهم في بلاد الآخر ودرهمهم في الغالب تقدير نصف وربع درهم من نقدنا، والرطل مختلف عندهم وأكثرها بالتقريب زنة اثني عشر رطلاً بالمصري، وأقلها رتبة ثمانية أرطال، قال: وأما الغلات فتباع بكيل لهم يعرف بالموط وهو يجيء تقدير أردب ونصف بالمصري، قال: وهذه البلاد بل الروم جميعه فيه من أنواع الفواكه كلها إلا الحوامض كالليمون والنارنج وما لا يوجد في الصرود كالرطب والموز، وقد يوجد ما قل من الحوامض في بعضها مما هو على ساحل البحر. وأما الدواب السوائم فأكثر من أن يقع عليها إحصاء أو حساب من الخيل والغنم والبقر وأعظمها عدداً وأنماها ولداً الغنم؛ فإنها تبسط فرش الأرض منها المعز المرعز ذوات الأوبار المضاهية لأنعم الحرير وغالب قنية أهل الشام وديار بكر والعراق وبلاد العجم وذبائحهم مما يفضل عنها ويجلب إليها منها، وهي أطيب أغنام البلاد لحما وأشهى شحماً، وبها العسل المضاهي للثلج بياضاً والسكر في اللذاذة طعماً لا حدة فيه ولا إفراط حلاوة توقف. الأكل والأسعار كلها بالروم رخيصة لأسباب منها قلة المكوس، وكثرة المراعي المباحة واتساع سبب التجارة، واكتناف البحر.

(١) «سورة الحديد: الآية ٢١».

قال: وقيمة الغلات بها دون قيمتها بمصر والشام أو مثلهما في الغالب، فأما اللحم واللبن على اختلاف أنواعهما فرخيّة رخيصة، أما الغنم فخيار رأس يكون لا يجاوز /١٥٥/ اثني عشر درهماً من دراهمهم يكون بنحو تسعة دراهم من دراهمنا إلى ما دون ذلك، وأما اللبن وما يعمل منه فما هو مما يسأل عنه بكيف لكثرته، فأما في زمن الربيع فإنه لا يوجد له من يشتري ولا من يبيع؛ لأنه لا يكاد يخلو أحد في الروم من أغنام يحلب له اللبن فلا يحتاج ليشتريه ولا يحتاج إليه أحد فيبيعه له.

قال: وأما العسل فلا يتجاوز الرطل ثلاثة دراهم برطلهم وهو ذلك الرطل الكبير ودرهمهم وهو ذلك الدرهم الصغير، فأما الفواكه في أوانها حكم الألبان في زمان الربيع.

وقال: وبلاد الروم إذا غلت وأقحطت كانت بسعر الشام إذا أقبل وأرخص.

قال: ومع نواب بيت جنكزخان بالروم ثلاثة معادن فضة أحدها بأراضي مدينة لؤلؤة، والثاني بأراضي مدينة كمش والثالث بأراضي مدينة باحرت.

قال: وهي إلى أن فارقها في حدود سنة ثلاث وثلاثين وسبعمائة عماله مستمرّة العمل تستخرج الفضة الخالصة بها.

قال: والروم شديد البرد، لا يوصف شتاؤه إلا أن سكانه تستعد له قبل دخوله وتحصل ما تحتاج إليه، وتدّخره في بيوتها، وتستكثر من القديد والأدهان والخمور، فتأكل طول أيام مدة الشتاء، وتلك الأيام بلهنية العيش عندهم ولا تخرج من بيوتها ولو أرادت ذلك لما قدرت حتى تذوب الثلوج فتخرج إلى معايشها.

وذكر هذا الشيخ حيدر العريان: أن جملة ممالك الأتراك بالروم أحد عشر مملكة غير ما بيد بيت جنكزخان وهذا هو خلاف ما تبين لنا على ما سنذكره نقلاً عن بلبان الجنوي، وبلبان أدرى.

فأما ما عده العريان من ممالك الأتراك فهو مملكة أنطاليا[1] وصاحبها خضر بن

---

(١) انطاليا: هي أنطالية، وهي من بلاد الروم من أحسن المدن، متناهية في اتساع المساحة والضخامة، أجمل ما يرى من البلاد، وأكثر عمارة وأحسنه ترتيباً، فيها البساتين والفواكه وعيون الماء وهي غير أنطاكية «رحلة ابن بطوطة ١٨٩ـ ١٩٠».

دندار[١]، وقال: إن لصاحبها مدينة افنيكا[٢] وأميرها الذي هو بها الآن من قبله، وهو من أولاد منتشا، وقال: إن عدة عسكره نحو أربعين ألف فارس.

قلت: ولهؤلاء بني دندار إلى ملوك مصر انتماء، ولهم من /١٥٦/ تحف سلاطينها نعماء وكان بمصر منهم من له إمرة فيها، ثم عاد إلى بلاده بعد مهلك تمرتاش بن جوبان[٣]؛ لأنه كان قد ترك بلاده لأجله وفرَّ هارباً من يده لعداوة كانت قد اضطرمت بينهما شرورها، واضطربت أمورها فلما خلت من مجاورة تمرتاش تلك البلاد عاد. وأخبرني بلبان الجنوي الآتي ذكره أنه قتل هناك وما استقر له حال ولا سلمت له بلاد.

ومملكة رملاش[٤] بلاد ابن منتشا[٥]، وقال: عسكره لا يزيد على ثلاثة آلاف فارس.

ومملكة بركري[٦] بلاد محمد بن ايدين[٧]، وإن عسكره نحو عشرة آلاف فارس. وهذا ابن ايدين ما أعرف أن له بمن حوله من ملوك الممالك إلماماً، ولا أن له أخباراً ترد طروقاً ولا لماماً بل هو في عزلة عن كل جانب لا مخالط ولا مجانب.

ومملكة كاس برديك[٨] بلاد صاروخان. قال: وعسكره إذا جمع يقارب ثمانية آلاف فارس.

---

(١) خضر بن دندار: هو خضر بك بن يونس «رحلة ابن بطوطة ١٩١»، حكم من سنة ٧٢٨هـ - ٧٧٦هـ «انظر: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ٢٢٩».

(٢) أفنيكا هي مدينة الفنيكة على ساحل الخليج القسطنطيني وهي صغيرة لكنها حسنة مانعة، وكنائسها وديارها حسان والأنهار تخترقها والبساتين تحف بها «رحلة ابن بطوطة ٢٣١» وهي فنكة «معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ٢٣٠».

(٣) دمرطاش بن جوبان: فرّ إلى مصر، فأكرمه ملكها الناصر، وأعطاه الإسكندرية، فأبى من قبولها وقال: إنما أريد العساكر لأقاتل أبا سعيد وأظهر أموراً أوجبت قتله «رحلة ابن بطوطة ١٥٣».

(٤) هي مملكة بيلاس ومدينتها ميلاس من أحسن بلاد الروم وأضخمها، كثيرة الفواكه والبساتين «رحلة ابن بطوطة ١٩٤».

(٥) هو شجاع الدين أرخان بن المنتشا من خيار الملوك حسن الصورة والسيرة «رحلة ابن بطوطة ١٩٥».

(٦) هي بركي «انظر رحلة ابن بطوطة ١٩٩، معجم الأنساب ٢٢٧».

(٧) محمد بن إيدين من خيار السلاطين وكرمائهم وفضلائهم «رحلة ابن بطوطة ١٩٩» حكم في بركي وأربا وصرت وكوشك وآقجشهر وأماكن أخرى سنة ٧٣٤هـ «معجم الأنساب ٢٢٧».

(٨) وهي مملكة مغنيسة وسلطانها صارو خان من سلاجقة أوج أميراً «معجم الأنساب ٢٢٦» ومغنيسة مدينة كبيرة حسنة في سفح جبل وبسيطها كثير الأنهار والعيون والبساتين والفواكه «رحلة ابن بطوطة ٢٠٣».

ومملكة بالي كسرى[١] **بلاد دمرخان بن قراشي**[٢] قال: وله مدينة كردما، وبينهما يومان وأمير كردما من قبله واسمه سبغا، قال: وهذه البلاد محصنة منيعة، ولها أقطار رحبة وسيعة، ومع هذا فعسكره قليل ضئيل لا يجاوز مائتي فارس لكنه مطمئن بمنعة بلاده لا ينافسه فيها منافس.

ومملكة بلاد أورحاد بن عثمان، قال وعسكره خمسة وعشرون ألف فارس وهو مجاور الخليج القسطنطيني، وبينه وبين صاحب القسطنطينية الغلب والحروب، ولها في صدور الروم سهام تشق صدور اليلب ولهذا يداريه ملك الروم على مال يحمله إليه كل هلال.

قال ولقد جاز البحر مرّة إلى بلاد النصارى وعاث في نواحيها وشد على بطارقتها[٣] لا فلاحيها، وألقى علوجها بحيث تعتلج سيول الدماء وتختلج سيوف النصر /١٥٧/ من الأعداء أمدّه الله بتأييده وأذلّ رغم الكفر لعقبان صناديده.

ومملكة كرمنان[٤] **بلاد أرغدشار**[٥] قال كرسي مملكة كوثاي، قال: ومالكها الآن كرميان بن غدشار. هكذا قال الشيخ حيدر العريان. قال: وهو أمير مطاع وقائد جيوش لبوارق سيوفهم شعاع، وأمراء الأتراك تنتقيه، ويبذل كل منهم في متاقاته ما استطاع، قال: وعسكره يقارب أربعين ألف فارس وهم فوارس وغى وفوارع علياء لا تبتغى.

ومملكة كردله[٦] **بلاد شاهين،** قال: وعسكره نحو خمسة آلاف فارس.

ومملكة كونيك حصار بلاد أمرحاكو، قال: وعسكره ثلاثة آلاف فارس.

---

(١) وهي مملكة بلى كسرى وهي مدينة حسنة، كثيرة العمارات مليحة الأسواق «رحلة ابن بطوطة ٢٠٤» وهي باليكسر وتابعة لبني قراس «معجم الأنساب ٢٢٥» حكم في بركي وأربا وصرت وكوشك وآقجشهر وأماكن أخرى سنة ٧٣٤هـ.

(٢) سلطانها دمور خان ولا خير فيه «رحلة ابن بطوطة ٢٠٤».

(٣) بطارقتها جمع مفرده بطريق وبطرك وبطريرك وهو مقدم النصارى ورئيس رؤساء الأساقفة «المعجم الوسيط ١/ ٦٣».

(٤) بكوتاهية واوشاق وقولا وبازار وصارى كيوك «معجم الأنساب ٢٢٧».

(٥) ذكر زمباور إنه محمد بن يعقوب والذي حكم ما بين ٧٠٦هـ إلى ٧٧٩هـ «معجم الأنساب ٢٢٧».

(٦) كرده بولي «معجم الأنساب ٢٢٣».

ومملكة كصطمونية[١] **بلاد سليمان باشا**[٢]، قال: وصاحبها الآن إبراهيم بن سليمان باشا[٣]، وله مدن وقلاع، ومن مشهور ما له مدينة سنوب وأميرها من قبله واسمه غازي جلبي، ويورا وأميرها مراد بك.

قلت: وصاحب كصطمونية ممن له بملوك مصر اتحاد، وبينه وبينهم مكاتبات ووداد ونحوه على ما يقال لنا، ويبلغنا نحو ثلاثين ألف فارس أو يزيدون، وببلاده الخيل المخاصي الرومية الفائقة المفضّل بعضها على كل سابق من الخيل العراب، وهي بيوت مشهورة مثل خيول العرب بأنساب محفوظة وأحساب ملحوظة، ويغالى في أثمانها خصوصاً في مكانها حتى إن قيمتها لتبلغ قيمة ألف دينار ذهباً، ومنها ما يتجاوز هذا المقدار، وتزيد قيمته على ألف دينار ولا يستكثر من يعرفها فيها بذل مال، ولا يستغلي اشتطاط السوم. وإذا قصد في بلاد الروم بيع أكديش[٤] غال منها بالثمن الغالي، قال: هذا كصطموني ليشرفه بهذا الوسم وينفقه في البيع بجاه هذه النسبة.

ومملكة أرمصال[٥] وهي بلاد ابن قرمان[٦] وصاحبها الآن الأمير محمد بن قرمان من أهل بيت توارثوا /١٥٨/ هذه البلاد ولا يخاطب قائم منهم إلا بالإمارة وفي ساحل بلاده مدينة العلائية المعروفة على ألسنة الناس بالعلايا وأميرها من قبله اسمه يوسف وله مدينة قرشاري وهي عنه على ثلاثة أيام، وأميرها من قبله واسمه

---

(١) وهي قسطموني وسينوب وبزغلد وحاكمها هو غياث الدين إبراهيم بن سليمان حكم سنة ٧٤٠هـ وبعده يعقوب بن تمر ٧٤٢هـ «معجم الأنساب، وكصطمونيه من أعظم المدن وأحسنها، كثيرات الخيرات، رخيصة الأسعار «رحلة ابن بطوطة ٢١٠».

(٢) سليمان باشا السلطان المكرم، حسن الوجه، طويل اللحية صاحب وقار وهيبة يجالسه الفقهاء والصلحاء «رحلة ابن بطوطة ٢١١».

(٣) إبراهيم بك ابن السلطان سليمان: هو ولي عهد سليمان ووالي مدينة حينوب «رحلة ابن بطوطة ٢١٢، انظر: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ٢٢٥».

(٤) اكديش: يجمع أكاديش وهي نوع من الخيول تجلب من آزاق ببلاد الروم، والأكاديش معروفة في مصر وهي كالغنم في تلك البلاد «رحلة ابن بطوطة ٢١٨».

(٥) أرمصال هي بلاد العلايا، وهي أول بلاد الروم ومن أحسن الأقاليم، وجمع الله فيه ما تفرق من المحاسن في البلاد فاهله أجمل الناس وأنظفهم وأطيبهم مطاعم «رحلة ابن بطوطة ١٨٨.

(٦) ابن قرمان هو والد يوسف وإسحاق وقد كانا في فترة رحلة ابن بطوطة «انظر: الرحلة ص ١٨٨ـ ١٨٩» وكانوا في لارنده وسيواس وقونية وأرمناك «معجم الأنساب ٢٣٦».

إسحاق بك وأولاد قرمان عصبة ذات أيد ويد وجيوش كثيرة العدد وهم أصحاب الحروب التي ضعضعت الجبال وأنتجت الحرب الحيال ولهم مع الأرمن وبلاد التكفور[١] وقائع لا يجحدها إلا الكفور تتخطفهم عقبانه القشاعم وتلتهمهم أسوده الضراغم، وببلادهم معدن حديد لهم به بأس شديد، ومنه درق مديد وهم أهل بيت ألقى الله عليهم محبة منه، وإذا شاء أميرهم جمع أربعين ألفاً وهو مع ما هو عليه يداري ملوك التتار وهواه هو ومن سلف من أهل بيته مع ملوك مصر لا تغب المكاتبات بينهم ولا ينقطع بذل خدمته لهم، وإقبالهم عليه واعتدادهم بموالاته وقد كان منهم من طلب تقليداً بمصر بانتيابه ما بيده من بلاد الروم، فكُتب له ثم إن سلامش الحاكم بالروم كان انحرف عن سلاطين بيت هولاكو وكتب إلى الأبواب السلطانية بمصر لينال تقليداً بملك حكم الروم أجمعه، وأن تكون أولاد قرمان، ومن سواهم في طوعه فكتب من إنشاء شيخنا أبي الثناء محمود بن سلمان بن فهد الحلبي الكاتب رحمه الله، ومنه:

وبعد:

فإن أولى من أصغت عزائمنا الشريفة إلى نداء إخلاصه، وأجابت مكارمنا العميمة دعاء تميّزه بالولاء واختصاصه، وقابلت مراسمنا استنصاره في الدين بالنفير لإعانته على ما ظفر باقتلاعه من يد الكفر واقتناصه، وتكفلت له مهابتنا بالأمن على ملك مذ وسمه باسمنا الشريف يئس العدو من استخلاصه وأتت كتبه /١٥٩/ في الاستنجاد بسرعان الكتائب، ولمعان القواضب وتتابع إمداد جيوشنا التي تنوء بحملها كواهل المشارق والمغارب، وتدفق أمواج عسكرنا الذي تنشد طلائعها ملوك العد (أين المفر ولا مفر لهارب) وتألق. بروق النصر من خفق ألويتنا الشاهدة بأن قبيلنا إذا ما التقى الجمعان أول غالب، وفوضت إليه مراسمنا الحكم بالعدل والإحسان، وقلدته أوامرنا من عقود النظر في تلك الممالك ما تود جباه الملوك لو حلت بدرّه معاقد التيجان، وعقدت به من الأوامر ما تنفذ بنا مواقعه وكذا الأمور المعتبرة ما تنقذ إلا بسلطان من ألقى الله الإيمان في قلبه وهداه إلى دين الإسلام فأصبح على بينة من ربه وأراد به خيراً، فنقله من حزب الشيطان إلى حزبه، وأيقظه من طاعتنا التي أوجبها على الأمم لما أبصر به رشده ورأى قصده، وعلم به أن الذي كان فيه ﴿كَسَرَابٍ

(١) وهو تكفور ابن السلطان جرجيس «رحلة ابن بطوطة ٢٣٢».

بِقِيعَةٍ﴾[١] لم يجده شيئاً وأن الذي انتقل إليه وجد الله عنده وأنهضه من موالاتنا بما حتم به النهوض على من كان مسلماً، وأخرجه بنور الهدى من عداد أعدائه الذين تركهم خوفنا ﴿كَأَنَّمَآ أُغۡشِيَتۡ وُجُوهُهُمۡ قِطَعٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مُظۡلِمًاۚ﴾[٢] وأراه الرشد ما علم به أن الله تعالىٰ أورثنا ملك الإسلام، فبطاعتنا يتم الإنتماء إليه، وأعطانا مقاليد البسيطة، فمن اغتصب منها شيئاً انتزعه الله بجنوده المسومة من يديه فلجأ من أبوابنا العالية إلى الظل الذي يلجأ إليه كل ذي منبر وسرير ورجا من كرمنا الاعتصام بجيوشنا التي ما رمينا بها عدواً إلا ظن أن الرمال تسيل والجبال تسير، وتحيّز منا إلى فئة الإسلام، وانتصر بسيوفنا التي هي يعلم كيف نسلّها على الأحلام، ومتّ إلينا بذمة الإسلام وهي أبرّ الذمم وطلب تقليده الحكم منا من معادنه إذ أرته النظرات الصادقة؛ أنه كان (يحسب الشحم فيمن شحمه ورم)، وعقد بنا رجاءه، وهل لمسلم عن ملك الإسلام من معدل ؟ / ١٦٠/ وأنزل بنا كتائب آماله وهل بعد رامة لمرام من منزل فتلقت نعمنا كرائم قصده بالترحيب، وأحلت وفادة انتمائه بحرمنا الذي شأوه بعيد ونصره قريب، وتسارعت إلى نصرته جنودنا التي هي مشهورة في عدوها وآثارها مشكورة في رواحها وغدوّها، وأعلامها منصورة في انتزاحها ودونوها، وتوالت يتابع بعضها بعضاً تتابع الغمام المتراكم والموج المتلاطم تقدم عليه بالنصر القريب من الأمد البعيد، وتعلم بوادرها أن طلائعها عنده وباقيها بالصعيد، ولما كان فلان هو الذي أراد الله به من الخير ما أراد ووطد له بعنايته أركان الرشاد، وشاد وجعل له بعد الجهل به علماً وتداركه برحمته فما أمسى للإسلام عدواً حتى أصبح هو ومن معه سلماً ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ﴾[٣]، وبكرمه العميم فليستفتحوا صدورهم ويشرحوا، وبإرشاده الجلي وهدي نبيه، فليدعوا قومهم إلى ذلك، وينصحوا، وحين وضحت له هذه الطرق أرشدته من خدمتنا الشريفة إلى الطاعة، ودلته على موالاة ملك الإسلام التي من لم يتمسك بها فقد فارق الجماعة، فإن الله تعالىٰ قرن طاعته وطاعة رسوله ﷺ بطاعة أولي الأمر، وحث على ملازمة الجماعة في وقت يكون التمسك فيه بدينه

---

(١) إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً... ٣٩﴾ «سورة النور: الآية ٣٩».

(٢) «سورة يونس: الآية ٢٧».

(٣) سورة يونس: الآية ٥٨.

«كالقابض على الجمر»[١] وهذا فعل من أراد الله به خيراً، وسعي من يحسن في دين الله سيرة وسيرا، ولذلك اقتضت آراؤنا الشريفة إمضاء عزمه على الجهاد بالإنجاد وإنفاذ سهمه في أهل العناد بالإسعاف والإسعاد، وأرسلنا الجيوش كما تقدم شرحه يطأون الصحاصح ويستقربون المدى النازح، ويأخذون كل كمي فلو استطاع السماك لم يتسم بالرامح، ويحتسبون النفقة في طلب علو الإسلام علماً أنهم لا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون ﴿إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌۚ﴾[٢]، فرسم بالأمر الشريف لا زال يهب /١٦١/ الدول، ويقلّد أجياد العظماء ما تودّ لو تحلت ببعض فرائده تيجان الملوك الأول أن يفوض إليه نيابة المملكة الرومية تفويضاً يصون قلاعها ويصول به على من حاول انتزاعها من يده واقتلاعها ويجريها على ما ألفت ممالكنا من أمن لا يروّع سربه ولا يكدر شربه، ولا يوجد فيه باغ يخاف السبيل بسببه ولا من يجرد سيف بغي، وإن جرده قتل به، وليحفظ من الأطراف ما استودعه وهذا التقليد حفظه، وليعمل في قتال مجاوريه من العدا بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةًۚ﴾[٣] وليعلم أن جيوشنا في المسير إليه متى قصد عدواً سابقت خيولها خيالها، وجارت جيادها ظلالها وانفت سنابكها أن تجعل غير جماجم الأعداء نعالها، وها هي قد تقدمت وأقدمت ونهضت لإنجاده فلو سامها أن تخوض البحار في سبيل الله لخاضت أو تصدم الجبال لصدمت والشرع الشريف نهيه المقدم وأمره السابق على كل ما تقدم فليعل مناره ويستشف في أموره أنواره ويعتد أحكامه ويعضد حكامه، ومن عدل عن حكمه معانداً أو ترك شيئاً من حكمه جاحداً فقد برئت الذمة من دمه حتى يفيء إلى أمر الله، ويرجع عن عناده، وينيب إلى الله فإن الله ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾[٤] ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾[٥].

وكان من حديث هذا سلامش المذكور:

أن السلطان محمود غازان قصد إعدامه فأراد الانحياز إلى الشام، وكاتب الملك

---

(١) إشارة إلى الحديث النبوي الشريف: «القابض على دينه كالقابض على الجمر» انظر مسند أحمد ٢/ ٢٩٠.
(٢) سورة التوبة: الآية ١٢١.
(٣) سورة التوبة: الاية ٩.
(٤) سورة الرعد: الاية ٢٧.
(٥) سورة التوبة: الآية ١٠٤.

المنصور لاجين[1] وأرسل شخصاً من جهته يعرف بالمخلص الرومي، فأقبل السلطان وأرباب الدولة عليه وقيل: إنا لا نكره من هاجر إلينا، واتصل بالسلطان محمود غازان مراسلة المصريين فبعث إليه عسكراً لمحاربته، فالتقوا معه ببلاد الروم، فلما التحم القتال خامر عليه /١٦٢/ بعض من كان معه فبقي في قل من أصحابه وحقّت عليه الهزيمة فالتحق بالشامفي قل من جيشه، فلما أتى حلب جهز معه من يحضره إلى الأبواب السلطانية بمصر، فلمّا وصل عومل بالإكرام وعوجل بالإنعام وخير في المقام بمصر إن شاء أو الشام، فذكر أنه ترك وراءه ماله وأهله وأولاده وسأل تجريد عسكر لإحضارهم ليقيم بالبلاد الشامية مقطوع الالتفات عما سواها فجهز معه من العسكر الجلو[2] طائفة مع بكتمر الجلمي دخل بهم بلاد الروم على بلاد الأرمن، وبلغ متملك سيس الخبر، وكان عنده طائفة من التتار فأمسكوا عليهم الدروب وعاجلوهم باللقاء فما كان بأسرع من أن قتل الجلمي، وفرّ سلامش ولجأ إلى قلعة من قلاع الروم، فأرسل السلطان محمود غازان في طلبه فأحضر إليه فقتله شرّ قتله وذبحه على غير قبله. وكان سلامش قد خلف بالأبواب السلطانية بمصر أخاً له اسمه قطقطو والمخلص الرومي، فاستقرّا بها وأقطعا إقطاعاً بها وأجرى عليهما راتباه فيها. وإنما ذكرنا حديث سلامش في هذا المكان لتعلقه بالروم؛ ولأن أمراء بني قرمان هم كانوا المؤلفين بينه وبين المنصور لاجين والداخلين معه أولاً وآخراً فيه وهؤلاء أولاد قرمان هم الذين لا يرتاب في رأيهم، ولا يظن في دينهم فمهما ورد من جهتهم تلقي بالقبول، وحمل على أحسن المحامل.

وكذلك طلب ارتنا[3] تقليداً ناصرياً بنيابة الروم وتردّد في هذا سراج الدين قاضي قيسارية، فكتب له فأخلص الموالاة وأقام دعوة الخطبة الناصرية على منابر البلاد الرومية وضرب السكة بالاسم الشريف، وجهز من الدراهم المضروبة وذلك كله أظهر طاعة لا إذعان لحكم. ولقد حدثني من تردد إليهم، وعرف ما هم عليه أنهم رجال

(١) المنصور حسام الدين لاجين المنصوري، نائب السلطان قلاوون بدمشق سنة ٦٧٨هـ، تولى السلطنة سنة ٦٩٨هـ ولمدة سنتين «انظر: تالي وفيات الأعيان ١٣٢، المنجد في الأعلام، ط ١٥/ ٥٤٦».

(٢) العسكر الجلو: عسكر الطليعة، وجلو هي الطليعة من اللغة الفارسية «فرهنگ رازي ٢٠٠».

(٣) أرتنا: أمير بلاد التركمان المعروفة ببلاد الروم أيضاً «رحلة ابن بطوطة ١٥٤» وبنو أرتنا كانوا بسيواس وقيصرية ونيكده وأماسية وقراصار وكمش وقد حكم علاء الدين أتنا بن جعفر سنة ٧٣٦هـ واستقل بسيواس بعد موت أبي سعيد بهادر وخلفه غياث الدين محمد أرتنا سنة ٧٥٣هـ «معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ٢٣٢».

صدق وقوم صبر لا تستخف لهم حفيظة، ولا يرد بحنقها لهم صدور مغيظة. ولهذا أمراء الروم لا يطأون لهم موطئاً يغيظ، ولا يواطئون لهم عدة شهور /١٦٣/ في مشتى ولا مقيظ، وما أحد ممن يحسدهم على ما آتاهم الله من فضله إلا من يستجيش عليهم بالتتار ويعدد عليهم عظائم الذنوب الكبار. ووقاية الله تكفيهم وحياطته عن عيون القوم تخفيهم، ولقد كان السلطان محمود غازان يقول: أنا أطلب الياغي[1] شرقاً وغرباً والياغي في ثوبي عن أولاد قرمان، ومع هذا لم يسلط عليهم، وحكى لي الصدر شمس الدين عبد اللطيف أخو النجيب أنه قال يوماً: لولا الأكراد وأولاد قرمان وتركمان الروم دست بخيلي مغرب الشمس.

قال: وكان لا يريد بعد الشام إلا لهم ومع هذا ما قدر عليهم، ولو خلا وجهه لما انصرف إلا إليهم.

ولما استفحل أمر جوبان بك[2] بمملكة إيران وكان هو حقيقة السلطان، واستولى ابنه تمرتاش[3] على الروم وانتزع به عدة ممالك، وجد في طلب الباقي، رأت أولاد قرمان مصافاة أبيه جوبان واستدفعت به شرّ ابنه طول ذلك الزمان مع ما كان لهم من العناية الإلهية والإعانة من سلطاننا عز نصره. ولولا هذا لأتى عليهم، وسلبوا النفس والنفائس لما كان عند جارهم الجائر من الاستعداد ولموالاة التكفور متملك الأرمن لرفع الشكوى عليهم في كل وقت، وتضوّره مما ينوب أهل بلاده منهم، وتضرره مما ينوء به من ثقل وطأتهم، وكانوا في تلك السنين خائفين يترقبون المصابحة والمماساة، وينتظرون البيات والمقيل.

قلت: ولأهل هذا البيت روعة في قلوب التكفور والأرمن. وفي كل وقت يبعث التكفور يسأل بروز المراسم المطاعة إلى أميرهم بالكف عن بلاده وهو لا يغمد سيف جهاده. لا يرعى للأرمن حق جوار ولا يدخل في سمعه لضجيجهم جؤار. يشن عليهم في كل وقت غاراته (ويجوس خلال ديارهم) جيوشه وسراياه وكرسيه مدينة أرمناك

---

(١) الباغي: كلمة تركية بمعنى المتمرد «فرهنگ رازي ١٠٣٤».

(٢) كان جوبان أمير الأمراء في عهد السلطان أبي سعيد بهادر خان، وقد استولى على الأمر، وحجر على تعرفات السلطان حتى لم يكن بيده من الملك إلا الأسم، وكان ابن جوبان المسمى خواجه يفتك بحريم والد السلطان، فقتل أبو سعيد ابن الجوبان وثار جوبان وأولاده وقتل والي خوارزم جوبان وولداً له «رحلة ابن بطوطة ١٥٢ ـ ١٥٣».

(٣) هو دمرطاش بن جوبان وكان قد فر إلى مصر وقتل هناك «رحلة ابن بطوطة ١٥٣».

على ذروة جبل أرزاقه متسعة وخيراته كثيرة وبينها وبين العلاية ثلاثة أيام، ولقد يحكى عن أميرها القائم الآن بدر الدين أنه افتضّ ألف بكر، /١٦٤/ ويوصف من كرمه أنه يطلق كل ما يملك من صامت وناطق حتى لا يدع له شيئاً البتّة، ثم يتمول فإذا أثرى أطلق كل ما يملكه حتى لا يدع له شيئاً هكذا دأبه، وبهذا يعرض على الله حسابه.

قلت: ولقد وصل من سنين أخوه الأمير بهاء الدين موسى بن قرمان إلى الحضرة السلطانية، وأقام مديدة بالباب الشريف، ثم توجه لأداء فريضة الحج، وعاد إلى الحضرة وحرّك العزائم الشريفة على قصد الأرمن وارتجاع ما يلي الممالك الإسلاميّة من نهر جهان، ثم عاد إلى بلاده وعومل بالجميل في إصداره وإيراده، وأجلس مع أكابر الأمراء أمراء المشورة، وأجرى في تكبير القدر مجراهم وطلب منشوراً سلطانياً ببلاد من مملكة التكفور يولي سيفه انتزاعها واستعادة ضالتها من أيديهم وارتجاعها، فكتب له على ما طلب وما أخذها إلى الآن ولكنه في الطلب.

هذه جملة بمعنى ما ذكره العريان وما انساق في إنبائها من أمور هذه البلاد.

وأما ما ذكره بلبان الجنوي عتيق الأمير الكبير بهادر المعزّي، وهو ممن له الخبرة التامة بما يحكيه، وهو الذي أفاد كيفية تصوير هذه البلاد. واسم هذا بلبان في بلاده دومانوكين دوريّا بن بادا دوريّا، وهو من بيت حكم في جنوة[١] اتفق أنه جمعت بيني وبينه المقادير في الاعتقال وعنه أخذت ما قال:

حدثني: أن هؤلاء أمراء الأتراك الذين بالروم الآن أبناء أمرائها الأول وممن تأخر عن سالف تلك الدول وهم فيها إلى يومنا هذا من بقايا تلك البقية، وممن نضت عنهم برود الأيام السلجوقية استقرّ بأيديهم الجبل وبأيدي بيت هولاكو السهل وجميع هؤلاء الأمراء الأتراك تقرّ لصاحب كرمان وتذعن له بعض الإذعان وتجريه في كثير من أحوالها مجرى السلطان وتعترف له بالتقديم وله على بعضهم مقرر لا ينقص، وعلى بعضهم هدايا بحسب الأوقات، /١٦٥/ وهو في ظاهر الحال فيهم الملك المطاع والبقية له أتباع أو كالأتباع تكاتبه في معضلات الأمور، وتتيمن برأيه، ويقوى بعضهم على بعض بمعاضدته، وتسر بخلعه وإنعاماته وتقاليده وتكريماته، وهو وإن لم يقدر على إمضاء الولاية والعزل فيهم؛ فإن له عندهم مَكانة لا يجهل مقدارها وغاية

(١) كان أهل جنوه أهل سفر وترحال لهم حي في القسطنطينية.

لا ينازع فيها. ومع هذا ففي أمره معهم شبه بأواخر الخلفاء مع ملوك البلاد يلزم معه قاعدة الأدب في مخاطبتها لتعظيم، وهو مع من غلب أو كحال آل سامان في آخر الزمان وهو أوسع الكل بلاداً وأكثر رعايا وأجناداً.

وأما ما هو لبيت جنكزخان فإنه لم يزل بأيدي نوابهم مع بقايا السلاجقة من غير زيادة عليه ولا نقص منه وبينهم وبين هؤلاء الأتراك مداهنة لا مهادنة حتى حكم تمرتاش بن جوبان فاستضاف من ممالك الأتراك إليه ما بلغت قدرة سيوفه وهو جانب كبير وممالك لها قدر جليل.

فمن ذلك مملكة ابن شرف[١] وموقعها في شمال الروم غربي مملكة أولاد دندار[٢] وجنوبي بلاد ابن قرمان وشرقي بلاد بيت جنكزخان بشمال. وكانت مستقلة بذاتها وكرسيها بكشرى وعساكرها تناهز سبعين ألف فارس هم إلى الآن، وتجمع هذه المملكة خمسة وستين مدينة ومائة وخمسة وخمسين.... أمسك تمرتاش[٣] صاحبها وقتله، ومثل به وقطع أنثييه وعلقهما في عنقه.

وكذلك مملكة ابن طرغت وهي غربي ابن أشرف وكرسيها قراصار[٤]، وله مدينة سكنجر وعسكره خمسمائة فارس.

وكذلك بلاد شجاع الدين أغرلو ومدنها لوليا وكمش سار وعسكره يزيد على عشرين ألف فارس وموقع بلاده هذه غربي ابن طرغت. وبلاد غرلوا هذا لم ينتزعها منه بل أبقاها بيده كأنه من قبله. وهذه كمش سهر هي ذات معدن تخرج منه الفضة، هذا ما ذكره هذا بلبان/ ١٦٦/ وأما ما ذكره العريان فإنه قال: تخرج من لولياه وقد تقدم ذكره.

وكذلك أخذ بلاد طوغان جق وهي غربي طرابزون وجنوبي بلاد سليمان باشا وهي مملكة جليلة ذات عمال وعساكر.

وكذلك أخذ بلاد سلطان نوبي وما لها مدينة ممدنة وإنما هي قرى ممتدة ومروج

---

(١) وكانت في آتشهر وسيدي شهري بكشهري «معجم الأنساب ٢٣١».

(٢) كانت مملكة أولاد دراندر في مدينة أكريدور وهي على مسافة يومين من آقشهر وكان سلطانها في عهد ابن بطوطة القريب من عهد ابن فضل الله هو أبو أسحاق بك بن الدرندار بك «رحلة ابن بطوطة ١٩١».

(٣) رواية ابن فضل الله العمري عن رواية ابن بطوطة، فعند العمري صار تمرتاش صاحب مملكة، وعند ابن بطوطة أنه قتل في مصر «الشاذلي».

(٤) قراحصار استولى عليه أحمد بن محمد سنة ٧٣٠ـ ٧٥٠هـ «معجم الأنساب ٢٢٣».

فج مستطيلة. وموقعها بين بلاد سليمان باشا وبين كرميان في مشاريق كرميان ومغاريب سليمان باشا.

وكذلك أخذ بلاد يعقوب وهي قيرا ساري، وجار على كل مجاور، وكان تارةً يصالب بالسيف، وتارة يداور بالخديعة حتى دوّخ الممالك، وفتح المعاقل وامتدت أعماله، واتسعت شعوبه، وكثرت جباياته، وعظم خراجه، وقويت شوكته في ذلك الإقليم، وطلب في وقت الاستقلال بالملك، وخطب لنفسه، وضرب السكة باسمه، وحوى مثل ملك آل سلجوق أو أجل، وقام بهذا العبء واستقل وقرر به تسع تمانات من المغل، ومن التركمان مثلهم أو أكثر، وصار لا يقاوم ولا يقاول، ولا يحارب ولا يحاول، وما هذا موضع ذكره وإنما ذكرناه لذكر ما بأيدي بيت جنكزخان من الروم، وقد ذكرناه في موضعه. وأما نقود هذه البلاد ومعاملاتها فتختلف في بلادها باختلاف حكامها واعتيادها.

والذي نذكره الآن ما هو بيد الأتراك الآن خاصة وهو ست عشرة مملكة على ما ذكره بلبان الجنوي، وأجلهامملكة كرمينان وهي أقربها إلى ما بيد بيت جنكزخان. وموقع كرمينان منها شمالاً يمتد شرقاً بغرب. وما بأيدي بيت جنكزخان جنوبها وقد دارت عليها ممالك الأتراك من شرقها فطافت تطاقاً وراء نطاق؛ فالنطاق الأول وهو الأقرب إليها المماس لحدودها من شرقيها ثلاث ممالك أخذت من الجنوب إلى الشمال كأنها قوس يفصل بينها وبين بلاد كرميان جبل ممتد على هذه الهيأة.

وأول هذه الممالك الثلاثة مما يلي الجنوب جبل القسيس وهو جبل عظيم منيع، مشجر بأنواع الفواكه، وكل أشجاره مثمرة، وقنّة هذا الجبل ومفوحه مسكونة، ويمشى في طوله عدة أيام بغير زاد ولا ماء. فيه من كل الثمرات /١٦٧/ رزقاً من عند الله لا بغرس غارس، ولا باحتجاز مالك، بل هو مباح لمن أكل وحمل من سبق إليه اجتنى، ومن وضع يده على شيء من شجرة اقتنى. هو من عجائب الوجود وغرائب ما منّ به الإله المعبود.

وفي أخريات هذا الجبل مملكة طغرلو في شماليه.

ثم تليها في شماليها مملكة توازا.

ثم تليها في شماليها مملكة عميدلي.

ثم تنتهي مملكة الأتراك هاك إلى ما كان بيد ابن أشرف، وأخذه بيت جنكزخان.

ثم يلي هذه الممالك على شرقيها النطاق الثاني وهو اثنتا عشرة مملكة آخذة عليها من الجنوب إلى الشمال كأنها قوس يفصل بينها وبين تلك جبل ممتد على هذه الهيأة، فهذه خارج تلك الممالك الثلاثة، وتلك الممالك الثلاثة خارج كرمينان، وكرمينان خارج بيت جنكزخان. وهذه الممالك الاثنتا عشرة التي أشرنا إليها أولها مما مال إلى الجنوب مملكة كصطمونية.

ثم تليها مملكة قاويا.

ثم تليها مملكة برشا.

ثم تليها مملكة أكيرا.

ثم تليها مملكة نيف.

ثم تليها مملكة مغنيسيا.

ثم تليها مملكة مرمرا.

ثم تليها مملكة بركى.

ثم تليها مملكة فوكه.

ثم تليها مملكة أنطاليا.

ثم تليها مملكة قراصار.

ثم تليها مملكة أرمناك، وها نحن نذكرها مفصّلة:

* * *

الفصل الأول: في مملكة كرمينان

وهي مثل قرن الجاموس أحاط بها جبل في مشاريقها كالقوس أخذ عليها جنوباً بشمال، وأحاط بها في مغاريبها جبل آخذ غرباً بشمال، ثم عطف مشرّقاً ثم أخذ شمالاً بغرب حتى لاقى الجبل الأول، فاجتمعا فكان كأنه قرن الجاموس فسبحان الخلاق العظيم. وهذه المملكة قد تقدم من ذكرها ما فيه مقنع وينزل من جبلها الغربي نهر مندروس الأعظم، وهو إذا نقص كان كالنيل فأما إذا زاد فبحر زاخر لا له أول ولا آخر، وهو يشق هذه البلاد، ويبحر في وسطها بحيرة جليلة نافعة، يصطاد بها الحيتان وتتنزّه فيها أهل تلك الديار، ثم يمضي مندروس على مقطع في الجبل الشرقي

حتى يخرج/ ١٦٨/ إلى بلاد طغرلو ثم يمر عليها، ثم يخرج إلى بلاد بركى، ثم يصبّ في البحر المالح الماد من الخليج القسطنطيني إلى مانيطش، وهذا نهر مندروس مجرى السفن والمراكب تصعد وتنحدر فيه وتخرج منه إلى الملح ومن الملح إليه ولأهل تلك البلاد به مرافق في الأسفار ومنه تتجهز الغزاة والتجار وهو قاطع البرد لا يكاد يتغير ولا يؤثر الهواء إذا سخن فيه لكثرة مائه واتساع جوانبه.

وصاحب كرمينان هو أكبر ملوك الأتراك وله تسلط على الجميع، وتبسط في ملكهم الوسيع وكرسي ملكه مدينة كوتاي[١] وهي مدينة كبيرة ذات قلعة جليلة، وأعمال وسيعة ورساتيق من كل مكان، وبلاد ذوات دواب سائمة، وعمار وسكان، ويقال: إن له نحو سبع مائة مدينة وقلعة، وله عساكر كثيرة.

قال العريان: له أربعون ألف فارس مديونة، وقال بلبان أضعافها وأكثر، فقال: إنه إذا جمع وحشد جمع مائتي ألف مقاتل ما بين فارس وراجل ورامح ونابل، قال: وهم أهل حرب وقتال ومصالتة واحتيال، ولهم عدد حصينة وسلاح للحرب وللزينة من الفولاذ والمجوهر والأطلس الأحمر وما يذهب هذا المذهب، ولهم مال جم من صامت وناطق ونعم لا يحصيها إلا الخالق، وخيلهم نهاية في الروميات لا يسبقها سابق ولا يتعلق بغبارها الغبراء ولا يلحقها لاحق مسومة عندهم بما غلا من الأثمان معروفة بينهم، هذا أمه فلانة وهذا أبوه فلان وله على صاحب القسطنطينية أتاوة مقررة نحو مائة ألف دينار قسطنطينية في كل سنة ويتحفه معها بتحف فاخرة وهدايا مستحسنة وهو في كل وقت يعرض جيوشه بالخيل والعدد والسلاح ويستعد ويعد أماكن الحرب والكفاح، وله أمراء ووزراء وقضاة وكتاب وحاشية وغلمان وخزائن واصطبلات / /١٦٩/ ومطابخ وبيوت[٢] ورخت ملوكي وهيأة سلطانية وأبهة ملكية، وله مدينة كمش ساراي[٣] مدينة الفضة وهذه غير ما بأيدي بيت جنكزخان وهو معدن كثير المتحصل، جليل الفائدة جزيل العائدة، أعظم من الذي بأيدي بيت جنكزخان، وأجود فضّة

---

(١) هي كوتاهية وحاكمها هو محمد بن يعقوب بن علي شير (كرميان خان) استولى على الحكم سنة ٧٠٦هـ وظل حتى سنة ٧٧٩هـ «معجم الأنساب ٢٢٧».

(٢) الرخت: الفرش، كلمة فارسية وتركية تعني سرج الحصان «فرهنگ رازي ٣٩٢».

(٣) هي من بلاد ملك العراق، مدينة كبيرة عامرة، بها معادن الفضة «رحلة ابن بطوطة ١٩٨».

وأسهل مكاناً وأهون تخليصاً واستخراجاً، وكذلك بها معدن شبّ يباع منه بحمل أموال، وله مدينة سركوى وهي مدينة لا تزرع إلا الأرز. وأهل هذه المملكة كرام، ولكنهم لا يفكرون في حلال ولا حرام، أهون ما عليهم سفك الدماء وإراقتها، تنهل كمزاود الماء لا يبالون بما فعلوا، ولا يعبأون بمن قتلوا لهم في كل أوان موارد دماء مسوغة ومعاهد أعداء بأنياب الأسنة ممضغة. لا تروى في الحروب سيوفهم العطاش، ولا يروى لوبل نبلهم رشاش ولا تزال ظباء الروم تتكاثر من سيوفهم على خداش. ضجر الحديد، ولم يضجروا، ومضت أعمار الأيام وما قالوا ولا هجروا. ما لهم بسوى ما هم فيه التذاذ ولا بغير أن تخرج وجوههم وهي سواهم معاذ ولأهل هذه الدولة تصرف في أنواع المعايش والأسباب وأصناف الاكتساب.

قال: وأما لبسهم ولبس جميع الروم فهو زي واحد لا يكاد يختلف. ودرهم هذه المملكة نصف وربع درهم فضة خالصة، والرطل بها زنته تحريراً ثلاثة آلاف ومائة وعشرون درهماً. وكيلها تسمى المد[1] وهو نحو اردب وربع مصري تقريباً. هذا ما قاله فيه بلبان، وقد تقدم ما قاله العريان. قال: وأما السعر المتوسط فمد القمح خمسة عشر درهماً وكذلك الشعير أو دونه بقليل واللحم كل رطل بدرهم واحد، وأما الفواكه والألبان والأعسال فرخيصة جداً. وأوقات الرعايا والفلاحين والزراع طيبة، كأنهم فيها في بكر مفضّضة وآصال مذهبة. ومن جملة بلاده بلاد ابن السايب وهذا ابن السايب صاحبها /١٧٠/ هو صهر صاحب كرمينان ولولا مصاهرته له ما كانت بقيت له إلى الآن؛ لأن بلاده هذه هي خارجة عن كرمينان مجاورة لها من غربها وهي من بلاد بيت جنكزخان في شرقها. ولما امتد تمرتاش إلى من جاوره من الأتراك وأخذ بلادهم ارتمى هذا إلى صاحب كرمينان، وانتمى إليه وصاهره وقوي على تمرتاش بيده القاهرة واعتصم به ونامت عينه الساهرة واستمر على مصافاته الظاهرة، وامتنع على من جاهده وجاهره وكرسيّه قراساري وهي مدينة مشهورة يحيط بها وببلادها جبل استدار عليها استدارة الحلقة وأحاط بها إحاطة العين بالحدقة وحكمها اليوم حكم بلاد كرمينان. وابن السايب وإن كان صاحبها فهو الآن كأنه من قبله فيها، وليس له مدينة سوى قراساري، ولها ألف قرية وعسكره يقارب أربعة آلاف فارس وبلاده

---

(١) المدّ: مكيال قديم اختلف الفقهاء في تقديره بالكيل المصري، فقدّره الشافعية بنصف قدح، وقدره المالكية بنحو ذلك، وهو رطل وثلث عند أهل الحجاز، وعند أهل العراق رطلان، جمعه أمداد ومِداد. «المعجم الوسيط ٢/ ٨٩٣».

حصينة بما أحاط بها من الجبال وشمخ من ذوائبها التي سما بها فرع إلى النجم لا ينال.

* * *

الفصل الثاني: في مملكة طغرلو

وهي أول النطاق الأول وهذه المملكة صاحبها اسمه يلنج[1]، ويشقها نهر مندروس وهي إلى جانب جبل القسيس في غربه بشمال، وموقعها جنوبي ما بين مرمر إلى بركى ومدينة طغرلو كرسيه، وكأنها دمشق في تصوير خطه وبساتين حولها مختلطة لكنها أكثر من دمشق ماء وفاكهة، وأوسع غوطة لكن ليس لصاحبها مدينة سواها ولا عمل إلا إياها إلا أن لها عدة قرى وضياع ليست بكثيرة ولا كثيرة ازدراع. وأكثر ما فيها من الفاكهة الرمان وهو على عدة ألوان ويباع ألف بدرهم وكله بلا عجم له مكسر كأنه شرار نار أو بهرمان أدرج في ثوب نضار، أو مدامع عشاق في نهود أبكار، وهو في غاية الكثرة والرخص ولذاذة المأكل، ويعتصر ماؤه ويعمل منه دبس إذا ترك هو والعسل أبهم / ١٧١/ الفرق ما بينهما، وأشكل، ويعمل منه شراب أشد إسكاراً من الخمر وأقرب إليه مشابهة مما يعمل من التمر وهم أكثر معاطاةً له من الخمر على كثرته عندهم وما ذاك إلا لأمر. سألت بلبان عن السبب في هذا مع إجماع العقلاء على تفضيل الخمر على كل مسكر، فقال: إنه لا يعلم السبب، ولا يوجب الحب لها إلا مضاحكة الحبب. قال: وأهل هذه البلاد كأنما خلقوا لارتضاع كؤوس، ولإماطة نقب عن شموس فما لهم غير اغتباق كأس من معين، واعتناق مائس من قدود الخرد العين، فهم أبداً في بلهنية من الوطر، وأمنية مع الظفر ولأميرهم عليهم عدل لا يشكون معه إلا جور الساقي ولا يخافون معه إلاّ عقرب صدغ أعجزت الراقي، أو دم عاشق يطل، وعلى خدود الغانيات الباقي، قال: وأكثر ما تكون القرى والضياع بطغرلو أربعمائة قرية كلها في حواضرها القريبة، ولصاحبها نحو عشرة آلاف فارس وراجل ودرهمهم نصف درهم فضّة خالصة، ورطلهم نحو سبعة أرطال بالمصري، ومدهم نحو نصف وربع اردب وأسعارها مشابهة لكرمينان ومقاربة لها في اختلاف كل أوان.

---

(١) هو شجاع الدين تنج بك علي بك، حكم سنة ٧٣٥هـ «معجم لأنساب ٢٢٩».

الفصل الثالث: في مملكة توازا

وهي ثانية النطاق الأول، وهذه المملكة صاحبها علي أزبية، وهي تقع شرقي كرمينان محضا، وموقعها ما بين جنوبي يركى إلى فوكه وكرسيه توازا، ولصاحبها أربع قلاع ونحو ستمائة قرية، وعساكره نحو أربعة آلاف فارس وعشرة آلاف راجل ودرهمهم ورطلهم ومدهم مثل كرمينان وهو كثير الترامي إلى صاحب كرمينان ولأهل هذه البلاد حسن بديع ببياض وحمرة كأنه ضريبا لبن وخمرة مع لين بشرة وصهوبة شعر كأن عليهم ثوب صباح مسبول، أو على ضفائرهم برادة ذهب مسحول مع حلاوة تأكل النظر ويأكلها، وبهجة توقد جمرات الحسن وتشعلها.

* * *

/١٧٢/

الفصل الرابع: في مملكة عميدلي

وهي ثالثة النطاق الأول، وهذه المملكة صاحبها دندار[١] أخو يونس صاحب أنطاليا، وكرسيه مدينة برلو[٢] وهي أم إقليم عميدلي وموقعها من فوكه[٣] إلى قراصار[٤] ولصاحبها أيضاً إقليم يلواج وإقليم قراغاج وإقليم أكرى دور، وهذه بلاد مدنها قليلة وقراها كثيرة ومداها ممتد. يقال: إن له تسع مدن وخمس عشرة قلعة وعسكره خمسة عشر ألف فارس ومثلهم رجاله، وهو في كل وقت يتفقد فرسانه ورجاله ويتأهب للحرب ويوسع مجاله ويقاتل العدو ويهب للسيوف آجاله، وهذه هي آخر الممالك الثلاثة التي تلي كرميان، وهي نهاية ما أخذ إلى الشمال وبها تم النطاق الأول ونحن نعقبها بذكر الممالك التي تليها، وهي النطاق الثاني عليها

(١) الدندار بك من كبار سلاطين تلك البلاد، خلفه ابنه إسحاق بك «رحلة ابن بطوطة ١٩١» وهو ينسبون إلى حميد بك أو فلك الدين دندار الذي حكم الروم من قبل المغول سنة ٧٢٤هـ وقتله تيمور تاش «انظر: معجم الأنساب ٢٢٩».

(٢) ذكر ابن بطوطة أن مدينة برلو مدينة صغيرة على تل تحتها خندق، ولها قلعة بأعلى شاهق وأميرها علي بك بن سليمان باد شاه.. أما ابن الدندار فكان في أكريدور «٢١٠ و١٩١».

(٣) هي فوجة على ساحل البحر على مسيرة يوم من مغنيسة «رحلة ابن بطوطة ٢٠٣».

(٤) يقصد أكريدور: وهي مدينة عظيمة، يسافر المركب فيها يومين إلى آقشهر وسلطانها ابن الدندار «ابن بطوطة ١٩١».

في شرقيها وعدتها اثنتا عشرة مملكة وأولها هو ما نذكره الآن.

* * *

الفصل الخامس: في مملكة كصطمونية

وهذه هي مملكة سليمان باشا وهي الآن لولده إبراهيم باشا وكان في حياة أبيه صاحب سنوب[١] ثم جرت له مع أبيه أمور لا حاجة بنا إلى ذكرها إلى أن ملك واستمرت سنوب له مع ملك أبيه، وولّى سنوب من قبله وهذه هي شمالي بلاد طوغان جق وما جاورها وجنوبي بلاد سلطان بوي المصاقبين لممالك بيت جنكزخان وهي أولى الممالك الإثنتي عشرة المشار إليها من المشرق، وهذه المملكة على ضفة بحر نيطش وقبالتها جزيرة زك، ومن ركب البحر من سنوب خرج إلى سوداق[٢]، لأنها أقرب مدن ذلك البر إليها، ويقع طرف بلاد طرابزون الشرقي على أول حدّ هذه البلاد ولأجل هذا تقصد هذه الأرض لجواز البحر إلى برّ القفجاق[٣] وبلاد الخزر والروس والبلغار وكرسي هذه المملكة مدينة كصطمونية[٤] ولصاحبها نحو أربعين مدينة وقلاع مثلها أو أزيد وعسكره نحو خمسة وعشرين ألف فارس وخيلهم هي النهاية في جنسها /١٧٣/ والغاية في نفسها، وقد تقدم القول في ذلك وبها البغال والبزاة[٥] والشواهين[٦] في غاية من الجودة، وهي منفردة بمحاسن هذه الأنواع، ومنها تشترى وتبتاع وحسنها لا مخالفة فيه ولا نزاع. وأما الجمال فلا توجد عندهم البتة قد عدم العربي منها حظه، والبختي[٧] بخته؛ لأنها بلاد جبال وعرة يودّ كل متعلق بها لو تعلق بشعرة، وملوك هذه المملكة لهم مع ملوكنا ملوك مصر انتظام وتشرف بمواهبهم الجمة وأياديهم العظام وتتابعت رسلهم إلى سلطاننا مدد الفجاج، ونظرت لديه إلى سماء العليا من وراء زجاج، واستنصرت بها على الأعداء وهي قاطعة البحر الأجاج

---

(١) جبينوب: مدينة يحيط بها البحر من ثلاث جهات «رحلة ابن بطوطة٢١٢».

(٢) سوداق: هي سردق مدينة على ساحل البحر من أعظم المراس وأحسنها، وبخارجها البساتين والمياه «رحلة ابن بطوطة ٢٢٩».

(٣) القبجاق: القفجق طائفة على دين النصرانية في أيام ابن بطوطة «انظر: رحلته٢١٤».

(٤) كصطمونية: هي قصطمونية من أعظم المدن وأحسنها «رحلة ابن بطوطة ٢١١».

(٥) البزاة: جمع مفرده باز نوع من الصقور.

(٦) الشواهين: جمع مفرده شاهين، من الصقور.

(٧) البختي: نوع من الإبل الخراسانية جمعها بخت وبخاتي وبخات «المعجم الوسيط ١/ ٤٢».

وعادت عليهم الأجوبة الشريفـة بقطع الحجاج أو الحجاج وهم حتى الآن في الدولة القـاهرة الناصرية، وفي حزبها وفي حسب ذبها، وأما رعايا هذه البلاد فهم أهل طاعة لأمرائهم، وإقبال على مصالح دولتهم ودرهمهم نصف درهم فضة خالصة، ورطلهم نحو ستة عشر رطلاً بالمصري، ومدهم نحو إردب مصري، وأسعارهم نحو كرميان.

* * *

الفصل السادس: في مملكة قاويا

وهي الثانية من النطاق الثاني وصاحبها مراد الدين حمزة ومملكته تجاور سمسون من غربها، وبلاد سليمان باشا المقدم ذكره جنوبها، وجبل القسيس غربيها، وبلاد طريق السفار إلى سمسون. وسمسون هي شرقي هذه البلاد خارج الجبل المار على مشاريق بلاد الأتراك بالروم على ضفة بحر نيطش. ومن ركب البحر منها إلى برّ القفجاق كان خروجه على الكفا[1] أقرب عليه، وتبقى زك جنوبيه، وعلى بلاد هذا مراد الدين حمزة أكثر طرق المترددين من التجار والسفار المتوجهين من مصر والشام إلى تلك البلاد وكرسي هذه المملكة مدينة قاويا، ولصاحبها عشر مدن ومثلها قلاع وعسكره نحو سبعة آلاف فارس، فأما الرجالة فكثير عددهم متى اراد استجاش بهم، وجمع /١٧٤/ أمماً وشرع أسنةً وهمما. وليست للأعداء معه طالعة ولا لهم في رداء ملكه منازعة. لا تتفرزن البياذق مع رخاخة، ولا تتجاسر العصافير أن تسقط على فخاخه، وأهل هذه البلاد قوم أمنة لا يستحيل بودهم يوم ولا سنة. ودرهمهم ورطلهم ومدهم وأسعارهم مثل كصطمونية بل هي لكثرة الأجلاب لا تكاد تكون مغلية.

* * *

الفصل السابع: في مملكة بُرْشا

وهي الثالثة من النطاق الثاني وصاحبها أرخان بن طمان، وكرسيه مدينة برسا[2]

---

(١) الكفا: مدينة عظيمة على ضفة البحر «رحلة ابن بطوطة ٢١٤».

(٢) بارسا: هي برصا، مدينة كبيرة عظيمة حسنة الأسواق فسيحة الشوارع تحف بها البساتين من جميع جهاتها، سلطانها اختيار الدين أرخان خان وهو ابن السلطان عثمان جوق وهو من أكبر ملوك التركمان وأكثُرهم مالاً وبلاداً وعسكراً. «رحلة ابن بطوطة ٢٠٥».

وموقعها شرقي بلاد مراد الدين حمزة، وغربي بعض سمسون، وبعض سنوب وجبل القسيس غربيها، ولصاحبها خمسون مدينة وعدد قلاعه أكثر من ذلك، وعساكره نحو أربعين ألف فارس، وأما الرجالة فلا تكاد تعدّ خصوصاً إذا استجاش وحشد وحاش لكن يقال: إنه قليل غناهم تهول صورتهم لا معناهم. وهو كثير المسالمة لمن جاوره والمناصرة لمن ناصره، ومع هذا له حروب سجال ودؤوب في أرغام أنوف رجال وخيول تقتنص عليها الأرواح فرسان عجال. وإنما قلة غناء عسكره لعدم استقامة الرعية ومشاقة بعض المجاورين له. يقال: إن رعاياه أخباث تنطوي بواطنهم على الغل، وعمائمهم على المكر ثلاث. وهذه البلاد درهمها وزن الدرهم الكاملي وهو فضة خالصة، ورطلها ومدها مثل كرمينان وسعرها أرخص في غالب الأوان. وفي هذه البلاد ثلاث مائة حمّة يطلع منها الماء السخين الناضج، ويقصدها المرضي بالبلغم البارد والفالج ليغتسل فيها ويستشفى بها وغالبهم يبرأ بإذن الله عز وجل ويجد الشفاء والصحة عليها.

قلت: وهذه الحمات كثيرة في البلاد وأقطار الأرض، ولكني لا أعرف اجتماع هذا العدد الكثير في مكان واحد سوى هذا وأظنه لأن تكون هذه الأرض كلها كبريتية سوّاخة. فلهذا كثرت فيها هذه الحمات. /١٧٥/ هذا ما اتصل بنا علمه (وفوق كل ذي علم عليم) والله أعلم بغيبه.

* * *

الفصل الثامن: في مملكة أكيرا

وهي رابعة النطاق الثاني وصاحبها دمرخان بن قراشي وبلاده تجاور بلاد أرخان آخذة إلى الشمال وجبل القسيس جنوبها على تغريب وسنوب شمالها وهي طريق من طرق سنوب، وهذه المملكة مدنها وقلاعها وعساكرها أكثر من بلاد أرخان وأهلها أطول باعاً في المكنة والمكان والإمكان، وصاحبها ذو حرب ويد وأيد وقوة لا تدفع بكيد، وله في البحر مع الروم حروب تطير بها السفائن، وتهتز لها المدائن. كم طاروا من الغراب على جناح، وسخّر لهم في سبيل الله ما سخر لسليمان من الرياح، وهذه البلاد يخرج منها ما لا يحصى من الحرير واللاذن، ويحمل إلى بلاد النصارى منه وحريرها يوافق الديباج الرومي والقماش القسطنطيني، ومنه يعمل غالبه، ودرهمها مثل الذي قبله، ورطلها ثمانية أرطال بالمصري ومدّها نحو إردب ونصف، وأسعارها

رخيصة جداً على حال واحد لا تكاد تتجاوزه ولا تتعدى.

* * *

الفصل التاسع: في مملكة مرمرا

وهي خامسة النطاق الثاني وصاحبها يحشى بن قراشي أخو دمر خان[1] المقدم ذكره. وبلاده جوار بلاد أخيه غرباً بشمال وطرف بلاده جنوباً على شمالي طغرلو ولصاحبها نحو خمسة عشر مدينة ومثلها قلاع وكلها على جبال شاهقة على البحر المالح وعسكره نحو عشرين ألف فارس ولا رجالة له وهو مثاغر للروم وله معهم ثارات يقعد فيها ويقوم، وعسكره نفاع له قوة ودفاع وقد ذللت لهم المراكب فامتطوا في البحر متونها وأطاروا غربانها وأجروا نونها. ولهم أسطول مجهز للركوب على ظهور السفائن والتصريف بها كالصوافن طالما صبّح بلاد الروم منها غراب ناعق وسبّح راكبها وتعجب لقدرة الخالق، وزحفت لها /١٧٦/ مدن، ورجفت لها أعداء إلاّ أنه من الجبن وأهل هذه المملكة غزاة لا تستكين سراة حصانهم ولا تلين سراه. لا ينزل لهم لبد عن جواد ولا قلع عن سفين. لا يحجبهم عن بلد سوره ولا عن ساكن برّ خباؤه ولا يغلبهم سرب يقتنص بهم من الروم جآذره ومن الخزر ظباؤه. وهذه البلاد درهمها نصف درهم فضة خالصة، ورطلها أربعة أرطال بالمصري، ومدها اردب واحد، وسعرها رخيص، والرقيق بها لكثرة السبي كثير، ولا تخلو لأجل هذا من تجار وجلابة، ومن دخل في هذه البابة.

* * *

الفصل العاشر: في مملكة نيف

وهي سابعة النطاق الثاني وصاحبها علي باشا أخو صاروخان وهو جاره في المكان وكرسيّه مدينة نيف وبلاده شمالي طغرلو وجنوبي بيدرول. وهذه بيدرول شماليها من خارج الجبل الشرقي المحيط ببلاد الأتراك خارجة في البحر ولصاحبها ثماني مدن ونحو ثلاثين قلعة، وعسكره ثمانية آلاف فارس وخلق كثير من الرجالة أكثرهم رماة نبالة، ومملكته كلها على قنن الجبال لا يلحقها الغمام بريشه ولا يلحقها نسر السماء لتعشيشه تهوى وفود الرياح دون أوديتها وتستقى السحب فائض أبنيتها،

---

(١) دمور خان حاكم يلي كسرى «رحلة ابن بطوطة ٢٠٤».

ولا يمر بها البرق إلا وهو مجتاز، ولا البدر إلا وهو على أوفاز تميل قبل رؤيتها العمائم وتتوسوس وعليها من النجوم تمائم، ودرهمها ورطلها ومدها وسعرها من نسبة مغنيسيا.

* * *

الفصل الحادي عشر: في مملكة مغنيسيا

وصاحبها صاروخان[١] وكرسيه مغنيسيا[٢]، وهذه البلاد تجاور مملكة يحسى غرباً بشمال، وجنوبيها طغرلو، وقبالتها في البحر جزيرة كنول. ولصاحب هذه المملكة نحو خمسة عشر مدينة وعشرين قلعة، وعسكره يزيد على عشرة آلاف فارس وهم أهل حرب وطعن يضيق به فم الدرب، ومنهم غزاة في البحر كأنهم الملوك على الأسرة /١٧٧/ لا تهتبل لهم غرة. وحالهم في هذا مثل حال جارهم الأول، ولكل منهما جهاد عليه يعوّل، ودرهمها ورطلها ومدها وسعرها كذلك ومن نسبة ما قبلهم أو ما يقارب ذلك.

* * *

الفصل الثاني عشر: في مملكة بركي

وهي ثامنة النطاق الثاني وصاحبها ابن آيدين[٣] وكرسيه مدينة بركي[٤]، وموقعها شمال طغرلو وتوازا وجنوبي ندرقل. ولصاحبها نحو ستين مدينة[٥] وثلاثمائة قلعة أو أزيد، وعسكره سبعون ألف فارس أشلاء حرب وكفاح وعرضة سيوف ورماح، ولهم مع الروم والفرنج وطوائف بني الأصفر حروب عظيمة وأيام لها غرر وحجول معلومة، ضج البر والبحر من وقائعها ومج السجايا ما تصعّد إليه من نقائعها. لا تهدأ لهم مضاجع ولا تراهم إلا بين متأهب لغزوة وآخر راجع. سدوا فروج البر خيلاً، وأوقروا صدور البحر سفناً، وجروا الكتائب ترسي على هذا جبالاً وتسري على ذاك مدناً، وكل ملوك الأتراك في غزوات الكفار عليهم عيال، وبسيوفهم المهندة الذكور

---

(١) صاروخان: في سلاجقة أوج، أميراً حكم من سنة ٧٠٠هـ إلى ٧٤٦هـ «معجم الأنساب ٢٢٦».

(٢) مغنيسيا: مدينة كبيرة حسنة في سفح الجبل «رحلة ابن بطوطة ٢٠٣».

(٣) محمد بن آيدين: من خيار السلاطين وكرمائهم وفضلائهم «رحلة ابن بطوطة ١٩٩».

(٤) بركي، مقر حكمة بها، محيي الدين، والقاضي عز الدين فرشتي «رحلة ابن بطوطة ١٩٩».

(٥) منها: أريا، وصرت، وكوشك، وقراجة فيونلو، وآقجشهر، وبلين بولي «معجم الأنساب ٢٢٧».

تلقح الحرب الحيال لا ترضى إلا بصيد المهج، ولا يقضى يوم إلا بقتيل لها لا إثم فيه ولا حرج، كأنما كونوا من جناح غراب أو صهوة، أو خلقوا لمطليّة بقار أو أدهم. لا تفرغ لهم شمال ولا يمين. هذه بعنان جواد، وهذه بقلع سفين. ولمهابتهم في قلوب ملوك بني الأصفر ما يختلج به ضمائرهم ويختلف إلا في الإجماع عليه سرائرهم. وإذا قيل: إنه قد تحرك منهم متحرك ظنّت أنه يريد نفوسها وشكت في حياتها حتى تلمس رؤوسها. بيديها وملك هذه البلاد أثابه الله تعالىٰ، وجنوده أجمعون على هذه العزيمة لا يفلّ حدها ولا حديدها، ولا يكف والدها ولا وليدها، وهم سبب كثرة السبي، ومن يجلب إلى الآفاق من أولاد الروم ونسائهم، فأمدهم الله بالظفر، وأعلى كلمتهم على من كفر. وهذه البلاد درهمها ومدها نحو مملكة صاروخان، فأما رطلها فستة عشر /١٧٨/ رطلاً بالمصري وأسعارها رخيّة وثمارها مما يحمل البحر وتنبت الأرض سخية.

الفصل الثالث عشر: في مملكة فوكه

وهي تاسعة النطاق الثاني وصاحبها أورخان بن منتشا[١]، وكرسيه مدينة فوكه[٢] وموقعها شمالي توازا، وفي شمالي مشاريقها جزيرة دفنوسة وقبالة هذه البلاد جزيرة المصطكي، تقع وراء بلاده سواء بسواء، ولهذا صاحب فوكه نحو خمسين مدينة[٣] ومائتي قلعة وحصن، وعساكره مائة ألف أو يزيدون وله سيف لا يألف غمده ولا يكف حده، يقاتل من عاداه، براً وبحراً، ويخاتل من ناواه مسلماً كان أو كافراً، يركب السفن والخيل، ويخوض النهار والليل لا يطمئنّ به وساد ولا يستكن له مفرش جهاد، ولا يزال له ولأعدائه وقائع تشيب مفرق الوليد، وتذيب قلب الحديد، ويبيت الدهر منها على وعد أو وعيد يبث سراياه في كل صوب، ويحث مطاياه في البر والبحر في كل توجه وأوب. فما رأت الكفار خيله إلا طفقت تتنهد ولا أقبلت طلائعه على سفائنها إلا ورفعت سبابات صواديها تتشهد. وهذه العساكر ميمونة النقيبة سعيدة الحركات قل أن توجهت إلى جهة إلا وظفرت بمرادها وبلغت قصدها من أعدائها. وهذا هو المعروف منهم والمستفاض حديثه عنهم لا

---

(١) في رحلة ابن بطوطة ١٩٤ انه حاكم مبلاس وليس فوكه.

(٢) فوجة: مدينة للكفار على ساحل البحر على مسيرة يوم من مغنيسة، أهلها يبعثون هدية في كل سنة إلى سلطان مغنيسة. «رحلة ابن بطوطة ٢٠٦».

(٣) منها: معلا بالاط، ومبلاس، ومكرى، ومرموس. «معجم الأنساب ٢٣٠».

يخالف في هذا ممن يعرفهم مخالف، ولا يخالط في هذا شك عندهم في حديث ولا سالف، ولا ثَمَّ من يداريه صاحب كرمينان من أمراء الأتراك سواه ويداهنه ويقنع بأيسر موالاة منه، ولا يقدم عليه إلا صاحب كرمينان، فأما كل من سواه فدونه قدراً ومكانة وله عليهم المزية والمزيد. ودرهم هذه المملكة ورطلها ومدها وأسعارها مثل كرمينان.

* * *

الفصل الرابع عشر: في مملكة أنطاليا

وهي عاشرة النطاق الثاني وصاحبها خضر بن يونس[١] وكرسيه أنطاليا[٢] وهي شمالي مملكة عميدلي بلاد ابن دندار، وهي على ضفة البحر والسفر إليها ومنها / ١٧٩/ والأخبار عليها وعنها، ولصاحبها اثنتا عشرة مدينة وخمس وعشرون قلعة، وعسكره ثمانية آلاف فارس، وليس بأهل حرب طائل ولا منهم هائب ولا هائل، ودرهمها نصف درهم فضة خالصة، ورطلها أربعة أرطال بالمصري، ومدها اردب واحد.

* * *

الفصل الخامس عشر: في مملكة قراصار[٣]

وهي حادية عشر النطاق الثاني، وصاحبها زكرياء وهي مملكة ضيقة إلى غاية، وهي شمالي عميدلي بغرب، وكرسي صاحبها قراصار، وله ثلاث مدن واثنتا عشرة قلعة على ضيق الرقعة وقرب مدى البقعة، وعسكره ألف وخمسمائة فارس وكان أصل هذا زكرياء مملوك يونس صاحب أنطاليا، ثم لما مات تقوى على ولده وغالبه فغلبه وأخذ الملك بيده، ودرهمهم ورطلهم ومدهم مثل أنطاليا، وهذه البلاد من ملك مقتطعة، ومما كان في يد مالكها مرتجعة.

* * *

---

(١) خضر بك بن يوسف بك بن يونس «رحلة ابن بطوطة ١٨٩».

(٢) أنطاليا: من أحسن المدن، متناهية في اتساع المساحة والفخامة أجمل ما يرى من البلاد، وأكثره عمارة وأحسنه ترتيباً. «رحلة ابن بطوطة ١٨٩».

(٣) وهي عند ابن بطوطة اسمها «قل حصار» ووصفها بأنها مدينة صغيرة بها المياه من كل جانب لا طريق لها إلاّ طريق كالجسر مهيأ بين العقب والمياه. «الرحلة ١٩٢».

الفصل السادس عشر: في مملكة أرمناك

وهي ثانية عشر النطاق الثاني، وصاحبها ابن قرمان، وكرسي مملكته أرمناك، وله نحو اربع عشرة مدينة ومائة وخمسين قلعة، وعسكره يناهز خمسة وعشرين ألف فارس ومثليهم رجّالة، ومن مشاهير مدنه مدينة ارنده[١] وهي مدينة جليلة، ومدينة العلائية وهي المسماة بالعلايا[٢] عند العوام. وموقع هذه البلاد شرقي بلاد الأرمن بشمال وبلاد ابن شرف جنوبها، وأقرب مدن الأرمن إليها طرسوس وأذنة. وهذه البلاد على ضفة البحر الملح وقد تقدم ذكر أهل هذه المملكة وما هم عليه موالاتهم لسلطاتنا صاحب مصر خلد الله ملكه، وميلهم إليه وما هم عليه من الجهاد في الأرمن، ومن ساكنهم من الكفار، وتجريد سيوف غزوهم آناء الليل والنهار، وبهذا تم ذكر ممالك الأتراك وما هي عليه على ما بلغنا، وتبين لنا، وقد أوضحنا طرق الروايتين على ما فيهما من الخلاف / ١٨٠/ وعلى أنني اجتهدت والعهدة على الناقل.

ونحن تذكر تتمة ما كنا أشرنا إليه من أحوال الروم عند غلبة التتار ودخول طوائفها هاتيك الديار، فنقول:

إنه لما استقلت قدم التتار فيها واستنهلت غمائم كتائبهم على جهاتها، بقي ملوك آل سلجوق معهم بالاسم لا غير لا لهم حكم ولا تصرف، بل لهم ما يقيم بهم وببيوتهم وشعار ملكهم الظاهر ونفقاتهم اللازمة والأمر كله لنواب التتار وعنهم الإيراد والإصدار، وباسم الملوك الجتكزخانية يخطب، وتضرب سكة الدرهم والدينار، فلما ضعفت الدولة السلجوقية وآذنت أيامها بذهاب تلك البقية وكانت المغل لا تقدر على صعود تلك الجبال ولا تعرف الحصار ومطاولة المعاقل والقلاع، فغلبت طوائف الأتراك هنالك على كثير من تلك الممالك ولولا قوة شوكة التتار وسطواتها التي عمت الأقطار لاستولت على السهول مع الجبال، وأخذت بجنياتها من كل مكان مع أنها ملكت معظم البلاد إلا بقية حفظت المغل مطالع أفقها، وأمسكت آخر رمقها، ودارت إذ ذاك طوائف الأتراك ملوك المغل على ما غلبت عليه، وبقي كل منهم يدخل في طاعتهم على أنه يسلم إليه ولا يخرج شيء من يديه

(١) مدينة اللارنده: مدينة حسنة كثيرة المياه والبساتين سلطانها بدر الدين بن قرجان. «رحلة ابن بطوطة ١٩٦، معجم الأنساب ٢٣٦».

(٢) العلايا: أول بلاد الروم، من أحسن المدن وأجمل الناس، حاكمها يوسف بن قرمان. «رحلة ابن بطوطة ٨٨».

واستمرت أحوالهم معهم على الطاعة والعصيان والتذكار والنسيان حتى تمادت المدد، وخر رواق الدولة المغولية أو وهى منه بعض العمد فحينئذٍ ثبتت أقدامهم ونبتت في مغارس الاستمرار أيامهم. ومنذ غلبوا على ما بأيديهم من الروم لصاحب كرمينان عليهم مزيد الفضل كما ذكرنا وكل واحد من هؤلاء الأتراك مستقل بمكانه مشتغل بشأنه. وتبسطوا في جهاد من جاورهم من الكفار وصار هذا ديدنهم وبقي بينهم من التنافس ما يكون بين النظراء ولهذا كاتبوا عظماء الملوك ليتقووا بمظاهرتهم ويطيروا بريح / ١٨١/ سعادتهم وأكثرهم كاتبوا سلاطيننا ملوك مصر رحم الله من مضى منهم وحفظ من بقي وأدام حياة سلطاننا مالك ملوك الأرض صاحب الدولة الملكية الناصرية، وخلد سلطانه خلود الليالي والأيام، ولاذوا بهذه الأبواب العزيزة وتطبعوا بالميل إلى هذه الدولة القاهرة حتى صارت الموالاة في طباعهم كالغريزة، فاتخذوا ملوك مصر نصرهم الله لهم ظهراً وعدوهم للحوادث ذخراً حتى إن منهم من رغب في تقليد يكتب له بالنيابة فيما هو فيه، فكتب إليه وجهز إليه بالصناجق والألوية والأعلام والتشاريف التمام والسيف المحلى والحصان المركوب بالسرج الذهب والعدة الكاملة والجنائب الطائلة وما منهم إلا من تدخل وترامى واقترح مراماً، والإنعامات تغمرهم والصدقات الشاملة تعمهم وهم إلى يومنا هذا أهل ودّ وصفاء وحسن عهد ووفاء. ولكثرة ما خلطهم به الامتزاج وصل منهم من اتخذ مصر والشام داراً وأخذ بهما الأمرة والإقطاع وجرى فيهما تحت الأمر المطاع ورسلهم حتى الآن لا تنقطع بصدق نيّة وإخلاص طوية، والمكاتبات واردة وصادرة والهدايا مقيمة وسائرة، ومع هذا كله كل واحد منهم غني بما آتاه الله من فضله وأمراء الأتراك على ما هم عليه من الامتناع والتحصن بشوامخ الجبال والقلاع، وبعدهم عن المغل، وقوتهم بكثرة العديد والعدد والسلاح، ووفور ذات اليد تدارى ملوك بيت جنكزخان، وتخدم ملوكهم ومن يصل منهم ويتردد من جهتهم وتهاديهم وتعتضد بالمقربين إليهم لكل واحد منهم في الأردو من هو من ورائه ومتكفل بالمدافعة عنه، ويخطب في بلادهم للقائم من بيت هولاكو، وتضرب السكة بأسمائهم ولنائب الروم عليهم الطاف وتحف يتاقونه بها ويتوقون من خلفه من قانات المغل بالأخذ بخاطر نائبهم / ١٨٢/ هذا؛ لأنه جارهم المجاور لهم وهم رهن ما يكتب به إلى الأردو في حقهم. ولما كان تمرتاش بن جوبان قد استقل بهذه النيابة، ورست فيها أعلامه، وفتح الفتوحات وأباد

المخالفين له بها خافت أمراء الأتراك بأسه، وكاتبت أباه جوبان وتسترت بظله، وتترست من مواقع سيوف تمرتاش بجاهه وقضت تلك المدة معه بهذا وأشباهه وهو مع هذا كله، يرميهم بالبوائق ويترصد لهم غفلات الوقت وقال في سلطنة بيت جنكزخان ما قاله بهرام جوبين[١] في الأكاسرة. قال: وما الله جعل حتماً على العباد أن تبقى دولة آل ساسان[٢] إلى آخر الزمان، وأظهر ما كان يسره من هذا الأمر وباح به وهمّ وما فعل فبلغ ذلك ابا سعيد بهادر خان سلطان ذلك الوقت فعتب على أبيه جوبان، فتبرأ جوبان من فعل ولده تمرتاش، ونهض إليه في وقت شتاء لا طاقة لأحد بسلوكه وقطع إلى الروم كل جبل ثلج يزل عنه النظر، وأراد تمرتاش أن يضرب معه مصافاً فراسله أبوه ولاطفه حتى كفّ وأذعن، وأخذه أبوه وأحضره إلى الأردو في هيأة المأسور المقهور وجوبان يظهر هذا ويسرّ خلافه، ويبطن مخادعة السلطان أبي سعيد في أمره، فلما مثل تمرتاش بين يديه فك أساره وخلع عليه وتركه بالأردو مدة، ثم أعاده إلى الروم على ما كان عليه وزاد في تخويله والتنويه بقدره، ثم لما آن لدولة جوبان وبنيه الزوال وكان منهم ما كان قويت أمراء الأتراك بالروم وانتعشت قواهم، ثم هم إلى الآن على هذا الحال على كثرة اضطراب أمر المغل وتفرق أهوائهم في هذه المدد كلها ومع هذا ما استطاع أحد من أمراء الأتراك أن يلتفت إلى شيء مما بأيديهم من الروم /١٨٣/ لا ولا ارتجاع شيء مما كان تمرتاش بن جوبان قد أبان ملوكه وافتتحه واستضافه إلى ما بيده.

وهذه جملة ما حمله مقدار هذا التأليف من أخبار الروم، وما تضمنه مما دخل فيه بدلالة اللزوم. وبالله نسترشد ونستهدي، وعليه نتوكل وإليه ننيب.

وأما ما هو بأيدي النصارى:

فقد قال بلبان الجنوي: إن ممالك الروم كلها تترامى إلى رومية موضع الباب، ثم مملكة القسطنطينية، ثم طرابزون[٣].

فأما مملكة طرابزون فهي من ممالك عباد الصليب مملكة جليلة القدر على

---

(١) بهرام جوبين: قائد كسرى برويز، ثار على كسرى، وفرّ برويز إلى الروم واستعان بالروم لا ستعادة ملكه، وتمكن كسرى من قتل بهرام جوبين. «روضة الصفا ١٢٢هـ».

(٢) آل ساسان: آخر الامبراطوريات الفارسية قبل الاسلام، والتي قضى عليها المسلمون عند فتحهم لبلاد فارس.

(٣) طرابزون: مملكة واقعة بين بلاد الروس وبلاد اليونان «الكامل لابن الأثير ١٢/ ١٦٠».

ساحل البحر على خرجة مانيطش وهي مملكة أخذت غرباً بشرق على طرف مملكة الأتراك في البر المتصل بنا وهي في جنوبي الروم دق طرفاها واتسع وسطها كأنما دار على جانبيها البيكار[١] من خارج المركز، فجاءت على شكل الإهليلجة، وعلى هذا التصوير صوّرها بلبان الجنوي، وقال: وصاحبها ملك رومي عريق في الملك من أولاد قسطنطين باني مدينة القسطنطينية وهو صاحب تخت وتاج ووظائف ملكية وحاشية سلطانية وقدر رفيع عند الباب وهو وجميع أهله الغابر منهم، والباقي أهل جمال فائق وحسن فاتن إلا أن هذا الملك القائم بها الآن وأباه لكل منهما على عجم الصلب سلعة رقيقة ممتدة بارزة تكون طول الإبهام وعرضه كأنها ذنب خارج.

قال: وفي هذه المملكة قوم فيهم مثل هذا ولما قال لي هذا. توقفت في نقله عنه وشككت فيه حتى حدثني بمثل هذا بهادر الإيواني، وحكى مثل هذا آخر من أهل السير وآخر، ثم آخر فحينئذٍ نقلته في كتابي هذا والعهدة عليهم والقدرة صالحة والله سبحانه وتعالىٰ فاعل مختار ويخلق ما لا تعلمون فسبحان من ﴿بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[٢] قال وأهل طرابزون أهل نجدة وبأس وعليهم طريق مسلوك لمن أمّ بلاد القرم وصحراء القفجاق وطوائف سكان الشمال.

قال: ومملكة طرابزون أوسع من / ١٨٤/ مملكة الكرج وأجل مقداراً عند ملوك النصرانية وإنما أولئك أشد أيد وقوة. قال: وملك طرابزون يسمى التكفور كما يسمى ملك الأرمن وهو أعلى نسباً من ملك الروم القائم الآن في المملكة بها وله عليه فخر لا يعلى على منصبه ولا يعلى رداؤه عن منكبه، قالوا: وجنده ليسوا بذي عدد غالب ولا مدد مغالب وإنما هم أقران فوارس وأعيان ليوث لا يخلى لها فرائس. قال: وأحوالها كلها تشابه ما يليها من ممالك الأتراك.

قال بلبان الجنوي: وأما مملكة القسطنطينية، وهي الآن تسمى اصطنبول[٣] وقديماً بيزانطانية، فإنها كرسي مملكة الروم ولملوكها التقدم على جميع ملوك عباد الصليب، وفي أهلها الملك القديم وكانت لهم اليد العليا على بني المعمودية وجميع

---

(١) البيكار، ويعني به البركار، وهو بالعربية الفرجار، آلة هندسية. «فرهنگ رازي ٩٦».

(٢) سورة يس: الآية ٨٣.

(٣) اصطنبول أو اسطنبول أو إسلامبول: وهي قسم من مدينة القسطنطنية بالعدوة الشرقية من النهر، وفيها سكن السلطان وأرباب دولته وسائر الناس، وهي بسفح جبل داخل في البحر نحو تسعة أميال. «رحلة ابن بطوطة ٢٣٣».

الطوائف العيسوية، وهي مملكة قيصر[١]، وبها كان تخت الإسكندر وتداولتها دول الروم من أولاد قسطنطين وخرجت عليهم خوارج، ثم هبّت للفرنج بها ريح ملك واستعلت لهم بها ذؤابة دولة واشتعلت لهم بها نار غلبة، ثم عادت إلى الروم واستمرت إلى اليوم. قال: والفرنج تزرى بالروم لخروج ملك الشام عنهم وتعيرهم بغلبة العرب عليهم يعني في مبدأ الإسلام وتعييبهم بهذا وتوسعهم الملام. قال: ومع هذا فلا يسع ملوك الفرنج إلا إجلال هذا الملك الرومي وتوفية حقه من التعظيم. وعساكره مائتا ألف فارس مديونة ما فيهم إلا أصحاب إقطاع أو نقد وأرزاقهم لكلّ واحد منهم في السنة من مائتي دينار إلى ألف وخمسمائة دينار وفيهم من يبلغ ألفي دينار. والدينار اثنا عشر درهماً وهو درهم ينقص عن البندقي بيسير، والدينار ما هو دينار مسمى بل حقيقة دينار مسكوك من ذهب مغشوش فلهذا نقص ثمنه. قال: واسم هذا الدينار بريرو. قال: وأما الأمرة عند الروم فإنها محفوظة في بيوت قديمة يتقدم في إمرة كل بيت واحد منهم يتوارثها كابر عن كابر، /١٨٥/ ويورثها أول لآخر.

قال: ولملك القسطنطينية[٢] قدرة ليست لأحد من الملوك النصرانية سواه. قال: لأنه يركب في كل يوم أحد إلى الكنيسة العظمى بها ومعه البطريرك ويقف على كل باب من أبواب الكنيسة على كثرة أبوابها[٣] فرس للملك وبغلة للبطريك وشعار سلطنة كامل بجميع ما يحتاج إليه الملك بما لابد للموكب الملوكي منه فمن أيّ باب خرج من أبواب الكنيسة هو والبطريرك ركبا، وسار الملك في أبهة الملك التمام وشعار السلطنة الكامل بما كان معداً له على الباب الذي خرج منه دون ما كان معداً على بقية الأبواب، وعلى كل باب منها نظير ما كان على الباب الذي خرج منه الملك وسار بشعار الملك الكامل.

قال: وللملك ميزة يتميز بها وهو أنه لا يلبس أحد في مملكته جميعها خفّاً أحمر غيره. وزي الروم في لباسهم من نوع زي الأتراك والمغل من الأقبية التتارية والمخصرة خلا أن الكباس على رؤوسهم متسع مرحرح كأنه الطبق، ويشدون في أوساطهم المناطق والسيوف ومناطقهم ثقال وسيوفهم كالسيوف المغربية أخف من

---

(١) قيصر: لقب ملوك الرومان، يعادل القاآن عند المغول، وتُبّع عند اليمن، وكسرى عند الفرس، وراجا عند الهنود.

(٢) تكفور ابن السلطان جرجيس «رحلة ابن بطوطة ٢٣٢».

(٣) ثلاثة عشر باباً. «رحلة ابن بطوطة ٢٣٤».

العربيات وعلى أشكالها ولباسهم الجوخ والصوف والحرير والأطلس والديباج، وسائر أنواع الحرير. قال: وللملك داران معروفتان بدار المملكة الواحدة قديمة من بناء الإسكندر، خارجة في كبد البحر ذات محارات طوال ودهاليز بعيدة نائية، وفي جانبيها تماثيل نحاس على صورة الإنسان، وسائر أنواع الحيوان وفيها صورة فرسان على خيل وحيوانات وأشكال أخر وكلها أكبر من الحيوانات المعروفة بما يزيد زيادة ظاهرة على الأشكال الطبيعية وهي في غاية الصنعة والأحكام بالنقوش العجيبة والتخاطيط الغريبة، ولا يعرف هل عملت لظاهر الزينة أو لباطن من الحكمة وهي دار عظيمة هائلة البناء بعقود منظّمة وأفنية رفيعة واسعة رحبة مفروشة بالرخام الأبيض والمجزّع والملوّن وضروب من المسنّ الأخضر /١٨٦/. قال: والملوك لم يسكنوها منذ أعصر يتشأمون بها، ويقولون إنها مسكونة بمردة الجن وفساق الشياطين، وإن فيهم من يتراءى على مثال أصلة لا تطاق. والدار الأخرى هي التي يسكنها الآن الملوك وتسكن إليها وهي على جلالة مكانها وفخامة قدرها لا تقارب دار الإسكندر ولا تدانيها في الإمكان والتشييد ورونق التأنيق والتنميق.

قال: ولقد كانت ملوك القسطنطينية تراقب ملوك القفجاق وتؤدي إليهم القطيعة حتى تزوج هذا السلطان أزبك خان منهم فأمنهم ووضع عنهم أثقال تلك القطيعة وأصر تلك الأتاوة، وناموا الآن في مهاد الأمن، ورفعت عنهم غمم التكليف.

وقال لي غيره وقد سألته عن عدد جيوش الروم، فقال: هم عدد بلا نفع. قلت: وهذا هو المشهور عندهم في كل زمان ومكان، والمأثور عنهم أنهم وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشيء شيء وإن هان. أقوى اعتدادهم للخمر والخمير وأوفى خبنهم الديباج والحرير، ما فيهم ضارب إلا بجنك[1] أو عود، ولا طاعن إلا بين أعكان ونهود. ولا يشربون دماً إلا من فم إبريق جريح، ولا يرون قتيلاً إلا من شخص زق طريح، ولا لهم وقائع إلا في ملبقات الصحاف ولا مواقع إلا بين فراش ولحاف. لا يعرفون البيض إلا كلّ بيض الدمى، ولا السمر إلا كلّ سمراء اللمى، ولا العجاج إلا من دخان عنبر، ولا أشر السيوف إلا في ثغر شنيب كأنه عقد جوهرَ ولا مقام إلا في محبس راحَ ولا اهتمام إلا بمجلس أفراح، ولا التماس إلا لغبوق أو اصطباح[2]،

---

(١) جنگ: آلة موسيقية، وهي جنگ أو صنج. «فرهنگ رازي ٥٦٤».

(٢) الغبوق: خمر المساء، والإصطباح: خمر الصباح ويسمى الصبوح.

ولا اقتباس إلا مما تتوقد ناره في كأس أو يقتدح من أقداح. ما منهم راكب جواد إلا للذة، ولا صاحب جهاد إلا في فرصة مستلذة، ولا عوال تلعلع أسنتها غير الشمع، ولا عويل إلا مما يتحير في ماقي الغيد من الدمع.

قال بلبان: وطوائف الروم لا معرفة لهم بامتطاء البحر، ولا عادة بركوب السفن، وأبعد سيارتهم فيه إلى مواضع النزهة، وإنما هم أصحاب خيل ولا تعد خيالهم في جياد الخيل، وإنما يجلب إليهم كرائمها /١٨٧/ من بلاد الأتراك من قاطع الخليج، وإنما لهم بغالٌ تباع بغالٍ، ولهم تجمل دبر في الملابس والمراكب والفروش وفي أهلها الجمال البديع والكمال التام، وفي المثل: وجوه الترك وأجسام الروم وظرف العرب.

قال: فأما منابت القسطنطينية فكلها أرض جيدة صالحة للزروع والثمار، ولها نهر متوسط المقدار، عليه مساقي زرع وأشجار والأرزاق بها كثيرة الوجود، والرطل القسطنطيني نظير الرطل المصري، وكيل الطعام بها يسمى مدني، وهو حمل جمل يكون اردبين ونصف بالمصري، وبه تباع الغلال الكثيرة؛ فأما القليل منها فيباع بالرطل.

قال: وهذا الملك لا يفارق مجلسه الطرب، ويضرب له بالآلة المعروفة بالأرغل وهي ذات وضع عجيب وألحان غريبة مطربة تأخذ بمجامع القلب.

قلت: وقد رأيت هذا الأرغل بدمشق، ثم بالقاهرة، فقلت: هذا للضارب به. فقال لي: هذا ارغل صغير يفكّك ويحمل وما معه أصوات تسيز له الضرب، والذي يضرب به لملوك الروم والبحر كبير مستقر في مكان لا يزايله وله عدة من أصحاب الأنغام المطربة تسيز له، وله بذاك رونق لا يكون في مثل هذا. وصورة الأرغل خشب مركب وله بكر نحاس وأوتار شريط نحاس وبحر بمثل كور الصائغ، ونغمه شبيه بالآلة التي تسمى القانون.

ثم نعود إلى تتمّة الحديث.

قال بلبان: والملك لا يمد الطعام إلا بين سماطين من المغاني وأصحاب الملاهي.

وحدثني أقسنقر الرومي أحد أمراء العشرات بالأبواب السلطانية وهو من بعض

بيوت الأمرة القديمة بالقسطنطينية، وكان قد حضر في جملة الرسل إلى الأبواب العالية وأسلم، وشمله التشريف والإنعام الشريف والإقامة في الخدمة السعيدة السلطانية بمثل هذه الأحوال، وسمعته يبالغ في تعظيم شأن ملوكهم، ويصفهم بحسن الموافاة والمراعاة لمصالح /١٨٨/ أولياء دولتهم ورعاياهم، وقال: إن عادتهم جارية بأنه من مات من أمراء الروم جرى على أكبر أولاده ما كان يجري على أبيه؛ فإن لم يكن له ولد كان على أكبر أهله، فإن انقرض تصرف الملك فيه برأيه؛ فإن ترك الميت أولاداً لا يقوم بهم ما كان لأبيهم ولا يكفيهم إذا توزع عليهم جرى على الأماثل ما كان لأبيهم ونظر في حال البقية. قال: وعادة هؤلاء الملوك أن لا يعطى ولد أمير رزقاً من جهتهم ما دام أبوه حياً يرزق بل ارتزاقه مما لأبيه، وإن أراد الملك أن يعطيه شيئاً أعطى لأبيه مقدار ما يريد أن يجعله لابنه، ثم أمره أن يجريه هو على ولده من جهته لا من جهة الملك.

قال: وهم أهل عدل فلا يظلم أحد منهم ولا يستحسن الظلم ولا يفسح فيه ولا يتطلع إلى شيء مما في أيدي الناس من أرباب دولته ورعايا مملكته ولا يعرف هذا عهدهم. قال: وجميع من هو في خدمة ملوك الروم لا حجر عليهم ولا تضييق في الإكرام بحضور خدمة مرتبة ولا أخذ دستور في أمر من الأمور مخلي بين نفسه وما يريد في الركوب والنزول والسفر إلى الصيد والتنزه إلى جهات أملاكهم وإقطاعاتهم بل هو في ذلك كله مع رأيه يسافر متى أراد إلى أي جهة أراد ويغيب ما يقدر له أن يغيب بغير إذن الملك ولا أحد ممن ينوب عنه، وفيهم من يغيب السنة فما فوقها، ولا يقال له لم سافرت ولا كيف أبطأت ولا لأيّ شيء انقطعت عن الخدمة، ولا يعتب ولا ينكر عليه، ولا للملك عليهم تشديد في أمر إلا في الإلزام بالتوجه إلى حرب أو المؤاخذة بحق.

قال: وأما أهل مملكة الملك فهم منه في أرغد عيش لا يقوّض له بناء ولا يكفأ له إناء. قالوا كلهم: والبطريرك هو الحاكم على الملك؛ لأنه لا معوّل إلا على رأيه ولا يفصل حكم إلا بقضائه، وله رزق عظيم يعدل معدّله دخل إقليم، وإليه أمر الكنيسة العظمى وسائر الكنائس والديارات، /١٨٩/ ويحصل لها في كل سنة أموال جمة طائلة من الوقوف والنذور والقربانات والتحف ومهاداة الملوك والكنود والتجار.

وفيما يزعم الروم أن بلاد مقدونية جميعها وقف على الكنيسة العظمى التي لهم

المسماة بالأوصفية[1] وبلاد مقدونية هي الإسكندرية وما هو مضاف إليها وكان ذلك في قديم الزمان مصر كلها بأسرها إلا الصعيد الأعلى. وعلى هذا جاء الفتوح في صدر الإسلام.

قلت: والروم تبالغ في تعظيم هذه الكنيسة وتعتقد كرامتها وينقل في التواريخ أن بها كان اجتماع قسطنطين على التدين بدين النصرانية وأن عقد الاتفاق كان على المذبح بها. وفيها على ما يقول صليب الصلبوت وعصا موسى وزنار مريم ومسح المسيح مما يقال إنه صار إليها من طليطلة. وفي زمان الملك الناصر صلاح الدين قدس الله روحه جاءت إليه رسل الفرنج تسأله في إرسال صليب الصلبوت إليها وزعموا أنه كان صار إلى خزائن العبيديين واتصل إليه، ثم إن صلاح الدين ظفر في بعض حروبه بالرجل الذي كان حضر في طلب الصليب، فأمر به فصلب. وكتب الفاضل رحمه الله كتاباً ذكر هذا فيه، فقال: وحصل الظفر بمن كان تقدم حضوره في طلب صليب الصلبوت وأطلقه في ذلك الوقت، وعلم أنه لا يفوت فلما ظفر به الآن أمر به أن يصلب وجعله مثله وسمره على الصليب الخشب، وجعله مثله.

هذا ما ذكر في هذا المعنى.

وأما الشائع الذائع على ألسنة الناس وكلام المتجوّلين في الأرض وطلبة الكنوز والخبايا فهو أن علم الكنوز في كنيسة القسطنطينية.

قالوا إن هذه الأعلام كانت بطليطلة ثم صارت إلى القسطنطينية، ومنهم من يقول: إن الروم لما جلت عن الشام وبلاد القبط اكتنزت كثيراً من أموالها في مواضع كانت تعدها لذلك، وكتبت بها كتباً بأعلام مواضعها وطرق الوصول إليها، وأودعت تلك الكتب مكاناً في كنيسة القسطنطينية وإن منها تستفاد معرفتها، ومنهم من زعم / ١٩٠/ أن سكان الشام من الروم لم يكتنزوا، وإنما ظفروا بكتب بمعالم كنوز من كان قبلهم من اليونان والصابئة والكلدانيين ومن تقدمهم من الأمم الأول، فلما غلبوا على الشام استصحبوا تلك المعالم فأودعوها الكنيسة ويقال: إنه لا يصل إليها إلا من خدم الكنيسة مدة معلومة عندهم، فإذا انقضت أعطى ورقة واحدة بحظه ونصيبه فيما يدل

(١) الأوصفية: هي كنيسة أيا صوفيا، ويذكر أنها من بناء آصف بن برخيا، وهو ابن خالة سليمان عليه السلام، وهي من أعظم كنائس الروم، عليها سور يطيف بها، فكأنها مدينة، وأبوابها ثلاثة عشر باباً. «رحلة ابن بطوطة ٢٣٤» وهي الآن متحف أيا صوفيا في تركيا.

عليه. ولهم في هذا ومثله حكايات وأسمار ما هذا موضعها ولا مكان الاشتغال بها وإشغال الكتاب بجنسها وأنا لا أصدقها ولا أكذبها وإنما ذكرت منها هذا هنا على سبيل الحكاية والتندير، إذ كان هذا مما يدور ذكره في حديث الناس إذا ذكروا هذه الكنيسة وهو مما لا يستبعد إما كله، وإما شيء منه لدخوله في حيّز الإمكان؛ ولأنه ما يخلو من فواضل أهل كل زمان. وهؤلاء العرب تكنز أموالها في قدور بسلاسل طوال تدفنها في مواضع متغلغلة في البر وتعلمها بأعلام لا تتغير من الجبال والربى وما أشبه ذلك. فأما ما لاشك فيه فهو أن في القسطنطينية كتباً جليلة من كتب حذّاق الحكماء والفلاسفة القدماء ما لا خرج عن دار قومه ولا وصل إلى فلاسفة الإسلام منه شيء لضنانة بطاركتهم[١] وقسوسهم[٢] به ومحافظة خزّانه على خزنه وحفظه، ويقال: إن فيها دقائق الموسيقى مما لو عمل به أهل هذا الشأن والقوة على أصحاب الأصوات المطاوعة لاستغنوا به في معالجتهم به عن العقاقير حتى يقال: إن فيها ما يلين القاسي ويقاد الصعب ويضحك ويبكي وينوم، ويدعي أصحاب علم الكيمياء أن فيها كتباً جليلة فيها العلم الصحيح بأسهل الطرق وأقربها إلى الوصول، وتدعي أنه مما تلقى عن موسى صلوات الله عليه.

قال: ويقال إن فيها أثراً من علوم الخضر والإسكندر ذي القرنين، تفتح به المغالق، وتتسلم المعاقل وتملك النواصي، وتهزم الأعداء، فإذا حوجج أحد ممن يقول هذا القول وحوقق وقيل له: /١٩١/ أنتم تلوون ضلوعكم على الداء الدفين غيظاً على أخذ الشام منكم فهلا أخذتم بتلك الآثار وبلغتم المراد وكفيتم ألمهم أبلسوا وسكتوا، ولم تكن لهم حجة إلا أن يقولوا: ما بقي من يعرفها أو ذهب زمانها أو تريد طوالع أو باد يعملها أو ما ثم من هو مشتغل بها.

وأما الذي هو الآن عندهم ظاهر من بقايا ذخائر العلماء الحكماء فهو الطين المختوم، ورأيت أطباء الزمان، ومنهم بالديار المصرية رؤساء أفاضل، وعلماء لا تقصر عن درجات الأوائل ما فيهم من يتنبه على التحقيق لكنه يستحسنه ويقول: هو طين مليح يحصل به القصد ويتوقف، ولا يجزم بأنه هو الطين المختوم ويقول: للطين المختوم طين عمل وطبع وختم على عهد جالينوس، ويقول: كانت امرأة في جزيرة

---

(١) بطاركة: جمع مفرده بطريك وبطريرك.

(٢) قساوسة: جمع مفرده قس وقسيس.

في البحر تجلس على هيكل على قرارة أو بركة يأتيها السيل، فتذبح هناك التيوس على سبيل القربان في وقت معلوم من السنة ويؤخذ من التراب مما جف عنه السيل، وجمد عليه الدم أو قالوا: إنه يجبل بالدم في طالع مخصوص، ويقرص أقراصاً، ويطبع بطابع متخذ لها ومنهم من يقول: إن فعله إنما هو لخاصيّة تلك البقعة ومنهم من يقول: للطالع المخصوص، ومنهم من يقول: بل لشيء أفيض عليه في الهيأة الاجتماعية. وهذا الطين المختوم المجلوب الآن هو على نوعين: نوع أبيض ونوع أحمر، فأما الأبيض فمنه أغبر ومنه شديد البياض، وأما الأحمر فمنه وردي ومنه ما يشوبه سواد كأنه لون المغزا وطوابعه مختلفة وهذا الاختلاف مما أوقف الأطباء عن الجزم به أنه هو هو؛ ولأنهم لم يجدوا فيه كلما ذكرت القدماء في أوصافه.

وقال لي الرئيس أمين الدين سليمان بن داود المتطبب رحمه الله وقد أريته منه: هذا ما هو الطين المختوم والطين المختوم عمل على عهد جالينوس وكان مقدراً ليس بالكبير، ثم لم يعمل بعده وغطى البحر على تلك الجزيرة، والناس منذ عمل تستعمل منه ولهذا زمان طويل ولو كان /١٩٢/ بقدر ما عمل أضعافاً مضاعفة لكان قد فرغ وإنما هو شيء مشبهه وليس به وأكثر ما يحمد الأطباء من هذا الطين المشتبه بلون المغرا ثم الوردي، فأما الأبيض فما رأيت أحداً منهم يقدمه إذا رآهما في وصف، ولا يعبأ به. فأما جلابته من القسطنطينية فنذكره وتصف ضنانة الروم والذي جربت منه فحمدت من أنواعه هو المشبه بالمغرا وقد ذكرت هذا لمحل الفائدة.

ثم نعود إلى الكلام على القسطنطينية.

قال: أقسنقر الرومي، وبلبان الجنوي، وعلي بن بلبان الحلبي قالوا كلهم وقال غيرهم: إن القسطنطينية على جزر من البحر يدخل منه ماء إلى الميناء في جانب القسطنطينية، ويدخل مسوّرها والتجار والسفارة من سائر الأقطار من المسلمين والنصارى وغيرهم يأتي إليها وينزل بها ويبيع ويشتري فيها ولا حرج عليهم ولا تضييق، والمسلمون فيها على جانب إعزاز وإكرام فيها سكان من المسلمين يسكنونها إلى اليوم لا يمسهم، ولله الحمد، ذل ولا هوان، ولهم مساجد وأئمة تصلي بهم الجماعة فتظاهر فيها بشعائر الإسلام وللملك اهتمام بكف الأذية عنهم، وإذا شكا المسلم إليه على أحد من النصارى ولو أنه من عظماء البطارقة أشكاه وأنصفه منه ولا اضطهاد ولا ضيم في جميع مملكة هذا الملك عليهم ولو تغيرت الملوك واختلفت الأحوال لا يقدر الملك على تغير حاله في هذا ولا مخالفة لمن تقدمه فيها؛ لأنها

عادة تدين بها ملوكهم وسارت بها في ملوك النصرانية سيرهم فلو عدل الملك عنها لمنعه البطريرك وواخذه به وأخذه بالرجوع إلى سادة أسلافه واشتد في منعه؛ فإن رجع وإلا كان السبب لتجريمه، فإن رجع وإلا كان السبب لخلعه، والروم أسخى من جميع الطوائف النصرانية واسمك في الكرماء نفوسا وأمسك ناموسا. ومع هذا فما فيهم من يداني العرب في كرم ولا يقاربهم في جود. والشح غريزة في طباع النصارى لا تنفق إلا فيما /١٩٣/ يتنعم به فينفقه في اللهو والطرب. والنخوة فيهم قليلة. وهذه جملة ما ذكروه من أخبارهم وفهم من كلامهم، ومما أقوله أن أدل دليل على عظم القسطنطينية وما لها الممدود غزوة هارون الرشيد إياها سنة خمس وستين ومائة. كان أبوه المهدي قد وجهه إليها وهو إذ ذاك ولي عهد أبيه المهدي، فخرج يوم السبت لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة غازياً إلى بلاد الروم وضم إليه المهدي الربيع مولاه فتوغل هارون الرشيد في بلاد الروم، فافتتح ماجدة ولقيه خيول نقطيا قومس القوامسة فبارزه يزيد بن مزيد فارجل يزيد، ثم سقط نقطيا فضربه يزيد حتى أثخنه وانهزمت الروم وغلب يزيد على عسكره وسار هارون بمن معه في مائة ألف من المرتزقة وتبعهم مثلهم من المطوّعة، وحملوا لهم من العين مائة ألف ألف دينار وثلاثة وسبعين الف ألف وأربعمائة وخمسين ديناراً، ومن الورق مائة ألف ألف واحد وعشرين ألف ألف وأربعة عشر ألفاً وثمانمائة درهم وسار هارون الرشيد حتى قطع خليج القسطنطينية، وصاحب الروم يومئذ عصته امرأة اليون. وذلك أن ابنها كان صغيراً قد هلك أبوه وهو في حجرها فجرت بينها وبين الرشيد السفراء في طلب الصلح والموادعة وإعطاء الفدية، فقبل ذلك منها هارون الرشيد وشرط عليها الوفاء بما أعطت وأن تقيم له الأدلاء والأسواق في طريقه وذلك أنه دخل مدخلاً ضيقاً مخوفاً على المسلمين.

قال أبو جعفر الطبري[1]: وسار هارون في خمسة وتسعين ألفاً وسبعمائة وثلاثة

---

(١) محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر: المؤرخ المفسر الإمام. ولد في آمل طبرستان سنة ٢٢٤هـ/ ٨٣٩م، واستوطن بغداد وتوفي بها. وعرض عليه القضاء فامتنع، والمظالم فأبى. له «أخبار الرسل والملوك ـ ط» يعرف بتاريخ الطبري، في ١١ جزءاً، و«جامع البيان في تفسير القرآن ـ ط» يعرف بتفسير الطبري، في ٣٠ جزءاً، و«اختلاف الفقهاء ـ ط» و«المسترشد» في علوم الدين، وجزء في الاعتقاد ـ ط» و«القراآت» وغير ذلك. وهو من ثقات المؤرخين، قال ابن الأثير: أبو جعفر أوثق من نقل التاريخ، وفي تفسيره ما يدل على علم غزير وتحقيق. وكان مجتهداً في أحكام الدين لا يقلد أحداً، بل قلده بعض الناس وعملوا بأقواله وآرائه. وكان أسمر، أعين، نحيف الجسم، فصيحاً.
ترجمته في: معجم الأدباء ٦/ ٤٢٣، وتذكرة الحفاظ٢/ ٣٥١ وفيات الأعيان ١/ ٤٥٦ وطبقات =

وتسعين رجلاً من المرتزقة سوى المطوعة، ثم ذكر مثل هذا. وقال: إنه جرت بينها وبين هارون الرسل والسفراء في طلب الصلح فشرط عليها الوفاء وأن تقيم له الأدلاء والأسواق في طريقه فأجابته، والذي وقع عليه الصلح بينه وبينها سبعون ألف دينار تؤديها في نيسان الأول /١٩٤/ في كل سنة، ومثله في حزيران وقبل ذلك منها وأقامت الأسواق في منصرفه، ووجهت معه رسلاً إلى المهدي بما بعثت له وبما بذلت على أن تؤدي ما تيسر من الذهب والفضة والعرض، وكتبوا كتاب الهدنة إلى ثلاث سنين، وكان الذي أفاء الله على هارون إلى أن أذعنت الروم بالجزية خمسة آلاف رأس وستمائة وثلاثة وأربعون رأساً وعشرون ألف دابة من الدواب الذلل وذبح من الغنم والمعز مائة ألف رأس، وقتل من الروم في الوقائع أربعة وخمسون ألفاً، وقتل من الأسارى صبراً ألفان وتسعون أسيراً، وبيع البرذون بدرهم، والبغل بأقل من عشرة دراهم، والدرع بأقل من درهم، وعشرون سيفاً بدرهم، فقال مروان بن أبي حفصة(١) يمدح الرشيد: [من الطويل]

= السبكي ٢/ ١٣٥ـ ١٤٠ ومفتاح السعادة ١/ ٢٠٥و ٤١٥ ثم ٢/ ١٧٦ والبداية والنهاية ١١/ ١٤٥ وسير أعلام النبلاء ١٤/ ٢٦٧ـ ٢٨٢ رقم ١٧٥. وغاية النهاية ٢/ ١٠٦ وميزان الاعتدال٣/ ٣٥ وابن الشحنة: حوادث سنة ٣١٠ وفيه: «رموه بعد موته بالرفض لكونه صنف كتاباً في اختلاف العلماء ولم يذكر فيه مذهب أحمد بن حنبل، وقال: لم يكن أحمد فقيهاً إنما كان محدثاً» ولسان الميزان ٥/ ١٠٠ وتاريخ بغداد ٢/ ١٦٢ والعرب والروم لفازيليف ٢٤٢ وكشف الظنون ٤٢٧ والأعلام ٦/ ٦٩.

(١) مروان بن سليمان بن يحيى بن أبي حفصة يزيد: شاعر، عالي الطبقة. كان جدّه أبو حفصة مولى لمروان بن الحكم أعتقه يوم الدار، ولد سنة ١٠٥هـ/ ٧٢٣م ونشأ مروان في العصر الأموي، باليمامة، حيث منازل أهله. وأدرك زمناً من العهد العباسي فقدم بغداد ومدح المهدي والرشيد ومعن بن زائدة، وجمع من الجوائز والهبات ثروة واسعة. وكان رسم بني العباس أن يعطوه بكل بيت يمدحهم به ألف درهم. وكان يتقرب إلى الرشيد بهجاء العلوية. توفي ببغداد سنة ١٨٢هـ/ ٨٩٨م. وجمع معاصرنا قحطان بن رشيد التميمي، ما وجد من شعره، في «دراسة» نشرتها مجلة المورد (٣/ ٢ / ٢٣٣).
مصادر ترجمته: الأغاني ٩/ ٣٤ـ٤٧ ورغبة الآمل ٦/ ٨٢ ثم ٧/ ٢٧ و٤٥ وابن خلكان ٢/ ٨٩ والمرزباني ٣٩٦ والشعر والشعراء ٢٩٥ وتاريخ بغداد ١٣/ ١٤٢ وأمالي المرتضى ٢/ ١٥٥ ثم ٣/ ٤ و١٦ و٢٦ وفيه: «كان كثير الشعر، ينقصه الغوص على المعاني، وهو دون مسلم بن الوليد وبشار بن برد أو هو طبقة بينهما» وسماه «مروان بن يحيى». وفي مطالع البدور ١/ ٧٣ «كان من أبخل الناس، مع يساره». وفي كتاب «الفلاكة والمفلوكون» ٨٠ بعض أخبار بخله. وفي وفيات الأعيان ٢/ ٨٩ بعد قوله إن جده أبا حفصة كان مولى لمروان بن الحكم وأعتقه يوم الدار لأنه أبلى يومئذ فجعل عتقه جزاءه: «وقيل: إن أبا حفصة كان يهودياً طبيباً أسلم على يد عثمان بن عفان أو على يد مروان»، وجزم Huart 68 بأن ابن أبي حفصة «كان ابناً ليهودي من خراسان» وهي رواية ضعيفة قد تكون مما لفقه عليه من كان يهجوهم. أضف إلى هذا قول ابن خلكان: «ويحيى ابن أبي حفصة، كنية أبو جميل، وأمه حيا بنت ميمون، يقال: إنها من ولد النابغة الجعدي وأن الشعر أتى إلى أبي حفصة بذلك السبب». الأعلام ٧/ ٢٠٨، معجم الشعراء للجبوري ٥/ ٣٧٠.

أَطُفْتَ بقسطنطينةِ الرومِ مُسنداً ... إليها القَنا حتى اكتسى الذلَّ سُورُها
وما رُمتَها حتى أتتْكَ ملوكُها ... بجزيتِها والحربُ تغْلي قدورُها
وجُزتَ إليهمْ مالحَ البحرِ لمْ تُبَلْ ... بهِ ووفودُ المَوجِ دانٍ مسيرُها
وأخرجتَ منها مِنْ خزائنِ قيصرٍ ... ألوفَ قناطيرٍ عظيمٍ يسيرُها
فبُوركَ هارونُ النَّدى بنُ محمدٍ ... ودامَ على الأعداءِ منهُ مُبيرُها
لقد جردَ المهديُّ منهُ مهنداً ... يُعضُّ بهِ يومَ اللقاءِ صُدورُها
على سمتهِ سِرّ النبوةِ لائحٌ ... ومنْ وجهِهِ الوضاحِ أشرقَ نُورُها
لقدْ أصلحَ الرحمان أمةَ أحمدٍ ... لمسعاهُما حتى استقامتْ أمورُها
أئمةُ عَدلٍ حيثُ حلَّتْ بلادُها ... وكلُّ سريرٍ للملوكِ سريرُها[١]

وقد ذكر الطبري هذه الواقعة في أحداث هذه السنة بهذه المقاصد[٢].

وقد ألحقت هذا الفصل بشيء مما ذكره الحافظ أبو القاسم بن عساكر[٣] في

---

(١) بيتان منها في ديوان مروان تحقيق د. حسين عطوان ط٣ ص ٦٠. وفي شعر مروان بتحقيق قحطان رشيد التميمي ص ٢٣٦.

(٢) انظر: تاريخ الطبري ٨/ ١٥٢ـ ١٥٣ حوادث سنة ١٦٥هـ.

(٣) علي بن الحسن بن هبة الله، أبو القاسم، ثقة الدين ابن عساكر الدمشقي: المؤرخ الحافظ الرحالة. كان محدث الديار الشامية، ورفيق السمعاني (صاحب الأنساب) في رحلاته. مولده سنة ٤٩٩هـ/ ١١٠٥م ووفاته سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٦م في دمشق. له «تاريخ دمشق الكبير ـ خ»يعرف بتاريخ ابن عساكر، اختصره الشيخ عبد القادر بدران، بحذف الأسانيد والمكررات وسمى المختصر «تهذيب تاريخ ابن عساكر ـ ط» سبعة أجزاء منه، ولا تزال بقية التهذيب مخطوطة، وباشر المجمع العلمي العربي بدمشق نشر الأصل فطبع منه عدة مجلدات. ولابن عساكر كتب أخرى كثيرة، منها «الإشراف على معرفة الأطراف ـ خ» في الحديث، ثلاث مجلدات، و«تبيين كذب المفتري في ما نسب إلى أبي الحسن الأشعري ـ ط» و«كشف المغطى في فضل الموطأ ـ ط» و«تبيين الامتنان في الأمر بالاختتان ـ خ» و«أربعون حديثاً من أربعين شيخاً من أربعين مدينة» و«تاريخ المزة» و«معجم الصحابة» و«معجم النسوان» و«تهذيب الملتمس من عوالي مالك بن أنس» و«معجم أسماء القرى والأمصار» و«معجم الشيوخ والنبلاء ـ خ» ٤٦ ورقة في شيوخ أصحاب الكتب الستة، في الظاهرية.

ترجمته في: وفيات الأعيان ١/ ٣٣٥، مفتاح السعادة ١/ ٢١٦، ٢/ ٢١١، البداية والنهاية ١٢/ ٢٩٤، طبقات الشافعية ٤/ ٢٧٣، ابن الوردي ٢/ ٨٧، آداب اللغة ٣/ ٧٣، النعيمي ١/ ١٠٠، دائرة المعارف الاسلامية ١/ ٢٣٧، مرآة الزمان ٨/ ٣٣٦، مخطوطات الظاهرية ١٠٩، ٢٢٦/ ٢٢٧، الأعلام ٤/ ٢٧٣ـ ٢٧٤.

تاريخه في ترجمة أبي محمد البطال[١]، قال: «عبد الله أبو يحيى الأنطاكي[٢] كان ينزل أنطاكية».

قال: وكان ممن خرج مع مسلمة بن عبد الملك بن مروان إلى بلاد الروم، قال: لما أراد عبد الملك أن يوجّه مسلمة إلى بلاد الروم قال قد أمرت /١٩٥/ عليكم مسلمة بن عبد الملك. قال: وولى على رؤساء أهل الجزيرة والشام البطال وأقبل على مسلمة فقال صيّر على طلائعك البطال وأمره فليعس بالليل العسكر فإنه ثقة أمين شجاع مقدام فخرج مسلمة وخرج عبد الملك يشيعه حتى بلغ إلى باب دمشق.

وذكر الحافظ[٣] بسنده عن الوليد بن مسلمة، قال: حدثني بعض شيوخنا أن مسلمة بن عبد الملك عقد للبطّال على عشرة آلاف من المسلمين فجعلهم سيارة ما بين عسكر المسلمين وما يليهم من حصون الروم، ومن يتخوفون اعتراضه في نشر المسلمين وعلاقاتهم، ويخرج المسلمون يتعلقون فيما بينهم وبين العسكر، فيصيبون ويخطئون فيأمن بهم العسكر[٤].

وقال الوليد بن مسلم حدثني أبو مروان الأنطاكي عن البطال أنه قال سألني بعض ولاة بني أمية عن أعجب ما كان من أمري فيهم فقلت: خرجت في سرية ليلاً، وخرجنا إلى قرية وقلت لأصحابي: ارخوا لجم خيولكم ولا تحركوا أحداً بقتل ولا سبي حتى تشحنوا القرية؛ فإنهم في نومة، قال: ففعلوا وافترقوا في أزقتها ودفعت في ناس من اصحابي إلى بيت يزهر سراجه وامرأة تسكت ابنها من بكائه وهي تقول: لتسكتنّ أو لأدفعنّك إلى البطال، ثم انتشلته من سريره فقالت: أمسك يا بطال فأخذته.

وقال الوليد: حدثنا أبو مروان أنه سمعه يحدث، قال: خرجت ذات يوم متوحداً على فرسي لأصيب غفلة مسمطاً مخلاة فيها عليق فرسي ومنديل فيه خبز وشواء فبينا أنا أسير إذ مررت ببستان فيه بقل طيب، فنزلت فعلفت على فرسي، وأصبت من ذلك الشواء ببقل البستان، إذ أسهلني بطني فاختلفت متوارياً، فأشفقت من دوامه وضعفي عن الركوب فبادرت فركبت ولزمت طريقاً واستفزعني على سرجي كراهية أن أنزل

---

(١) عبد الله، أبو يحيى المعروف بالبطّال، ترجمته في: تاريخ دمشق ٣٩/٣٥٦ وفيه مصادر ترجمته، ومن هنا يبدأ النقل من تاريخ دمشق.

(٢) أبو مروان الأنطاكي «تاريخ دمشق ٣٩/٣٥٦».

(٣) ابن عساكر.

(٤) تاريخ دمشق ٣٩/٣٥٧.

فأضعف عن الركوب حتى لزمت عنق فرسي خوفاً أن أسقط عنه، وذهب بي ولا أدري أين يذهب بي إذ سمعت وقع حوافره على بلاط ففتحت /١٩٦/ عيني فإذا دير فوقف بي في وسط الدير، وإذا نسوة يتطلعن من أبواب الدير، فلما رأين حالي وضعفي عن النزول فاتتني جارية صاحية منهن حتى وقفت عليّ ونظرت في وجهي، ورطنت لهن فنزعن ثيابي وغسلن ما بي ودعت بثياب فالبستنيها وترياق أو دواء فشربته، ثم أمرت بي فجعلت على سرير لها ودثار وأمرت بطعام فهيىء لي فأتيت به وأقمت يومي وتلك الليلة لا أدري ما أنا فيه ومكثت يومين وليلتين حتى ذهب عني السبات وأنا ضعيف عن الركوب، فلما كان اليوم الثالث جاءها من يخبرها أن فلاناً البطريق قد أقبل في موكبه فأمرت بفرسي فغيّب وأغلق عليّ باب بيتي الذي أنا فيه، ثم أنزلت البطريق وأصحابه وكان قد جاء خاطباً لها فبينا هو على ذلك، إذ جاءه من يخبره عن موضع فرسي وإغلاقهم عليّ، فهم أن يهجم عليّ فأقسمت إن هو تعرضني لا نال حاجته، فأمسك وأقام قائلة ذلك اليوم، ثم تزوج وخرجت فدعوت بفرسي فخرجت إليّ وقالت إني لا آمن أن يكمن لك دعه يذهب فأبيت عليها وركبت فقفوت أثره حتى لحقته وشددت عليه فانفرج عنه أصحابه فقتلته وطلبت أصحابه فهربوا عني وأخذت فرسه وسمطت رأسه ورجعت إلى الدير فألقيت الرأس ودعوتها ومن معها من نسائها وخدمها فوقفن بين يدي وأمرتها بالرحلة ومن معها على دواب الدير وسرت بهن إلى العسكر حتى دفعت بهن إلى الوالي فجعل نفلي منهن، فتنفلت المرأة بعينها وسلمت سائر الغنيمة في المقسم واتخذتها فهي أم بنيَّ.

قال أبو مروان: وكان أبوها بطريقاً من بطارقة الروم، له شرف يهاديه ويكاتبه.

وقال الوليد سمعت عبد الله بن راشد الخزاعي يخبر عمن سمعه من البطال، يخبر أن هشاماً أو غيره من خلفاء بني أمية كان قد /١٩٧/ استعمله على ثغر المصيصة، وما يليها، وأنه راث عليه خبر الروم فوجّه سرية لتأتيه بالخبر، فتوجهوا واجّلهم أجلاً فاستوعبوا الأجل. قال: فأشفقت من مصيبتهم ولائمة الخليفة، فخرجت متوجداً حتى أوغلت في الناحية التي أمرتهم بها فلم أجد لهم خبراً فعرفت أنهم أخبروا بغفلة أهل الناحية الأخرى، فتوجهوا إليها، وكرهت أن أرجع ولم أستنقذهم مما هم فيه إن كان عدو يكاثرهم، واعرف من خبرهم ما أسكن إليه. فلم أجد أحداً يخبرني بشيء فمضيت حتى أقف على باب عمورية، فضربت بابها وقلت للبواب: افتح لفلان سياف الملك ورسوله، وكنت أشبه به، فاعلم ذلك صاحب

عمورية، فأمره بفتح الباب ففعل وأدخلني، فلما صرت إلى بلاطها وقفت وأمرت من يشتد بين يدي إلى باب بطريقها ففعل ووافقت باب البطريق قد فتح وجلس لي ونزلت عن فرسي وأنا متلثم بعمامتيَ فأذن لي ومضيت حتى جلست إلى جانبه فرحب بي، فقلت له: اخرج مَنْ هنا لكلام حملت إليك فأخرجهم وغلق الباب وعاد إلى مجلسه، فاخترطت سيفي وضربت على رأسه، ثم قلت له قد وقعت بهذا الموضع، فأعطني عهداً حتى أكلمك بما أريد، ثم ارجع من حيث جئت، ولا يتبعني منك خلاف ففعل، فقلت: أنا البطال فاصدقني عما أسألك عنه وانصحني وإلا أتيت عليك، فقال سل عما بدا لك فقلت السرية، فقال: نعم وافت البلاد غارة لا تدفع أهلها يد لامس، فوغلوا في البلاد وملأوا أيديهم غنائم، وهذا آخر خبر جاءني أنهم بوادي كذا فغمدت سيفي، وقلت: ادع لي بطعام فدعا فأصبت منه، ثم قمت. فقال لمن حوله: كونوا معه حتى يخرج ففعلوا ثم قصدت السرية حتى أتيتها وخرجت بها وبما غنمت فهذا من أعجب ما كان مني، ثم قتل رحمه الله شهيداً في غزاة غزاها، وقتل معه خلق كثير من المسلمين وفيها يقول الشاعر: [من الوافر]

/١٩٨/ أَلَمْ يبلغكَ مِنْ أنباءِ جيشٍ ... بأَقرنَ غُودروا جُثثاً رِماما

تقودُهُمُ حُتُوفُ لَمْ يُطيقوا ... لها دَفعاً هناكَ ولا خِصاما

مَعاركُ لَمْ يقمْ فيها لشجْوٍ ... نوائحُ يَلْتَدِمْنَ بهِ التداما

ولَمْ تهملْ على البطّالِ عينٌ ... هناكَ بغيرِهِ تسقى الهياما

عشيةَ باشرَ الأهوالَ صَبرا ... بخيلٍ تخرقُ الجَيشَ اللُّهاما

إذا ما خيلُهُ حَمَلَتْ عليهمْ ... تَداعَوا مِنْ مخافتِهِ انهزاما

فلا تبعُدْ هنالكَ مِنْ شهيدٍ ... فإنكَ كنتَ للهيجا حُساما[1]

* * *

(١) إلى هنا ينتهي النقل من تاريخ دمشق.



الباب السادس: في مملكة مصر والشام والحجاز

الباب السادس

في مملكة مصر والشام والحجاز[1]

هذه الممالك هي مملكة واحدة، يقع معظم مصر في أوائل الثالث، ومعظم الشام في أواخره، وحلب منه في الرابع.

وهي مملكة كبيرة وأموالها كثيرة، وقاعدة الملك بها «قلعة الجبل» ثم «دمشق».

وهي من أجل الممالك لما حوت من الجهات المعظمة، والأرض المقدسة، والمساجد التي على التقوى مؤسسة بها المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها[2]، وقبور الأنبياء، صلوات الله عليهم والطور والنيل والفرات وهما من الجنة.

وبها «معدن الزمرد» ولا نظير له في أقطار الأرض، وحسب مصر فخراً بما انفردت به من هذا المعدن واستمداد ملوك الآفاق له منها.

أخبرنا العدل عبد الرحيم شاهد المعدن بما أذكره من أحواله قال: إن بينه وبين قوص مسافة ثمانية أيام بالسير المعتدل المعتاد، والبجاة تنزل حوله وقريباً منه لأجل القيام بخفره وحفظه. وهذا المعدن هو في الجبل الآخذ على شرقي النيل في بحري قطعة عظيمة من هذا الجبل تسمى «قرقشندة» وليس في الجبال التي هناك أعلى ولا / ١٩٩/ أشرف منها، وهو في منقطع من البر لا عمارة عنده ولا حوله ولا قريباً منه. والماء عنه على مسيرة نصف يوم منه أو أزيد، وهو ماء يتحصل من المطر ويعرف بغدير أعين يكثر بكثرة المطر ويقل بقلته. أما هذا المعدن فهو في صدر مفازة طويلة في حجر أبيض منه يستخرج الزمرد.

---

(١) أفدنا في مقابلة هذا الباب مما نشرته د. دورتيا كرافولسكي في دراسة وتحقيق باب (دولة المماليك الأولى) من كتاب مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ـ ط المركز الاسلامي للبحوث ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

(٢) انظر الحديث في مسند أحمد بن حنبل ٢/ ٢٢٤.

والحجر المذكور ثلاثة أنواع: أحدها يقال له: طلق كافوري، والثاني يقال له: طلق فضي، والثالث يقال له؛ حجر جروي. يضرب في هذه الحجارة حتى يخرج الزمرد وهو كالعروق فيه والذي يخرج من أجوده.

وأنواع الزمرد ثلاثة[(١)]: الذبابي[(٢)] وهو أفخرها، ولكنه قليل بل أقل من القليل بل لا يكاد يوجد.

قال العدل عبد الرحيم: إنه ما رآه في مدة مباشرته ولا خرج منه شيء في طول تلك المدة. قال: وهو يستخرج في طول السنة مهما وجد من يعمل فيه.

قال: وليس للفعلة فيه عدة محصورة بل هم تارات بحسب الاهتمام وعدم الاهتمام باستخراج هذا المعدن.

قال: وإذا استخرج الزمرد يلقى في الزيت الحار، ثم يحط في قطن ويصر ذلك القطن في خرق كتان أو ما يجرى مجراه.

قال: والاحتراز على هذا المعدن كثير جداً، والفعلة تعين عند خروجهم منه في كل يوم حتى نفتش منهم أماكن لا يليق ذكرها. هذا ما أخبرني به.

وحدثني آخر له معرفة بهذا المعدن وأحواله: أن هؤلاء الفعلة في هذا المعدن مع هذا الاحتراز الشديد لهم حيل كثيرة في سرقة الزمرد ومنها: أن الرجل منهم ليسرق ما يمكنه من الزمرد ويعمله في كيس صغير معد لذلك ويربطه ثم يعلقه بخيط إبريسم مبروم مشدود فيه بين أضراسه الدواخل، ويكون رأس الخيط معقوداً وثيقاً، فإذا علق الخيط أخرج تلك العقد بين الضرسين إلى جهة الشفة فيبقى ناشباً به فإذا خرج إلى ظاهر المعدن وصار /٢٠٠/ إلى حيث مأمن أخرجه وأخذ ما فيه[(٣)].

---

(١) صبح الأعشى ٢/ ١٠٨ـ ١٠٩ أصناف الزمرد أربعة: الذبابي والريحاني والسِّلْقي والصابوني، وسمّاها المسعودي في مروج ٢/ ٣٣٢ـ ١٣٣: المرّ والبحري والمغربي والأحم.
ولم يذكر ابن فضل الله سوى نوع واحد هو الذبابي.

(٢) هذا النوع شديد الخضرة، لا يشوب خضرته شيء آخر من الألوان، حسن الصبغ، جيد المائية، شديد الشعاع. وسمي الذبابي لمشابهه لونه في الخضرة لون كبار الذباب الأخضر الربيعي الموجود في البساتين. (الإشارة إلى محاسن التجارة ١٥، أزهار الأفكار ٨٢، صبح الأعشى ٢/ ١٠٨).

(٣) ذكر القلقشندي «في الصبح ٣/ ٤٥٥» نقلاً عن مسالك الأبصار: أنه كان هناك مباشرون وأمناء يعينهم السلطان يتولون استخراج الزمرد وتحصيله ولهم رواتب يتقاضونها على ذلك. ثم ينقل كل ما يستخرج منه إلى الخزائن السلطانية فيستخلص منه ما يحتاجه الخاصة ثم يعرض الباقي للبيع. (صبح الأعشى ٣/ ٤٥٥ وقارن السيوطي ٢/ ٢٩٩ـ ٣٠٠.

وبها «البلسان»[١] وهو ما هو، وملوك النصرانية تترامى على طلبه، والنصارى كافة تعتقد فيه ما تعتقد وترى أنه لا يتم تنصر نصراني حتى يوضع شيء من دهن البلسان في ماء المعمودية عند تغطيسه فيها.

* * *

فأما وجوه «دخل هذه المملكة» وخراجها وعساكرها وأجنادها وما أوى إليها من الأمم وسكنها من أشتات الخلائق، وعرفت به سلاطينها من حسن السياسة، وقدم الرئاسة، فأمر لا يخفى له خبر ولا يغطّى ضوؤه على ذي بصر. وقد تقدم في مواضع من هذا الكتاب، ويأتي في مواضع أخرى منه ما يحقق ما قلنا.

ولا يعتقد معتقد ولا يظن ظان أني قلت في هذا بغرض لكوني من أهل هذه البلاد، وتحت ظل ملوكها وربيت أنا وآبائي في نعم سلاطينها. فمعاذ الله أن أقول إلا الحق أو أسطر عني غير الصحيح لاسيما فيما يتحدث به أهل جيل بعد جيل، بل لهذا اختصرت في القول.

ومعاملتها «الدراهم»، ثلثاها فضة والثلث نحاس[٢]. والدرهم ست عشرة حبة خروب، الخروبة ثلاث قمحات، والمثقال أربعة وعشرون خروبة. والدرهم منها قيمته ثمانية وأربعون فلساً.

و«الدينار الجيشي»[٣] مسمى عنه ثلاثة عشر درهماً وثلث درهم[٤] من العادة عنه

---

(١) معجم البلدان ٤/ ٥٦٤.

(٢) هو ما يعرف بالفضة النُّقْرَة وهي أعلى عياراً من بقية الدراهم حدثت في أيام الكامل محمد. (الصبح ٣/ ٤٣٩ و٤٦٢ـ ٤٦٣، السلوك للمقريزي ١/ ٤٥ هـ و٢/ ٧٨٦ وفيه أنه يقال لها «الفضة الحجر» والنقود الإسلامية ١٤، النظم الإقطاعية ٥٢٤).
وانظر صفة عمل هذا الدرهم في كشف الأسرار العلمية بدار الضرب المصرية لابن بَعْرة ٧٥، ٧٦.

(٣) الدينار الجيشي: اصطلاح تعارف على استعماله ديوان الجيش في عبرة الاقطاعات. فحدّد لكل إقطاع عبرة دنانير معينة، فلذلك كان من الممكن أن يكون متحصّل مائة دينار في إقطاع ما أكثر من متحصل مائتي دينار فأكثر في إقطاع آخر. «قوانين الدواوين لابن مماتي ٣٦٩، الصبح ٢/ ٤٣٨، النظم الاقطاعية ٥٢٥».
والعِبْرة: هي مقدار المربوط من الخراج أو الأموال على كل إقطاع من الأراضي، وما يتحصّل من كل قرية من عَيْن وغلّة وصنف. «الخطط للمقريزي ١/ ٨١ و٨٧، النجوم الزاهرة ٩/ ٥٣هـ».

(٤) اتفق مع العمري كل من ابن الجيعان والقلقشندي والسيوطي في تحديد قيمة الدينار الجيشي بـ ١٣ وثلث درهم. «التحفة السنية ٣، الصبح ٣/ ٤٣٨، حسن المحاضرة ٢/ ٣٢١» بينما يذكر المقريزي أن قيمة هذا الدينار في زمن الروك الناصري سنة ٧١٥هـ كانت متفاوتة من ٧ إلى ١٠ دراهم. «الخطط ٢/ ٢١٨ـ ٢١٩».

مسمى أربعون درهماً سوداً، الدرهم منها ثلث درهم مما ذكر.

ولا يوجد بالديار المصرية من الدراهم السود[١] إلا المسميات لا الأعيان. فأما بالإسكندرية فإنها توجد بها وهي كل اثنين بدرهم.

وأما «الكيل» فيختلف في مصر: الإردب وهو ست ويبات[٢]، الويبة أربعة أرباع[٣]، الربع أربعة أقداح، القدح مائتان واثنان وثلاثون درهماً، هذا إردب مصر. وفي أريافها يختلف الإردب عن هذا المقدار إلى أنهى ما ينتهي ثمان ويبات[٤]. وإنما المعهود التعامل أنما هو بالإردب المقدم ذكره.

والرطل هو اثنتا عشرة أوقية، الأوقية اثنا عشر درهماً، فيكون الرطل مائة وأربعة وأربعون درهماً.

وأما دمشق فهي بنظير /٢٠١/ المعاملة المذكورة، خلا أن الصنجة تتفاوت فتنقص كل مائة مثقال شامي مثقالاً وربعاً بمصر، وكذلك الدراهم كل مائة درهم درهم.

والرطل اثنتا عشرة أوقية، الأوقية خمسون درهماً فيكون الرطل ستمائة درهم.

والغرارة للغلات وهي اثنا عشر كيلاً، كل كيل ستة أمداد، المد ينقص قليلاً عن الربع المصري[٥]. ونسبة ما بين الغرارة والإردب أن كل غرارة ومد ونصف ثلاثة أرداب بالمصري تحريراً. وفي بر دمشق ربما زاد الرطل والغرارة على الدمشقي حتى يكثر تفاوت ما بينهما لعظم زيادة بعض المواضع. ولكن كيل دمشق ورطلها هو المعتبر وإليه المرجع.

وأما حلب وحماة وحمص فأرطالها أزيد من الدمشقي[٦]، ولا تعرف الغرائر

---

(١) الدراهم السود: هي كالدينار الجيشي أسماء على غير مسميات. عرفت بذلك لتغير لونها مع طول الزمن، ولذلك ميِّزت الدراهم الجديدة في بعض الأحيان باسم الدراهم البيض. وانتشرت الدراهم السود في مصر منذ أواخر العصر الأيوبي. «الصبح ٣/ ٤٣٨، النظم الإقطاعية ٥٢٥».

(٢) أي يساوي ستة وتسعين قدحاً. (صبح الأعشى ٣/ ٤٤١).

(٣) أي ستة عشر قدحاً. (نفسه ٣/ ٤٤١).

(٤) في «الصبح ٣/ ٤٤١». يبلغ الإردب في بعضها إحدى عشر ويبة بالمصري.

(٥) في الصبح: ينقص قليلا عن رُبُع الويبة المصري.

(٦) في الصبح ٤/ ١١٨، ٢١٥: «رطلها سبع مائة وعشرون درهماً، وأواقية اثنتا عشر أوقية، كل أوقية ستون درهما».

وإنما تعرف المكاكيك[1] وتختلف زيادة بعضها على بعضها، منها ما هو معتدل الغرارة مكوكان ونصف وما بين ذلك. كل ذلك تقريباً.

* * *

فأما مصر فمزروعها على النيل بعد زيادته وعمومه البلاد، سوى قليل لا يعتبر به في بلادها مما يزرع على المطر كأطراف البحيرة، وما يزرع على الأنهر كالفيوم وماؤها من البحر المسمى اليوسفي المشتق من النيل لا ينقطع جريه أبداً على ما هو معروف من أمره.

وأكثر محاسن مصر مجلوبة إليها، حتى بالغ بعضهم فقال: إن العناصر الأربعة مجلوبة إليها: الماء وهو النيل مجلوب من الجنوب، والتراب مجلوب من حمل الماء؛ وإلا فهي رمل محض لا تنبت الزرع، والنار لا يوجد بها شجرته وهو الصوان إلا إذا جلب إليها، والهواء لا يهب بها إلا من أحد البحرين، إما الرومي وإما الخارج من القلزم إليها، ولقد زاد هذا في تحامله.

وهي كثيرة الحبوب من القمح، والشعير، والفول، والحمص، والعدس، والبسلة، واللوبيا، والدخن، والأرز.

وبها الرياحين الكثيرة كالحبق، والآس، والورد والنيلوفر، والنسرين، والبان، والتمر حنا، والمنثور، والياسمين.

وبها من المحمضات الأترج، والنارنج، والليمون، والحماض، والكباد، والموز الكثير، وقصب السكر الكثير، والرطب، /٢٠٢/ والعنب، والتين، والرمان، والتوت، والفرصاد، والخوخ، واللوز، والجميز، والنبق، والبرقوق، والقراصيا، والتفاح. وأما السفرجل والكمثرى فقليل، وكذلك الزيتون مجلوب إلا قليل من الفيوم لا اعتبار به، ولا من الجوز إلا ما قل جداً، ولا يوجد بها الفستق ولا البندق، وبها

---

(١) المكُّوك: مفرد، جمعه: مَكَاكيك. مكيال للحبوب مقداره صاع ونصف صاع، والصاع قدر نصف ويبة، والويبة ثلاث كيلات. وهي ليست ذات سعة واحدة في أنحاء البلاد الإسلامية. «نهاية الرتبة للشيزري ٢١٧، السلوك للمقريزي ٤٠٩/١هـ، النظم الإقطاعية ٥١٧».
يقول القلقشندي في الصبح ١١٨/٤، ٢١٦: «والمكوك المعتبر في حافرتها سبع ويبات بالكيل المصري، وأما في نواحيها وبلادها، فيختلف اختلافاً متبايناً في الزيادة والنقص».

البطيخ الأصفر أنواع والأخضر أنواع، والخيار، والقثاء على أنواع، والقلقاس، واللفت، والجزر، والقنبيط، والفجل، والبقول المنوعة.

وبها أنواع الدواب من الخيل، والجمال، والبغال، والحمير، والبقر، والجواميس، والغنم، والمعز. ومما يوصف من دوابها بالجودة الحمر لفراهتها، والبقر والغنم لعظمها.

وبها الإوز، والدجاج، والحمام.

ومن الوحش الغزلان، والنعام، والأرنب.

فأما من أنواع الطير فكثير كالكركي، والإوز وغير ذلك.

* * *

وأواسط «الأسعار» في غالب أوقاتها: الإردب القمح بخمسة عشر درهماً، والشعير بعشرة، وبقية الحبوب على هذا الأنموذج، وأما الأرز فيبلغ أكثر من ذلك. وأما اللحم فأقل سعره الرطل نصف درهم وفي الغالب أزيد، والدجاج يختلف سعره بحسب اختلاف أحواله، فجيده الطائر بدرهمين، ومنها ما هو بثلاثة وقد يربو، ومنها ما هو بدرهم واحد.

* * *

ويعمل بمصر معامل كالتنانير ويعمل بها البيض بصنعة، وتوقد يحاكى بها نار الطبيعة، في حضانة الدجاجة البيض، وتخرج في تلك المعامل الفراريج، وهي معظم دجاجهم.

وبها ما يستطاب من الألبان والأجبان. وبها العسل بمقدار متوسط بين الكثرة والقلة. وأما السكر فكثير جداً وقيمته المعهودة من على الغالب من السعر الرطل بدرهم ونصف وربما زاد. ويعمل بها المكرر الفائق وتبلغ قيمته درهمين ونصفاً لكل رطل. ومنها يجلب السكر على اختلاف أنواعه إلى كثير من البلاد، وقد نسي بها ما كان يذكر من سكر الأهواز.

وبها الكتان المعدوم المثل المنقول منه ومما يحمل من قماشه إلى أقطار البلاد. ولقد أراني خواجا جمال الدين /٢٠٣/ يوسف الماخوري مقاطع شرباً أبيض من الصنف الممرش استعملها بالإسكندرية على أنه يقدمها للسلطان أبي سعيد كأنها جناح الزنبور، لا أظن أنه يعادلها في الدنيا قماش، قال: إنه استعملها وتقوم عليه

كل مقطع منها ساذجاً[١] بسبعمائة درهم ورقاً، ويقوم طرزه وهو ساذج بمثل ذلك، فيقوم جملة المقطع الواحد بألف وأربع مائة درهم ورقاً عنها سبع مائة درهم نقرة ليس فيه إلا الكتان وما قل من الحرير في طرزه، على أنه لا يكون غالباً لطرز إلا من الكتان، فإن الأبيض فيه لا يكون من الحرير أبداً، ومنه تكون الكتابة وهي حلى الطراز. وقال لي: إن الكتان يبتاع الدرهم منه بأكثر منه، وأما ما يدخل في الطرز فيبتاع بنظير وزنه مرات عدة.

قلت: وهذا الشرب هو الذي تفوق به الإسكندرية البلاد أكثر من بقية ما يعمل فيها من القماش على اختلاف أجناسه وأنواعه[٢].

[مملكة مصر]

ثم نعود إلى ذكر مصر فنقول: وأما مبانيها فقليل منها بالحجر وأكثرها بالطوب وأفلاق النخل والجريد. وخشب الصنوبر مجلوبٌ إليهم من بلاد الروم في البحر ويسمى عندهم النقي.

وبها المدارس والخوانق والربط والزوايا والترب الضخمة والعمائر الجليلة الفائقة، والأماكن المعدومة المثل المفروشة بالرخام المنقوشة بالأخشاب المدهونة بأنواع الأصباغ الملمعة بالذهب واللازورد. ومن حيطانها ما هو موزَّر بالرخام، وتختلف المباني بحسب اختلاف أصحابها.

وحاضرة مصر تشتمل على ثلاث مدن عظام:

«الفسطاط» وهو بناء عمرو بن العاص وهي المسماة عند عامة أهل مصر «بمصر العتيقة»[٣].

---

(١) الساذج: ما لا نقش فيه من القماش. «السلوك ٢/ ٦٣٢هـ».

(٢) عن طراز الاسكندية وما كان يصنع به، انظر: قوانين الدواوين ٣٣٠ـ ٣٣١، صبح الأعشى ١١/ ٤٢٥ـ ٤٢٦، الخطط المقريزية ١/ ٤٦٩.

(٣) عن تاريخ مدينة الفسطاط وتخطيطها، انظر: فتوح مصر وأخبارها ٩١ـ ١٢٨، المغرب في حلى المغرب (قسم مصر)، القاهرة ١٩٥٣، الانتصار لواسطة عقد الأمصار (القاهرة ١٨٩٣) ٤/ ٢ـ ١٠٩، صبح الأعشى ٣/ ٣٢٥ـ ٣٤٣، الخطط ١/ ٣٨٥ـ ٣٠٤، علي بك بهجت: حفريات الفسطاط (دار الآثار العربية ـ القاهرة ١٩٢٨).

و«القاهرة المعزية». بناها القائد جوهر لمولاه الخليفة المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي[١].

و«قلعة الجبل» بناها قراقوش للملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب رحمه الله تعالىٰ، وأول من سكنها أخوه العادل.

وقد اتصل بعض هذه الثلاثة بسور بناه قراقوش بها إلا أنه قد تقطع الآن في / ٢٠٤/ بعض الأماكن[٢]. وهذا السور هو الذي ذكره الفاضل في كتاب كتبه إلى صلاح الدين، فقال: «والله يحيي المولى حتى يستدير بالبلدين نطاقه، ويمتد عليهما رواقه، فهما عقيلة ما كان معصمهما ليترك بغير سوار، ولا خصرهما ليجلى بلا منطقة نضار. والآن قد استقرت خواطر الناس وأمنوا به من يد تتخطف، ومن طمع مجرم يقدم ولا يتوقف، وقد عظمت».

وبها «المارستان المنصوري»[٣] المعدوم النظير لعظمة بنائه وكثرة أوقافه، وسعة إنفاقه وتنوع الأطباء وأهل الكحل والجراح به. وهو جليل المقدار جميل الآثار، جزيل الإيثار. وقفه السلطان الملك المنصور قلاوون[٤] ـ رحمه الله ـ.

---

(١) أهم مصادر دراسة تاريخ القاهرة: الخطط (بولاق ١٢٧٠هـ)، الانتصار (القاهرة ١٨٩٧)، صبح الأعشى ٣/ ٣٤٤ـ ٣٦٧، النجوم الزاهرة وتعليقات محمد رمزي عليها، الخطط التوفيقية ١ـ ٢٠ (بولاق ١٣٠٤هـ) و١ـ ٤ (القاهرة ١٩٦٩ـ ١٩٨١) ومن الدراسات الحديثة كتاب «عاصمة مصر في زمن الفاطمين، تخطيطها وحياتها الاقتصادية والاجتماعية». للدكتور أيمن فؤاد سيد.

(٢) أقيم سور القاهرة ثلاث مرات: المرة الأولى عند بناء القاهرة في سنة ٣٥٨ وصفه جوهر قائد المعز لدين الله وكان من الطوب اللبن. وفي سنة ٤٨٠ وسع أمير الجيوش بدر الجمالي القاهرة من جهتيها الشمالية والجنوبية ونقل أسوارها إلى حيث يحدد موقعها اليوم أبواب الفتوح والنصر في السور الشمالي وباب زويلة في السور الجنوبي. ولما تولى صلاح الدين الأيوبي عهد إلى بهاء الدين قراقوش ببناء سور يحيط ليس فقط بالقاهرة ولكن بالفسطاط وما تبقى من القطائع امتد في جهته الشمالية ليحيط أيضاً بالمقس. «الخطط ١/ ٣٧٧ـ ٣٨٠».

(٣) ما زال المارستان المنصوري قائماً بشارع المعز لدين الله في مواجهة بقايا المدرسة الظاهرية وقبة الصالح نجم الدين أيوب. راجع عنه: تشريف الأيام والعصور لابن عبد الظاهر ٥٥ـ ٥٧، الصبح ٣/ ٣٦٥ـ ٣٦٦، الخطط ٢/ ٤٠٦ـ ٤٠٨ والسلوك ١/ ٧١٦ـ ٧١٧ و٧٢٥ و٧٩٧ـ ١٠٠٠ (ونقلا عن النويري)، النجوم الزاهرة ٧/ ٣٢٥ـ ٣٢٦ هـ، تاريخ البيمارستانات في الإسلام (دمشق ١٩٣٩) ٨٣ـ ١٧١، «وثائق وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري» نشرت في آخر كتاب ابن حبيب: تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه (القاهرة ١٩٧٦) ١/ ٢٩٥ـ ٣٩٦ والأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر (القاهرة ١٩٨٠) ١٥٧ـ ١٧٣.

(٤) راجع «وثيقة وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري»، دراسة ونشر وتحقيق محمد محمد أمين، ملاحق كتاب «تذكرة النبيه» لابن حبيب ٢٩٣ـ ٣٩٦.

وبها «البساتين» الحسان، والمناظر النزهة، والأدوار المطلة على البحر وعلى الخلجانات الممتدة منه أوقات مدها.

وبها «القرافة» تربة عظمى لمدفن أهلها[١].

وبها «العمائر الضخمة»، ولها المتنزهات المستطابة، وهي من أحسن البلاد إبان ربيعها للغدر الممتدة من مقطعات النيل بها وما يحفها من زروع أخرجت شطأها وفتقت أزهارها.

وبها «الآثار القديمة» الدالة على حكمة بانيها «كالأهرام»[٢]: وأشهرها الهرمان الكبيران بالجيزة وبرابي أخمم. فأما بقية ما يذكر من البرابي والملاعب بالأشمونين وأنصنا وقفط وعين شمس ومنارة الإسكندرية والبيت الأخضر بمضرب يوسف عليه السلام. فكل هذه قد غير الدهر معالمها، وطمس آثار غالبها، وشرع الخراب بالهرمين الكبيرين والبرابي بأخميم لأخذ حجارتها وتغيير بهجتها.

وبها الصنم المقارب للهرمين المسمى عند العامة «بأبي الهول»، وهو صنم كبير لا يبين منه إلا إلى قريب من نصفه[٣].

والقول في الأهرام والبرابي كثير. والأقرب أن الأهرام هياكل لبعض الكواكب. فأما البرابي فقال لي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن شقير الدمشقي[٤]: إنه رآها وأجاد تأملها فوجدها مشتملة على جميع أشكال الفلك، وأن الذي ظهر له أنه لم يعملها حكيم واحد ولا ملك /٢٠٥/ واحد، بل تولى عملها قوم بعد قوم حتى تكاملت في دور كامل، وهو ستة وثلاثون سنة، لأن مثل هذه الأعمال لا تعمل إلا

---

(١) عن القرافة، راجع: صبح الأعشى ٣/ ٣٧٤ـ ٣٧٥، الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة ٣٦ـ ٣٧، الخطط ٢/ ٤٤٣ـ ٤٤٥.

(٢) انظر حديث المؤلف عن الأهرام وزيارته لها في المسالك ١/ ٣٣٠ـ ٣٣٢، وراجع: مروج الذهب ٢/ ٧٧ـ ٧٨، الإفادة والاعتبار ٣٦ـ ٥٢، رحلة ابن بطوطة ١/ ٣١ـ ٣٢، الخطط ١/ ١١١ـ ١٢٢، حسن المحاضرة ١/ ٧٠ـ ٧٩.

(٣) انظر حديث المؤلف عن أبي الهول في المسالك ١/ ٣٣٢ـ ٣٣٣، وفيه أنه لم يكن يظهر منه فوق سطح الأرض إلاّ رأس الصنم وعنقه، وهكذا عاينه أيضاً عبد اللطيف البغدادي في الإفادة والاعتبار ٤٠، الخطط ١/ ١٢٢ـ ١٢٣.

(٤) في الصبح ٣/ ٣٢٣ محمد بن سعيد الدمشقي، وفي مسالك الأبصار ١/ ٢٤٠ ط زكي: محمد بن النقاش.

بالأرصاد، وما يكتمل رصد المجموع في أقل من هذه المدة المذكورة. هذا ما أخبرني به عنها.

وكتب القاضي محيي الدين بن الزكي[(١)] إلى القاضي الفاضل[(٢)] كتاباً ذكر فيه مصر وسماها بالمومسة، فعز ذلك عليه، وذكر في جوابه إليه: «وهجم بي التأمل على لفظة أطلقها على مصر وكنى بها عنها، ووصمها بما وسمها وبت من القلوب عصمها، وأظنه عاقبها بذنب فرعون حين قال: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾[(٣)]، وحين قال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ﴾[(٤)]، كما فعل الرشيد وولى الخصيب[(٥)]. فإن كان إلى ههنا ذهب فقد عاقبها بذنب لم تجنه، وهدمها بأمر لم تبنه. وعلى كل حال فلو كان على

---

(١) هو القاضي محيي الدين محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن علي بن عبد العزيز قاضي قضاة الشام، ولد سنة ٥٥٠هـ وتوفي سنة ٥٩٨هـ.
ترجمته في: وفيات الأعيان ٤/ ٢٢٩ـ ٢٣٧، العبر ٤/ ٣٠٥، الوافي بالوفيات ٤/ ١٦٩ـ ١٧١، طبقات الشافعية الكبرى ٦/ ١٥٧ـ ١٥٩، البداية والنهاية ١٣/ ٣٢ـ ٣٣، النجوم الزاهرة ٦/ ١٨١، شذرات الذهب ٤/ ٣٣٧ـ ٣٣٨). قال الصفدي: ومكاتبات القاضي الفاضل إليه مجلدة كبيرة.

(٢) عبد الرحيم بن علي بن السعيد اللخمي، المعروف بالقاضي الفاضل: وزير، من أئمة الكتّاب. ولد بعسقلان (بفلسطين) سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م وانتقل إلى الإسكندرية، ثم إلى القاهرة وتوفي فيها سنة ٥٩٦هـ/ ١٢٠٠م كان من وزراء السلطان صلاح الدين، ومن مقربيه، ولم يخدم بعده أحداً، قال بعض مترجميه: «كانت الدولة بأسرها تأتي إلى خدمته» وكان السلطان صلاح الدين يقول: «لا تظنوا أني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل!» وكان سريع الخاطر في الإنشاء، كثير الرسائل، قيل: لو جمعت رسائله وتعليقاته لم تقصر عن مئة مجلد، وهو مجيد في أكثرها. وقد بقي من رسائله مجموعات، منها «ترسل القاضي الفاضل ـ خ» و«رسائل إنشاء القاضي الفاضل ـ خ» و«الدر النظيم في ترسل عبد الرحيم ـ خ» ولابن سناء الملك كتاب «فصوص الفصول وعقود العقول ـ خ» أكثره من إنشاء القاضي الفاضل. وله «ديوان شعر ـ ط».
مصادر ترجمته: النجوم الزاهرة ٦/ ١٥٦، ووفيات الأعيان ١/ ٢٨٤، وخطط مبارك ٦/ ١٢، وكتاب الروضتين ٢/ ٢٤١ والكتبخانة ٤/ ٢٩٠ وBroc. S.I:549، والنعيمي ١/ ٩٠ والنويري ٨/ ١ـ٥١ والسبكي ٤/ ٢٥٣ وخريدة القصر: فسم شعراء مصر ١/ ٣٥ وهو فيه «عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن الحسن بن أحمد البيساني» وفي هامش الصفحة نفسها: كان أبوه يلي قضاء بيسان في فلسطين فنسب إليها. وفي كشف الظنون ٢/ ١٠٦١ «سيرة الملك المنصور قلاوون بربع قرن، وإنما الكتاب من تأليف شافع بن علي العسقلاني؛ روضات الجنات ١٣٨، أعلام العرب ٢/ ٢١، الأعلام ٣/ ٣٤٦. معجم الشعراء للجبوري ٣/ ١٣٨.

(٣) سورة النازعات: الآية ٢٤.

(٤) سورة الزخرف: الآية ٥١.

(٥) أبو نصر الخصيب بن عبد الحميد، صاحب ديوان خراج مصر. (الخطط ١/ ٢٠٥، رحلة ابن بطوطة ١/ ٣٧ـ ٣٩). وقصده أبو نواس لمدحه في مصر (وفيات الأعيان ٨/ ١٠٢ «الفهرس»).

نفسي لكنت معه عليها، ولو بعث سهماً إليها لتولت يدي إلقاءه إليها، فلقد أخرجني من أرضه بسحره[١]، وندم خادمه على ما فات فيها من عمره، فهو الآن لا يرفع إليها طرفاً من كسله، ولا يرى نيلها إلا أقل من مسيل بردى ووشله، وإذا رأى دينارها الأحمر قال: به حمرة من خجله، وإذا رأى إبليزها الأسود قال: من سواد عمله، وإذا رأى هرميها قال: انكسر نهداها، وإذا رأى رملتها الحاقة قال: شاب فؤادها. ثم راجع النظر فإذا اللفظة التي أطلقها سيدنا عليها وهي المومسة تأبى العلقة فكيف له أن يقذف المستورة بهذا القذف، ويهجم على خدرها بهذا الوصف، وقد وفد إليها عن شامه حين أخذ الكفر يمتحق إسلامه فأنجدته وأصرخته وسكنت الروع وأفرخته، وعاد إلى الفائت الدرك وقال الناس ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ﴾[٢]. وإذا كانت دمشق من عتقاء مصر فلا فخر لها أن تكون مولاتها مومسة، وقد سرت بهذه اللفظة فما كأنها دخلت كتابه ولا مجلسه».

قلت: وأما «الشام» فيزرع غالبه على المطر، وهو من جميع ما ذكر في مصر من الحبوب. ومنه ما هو على سقي الأنهار، وهو قليل.

وبها أنواع الأشجار وأجناس الثمار /٢٠٦/ من التين، والعنب، والرمان، والسفرجل، والتفاح، والكمثرى، والإجاص، والقراصيا، والتوت، والقرصاد، والمشمش، والزعرور، والخوخ ـ وهي المسمى عندهم الدراقن ـ وأجلها بدمشق من غالب ذلك على أنواع منوعة وأجناس متعددة شتى. ومنها فواكه تأتي في الخريف وتبقى إلى الربيع كالسفرجل، والتفاح، والرمان، والعنب.

وبها الجوز، واللوز، والفستق، والبندق.

وبها الليمون، والأترج، والنارنج، والكباد، والموز، وقصب السكر من أغوارها يحمل إليها من نحو يومين وأزيد.

وبها البطيخ الأصفر والأخضر على أنواع، والخيار، والقثاء، واليقطين، واللفت، والجزر، والقنبيط، والهليون، والباذنجان، والملوخية، والبقلة اليمانية، والرجلة، وغير ذلك من أنواع الخضروات المأكولة.

---

(١) إشارة إلى سورة الشعراء: الآية ٣٤. ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ﴾.
(٢) سورة يوسف: الآية ٣١.

ونهر دمشق الخاص بها بردى، وبها غيره من الينابيع والأنهار المادة فيما حولها[١].

وبها الإوز والدجاج والحمام وكثير من أنواع الطير، ولا تكون الفراريج إلا بحضانة، لا كما يعمل في مصر. ولقد أذكر أنه جاءها شخص من مصر في زمن الصيف وعمل بها في حاضرة العقيبة معمل الفراريج وطلعت به الفراريج، فلما أتى زمن الخريف لم تطلع معه وخسر وترك ذلك وعاد إلى مصر.

وأسعار اللحم أرخص من مصر. وأما الدجاج فنظيرها، وأما الإوز فأغلى.

وبها العسل متوسط، ويعمل بها السكر ومنه المكرر وهو بأزيد من سعره في مصر ولا يكثر.

وبها أنواع الرياحين: الآس، والورد، والبنفسج، والنيلوفر، والخلاف، والنرجس، والمنثور، والياسمين، والترنجان، والمردنجوس، والتمام، والنسرين. وإلى وردها وبنفسجها النهاية، حتى إنه عطل وردها وما يستخرج من مائه ما كان يذكر من جوري[٢] نصيبين. وماء الورد ينقل إلى غالب البلاد.

وبالشام الزيتون الكثير ومنه يحمل إلى كثير من البلاد. وبها أشياء كثيرة خاصة بها.

وغالب مباني الشام بالحجر، ودورها أصغر مقادير من دور مصر، ولكنها أزيد زخرفة منها، وإن كان الرخام بها أقل، وإنما هو أحسن أنواعاً.

وعناية أهل دمشق بالمباني كثيرة، ولهم في بساتينهم منها ما تفوق به /٢٠٧/ وتحسن بأوضاعه. وإن كانت حلب أجل بناء لعنايتهم بالحجر، فدمشق أزين وأكثر رونقاً لتحكم الماء على مدينتها وتسلطه على جميع نواحيها.

وبجميع الشام وجوه الخير كثيرة من المدارس، والخوانق، والربط، والزوايا للرجال والنساء، والمارستانات، وأوقاف البر والصدقات على اختلافها، وخصوصاً دمشق فإنه لا يطاول في ذلك باعها، ولا يحاول في هذه الغاية

---

(١) عن أنهار وبحيرات الشام، انظر: مسالك الأبصار ١/ ٧٩ـ ٨٢ ط زكي، الصبح ٤/ ٧٩ـ ٨٥.

(٢) نوع من الورد معروف ببلاد الشام، ويعرف بالورد الجوري نسبة إلى جور وهي مدينة بفارس. قال ياقوت: «وهو أجود أصناف الورد وهو الأحمر الصافي» معجم البلدان ٢/ ١٤٧ مادة (جور).

ارتفاعـــها. فأما مسجدها الجامع فهو الفارق بينها وبين ما سواها والفائق بحسنه على كل المباني.

وفــي هذه المملكة ـ مصر والشام ـ من محاسن الأشياء ولطائف الصنائع ما تكفي شهرته. وبها من أنواع الصناع في الأسلحة والقماش والزركش والمصوغ والكفت[(١)] وغير ذلك، مما يكاد يعد تفردها به، والرماح التي لا يعمل في الدنيا أحسن منها.

[عساكر المملكة]

وأما عساكر هذه المملكة[(٢)] فمنهم من هم بحضرة السلطان، ومنهم من فرق في أقطار هذه المملكة وبلادها. ومنهم سكان بادية كالعرب والتركمان.

وجندها مختلط من أتراك وجركس وروم وأكراد وتركمان، وغالبهم من المماليك المبتاعين، وهم طبقات:

أكابرهم من له «إمرة مائة» فارس، وتقدمة ألف فارس. ومن هذا القبيل يكون أكابر النواب، وربما زاد بعضهم بالعشرة فوارس والعشرين.

ثم «أمراء الطبلخانات»[(٣)] ومعظم من تكون له إمرة اربعين فارساً، وقد يوجد فيهم من له أزيد من ذلك إلى السبعين، ولا تكون الطبلخانات لأقل من أربعين.

ثم «أمراء العشرات» ممن تكون له إمرة عشرة، وربما كان فيهم من له عشرون فارساً ولا يعد إلا في أمراء العشرات.

---

(١) الكفت: هو ما تطعم به أواني النحاس من الذهب والفضة «الخطط المقريزية ٢/ ١٠٥».

(٢) راجع في هذا الموضوع، السيد الباز العريني: «الفارسي المملوكي»، المجلة التاريخية المصرية ٥(١٩٥٦) ٤٧ـ ٧٢، إبراهيم حسن سعيد: الجيش في عصر سلاطين المماليك (رسالة ماجستير بجامعة القاهرة ١٩٦٣)، محمود نديم: الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري، القاهرة ١٩٨٣.

(٣) الطَّبْلخاناه: مفرده، جمعه: طبلخانات. لفظ مركب من كلمة طبْل العربية، وكلمة خاناه الفارسية، ويعنى بيت الطبل أو الفرقة الموسيقية السلطانية. «السلوك ١/ ٤٦هـ و٢/ ٥٢١هـ». وكانت تتكون من عدة طبول تصحبها أبواق وزمر تختلف أصواتها على إيقاع مخصوص، تدُق في كل ليلة بالقلعة بعد صلاة المغرب وتكون صحبة الطُّلب في الأسفار والحروب. «الصبح ٢/ ١٣٤ و٤/ ٨ـ ٩و١٣».
والناصر محمد بن قلاوون هو الذي بنى الطبلخاناه تحت القلعة، فيما بين باب السلسلة وباب المدرَّج سنة ٧٢٢هـ في موضع دار العدل القديمة التي بناها الظاهر بيبرس. «الخطط ٢/ ٢١٣».

ثم «جند الحلقة» وهؤلاء تكون مناشيرهم من السلطان؛ كما أن مناشير الأمراء من السلطان، وأما أجناد الأمراء فمناشيرهم من أمرائهم. وهؤلاء، جند الحلقة، لكل عدة أربعين نفراً مقدم منهم ليس له عليهم حكم إلا إذا خرج العسكر، كانت مواقفهم معه وترتيبهم في موقفهم إليه(١).

ويبلغ بمصر إقطاع بعض أكابر الأمراء المئين المقربين من السلطان مائتي ألف دينار جيشية، وربما زادت على ذلك. وأما غيرهم فدون ذلك ودون /٢٠٨/ دونه، ودون دونه إلى ثمانين ألف دينار وما حولها. وأما الطبلخانات فتبلغ الثلاثين ألف دينار وما يزيد، وينقص عليها إلى ثلاثة وعشرين ألف دينار. أما العشرات فنهايتها سبعة آلاف دينار إلى ما دون ذلك. وأما إقطاعات جند الحلقة فمنه ما يبلغ ألف وخمس مائة دينار. ومن هذا المقدار وما حوله إقطاعات أعيان الحلقة المقدمين عليهم، ثم ما دون ذلك إلى مائتين وخمسين ديناراً. وأما إقطاعات جند الأمراء فإلى ما يراه الأمير من زيادة بينهم ونقص.

وأما إقطاعات الشام فلا تقارب هذا المقدار، بل تكون على الثلثين منها، خلا ما ذكرناه عن بعض أكابر أمراء المئين المقربين، فإن هذا نادر لا حكم له، ولا أعرف في الشام ما يقارب هذ المقدار إلا ما هو لنائب الشام.

وكل جند الحلقة والإمرة تعرض بديوان جيش السلطان ويثبت باسمه وهيأته وحليته، ثم لا يستدل به أميره إذا شاء إلا تنزيل عوضه وعرض المعوض.

وللأمراء على السلطان في كل سنة ملابس، فأما من بحضرته فحظهم في ذلك

---

(١) قسَّم القلقشندي والمقريزي الجيش المصري في زمن المماليك البحرية إلى قسمين: أجناد الحَلْقة والمماليك السلطانية. وبلغ جنْد الحلقة ذروتهم في أيام الناصر محمد ابن قلاوون فقد بلغ عددهم كما رآهم المقريزي بنفسه في جرائد ديوان الجيش المتعلقة بأوراق الروك الناصري أربعة وعشرين ألف فارس. «الصبح ٤/ ١٥ـ ١٦، الخطط ١/ ٩٥».

وجنْد الحلْقة هم محترفو الجندية وكانوا يكوّنون عَصَب الجيش المماليكي. ويمثلون فيما بينهم وحدة اجتماعية عسكرية، ولكنهم قلّت أهميتهم قرب نهاية عصر المماليك.

أما اسم الحَلْقة الذي أطلق عليهم فلا يوجد له تفسير مقنع إلى الآن وإن كان يفترض أنهم كانوا في البداية وحدة تحيط بالسلطان كالحلقة مكوِّنة حرسه الشخصي فاكتسبت من هنا هذا الاسم. (راجع: السلوك ١/ ١٢٢هـ و٢٨١هـ، الفنون والوظائف للباشا) ٣٦٥ـ ٣٦٨، النظم الإقطاعية ٤٧٨، إبراهيم سعيد: الجيش في عصر سلاطين المماليك ٨٧ـ ١٠٥، محمود نديم: الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري ١٠٥ـ ١٢٠.

وافر، ولهم الخيول في كل سنة ينعم بها عليهم، ولأمراء المئين مسرجة ملجمة والبقية عرى، وتمتاز خاصتهم على عامتهم بذلك.

ولجميع الأمراء بحضرته، من المئين والطبلخانات والعشرات، الرواتب الجارية في كل يوم: من اللحم وتوابله كلها، والخبز، والشعير، والزيت، ولبعضهم الشمع والسكر والكسوة في السنة.

/ ٢١٠/ ومن شعار سلطنة[١] هذه المملكة أن يركب سلطانها في يوم دخوله إلى مدينة يحبها ويوم العيد وأيام ركوبه إلى الميدان للعب الكرة برقبة وهي بزراكش ذهب على أطلس أصفر يعمل على رقبة الفرس من تحت أذنيه إلى نهاية العرف، ويكون قدامه اثنان من أوشاقيته[٢] راكبين على حصانين أشهبين برقبتين نظير ما هو راكب كأنهما معدان لأن يركبهما، وعلى الوشاقين المذكورين قباوان أصفران من حرير بطرازين من زركش بالذهب، وعلى رأسيهما قبعان مزركشان، وغاشية السرج محمولة أمامه، وهي أديم مزركشة بذهب يحملها بعض الركاب دارية[٣] قدامه، وهو ماش في وسط الموكب، ويكون قدامه فارس يشبب بشبابة لا يقصد بنغمها الإطراب بل ما يقرع بالمهابة سامعه، ومن خلفه الجنائب[٤] وعلى رأسه العصائب السلطانية، وهي صفر مطرزة بذهب بألقابه واسمه.

وفي يوم العيدين ودخول المدينة يزيد على ذلك برفع المظلة على رأسه، وهي

---

(١) المقصود بشعار السلطنة أنواع الملابس والأدوات والترتيبات التي كان يظهر بها السلطان في المواكب الحَفِلَة. «الصبح ٤/ ٧ـ ٨، السلوك ١/ ٤٤٣هـ».

(٢) الأوشاقي (أوجاقي) جمع، مفرده: أو شاقية. لفظ فارسي معرب يدل على طائفة كانت مهمتهم، في عصر المماليك، العناية بالخيل وركوبها للتسيير والرياضة. «الصبح ٤/ ٨ و٥/ ٤٥٤، الخطط ٢/ ١٩٩ والسلوك ١/ ٤٣٣هـ و٢/ ١٨٣هـ، الفنون والوظائف للباشا ٢٨٩، نبيل عبد العزيز: الخيل ورياضتها في عصر سلاطين المماليك (القاهرة، مكتبة الأنجلو ١٩٧٦) ١٢١.
وفي تعليق لمحقق بدائع الزهور لابن إياس أن الأوجاقي أحد الخاصكية، وظيفته حراسة الأسير بأن يركب خلفه وفي يده خنجر مسلول!. «ابن إياس: صفحات لم تنشر من بدائع الزهور ٩٨هـ».
وعن عناية الناصر محمد بن قلاوون بالخيل وإنشائه ديواناً خاصاً لها، راجع: النجوم الزاهرة ٩/ ١٦٨.

(٣) الرِّكاب دارية: هم الذين يحملون الغاشية بين يدي السلطان في المواكب الحَفِلَة. وهم من موظفي الرِّكاب خاناه، وهو بيت الركاب الذي تكون به السروج واللجم والكنابيش، وموكل به موظف يعبر عنه بمهتار الركاب خاناه. «الصبح ٤/ ١٢، السلوك ١/ ٤٤٠هـ».

(٤) الجنائب: وهي الخيل المنقادة جانب الراكب. «تاج العروس ١/ ١٨٨».

الجِتْر[١]؛ وهو أطلس أصفر مزركش على أعلاه قبة وطائر من فضة مذهبة، يحملها يومئذ بعض أمراء المئين الأكابر وهو راكب فرسه إلى جانبه، وأرباب الوظائف والسلاح كلهم خلفه، وحوله وأمامه الطبرداريةـ وهم طائفة من الأكراد ذوي الإقطاعات والإمرة ـ يكونون مشاةً وبأيديهم الأطبار[٢] مشهورة.

ومن رسم الأمراء أن يركب الأمير منهم حيث يركب وخلفه جنيب، وأما أكابرهم فربما يركب بجنيبين، هذا في المدن والحاضرة وهكذا في البر. ويكون لكل منهم طلب مشتمل على أكثر مماليكه، وقدامهم خزانة محمولة للطبلخان على جمل واحد يجره راكب آخر على جمل والمال على جملين وربما زاد بعضهم على ذلك. وأمام الخزانة عدة جنائب تجر على أيدي مماليك ركاب خيل وهجن[٣]، وركابة من العرب على هجن، وأمامها الهجن بأكوارها مجنوبة للطبلخانات قطاراً واحداً، وهو أربعة /٢١١/ ومركوب الهجان والمال قطاران، وربما زاد بعضهم، وعدد الجنائب في كثرتها وقلتها إلى رأي الأمير وسعة نفسه، والجنائب على ما يراه، منها ما هو مسرج ملجم، ومنها ما هو بعتانه لا غير.

[زي أعيان هذه المملكة]

وأهل هذه المملكة يضاهي بعضهم بعضاً في الملابس الفاخرة، والسروج المحلاة، والعدد الفاخرة[٤].

---

(١) المِظَلَّة المعبر عنها بالجِتْر ـ بجيم مكسورة، قد تبدل سيناً معجمة، وتاء مثناة من فوق ـ قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب، على أعلاها طائرٌ من فِضَّة مَطْلية بالذهب، تحمل على رأس السلطان في العيدين، وهي من بقايا الدولة الفاطمية «الصبح ٤/ ٧ـ ٨». وضبطها القلقشندي في موضع آخر من الصبح ٢/ ١٣٣ (الجنز) بنون بين الجيم والزاي المعجمة.

(٢) الطَّبَر: فارسي بمعنى الفأس ويبدو أن أصله من مدينة طبرستان فقد ذكر ياقوت (معجم البلدان) أن طبرستان معناها ناحية الطبر، لأن أهل هذه النواحي كثيرة الحروب وكل أسلحتهم الأطبار.
والطبر المملوكي كانت ذات رأس شبه دائري تحلى بزخارف مفرغة أو مموهة بالذهب أو بكليهما، ويغلب أن تكون الزخارف على هيئة جامات تحتوي على تروس محفورة. وكانت هذه البلطة تثبت في قائم إما من المعدن أو من الخشب، ويحلى المعدني منها غالباً بالزخارف.

(٣) الهجن: وهي الخيل التي أبوها عربي وأمها من البراذين يعني من العجميات. «الصبح ٢/ ١٤» وفيه أيضاً «المولد بين العِراب والبراذين... قيل له هجين».

(٤) عن أنواع الملابس والخلَع المختلفة في زمن المماليك راجع «الملابس المملوكية» بترجمة صالح الشيتي (القاهرة، الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٢).

وأما زيهم فالأقبية التترية[١] والتكلاوات[٢] فوقها، ثم القباء الإسلامي[٣] فوقها، وعليه تشد المنطقة والسيف[٤]. ثم الأمراء والمقدمون وأعيان الجند تلبس فوقه أقبية قصيرة الأكمام أقصر من القباء التحتاني بلا تفاوت كبير في قصر الكم والطول، وكلوتات[٥] صغار غالبها من الصوف الملطي الأحمر وعليها عمائم صغار، ومهاميز[٦] على الأخفاف، ويعمل المنديل على الحياصة[٧] على الصولق[٨] من الجانب الأيمن.

هذا هو زي أهل هذه المملكة.

* * *

---

(١) القباء مفرده، جمعه: أقبية، ثوب يلبس فوق الثياب، سمي بذلك لاجتماع أطرافه «لسان العرب ٢٠/ ٢٨، والأقبية التترية ذات أصل أجنبي، وهي غير القباء التتري السلاري. كانت لها كمران يلفا الصدر من اليسار إلى اليمين بدلاً من عمل الشقة المستقيمة التقليدية للقمصان التي كانت تلبس في عصر الفاطميين. وكانت تصنع من الصوف والأطلس والحرير أو القطن البعلبكي، وكان لونه إما أبيض أو مزيّن بأشرطة باللونين الأحمر والأزرق ويطلق عليه اسم «المُشَهَّر» وله أكمام ضَيِّقة. «.,Mayer,L.A op. cit, p.21 وقارن المقريزي: الخطط ٢/ ٩٩ والسلوك ١/ ٥٨٤هـ و٨٢٠ و٢/ ٩٧».

(٢) يرى ماير أن التكلاوات كانت تلبس في الهند ومصر فقط.(Mayer, op.cit., p.21n.6) .

(٣) يبدو أن هذا الرداء كانت له طريقة عربية مميزة في التفصيل تخالف القباء التتري واللاري، ولكننا لا نملك وصفاً له.(Mayer, L.A., op.cit., p.22) .

(٤) قارن ذلك مع صبح الأعشى ٤/ ٤٠ ففيه: «يشد عليه السيف من جهة اليسار، والصولق والكزلك من جهة اليمين».

(٥) كلَّوْتَة مفرده، جمعه: كُلَّوتات: غطاء للرأس من الصوف المضرب بالقطن يلبس وحده أو بعمامة. استحدثها بمصر سلاطين الأيوبيين فكانوا يلبسونها من الجوخ الأصفر بغير عمائم وذوائب شعورهم مرخاة تحتها «الصبح ٤/ ٣٩، حسن المحاضرة ٢/ ١١٠ـ ١١١» وما زال الأمر كذلك حتى غير الأشرف خليل لونها من الصفرة إلى الحمرة وأمر بلبس العمائم من فوقها، فلما حج الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثالثة حَلق رأسه وترك ذؤابة شعره واستجد العمائم الناصرية. «الصبح ٤/ ٦، الخطط ٢/ ٩٨ـ ٩٩ و٢١٧، والسلوك ١/ ٤٩٣هـ، النجوم الزاهرة ٧/ ٣٣٠هـ».

(٦) المِهْمَاز، مفرده، جمعه: مَهَامِيز، آلة من حديد تكون في رجل الفارس فوق كعبه وفوق الخف وما في معناه ومؤخره إصبع محدّد الرأس إذا أصاب جانب الفرس تحرگت وأسرعت في المشي أو جدَّت في العدو. وهو تارة يكون من ذهب محض، وتارة يكون من حديد مطلي بالذهب أو الفضة. قال القلقشندي: وقد اعتاد القضاة والعلماء في زماننا تركه «الصبح ٢/ ١٣٦».

(٧) الحياصة، مفرد، جمعه: حوايص. حزام العسكريين ويعرف أيضاً بالمنطقة. «راجع، الصبح ٤/ ٤٠، الخطط ٢/ ٩٩» وكان في القاهرة سوق لبيع الحوائص «الخطط ٢/ ٩٩».

(٨) الصَّوْلق، مفرد، جمعه: وجمعها صوالق، كان العسكريون يرتدونه فوق القباء. وهو مصنوع من الجلد البلغاري الأسود. وأحياناً يكون كبير الحجم بقدر يتَّسع لأكثر من نصف ويبة من الغلال ومغروز فيه منديل طوله ثلاثة أذرع. «الخطط ٢/ ٩٨ و٢١٧، النجوم الزاهرة ٧/ ٧٨هـ».

ومعظم حوايصهم الفضة، ومنهم من يعملها من الذهب، وربما عملت باليشم ولا ترصع بالجواهر إلا في خلع السلطان لأكابر المئين، معظمهم يلبس المطرز. ولا يكفت مهمازه بالذهب، أو يلبس المطرز إلا من له إقطاع ف يالحلقة، وأما من هو يعد بالجامكية(١) فإنه لا يتعاطى ذلك.

وعلــى الجملة فزيهم ظريف وعددهم فائقة نفيسة، وملبوسهم منوع من الكمخا(٢) والخطانى والكنجى(٣)، والمخمل والإسكندراني والشرب والتصافي والأصواف.

[السلطان]

ذكر هيأته في جلوسه للمظالم

عادة هذا السلطان أن يجلس بكرة الاثنين ما كان بالقلعة، خلا شهر رمضان فإنه لا يجلس فيه، ومجلسه هذا هو في إيوان بظاهر قصره قريباً من بابه، وهو إيوان متسع على مرتفع السمك أمامه رحبة فسيحة. يسمى هذا الإيوان «دار العدل»(٤) وفيه تكون الخدمة العامة واستحضار رسل الملوك غالباً. فإذا قعد للمظالم كان جلوسه على كرسي إذا قعد عليه تكاد تلحق الأرض رجله، وهو منصوب إلى جانب المنبر الذي هو تخت الملك، ويجلس على يمينه: قضاة القضاة من المذاهب الأربعة، ثم الوكيل عن بيت المال، ثم الناظر /٢١٢/ في الحسبة. ويجلس على يساره كاتب السر،

(١) جامكية مفرد، جمعه: جامكيات (جوامك)، كلمة فارسية معناها الراتب المربوط لشهر أو أكثر. «النجوم الزاهرة ٨/ ٥٠هـ». وذكر القلقشندي أن نفقات المماليك كانت جامكيات وعليق وكسوى وغير ذلك (الصبح ٣/ ٤٥٣).

(٢) الكَمْخا. ثياب حريرية تصنع ببغداد وتبريز ونيسابور (رحلة ابن بطوطة ١/ ٢٤٥).

(٣) الكنجي: قماش منسوج من قطن وحرير، كان يصنع أولاً في كنجة بجهات أرات ثم انتقلت صناعته إلى مناطق أخرى «السلوك ١/ ٨٤٧هـ».

(٤) الإيوان المعروف بدار العدل. أنشأه السلطان المنصور قلاوون ثم جدّده ابنه الملك الأشرف خليل، واستمر جلوس نائب دار العدل فيه، فلما عمل الملك الناصر محمد بن قلاوون «الروك الناصري» أمر بهدم هذا الإيوان سنة ٧١١هـ وأعاد بناءه ثم زاد فيه في سنة ٧٣٥ وأنشأ به قبة وأقام به عمدا عظيمة نقلها من المعابد الموجودة بالصعيد، ورخّمه ونَصَب في صدره سرير الملك وعمله من العاج والأبنوس، ورفع سمك هذا الإيوان وعمل أمامه رحبة متسعة. (كنز الدرر ٩/ ٢٣٨ و٣٧٢ـ ٣٧٣، الصبح الأعشى ٣/ ٣٦٩، الخطط المقريزية ٢/ ٢٠٦ والسلوك للمقريزي ٢/ ١٠٣ و٥٥٨ـ ٥٥٩).
وقد اندثر هذا الإيوان الآن ومكانه اليوم الأرض القائم عليها جامع محمد علي باشا وملحقاته بالقلعة «النجوم الزاهرة ٨/ ٢٣٤هـ و٩/ ٥١هـ».

وقدامه ناظر الجيش وجماعة الموقعين تكملة حلقة دائرة. وإن كان ثم وزير من أرباب الأقلام كان بينه وبين كاتب السر، وإن كان الوزير من أرباب السيوف، كان واقفاً على بعد مع بقية أرباب الوظائف. وكذلك إن كان ثم نائب يقف مع أرباب الوظائف. ويقف من وراء السلطان مماليك صفان عن يمينه ويساره من السلاح دارية[١] والجمدارية[٢] والخاصكية[٣] ويجلس على بعد تقدير خمسة عشر ذراعاً من يمينه ويسرته ذوو السن من أكابر أمراء المئين، وهم أمراء المشورة[٤]؛ ويليهم من أسفل منهم أكابر الأمراء، وأرباب الوظائف وقوف، وبقية الأمراء وقوف من وراء أمراء المشورة، ويقف خلف هذه الحلقة المحيطة بالسلطان الحجاب والدوادارية لإحضار قصص الناس وإحضار المساكين وتقرأ عليه، فما احتاج إلى مراجعة القضاة راجعهم فيه، وما كان متعلقاً بالعسكر تحدث مع الحاجب وكاتب الجيش فيه، ويأمر في البقية بما يراه.

ذكر هيأته في بقية الأيام

عادة هذا السلطان في يوم الاثنين ما تقدم ذكره، وكذلك في يوم الخميس على مثل هذه الهيأة أيضاً، إلا أنه لا يتصدى فيه لسماع القصص ولا لحضرة أحد من القضاة وكاتب الجيش والموقعين، إلا إن عرضت حاجة إلى طلب أحد منهم. وهذا

---

(١) السلاح دار مفرد، جمعه: سلاح دارية، لقب الذي يحمل سلاح السلطان أو الأمير ويتولى أمر السلاح خاناه وما يتبع ذلك. (نهاية الأرب ٨/ ٢٢٨ـ ٢٢٩، الصبح ٥/ ٤٦٢).

(٢) الجَمَدَار مفرد، جمعه: جمدارية، لقب الذي يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه. وأصله جَامَادار فحذفت الألف بعد الجيم وبعد الميم استثقالاً وقيل جَمَدَار. وهو مركب من لفظين فارسيين أحدهما جاما بمعنى الثوب، والثاني دار بمعنى ممسك، فيكون المعنى «ممسك الثوب». (الصبح ٥/ ٤٥٩).

(٣) الخاصكية: فئة من المماليك السلطانية يختارهم السلطان من الأجلاب الذين ينضمون إلى خدمة السلطان وهم صغار، فيتخذ منهم حرسه الخاص. وكانوا يسمون أيضاً بالجوّانية وذلك في مقابل اسم البرانية الذي كان يطلق على المماليك والأمراء غير الخاصكية. وكانوا يلازمون السلطان في خلواته وفراغه. وكانت الخاصكية من المؤهلات للوظائف الكبرى بل وللسلطنة في بعض الأحيان. «السلوك ١/ ٦٤٤هـ، الزبدة ١١٥ـ ١١٦، الفنون والوظائف ٤٦٢ـ ٤٦٦).

(٤) أمراء المشورة، كانوا كهيئة مجلس استشاري للسلطان، يقول أبو المحاسن: «إنهم ينفذون أحوال المملكة بين يدي السلطان بمقتضى علمهم وحَسَب اختيارهم» (النجوم الزاهرة ١٠/ ١٩٠) واختلف عدد هؤلاء الأمراء في خلال التاريخ المملوكي فبينما ذكر المقريزي أنهم كانوا تسعة أنفار في سنة ٧٤٨هـ (السلوك ٢/ ٧٤٦) يذكر أبو المحاسن أنهم كانوا ستة أنفار في العام نفسه. (النجوم ١٠/ ١٩٠). وقارن: «كنز الدرر ٩/ ٢٣٩، السلوك ١/ ٤٠٥ و٧٣٥ و٢/ ٤٩٨ و٥٥١ هـ و٧٤٦هـ و٧٥٢هـ».

القعود عادتـه في طول السنة ما دام أنه بالقلعة في الاثنين والخميس غير رمضان أيضاً.

أما بقية الأيام فإنه يخرج من قصوره الجوانية إلى قصره الكبير(١) البراني، وهو شبابيك مطلة على اصطبلاته(٢)، وفي صدره تخت الملك المختص فيقعد تارة عليه وتارة يقعد دونه على الأرض، والأمراء وقوف على ما تقدم، خلا أمراء المشورة والقرباء منه فإنه ليس لهم عادة بحضور هذا المجلس. ولا يحضر هذا المجلس من الكبار إلا من دعت الحاجة إلى حضوره، ثم يقوم في الثالثة /٢١٣/ من النهار يدخل إلى قصوره الجوانية ثم إلى دار حريمه ونسائه، ثم يخرج في أخريات النهار إلى قصوره الجوانية لمصالح ملكه، ويعبر عليه إليها خاصته من أرباب الوظائف في الأشغال المتعلقة به على ما تدعو الحاجة إليه.

ذكر هيأته في الأسفار

قد تقدم ذكر هيأته في الأعياد وأيام الميادين. فأما في الأسفار فإنه لا يتكلف إظهار كل ذلك الشعار، بل يكون الشعار في موكبه السائر فيه جمهور مماليكه مع المقدم عليهم وأستاذدار وأمامهم الخزائن والجنائب والهجن.

وأما هو بنفسه فإنه يركب ومعه عدة كثيرة من الأمراء الكبار والصغار من الغرباء والخواص ونخبة من خواص مماليكه. ولا يركب في السير برقبة(٣) ولا بعصائب، بل تتبعه جنائب خلفه، ويقصد في الغالب تأخير النزول إلى الليل. فإذا جاء حملت قدامه فوانيس كثيرة(٤) ومشاعل(٥)، فإذا قارب مخيمه، تلقي بالشموع المركبة في

---

(١) المعروف بالقصر الأبْلَق.

(٢) الاصطبلات السلطانية كانت أسفل القلعة وقد زاد الاهتمام بها في أيام الناصر محمد بن قلاوون. (راجع عنها الخطط ٢/ ٢٠٤ و٢٢٨، النجوم ٩/ ٣٦هـ.

(٣) الرقبة: لباس لرقبة فرس السلطان تكون من حرير أصفر مطرَّزة بالذهب الزركش، ويدق القالب عليها حتى يصبح الحرير غير ظاهر فيها. تُشَدّ على رقبة فرس السلطان في المواكب العظام لتكون مضاهية لما يركب به من الكنبوش الزركش المغطى لظهر الفرس وكفله. (الصبح ٢/ ١٣٣ و٤/ ٨).

(٤) الفانوس، مفرد، جمعه: فوانيس، آلة كُرّية ذات أضلاع من حديد مغشاة بِخرْقة من الكتان الرقيق الصافي البياض تغرز شمعة في أسفل باطنه فيشف عن ضوئها، وجرت العادة أن يحمل منها اثنان أمام السلطان أو الأمير في أثناء سفر الليل. «الصبح ٢/ ١٣٧».

(٥) مشعل، مفرد، جمعه: مشاعل، آلة من حديد تشبه القفص مفتوحة من أعلى، وفي أسفلها خِرْقة توقد فيها النار بالحطب فينتشر ضؤوها. «الصبح ٢/ ١٣٧».

الشمعدانات المكفتة[١]، وصاحت الجاويشية بين يديه، فترجلت الناس كافة إلا حملة السلاح وراءه والأوشاقية وراءه، ومشت الطبردارية[٢] حوله حتى يدخل الدهليز الأول، ثم ينزل ويدخل إلى الشقة، وهي خيمة مستديرة متسعة، ثم منها إلى شقة مختصرة، ثم إلى لاجوق. ومدار كل خيمة من جميع جوانبها من داخل سور خركاه[٣] [من خشب][٤]، وفي صدر ذلك اللاجوق قصر صغير من الخشب ينصب له للمبيت فيه، وبإزاء الشقة الحمام بالقدور الرصاص الحوض على هيأة الحمام المبني في المدن إلا أنه مختصر. فإذا نام طافت به المماليك دائرة بعد دائرة وطاف بالجميع الحرس، وتدور الزفة حول الدهليز في كل ليلة مرتين: الأولى عندما يأوي إلى النوم، والثانية عند قعوده من النوم، كل زفة يدور بها أمير جاندار، وهو من أكابر الأمراء، وحوله الفوانيس والمشاعل والطبول[٥] والبياتة، وينام على باب الدهليز النقباء وأرباب النوب من الخدم.

ويصحب هذا السلطان في أسفاره من غالب ما تدعو الحاجة إليه حتى / ٢١٤/ يكاد يكون معه مارستان لكثرة من معه من الأطباء وأرباب الكحل والجراح والأشربة والعقاقير وما يجري مجرى ذلك، وكل من عاده طبيب ووصف ما يناسبه، يصرف من الشرابخاناه أو الدواخاناه[٦] المحمولين في الصحبة.

---

(١) يعني شمعدانات من النحاس المطعمة بالفضة. «انظر: الخطط ٢/ ١٠٥».

(٢) الطبردارية. الذين يحملون الأطبار أو الفؤوس حول السلطان عند ركوبه في المواكب وغيرها لحراسته. وفي صلاة الجمعة والعيدين كانوا يتقدمون السلطان وبأيديهم الأطبار بعد انتهاء الصلاة «معيد النعم ٣٥، الصبح ٢/ ١٤١، حسن الباشا: الفنون والوظائف ٧٣٥».

(٣) الخركاه. بيت من خشب مصنوع بهيئة خاصة، ويغشى بالجوخ ونحوه يحمل في أثناء السفر للمبيت به في الشتاء للوقاية من البرد «الصبح ٢/ ١٣٨».

(٤) زيادة من الصبح.

(٥) الطبول. ويقال الدبادب والبوقات والزَّمْر المعروف بالصهان الذي يضرب به عشية كل ليلة بباب الملك، وخلفه إذا ركب في المواكب ونحوها، وكانت تعرف في اصطلاح العصر بالطبلخاناه. «الصبح ٢/ ١٣٤».

(٦) الشراب خاناه. أحد الحواصل السلطانية الثمانية وهي: الطَّشْت خاناه، الفَراش خاناه، السِّلاح خاناه، الرِّكاب خاناه، الحَوائج خاناه، المَطْبخ، الطبلخاناه «الصبح ٤/ ٩-١٣»، وقارن: نهاية الأرب ٨/ ٢٢١-٢٢٨ فقد عدها خمس حيث أسقط الركا بخاناه والطبلخاناه والمطبخ وكذلك فعل الظاهري: زبدة ١٢٤».

والشراب خاناه أو بيت الشراب كانت تحوي أنواع الأشربة على اختلافها والمعاجين والأقراص وما =

[الأسمطة السلطانية]

ومن عادة هذا السلطان مد السماط[١] طرفي النهار في كل يوم لعامة الأمراء، خلا البرانيين[٢] فقليل ما هم.

وأما بكرة فيمد سماط أول لا يأكل منه السلطان، ثم ثان بعده يسمى الخاص قد يأكل منه السلطان وقد لا يأكل، ثم ثالث بعده ويسمى الطارىء ومنه مأكول السلطان.

وأما في أخريات النهار فيمد سماطان: الأول والثاني المسمى بالخاص، ثم إن استدعي بطارىء حضر وإلا فلا، خلا المشوي فإنه ليس له عادة محفوظة النظام، بل هو على حسب ما يأمر به. وفي كل هذه الأسمطة يؤكل ويفرق نوالات ويسقى بعدها الأقسيما المعمولة من السكر والأفاوية المطيبة بماء الورد والمبردة.

ومن عادة هذا السلطان أن يبيت قريب مبيته في كل ليلة أطباق فيها أنواع من المطجنات والبوارد والفطر والقشطة والجبن المقلي والموز والكيماخ، وأطباق فيها من الأقسيما والماء المبرد برسم أربا النوبة في السهر حوله، ليتشاغلوا بالمأكول والمشروب عن النوم. والليل مقسوم بالنوبة بينهم على الساعات الرمل، فإذا انتهت نوبة هبت التي تليها ثم ذهبت هي فنامت إلى الصبح، هكذا أبداً سفراً وحضراً. وتبيت في المبيت المصاحف الكريمة لقراءة من يقرأ منهم، ويبيت الشطرنج ليتشاغل به عن النوم.

[هيأته في صلاة الجمعة]

وهذا السلطان يخرج أيام الجمع إلى الجامع المجاور لقصره في القلعة[٣] ومعه خاصة الأمراء، وتجيء بقية الأمراء من باب آخر للجامع.

وأما السلطان فيصلي عن يمين المحراب في مقصورة خاصة، ويجلس عنده أكابر خاصته، ويصلي معه الأمراء ـ خاصتهم وعامتهم ـ خارج المقصورة عن يمينها

= في معناها، وكان المماليك يصرفون منها ما يحتاجونه من أدوية ومعاجين بمقتضى أوراق الأطباء. «نهاية الأرب ٢٢٤ـ ٢٢٥، الصبح ٤/ ١٠».

(١) السِّماط: مفرد، جمعه، أسْمطة. ما يبسط على الأرض لوضع الأطعمة وجلوس الآكلين (Dict. Ar. 1,684 Dozy, R, Suppl.)، وهو هنا بمعنى المائدة السلطانية، وفي الصبح ٤/ ٥٦ الخِوَان.

(٢) الأمراء البرَّانيين. المماليك والأمراء من غير الخاصكية. أما الخاصكية فكانوا يسمون بالجُوَّانية. (السلوك ١/ ٦٨٦).

(٣) يقصد جامع الناصر محمد بن قلاوون بالقلعة (راجع: الخطط ٢/ ٣٢٥، النجوم ٩/ ٥٦هـ).

ويسرتها على مراتبهم، فإذا سمع الخطبة وصلى صلاة الجمعة دخل إلى قصوره ودور خدمه/ ٢١٥/ وحرمه، وتفرق الناس كل واحد إلى مكانه.

ذكر انتهاء الأخبار إليه

عادة هذا السلطان أن يطالعه نوابه في مملكته بما يتجدد عندهم من مهمات الأمور أو ما قاربها، وتأخذ أوامره وتعود أجوبته عليهم بما يراه. وبين حضرة السلطان وجميع بلاد ممالكه مراكز بين المركز والمركز أميال، في كل مركز عدة خيل بريد[١] وللسلطان من الجند أناس بريدية في حضرته وفي كل بلد لحمل الكتب والعدو بأجوبتها. فإذا ورد بريدي بلداً من بلاد مملكته أو عاد المجهز من بابه، أحضره أمير جاندار ـ وهو من أمراء المئين ـ والدوادار، وكاتب السر بين يديه، فيقبل الأرض ثم يأخذ الدوادار الكتاب فيمسحه بوجه البريدي، ثم يناوله السلطان فيفتحه، ويجلس كاتب السر فيقرأه عليه ويأمر فيه بأمره.

ومما ينهى إليه من الأخبار ما يكتب في ورقٍ خفيف صغير، ويحمل على الحمام الأزرق وللحمام مراكز كل مركز منها ثلاثة من مراكز خيل البريد أو أزيد، لا يتعدى الحمام ذلك المركز ولا يمكنه تجاوزه، فإذا حمل الكتاب حلوه بنوع معزى ليعرف فلا يعارض ثم يسرج فإذا وصل إلى المركز المعد له أخذ عنه، ونقل إلى حمام غيره من ذلك المركز من مكان إلى مكان إلى حضرة السلطان[٢]

ومن عادة هذه المملكة أن ولاة أمور المدينة، وهم أصحاب الشرطة، تستعلم متجددات ولاياتهم في كل نهار ممن هم على المحلات من قبلهم، ثم يكتب متولي الشرطة مطالعةً جامعة لما يبعث إنهاؤه من ذلك، ويحمل إلى السلطان هذا بمتجددات ما يقع من قتل أو نفع أو حريق كبير أو يجري مجرى ذلك، فأما ما يقع للناس في أحوال أنفسهم فلا.

---

(١) عن مراكز البريد، راجع: التعريف بالمصطلح الشريف ١٨٤ـ ١٩٦، صبح الأعشى ١٤/ ٣٧٢ـ ٣٨٨.

(٢) عن مراكز الحمام الرسائلي، راجع: التعريف بالمصطلح الشريف ١٩٦ـ ١٩٧، صبح الأعشى ١٤/ ٣٨٩ـ ٣٩٤، وانظر: إبراهيم أحمد العدوي: «الحمام الزاجل في العصور الوسطى»، المجلة التاريخية المصرية ٢ (مايو ١٩٤٩) ١٣١ـ ١٣٨، نبيل محمد عبد العزيز: «الحمام الزاجل وأهميته في عصر سلاطين المماليك»، المجلة التاريخية المصرية ٢٢(١٩٧٥) ٤١ـ ٨٠.

فصـــل

ومن عوائد جيوش هذه الممالك الركوب في يومي الاثنين والخميس في الموكب. وهو مكان فسيح يكون بكل مدينة بها عسكر فيسيرون به، ثم يقف العسكر مع نائب السلطان أو الحاجب، إن لم يكن ثم نائب، وينادى /٢١٦/ على الخيل بينهم، وربما نودي على كثير من آلات الجند والخيم والخركاوات والأسلحة، وربما نودي على كثير من العقار، ثم إن كانوا بمصر طلعوا إلى الخدمة السلطانية بالقلعة، على ما ورد منا ذكره. والإذن لهم في الانصراف بعد أكل السماط، وإن كانوا في غير مصر نزلوا في خدمة النائب إلى مكان سكنه، وهو دار السلطنة، ويجلس النائب وتقرأ عليه القصص وينصف بين المظلومين، ويمد السماط ويأكل عامة الأمراء والجند ثم ينصرفون - وتزداد عساكر الشام بركوب يوم السبت على هذين اليومين - والنواب تقعد لقراءة القصص الاثنين والخميس والسبت، وربما قعدوا طرفي النهار في هذه الأيام لذلك.

[العلامة السلطانية]

ومن عادة هذا السلطان أن يكتب خطه على كل ما يأمر به. أما مناشير[1] الأمراء والجند وكل من له إطاع فإنه يكتب عليه علامته[2]. وعلامة السلطان القائم الآن:

---

(١) منشور، مفرد، جمعه: مناشير، كل وثيقة أو مكتوب لا تحتاج إلى خَتْم، لأن الوثائق التي تختم يجب أن تطوى حتى يمكن وضع الختم عليها. وعلى ذلك فإن تسمية الوثائق والمكاتيب بالمنشور مستمدة من الشكل المادي للمكتوب.
(محمد محمد أمين: «منشور بمنح إقطاع من عصر السلطان الغوري»، حوليات إسلامية An. Isl. ١٩ (١٩٨٣) ٨). وكان المنشور في عصر المماليك يطلق على كل ما يكتب للأمراء والجند بما يجري في أرزاقهم من ديوان الاقطاع «التعريف بالمصطلح الشريف ٨٨ـ ٨٩».

(٢) العلامة السلطانية. ما يكتبه السلطان بخطه، على صورة اصطلاحية خاصة، على المناشير. (التعريف ٨٣، الخطط ٣/ ٢١١. وخبر العلامة السلطانية في خطط المقريزى منقول كله عن العمري).
وقد أشار المرحوم الدكتور زيادة في موضعين إلى تطور الإجراءات الإدارية المتبعة في توقيع الأوراق الرسمية منذ عهد الفاطميين والأيوبيين، ثم لجوء المماليك إلى اتخاذ علامات دينية خاصة بهم. ونقل عن كاترمير وصف كيفية استخدام فوطة العلامة وإثباتها على المناشير «السلوك ١/ ٣٤٤هـ و ٢/ ٨٥هـ».

السلطان الملك الناصر ناصر الدنيا والدين أبي المعالي محمد ابن الملك المنصور قلاون خلد الله دولته الله أملي

الله أملي

وأما تقاليد النواب(١)، وتواقيع(٢) أرباب المناصب من القضاة والوزراء والكتاب وبقية أرباب الوظائف، وتواقيع الرواتب والإطلاقات(٣) فإنه يكتب عليها اسمه واسم أبيه، صورته:

محمد بن قلاون

وأما كتب البريد وخلاص الحقوق والظلامات، فإنه يكتب عليها أيضاً اسمه، وربما كرم من يكتب إليه، فأما من كرمه من ذوي السيوف كتب له:

والده محمد بن قلاون

وأما من كرمه من ذوي العمائم المدورة من القضاة والوزراء، كتب له أخاه بدلاً من والده.

فأما الإقطاعات فالرسم فيها أن يقال:

خرج الأمر الشريف

وأما الوظائف والرواتب والإطلاقات فالرسم فيها أن يقال:

رسم بالأمر الشريف

وليس هذا بموضع استيعاب أوضاع المكاتبات، ولو أخذنا في هذا لطال، ولكنا نذكر نبذة تتعلق بالمناشير والتقاليد والتواقيع إذ كانت هي الأصل لجريان الأرزاق بها.

فأعلاها ما افتتح بخطبة [أولها]: «الحمد لله»، /٢١٧/ ثم ما افتتح بخطبة

---

(١) تقليد: مفرد، جمعه: تقاليد، أي أمر التولية وتفتتح دائماً «بالحمد لله» (التعريف ٨٧، الصبح ١١/ ١٠١ـ ١٠٧ وبه تفصيلات هامة).

(٢) توقيع، مفرد، جمعه: تواقيع: اسم لما يكتب في حواشي القصص كخط الخليفة أو الوزير هكذا كان مدلولها عند القدماء. (الصبح١/ ٥٢و ١١/ ١١٤).
ثم أصبحت عَلَماً على نوع خاص من المكاتبات التي تكتب بالوظائف لأرباب السيوف الدينية والديوانية. «راجع، التعريف ٨٧ـ ٨٨، الصبح ١١/ ١١٤ـ ١٢٧، المقصد الرفيع ٢٠٨».

(٣) الإطلاق: مفرد، جمعه، إطلاقات: وهو تقرير ماأطلقه الملوك السابقين من أحباس، أو إطلاق ما لم يكن مقرراً من قبل. (انظر نماذج له: الصبح ١٣/ ٤١ـ ٤٧).

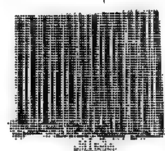
أولها: «أما بعد حمد الله»، حتى تأتي على: «خرج الأمر في المناشير» أو «رسم بالأمر في التواقيع»، ثم بعد هذا انزل الرتب وهو أن يفتتح في المناشير «خرج الأمر»، وفي التواقيع «رسم بالأمر». وتمتاز المناشير المفتتح فيها بخطبة «الحمد لله» بطغرى[١] بالسواد تتضمن اسم السلطان وألقابه.

[الإقطاع]

ومن عادة هذا السلطان في الإقطاعات[٢] للجند أن يتولى بنفسه استخدامهم، فإذا وقف قدامه من يطلب الإقطاع المحلول ووقع اختياره على واحد، أمر كاتب الجيش بالكتابة له فيكتب ورقة مختصرة تسمى «المِثَال»[٣] مضمونها: حر فلان كذا،

---

(١) والطغرى وتكتب طغرا، مفرد، جمعه: طغراوات، هي الألقاب السلطانية التي كانت تكتب للمناشير التي تمنح إقطاعاً لكبار المماليك، والعادة أن تكون فوق وصل بياض فوق البسملة. وكان لها موظف مخصوص بعملها وتحصيلها بالديوان. فإذا كتب الكاتب منشور أخذ من تلك الطغراوات وألصق فيما كتب به« التعريف ٨٩، المقصد الرفيع ٢٩٢، الصبح ١٣/ ١٦٢».
ومثالها: «السلطان الملك الفلاني فلان الدنيا والدين سلطان الإسلام والمسلمين ملك البسيطة» بألقاب طوال ذهب مزدوجة سطر واحد ويكتب الاسم بين الألقاب قاطع ومقطوع وتحته «خلَّد الله سلطانه».



وقارن: القلقشندي، الصبح ١٣/ ١٦٢-١٦٦ وهذه صورة طغرى بألقاب الناصر محمد بن قلاوون: «السلطان الملك الناصر و ناصر الدنيا والدين، محمد ابن السلطان الشهيد الملك المنصور سيف الدين قلاوون» وتحتها «خلّد الله سلطانه».

(٢) الإقطاع: مفرد، جمعه: إقطاعات، اختلف مدلول لفظ الإقطاع بالنسبة للمكان والزمان في الدولة الإسلامية، وفيما يخص مصر فإن السلطان صلاح الدين هو الذى أدخل الإقطاع الحربي إلى مصر فصارت أراضي مصر منذ هذا التاريخ تقطع للسلطان وأمرائه وأجناده. «الخطط ١/ ٩٧».
والإقطاع بمعنى منح أراض بغرض الانتفاع بها وبدخلها، وقد لجأت الحكومات الإسلامية إلى نظام الإقطاع كوسيلة لدفع رواتب الجنود.
لتفصيلات أكثر حول هذا الموضوع، راجع: الباز العريني: الإقطاع الحربي بمصر زمن سلاطين المماليك (القاهرة ١٩٥٦) و« الإقطاع في الشرق الأوسط منذ القرن السابع حتى القرن الثالث عشر الميلادي - دراسة مقارنة» حوليات كلية الآداب - جامعة عين شمس ٤(١٩٥٧) ١١٣-١٤٨، طرخان، إبراهيم علي: النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦٨).

(٣) المِثَال: مفرد، جمعه: المثلات، أول أوّل ما كان يكتب من الأوراق الرسمية إيذاناً بمنح أحد المماليك إقطاعاً من الإقطاعات المحلولة، وهو عبارة عن ورقة تكتب فيها بيانات الإقطاع بعد ترك ثلثيها من أعلاها بياضاً، «الصبح ١٣/ ١٥٣-١٥٤، المقصد الرفيع المنشا ٢٩٠ و، الخطط ١/ الزاهرة ٨/ ٩١، محمد محمد أمين: المرجع السابق ٥-٦).

ثم يكتب فوقه رسم المستقر له، ويناولها السلطان ويكتب عليها بخطه: يكتب، ويعطيها الحاجب لمن رسم له، فيقبل الأرض، ثم يعاد إلى ديوان الجيش فيحفظ شاهداً عندهم. ثم تكتب «مُرَبَّعَة»[1] مكملة بخطوط جميع مباشري ديوان الإقطاع[2] وهم: [كتاب] ديوان الجيش وعلائمهم، ثم يؤخذ عليها خط السلطان، ثم تحمل إلى ديوان الإنشاء والمكاتبات فتكتب المناشير، ثم يعلم السلطان عليها علامة على ما تقدم ذكره ثم يكمل ذلك «المنشور» بخطوط ديوان الإقطاع بعد المقابلة على صحة أصله.

فأما الاستخدام في البلاد الشامية فليس للنواب مدخل في تأمير أميرٍ عوض أمير مات، بل إذا مات أمير ـ سواء كان كبيراً أو صغيراً ـ طولع السلطان بموته فأمر من أراد عوضه، إما ممن في حضرته ويخرجه إلى مكان الخدمة، أو ممن هو في مكان الخدمة أو نقل إليه من بلد آخر على ما يراه في ذلك.

فأما جند الحلقة فإذا مات أحد منهم استخدم النائب عوضه، وكتب على نحو من ترتيب السلطان «المثال» ثم «المربعة»، وتجهز «المربعة» مع البريد إلى حضرة السلطان فيقابل عليها في ديوان الإقطاع، ثم إن أمضاها السلطان كتب عليها: يكتب، فتكتب بها مربعة من ديوان الإقطاع، ثم يكتب عليها من ديوان الإنشاء كما تقدم في الجند الذين في الحضرة. وإن كان ما يمضيها السلطان أخرجها لمن يرى، ثم يكون حكم الكتابة به حكم ما تقدم.

ومن مات من الأمراء والجند، /٢١٨/ قبل استكمال مدة الخدمة حوسب ورثته على حكم الاستحقاق، ثم إما يرتجع منهم أو يطلق لهم على قدر حصول العناية بهم.

وإقطاعات الأمراء والجند منها ما هو بلاد يستغلها مقطعها كيف شاء،

---

(١) المُرَبَّعَة: ورقة مربعة الشكل تجعل على هيئة صفحتين متقابلين.
(راجع نص ما يكتب في المربعة وكيفيته في: المقصد الرفيع المنشا ٢٩٠ و ـ ٢٩٠ ظ، «الصبح ١٣/ ١٥٤ ـ ١٥٥، محمد محمد أمين: المرجع السابق ٧ ـ ٨).

(٢) في الأصل: «بخطوط جميع الديوان الإقطاع».
والمثبت من الخطط ١/ ٣٩٧ حيث يذكران أن متولي الإقطاعات كان ضمن ديوان المجلس، والمعروف أن هذا الديوان بطل في أيام الكامل محمد في سنة ٦٢٦ «أخبار مصر لابن ميسر ٧٧» ويبدو أن الدولة المماليكية استحدثت ديواناً مستقلاً للإقطاع كان يعمل في إطار ديوان الجيش. «المقصد الرفيع ٢٩٠ و، «الصبح ١٣/ ١٥٣».

ومنها ما هو نقد على جهات يتناولها منها.

[أرزاق أرباب الدولة]

فأما أرزاق ذوي الأقلام فإنها مشاهرة من مبلغ عين وغلة، ولأعيانهم الرواتب الجارية في اليوم من: اللحم بتوابله أو غير توابله، والخبز والعليق لدوابهم، ولأكابرهم السكر والشمع والزيت والكسوة في كل سنة والأضحية، وفي رمضان السكر والحلوى. وأكبر من هؤلاء كالوزير له في المدة مائتان وخمسون ديناراً جيشية، ومعه ما ذكر من الأصناف والغلة، إذا تسطر وتمت كانت بنظيرها، ثم ما دون ذلك، وما دون دونه، ومن هو في الحضرة أمين في ذلك.

وأما القضاة والعلماء، فالقضاة أرزاقهم على السلطان وأكثرها خمسون ديناراً في كل شهر، ولهم المدارس التي يستدرون من أوقافها.

وفي دمشق معالم حكامها على وقف برسم مصالح المسلمين مضاف إلى مال مسجدها الجامع.

وأما العلماء فليس لأحد منهم شيء إلا من أوقاف مدارسه، إلا من له على سبيل الراتب أو الادراري، وذلك قليل نادر لا حكم له فيعرج على ذكره.

ولهذا السلطان صدقات جارية، ورواتب دارة، منها ما هو أرض من بلاد، ومنها ما هو مرتب على جهات من مبلغ وغلة وخبز ولحم وزيت وكسوة، واللحم والزيت والكسوة قليل نادر لمن حصلت له بعناية، فأما الأرض والمبلغ والغلة والخبز فكثير جداً ومتسع أمره، وفي الغالب يتوارثه الأبناء عن الآباء، والأخ عن الأخ، وابن العم عن ابن العم، حتى إن كثيراً ممن يموت ويخرج إدراره من مرتبه فيحضر القريب بعد ذلك ويقدم قصة[1] يذكر فيها أولويته بما كان لقريبه فتعاد له.

وفي هذه المملكة قائمة شعائر الإسلام بالمساجد والخطابات في جميع القرى. وأما الأرزاق والادرارات فلا توجد إلا بتواقيع /٢١٩/ السلطان ما قل منها وما جل.

وهذه المملكة تشتمل على عدة من القلاع والحصون والمعاقل، وبكل منها نائب

---

(١) القصة: الطلب أو الالتماس أو الشكوى. وهى هنا تعنى الطلب الذي يقدمة الجندي للحصول على الإقطاع، أو إعادة إقطاع خرج عنه. (محمد محمد أمين: المرجع السابق ٥هـ).

وحاكم شرعي وخطيب ومؤذن وكحال وجرائحي وحفظة، ولحفظتها جوامك لا إقطاعات. وبها آلات التحصين وذوو أعمال وصناعات، والحجارون والنجارون والحدادون وما تدعو إليه ضرورة مثل ذلك.

* * *

زي ذوي العمائم المدورة

نبدأ «بالقضاة والعلماء» وزيهم دِلْق[١] متسع بغير تفريج، فتحته على كتفه، وشاش كبير منه ذؤابة بين الكتفين طويلة.

وأما من دون هؤلاء فالفرجية[٢] الطويلة الكم بغير تفريج والذؤابة أيضاً.

فأما زهادهم فيقصر الذؤابة ويميلها إلى الكتف الأيسر على المسنون[٣]، ولا يلبس أحد منهم الحرير، ولا ما فيه حرير، ومنهم من يلبس الطيلسان[٤].

فأما قاضي القضاة الشافعية فرسمه الطرحة[٥] وبها يمتاز[٦].

ويركب أعيان هذه الطائفة البغلات بسروج غير مفضضة، ويتخذ عوض الطمنكيات في السروج عرقشينات، وهي شبيه بثوب الهرج مختصر منه وهو من جوخ[٧]، وقد يكون من أنواع الأديم، ويشق ويعمل بين السرج ومبيرته. وقضاتهم

---

(١) الدِلْق، مفرد، جمعه: أدلاق، نوع من الملابس خاص بالعلماء، ويُلْبس تحت العباءة الفوقانية.

(٢) الفَرَجِيَّة: ثوبٌ متَّسع يُصْنَع في العادة من الصوف أو الجوخ، له أكمام طويلة متَّسعة تتعدى أطراف الأصابع بقليل وهو أشبه بالجبة ويلبس فوق الدلق.

(٣) في سنن الترمذي ٣/ ١٣٩ : «كان النبي ﷺ إذا اعتم سدل عمامته بين كتفيه».

(٤) الطَّيْلَسَان: أقرب الأزياء شبهاً بالطرحة وهو نوعان: فيشار أحياناً إلى طيلسان به قطعة مقطوعة من الوسط، وأحياناً أخرى إلى طيلسان من قماش مقوَّر، وقد أطلق على الأخير في القرن التاسع الهجري اسم «طرحة».

ومع وجود الجزء المقوّر أو المقصوص من الطيلسان فيحتمل أنه لم يكن يلبس فوق الصدر والظهر بل كان يلبس كا لطرحة فوق العمامة.

وكان الطيلسان المقور من زي القضاة منذ العصر الفاطمي فقد خلعه الخليفة المستنصر علي بدر الجمالي «الخطط ١/ ٣٨٢».

(٥) الطَّرْحة: وشَاح يلبس فوق العمامة ويلتف حول الرقبة ويسترسل على الكتفين. «السلوك ١/ ٥٤٠».

(٦) «الصبح ٤/ ٤٢» وصار يتميز بذلك في زمنه قاضي القضاة الشافعية. وقاضي القضاة الحنفية. «حسن المحاضرة ٢: ٣٢٠».

(٧) قماش مستورد من أوربا كان يعتبر قليل الجودة.

تعمل ذلك بدلاً من الكنبوش الزناري، وهو من الجوخ شبيه بالعباءة المجومة الصدر مستدير من وراء الكفل، لا يعلوه بردنب ولا قوش. وربما ركبوا بالكنابيش وهؤلاء لجمهم كبار ثقال الوزن.

وأما «الوزراء والكتاب» فزيهم الفرجيات المفرجة من الصوف، ومن المحبرات[١] عمل الإسكندرية وغير ذلك، والنصافي والبياض، ويعمل أكابرهم الباذهنجات[٢] في الأكمام ويلبس البغلطاق[٣] من تحت فراجيهم، وربما لبسوا الجباب المفرجة من ورائها.

ويختلف ركوبهم وغالبه شبيه بالجند أو مقارب له. وتجمُّل هذه الطائفة بمصر أقل مما هم عليه بالشام في زيهم وملبوسهم ومركبهم، إلا ما يحكى عن قبط مصر في بيوتهم من اتساع الأحوال والنفقات، حتى إن الواحد منهم يكون في ديوانه بأردى اللباس ويأكل أدنى المآكل ويركب / ٢٢٠/ الحمار، حتى إذا صار في بيته انتقل من حال إلى حال وخرج من عدم إلى وجود. ولقد يبالغ الناس فيما يحكى من ذلك عنهم لبعد أحوالهم وتباين أمريهم.

فأما التجار وأخلاط عامة الناس فتختلف أحوالهم في الملابس والزي حتى إن الفقراء، وإن جمعهم زي الفقر وزيفه وضمهم لباس التصوف، فإنهم تتابين حالاتهم في الملابس وأطوارهم في التشكيلات.

الكلام على أرباب الوظائف في هذه المملكة

نقول إن جميع الوظائف[٤] التي في حضرة السلطان لا نذكر منها إلا أعيانها،

---

(١) في سنن الترمذي ٣/ ١٥٩: «كان أحب الثياب إلى رسول الله ﷺ يلبسها الحبرة» وهي نوع من البرود تستعمل اليوم من النسوان خاصة في وقت السفر. «قاموس ٥٨٢ـ ٢/ ٤٩٩».

(٢) الباذهنجات: فتحات للتهوية.

(٣) البُغْلَطاق ويقال البُغْلوطاق، مفرد، جمعه: بَغَاليق (لفظ فارسي يعني قباء أو رداء من الأردية الفوقانية ذات الأكمام الضيقة يلبس تحت الفرجية. قال المقريزي: «واستجد الأمير سلار في أيام الملك الناصر محمد القَبَاء الذي يعرف بالسلاري وكان قبل ذلك يعرف ببغلوَطاق».
«الخطط ٢/ ٩٩، والسلوك ١/ ٥٨٤هـ و٢/ ٩٧، النجوم ٧/ ٣٣١هـ».

(٤) الحديث عن أرباب الوظائف، سواء من ذوى السيوف أو الأقلام أو العلم، أكثر تفصيلاً وتنظيماً عند القلقشندي عما ورد في المسالك ـ رغم أن القلقشندي يعتمد اعتماداً كلّياً على العُمَري. فقد أجْمَل العمري ذكر الوظائف واكتفى بشرح بعضها وترك بعضها الآخر دون شرح، بينما عيَّنها القلقشندي وقام بشرحها جميعاً. لذلك فليراجع في هذا الموضوع: صبح الأعشى ٤/ ١٦ـ ٣٩، والفنون الإسلامية =

وأما صغار الوظائف فجزء من كل، فلا حاجة بنا إلى ذكرها، وكل ما نذكره مما هو في الحضرة نظيره في كل مدينة من قواعد مدن هذه المملكة، ويبقى الفرق ما بينهما الفرق ما بين المكانين.

الوظائف الكبار

فمن ذوي السيوف

إمرة سلاح. الدوادارية. الحجوبية. إمرة جاندار. الأستاذدارية. المهمندارية[(١)]. نقابة الجيوش. الولاة.

ومن ذوي الأقلام

الوزارة. كتابة السر. نظر الجيش. نظر الأموال. نظر الخزانة. نظر البيوت. نظر بيت المال. نظر الاصطبلات.

ومن ذوي العلم

القضاة. الخطباء. وكالة بيت المال. الحسبة.

ثم نقول: إن هذا السلطان أبطل النيابة والوزارة بحضرته. ثم لما كانت «النيابة» قائمة كان النائب أولاً سلطاناً مختصراً، وكان هو الذي يفرق الإقطاعات ويعين الأمراء. وفي هذا القول الكفاية.

وأما «الوزارة» فكان يليها من أرباب السيوف والأقلام على قدر ما يتفق.[(٢)]

وكان الوزير ثاني النائب في المكانة، فأما الآن فإن السلطان بقي المفرد بما كان للسلطنة من العظمة، والنيابة من التصرف.

= والوظائف على الآثار العربية ١ـ ٣(القاهرة، دار النهضة العربية ١٩٦٥ـ ١٩٦٦)، نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر (القاهرة، مكتبة الأنجلو ١٩٦٧) ٢/ ٤٣ـ ٥٦.

(١) المَهْمَنْدارية: موضوعها تلَقِّي الرُّسل الواردين وأمراء العربان وغيرهم ممن يرد من أهل المملكة وغيرها. «الصبح ٤/ ٢٢» ومتوليها هو المَهْمَنَدار، وهو مركب من لفظين فارسيين: أحدهما مَهْمَن ـ بفتح الميمين ـ ومعناه الضيف، والثانى دار ومعناه ممسك، ويكون معناه ممسك الضَيف، والمراد المتصدي لأمره. «الصبح ٥/ ٤٥٩».

(٢) عن نظام الوزارة في زمن المماليك، انظر: دراسات في تاريخ المماليك البحرية وفي عصر الناصر محمد بوجه خاص (القاهرة ١٩٤٤) ٢٥٤ـ ٢٦١، الفنون والوظائف ١٣٣٤ـ ١٣٣٦، دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر (القاهرة ١٩٧٩) ١/ ٤٢ـ ٤٨.

وأما الوزارة فإنه أبطلها واستخدم في أيام هذا السلطان [الناصر محمد بن قلاوون] وظيفة تسمى مناشيرها «نظر الخاص»[١]

/٢٢١/ أصل موضوعها أن يكون مباشرها متحدثاً فيما هو خاص بمال السلطان، يتحدث في مجموع الأمر في الخاص بنفسه، وفي العام يأخذ رأيه فيه، فبقي تحدثه فيه وبسببه كأنه هو الوزير لقربه من السلطان وزيادة تصرفه.

ولنذكر وضع كل وظيفة مما ذكرنا.

ذكر الوظائف

[وظائف أرباب السيوف]

أما «النيابة» فقد تقدم قولنا: إنه سلطان مختصر فيما هو نائب عن الحضرة، وإن النائب هو المتصرف المطلق التصرف في كل أمر يراجع في الجيش والمال والخبر وهو البريد، وكل ذي وظيفة في نيابة لا يتصرف إلا بأمره، ولا يفصل أمراً مفصلاً إلا بمراجعته، وهو يستخدم الجند ويرتب في الوظائف، وأما ما هو جليل منها كالوزراء والقضاة وكتابة السر والجيش فإنه ربما عرض على السلطان من يصلح وقل أن لا يجاب، وربما سمى أكابرهم هؤلاء النواب «ملك الأمراء»[٢]. وإذا حصلت المنافسة لا يستحقها إلا من هو بدمشق؛ لأنها ليس بالشام قاعدة الملك سواها.

وأما «النيابة العظمى» فهي نيابة الحضرة، ويسمى هذا النائب «كافل الممالك»[٣]، وقد نبهنا فيما تقدم على كبير محله وهو السلطان الثاني. وجميع

---

(١) نظر الخاص: وظيفة محدثة فرع من الوزارة حلَّت هذه الوظيفة محل وظيفة «نظر الخزانة الكبرى» استحدثها الناصر محمد بن قلاوون. وأوَّل من تولى هذا المنصب كريم الدين عبد الكريم بن هبة الله بن السديد سنة ٧١٤هـ «الصبح ٣/ ٤٥٢ و ١١/ ٣٣٩، الخطط ٢/ ٢٢٧، الدليل الشافي ٤٢٦، حسن المحاضرة ٢/ ١١٥ و ١٣٠ـ ١٣١، بدائع الزهور ١/ ١/ ٤٤٤ و٤٥٣. وراجع: الصبح ٤/ ٣٠ و٥/ ٤٦٥ و١١/ ٣١٦، الفنون ١٢٠٧ـ ١٢١٠».

(٢) ملك الأمراء: من الألقاب التي اصطلح عليها لكفَّال الممالك من نوَّاب السلطنة، كأكابر النوَّاب بالممالك الشامية ومن في معناهم. وذلك أنه قام فيهم مقام الملك في التصرف والتنفيذ، والأمراء في خدمته كخدمة السلطان. «الصبح ٥/ ٤٥٥».

(٣) كافل الممالك الإسلامية: هو نائب السلطان بالحضرة، يحكم في كل ما يحكم فيه السلطان، ويُعلِّم في التقاليد والتواقيع والمناشير وغير ذلك... على كل ما يعلم عليه السلطان، وبقية النواب لا يعلم الرجل منهم إلاَّ على ما يتعلق بخاصة نيابته. «التعريف ٦٥». ويميز عن نواب السلطان بالممالك الشامية بأن يعبر عنه بـ «كافل المملكة الشريفة الإسلامية». (الخطط ٢/ ٢١٥، الصبح ١١/ ١٣٤).

نواب الممالك تكاتبه في غالب ما تكاتب فيه السلطان ويراجعونه فيه كما يراجع السلطان، وهو يستخدم الجند من غير مشاورة، ويعين الأمراء ولكنه بمشاورة السلطان.

وعادته أن يركب بالعسكر في أيام المواكب وينزل الجميع في خدمته. فإذا مثل في حضرة السلطان، وقف في ركن الإيوان، فإذا انقضت الخدمة، خرج إلى داره والأمراء معه ومد لهم السماط كما يمد السلطان ويجلس جلوساً عاماً للناس، ويحضره أرباب الوظائف، ويقف قدام الحجاب وتقرأ عليه القصص وتقدم إليه الشكاة، ثم يصرف الناس.

ولما كانت النيابة قائمة على هذه الصورة، لم يكن السلطان يتصدى بنفسه لقراءة القصص /٢٢٢/ عليه وسماع الشكوى، بل كان يكتفى بالنائب. ثم إن النائب إذا قرئت عليه القصص: فما كان يكفى فيها مرسومه أصدره عنه، وما لم يكن فيه بد من صدور مرسوم سلطاني فيه أمر بكتابته عن السلطان وإصداره فيكتب ويثبته، فيما يكتب أنه بإشارته ثم يصدر. وما كان من الأمور المعضلة التي لابد له من إحاطة علم السلطان بها، يعلمه بها تارة منه إليه وقت اجتماعه به، وتارة يرسل من يعلمه بها ويأخذ أمره فيها.

وكان ديوان الإقطاع، وهو الجيش في زمان النيابة، ليس لهم خدمة إلا عنده ولا اجتماع إلا به ولا اجتماع لهم بالسلطان في أمرٍ من الأمور. وأما الوزير وكاتب السر فقد يراجعانه في بعض الأمور دون بعض. ثم اضمحلت النيابة بالحضرة وتقهقرت أوضاعها، وأما الآن فقد بطلت.

وأما «الحجبة»: فهي موضوعة[1] لأن صاحبها ينصف بين الأمراء والجند تارة بنفسه، وتارة بمشاورة السلطان، وتارة بمشاورة النائب إن كان. وإليه تقديم من يعرض ومن يرد، وعرض الجند وما ناسب ذلك. وأما مع عدم النيابة فهو المشار إليه في الباب والقائم مقام النواب في كثير من الأمور.

---

(١) عن أصل وظيفة الحاجب وتأريخها، راجع: الصبح ٥/ ٤٤٩ـ ٤٥٠، معيد النعم ٤٠ـ ٤٢، النجوم ٧/ ١٨٥، حسن الباشا: الفنون والوظائف ٣٨٨ـ ٣٩٣، ماجد: نظم سلاطين المماليك ٢/ ٤٥ـ ٤٦.

وأما «إمرة جاندار»: فصاحبها كالمتسلم للباب[(١)]، وله به البَرْدَدَارية[(٢)] وطوائف الركابية والحريسانية والجاندارية. وهو يقدم البريد مع الدودار وكاتب السر، على ما قدمنا ذكره. وإذا أراد السلطان تعزير أحد أو قتله كان على يد صاحب هذه الوظيفة، وهو المتسلم للزردخاناه التي هي أرفع قدراً في الاعتقالات من السجن المطلق، ولا تطول مدة المعتقل بها، بل إما أن يعمل بتخلية سبيله أو إتلاف نفسه، وقد قدمنا القول إن صاحب هذه الوظيفة يدور بالزفة حول السلطان في سفره مساء وصباحاً.

وأما «الأستاذدار»[(٣)]: فإليه أمر بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان، وهو الذي يمشي بطلب السلطان [في السرحات والأسفار] و[له] الحكم في غلمانه وباب /٢٢٣/ داره، وإليه أمور الجاشنكرية، وإن كان كبيرهم نظيره في الإمرة من ذوي المئين، وله حديث مطلق وتصرف تام في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من النفقات والكساوى وما يجري مجرى ذلك.

وأما «إمرة سلاح»[(٤)]. فهو مقدم السلاح دارية والمتولى لحمل سلاح السلطان في المجامع الجامعة، وهو المتحدث في السلاح خاناه وما يستعمل لها وما يقدم إليها ويطلق منها، وهو من أمراء المئين.

---

(١) المعروف بأمير جَانْدَار: وهو اسم يتألَّف من ثلاث كلمات: أمير العربية، وجان الفارسية و التركية ومعناها الروح، ودار الفارسية ومعناها ممسك. فيكون المعنى الكلى «الأمير الممسك للروح» قال القلقشندي: «ولم يظهر لي وجه ذلك إلا لمن يأمن عاقبته».
«الصبح ٥/ ٤٦١».

(٢) البَرْدَدَارية وواحدها بَرْدَدَار: وهو الذي يكون في خدمة مباشري الديوّان في الجملة متحدِّثاً على أعوانه والمتصرفين فيه. وأصله «فَرْدَدَار» بفاء في أوله، وهو مركب من لفظين فارسيين أحدهما فَرْدا ومعناه الستارة، والثاني الدار ومعناه ممسك، والمراد «ممسك الستارة». «الصبح ٥/ ٤٦٨ـ ٤٦٩».

(٣) الاستادار: هكذا وردت في أغلب المصادر، ونبَّه القلقشندي إلى أنها «الإسْتَدَّار» بكسر الهمزة. وهو مركب من لفظتين فارسيتين: إحداهما استذ بمعنى الأخْذ. والثانية الدار ومعناها المُمْسِك، فأدغمت الذال الأولى، وهي المعجمة، في الثانية وهي المهملة فصار اسْتَدَّار. والمعنى: المتولي للأخذ لأنه المتولي لقبض المال. «الصبح ٥/ ٤٥٧». وقارن ذلك بحسن الباشا، الفنون والوظائف ٣٩ـ ٤٠ وما ذكر من مصادر.

(٤) أمير السلاح. لقبٌ على الذي يتولى أمرَ سلاح السلطان أو الأمير. ويجمع على أمراء سلاح. وهو مذكر ويجوز تأنيثه. «الصبح ٥/ ٤٥٦، النجوم ٧/ ١٨٤». وتختلف هذه الصيغة من حيث التركيب اللغوي عن الوظائف المملوكية التي يدخل في تكوينها لفظة أمير، مثل: أمير دوادار وأمير خازندار. ففي الحالة الأولى أضيفت لفظة «أمير» إلى اسم الآلة «سلاح»، في حين إنه في الحالة الثانية أضيفت إلى اسم الوظيفة «دوادارـ خازندار». (حسن الباشا: الفنون والوظائف ٢٢٥).

وأما «**الدوادارية**»[1]. فهم لتبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عامة الأمور، وتقديم القصص إليه، والمشاورة على من يحضر إلى الباب وتقديم البريد، هو وأمير جاندار وكاتب السر كما تقدم، ويأخذ خط السلطان على عموم المناشير والتواقيع والكتب. وإذا خرج عن السلطان بمرسوم يكتب ويعين رسالته.

وأما «**نقابة الجيوش**»: فهو كأحد الحجاب الصغار، وله تحلية الجند في عرضهم، ومعه يمشي النقباء. وإذا طلب السلطان أو النائب أو الحاجب أميراً لوجه ما، قالوا له: أرسل إليه وأحضره. وإذا أمروا بالترسيم على أحد من هؤلاء أمروه فرسم عليه. وهو ممن يطلب بالخزانة في الموكب وفي السفر.

وأما «**الولاية**». فهم أصحاب الشرطة، وطبقتهم معروفة معلومة.

[وظائف أرباب الأقلام]

وأما وظائف أرباب الأقلام فأجلها «الوزارة»؛ لأن ربها ثاني السلطان إذا أنصف وعرف حقه، ولكن في هذه المدد حدثت عليها النيابة وتأخرت الوزارة حتى قعد بها مكانها، وقد تقدم قولنا على أنه وليها أناس من أرباب السيوف والأقلام بأرزاق على قدر الإنفاق.

ووظيفة «**الوزارة**» أشهر من أن يذكر وضع مباشرها لنفاذ كلمته وتمام تصرفه، ولكنها في أخريات هذه الأيام تقهقرت حتى كان المتحدث فيها كناظر المال لا يتعدى الحديث في المال، ولا يتسع له في التصرف مجال، ولا تمتد يده في الولاية والعزل لتطلع السلطان إلى الإحاطة بجزئيات الأحوال.

ثم إن السلطان أبطل هذه الوظيفة وعطل جيد الدولة من عقودها، /٢٢٤/ وصار ما كان إلى الوزير منقسماً إلى ثلاثة: إلى ناظر المال أو شاد الدواوين[2] أمر تحصيل

---

(١) الدَّوادار: لقب الذي يحمل دواة السلطان أو الأمير. وهو مركَّب من لفظين: أحدهما عربي وهو الدَّوَاة، والمراد التي يُكْتَب منها. والثاني فارسي وهو دار ومعناه ممسك. فيكون المعنى «مُمْسك الدَّواة» وحذفت الهاء من آخر الدواة استثقالاً. «الصبح ٥/ ٤٦٢. المقدمة وانظر: لابن خلدون ٦٨٢، والنجوم ٧/ ١٨٥».

(٢) في صبح الأعشى: ناظر المال ومعه شاد الدواوين.
وشاد الدواوين: الوظيفة التاسعة عشرة من وظائف أرباب السيوف زمن المماليك، وموضوعها أن يكون صاحبها رفيقاً للوزير متحدثاً في استخلاص الأموال، وما في معنى ذلك، وعادتها إمرة عشرة. «الصبح ٤/ ٢٢، معيد النعم ٢٨، وراجع: نهاية الأرب ٨/ ٢٩٨ (وظيفة المشد أو المتولي)، حسن الباشا: الفنون والوظائف ٦١١ـ ٦١٣».

المال وصرف النفقات والكلف. وإلى ناظر الخاص تدبير جملة الأمور وتعيين المباشرين. وإلى كاتب السر التوقيع في دار العدل مما كان يوقع فيه الوزير مشاورة واستقلالاً، ثم إن كلاً من المتحدثين الثلاثة لا يقدر على الاستقلال بأمرٍ إلا بمراجعة السلطان ومراجعته عليه[١].

وأما «كتابة السر»[٢]، فموضوعها قراءة الكتب الواردة على السلطان وكتابة أجوبتها وأخذ خط السلطان عليها، وتسفيرها، وتصريف المراسيم وروداً وصدراً، والجلوس لقراءة القصص بدار العدل والتوقيع عليها. وقد صار يوقع فيما كان يوقع عليه بقلم الوزارة على حسب ما يرسم به السلطان.

وأما «نظر الجيش»: فقد تقدم في ذكر الإقطاعات، وعند ذكر النيابة مما يدل على حال صاحب هذه الوظيفة مما فيه كفاية. وهذا الناظر معه من المستوفين من يحرز كليات المملكة وجزئياتها[٣]، فرأسهم هو «مستوفي الصحبة»[٤] وهو يتحدث في

---

(١) صبح الأعشى ٤/ ٣٠ وعن الوزارة راجع: الصبح ٤/ ٢٨ـ ٣٠و ٥/ ٤٤٨ـ ٤٤٩، معيد النعم ٢٧ـ ٢٨، الخطط ٢/ ٢٢٣ وفيه أنه إذا كان من أرباب الأقلام أطلق عليه «الصاحب» حسن المحاضرة ٢/ ١٣١ـ ١٣٢، حسن الباشا: الفنون والوظائف ١٣٢٢ـ ١٣٤٢، ماجد: نظم سلاطين المماليك ١/ ٤٢ـ ٤٨.

(٢) كتابة السِّر: وصاحبها يعرف بكاتب السر وهو صاحب ديوان الإنشاء (الصبح ٥/ ٤٦٤). وكان متولي ديوان الإنشاء من أيام الدولة الفاطمية يعرف بكاتب الدَّست. وظل الأمر كذلك إلى أن ولي الديوان القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر في أيام المنصور قلاوون، فلُقِّب بكاتب السر، ونقل لقب كاتب الدَّست إلى طبقة دونه من كتاب الديوان... والعامة يبدلون الباء من كاتب السر بميم فيقولون كاتم السر، وهو صحيح المعنى. «الصبح ١/ ١٠٤».
وراجع: معيد النعم ٣٠، الصبح ٤/ ٣٠ و١١/ ٢٩٤، الخطط ٢/ ٢٢٥ـ ٢٢٧، حسن المحاضرة ٢/ ١٣٢، حسن الباشا: الفنون والوظائف ٩٢٢ـ ٩٢٥، ماجد: نظم سلاطين المماليك ١/ ٥٤ـ ٥٧، أحمد درَّاج: «مرسوم السلطان قايتباي الخاص بكتاب السر والقضاة والصادر في شهر شوال ٨٧٤هـ»، مجلة البحث العلمي والتراث الإسلامي ـ مكة المكرمة ٣ (١٤٠٠هـ) ٢٥٧ـ ٢٨٢ و «تراجم كتاب السر في العصر المملوكي (٦٤٨ـ ٩٢٣هـ)»، المصدر نفسه ٤(١٤٠١هـ) ٣١٥ـ ٣٥٠.

(٣) نظر الجيش.موضوعُها التحدُّث في الإقطاعات بمصر والشام، والكتابة بالكشف عنها، ومشاورة السلطان عليها وأخْذُ خطه. «الصبح ٤/ ٣٠ـ ٣١ و ١١/٣٢١، وراجع: معيد النعم ٣٣ـ ٣٤، الخطط ٢/ ٢٢٧، حسن المحاضرة ٢/ ١٣٢، حسن الباشا: الفنون والوظائف ١١٩٣ـ ١١٩٨.

(٤) استيفاء الصحبة: ويعرف صاحبها بمستوفي الصحبة، والمستوفي موظف مدني مهمته ضبط الديوان والتنبيه على ما فيه مصلحته من استخراج أمواله ونحو ذلك. «الصبح ٥/ ٤٦٦».
وراجع: الصبح ١١/ ٣٤٨، حسن الباشا: الفنون والوظائف ١٠٨٨.

جميع المملكة مصراً وشاماً، ويكتب مراسيم يعلم عليها السلطان، تارة تكون بما يعمل في البلاد، وتارة بإطلاقات، وتارة باستخدامات كتاب في صغار الأعمال، ومن هذا وما يجري مجراه. وهي وظيفة جليلة تلي النظر. وأما بقية المستوفين فكل منهم حديثه مقيد لا مطلق فإنه لا يتعدى حديثه قطراً من أقطار المملكة.

وهذا الديوان هو أرفع دواوين الأموال، وفيه تثبت التواقيع والمراسيم السلطانية، وكل ديوان من دواوين الأموال هو فرع هذا الديوان وإليه يرفع حسابه وتتناهى أسبابه.

وأما «نظر الخزانة» فكانت الخزانة أولاً كبيرة الوضع؛ لأنها مستودع أموال المملكة، فلما استحدثت وظيفة الخاص، ضعف أمر هذه المسماة بالخزانة، وصارت تسمى بالخزانة الكبرى، وهو اسم أزيد من مسماه. ولم يبق بها الآن إلا خلع تخلع منها أو ما يحضر إليها ويصرف أولاً فأولاً، وفي الغالب يكون ناظرها من القضاة أو ممن يلتحق بهم.

وأما «نظر البيوت». فهو ناظر جليل وهو منوط بالأستاذدارية، /٢٢٥/ فكل ما يتحدث فيه أستاذدار له فيه مشاركة الحديث، وقد تقدم تفصيل حال وظيفة أستاذدار فيما تقدم.

فأما «نظر بيت المال» فهي وظيفة جليلة معتبرة، موضوعها حمل حمول المملكة إلى بيت المال والمنصرف منه تارة بالميزان وتارة بالتسبيب بالأقلام. ولا يلي هذه الوظيفة إلا من ذوي العدالة المبرزة.

وأما «نظر الاصطبلات». فهو ديوان جليل، مباشره في اصطبل للسلطان، وله الحديث في أنواع الاصطبلات والمناخات وعليقها وأرزاق المستخدمين فيها، وما لها من الاستعمالات والإطلاق، وكل ما يبتاع لها أو يبتاع منها.

[وظائف ذوي العلم]

وأما وظائف ذوي العلم فقد تقدم القول أنها: القضاء[1] والخطابة ووكالة بيت

---

(١) في الأصول: القضاة.
وعن القضاة في العصر المماليكي، راجع: بالإضافة إلى كتاب ابن حجر: رفع الإصر عن قضاة مصر، وراجع، الصبح ٤/ ٣٤ـ ٣٧ و٥/ ٤٥١ و١١/ ١٧٤ و ٢٢٢ـ ٢٢٥و ٢١٦ـ ٢٢٢ و ٢٠٩ـ ٢١٥.

المال والحسبة، وهذه وظائف معروفة ومباشرات أربابها معلومة؛ لأنه لا يكاد تخلو مملكة من ممالك الإسلام منها.

فصـــل

وفي هذه المملكة وفيما هو متعلق بها مجموع المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها: المسجد الحرام، والبيت المقدس، ومسجد النبي ﷺ.

وأول ما نبدأ به ما هو محقق في هذه المملكة وداخل في حدودها وهو «القدس» وبه «المسجد الأقصى» و«الصخرة» التي هي أولى القبلتين، وإليه كان إسراء النبي ﷺ من المسجد الحرام كما قال الله عزَّ وجل ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾[1] وبجانبه الأيمن الطور وعليه كانت مخاطبة موسى عليه السلام. وفيه وفيما حوله غالب مدافن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم.

قال التيفاشي في كتاب[2] «سرور النفس بمدارك الحواس

(١) سورة الإسراء: الآية ١.

(٢) التيفاشي، شهاب الدين، أبو العباس، أحمد بن يوسف بن أحمد بن أبي بكر بن حمدون، شرف الدين القيسي عالم بالحجارة الكريمة غزير العلم بالأدب وغيره، من أهل تيفاش (من قرى قفصة، بافريقية) ولد بها سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م، وتعلم بمصر، وولي القضاء في بلده، ثم عاد إلى القاهرة وتوفي بها سنة ٦٥١هـ/ ١٢٥٣م. من كتبه «أزهار الأفكار في جواهر الأحجار ـ ط» ومنه نسخ مخطوطة فيها زيادات على المطبوع، و«الأحجار التي توجد في خزائن الملوك وذخائر الرؤساء ـ ط» و«خواصّ الأحجار ومنافعها ـ خ» و«فصل الخطاب، في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب» موسوعة كبيرة، اختصرها ابن منظور ـ صاحب لسان العرب ـ وسمى الجزء الأول منها «نثار الأزهار، في الليل والنهار ـ ط» و«نزهة الألباب، فيما لا يوجد في كتاب ـ خ» مبتور الآخر، أدب ومجون. في خزانة الرباط (١٣٣٣ كتاني) وكنيته فيه شهاب الدين. و«متعة الأسماع في علم السماع ـ خ» مسودته بخطه، في خزانة محمد الطاهر بن عاشور، بتونس (كما في مذكرات حسن حسني عبد الوهاب الصمادحي). وهو في صلة التكملة ـ خ، للحسيني: «المغربي القفصي التيفاشي» ولم يذكر القيسي.
ترجمته في: الوافي بالوفيات ٨/ ٢٨٨ـ ٢٩١، الديباج المذهب ١/ ٢٤٧، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ٣٩ (١٩٦٤) ١٢ـ ٢٦، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية (تونس ١٩٦٦) ٢/ ٤٤٨ـ ٤٦٠، مقدمة محمد يوسف حسن لكتاب أزهار الأفكار (القاهرة ١٩٧٧) وشجرة النور ١٧٠، والفهرس التمهيدي ٥٤٣ و٥٤٤، ومعجم المطبوعات ٦٥١، وفي إيضاح المكنون ـ ذيل كشف الظنون ـ ١/ ٥٤٩ أن للتيفاشي كتاب «رجوع الشيخ إلى صباه» في مجلدين، والمعروف أن المطبوع من رجوع الشيخ هو لابن كمال باشا ـ أحمد بن سليمان المتوفى سنة ٩٤٠هـ، الاعلام ١/ ٢٧٣ـ ٢٧٤..

الخمس»[١]: ذكرت الرواة أن هذه الأرض التي بارك الله فيها وحولها أربعون ميلاً طولاً في أربعين ميلاً عرضاً في تدوير البيت المقدس، والبيت المقدس في وسطها. وكان اسمها في الزمن الأول إيليا، وقول الله تعالىٰ يحقق أن بيت المقدس في وسط تربيع الأرض المقدسة التي بارك الله تعالىٰ فيها.

و«المسجد الأقصى» في قبة السلسلة، /٢٢٦/ كان مجلس داود عليه السلام، وفيه أيضاً الموضع الذي عرج بالنبي ﷺ إلى السماء منه، وهو تحت قبة المعراج، وفيه موضع مصلى أيوب عليه السلام بالملائكة على قبة يقال لها قبة الملائكة، وفيه الصخرة التي كان يقرب عليها يوشع بن نون خلافه لموسى بن عمران، وفيه محراب مريم، وفيه متعبد زكريا وهو نفسه من بناء داود وسليمان عليهما السلام[٢]

قلت: وفيه قبر إبراهيم الخليل على الصحيح وإن لم يصح القبر المعين الآن بعينه[٣]. وقد تضمن كتاب الله العزيز والأحاديث الواردة عن النبي ﷺ من فضائله ما فيه كفاية.

---

(١) ليس هذا عنوان كتاب التيفاشي، وإنما هو عنوان أحد مختصراته. فقد وضع التيفاشي موسوعة كبيرة في أنواع العلوم والآداب بلغت عدد مجلداتها نحو أربعة وعشرين مجلدة عنوانها «فصل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب» استعان في تأليفها بخزانة الصاحب محيي الدين محمد بن محمد سعيد بن ندى الجزري (الوافي ١/ ١٧٢ و٨/ ٢٨٨) واختصر هذا الكتاب جمال الدين محمد بن مكرّم بن منظور الإفريقي صاحب «لسان العرب» وهو الذي سماه «سرور النفس» منه أجزاء في مكتبة حسن حسني عبد الوهاب (ورقات ٢/ ٤٥٨)، كما نشر أحمد فارس الشدياق قسماً من مختصر ابن منظور بعنوان «نثار الأزهار في الليل والنهار» (مط الجوائب ١٢٩٨هـ).
وبذلك يكون نقل ابن فضل الله العمري عن مختصر كتاب التيفاشي الذى اختصره ابن منظور وليس عن أصل الكتاب الذي وضعه التيفاشي نفسه. «سيد».

(٢) زار العمري هذه الأماكن قال: «ولقد دخلت إلى بعض هذه الأماكن، ورأيت من عجائب الأبنية بها ما يملأ العين ». (مسالك الأبصار ١/ ٢٦٧).

(٣) راجع ما كتبه العمري عن «قبر الخليل عليه الصلاة السلام وما جاوره من قبور بنيه والأزواج» وزيارته للسراداب الذي فيه قبور الأنبياء. (مسالك الأبصار ١/ ٢٦٨).
لم يعتبر اليهود نشأة الربانيون والقرائيون السامرة من اليهود، وترجع اليهود نشأة هذه الفرقة إلى أيام السبي البابلي سنة ٥٨٦ ق. م. وعندما أصبحت الديانة المسيحية هى دين الإمبراطورية الرومانية الرسمي تعرض اليهود والسامريون لموجات الاضطهاد، مما أدى باليهود إلى اعتبار السامريين فرقة يهودية ذات صبغة خاصة. وقد وجدت منهم في مصر والشام جماعات صغيرة طوال العصر الإسلامي. (أهل الذمة ١١٣ـ ١١٥، وقارن الصبح ١٣/ ٢٦٨ـ ٢٦٩). وأخبر عنهم القرآن أنهم معاصرين لموسى عليه السلام «سورة طه: الآية ٨٥».

والصخرة قبلة اليهود الآن، وإلى القدس حجهم. وبالقدس القمامة التي يحجها النصارى من أقطار الأرض وأعماق البحر.

وإلى جانب القدس مدينة نابلس محسوبة من الأرض المقدسة، وداخلة في حدودها، وإلى طورها حج السامرة، وهم طائفة من اليهود ينتمي أئمتها إلى نبوة هارون عليه السلام.

فالقدس الشريف معظم عند جميع المسلمين واليهود والنصارى، ومكان زيارة لهم أجمعين، وإنما اختلافهم في أماكن الزيارة منه. وما نبهنا على هذا إلا لما فيه من الفائدة لإطباق الجميع على تعظيمه وقصده بالزيارة.

وأما الحرمان الشريفان «مكة» و«المدينة» زادهما الله جلالة وتعظيماً، فهما من الحجاز. ولم يزل أمراء المدينة الشريفة المترامين إلى صاحب مصر في غالب أوقاتهم ومعظم أيامهم إلا القليل النادر، فإنه ربما عصى بعضهم ومع هذا لا يترامى إلى سواه.

وأما أمراء مكة المعظمة فقد كان منهم من يُسِرُّ حَسواً في ارتقاء يرضي صاحب مصر بأنه سامع له مطيع، ويقول لصاحب اليمن مثل ذلك، وكان أكثر ميلهم إلى صاحب اليمن وحقيقة هواهم معه، ثم تراموا إلى صاحب العراق لقوة سلطانه. / ٢٢٧/ ما برح هذا السلطان يحبس منهم ويطلق ويقيم الواحد بعد الواحد، ويجهز إليهم الجيش مرة بعد أخرى ليصفو له كدرهم وهم على علاتهم. فأما الآن فقد حكم عليهم حكماً قاهراً حتى انقاد له صعبهم ولانت له شكائمهم، على إباء فيها واعوجاج بها، وذلك لما مات أبو سعيد بهادرخان بن محمد خدابنده، سلطان العراق[١]، وتشعبت بعده الأهواء، ولم يعد إلى بعد تأليف كتابي هذا إليهم تحمل، ولا صفت لهم أمور.

وأمراء المدينة من بني الحسين بن علي ـ رضي الله عنهما ـ من أولاد جماز بن شيحة[٢].

---

(١) هو آخر من ملكها من بني هولاكو، وكان بينه وبين الناصر محمد بن قلاوون مكاتبات ومراسلات وتودُّد بعد وحشة. وبموته تفرَّقت المملكة بأيدي أقوام، وصارت شبيهة بملوك الطوائف من الفرس. «الصبح ٤/ ٤٢٠».

(٢) ملك مكان أخيه عيسى سنة تسع وأربعين وستمائة، وطال عمره وعَمي ومات سنة أربع أو خمس بعد السبعمائة، وظلَّت الإمرة في بيته إلى زمن العُمَرِي. «التعريف ٢٠، الصبح ٤/ ٣٠٠، التحفة اللطيفة ١/ ٤١٤ـ ٤١٨».

وأمراء مكة المعظمة من أولاد الحسن بن علي رضي الله عنهما من أولاد إدريس بن قتادة، وبكل منهما جماعة من الأشراف أقارب أمرائها(١)

وهؤلاء أمراء مكة والمدينة، على طاعتهم وعصيانهم، لابد للقائم منهم بالأمر من ملاطفة صاحب مصر حتى يأخذ منه تقليداً بالأمر لخوفهم من قربه ومواصلة ركبانهم إليهم من مصر ودمشق. وقد ذكرنا هذا توفية بشرط هذا الكتاب، ولم نتعرض إلى ذكر فضائلهم. كفى الحرمين عن ذلك.

وفيهما البيت المحجوج المحبوب، ونبي هذه الأمة وشفيعها سيدنا محمد ﷺ. فحسبهما بمكان بيت الله ورسوله المصطفى ﷺ شرفاً تتطامن له أعناق السماء ويمسك بأطراف السبطين الثرى والماء.

* * *

ومما هو في حدود هذه المملكة مما له اسم سلطان حاكم وملك منصرف «حماة» وهي مدينة بين حمص وحلب، وهي لبقايا ملوك بني أيوب، من أراد صاحب مصر ولاه ومن أراد عزله. ولقد كانت انتزعت منهم بعد موت المظفر شادي بن المنصور محمد بن المظفر ووليت لنواب كبقية نواب هذه المملكة. ثم إن هذا السلطان أعادها إلى أهل البيت الأيوبي وملك بها المؤيد عماد الدين إسماعيل بن الأفضل بن علي بن المظفر(٢) ابن عم الذي انتزعت بعد موته، ثم بعده لولده الأفضل

---

(١) في التعريف ١٩: «وإمرتها في الأشراف بني حسن واستقرت في أولاد أبى نُمَيّ، وهي الآن في رُمَيْثة وهو آخر من بقي من بيته وعليه كان النص من أبيه دون البقية مع تداولهم لها. والقائم بها عنه ابن عجلان».

وراجع: الصبح ٤/ ٢٧٢ـ ٢٧٥.

(٢) إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب: أبو الفداء، الملك المؤيد، صاحب حماة. مؤرخ جغرافي، قرأ التاريخ والأدب وأصول الدين ولد سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م، واطلع على كتب كثيرة في الفلسفة والطب، وعلم الهيأة. ونظم الشعر ـ وليس بشاعر ـ وأجاد الموشحات. له «المختصر في أخبار البشر ـ ط» ويعرف بتاريخ أبي الفداء، ترجم إلى الفرنسية واللاتينية وقسم منه إلى الإنكليزية. وله «تقويم البلدان ـ ط» في مجلدين، ترجمه إلى الفرنسية المستشرق رينو reinaub، و«تاريخ الدولة الخوارزمية ـ ط» و« نوادر العلم» مجلدان، و«الكناش ـ خ» في النحو والصرف، و«الموازين» وغير ذلك. ولد ونشأ في دمشق، ورحل إلى مصر فاتصل بالملك الناصر (من دولة المماليك) فأحبه الناصر واقامه سلطاناً مستقلاً في «حماة» ليس لأحد أن ينازعه السلطة، وأركبه بشعار الملك، فانصرف إلى حماة، فقرَّب العلماء ورتب لبعضهم المرتبات، وحسنت سيرته، واستمر إلى أن توفي بها سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م. =

محمد[١]، وهو القائم بها الآن، يستقل فيها بإعطاء /٢٢٨/ الإمرة والإقطاعات وتولية القضاة والوزراء وكتاب السر وكل الوظائف، ويكتب المناشير والتواقيع من جهته، ولكنه لا يمضي أمراً كبيراً مثل إعطاء إمرة أو إعطاء وظيفة كبيرة حتى يشاور صاحب مصر، وهو لا يجيبه إلا بأن الرأي ما يراه، وهذا ومثله.

وهذه حماة مبنية على نهر العاصي وهي من أحاسن مدن الشام.

ومما يجب ذكره هنا «بلاد سيس»، وهي ما بين حلب والروم استولى عليها الأرمن من قديم، ومملكتها في بيت لارد بن مليح الأرميني من مدة متقدمة. وبلادها بعضها أغوار على ساحل البحر وبعضها متعلقة بالجبال وهما من العواصم ومما يليها، وملكها مترام إلى صاحب العراق والعجم منتظم في سلكه. وما خرج عسكره إلى الشام لقتال صاحب مصر إلا وخرج معهم وكثر سواد عسكره وبالغ في نكاية الإسلام وأهله، وهو مع هذا يداري صاحب مصر ويداهنه ويحمل إليه مالاً في كل سنة قطيعة مقدرة. وفي كل وقت وحين تغزوه عساكر مصر والشام في عقر البيرة وفتحت البلاد وسبي النساء والذراري. وفي سنة تأليفي فيها هذا الكتاب، وهي سنة ثمان وثلاثين وسبع مائة، جهز السلطان فرقة من العساكر إليها فخاف صاحبها وسلم جانباً من بلاده مما يلي المملكة الإسلامية من نهر جيهان إلى ما لاصق البلاد، وصارت بحمد الله في يد الإسلام وقبضة السلطان وقدر عليه القطيعة على باقي بلاده.

* * *

ومن خصائص هذه المملكة «معدن الزمرد» وهو بالبر المتصل بأسوان، له من جهة السلطان ديوان وشهود وينفق على العمال به ويقام لهم المون لحفره واستخراج الزمرد منه، وهو في جبال مرملة يحفر فيه وربما سقط على الجماعة به فماتوا. ويجمع ما يخرج منه ويحمل إلى السلطان ومنه يحمل إلى البلاد. ورايت منه قطعة وسطها

= ترجمته في: الدرر الكامنة ١/ ٣٧١ والبداية والنهاية ٤/ ١٥٨ وفوات الوفيات ١/ ١٦ وروض المناظر، في حوادث سنة ٧٣٢ وآداب اللغة ٣/ ١٨٧ والفهرس التمهيدي ٢٥٣ والنجوم الزاهرة ٩/ ٢٩٢ وطبقات السبكي ٦/ ٨٤ وفي دائرة المعارف الإسلامية ١/ ٣٨٦ أن المطبوع من كتاب «تقويم البلدان» لأبي الفداء، أجزاء متفرقة. وفي جغرافية ملطبرون ١/ ١٤٤ الكلام على ترجمات «تقويم البلدان» وطبعاته القديمة، الاعلام ١/ ٣١٩.

(١) ترجمته في: الوافي بالوفيات ٢/ ٢٢٤-٢٢٧.

أخضر في نهاية الحسن وأطرافه جميعه أبيض وما بين وسطه وأطرافه بين اللونين، ثم كلما كان أقرب /٢٢٩/ إلى الوسط كان أقرب إلى الخضرة، وما كان إلى الطرف كان أميل إلى البياض إلى أن كان آخره أبيض، والوسط أنضجته الطبيعة نضجاً كاملاً، والأطراف لم يكمل نضجها فسبحان الله مبدع كل شيء.

وبها «البلسان» وهو شجر قصار بالمطرية، حاضرة عين شمس، بالقرب من القاهرة. ويسقى من بئر هناك، ولا يكون إلا في تلك البقعة. وهذه البئر يعظمها النصارى وتقصدها وتغتسل بمائها وتستشفى به على زعمها. ويخرج لاعتصار البلسان أوان إدراكه من قبل السلطان من يتولى ذلك، ويحفظه ويحمل إلى الخزانة، ثم ينقل منه إلى قلاع الشام والمارستانات لمعالجة المبرودين، وملوك النصارى من الحبوش والروم والفرنج يهادون السلطان بسببه ويستهدونه منهم؛ لأنهم لا يصح عندهم تنصر إلا بالغمس في ماء المعمودية. وعندهم أنه لابد أن يكون في ماء المعمودية من دهن البلسان هكذا أخبرني جماعة من النصارى. وهو ظاهر التقدم في معالجة الفالج وارتخاء الأعصاب وسائر الأمراض.

وفيها القرصفة والصنم السليماني والسنبس، من مكان يعرف بدار العربة قريب مصر، أنفع دواء للاستسقاء.

ومنها «الأفيون» وهو عصارة الخشخاش الأسود المصري، وكذلك الجوز المائل وهو يطلع بدمياط. وأما ما يطلع بجبال القدس وبلاد فلسطين والأردن من الحشائش المنصوص عليها في كتب الأطباء فكثير جداً كالمرياقلون ذات الألف ورقة التي هي من أجل الباذرهرات النافعة من السموم القتالة.

ولم نذكر هذا إلا على سبيل العرض، وإلا فليس من المقصود.

ذكر عادة هذه المملكة في الخلع ومراتبها

وهي ثلاثة أنواع: أرباب السيوف والأقلام والعلماء[1]

فأما «أرباب السيوف» فخلع أكابر ذوي المئين منهم الأطلس الأحمر الرومي، وتحته الأطلس الأصفر الرومي، وعلى الفوقاني طرز زركش ذهب وتحته سنجاب وله

(١) نشر كاترمير هذا الفصل وترجمه في كتاب «تاريخ سلاطين المماليك».

سجف من ظاهره مع القباء قندس[١] وكلوته زركش مذهب، وكلاليب[٢] ذهب، وشاش لانس[٣] رفيع موصول به في طرفيه حرير أبيض مرقوم بألقاب السلطان / ٢٣٠/ مع نقوش باهرة من الحرير الملون، مع منطقة ذهب، ثم تختلف أحوال المنطقة بحسب مقاديرهم: وأعلاها أن يعمل بين عمدها بواكر وسطى ومجنبتين مرصعة بالبلخش والزمرد واللؤلؤ، ثم ما كان ببيكارية واحدة مرصعة، ثم ما كان ببيكارية واحدة من غير ترصيع[٤]. فأما من تقلد ولاية كبيرة منهم فإنه يزاد سيفاً محلى بذهب[٥] وفرساً مسرجاً ملجماً بكنبوش مذهب[٦].

وصاحب حماة خلعته من أعلا هذه الخلع[٧] وبدل الشاش اللانس بشاش يعمل بالإسكندرية من الحرير شبيه بالطول ويموج بالذهب يعرف بالمُتَمَّر[٨]، ويعطى فرسان أحدهما كما ذكر، والآخر يكون عوض كنبوشه زناري أطلس أحمر. وقد استقر لنائب الشام[٩] مثل هذا وأزيد بتركيبة مزركش ذهب دائرة بالقباء الفوقاني.

---

(١) قندس ويقال المقندس: القماش المنسوج من فراء القندس، وهو كلب البحر، ويعرف بالكستور. (السلوك ٢/ ٣٣٦هـ).

(٢) كُلاَّب، مفرد، جمعه: كُلاَليب، هو المَشْبك أو الأبزيم، وأكثر استعماله في تحلية الكلّوْتة. «السلوك ٢/ ٣٣٦هـ».

(٣) الشاش: ما يُلَف حول غطاء الرأس من قماش. «السلوك ٢/ ٣٣٦هـ».

(٤) البيكارية: جمع، مفرده: بواكر (بواكير)، رقيقتان مستطيلتان من المعدن عليهما نصوص منقوشة توضح اسم الأمير الذي صنعت من أجله.

(٥) في الخطط ٢/ ٢٢٧: يحضر من السلاح خاناه ويجلبه ناظر الخاص.

(٦) في الخطط ايضاً: والفرس من الاصطبل وقماشه من الركاب خاناه، ومرجع العمل في سروج الذهب والكنابيش إلى ناظر الخاص.

(٧) انظر وصف خلعة صاحب حماة في: المختصر في أخبار البشر ٤/ ٨٧ حيث يذكر أنه منح هذه الخلعة في يوم الخميس سابع عشر المحرم سنة ٧٢٠.

(٨) المُتَمَّر: تبعاً لماير يبدو أن العمري، ومن نقل عنه، انفردوا بذكر هذا النوع من الطلس. وهذا النوع من القماش كان من أغلى وأثمن أنواع النسيج، وكان يستخدم في صناعة أجل ثياب التشريف الخاصة بالطبقة الرفيعة.

(٩) ذكر المقريزي في الخطط أن نائب الشام المقصود هو تَنْكِز. «الخطط ٢/ ٢٢٧».
وهو تنكز بن عبد الله الحُسَامي الناصري، ولي نيابة دمشق ثمانية وعشرين سنة، ثم حبسه الناصر محمد في الإسكندرية إلى أن قتل بها في سنة ٧٤١.
ترجمته في: الوافي بالوفيات ١٠/ ٤٢٠ ـ ٤٣٥ (ترجمة مفيدة)، فوات الوفيات ٢/ ٢٥١ ـ ٢٥٨، السلوك ٢/ ٥٠٦، الدرر الكامنة ٢/ ٥٥، النجوم الزاهرة ٩/ ٣٢٧ ـ ٣٢٨ (والفهرس ٣٤٨) والمنهل الصافي ١/ ٤٣٥ والدليل الشافي ١/ ٢٢٨.

ودون هذه المرتبة في الخلع نوع يسمى الطردوحش[١] يعمل بدار الطراز بالإسكندرية وبمصر وبدمشق، وهو مجوخ جاخات كتابة بألقاب السلطان، وجاخات طرد وحش أو طير، وجاخات ألوان ممتزج بقصب مذهب، تفصل بين هذه الجاخات نقوش وطراز، هذا من القصب. وربما كبر بعضهم فركب عليه طرازاً مزركشاً بالذهب وعلى [فرو] السنجاب والقندس، كما تقدم، وتحته قباء من المفرج الإسكندراني الطرح، وكلدته زركش وكلاليب وشاش على ما تقدم، وحياصة ذهب تارة تكون ببيكارية وتارة لا تكون ببيكارية، وهذه لأصاغر أمراء المئين ومن يلحق بهم.

ودون هذه الرتبة كمخا عليه نقش من لون آخر غير لونه، وقد يكون من نوع لونه بتفاوت بينهما [وتحته] سنجاب مقندس، والبقية كما قدمنا ذكره، إلا أن الحياصة والشاش لا يكونان بأطراف رقْم بل تكون مجوخة بأصفر، ولا تكون ببيكارية.

ودون هذه الرتبة كَنجي[٢] بلون واحد بسنجاب مقندس والبقية على ما ذكر، وتكون الكَلَّوتة خفيفة الذهب وجانباها يكاد / ٢٣١/ أن يكونا خاليين بالجملة ولا حِيَاصَةَ له.

ودون هذه الرتبة مُجوَّم لونٌ واحد والبقية على ما ذكر خلا الكَلَّوْتَه والكلاليب.

ودون هذه الرتبة مجوَّم وقندس وتحته قَبَاءٌ بجاخات من أحمر وأخضر وأزرق، أو غير ذلك من الألوان، وسنجاب وقندس وتحته قباء ملوّن إما أزرق أو أخضر، وشاشٌ أبيض بأطراف من نِسْبَة ما تقدَّم ذكره.

ثم ما دون هذا النوع، ولابد من تنقيص ما.

وأما «الوزراء والكتاب»

فأجل خلعهم كَنْجيّ أبيض مطرز برقم حرير ساذج وسنجاب وقندس، ويبطن القندس بالسنجاب وتملأ الأكمام به، وتحته كَنْجيّ أخضر وَبْقيارَ[٣] كتان من عمل

---

(١) الطرد وَحْش: وقد ذكره المقريزي: باسم طرز وحش «الخطط ٢/ ٢٢٧» بمعنى المطرز عليه صور الوحش ولعل هذا المعنى أقرب وأدق.

(٢) الكنجي: قماش منسوج من قطن وحرير، كان يصنع أولاً في كنجة بجهات أران، ثم انتقلت صناعته إلى مناطق أخرى. (السلوك ١/ ٨٤٧هـ).

(٣) في الأصول: كنجي والتصويب عن الخطط.
البقيار: لباس للرأس خاص بالقضاة وكبار العلماء، كان يصنع من قماش اسكندراني رفيع فاخر يسمى «طَرْح». وبذلك يكون أشبه بنوع من العمائم وليس بغطاء رأس من طراز القلنسوة.

دمياط مرقوم وطرحة.

ثم دون هذه الرتبة عدم تبطين القندس بالسنجاب وإخلاء الأكمام منه. ودونها ترك الطرحة. ودونها أن يكون التحتاني مجوماً. ودون هذا أن يكون الفوقاني من نوع الكنجي لكنه غير أبيض، ثم تحته عتابي طرح أو ما يجري مجراه. ثم ما دون ذلك كما قدمنا في خلع أرباب السيوف.

وأما «القضاة والعلماء» فخلعهم من الصوف بغير طراز ولهم الطرحة، وأجله أن يكون أبيض وتحته أخضر. ثم ما دون ذلك على نحو ما قدمناه.

وأما «أهبة الخطباء» فإنها من السواد للشعار العباسي، وهو دلق مدور، كما قدمنا وصفه في ذكر زي العلماء، وشاش أسود وطرحة سوداء، وينصب على المنبر علمان أسودان مكتوبان بأبيض أو بذهب. ويخرج المبلغ من المؤذنين قدام الخطيب وعليه سواد مثل الخطيب، خلا الطرحة، وفي يده السيف، فإذا صعد الخطيب المنبر أخذ منه السيف، فإذا رقى المنبر وسلم، أذن لابس السواد تحت درج المنبر وتبعه المؤذنون، ثم ذكر الحديث الوارد: «إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة، والإمام يخطب، أنصت فقد لغوت»[1]، ثم يبلغ عنه الصلاة والرضا والدعاء للخليفة / ٢٣٢/ والسلطان، هو ثم المؤذنون، ثم إذا انحط إلى الصلاة أخذ السيف من يده.

وهذه الأهب تصرف من الخزانة، ثم تكون في حواصل الجوامع لتلبس في ساعات الجمع، فإذا خلعت أعيدت الخلعة إلى الخزانة وصرف لهم عوضها.

ذكر العيدين قد تقدم ذكرنا لهيأة السلطان في ركوبه أيام الأعياد. وبقي ما لابد من ذكره هنا وهو: أنه إذا ركب من باب قصره بقلعة الجبل ونزل إلى منفذة من الإصطبل إلى ميدان العيد الملاصق له، يترك به في دهليز قد ضرب له على أكمل ما يكون من الأبهة، فيصلي ويسمع الخطبة، ثم يركب ويعود إلى الإيوان الكبير ـ المقدم ذكره ـ ويمد به السماط ويخلع على حامل الجتر، والسلاح، وأستاذدار، والجاشنكير[2]، وكثير من أرباب الذين لهم خدمة في مهم العيد، كنواب أستاذدار،

---

(١) مسند أحمد ٢/ ٤٧٤.

(٢) الجَاشْنَكِير: الذي يتصدَّى لذَوَقَان المأكول والمشروب قبل السلطان أو الأمير خوفاً من أن يُدَسَّ عليه فيه سُمٌّ ونحوه. وهو مركب من لفظين فارسيين: جَاشْنا ومعناه الذَّوق، وكير ومعناهِ المتعاطي لذلك. فيكون المعنى «الذي يذوق» أو «الذوَّاق». «الصبح ٥/ ٤٦٠». وكان يقف على السِّماط مع أستاذدار =

وصغار الجاشنكير ونقيب النقباء، وناظر البيوت، ومثل هؤلاء.

ومن عادة هؤلاء أن يعد له كل عيد خلعة على أنها لملبوسه من نسبة خلع أكابر أمراء المئين، فما يلبسها هو، ولكن يخص بها بعض أكابر أمراء المئين يخلعها عليه.

ولصاحب مصر في مثل هذا اليد الطولى حتى بقي ببابه سوقاً ينفق فيه كل مجلوب، ويحضر إليه الناس من كل قطر حتى كاد هذا ينهك المملكة ويودي بمتحصلاتها عن آخرها. وغالب هذا مما قرره هذا السلطان، وقد يتعب من يجيء بعده بكثرة هذا الإحسان.

ولهذا السلطان عادات جميلة، كلها من الخلع، في أوقات لعبه بالكرة على أناس جرت لهم عنده عوائد بالخلع في ذلك الوقت: كالجوكندار[1]، والولاة ومن يجري مجراهم مما له خدمة في ذلك عادة مما ينعم به ويطلقه، /٢٣٣/ وإذا حصل له أحد شيئاً مما يصيده في صيوده خلع عليه. وأما إذا خرج إلى صيد الوحش وصادوا الغزلان والنعام فكل من أحضر له صيداً خلع عليه قباء مسنجباً بما يناسب خلعة مثله، للكبير كبير وللصغير صغير كل واحد على قدره، وكذلك البازدارية[2] وحملة الجوارح ومن يجري مجراهم، عند كل صيد إنعامات ينعم بها عليهم. ولغلمانه في الطشتخانة والشرابخانات والفراشخانات ومن يجري مجراهم عوائد في كل سنة زمان الصيود، كل هذه عوائد جارية لا تقطع.

ولكل من يتصل بخدمة هذا السلطان، ممن يرد عليه أو يهاجر من مملكة أخرى، أنواع الإدرارات، والأرزاق والإنعام وغايات لا يبلغها قرارية بلاده واللائذين بظله. وكذلك التجار الذين يصلون إليه ويبيعون عليه، لهم عليه الرواتب الدائمة من الخبز

= الصحبة، وعادة ما يكون كبار الجاشنكيرية من الأمراء المقدمين. «الصبح ٤/ ٢٩ وراجع، حسن الباشا: الفنون والوظائف ٣٤٤ ـ ٣٤٦».

(١) الجُوكَنْدَار وصوابه جوكاندار، وجمعها: جوكاندارية، لقب على الذي يحمل الجُوكَان مع السلطان في لعب الكرة. مركب من لفظتين فارسيتين: جوكان، وهو المِحْجَن الذي تُضرْب به الكرة ويقال له أيضاً الصَّوْلجان، ودار بمعنى مُمْسك. فيكون المعنى «ممسك الجوكان». «الصبح ٥/ ٤٥٨، وراجع: حسن الباشا: الفنون والوظائف ٣٧٣ ـ ٣٧٧».

(٢) في الأصول: البزدارية.
والبَازْدار مفرد، جمعها: بازْدارية، الذي يحمل الطيور ـ الجوارح المعدَّة للصيد على يده. وخُصَّ بإضافته إلى الباز ـ الذي هو أحد أنواع الجوارح ـ دون غيره، لأنه هو المتعارف عليه بين الملوك في زمن القديم.

واللحم والتوابل والحلواء والعليق والمسامحات بنظير كل ما يبتاع عليه من الرقيق المماليك والجواري، مع ما يسامحهم به أيضاً من حقوق تطلق أخرى. وكل هؤلاء إذا باعوا عليه ولو رأساً واحداً من الرقيق، لهم خلع مكملة لكل واحد بحسبه خارجاً عن الثمن وعما ينعم به على بعضهم أو يسفر به من مال السلطان على سبيل القرض ليتاجر به.

فأما جلابة الخيل، من عرب الحجاز والشام والبحرين وبرقة وبلاد المغرب، فإن لهم من ذلك الحظ الوافر والنصيب الراجح. وربما أعطى عن الفرس نظير ثمنها عشر مرات وأكثر، غير الخلع والرواتب والعلوفات والأنزال ورسوم المقامات، خارجة عن تثمين الخيول، ومسامحات تكتب لهم بالمقررات عن تجارات يتجرون بها مما أخذوه من أثمان الخيول.

* * *

قلت: وبهذه المملكة جميع قِبَل الملل.

أما القبلة الإسلامية فهو بيت مكة المعظمة، وهو بها كما تقدم. وأما اليهود فقبلتهم البيت المقدس، /٢٣٤/ وقد كان القبلة الأولى في الملة الإسلامية، وهو بها. وأما السامرة ـ وهم فرع من اليهود ـ فقبلتهم إلى طور نابلس، وهو بها وعندهم أنه طور سينا. وأما النصارى فلا قبلة لهم وتوجههم إلى الشرق لا لقبلة، وجميع معابدهم التي يعظمونها بها مثل: قمامة وهي بالقدس وإليها حجهم من أقطار الأرض من البراري والبحار. وبيت لحم، وبه مولد عيسى المسيح عليه السلام. وكنيسة صيدنايا ببِرّ دمشق. وكنيسة صور، ومن ملوكهم من لا يصح تمليكه حتى يصلَّى عليه فيها.

وكنيسة مريحنا بالإسكندرية هي معتقد اليعاقبة[١] منهم وبها بطريرك القبط[٢]،

---

(١) اليعاقبة: هم أتباع مذهب الطبيعة الواحدة. وعوفوا بذلك نسبة إلى أحد زعمائهم هو يعقوب البراذعي. ويمثل أتباع هذه الطائفة غالبية أقباط مصر وهم المعروفون اليوم بالأقباط الأرثوذكس. وكان مقر بطركهم بالإسكندرية. «الصبح ١٣/ ٢٧٨ ـ ٢٨٠، المقصد الرفيع ١٣٩، الخطط ٢/ ٤٨٨، قاسم: أهل الذمة ٢٠٦».

(٢) البطرك أو البطريرك: لقب النصارى اليعقوبية بمصر المعروف ببطرك الإسكندرية. «الصبح ٥/ ٤٧٣».

وملوك الحبشة تعظم هذا البطريرك وتشير إليه بالتعظيم، وإذا جاءهم كتابه عملوا به لا خروج لهم عنه ولا مندوحة لهم عن حكمه، وهو يولي عليهم مطراناً بعد مطران[١]، كلما مات واحد بعث غيره نائباً له فيهم، وذلك المطران يقوم بالحبشة مقام البطريرك في الأمر والنهي فيهم وانقيادهم أجمعين إلى طاعته من غير مخالفة له ولا عليه في شيء.

حدثني من أثق به أن بعض التجار بمصر جهز مالاً له مع مسفَّر به إلى الحبشة فمات المسفر، ويئس صاحب المال من ماله وكان مالاً كثيراً فعيل صبره، وشكا إلى السلطنة بمصر حاله، فقيل للبطريرك فكتب كتاباً إلى ملك الحبشة يأمره بإعادة مال الرجل إليه. ثم إن صاحب المال سفر رجلاً اعتمد عليه فما طال به المكث حتى أتى بجوابه بالامتثال وأحضر معه جميع المال بعينه أصله وربحه.

وحكى عن تعظيم الحبشة لكتاب البطريرك أنه منذ دخل حدود بلادهم وعلموا بالكتاب تلقاه عمال الأطراف بها ورفعوا الكتاب على رمح وحملوه هو ومحضره ومن حضر معه على أرفة الدواب ورتبوا له الإنزال والإقامات /٢٣٥/ يوصله أهل كل عمل إلى الآخر على هذه الصورة حتى انتهى إلى حضرة الملك، فبالغ في إكرامه وإنزاله وإضافته. فلما كان يوم الأحد أخذ منه الكتاب وقرأه المطران في الكنيسة على الملك وهو واقف مكشوف الرأس إلى أن فرغ، ثم أمر بإحضار المال وتسليمه إليه، ولم يخرج من مكانه حتى أوصل إليه المال، ثم وصله بصلة جيدة وأعاده مكرماً والإنزال جار عليه من عمل إلى عمل إلى أن خرج من حدوده.

قلت: ولهذا جميع ملوك النصرانية، الملكية[٢] واليعاقبة، تهادى صاحب مصر وتراسله لاحتياجها لتمكن المترددين من عندهم من زيارة قمامة وبقية مزاراتهم. واليعاقبة أكثر حاجاتهم إليه لمقام بطريركهم عنده فإنهم لا باب لهم، بخلاف الملكية فإن لأولئك الباب وهو برومية.

---

(١) المطران: هو بمثابة القاضي الذي يفصل في الخصومات بين الأقباط (الصبح ٥/ ٤٧٣).

(٢) الملكية أو الملكانية: المعروفون اليوم بالروم الأرثوذكس وهم القائلون بالطبيعتين. وكان هو مذهب الإمبراطورية البيزنطية، ولم يكونوا كثيرين بمصر كما كان أغلب الموجودين بمصر منهم من غير المصريين.
«الصبح ١٣/ ٢٧٦ ـ ٢٧٧، السلوك ١/ ٩١٢ ـ ٩١٣هـ، قاسم: أهل الذمة ١٠٣ ـ ١٠٥».

قلت: والباب[١] هو طاغيتهم العظمى. عندهم أن الحلال ما حلل والحرام ما حرم، ولا لأحد عندهم مندوحة أن يتأخر عن أمره أو يتقدم.

فصـــل

ومن شيعة هذا السلطان طائفة تعرف «بالإسماعيلية»[٢] مساكنهم في مصياف،

---

(١) الباب وهو البابا le pape: وهو القائم بأمور دين النصارى الملكانية وكرسيه بروما. «الصبح ٥/ ٤٨٢، وراجع: السلوك ٢/ ٢٨٦هـ».

(٢) الإسماعيلية: اسم عام للفرق التي تعتقد بإمامة الابن الأكبر للإمام الصّادق ـ عليه السلام ـ وهو إسماعيل، أو إمامة نجله محمد. وسمّوا بأسماء مختلفة في شتى المناطق، منها: الباطنية، والتّعليمية، والسبعيّة، والحشيشية، والملاحدة، والقرامطة. وكما جاء في التواريخ. فإن الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ نصب ابنه إسماعيل للإمامة بعده، ولمّا علم أنه شابٌ فاسق خلعه. وفي نفس تلك الفترة توفي إسماعيل. فنصب الإمام الصّادق ـ عليه السلام ـ ولده الرابع وهو الإمام الكاظم ـ عليه السلام ـ للإمامة بعده.

كانت وفاة إسماعيل سنة ١٤٠هـ، أي: قبل وفاة أبيه بخمس سنين. ودُفن في مقبرة البقيع، وقبل دفنه أحضر الإمام الصّادق ـ عليه السلام ـ والي المدينة مع جمع من وجهائها وشخصياتها، وأشهدهم على موته رفعاً للشبهة، ومات إسماعيل في دية العريض على بعد أربعة فراسخ عن المدينة، وحُملت جنازته على أكتاف الناس، ثم كتب الإمام ـ عليه السلام ـ محضراً على وفاته موشحاً بخطوط الحاضرين، حتّى دفنوه في البقيع. ولما مات إسماعيل، ظن الشيعة أن موته كان فجأة، فقالوا: لقد حصل بداء في أمر الإمامة.

وتتحدث المصادر الأولى للإسماعيلية غالباً عن شخص يُدعى: أبو الخطاب محمد بن أبي زينب أو مقلاص بن أبي الخطاب من موالي بني أسد الذي كان له ضلع في إمامة إسماعيل. كان هذا الرجل في بدء أمره من أصحاب الباقر والصادق ـ عليهما السلام ـ وبسبب غلوّه، لعنه الإمام الصّادق ـ عليه السلام ـ وتبرأ منه.

يقول النّوبختي: كان أبو الخطاب في بدء أمره من الدعاة إلى الإمام الباقر والإمام الصّادق ـ عليهما السلام ـ ثم غالى فيهما حيث أوصلهما إلى درجة الألوهية، فطرده الإمام الصّادق ـ عليه السلام ـ على أثر ذلك، وكانت عاقبة أمره أنه قتل على يد عيسى بن موسى بسبب غلوّه. ولما مات أبو الخطاب التحق أتباعه بمحمد بن إسماعيل حفيد الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ وعلى عكس ثلّة كانت لاتزال تشكُّ في موت إسماعيل، وتظنه غائباً، شهد هؤلاء على موت إسماعيل في حياة أبيه، واعتبروا ولده محمداً إماماً بعده بدلاً عن الإمام الصادق ـ عليه السلام.

وذكر داعية الفاطمية: أبو حاتم الرازي في كتاب «الزينة»، وهو من مؤلفات القرن الرابع الهجري، إن أبا الخطاب من مؤسسي المذهب الإسماعيلي.

وذكرت اعتقادات أبي الخطاب في كتابين من كتب الإسماعيلية، أحدهما: «أم الكتاب» وهو كتاب مشهور، ومن الكتب السرية المقدسة عند الإسماعيلية. اعتبر أبو الخطاب فيه كسلمان الفارسي من حيث الأهمية والعظمة، كما جاء فيه: «إن مذهب الإسماعيلية هو المذهب الذي وضعه أبناء أبي الخطاب الذي قدم جسده قرباناً لنجل الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ كي يبقى ما بقي الدهر». والآخر =

....

= مجموع كتابات الفرقة النصيرية، وفيها: إن أبا الخطاب مؤسس الفرقة الإسماعيلية، وإن ميمون القداح من أتباعه.
انقسم الإسماعيلية في البداية إلى قسمين: الإسماعيلية الخاصة، والإسماعيلية العامة. وكان الإسماعيلية الخاصة يقولون: كان إسماعيل إماماً في عصر أبيه، وغاب. وهو الإمام السابع للشيعة. أما الإسماعيلية العامة، فكانوا يعتقدون أن إسماعيل مات في زمن أبيه، ونصب نجله محمداً للإمامة بعده قبل أن يموت، فالإمام السابع للطائفة. هو: محمد بن إسماعيل، علماً أنه ليس في أيدينا معلومات صحيحة عن حياة محمد بن إسماعيل ومنذ عصره بدأت مرحلة الأئمة المخفيين.
يقول النّوبختيّ: إن المباركية الذين هم أتباع مبارك مولى إسماعيل بن جعفر نصبوا محمد بن إسماعيل للإمامة بعد الإمام الصّادق ـ عليه السلام ـ وقالوا: إن الأمر كان لإسماعيل في حياة أبيه، جعل جعفر بن محمد الأمر لمحمد بن إسماعيل، وكان الحق له، ولا يجوز غير ذلك، لأنها لا تنتقل من أخ إلى أخ بعد الحسن والحسين ـ عليهما السلام ـ ولا تكون إلا في الأعقاب.
روى مؤرخو الإسماعيلية: أن أسرة محمد بن إسماعيل ذهبوا إلى الشام وسكنوا في مدينة السلمية قريباً من حمص، وتظاهروا بالعمل في التجارة خوفاً من ولاة السلطة العباسية. وكانوا يُرسلون الدعاة إلى أطراف البلدان الإسلامية، ويبشرون الناس بقرب ظهور المهدي من نسل إسماعيل بن جعفر. كان محمد بن إسماعيل أكبر من الكاظم ـ عليه السلام ـ بسبع سنين، وكانت ولايته حسب تصريح المنجمين في سنة ١٢١هـ، أي: قبل ولادة الإمام الكاظم ـ عليه السلام ـ بسبع سنين، ويبدو أنه بقي على قيد الحياة حتى سنة ١٧٩هـ، أي: قبل وفاة الكاظم ـ عليه السلام ـ بأربع سنين.
ميمون القداح وولده عبد الله كان ميمون من أهل خوزستان اشتغل بالكُحل وطب العيون، وكان يُجري عمليات لقشع الماء الأبيض الذي يصيب العين، لذلك لُقّب بالقداح. ويبدو أنه كان إيرانيّاً، ويحتمل أن آباءه كانوا من المجوس. ويعد من دعاة الإسماعيلية، عرف القداح طفلاً. صغيراً متظاهراً أنه من أبناء عبد الله بن محمد بن إسماعيل، واسمه: أبو القاسم حسن، وهو خليفته. ويعتقد علماء الرجال من الشيعة أن ميموناً ونجله عبد الله كانا من الشيعة الإمامية، ومن أصحاب الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ وأصلهما من خوزستان، وبسبب إقامتهما في مكة فقد نُسبا إليها. وقال ميمون بالغلو، واعتقد بإمامة إسماعيل بن جعفر وولده محمد على أثر معاشرته لأبي الخطاب واختلاطه به.
وعندما مات أبو الخطاب، أصبح قيماً على محمد بن إسماعيل ومربياً له، وقام بتلقينه المذهب الباطني. وبعد وفاته، خلفه ولده عبد الله الذي صارت خدماته تحت تصرف محمد بن إسماعيل. وكانت وفاة عبد الله في بداية القرن الثالث الهجري.
الإمام المستودع والمستقر إن الإمام ـ حسب اصطلاح الإسماعيلية ـ قسمان: مستودع، ومستقر. أما الإمام المستودع فهو ابن الإمام، وأكبر أولاده، وعالم بجميع أسرار الإمامة، وأعظم أهل زمانه، إلا أنه لا يستطيع تفويض الإمامة إلى أبنائه. والإمامة وديعة عنده. وأما الإمام المستقر فهو الذي يتمتع بجميع امتيازات الإمامة، وله أن يفوضها إلى أبنائه ونوابه، وفيما يلي شجرة الأئمة الإسماعيليين المستقرين والمستودعين في مرحلة الخفاء:
الأئمة المستقرون من أولاد إسماعيل: محمد بن إسماعيل، أحمد، الحسين، عليّ (المعل)، محمد القائم.
الأئمة المستودعون من أولاد ميمون القداح: ميمون، عبد الله، محمد، الحسين، أحمد، سعيد، =

....

= شجرة أئمة الدروز، المعروفة بشجرة السماوات السبع: إسماعيل، محمد، أحمد، عبد الله، محمد، الحسين، أحمد (والد سعيد) كانت أول دعوة إسماعيلية مسلحة في اليمن سنة ٢٦٨هـ حيث قام الحسين بن حوشب، وهو من دعاة الإسماعيلية، وكان فارسيّ المحتد، بتعبئة جماعة من قبائل اليمن، وأظهر دعوة الإمام الإسماعيلي المنتظر، وفتح عدداً من قلاع اليمن وحصونها، فأفلح في تأسيس أول حكومة إسماعيلية في اليمن، وبسببها لُقب بمنصور اليمن.
كان إمام الإسماعيلية آنذاك عبيد الله المهدي الذي فرّ من السلمية إلى الرملة خوفاً من القرامطة، ومنها توجه إلى الفسطاط، وهي مدينة مصرية كانت قريبة من القاهرة، سنة ٢٩١هـ، وهناك أعلن إمامته ودعوته. فقام الخليفة العباسي بملاحقته من خلال الرّسل الذين أوفدهم إلى الأطراف ليلقوا عليه القبض أينما وجدوه.
وكاد المهدي أن يقع في الفخ لولا جهود أحد دعاته حيث خلصه من تلك المحنة. فتوجه بعدها إلى تونس ونزل على أبي عبد الله الشيعي أحد أئمة دعاة الإسماعيلية في المغرب، وكان قد كسب قبيلة بني كتامة، وهي من قبائل البربر، إلى المذهب الإسماعيلي. فلما رآه أبو عبد الله، بايعه، ثم أجلسه على دابة، ونادى في هذه القبيلة قائلاً: هذا إمامكم، هذا إمام الحق، هذا هو المهدي. ومنذ تلك الفترة انتقل الإسماعيلية من مرحلة الخفاء إلى مرحلة الظهور والعلن. وبعد مدة (في سنة ٣٠١هـ) أرسل عبيد الله المهدي جيشاً لفتح مصر. وسيطر على الإسكندرية والفيوم. بعد ذلك ذهب من المغرب إلى تونس، وبدأ بتشييد مدينة في جزيرة الخلفاء على ساحل البحر، قريباً من قرطاجنة القديمة سنة ٣٠٣هـ، وانتهى من البناء سنة ٣٠٥.
وسماها المهدية. بعد ذلك توفي فيها سنة ٣٢٢هـ
الإسماعيلية في إيران: كان الخليفة الفاطمي الثامن، الذي مر ذكر آبائه سلفاً، وهو المستنصر الذي حكم من سنة ٤٢٧هـ حتى سنة ٤٨٧هـ، منافساً للخلفاء في بغداد، وحرّض الناس ضدّ القائم العباسي، وطرده من بغداد بواسطة أحد أتباعه، وهو أرسلان البساسيري. ولكن دخول طغرل بك السلجوقي بغداد أنقذ السلطة العباسية، ومع ذلك انبرى دعاة الخلفاء الفاطميين ومبلغوهم في مصر إلى نشر المذهب الإسماعيلي وترويجه في العراق وإيران.
حسن الصباح من الذين اعتنقوا المذهب الإسماعيلي في زمان خلافة المستنصر الفاطمي رجل يُدعى حسن الصباح من أهل الري. ترك هذا الرجل الري سنة ٤٦٩هـ متوجهاً إلى أصفهان، ومنها إلى آذربايجان والشام، وبعدها ذهب إلى مصر فوصلها سنة ٤٧١هـ، وهناك اعتنق مذهب الإسماعيلية النزارية، لأن المستنصر انتخب في البداية نجله الآخر: المستعلي إماماً وخليفة له. وبعد وفاة المستنصر، تنازع ولداه: نزار والمستعلي على الإمامة والخلافة، فكان الإسماعيليون في العراق وإيران يقرون بإمامة نزار. وهم بذلك على عكس الإسماعيليين في الشام ومصر وإفريقيا حيث يقرون بإمامة المستعلي. وظل الإسماعيليون في العراق وإيران على ولائهم لنزار، وبعد مقتله أخذوا حفيده إلى ألموت (وهي قلعة في جبال البُرز شمال غربي قزوين تعني: وكر النسور) سراً وعكفوا على تربيته. ثم قاموا بنشر دعوتهم بواسطة حسن الصباح. سيطر حسن سنة ٤٨٧هـ على قلعة ألموت وهي بمعنى «وكر النسور» وعلى منطقة قريبة من رودبار التابعة إلى قزوين.
أطلق حسن على نفسه في ألموت لقب شيخ الجبل. وبعد موته سنة ٥١٨هـ خلفه أحد تلامذته ويُدعى «كيابزرگ الرودباري» وبعد وفاته عُيّن نجله محمد إماماً سنة ٥٣٢هـ ثم تلاه ابنه حسن الملقب: «على =

= ذكره السلام» فادّعى الإمامة، وقتل سنة ٥٦١هـ. ومن أحفاده جلال الدين حسن المعروف بالمسلم الجديد (نومسلمان) الذي أقام علاقات وديّة مع الخليفة العباسي: الناصر لدين الله. وكان له ولد يسمى علاء الدين محمد بن حسن، نادى بنفسه إماماً سنة ٦١٨هـ. وكان يقضي أكثر أوقاته في الفساد والسكر، إلى أن قُتل غيلة سنة ٦٥٣هـ. فخلفه ركن الدّين خورشاه سنة ٦٥٣هـ، وفي عصره دمر هولاكو ألموت، وأطاح بالأسرة الإسماعيلية سنة ٦٥٤هـ.

مراكز الإسماعيلية: يوجد الإسماعيلية في سوريا، في مناطق: قلعة المصياف، وقلعة القدموس، والسلمية؛ وفي إيران، في مناطق: كهك، ومحلات، وبيرجند، وقاين؛ وفي أفغانستان، في مناطق: بلخ، وبدخشان، وفي آسيا المركزية، في خوقند، وقره تكين. ويسمون في أفغانستان «المفتدون». ويعيش عدد كبير منهم في كافرستان (نورستان)، وجلال آباد، وفي مناطق جيحون الأعلى، وساري گل، وخوان، وياسين. ويوجد في الهند والباكستان مراكز للإسماعيلية أكثر من الدول الأخرى، ويكثرون في مناطق منهما، مثل: اجمير، ومرواره، وراجبوتانه، وكشمير، وبمباي، وبرودة، وكورج، علماً أن جميع الإسماعيلية في الهند ليسوا من أتباع آغا خان، بل يطلق على عدد منهم لقب «بُهره» ويعيشون غالباً في گجرات.

ويوجد في عمان ومسقط وزنجبار وتنزانيا عدد كبير منهم.

المعتقدات الكلامية للإسماعيلية: ينكر الإسماعيلية صفات الله، ويقولون: إنه أجل من تناول العقل والفكر والوهم، وأجل من أن يوصف بشيء ولا يحد بحد لا بالسلب ولا بالإيجاب، بدليل التنزيه في مسألة صدور الأشياء عن الباري تعالى، وذلك لكي لا يظهر إشكال في صدور الكثير عن الواحد. ويعتقدون أن أمر الباري - تعالى - أو كلمة الإبداء، العقل الكلي أو العقل الأول قد ظهر في الوجود، وهو الذي أبدع النفس الكلية. ومن النفس الكلية حدثت الطبائع بتأييد العقل الكلي، ومن الطبائع حدثت الأمهات، ومن الأمهات حدثت المواليد بفعل الأجرام السماوية.

وصدر العقل الكلي عن كلمة الأمر بواسطة طريق الإبداع. وكذلك صدرت الموجودات الروحانية والجسمانية بواسطة العقل والنفس من الباري - تعالى - عن طريق الإبداع والانبعاث. والفرق بين الإبداع والانبعاث هو أن الانبعاث شيء ليس في مكان ولا زمان، ولكنه حادث عن شيء آخر. أما الإبداع فهو شيء ليس في مكان ولا في زمان أيضاً، ولكنه لم يحدث أو يظهر عن شيء آخر.

إن مظهر العقل الكلي في هذا الكون وجود ناقص، والناطقين هم الأنبياء أولو العزم، وعددهم سبعة، ولكل منهم وصيّ، ويسمونه: الإمام أيضاً. أول الناطقين آدم ووصيه شيث، والثاني نوح ووصيه سام، والثالث إبراهيم ووصية إسماعيل، والرابع موسى ووصيه شمعون الصفا (بطروس)، والسادس محمد صلى الله عليه وآله - ووصيه علي، والسابع إسماعيل، لأن وصي محمد صلى الله عليه وآله هو علي، وبعده الحسن، ثم الحسين، ثم زين العابدين، فالباقر، فالصادق - عليهم السلام - وسابعهم إسماعيل، وهو القائم.

كتب البعض يقول: من ألقاب الإسماعيلية: الأساسية، أي أنصار الوصي، ويسمون الأساسيين، والاصطلاح الفرنسي (Assassin) جاء من ذلك الأصل، ومعناه في تلك اللغة: الأساسية، وليس الحشيشية، لأنهم يسمون وصي الإمام أساساً.

وقال الإسماعيلية: أن الناطق هو واضع الشريعة الجديدة وناسخ الشريعة القديمة. والأساس أو الوصي عالم بعلم تأويل الشريعة، ومهمته بيان أسرار الشريعة. وبواطنها. ويؤوّل الإسماعيليون آيات =

وما معها من قلاع الدعوة، وهي سبعة قلاع[1] على مسامتة ما بين حمص وحماة متصلة بالبحر الرومي إلى جانب طرابلس الشام، هؤلاء هم الذين يسمون في بلاد العجم تارة بالباطنية وتارة بالملاحدة[2]

وملخص معتقدهم التناسخ، وهم يسمون أنفسهم أصحاب الدعوة الهادية، وهم شيعة الخلفاء الذين كانوا بمصر وتسموا بالفاطميين. وكان قد انتهت رئاسة هذه الطائفة إلى راشد الدين سنان[3]، وكان صاحب سيمياء أراهم بها ما أضل به عقولهم

=

القرآن والأحاديث وأحكام الشرع. ولا يعتبرون ظاهرها صحيحاً، بل يميلون إلى باطنها، وذلك لكتمان معانيها التي لا يتسنى لكل أحد معرفتها، ويحتاج الإنسان معها إلى الإمام والمعلم لتوضيحها. ويسمي الإسماعيليون المنتمي الجديد إلى مذهبهم: (المستجيب)، والذي ثبت على الطريق، وله حق الكلام: (المأذون) وإذا بلغ درجة الدعوة: (الداعي)، وإذا ارتقى إلى منصب رئاسة الدعاة: (الحجة)، أي: أن كلامه حجة الله على الخلائق. وإذا حصل على درجة الولاية واستغنى عن المعلم: (الإمام). وبعد الإمام يصل إلى مقام (الوصاية والأساس)، وآخر مقام يبلغه هو مقام الناطق. ولكل إمام إثنا عشر حجة، أربعة منهم مرافقون له دائماً وسبعة موكلون على الجزائر السبعة، أي: الأقاليم السبعة.

لا يعتقدالإسماعيلون بالنعيم الجسماني المادي في الجنة، أو العذاب الجسماني المادي في النار، بيد أنهم كانوا يفسرون هذه الكلمات للمبتدئين بمعناها الاعتيادي. ويعتقدون أن الجنة في الحقيقة هي العقل، وفيها رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ في زمانه، ووصيه في درجته، وإمام العصر في عصره، وكلام رسول الله ـ صلى الله عليه وآله ـ هو مفتاح باب الجنة.

يقسم الإسماعيلية هذا اليوم إلى طائفتين هما: الآغاخانية، وبُهرة، وهم بقايا الفرقتين: النزارية والمستعلية. ويبلغ عدد نفوس الطائفة الأولى زُهاء المليون، وتنتشر في إيران، وآسيا الوسطى، وإفريقيا، والهند، ورئيسها: كريم آقاخان. أما الطائفة الثانية، فيبلغ عددها زُهاء خمسين ألفاً، ويعيشون في الجزيرة العربية، وسواحل الخليج، وسورية.

المصادر: رجال الكشي ٢٤٤ـ ٢٤٥، أصول الإسماعيلية ٩٨ـ ١١٠، تاريخ مذاهب إسلام ٢٠١ـ ٢٢٥. جهانگشاي جويني ٣/ ٣١١ـ ٣٣٤. دائرة المعارف الإسلامية، الترجمة العربية ج٢، مادة الإسماعيلية. المقالات والفرق ٥٠، ٥٦، ٨١. نامه ألموت.

«موسوعة الفرق الإسلامية ١٠٢ـ ١٠٨»

(١) هي: مصياف، والرصافة، والخوابي، والقدموس، والكهف، والمينفة، والعليقة. «الصبح ٤/ ٢٤٧، نخبة الدهر ٢٠٨».

(٢) عن إسماعيلية الشام راجع، القلقشندي: صبح الأعشى ٤/ ١٤٦ ـ ١٤٧، ١٣: ٢٣٨ ـ ٢٣٩، برنارد لويس: الدعوة الإسماعيلية الجديدة (الحشيشية). نقله إلى العربية سهيل زكّار (بيروت ١٩٧١).

(٣) سنان بن سلمان بن محمد بن راشد البصري، ابو الحسن، راشدالدين: مقدَّم الإسماعيلية، وصاحب دعوتهم، في قلاع الشام. أصله من البصرة ولد سنة٥٢٨هـ/ ١١٣٤م. وكان في حصن «ألموت» في حدود الديلم. قرأ كتب الفلسفة والجدل، وانتقل إلى الشام، في ايام السلطان نور الدين محمود، فجدَّ في إقامة الدعوة إلى مذهبه، وجرت له حروب مع السلطان، واستولى على عدة قلاع بالشام أقام فيها =

من تخيل أشخاص، فمن مات على طاعة أئمتهم في جنانٍ ونعيم، وأشخاص ممن مات على عصيان أئمتهم في النار والجحيم. وهم يعتقدون أن كل من ملك مصر كان مظهراً لهم فلهذا تتولاه هذه الطائفة وترى إتلاف نفوسها في طاعته لما ينتقل /٢٣٦/ إليه من النعيم الأكبر. ولصاحب مصر بتشيع هؤلاء مزية يخافه بها أعداؤه؛ لأنه يرسل من هؤلاء إليه من يقتله ولا يبالي أن يقتل معه، ومن بعثه صاحب مصر إلى عدو له ليقتله فجبن قتله أهله إذا عاد، وإن هرب اتبعوه وقتلوه.

ولقد سألت المقدم عليهم والمشار إليه فيهم وهو: مبارك بن علوان عن معتقدهم وجاذبته في هذا الحديث مرات، فظهر لي أن هذه الطائفة ترى الأرواح مسجونة في هذه الأجسام المكلفة بطاعة الإمام المطهر على زعمهم، فإذا انتقلت على الطاعة كانت قد تخلصت وانتقلت للأنوار العلوية، وإن انتقلت على العصيان هوت في الظلمات السلفية.

وعقيدتهم أن علياً، رضي الله عنه، كان المطهَّر ثم الانتقال منه. وليس هذا بمكان التطويل فيه.

[المدن المشهورة بهذه المملكة]

وأكابر المدن المشهورة بهذه المملكة: قاعدة الملك الكبرى وهي «القاهرة»،

= ٣٠ سنة. وجرت له مع السلطان صلاح الدين وقائع وقصص، ولم يذعن بالطاعة قط. وعزم صلاح الدين على قصده بعد صلح الفرنج، ثم صالحه. واستمر في استقلاله إلى أن مات سنة ٥٨٨هـ/ ١١٩٢م. وإليه تنسب الطائفة السنانية. وأخبار كثيرة.

ترجمته في: شذرات الذهب ٤/ ٢٩٤ وفيه قصة عجيبة له مع صلاح الدين، والنجوم الزاهرة ٦/ ١١٧ وهوفيه «سنان بن سليمان» وكذا في مرآة الزمان ٨/ ٤١٩ وتراجم إسلامية ٥٥ وفي نزهة الجليس ١/ ٢٣٣ أن صاحب قلعة «ألموت» هذا، كان رئيس «الحشيشية» وهم من الإسماعيلية، وكانوا أصحاب قوة وشجاعة مفرطة «إذا أرسل رئيسهم واحداً منهم، تزيَّا بزي طبيب أو منجم أو صاحب كيمياء، ويسير إلى من يريد اغتياله من الملوك، وإذا أمكنته الفرصة قتله، فإن سلم عاد، وإن هلك سلم الرئيس ديته لولده، ولا يستحلون مخالفة الرئيس ولو كان في الأمر ذهاب العمر، وإن امتنع أحدهم من أمر رئيسهم قتله أهله. وعظمت مخافة الملوك منهم من سنة ٦٥٥هـ، ببلاد العجم والعراق والشام والمغرب. وربما استهدى بعض الملوك من صاحب ألموت بعضهم إذا أراد اغتيال ملك أخر. ومن قتلاهم الآمر بأحكام الله صاحب مصر، ونظام الملك وزير ملكشاه، وخلائق من الأكابر».

وفي رحلة ابن جبير ٢٥٥ طبعة ليدن، قوله وقد مر بالقرب من ديار الإسماعيلية: «قيض لهم شيطان من الإنس يعرف سنان، خدعهم بأباطيل وخيالات موّه عليهم باستعمالها وسحرهم بمحالها، فاتخذوه إلهاً يعبدونه ويبذلون الأنفس دونه الخ». وانظر: أعلام الإسماعيلية ٢٩٥ ـ ٣٠٣، الاعلام ٣/ ١٤١.

وقد تقدم القول على أنها هي والقلعة والفسطاط ثلاث مدن صارت مدينة واحدة. وقوص، والإسكندرية، ودمياط، و«دمشق» - وهي قاعدة الملك الثانية - ثم بعلبك، ثم حمص، ثم حماة، ثم حلب، ثم طرابلس، ثم صفد، والقدس، والكرك، وغزة. وتقدم القول على مكة والمدينة المعظمتين وكيف دخولهما في المملكة على ما بينا هناك.

[قلعة الجبل]

فأما قلعة الجبل(١)، فهي على نشز عال يسمى الجبل الأحمر من تقاطيع جبل المقطم، بناها قراقوش للملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب، رحمه الله، ولم يسكنها حتى ملك أخوه الملك العادل أبو بكر فسكنها.

وهي مبنية على ذلك النشز، ترتفع في موضع منه وتنخفض في آخر، يدور بها سور حجر بأبراج وبدنات إلى أن ينتهي إلى القصر الأبلق(٢) الناصري المستجد بناؤه، ثم من هناك تتصل بدور الملك وليست على أوضاع أبراج القلاع.

يدخل إلى القلعة من بابين: أحدهما /٢٣٧/ بَابها الأعظم مواجه القاهرة(٣)، والثاني ينفذ إلى القرافة(٤)، بينهما ساحة فسيحة في جانبيها قبلة بشرق وشمالاً

---

(١) عن قلعة الجبل وتاريخها، راجع: الصبح ٣/ ٣٦٨ - ٣٧٤، الخطط ٢/ ٢٠١ - ٢٣٢، النجوم الزاهرة ٦/ ٥٤هـ، «تاريخ ووصف قلعة القاهرة» ط أحمد دراج وراجعه جمال محمد محرز ترجمة القاهرة - الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٤، «وصف قلعة الجبل» ترجمه جمال محمد محرز وراجعه عبد الرحمن زكي، القاهرة - الهيئة العامة للكتاب ١٩٧٤.

(٢) القصر الأبلق. أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون في شعبان سنة ٧١٣هـ وانتهت عمارته في سنة ٧١٤هـ وهو مشرف على الاصطبلات السلطانية التي كانت في أسفل القلعة. (كنز الدرر ٩/ ٢٦٦، الصبح ٤/ ٩٣ - ٩٤، الخطط ٢/ ٢٠٩ والسلوك ٢/ ١٢٩ وفيه أنه بدىء ببنائه في أول سنة ٧١٣ وكمل في سابع عشر رجب «النجوم الزاهرة ٧/ ٢٧٨، بدائع الزهور ١/ ١/ ٤٤٥).
وقصد الناصر محمد أن يحاكي به القصر الأبلق الذى بناه الظاهر بيبرس بدمشق سنة ٦٦٥هـ وقد أطلق عليه هذا اللفظ لأنه بنى بالحجر الأسود والأصفر بالتبادل، ومعروف أن الأبلق في اللغة يعني الأبيض والأسود، أو بصفة عامة الخليط من اللونين. «الخطط ٢/ ٢٠٩» ويرى كازنوفا أن هذا القصر هو الأثر الذي يعرف في القلعة بقصر يوسف أو بيت يوسف، والذي أصبح في العصر العثماني مقر صناعة كسوة الكعبة. وحدَّد محمد رمزي موقع هذا القصر في الجهة الغربية من القلعة حيث المكان الواقع على يمين الداخل من البوابة الوسطى للقلعة إلى الساحة التي بها جامع محمد علي باشا ويشغل موضع هذا المكان السجن الحربي بالقلعة.«النجوم الزاهرة ٩/ ٣٦هـ» .

(٣) يقال له: باب المُدَرَّج. «الصبح ٣/ ٣٧٠، الخطط ٢/ ٢٠٤.

(٤) يقال له: باب القرافة. «الصبح ٣/ ٣٧٠، الخطط ٢/ ٢٠٤».

بغرب بيوت، وبالقبلي سوق للمآكل.

وينتهي من صدر الساحة إلى دركاه جليلة يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول. وفي وسطها باب القُلَّة[1]، يدخل منه في دهاليز فسيحة إلى ديار وبيوت ومساكن إلى المسجد الجامع[2]. وقد كان لها مسجد لضيق بنائه فبناه هذا السلطان بناء متسع الأرجاء، مرتفع البناء، مفروش الأرض بالرخام، مبطن السقوف بالذهب، في وسطه قبة عالية، يليها المقصورة مستورة هي والرواقات بالشبابيك الحديد المحكمة الصنعة، وتحف صحنه رواقات من جهاته.

ويمشى من دهليز باب القلة ـ المقدم الذكر ـ في مداخل أبواب إلى رحبة فسيحة في صدرها الإيوان الكبير المعد لجلوس أيام المواكب، وإقامة دار العدل. وبجانب الرحبة ديار جليلة، وفي مجنبته ممر إلى باب القصر الأبلق، تليه رحبة صغيرة يجلس هناك خواص الأمراء قبل دخولهم إلى الخدمة الدائمة.

ويمشى من باب القصر في دهاليز إلى قصر عظيم البناء، شاهق في الهواء بإيوانين أعظمهما الشمالي، يطل منه على الاصطبلات السلطانية، ويمتد النظر إلى سوق الخيل والقاهرة وحواضرها إلى بحر النيل وما يليها من بلاد الجيزة وقراها. وفي الإيوان الثاني القبلي باب خاص لخروج السلطان وخواصه منه إلى الإيوان الكبير أيام الموكب.

ويدخل من هذا القصر إلى ثلاثة قصور جوانية منها واحد مسامت لأرض هذا القصر الكبير، واثنان مرفوعان يصعد إليهما بدرج في جميعها شبابيك حديد تخترق إلى مثل منظر القصر الكبير.

---

(١) باب القُلَّة: يقع أمام الباب الشمالي لجامع الناصر محمد بالقلعة. عرف بذلك لوجود قلّة (برج مرتفع) بناه الظاهر بيبرس، ثم هدمه المنصور قلاوون سنة ٦٨٥ وبنى مكانه قبة هدمها الناصر محمد وجدّد موضعها باب القلة. «الصبح ٣/ ٣٧٠، الخطط ٢/ ٢١٢، النجوم الزاهرة ٨/ ٤٥هـ و١٦/ ٣٢٠ـ ٣٢١».

(٢) المسجد الجامع بالقلعة ويعرف بجامع الخطبة بناه الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٧١٨ في مكان مسجد قديم ربما كان من بناء الملك الكامل محمد (وهو أول من سكن بالقلعة)، ثم أعاد بناء وتجديد أجزاء منه في رواق القبلة سنة ٧٣٥. وهذا الجامع كان بمثابة مسجد القصر الخاص طوال العصر المماليكي. «كنز الدرر ٩/ ٢٩٣ و٣٨٣ـ ٣٨٣ و٣٨٨، الصبح ٣: ٣٧٠ـ ٣٧١، الخطط ٢/ ٢١٢ و٣٢٥ والسلوك ٢/ ١٨٤، النجوم ٩/ ٥٦هـ، سعاد ماهر: مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ٣/ ١٣١ـ ١٣٩».

وفي هذه القصور مجاري الماء[1] مرفوعاً من النيل بدواليب تديرها الأبقار من مقررة إلى أخرى حتى تنتهي إلى القلعة، ثم يدخل إلى القصور /٢٣٨/ السلطانية ودور أكابر الأمراء الخواص المجاورين للسلطان، يجري في دورهم وتدور به حماماتهم وهو من عجائب الأعمال لرفعته مما يقارب خمس مائة ذراع من مكان إلى مكان.

ويدخل من القصور الجوانية إلى حرم الحريم وأبواب الستور السلطانية. وهذه القصور جميعها من ظاهرها بالحجر الأسود والأصفر، مؤزرة من داخلها بالرخام والفص المذهب والمشجر بالصدف والمعجون والمطرقات وأنواع الملونات، والسقوف المبطنة، بالذهب واللازورد. يخرق الضوء في جدرانها بطاقاتٍ من الزجاج القبرسي الملون كقطع الجوهر المؤلفة في العقود. وجميع الأرض بها مفروش بالرخام المنقول إليها من أقطار مما لا يوجد مثله.

فأما الآدر السلطانية، فعلى ما يصح عندي خبره، ذوات بساتين وأشجار وساحات للحيوانات البديعة والأبقار والأغنام والطيور والدواجن. وباقي داخلها، يعني القُلَّة، للمماليك السلطانية وخواص الأمراء: نسائهم وحريمهم ومماليكهم، ودواوينهم وطشت خاناتهم[2]، وفراش خاناتهم[3]، وشراب خاناتهم[4]، ومطابخهم ووظائفهم.

---

(١) وهي القناطر التي أنشأها الناصر محمد بن قلاوون عوضاً عن القناطر العتيقة التي بناها صلاح الدين وكانت تمثل جزءاً من سور القاهرة الواصل إلى القلعة. «الخطط ٢/ ٢٣٠، علي بهجت: حفريات الفسطاط ٢٦ و٢٧». وفي سنة ٧١٢ أنشأ الناصر محمد بن قلاوون أربع سواقٍ على بحر النيل تنقل الماء إلى السور، وأدخل تعديلاً كبيراً على هذا المشروع في سنة ٧٤١ وصار الماء يجلب من نواحي الرصد في آبار أعدت لذلك ورُكِّبت سواقي فوق الآبار لنقل المياه إلى القناطر العتيقة التي تحمل الماء إلى القلعة. «الخطط ٢/ ٢٢٩ـ ٢٣٠، النجوم ٩/ ١٦٠ ـ ١٦١، بدائع الزهور ١/ ١/ ٤٥٩».
وكانت قناطر الناصر محمد تمر بمنطقة كوم الجارح حيث ضريح سيدي أبو السعود الجارجي اليوم.
أما قناطر المياه القائمة اليوم عند منطقة فم الخليج فهي من إنشاء الملك الأشرف أبو النصر قانصوه الغوري أنشأها في سنة ٩١٢هـ «بدائع الزهور ٤/ ١١٠»، وما زالت آثار مجرى العيون التي أنشأها السلطان الغوري قائمة عند فم الخليج ومسجلة بالآثار تحت رقم ٧٨.
سعاد ماهر: «مجرى مياه فم الخليج»، المجلة التاريخية المصرية ٧(١٩٥٨) ١٣٤ـ ١٥٧».

(٢) الموضع الذي يكون فيه آلة الغسل والوضوء، وآلة الحمام، وآلات الوقود وكل ما يتعلّق بذلك. «نهاية الأرب ٨/ ٢٢٥».

(٣) حيث تكون أنواع الفُرُش والخيام والتخوت وما يتعلق بذلك. «نهاية الأرب ٨/ ٢٢٦ـ ٢٢٧».

(٤) حيث يوجد أنواع المشروب من المياه، والسكر والدرياقات والسفوفات والمعاجين والأقراص، وما يجري هذا المجرى. «نهاية الأرب ٨/ ٢٢٤ـ ٢٢٥».

والقلعة فيها مساكن لأكابر الأمراء ومن كبر من أمراء الطبلخانات والعشرات، أو من خرج عن حكم الخاصكية إلى طبقة البرانيين، ودار الوزارة، ودار كاتب السر، وديوان الإنشاء، وديوان الجيوش، وديوان الأموال، والنقباء، والزردخاناه[1] يجري هذا المجرى، مقسمة المساكن، وفيها المساجد والحوانيت والأسواق في جهاتها. هذه جملة العمارة.

ثم نذكر بقية ما يتعلق بالقصر السلطانية فنقول: إنه ينزل منه من جانب إيوان القصر إلى الإصطبلات السلطانية، ثم إلى ميدان ممرج بالنجيل الأخضر، فاصل بين الإصطبلات وبين سوق الخيل في غربيه، فسيح المدى يسافر النظر في أرجائه. يركب السلطان من درج يلي قصره الجواني /٢٣٩/ وينزل إلى الاصطبل الخاص، ثم إليه راكباً وخواص الأمراء في خدمته لعرض الخيول في أوقات الإطلاق أو قبول القادم أو المشتري، وفي أوقات طعم الطير. وربما وقف به راكاً، وربما نزل فيه ولم ينصب عليه خيام، وربما نصب عليه الخيام إذا طال مكثه وكان زمان حر أو برد وربما مد به السماط، ثم يطلع راكباً إلى قصره.

وبهذا الميدان أنواع من الوحش المستحسن للنظر، وتربط به خواص الخيول للتفسح. وفي هذا الميدان يصلي السلطان وخواصه ومن لا يقدر يفارقه من ذوي الخدم صلاة العيدين، ونزوله إليه وطلوعه منه من باب خاص من دهليز القصر غير هذا المعتاد النزول منه لما قدمنا ذكره.

وللسلطان عدة أبواب سر إلى القرافة وإلى غيرها لا حاجة بنا إلى ذكرها.

قلت: هذه القصور، والإيوان الكبير، والميدان الأخضر، والجامع، وغالب العمائر الضخمة بالقلة والقلعة عمارة هذا السلطان[2] وبناؤه مطرزة الطرز فيها بألقابه واسمه، ترد الطرف كليلاً بأنوارها، وترف القلوب على ما يفتح من نفوس نوارها. تقر

---

(١) أي بيت الزرد، وهي الدروع وربما أطلق عليها السلاح خاناه. «نهاية الأرب٨/ ٢٢٧ـ ٢٢٨و٢٨٤، الصبح ٤/ ١١».

(٢) عن منشأت السلطان الناصر محمد بن قلاوون، راجع: كنز الدرر٩/ ٣٨٨ـ ٣٩١، السلوك٢/ ٥٣٧ـ ٥٤٥، والمجلة التاريخية المصرية ٩ـ ١٠(١٩٦٠ـ ٦١) ٢٤١ـ ٢٥٠، النجوم الزاهرة ٩/ ١٧٨ـ ٢١٠، عبد الرحمن زكي: «أبو المحاسن وآثار القاهرة في عصر الناصر محمد» في كتاب «المؤرخ ابن تغري بردي» (القاهرة ١٩٧٤) ١٦٥ـ ١٧٥.

الملوك بها لعلو هممه وسعة إنفاقه وكرمه، تقف عليها الأبصار ويعرف من رآها أنه هان عليه العدو والدينار.

والقاهرة

مدينة مبنية في وطاة نائية عن دورة الجبل، أرضها سباخ ولأجل هذا يعجل إلى مبانيها الفساد.

والفسطاط

المسمى الآن على ألسنة العامة بمصر، مدينة مبنية على ضفة النيل الشرقية. وقد بني قبالتها في الجزيرة المبنى بها المقياس، أبنية كثيرة صارت كأنها فرضة من مصر. ومجرى النيل بينهما، ولمنظره عند امتداد ضوء القمر أو إيقاد السرج في الليل منظر يجذب القلوب.

وكل من مصر والقاهرة وحواضرهما الممتدة ذات رباع علية، مبلغ بعضها أربع طبقات في كل طبقة مساكن كاملة بمنافعها ومرافقها وسطح مقتطع لها من الأعلى بهندسة محكمة وصناعة /٢٤٠/ عجيبة، مع كون البيوت بعضها تحت بعض، لا يرى مثل صناع مصر في هذا الباب.(١)

وفي كل من هاتين المدينتين وحواضرهما القصور الشاهقة، والديار العظيمة، والمنازل الرحيبة، والأسواق الممتدة، والمدارس، والخوانق، والربط، والزوايا. والجميع على اتساع رقعة البناء وفسحة الشوارع، مزدحمة بالخلق سكناً وممشًى، قد حشرت إليها الأمم واختلفت إليها أنواع الطرائف.

وقال لي غير واحد ممن رأى المدن الكبار والخطط العظام في مشارق الأرض ومغاربها وبعيدها ومتقاربها: إنه ما رأى مدينة اجتمع فيها من الناس ما اجتمع في مصر والقاهرة وحواضرهما.

قال لي الصدر مجد الدين إسماعيل السلامي(٢)، وقد سألته عن بغداد وتوريز

---

(١) راجع وصف المباني في مصر منذ العصر الفاطمي وتعجّب الرحالة من عدد طوابقها عند: المسالك والممالك للأصطخري (القاهرة ١٩٦١) ٣٦، صورة الأرض ١٤٦، أحسن التقاسيم ١٩٨، ناصر خسرو ١٠١، المغرب لابن سعيد٣، الخطط ١/ ٣٣٤و ٣٤١ وهذه الأوصاف كلها خاصة بالفسطاط.

(٢) اسماعيل بن محمد بن ياقوت السلامي، مجد الدين، المنسوب إلى السلامية وهي قرية في ضواحي الموصل. عاشُ بين سنة ٦٧١ـ ٧٤٣هـ

ترجمته في: الوافي بالوفيات ٩/ ٢٢٠ـ ٢٢١، الدرر الكامنة١/ ٤٠٨ رقم ٩٦٤.

وهل يجمعان مثل مصر ؟ فقال: في مصر خلق قدر كل من هو في جميع البلاد منها إلى توريز.

وغالب من فيها من العوام والباعة وأهل المهن والصنائع، كما قال القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، رحمه الله: أهل مصر على كثرة عددهم، وما ينسب من وفور المال إلى بلدهم، مساكين يعملون في البحر، ومجاهيد يدانون في البحر. وأحمله على أنه قصد السجعة، إذ كل بلد فيها مجاهيد في أعمالهم. وما زال هذا في خاطري لا زيادة عندي عليه، إلى أن أقمت بمصر وسافرت في صحبة السلطان غالب بلادها، فرأيت خلقاً ممن عليهم أرض مسجلة قد ركب المنخفض منها ولم يركب العالي، وهم وقوف كل اثنين على مستنقع ماء وبأيديهم قفة بخيط في أذنيها وهما يترفان الماء بها ضرباً باليد إلى ورائهما في مقررة محفورة يجتمع ما ينزح منها ثم يصرف في مجاري إلى تلك الأعالي، ثم التي لم يركبها الماء يسقوها، وهم من هذا في جهد جهيد وأمر شديد. فعلمت أن هؤلاء الذين أراد القاضي الفاضل رحمه الله، بقوله: مجاهيد يعملون في البر، فإنه ليس في البلاد أشد جهداً منهم؛ فإنهم ملزمون /٢٤١/ بدرهم معين وإردب معين، فإن لم يعملوا هذا أضنكهم الطلب ولم يجدوا جهة للوفاء.

* * *

وأما بر الديار المصرية فهو ريف ممتد بين حاجزين واعقد رمل مفصل بالقرى [كذا]، وهي مبنية بالطوب، سود الظواهر، يحف بها نخل يقل في بعض ويكثر في الأخرى، كلها على أنموذج واحد من رأى واحداً منها فكأنما رآها كلها.

وقوص

مدينة على شرقي النيل في أعلى الصعيد واقعة في المباني، ذات ديار جليلة، وفنادق، ورباع، وحمامات، ومدارس. يسكنها جلة من التجار والعلماء وذوي الأموال. وهي أول محط ركاب تجار الهند والحبشة واليمن والحجاز الواصلين من البحر الملح من صحراء عيذاب. وبها المكاسب، ولها البساتين والحدائق ومنابت البقول والخضراوات، لكنها شديدة الحر كثيرة العقارب والسام أبرص، وبها صنف من العقارب القتالات حتى إنه يقال فيها عن الملسوع: أكلته العقرب؛ لأنه لا يرجى له إفاقة.

قال لي عز الدين حسن بن أبي المجد الصفدي، أحد العدول بالقاهرة: إنه عد في يوم صيف على حائط الجامع [بها] سبعين سام أبرص على صف واحد. والمستفاض أن أهل قوص إذا تمشى منهم أحد في مكان أو خرج إلى بيته أو منه، يأخذ بيده الواحدة مسرجة، وفي الأخرى مشك يشك به العقارب.

وبالصعيد بقايا سحر قديم، يحكى عنهم أشياء أصح ما سمعت منها ما حكى لي من أثق به عن طقصبا[1] والي قوص، قال:

أمسكت امرأة ساحرة فقلت لها: أريد أن أبصر شيئاً من سحرك،

فقالت: أجود عملي أني أسحر العقرب، فقلت لها: كيف تسحرين العقرب ؟

قالت: أسحره على اسم شخص مخصوص فلا يزال ذلك العقرب يتتبع ذلك الشخص حتى يلسعه فيقتله.

فقلت: أريني هذا واسحري العقرب على اسمي، فأخذت عقرباً وسحرته وأرسلته فتبعني فتعبت كلما أنتحي عنه وهو يتبعني، فجلست على تخت منصوب في بركة ماء، فجاءت العقرب إلى البركة وصارت /٢٤٢/ تحاول طلوعها إلي ولا تقدر على اقتحام الماء، فذهبت إلى الجدار وصعدت فيه وأنا أنظرها حتى ترقت إلى السقف وجاءت إلى مسامة مكاني ثم رمت بنفسها إلى أن نزلت إلى الأرض وقصدتني فضربتها بعصا في يدي فقتلتها، ثم أمسكت تلك الساحرة فقتلتها لما رأيت من سحرها العظيم. ويحكى كثير من هذا ليس هذا موضع ذكره.

ثم من قوص إلى أسوان ومن أسوان المدخل إلى بلاد النوبة، ومن أسوان شعبة إلى الصحراء إلى عيذاب على ساحل البحر يجاز منه إلى جدة، ميناء مكة المعظمة. ومن هذا البحر مسالك للتجار إلى عدن ثم إلى ما أرادوا من الهند واليمن والحبشة.

ولم نذكر قوص دون ما سواها في الصعيد إلا لأنها هي مدينتها الحاضرة وبها يحط مُصعداً ومُنحدراً زمر الرفاق المسافرة.

---

(١) الأمير سيف الدين طقصبا الحسامي الظاهري، أحد المماليك الظاهرية بيبرس، ترقى في الخدم إلى أن وَلِيَ قوص وغزا النوبة في سنة ٧٠٥ وعبر إلى دنقلة وعاد بعد أن مكث هناك بالعسكر تسعة أشهر.
ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٣٢٦ رقم ٢٠٤٣، النجوم الزاهرة ١٠/ ١١١، السلوك ٢/ ٦٧٤، المقفىٰ الكبير ٤/ ٣٠ـ ٣٣.

والإسكندرية

مدينة[١] قديمة جليلة، وكانت في القديم أكبر مما هي الآن وأعظم في كثرة الأهل والبنيان. بناها الإسكندر ذو القرنين على شاطىء البحر الرومي، وكان بها على ما يقال سرير ملكه ومستقر أمه. وجميع بنائها بالحجر والكلس مبيضة البيوت باطناً وظاهراً كأنها الحمامة البيضاء، ذات شوارع مشرعة، وسيعة الأرجاء، كل خط بذاته كأنها رقعة الشطرنج، يستدير بها أسوار ممنعة وبروج محصنة، عليها السهام المسترة، والمجانيق المنصوبة، وبها عسكر مستخدم لحفظها. وليس بالديار المصرية مدينة حاكمها مرسوم بنيابة السلطنة سوى الإسكندرية، لا يزال أهلها على يقظة من أمور ومخالسة العدو.

وبها الديار الجليلة والجوامع والمساجد والربط والخوانق والمشاهد والفنادق والرباع والأسواق الممتدة، ومعامل البز والقماش والطرز الفائق المثل، وإليها تهوي ركائب التجار براً وبحراً من كل فج عميق ومكان سحيق، وليس في الدنيا نظير شربها وطرازها المعمول بها والمحمول إلى أقطار الأرض شرقاً وغرباً، منها من الحفير المنسرح بالذهب والفضة /٢٤٣/ والمقصب بالقصب وطرد الوحش المنوع، والجر والمنقوش والممزج والمدفون والدبيقي والساذج والمفترح والمقاطع والممرس والشرب الخام والمقصور وبدلات المقانع وأنواع المقصبات والملون بالذهب والفضة والملاءات والفوط من كلها لا شبيه لرقمه ولا نظير لحسنه، يباع كل يوم فيها بآلاف مؤلفة من الذهب الأحمر ولا ينفد متاعها ولا يقل موجودها.

وبالإسكندرية معاملة الدرهم السواد حقيقة مقصوراً عليها، لا يخرج في سواها

---

(١) راجع عن الإسكندرية: مروج الذهب١/ ١١٤ـ ١١٥و ٢/ ٧٣و ٩٩ـ ١٠٩، معجم البلدان ١/ ٢٥٦ـ ٢٦٥، الصبح ٣/ ٤٠٣ـ ٤٠٤، الخطط ١/ ١٤٤ـ ١٧٥، رحلة ابن بطوطة١/ ١٢ـ ٢٢، حسن المحاضرة١/ ٨٤ـ ٨٨، «تاريخ الإسكندرية من أقدم العصور»، مجموعة مقالات نشرتها محافظة الإسكندرية سنة ١٩٦٣، زكي علي: «الإسكندرية، تأسيسها وبعض مظاهر الحضارة فيها في عصر البطالمة»، مجلة كلية الآداب ـ جامعة الإسكندرية ٢(١٩٤٤) ١١٧ـ ١٧٨و ٤ (١٩٣٨) ١٢١ـ ١٤٠، جمال الدين الشيَّال: «الإسكندرية ـ طبوغرافية المدينة وتطورها من أقدم العصور إلى الوقت الحاضر»، المجلة التاريخية المصرية ٢(أكتوبر ١٩٤٩) ١٩١ـ ٢٧١ وله أيضاً: «تاريخ مدينة الإسكندرية في العصر الإسلامي» (الإسكندرية ١٩٦٧)، حسن عبد الوهاب: «الإسكندرية في العصر الإسلامي»، مجلة الكتاب (يناير ١٩٤٧) ـ، السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي (الإسكندرية ١٩٦٩ و١٩٨٢).

ولا يتعدى حاضرة أسوارها، وهو فيها كل درهمين سوداوين بدرهم واحد من نقد الدرهم المصري. يوجد بها الدراهم السود حقيقة اسماً على مسمى، وأما في بقية الديار المصرية، فكما قدمنا، يوجد اسماً لا مسمى كل ثلاثة سودٍ بدرهم واحد من الدراهم المصرية.

والإسكندرية هي فرضة الغرب والأندلس وجزائر الفرنج وبلاد الروم، وإليها ترد شوانيها وتجلب بضائعها، ومنها تخرج أغراضها. فأما دمياط فهي وإن كانت رسيتها في هذا الباب، فإنه لا نسبة لها إلى الإسكندرية، وسيأتي ذكرها.

والإسكندرية لها بحر خليج[1] من النيل تصل فيه المراكب من مصر إليها ومنها إلى مصر، وفي أوان زيادة النيل يمتلىء هذا الخليج ويمتد إلى صهاريج داخل المدينة المعدة لاختزان الماء بها لشرب أهلها، نافذة من بعض الدور إلى بعض، يمكن النازل إلى صهريج منها الصعود من أي دار اختار، وتحت تلك الصهاريج الآبار النبع بالماء الملح، فهي طبقات ثلاث: طبقة الآبار، عليها طبقة الصهاريج، عليها طبقة البناء.

ولا يعتني أهل الإسكندرية ببناء الطبقات على أعالي أبنيتهم لقوة الأمطار بها وتجويف قرارها.

وعلى الإسكندرية البساتين الأنيقة والغيطان الفساح، وفيها لجلة أهلها القصور الناهدة، والجواسق الشاهقة محصنة جميعها بإحكام البناء وعلو الجدر خشية من طراق الفرنج وذعار العرب.

وبها من الفواكه المنتخبة الثمار، وهي /٢٤٤/ تفوق مصر بحسن ثمراتها ورخص الفواكه بها، وليس للإسكندرية من إزدراع القمح والشعير والحبوب إلا ما قل، وغالب أقواتها محمول من أرياف مصر إليها.

تنبيــه

قد ذكرنا فيما تقدم أن الإسكندر هو الذي بنى الإسكندرية، وذلك صحيح بمعنى أنه جددها وجدد بناءها.

(١) عن خليج الإسكندرية، راجع: مروج الذهب ٢/ ٧١ و٦/ ١٤٩، صبح الأعشى ٣/ ٣٠٠، الخطط ١/ ١٦٩-١٧٢، عمر طوسون: تاريخ خليج الإسكندرية القديم وترعة المحمودية (الإسكندرية ١٩٤٢).

وأما سبب بنائها القديم فقد ذكره التيفاشي في كتاب «سرور النفس بمدارك الحواس الخمس» قال: ذكر أحمد بن مطرّف في كتاب «الترتيب»[(١)]: أن الذي بنى الإسكندرية أول أمرها جبير المؤتفكي[(٢)]، وأن الذي هداه إلى بنائها أنه غزا بعض النساء اللواتي ملكن مصر وكان اسمها حوريا بنت ألبرت، وأنه لما طال بينهما الحرب أنفذت إليه تقول: إني قد رغبت في أن تتزوجني فيصير ملكنا واحداً ودارنا واحدة، وأصير أنا ومملكتي لك وذلك خير لك من أن تقيم علي الحرب فتفقد مالك ويفنى رجالك، فإن ظفرت بي لم يحصل لك طائل؛ لأن الهزائم تذهب الأموال وتمحقها، وإن أنت خذلت ذهبت وذهب جميع مالك. فأعجبه مقالها وأجابها وعقد النكاح على ما كانوا يعتقدونه؛ والتمس الدخول بها فقالت: إنه يقبح بي وبك أن نجتمع في غير مدينة نبنيها لهذا الأمر في أحسن موضع وأجل مكان بحيث لم يكن فيه بناء قط غير ما نبنيه. وإنما كان ذلك منها مكراً به لتنفد أمواله وتبلغ منه ما تريد في لطف وموادعة. فأجابها وأنفذ المهندسين إليها، وخيرها المواضع، فاختارت موضع الإسكندرية، وقسمت المدينة وصورها المهندسون، ثم عرفته ذلك فأجاب إلى كل ما طلبت. وسار بجيشه فنزل على ذلك الموضع وشرع في البناء، فكان كلما بنى بناء خرجت دواب البحر وعبثت به وهدمته، فأقام زماناً ونفدت الأموال وضاق ذرعاً، فوفق له أن دل على بعض السحرة، فأحضره وشكا إليه ذلك الأمر، فوضع له طلسمات وجعلها في آنية زجاج كالتوابيت فكانت في الماء حذاء / ٢٤٥/ الأبنية، فإذا جاءت دواب البحر قرأت الطلسمات والتوابيت نفرت فثبت البناء، وبنيت المدينة وتمت بعد زمان طويل. ثم راسلها في المسير فسارت بجميع ملكها وعساكرها حتى نزلت حذاء عسكره، وراسلته أني قد أحببت أن أحمل عنك مؤنة الإنفاق على العسكرين في أطعمة تصلح وأشربة، وقد أعددت لوجوه الأمراء والقواد خلعاً وتحفاً حملاً عنك لما لزمك في بناء المدينة، فأحب أن تجيبني إلى ذلك، فأجابها وأمرت بذلك، فعمل، وأنفذت إليه أني أحب أن أراك وأرى سائر عسكرك

---

(١) أورد صاحب الوافي بالوفيات ٨/ ١٨١ـ ١٨٢ تراجم لثلاثة أشخاص اسمهم أحمد بن مطرّف، دون أن يذكر فيها كتاب الترتيب.
انظر أيضاً: معجم الادباء ٥/ ٦٣ـ ٦٤، هدية العارفين ١/ ٧٢.

(٢) ورد اسمه في الخطط ١/ ١٤٥ «جيرون وهو قائد ايداخس ملك الكنعانيين» وفي كتاب المسالك والممالك للبكري «إن أول من بنى الإسكندرية جبرون بأمر حوريا...».

في الميدان يلعبون ضروب اللعب، ويكون منصرفكم بعد ذلك إلي لحضور الطعام والخلع فأجابها. وتقدم بركوب الجيش وحمل السلاح واللعب، فلما فعل واشتد عرق القوم انصرفوا إليها جميعاً فتلقاهم أصحابها بالخلع المسمومة فلبسها وجوه العسكر، ولبس الملك جبير خلعته ـ وكانت أقل سماً من غيرها ـ إبقاء عليه لتبقى فيه بقية لخطابها، فما أقاموا إلا ساعة بالخلع حتى طفثوا وماتوا، ورأى ذلك بقية العسكر، فعلموا موضع الحيلة، فتبادروا مستأمنين فنودي فيهم بالأمان وبقي في الملك بقية من الحياة، فأمرت أن يحمل إليها، فلما رأته في السياق قالت له: إن ملكاً أنفق ماله وأفنى زمانه وترك ملكه رجاء شهوة، لا يدري أينالها أم لا لملك سخيف. وكان آخر كلامها بخروج روحه فمات ودخلت هي المدينة وأقامت بها زماناً وعادت إلى مصر.

ثم ملك الإسكندر فزاد في بنائها وأطال في منارتها وجعل فيها مرآة كان يرى منها مراكب العدو عن بعد، فإذا صارت بإزائها وصدمها شعاعها أحرقتها كما تحرق المهاة في الشمس ما قابلها من الحرق وإن لم تتصل بها، فسميت الإسكندرية من حيئنذ. وكان اسمها قبل ذلك رقودة، وبذلك يعرفها القبط في كتبهم القديمة.

وأقامت المرآة على ذلك زماناً، وشق ذلك على الروم فاحتال حكيم من حكمائهم بأن وافق متملكهم على أن يبعث أموالاً مع أصحاب له فيدفنوها في مواضع متفرقة /٢٤٦/ من ثغور الإسلام ثم عادوا بعد دفنها فوضع كتابَ مطالبٍ ذكر فيه المواضع وختمه بأن تحت المرآة التي في منارة الإسكندرية كنزاً لا يحصى ما فيه من الأموال، وعتق ذلك الكتاب ودفعه إلى إنسان ذكي، وأمر أن يسير به إلى بلد بلد وأن يكون قصده إلى سلطان كل بلد فيعرفه ما في ذلك البلد ويخرجه ويأخذ منه جزءاً يسيراً، ففعل ذلك بأول [من] لقيه وصح قوله فأخرج المال وأخذ منه جزء يسيراً.

واتصلت الأخبار إلى سائر الثغور بذلك، فكان سلطان كل بلد ينفذ إليه من يتسلمه بعد أن يحضر إخراجه الكنز في البلد الذي هو فيه، فلم يزل إلى أن وصل إلى الإسكندرية فقال لملكها ما قال في المرآة، وقال له: إذا قلعتها وأخذت الكنز أنا أردها إلى أفضل ما هي عليه الآن، فأجابه وقلعت المرآة وشرع في هدم ما تحتها والنسل الإنسان وترك ونزلت تلك الأموال التي أخذها من الكنوز المتقدمة ليطمئنوا ولا يجدوا في طلبه وفاتهم، وحفروا فلم يجدوا شيئاً، فعلموا أن ذلك كله كان حيلة على قلع

المرآة فلم يقدروا على ردها لأن واضعيها كانوا حكماء قد نصبوها بطالع مختار.

واختلف الناس في هذا القول، فمنهم من ذكره ومنهم من ذكر غيره، قال: غير أني قرأت في بعض كتب التواريخ أن أعاجيب الدنيا أربعة: فرس من نحاس بأقصى غرب الأندلس لا يتجاوزه أحد إلا ابتلعه الرمل، وشجرة من نحاس برومية عليها صورة طائر من نحاس وهو الذي يسمى الزرزور؛ إذا كان أوان نضج الزيتون فلا يبقى طائر من جنسه ـ وهو الطائر المعروف ـ إلا أتى حاملاً زيتونة في منقاره وزيتونتين في رجليه فيلقيه عند الطائر النحاس المذكور فيعصر أهل رومية من ذلك ما يكفي أدمهم وسرج عامهم، ذلك لأن رومية ليس بها زيتون. ومنارة من نحاس عليها راكب من نحاس بأرض عاد، إذا كان في الأشهر الحرم جرى منها الماء ولا يجري من غيرها. ومرآة بمنارة الإسكندرية ترى بها القطائع الحربية إذا تجهزت من القسطنطينية العظمى فيرى أهل الإسكندرية أهل /٢٤٧/ القسطنطيطينة وبينهما عرض البحر.

قال: وأما مساحة المنارة فهي ثلاث طبقات، ومساحتها على ما ذكره بعض المتصلين مائتا ذراع وثلاث وثلاثون ذراعاً، فالطبقة الأولى مربعة وهي مائة ذراع وإحدى وعشرون ذراعاً، والطبقة الثانية مثمنة وهي إحدى وثمانون ذراعاً ونصف ذراع، والطبقة الثالثة مستديرة وهي ثلاثون ذراعاً ونصف ذراع.

قلت: أما ما حكاه عن منارة الإسكندرية[1] فقد أصبحت كلها أثراً بعد عين، سقطت أعلامها ومحيت آثارها ولم يبق من المنارة إلا دون العشرين ذراعاً، وأمر السلطان لها بالبناء ولم يصرف إليها وجه الاعتناء، وليس الناظور الآن إلا في منارة استحدثت على كوم عال داخل السور يعرف بكوم معلى لا له أساس ثابت ولا جدار معلى. وأما عمود الصواري فباق على حاله والطلل هائل ولا طائل، وهو من الإسكندرية على مسافة نصف يوم من غربيها البر الأقفر المتصل ببرقة إلى الغرب الأقصى.

والرطل الإسكندري يسمى الجروي[2] وهو رطلان وأوقيتان بالمصري، وإردبها ثمان ويبات بإردب وثلث بالمصري. وأسعارها أقرب إلى الرخاء ولولا الحجير زادت رخاؤها وعظمت أجلابها.

---

(١) عن منارة الإسكندرية، راجع: مروج الذهب ٢/ ١٠٤ـ١٠٨، رحلة ابن بطوطة ١٣، الخطط ١/ ١٥٥ـ١٥٨، حسن المحاضرة١/ ٨٩ـ ٩٣.

(٢) راجع عن الرطل الجروي: قوانين الدواوين ٣٦١.

ودمياط

مدينة[١] على ضفة البحر عند مصب أحد فرقيِّ النيل بناؤها الآن غير موثق يطوف بها جسر النيل إلى مصبه. وهي موضع غرة للعدو من قبل البحر، وقد علقت بها حمة الكفر زماناً طويلاً حتى نصر الله عليهم في أخريات الدولة الأيوبية.

حدثني من رأى دمياط أنها مدينة لطيفة فيها مدرسة واحدة وأسواق ليست بالكثيرة. ومنها الإفضاء إلى بحيرة تنيس المذكورة في القديم بحسن الأوضاع وجودة القماش والمتاع، وإنما هي الآن جون من البحر الملح أو كالجون.

وبدمياط وما يليها شجر الموز الكثير ومنه مدر مصر والقاهرة وبلادهما.

فائدة

قال /٢٤٨/ التيفاشي في «سرور النفس»: يقال إن تنيس[٢] ودمياط والفرما ثلاثة إخوة ملكوا هذه المدن الثلاث، وسمى كل واحد منهم مدينته باسم نفسه. وكانت تنيس يقال لها تنيس الأخصاص، ويقال إن المسيح عليه السلام دخلها فأكرمه أهلها، فدعا أن يبارك الله لأهلها فيها وأن يأتيها الرزق من كل مكان لما رآها وسط بحيرة، ولم يدخل دمياط.

وأما «الجفار» فهي خمس مدن: الفرما[٣] والبقارة والورَّادة والعريش ورفح[٤].

والجفار كله رمل وإنما سمي جفاراً لشدة المشي فيه على الناس والدواب لكثرة رمله وبعد مراحله. والجفار تحفر فيه الإبل وغيرها فتهلك فاتخذ له هذا الاسم، كما قيل للحبل الذي يهجر به البعير هجَّار، والذي يحجر به حجَّار، والذي تعقل به

---

(١) راجع عن دمياط: معجم البلدان ٢/ ٦٠٣ـ ٦٠٦، الروض المعطار ٢٥٧ـ ٢٥٨، ابن رحلة ابن بطوطة ١/ ٢٣ـ ٢٥، الصبح ٣/ ٤٠٢، الخطط ١/ ٢١٣ـ ٢٢٦، القاموس الجغرافي ٢/ ١/ ٨، مجمل تاريخ دمياط سياسياً واقتصادياً (الإسكندرية ١٩٤٩).

(٢) راجع عن تنيس، ابن بسام التنيسي: «أنيس الجليس في أخبار تنيس» مجلة المجمع العلمي العراقي ١٤(١٩٦٧) ١ـ ٧٣.

(٣) الفَرَما: من المدن المصرية القديمة، وهي من أقدم الثغور العربية في مصر. ويبدو أنها لم تكن على ساحل البحر المتوسط ولكن على بعد قليل منه.
«جغرافية مصر للبكري ٦٠هـ و٩٢ـ ٩٣، معجم البلدان ٣/ ٨٨٣، الخطط ١/ ٢١١ـ ٢١٢، القاموس الجغرافي ١/ ٩١ـ ٩٢».

(٤) رَفَح: راجع عنها: معجم البلدان٢/ ٧٩٦، القاموس الجغرافي ٢/ ٤/ ٢٦٣.

عقّال، والذي تبطن به بطّان، وكذلك خطام وزمام ونحوه.

والبقارة من البقر، والورادة من الورود، والعريش أخذ من العرش، ويذكر أنه نهاية التخوم من الشام وأن إليه كان ينتهي رعاة إبراهيم الخليل عليه السلام بمواشيه، وأنه اتخذ به عريشاً كان يجلس فيه ومواشيه تحلب بين يديه فسمى بذلك. ورفح اسم رجل نسب إليه المكان.

* * *

قلت: هذه جملة الكلام في مدن الديار المصرية الشهيرة، وأما برها فيأخذ بخناقه جبلان تضايقا في أوله بأعلى الصعيد، ثم أخذا في التفليس إلى الجزيرة فانفرجا واتسع مدى ما بينهما حتى انقطع بالبحر الرومي إلى آخر الأعمال. فأوسعه مدى نحو يومين وأضيقه نحو ساعة وغالبه نحو ساعتين وما بين ذلك.

وهذا هو عرض الديار المصرية حقيقة إلا إن نظرت إلى قفار موحشة يهاب الجن سلوكها ويخاف الظلام اقتحامها. على أن مدى العرض الذي ذكرناه عطل الجانبين عن الحرث والنسل والزرع والغروس، خال من الأنيس إلا سارٍ في سبيل أو ضالٍ عن طريق، والعامر الآهل من هذا المدى ثلثه والثلث كثير لكنه ذو ربع رابع /٢٤٩/ ومتحصل كثير.

وبمصر من أنواع الثعابين والأفاعي والحيات والعقارب والفأر وسائر الحشرات ما لولا يهلكه النيل الفائض على البلاد في كل سنة، وما يفر من النيل فيقف أهل البلاد له على الطرق بأيديهم العمد والعصي لقتل ما يهاجمهم منها، لما سكنت مصر ولا تأهلت لها ديار ولا استقر بها لأحد قرار.

وأما زمان ربيعها وما يبقيه من المقطعات بنيلها، وما يوشي حللها من نوار البرسيم والكتان، ويحشر في أرضها من الطير على اختلاف ذوات الجناح فما يملأ عينيك وسامةَ وحسناً، ويروقك صورة ومعنى، كأن نباتها زمردة خضراء، ومقطعاتها فيروزجة زرقاء، ونوارها لكل قرط منه لؤلؤة بيضاء، عليها للطيور ظلل من الغمام قد نصبت على فروشها للاستبرق خيام. ولما رأيت منظرها البديع في زمان الربيع وبين أكنافها المخضرة فوارات الماء كأنها النجوم في السماء قلت: [من مجزوء الرجز]

لِمِصْرَ فَضْلٌ باهِرٌ   لعيشِها الرَّغْدِ النَّضِرْ

في سفحِ روضٍ يلتقي   ماءُ الحياة والخَضِرِ

[كُوَرُ الدِّيار المصرية وأعمالها][١]

ونحن نقول: إن الديار المصرية وجهان: قبلي وبحري، جملتها خمس عشرة ولاية.

فالوجه القبلي

أكبرهما وهو تسعة أعمال[٢] وهي:

عمل «قوص». وقوص شرقي النيل، وهو أجلها. ومنه أسوان وعرب قمولة، وأسوان نهاية حد المملكة من الجنوب.

وعمل «أخميم». وهي شرقي النيل أيضاً.

وعمل «سيوط».

وعمل «منفلوط».

وعمل «الأشمونين»، وبها الطحاوية.

وعمل «البهنسا» ومنه الغرابي، وهو عبارة عن قرى على عرى المنهى[٣] الماد إلى الفيوم.

وعمل «الفيوم». وهو منقطع.

وعمل «أطفيح». وهو شرقي النيل.

وعمل «الجيزة».

---

(١) لمعلومات تفصيلية عن كور الديار المصرية وأعمالها، راجع: جغرافية مصر من كتاب الممالك والمسالك للبكري، بحث وتحقيق عبد الله يوسف الغنيم (الكويت ١٩٨٠)، عبد العال عبد المنعم الشامي: مدن مصر وقراها عند ياقوت الحموي (الكويت ١٩٨١)، مباهج الفكر ومناهج العبر، صفحات من جغرافية مصر، دراسة وتحقيق عبد العال عبد المنعم الشامي (الكويت ١٩٨١)، محمد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصرية من عهد قدماء المصريين إلى سنة ١٩٤٥ (دار الكتب المصرية ١٩٥٣ ـ ١٩٦٣ و١٩٦٨)، الصبح ٣/ ٣٩٢ ـ ٤٠٦.

(٢) انظر: أمين محمود عبد الله: تطور الواحدت الإدارية في مصر العليا منذ العهدّ العربي، رسالة الدكتوراه بجامعة القاهرة ١٩٦٣.

(٣) عرى المنهى هو بحر يوسف «الصبح ٣/ ٣٩٤، الخطط١/ ٧٠، محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/ ٣/ ٢١١».

والوجه البحري

وهو ستة أعمال[١]:

عمل «البُحَيْرة». وهو متصل البر بالإسكندرية وبرقة.

وعمل «الغربية». جزيرة واحدة تشتمل على ما بين البحرين، /٢٥٠/ البحر المار ومسكبه عند دمياط وهو المسمى بالشرقي، والبحر الثاني ومسكبه عند رشيد وهو المسمى بالغربي.

و«المنوفية». وكانت منف المنسوب إليها هذا العمل هي مصر قديماً[٢]، ومنها إبيار المسماة بجزيرة بني نصر[٣]، وهي جزيرة وتأخذ في وسط البحر الغربي.

وعمل «قليوب». وقليوب شرقي النيل.

وعمل «الشرقية». وهو متصل البر ببر الشام والقلزم والحجاز، وكذلك أشموم ويعرف بأشموم طناح[٤].

ومنها «الدقهلية[٥] والمرتاحية[٦]». وهنا موقع ثغر البُرُلُّس وموقع

---

(١) لمعلومات أدق عن مدن الوجه البحرى وأعماله، راجع: الصبح ٣/ ٣٩٨ـ ٤٠٦، ورسالة عبد العال الشامي: مدن الدلتا في العصر العربي (رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة).

(٢) هذا غير صواب فمنف عاصمة مصر كانت في المنطقة المعروفة اليوم بالبدرشين على الضفة الغربية للنيل بمحافظة الجيزة. «أيمن»

(٣) وهي اليوم من أعمال الغربية لا المنوفية.

(٤) هي المدينة تقع اليوم في الدقهلية قرب دمياط وتعرف أيضاً بأشمون الرمان. وهذا من ضمن أوهام العمري. «الصبح ٣/ ٤٠١، محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/١/ ١٢٩».

(٥) في الأصول: الدهقلية وجاءت بهذا الرسم في أغلب المصادر القديمة.

(٦) كانت مصر في زمن الفاطميين مقسمة إلى اثنين وعشرين إقليماً (كورة) منها ثلاث عشرة إقليماً بالوجه البحري من بينها«المرتاحية» واستمرت كورة المرتاحية قائمة بذاتها منذ ايام الفاطميين إلى سنة ٧١٥ هـ التي عُمِل فيها الروك الناصري، فأصدر الملك الناصر محمد بن قلاوون مرسوماً يضم بلاد المرتاحية إلى بلاد الدقهلية وجعلها إقليماً واحداً باسم «الدقهلية والمرتاحية»

واستمر الإقليم بهذا الأسم إلى سنة ٩٣٣هـ التي عمل فيها فك الزمام في أوائل الحكم العثماني بمصر فحُذِف اسم المرتاحية من الأقاليم وبقي الإقليم باسم الدقهلية فقط، وعرف من تلك السنة بولاية الدقهلية وعاصمتها المنصورة. «محمد رمزي: القاموس الجغرافي ١/ ١٠٩»

والمرتاحية نسبة إلى طائفة من المغاربة الذين قدموا مع الفتح الفاطمي لمصر، ولرغبتهم في الزراعة أنزلهم جوهر ببلاد تلك الكورة فعرفت بهم «الخطط ٢/ ١٤»، وراجع: مباهج ١٢٧ـ ١٢٩، الصبح ٣/ ٤٠١ـ ٤٠٢، محمد رمزي: القاموس الجغرافي ٢/ ١/ ١٦٥ـ ٢٦٨.

ثغـر رشيد والمنصورة المبنية زمان حصار دمياط.

وفي هذا الوجه الإسكندرية ودمياط، وهما مدينتان تندران على البحر لا عمل لهما.

[الواحات]

وأما الواحات فمنقطعة وراء الوجه القبلي في مغاربه ولا تعد في الولايات ولا في الأعمال، ولا يحكم عليها من قبل السلطان وال، وإنما يحكم عليها من قبل مقطعها. وبلاد الواحات بين مصر والإسكندرية والصعيد والنوبة والحبشة بعضها داخل بعض. قال البكري: وهو بلد قائم بنفسه غير متصل بغيره ولا مفتقر إلى سواه. وفي هذه الأرض شَبِّة وزاجية[1] وعيون حامضة الطعوم من الحامض والقابض والملح، ولكل نوع منها منفعة وخاصية.

ومما يتعلق بذيل هذه المملكة

ذكر برقة

قال ابن سعيد: هي سلطنة طويلة، وإن لم يكن يمكن لها استقلال؛ لأنه قد استولت عليها العرب. وكان سريرها في القديم مدينة طبرق. قلت: وليس لها سلطان بل ولا سوى أهل العمد سكان. وقربها إلى إفريقية أكثر من قربها إلى مصر، ولكن ما دون العقبة لصاحب مصر وأمرها إليه.

أخبرني الأمير الفاضل ناصر الدين محمد بن المحسني: أنها بلاد كثيرة الماء سيئة الهواء، وأرضها معادن وجرون وعرة في الغالب، وبها المروج والأشجار الكثيرة. وبها المدن المبنية الباقية/ ٢٥١/ البناء إلى الآن، وهي خالية من السكان، وبها القصور العلية والآثار الدالة على ما كانت عليه من الجلالة. وهي اليوم بيد العرب وهم أصحاب ماشية ودواب سائمة كثيرة من الإبل والغنم، ومنهم من يزرع في بعض أرضها فتخصب زروعها، ولكنهم أهل بادية لا عناية لهم بعمارة ولا زرع.

وحدثني غير واحد ممن دخلها من العسكر المصري، ممن كان جُرِّد إليها، أنها شبيهة بأطراف الشام وجبال نابلس في منابت أشجارها وكيفية أرضها وما كانت عليه،

(١) الزاج: أنواع، وأحسن الأنواع الأبيض الشبّ «آثار البلاد ٢/ ٢٢٥ـ ٢٢٦».

وأنها لو عمرت بالسكان وتأهلت بالزراع كانت إقليماً كبيراً يقارب نصف الشام.

وقد كانت برقة مقطعة بمناشير صاحب مصر لابن المحسني وكان يتوجه إليها ويأخذ من العربان بهائم أقطعت لأمراء عربان مصر من سليم، وهم الآن يستأدون من عرب برقة العداد.

وحدثني الأمير فائد بن مقدم السلمي، المقطعة له الآن، أن برقة من أزكى البلاد أرضاً للدواب وأمرأها مَرعًى لها. وأما خيل برقة فهي من اقوى الخيل بناء، وإذا قيل الخيل البرقية كفى، وهي مدورات ليست بمفرطات العلو ولكنها عراض مرددات صلبة الحوافر، قد جمعت بين سبق العربيات وقوة صدماتها وكمال تخاطيطها، وصلابة حوافر البراذين وثباتها على الجبال والوعور وإدمان الركوب. وأما صورها فهي بين العراب والبراذين، عليها منها سمات الشبه، وهي إلى محاسن العراب أميل. وفحول الخيل البرقية أنجب من إناثها، ولجند مصر بها عناية، وتباع بالأثمان الغالية ولكنها لا تبلغ مبلغ خيل البحرين والحجاز والشام.

وطولها بالمسافة مقدار شهرين. وكانت قاعدة برقة مدينة أنطابلس. ومن مدنها طبرق وقد تقدم ذكرها وطلميثة ولبدة وهي ذات رخام، كثيرة عمد وألواح، وبها إلى الآن الرخام قائماً ونائماً. ومن مدنها المشهورة سرت.

وحدثني قاضي الجماعة أبو إسحاق إبراهيم بن أبي سالم عن لبدة أنها مملؤة بالرخام الأبيض الفائق حتى شوارعها وممشى الناس في أسواقها، وأنها/ ٢٥٢/ لا يعوزها من العمارة إلا السكان.

وحدثني الشيخ شرف الدين عيسى الزواوي[١] قال: مررت ببلاد برقة فرأيتها كلها خراباً يباباً مقفرة ما فيها إلا بادية العرب، وبها القصور المبنية ليس بها إلا غلال مخزونة لهم.

وقال لي: إن في جبال برقة أشجاراً مثمرة من الزيتون والفواكه الكثيرة، ولكن ليس بها مدينة معمورة تذكر لها أخبار. وسكان برقة كلهم أهل بادية لا يتبايعون إلا

(١) عيسى بن محمد بن أبي القاسم ، أبو محمد، شرف الدين الهكاري: قائد، من أعيان الأمراء في دولة الظاهر بيبرس، قدمه على العساكر في الحروب غير مرة. له علم بالأدب وشعر فيه رقة.
مولده بالقدس سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٧م ووفاته بدمشق سنة ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م
ترجمته في: النجوم الزاهرة ٧/ ٢٣٣، الأعلام ٥/ ١٠٨.

بالأمتعة حتى إن منهم من يكون معه دراهم فيعرضها للبيع فيقول: من يشتري مني هذه الدراهم؛ لأنها ليست عندهم نقداً ولا معاملة.

ذكر المملكة الثانية

وهي مملكة الشام

وقاعدتها مدينة دمشق. وكانت الشام يقال لها «أرض كنعان»، ثم جاء بنو إسرائيل فقتلوهم بها ونفوهم عنها، وبقيت الشام لبني إسرائيل إلى أن غلبت عليهم الروم وانتزعوها منهم.

قال التيفاشي في كتاب «سرور النفس»: قال الشريف الإدريسي في حدود الشام: إنها من المشرق الجزيرة بينه وبين العراق، وسميت الجزيرة؛ لأنها بين نهر دجلة والفرات، وهي أدنى الأرض التي ذكرها الله عز وجل في سورة الروم[١].

ومن بلاد الجزيرة نينوى ـ مدينة يونس عليه السلام[٢] ـ وقاعدتها اليوم الموصل. ومنها الرقة، ونصيبين، وديار ربيعة وبني تغلب. والجزيرة هي التخوم الفاصلة بين الشام والعراق، وحدها النهران: دجلة والفرات. وحدود الشام من الجنوب وادي القرى، ومن الغرب عسقلان، والحاجز الذي بين البحرين حيث مدائن لوط عليه السلام، وطوله أكثر من شهر ونحوه، بعضه في الإقليم الرابع وبعضه في الثالث، والتوجه في قبلته إلى الميزاب إلى الركن الشامي من جهة الشرق، وأكثر أهله يمن وفيهم معدنه.

ثم قال: روى الحافظ أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر في تاريخ الشام بسنده إلى الشعبي قال[٣]: لما هبط آدم من الجنة وانتشر ولده أرخ بنوه من هبوط آدم، وكان/ ٢٥٣/ ذلك التاريخ حتى بعث الله نوحاً فأرخوا بمبعث نوح حتى كان الغرق فهلك من كان على وجه الأرض. فلما هبط نوح وذريته وكل من كان في السفينة إلى الأرض، قسم الأرض بين ولده أثلاثاً. فجعل لسام وسط الأرض، فيها بيت المقدس والنيل والفرات والدجلة وسيحان وجيحان وذلك ما بين قيسيون إلى نهر

---

(١) يقصد الآية: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝﴾ [سورة الروم: الآية ٢، ٣].

(٢) معجم البلدان ٤/ ٨٧٠.

(٣) تاريخ دمشق ١/ ٢٩.

النيل، وما بين منحر الريح الجنوب إلى منحر الشمال. وجعل لحام قسمة غربي النيل مما وراءه إلى منحر ريح الدبور. وجعل قسمة يافث في قيسيون فما وراءه إلى منحر ريح الصبا. ثم تفرق بنو نوح من بابل إلى سائر جهات الأرض، فلحقت كل طائفة منهم بجهة.

وفي رواية الحافظ من طريق آخر عن هشام بن محمد عن أبيه قال[١]: كان الذين عقد لهم الألوية ـ يعني ولد نوح عليه السلام ـ فنزل بنو سام المجدل سرة الأرض وهو ما بين ساندما إلى البحر، وما بين اليمن إلى الشام، وجعل الله النبوة والكتاب والجمال والأدمة والبياض فيهم. ونزل بنو حام مجرى الجنوب والدبور، ويقال لتلك الناحية الداروم، وجعل الله فيهم أدمة وبياضاً قليلاً وأغمر بلادهم ورفع عنهم الطاعون، وجعل في أرضهم الأثل والأراك والعسر والغار والنخل، وجرت الشمس والقمر في سمائهم. ونزل بنو يافث القصور مجرى الشمال والصبا وفيهم الحمرة والسنئ وأحلا الله أرضهم فاستدبروها وأخلا سماءهم فليس يجري فوقهم شيء من النجوم السبعة الجارية؛ لأنهم صدروا تحت بنات نعش والجدى والفرقدين وابتلوا بالطاعون. ثم لحقت عاد بالشحر فعليه هلكوا بواد يقال له مغيث. ولحقت عتيل بموضع يثرب، ولحقت العماليق بصنعاء قبل أن تسمى صنعاء، ثم انحدر بعضهم إلى يثرب فأخرجوا منها عتيلاً ونزلوا موضع الجحفة وأقبل سيل فاجتحفهم فذهب بهم فسميت الجحفة. ولحقت ثمود بالحجر وما يليه فهلكوا. ثم لحقت طسم وجديس باليمامة. وإنما سميت اليمامة بامرأة منهم فهلكوا. / ٢٥٤/ ولحقت أميم بارض أبار فهلكوا بها، وهي بين اليمامة والشحر ولا يصل اليوم إليها أحد غلبت عليها الجن وسميت أبار بأبار بن أميم. ولحقت بنو يقطن بن عابر باليمن فسميت اليمن حين تيامنوا إليها. ولحق قوم من بني كنعان بن حام بالشام فسميت الشام حين تشاءموا إليها.

وكانت الشام تسمى أرض كنعان، ثم جاء بنو إسرائيل فقتلوهم بها ونفوهم عنها. وكانت الشام لبني إسرائيل ووثبت الروم على بني إسرائيل فقتلوهم وأجلوهم إلى العراق إلا قليلاً منهم. وجاءت العرب فغلبوا على الشام.

---

(١) تاريخ دمشق ١/ ٦ـ٧.

قال أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري[١]: الشام فيه وجهان يجوز أن يكون مأخوذاً من اليد الشؤمي، وهي اليسرى، ويجوز أن يكون فعلى من الشؤم. ويقال: أنجد أتى نجداً، وأعرق دخل العراق، وأعمن أتى عمان، وأشأم أتى الشام، ومصر وكوف. وفي التنزيل العزيز ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾[٢] ورجلٌ مشأم من أهل الشام. وسميت اليمن؛ لأنها عن يمين الكعبة، وسميت الشام؛ لأنها عن شمال الكعبة. قيل كان اسم الشام أول الأمر سدرية.

ذكر دمشق وبنائها[٣]

روي عن كعب الأحبار قال[٤]: أول حائط وضع على وجه الأرض بعد الطوفان حائط حران ودمشق ثم بابل.

وفي رواية أخرى[٥]: أن نوحاً لما نزل من الجبل أشرف فرأى تل حران ما بين نهري جلاب وديصان، فأتاه فبنى حائط حران، ثم سار فبنى دمشق ثم رجع إلى بابل فبناها.

وفي رواية أخرى[٦]: أن جيرون بن سعد بن عاد بن عوص نزل دمشق وبنى مدينتها وسماها جيرون، وهي« إرم ذات العماد[٧]، وليس أعمدة الحجارة في موضع أكثر منها بدمشق.

قال الحافظ[٨]: وجدت في بعض الكتب أن جيرون وبريدا كانا أخوين وهما ابنا سعد بن لقمان بن عاد، وهما اللذان يعرف باب جيرون وباب البريد بدمشق بهما.

وفي رواية عن وهب بن منبه قال[٩]: دمشق بناها العاذر غلام إبراهيم الخليل،

---

(١) الزاهر في معاني كلمات الناس ٢/ ١١٥ .

(٢) سورة الواقعة: الآية ٩.

(٣) عن تاريخ مدينة دمشق بالإضافة إلى «تاريخ مدينة دمشق» لابن عَسَاكِر و «فضائل الشام ودمشق» للرَبَعي، راجع: «دمشق الشام ـ لمحة تاريخية»، ترجمة: فؤاد أفرام البستاني بيروت ١٩٣٦، صلاح الدين المنجد: مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحّالين المسلمين (بيروت، دار الكتاب الجديد ١٩٦٧)، نقولا زيادة: دمشقّ في عصر المماليك (بيروت، مكتبة لبنان ١٩٦٦)».

(٤) تاريخ دمشق ١/ ١٠.

(٥) تاريخ دمشق ١ / ١١.

(٦) تاريخ دمشق ١ / ١١.

(٧) سورة الفجر: الآية ٧: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ۝٨﴾.

(٨) تاريخ دمشق ١/ ١١.

(٩) تاريخ دمشق ١/ ١١.

عليه السلام، وكان حبشياً / ٢٥٥/ وهبه له نمرود بن كنعان، حين خرج إبراهيم من النار. وكان اسم الغلام دمشق، وكان متصرفاً في جميع مال إبراهيم.

وروى الحافظ[١]: أنه وجد في كتاب أبي عبيدة معمر بن المثنى المسمى «بفضائل الفرس» أن بيوراسب الملك الكيرواني بنى مدينة بابل ومدينة صور ومدينة دمشق.

قال الحافظ[٢]: وبلغني من وجه آخر أنه لما رجع ذو القرنين من المشرق وعمل السد بين أهل خراسان وبين يأجوج ومأجوج وسار يريد المغرب، فلما بلغ الشام وصعد على عقبة دمر أبصر هذا الموضع الذي فيه اليوم مدينة دمشق، وكان هذا الوادي الذي فيه نهر دمشق غيضة أرز، قيل إن الأرزة التي وجدت في سنة ثلاث عشرة وثلاثمائة من بقايا تلك الغيضة. فلما نظر ذو القرنين إلى تلك الغيضة، وكان هذا الماء الذي هو في هذه الأنهار اليوم مفترق، مجتمعاً في وادٍ واحد. فأخذ ذو القرنين يفكر كيف يبني فيه مدينة! وكان أكثر [ما فكر فيه وتعجب منه أنه نظر إلى جبل يدور بذلك الموضع وبالغيضة كلها، وكان له غلام يقال له دمشقش على جميع ملكه. ولما نزل ذو القرنين من عقبة دمر سار حتى نزل في موضع القرية المعروفة بيلدا، من دمشق على ثلاثة أميال، فأمر ذو القرنين أن يحفر له في ذلك الموضع حفرة ففعلوا ذلك، ثم مر برد التراب الذي خرج منها. فلما رد التراب لم تمتلىء الحفرة، فقال لغلامه دمشقش: ارحل فإني كنت نويت أن أؤسس في هذا الموضع مدينة، فأما إذ بان لي منه هذا، فما يصلح أن يكون ههنا مدينة. قال: ولم ؟ قال ذو القرنين: إن بني ههنا مدينة فإنها لا يكون زرعها يكفي أهلها.

قال: ثم رحل ذو القرنين حتى وصل إلى البثنية[٣] وحوران وأشرف على تلك السعة ونظر إلى تلك التربة الحمراء. فأمر أن يناول من ذلك التراب فلما صار في يده أعجبه؛ لأنه نظر إلى تربة كأنها الزعفران، فنزل هناك وأمر أن يحفر حفرة فحفرت وأمر برد التراب إلى المكان الذي أخرج منه فملأه وفضل منه تراب كثير. فقال ذو القرنين لغلامه دمشقش: ارجع إلى ذلك الموضع الذي فيه الأرز فاقطع ذلك الشجر

---

(١) تاريخ دمشق ١/ ١٣.

(٢) تاريخ دمشق ١/ ١٣.

(٣) البثنية، ويقال لها البثنية: قرية بين دمشق وأذرعات. (معجم البلدان ١/ ٤٩٣، الأعلاق الخطيرة ٣/ ٤١ و٦٦).

وابن علي حافة الوادي /٢٥٦/ مدينة وسمها على اسمك فهناك يصلح أن يكون مدينة. وهذا الموضع منه قوتها وعليه ميرتها.

قال الحافظ: وعلامة صحة ذلك أن أهل غوطة دمشق لا تكفيهم غلاتهم حتى يتكفوا من البثنية وحوران. فرجع دمشقش وبنى المدينة وعمل لها حصناً، وهي المدينة الداخلة وعمل لها أربعة أبواب: جيرون مع باب البريد مع باب الحديد في سوق الأساكفة، مع باب الفراديس الداخلة. هذه كانت المدينة، إذا غلقت هذه الأبواب فقد أغلقت المدينة. وخارج هذه الأبواب كان مرعى، فبناها دمشقش وسكنها ومات فيها. وكان قد بنى الموضع الذي هو الآن مسجدها الجامع، كنيسة يعبد الله فيها إلى أن مات.

وروي[١] أن باني دمشق بناها على الكواكب السبعة وأن المشتري كان طالع بنائها، وجعل لها سبعة أبواب، وصور على كل باب أحد الكواكب السبعة، وصور على باب كيسان صورة زحل، فخرجت الصور التي على الأبواب كلها إلا باب كيسان فإن صورة زحل باقية عليه إلى الآن.

وروى الحافظ عن أبي القاسم تمام بن محمد قال[٢]: قرأت في كتاب عتيق: باب كيسان لزحل، باب شرقي للشمس، باب توما للزهرة، باب الصغير للمشتري، باب الجابية للمريخ، باب الفراديس لعطارد، باب الفراديس الآخر المسدود للقمر.

وروى الحافظ عن أبي مسهر قال[٣]: إن ملك دمشق بنى حصن دمشق الذي حول المسجد داخل المدينة على مساحة مسجد بيت المقدس، وحمل أبواب مسجد بيت المقدس فوضعها على أبوابه. فهذه الأبواب التي على الحصن هي أبواب مسجد بيت المقدس.

أسماء بعض جهاتها:

خرّج الحافظ مرفوعاً:[٤] أن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ولد اثنا عشر ولداً فسمى منهم دوماً وبه سميت دومة الجندل.

---

(١) تاريخ دمشق ١/ ١٥.
(٢) تاريخ دمشق ١/ ١٥.
(٣) تاريخ دمشق ١/ ١٦.
(٤) تاريخ دمشق ١/ ١٩:.

وفي رواية أخرى أنه كان للوط أربعة بنين وابنتان: مآب، وعَمّان، وجَلاّن، وملكان، والبنات زعر والرية. /٢٥٧/ فعمان مدينة البلقاء سميت بعمان، ومآب من سائر البلقاء سميت بمآب، وعين زغر سميت بزغر بنت لوط، والرية سميت بالرية.

قال الشرقي بن القطامي[١]: وسميت صيدا بصيدون بن صدوقا بن كنعان بن حام بن نوح. وسميت أريحا بأريحا بن مالك بن أرفخشد بن سام بن نوح. وسميت البلقاء بأبلق بن عمان بن لوط، لأنه ملكها وسكنها. قال: وقيل إن الكسوة سميت بذلك، لأن غسان قتلت بها رسل ملك الروم، قدموا عليهم في طلب الجزية فقتلوهم وأخذوا كسوتهم. هذا آخر ما نقله التيفاشي.

قلت: وبدمشق مهبط عيسى عليه السلام وهي أن الخوارزمي[٢] قال: طفت جوانب الأرض الأربعة فكان فضل غوطة دمشق عليها كفضلها على غيرها، كأنها الجنة صورة على وجه الأرض.

وأما[٣] وصفها فكثير جداً يعجبني منه قول ابن عنين[٤]: [من البسيط]

دمشقُ فبي شوقٌ إليها مبرّح ... وإن لجّ واشٍ أو ألحّ عذولُ

---

(١) تاريخ دمشق ١/ ١٩.

(٢) محمد بن العباس الخوارزمي، أبو بكر: من أئمة الكتاب، وأحد الشعراء العلماء. كان ثقة في اللغة ومعرفة الأنساب. وهو صاحب «الرسائل ـ ط» المعروفة برسائل الخوارزمي. وله «ديوان شعر».
ولد في خوارزم سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٥م، ونشأ فيها، ورحل في صباه إلى بعض البلدان، فدخل سجستان، ومدح واليها طاهر بن محمد، ثم هجاه، فحبسه. وانطلق فتابع رحلته، وأقام في دمشق مدة، ثم سكن في نواحي حلب. وانتقل إلى نيسابور فاستوطنها واتصل بالصاحب بن عباد، وتوفي بها سنة ٣٨٣هـ/ ٩٩٣م.
وكانت بينه وبين البديع الهمذاني محاورات وعجائب نقل بعضها ياقوت في معجم الأدباء.
وأورد ابن خلكان والثعالبي طائفة من أشعاره وأخباره. وكان يقال له «الطبري» لأنه ابن أخت «محمد بن جرير الطبري» كما يقال له «الطبرخزي» و«الطبرخزمي» لأن أمه من طبرستان وأباه من خوارزم فرُكب له من الاسمين نسبة.
ترجمته في: معجم الأدباء ١/ ١٠١، والوفيات ١/ ٥٢٣، وسير أعلام النبلاء ١٦/ ٥٢٦ رقم ٣٨٧، واللباب ١/ ٣٩١ وبغية الوعاة ٥١، والوافي بالوفيات ٣/ ١٩١، ويتيمة الدهر ٤/ ١١٤ـ ١٦٠، والأعلام ٦/ ١٨٣.

(٣) من هنا وحتى صفحة ٣٩٤ نشره الدكتور صلاح الدين المنجد، أولاً في مجلة معهد المخطوطات العربية ٣ (١٩٥٧) ١١٨ـ ١٢٦، ثم في كتاب «مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين» ٢١٩ـ ٢٣١.

(٤) ديوان ابن عنين ٦٨، الأعلاق الخطيرة ١/ ٣٥٦ـ ٣٥٧.

بلادٌ بها الحصباءُ درٌ، وتربُها عبيرٌ، وأنفاسُ الشمال شَمُولُ
تسلسل فيها ماؤها وهو مطلَقٌ وصحّ نسيمُ الروض وهو عليلُ

وقول عرقلة(١): [من البسيط]

ما بين «سَطْرا» و«مَقْرى» جنةٌ عرضَتْ أنهارُها من خلال الآس والبان
يظل منثورُها في الأرض منتشراً كأنما صيغ من درّ ومرجان

وكذلك قول ابن عنين وقد نفي منها(٢): [من الكامل]

فسقى «دمشقَ» ووادييها والحِمى متواصلُ الإرعاد منفصمُ العُرى
حتى ترى وجهَ الرياض بعارضٍ أحوى، ووجهَ الدوحِ أزهرَ نيّرا
وأعاد أياماً قَطَعْنَ حميدةً ما بين حرة «عالقين» و«عكبرا»
/٢٥٨/ تلك المنازلُ لا أعقَّةُ «عالجٍ» ورمالُ «كاظمةٍ» ولا «وادي القرى»
أرضٌ إذا مرَّت بها ريحُ الصَّبا حملتْ على الأغصان مسكاً أذفرا
فارقتُها لا عن رضاً وهجرتُها لا عن قِلًى ورحلتُ لا متخيّرا

وقول البحتري(٣): [من البسيط]

العيشُ في ظلّ «داريّا» إذا بردا والراح نمزجُها بالراحِ من «بردى»
إذا أردتَ ملأتَ العين من بلدٍ مُسْتَحْسَنٍ وزمانٍ يشبه البلدا
أما «دمشقُ» فقد أبدتْ محاسنَها وقد وفى لك مُطْريها بما وعدا
يمشي السحابُ على أجبالها فِرَقاً ويصبحُ النبتُ في صحرائها بددا
فلست تُبصر إلا وادياً خَضِراً أو يانِعاً خَضِلاً أو طائراً غردا
كأنما القيظ وَلّى بعد جيئتهِ أو الربيعُ أتى من بعد ما بَعُدا

ومدامتها هي الموصوفة في الآفاق، المعروفة في مغارسها بكرم الأعراق، تنشر كاساتها ألوية حمرا، تتوقد في صفحات الخدود جمرا، فمن حمراء كنار تتلهب،

---

(١) هو عرقلة الكلبي، أبو الندى حسَّان بن نمير الأعْوَر المتوفى سنة ٥٦٧هـ.
ترجمته في: خريدة القصر (قسم الشام) ١/ ١٧٨ـ ٢٢٩، مرآة الزمان٨/ ٢٨٦، الوافي بالوفيات ١١/ ٣٦٤ـ ٣٦٨، النجوم الزاهرة ٦/ ٦٤.

(٢) الديوان٣، الأعلاق الخطيرة ١/ ٣٥٧ـ ٣٥٨.

(٣) ديوان البحتري، تحقيق الصيرفي، دار المعارف ١٩٦٣، ٧٠٩ـ ٧١٠، تاريخ مدينة دمشق ٢/ ١٧١، الأعلاق ١/ ٣٣٥.

ومن صفراء كالزجاج المذهب، ومن بيضاء كأنها نقطة غدير، أو فضة طافت بها قوارير، أو وردية تتضاحك في الشفاة اللعس ثغورها المفترة، ويخالطها الصفار كخد أبيض تشرب بحمرة، تضيء في دجى الليل مصباحاً، وتهدي إلى الجلساء بريحها تفاحاً، وببلاد «الشوف»[1] منها ما يرق عن الزجاج، ويخف عن مخالطة الامتزاج، فيعلق فوق الماء على الأقداح، وتتعلى حمرته عليه كالشفق على المصباح، يطير عليها الشعاع، ويطيب إلى قهقهة قيانها السماع. و«صيدنايا» معدن ذهبها، وأفق كوكبها، وإليها أشار ابن عنين بقوله[2]: [من الكامل]

ومدامةٍ من «صيدنايا» نَشْرُها   من عنبر وقميصُها من صَنْدَل
مسكيَّة النفحاتِ يشرفُ أصلُها   عن «بابلٍ» ويجلُّ عن «قُطربُّل»

وقد خالف القاضي الفاضل الناس حيث قال يذم دمشق: «ودخلت دمشق وأنا / ٢٥٩/ ملتاث لتغير مائها وهوائها وأبنيتها وأوديتها، ومن لي بمصر فإني أبيع بردى بشربة من مائها، فالطلل هايل ولا طائل، وما سمعناه من تلك الفضائل متضائل».

وقال وقد وقع عليها الثلج: وأما دمشق فآدرها اليوم للثلج قوالب، وقد أخذ في أن يذوب، فالشوارع تحتاج إلى مراكب.

وبدمشق من كل ما في مصر من الوظائف. وليس هذا في بقية بلاد الشام. مثل قضاء القضاة الأربعة من المذاهب الأربعة، وقاضي العسكر، وخزانة تخرج منها الإنفاقات والخلع، وخزائن سلاح وزردخانات، وبيوت تشتمل على حاشية سلطانية مختصرة، حتى لو حضر السلطان إليها جريدة وجد بها من كل الوظائف القائمة بدولته.

وكل أمير أمر فيها أو في غيرها من الشام أو رب وظيفة ولي وظيفة من عادة متوليها أن يخلع عليه، أو خدم في مهم من المهمات أو أمر من الأمور يستوجب عليه خلعة أو إنعاماً ولم يخلع عليه من مصر أو لم ينعم عليه من مصر، كان من دمشق خلعته وإنعامه.

ومنها تخرج أعلام الأمراء وطلائعهم وشعار الطبلخانات. وفي خزائن السلاح بها يعمل المجانيق والسلاح والزردخانات، ويحمل إلى جميع الشام وتعمر به البلاد

(١) بلدة في جبل لبنان.
(٢) ديوانه ٨٤.

والقلاع، ومن قلعتها يجرد الرجال وأرباب الصنايع إلى جميع قلاع الشام، ويندب في التجاريد والمهمات.

وهي مدينة جليلة. وقلعتُها مرجلة على الأرض، يحيط بها وبالمدينة أسوار علية، يحيط بها خندق يطوف الماء منه بالقلعة، وإذا دعت الحاجة أطلق على جميع الخندق المحيط بالمدينة فيعمها.

وهي في وطاءة مستوية من الأرض، بارزة عن الوادي المنحط عن منتهى ذيل الجبل، مكشوفة الجوانب لممر الهواء، إلا من الشمال فإنه محجوب بجبل قاسيون، وبهذا تعاب وتنسب إلى الوخامة، ولولا جبلها الغربي الملبس بالثلوج صيفاً وشتاء لكان أمرها في هذا أشد وحال سكانها أشق، ولكنه درياق ذلك السم، ودواء ذلك الداء.

وهي مدينة حسنة الترتيب، جليلة / ٢٦٠/ الأبنية بالحجر والخشب. والآجر مضبب بين مداميك البناء بالخشب الملبن. وأخشابه من خير أخشاب الأرض يسمى الحور، ينصب في بساتينها ويربي ويقطع في انتهائه يعطي الليان، فإذا انكسر عود منها يبقى في مكانه متماسكاً عدة سنين وأكثر، ولو أنه متعلق بقدر شعرة واحدة.

ولهذه المدينة حواضر فسيحة من جهاتها الأربع، والماء حاكم عليها من جميع نواحيها بإتقان محكم، على ما نذكره في صفة نهرها.

وهذه المدينة مقسمة على جوانب الجامع بها، لا على أنه واسطتها من كل الجهات. فإن ما بينه وبين نهاية المدينة من القبلة وما بينه وبين نهاية المدينة من الشرق أوسع مدى مما بينه إلى نهاية المدينة من الجانبين الآخرين الشمالي والغربي. وأشرف هذه المدينة ما قرب إلى جامعها.

وبها الديار الجليلة، المذهبة السقوف، المفروشة بالرخام، ومنها ما هو مؤزر الحيطان بالرخام المنوع المفصل بالصدف والذهب، والبرك الجارية. وقد يجرى الماء في الدار في أماكن.

وبها الطباق الرفيعة، والأفنية الوسيعة، والأسواق المليحة الترتيب، والقياسر الحصينة.

وبها الصناع المهرة في كل فن من البنائين، وصناع السلاح، والمصوغ، والزركش، وغير ذلك. وتعمل بها لطائف الأعمال من كل نوع، وصناعها تفخر على

بقية صناع هذه المملكة إلا فيما قل، مما بمصر والشام والعراق والروم، فتستمد من لطائفها خصوصاً في القسي، والنحاس المطعم، والزجاج المذهب، وجلود الخراف المدبوغة بالقرظ المضروب بها المثل.

هي إحدى جنات الدنيا الأربع. قال الخوارزمي: رأيت جنان الدنيا الأربع، وكان فضل غوطة دمشق عليها كفضلها على سواها، كأنها الجنة على وجه الأرض حسبما ذكرناه.

وبها البساتين الأنيقة تتسلسل جداولها، وتفيء دوحاتها، وتتمايل أغصانها، وتغرد أطيارها، وفي بساتين النزهة بها العمائر الضخمة، والجواسق العلية، والبرك العميقة، والبحيرات/ ٢٦١/ الممتدة، عليها العرش الممددة المظللة، تتقابل بها الأواوين والمجالس، وتحف بها الغراس والنصوب المطرزة بالسرو الملتف البرود، والحور الممشوق القدود، والرياحين المتأرجة الطيب، والفواكه الجنية، والثمرات الشهية، والبدائع التي تغنيها شهرتها عن الوصف.

وبها في سفح قاسيون الصالحية،[1] وهي مدينة ممتدة في سفح الجبل بإزاء المدينة في طول مدى. ذات بيوت، وجنائن، ومدارس، وربط، وترب جليلة، وعمائر ضخمة، ومارستان، وأسواق حافلة بالبزّ وغيره. وبأعاليها من ذيل الجبل المقابر العامة. وجميع الصالحية مشرف على دمشق وغوطتها وكل بساتينها وشرفها وميادينها ومجرى واديها. وبجانبها الغربي كان دير مران المشهور. ومكانه الآن من المدرسة المعظمية إلى قريب عقبة دمر. ومنه هناك بقايا آثار.

وأما حواضر دمشق فهي كما قدمنا القول جليلة من جميع جهاتها، وأجلها ما هو في جانبيها الغربي والشمالي. فأما الغربي فإنها تفضي من تحت القلعة بها في ساحة فسيحة هي سوق الخيل، على ضفة الوادي، ويخرج إليها من جوانب المدينة من أمتعة الجند، فتباع في أيام المواكب بها، وتنتهي فيما يليها من الوادي إلى شرفين محيطين به قبلة وشاماً، في ذيل كل منهما ميدان أخضر بالنجيل، والوادي يشق بينهما.

وفي الميدان القبلي منهما القصر الأبلق، بناه الملك الظاهر بيبرس البندقداري

---

(١) راجع عنها، القلائد الجوهرية في تاريخ الصالحية، راجع عنها: الأعلاق ١/ ٢٢٠، الدارس في تاريخ المدارس١/ ٥٧٩.

الصالحي[١]. مبني من وجه الأرض إلى نهاية أعلاه بالحجر الأسود والأصفر مدماكاً من هذا ومدماكاً من هذا، بتأليف غريب وإحكام عجيب. ويدخل من دركاه له على جسر راكباً بعقد على مجرى الوادي إلى إيوان براني يطل على الميدان القبلي، استجده آقوش الأفرم زمان نيابته بها. ثم يدخل إلى القصر من دهاليز فسيحة تشتمل على قاعات ملوكية تستوقف الأبصار، وتستوهب الشموس من أشعتها الأنوار، بالرخام الملون، قائماً ونائماً، في مفارشها وصدورها، وأعاليها وأسافلها، مموهة بالذهب واللازورد والفص المذهب، وأزر من الرخام إلى سجف السقوف.

وبالدار الكبرى بها إيوانان متقابلان تطل شبابيك شرقيهما على الميدان الأخضر الممتد، وغربيهما على شاطىء الوادي المخضر، والنهر به كأنه ذوائب الفضة.

وله الرفارف العالية المناغية للسحب، تشرف من جهاتها الأربع على جميع المدينة والغوطة.

والوادي كامل المنافع بالبيوت الملوكية والاصطبلات السلطانية، والحمامات، والمنافع المكملة لسائر الأغراض.

وتجاه باب القصر باب يتوصل من رحبته إلى الميدان الشمالي، وعلى الشرفين المقدم ذكرهما أبنية جلية من بيوت ومناظر ومساجد ومدارس وربط وخوانق وزوايا وحمامات، ممتدة على جانبين ممتدين طول الوادي.

وقد بنى في هذه السنين نائب السلطان بها على الشرف القبلي منهما جامعاً بديعاً ـ تليه تربة ضخمة ـ وداراً ملوكية. ومد قبالة الجامع سوقاً لطيفاً وحماماً فائقاً زاد المكان حسناً على حسن، وإبداعاً على إبداع.

وأما حاضرها الشمالي ويسمى العقيبة، فهو مدينة مستقلة بذاتها ذات جوامع ومساجد ومدارس وربط وخوانق وأسواق جليلة وحمامات. وبها ديار كثيرة للأمراء والجند.

وأما نهر دمشق وهو بردى فمجراه من عينين: البعيدة منهما دون قرية الزبداني، ودونها عين بقرية تسمى الفيجة بذيل عزتا، والماء خارج من صدع في نهاية سفل

---

(١) كان بناؤه في سنة ٦٦٥هـ. (السلوك ١/ ٥٦١، وقارن: النجوم ٧/ ١٧٤و ١٩٥و ٢٧٨هـ، خطط الشام ٤/ ١٢٢ و٥/ ٢٨٥ـ ٢٨٦) وعلى مثاله بنى الملك الناصر محمد ابن قلاوون القصر الأبلق بقلعة الجبل بمصر.

الجبل، وقد عقد على مخرج مائه قبو رومي البناء، ثم ترفده منابع في مجرى النهر، ثم يقسم النهر أربعة: اثنان عن اليمين واثنان عن الشمال، مرفوعان على مجرى النهر في قرارة الوادي، دائمة بمقسم معلوم.

وعليه ألفاف البساس ممتدة من الجانبين، إلى أن يمر على المكان المسمى بالربوة. وقد بنى الملك العادل الشهيد نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله بها المقام المعروف بمهد عيسى. يقال: إن مريم أوت إليه بولدها عيسى عليه السلام، وإن هذه الربوة هي المعنية بقوله تعالىٰ ﴿وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾[1] ومنظر هذا الوادي/ ٢٦٣/ من أعجب المناظر لتراكم الظل والماء، وإظلال الشمس والهواء، وافتراش الجبلين المحدقين به في أرضه بالبنفسج، تحت الأشجار المتمايلة على غصون البان، تتفتح بينهما خدود الورد، وتفتر مباسم الياسمين، وتندلق ألسن السوسن، ويتجاوب فيها هدير الماء والحمام، وتتلاقى خيول النسيمين الطائر من الشمال على منابت الشيح، ومن القبلة على الحدائق الفيح.

وإلى جانب هذا الوادي في قبليه بشمال سطح يمتد على ظاهر المزة كأنه قطعة بيداء مقفرة ينبت بها الشيح والقيصوم، وتتلاعب بها الصبا والدبور، عرفت بصحة الهواء وفسحة الفضاء، فطاب به ما جاورها، وصح لأجله ما قاربها.

ثم نعود إلى ذكر النهر ونسمي الأنهار السبعة: مجرى الوادي والستة المقسومة. فمجرى الوادي بردى أفاق عليه هذا الاسم لا يعرف بغيره. وعلى سمت بردى في الجانب الغربي الأعلى الآخذ قبلة نهر داريا، ودونه المزة، ودونه نهر القنوات، ودونه نهر باناس. وعلى يسرة بردى في الجانب الشرقي الآخذ شمالاً نهر يزيد، ودونه نهر ثورا. فأما القنوات وباناس فهما نهرا المدينة حاكمان عليها ومسلطان على ديارها. يدخل باناس القلعة بها ثم ينقسم قسمين: قسم للجامع وقسم للقلعة، ثم ينقسم كل قسم منهما على تقاسيم تتفرق في المدينة بأصابع مقسومة وحقوق معلومة. وكذلك تنقسم القنوات في المدينة، ولا مدخل له في القلعة ولا الجامع. ويجري الماء في قنى مدفونة في الأرض إلى أن يصل إلى مستحقاتها وتتسع في منافعها. ثم تنصب فضلات الماء والبرك ومجاري الميضاوات والمرتفقات إلى قنى وسخ معقودة تحت أزجات الماء

---

(١) سورة المؤمنين: الآية ٥٠.

المشروب. ثم تتجمع وتتنهر وتخرج إلى ظاهر المدينة لسقي الغيطان.

وأما بقية الأنهر خلا مجرى بردى فإنها تنصرف إلى البساتين والغيطان، وعليها القصور والبنيان، خصوصاً ثورا، فإنه نيل دمشق، عليه أجل مبانيهم، وبه متنزهاتهم، وإليه أكثر تسيارهم وتوجهاتهم، يخاله من يراه زمردة خضراء لتراكم الأفياء عليه، والتفاف الدوح من جانبيه.

ويجري / ٢٦٤/ يزيد في ذيل الصالحية ليشق خيطاً في عمارتها.

وأما مجرى بردى فإنه تتفرق منه فرقة بجانب المدينة تدخل إلى داخل سورها وتدور به أرحاؤها، وينصب بقاياها إلى مجرى الوادي، إلى أن يخرج من حدود العمارة والأرحاء المنصوبة عليه إلى تتمة الوادي، تحفّ به الغياض المتكاثفة من السفرجل والحور، والبساتين. ثم يرمى إلى ظاهر قرى دمشق يسقى ما يحكم عليه، ثم ينصب في بحيرة هناك متصلة بالبرية.

هذه أمهات الأنهار من بردى وما ينقسم منه. على أن كل نهر من هذه الأنهار ينقسم منه أنهار كبار وصغار. ويتشعب من تلك الأنهار جداول، ثم تتفرق في البساتين والغيطان لسقي أراضيها وإدارة أرحائها مما لا يكاد يعدُّ كثرة.

فأما مسجدها الجامع[١] فصيته طائر في الدنيا. كان هيكلاً لعباد الكواكب، ثم كنيسة للنصارى إلى أن فتحت دمشق على أيدي أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد، رضي الله عنهما. فجرى عليه حكم المناصفة فوقع نصفه الشرقي للمسلمين وبقي نصفه الغربي بأيدي الروم إلى خلافة الوليد بن عبد الملك فاستخلصه وأتمه جامعاً للمسلمين. فهو بيت عبادة من قديم. وقد ذكرناه فيما تقدم[٢].

أما جملة أعمال دمشق

فهي ثمانية وعشرون عملاً وهي ما يذكر:

عمل ضواحيها وتسمى «بولاية البر» وهو الغوطة والمرج وجبة عسان والإقليم. كل هذا عمل واحد.

---

(١) عن الجامع الأموي بدمشق، راجع: الأعلاق الخطيرة (تاريخ مدينة دمشق) ٤٣ـ ٨٨، تاريخ مسجد دمشق لعلّه للبرزالي (تحقيق صلاح الدين المنجد، دمشق ١٩٤٩)، مسالك الأبصار ١/ ١٧٨ـ ٢٠٣ ط زكي، رحلة ابن بطوطة١/ ٧١ـ٧٥، الصبح ٤/ ٩٦ .

(٢) مسالك الأبصار ١/ ٢٧٧ـ ٢٩٩. إلى هنا انتهى ما نشره الدكتور المنجد عن دمشق.

والبلاد الساحلية القبلية وما يتبعها وهي عبارة عن بلاد غزة وما جاورها سهلاً ووعراً وهي تسعة أعمال:

فخاصة غزة ثلاثة أعمال وهي: عمل غزة، وعمل فرنيا، وعمل بيت جبريل. والساحل ثلاثة أعمال وهي: عمل الرملة، وعمل لد، وعمل فاقون.

والجبل وهو ثلاثة أعمال: عمل نابلس، وعمل القدس الشريف، وعمل بلد الخليل عليه السلام.

فهذه جملة هذه الأعمال. والمشاهير منها مذكورة في عمله من موضعه إلا نابلس فإننا نذكرها هنا فنقول: إنها مدينة متمدنة يحتاج إليها ولا تحتاج إلى سواها.

والصفقة القبلية

وهي بلاد حوران والغور وما مع ذلك / ٢٦٥/ وهي عشرة أعمال، وهي:

عمل «بَيْسان». وبيسان لها قليعة من بناء الفرنج وهي مدينة الغور.

وعمل «بانياس» وهي مدينة الجولان وبها قلعة الصبيبة.

وعمل «الشَّعْراء».

وعمل «نَوَىٰ» وهي مدينة قديمة وبها قبر أيوب عليه السلام.

وعمل «أذْرعات» وهي مدينة البثنية. قال البلاذري: ولما فتح المسلمون بصرى أتاهم صاحب أذرعات فصولح على مثل ما صولح عليه أهل بصرى على أن تكون البثنية خراجاً، ومضى يزيد بن أبي سفيان حتى دخلها.

وعمل «عجلون» ومنه الصويت وقلعة عجلون بين الأردن وبلاد السراة، وهي محدثة صغيرة المقدار مبنية على جبل مطل على الغور يعرف بجبل عوف؛ لأنه كان به قوم من بني عوف أهل عتو، فلما أقطع الملك العادل أبو بكر بن أيوب هذا الجبل عز الدين أسامة [بن منقذ][1] بنى هذه القلعة لتحصين نوابه منهم بعد ممانعة منهم وإباء، فلما تكاملت مد سماطاً وحضره مشائخ بني عوف فقبض عليهم وحبسهم. وكان مكانها دير يسكنها راهب اسمه عجلون فسميت به.

---

(١) زيادة من صبح الأعشى وفيه: أنه أحد أمراء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وأنه بناها في سنة ثمانين وخمسمائة.

وأما الباعونة فكان مكانها أيضاً دير به راهب اسمه باعونة، فلما بنيت سميت باسمه.

وعمل «البلقاء» ومنه الصلت.

قال البلاذري: ومن البلقاء كورة السراة، وفيها الحميمة وفيها كان منزل علي بن عبد الله بن العباس. ومن البلقاء مآب وعمان، فأما عمان فإن يزيد بن أبي سفيان فتحها، وأما مآب فإن أبا عبيدة رضي الله عنه فتحها.

وأما الصلت فإن قلعتها من بناء الملك المعظم عيسى بن العادل، وكان السبب في بنائها أنه عبرت له جوار هناك فخرج عليهن طائفة تعرف ببني دحمان من أهل قرية كفر يهودا فسبوهن وأخذوا جماعة منهن، فبناها على قنة جبل يعرف برأس الأمير وكان مكانها شعراء ملتفة.

وعمل «صرخد» وهي مدينة قديمة وقلعتها محدثة بنيت قبل الشهيد نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله وآخر ما انتهت إليه في الدولة الأيوبية إلى يد نواب الظاهر علي بن العزيز، كان بها من قبله مسعود بن فليح النقيب /٢٦٦/ ، فلما جاءها عسكر هولاكو، بعد أخذ دمشق، هدموا شرفاتها وأبقوها بيده، فجدد الملك الظاهر بيبرس تحصينها وتحسينها.

وصرخد مدينة حوران العليا.

وعمل «بصرىٰ» وهي مدينة حوران السفلى، بل حوران كلها، بل الصفقة جميعها، قال البلاذري: وبصرى قصبة حوران وهي مدينة على سيف البرية ولها ذكر في حديث النبي ﷺ[1]، ودخل إليها قبل بعثته وهو تاجر لخديجة بنت خويلد الأسدية، رضي الله عنها، وفيها لقي بحيرا الراهب[2]، وبها قبره إلى عصرنا هذا.

وقال البلاذري: اجتمع المسلمون عند قدوم خالد بن الوليد على بصرى ففتوحها صلحاً، ولبثوا على حوران فغلبوا عليها.

وقال ابن جرير، وقد ذكرها في هذه الكورة: قلعة صرخد وهي محدثة ثم كان

---

(١) في مسند أحمد بن حنبل ٥/ ١٤٤ عن النبي بطريق أبي ذر «تخرج نار من اليمن... تضيء منها أعناق الإبل ببصرى...».

(٢) السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٩١ـ ١٩٢، تاريخ الطبري ١/ ١١٢٣ـ ١١٢٦. وغيرها.

بها مملك بعد مملك. قلت: وهكذا جرت العادة في عصرنا وما تقدمه مما قاربه أن تكون لمن أنزل عن رتبة سلطنة أو ما قاربها.

وعمل «زرع».

فهذه جملة الأعمال [القبلية]

والصفقة الساحلية

والجبلية الشمالية وهي أربعة أعمال وهي:

عمل «البقاع العزيزي».

وعمل «البقاع البعلبكية».

وعمل «بيروت» وهي ثغر على ضفة البحر وعليها سور من حجارة، وبها جبل فيه معدن حديد، ولها غيضة من أشجار الصنوبر تكسيرها اثنا عشر ميلاً يتصل بلبنان. وشرب أهلها من الآبار وهي بندر فرضة دمشق.

وعمل «صيدا» وعليها سور حجر، وهي تنسب لرجل من ولد كنعان بن حام، وكورتها كثيرة الأشجار، غزيرة الأنهار، وهي ولاية جليلة واسعة العمل ممتدة القرى تشتمل على نيف وستمائة ضيعة، وشرب أهلها من ماء يجري إليهم من قناة.

فهذه جملة هذه الأعمال.

والصفقة الشرقية الشمالية

وهي البلاد الحمصية وهي أربعة أعمال وهي:

عمل «حمص».

وعمل «قارا».

وعمل «سلمية».

وعمل «تدمر». وتدمر مدينة شامية عراقية لاتصالها ببر العراق وبر الشام. وهي مدينة جليلة سليمانية البناء، وبها بساتين جليلة ومتاجر مفيدة ولأهلها يسار ومنها تجار تضرب في الأرض.

/ ٢٦٧/ فهذه جملة المملكة الدمشقية

وبعلبك

مدينة قديمة البناء شمالي دمشق، يقال: إنها من بناء سليمان بن داود عليهما السلام، لها قلعة عظيمة مرجلة على وجه الأرض مثل قلعة دمشق، يستدير بها وبالمدينة سور منيع محصن، عظيم البناء بالحجارة الثقل الكبار من الصخر الشديد المانع، وبه ثلاثة أحجار عظيمة ممتدة تحت برج وبدنتين كوامل ذوات أطوال وعروض وسُمك مرتفع كأفلاق الجبال. وفي القلعة عمد عظيمة شواهق وسيعة الدور منيفة العلو. وفي هذه القلعة من عمائر من تفرد بها من الملوك الأيوبية آثار ملوكية جليلة القدر جلية الحسن كالدار الأمجدية والبحيرة.

وأما المدينة فمختصرة من دمشق في كمال محاسنها في حسن الترتيب والبناء، وجهات الوقف العامرة من الجامع والمساجد والمارستان ودار الحديث والمدارس والربط والخوانق والزوايا والأسواق النظيفة المشتملة على أنواع المبيعات، ويجري الماء في ديار هذه المدينة ومشارعها وأسواقها. ويعمل بها الدهان الفائق في الماعون مما يستحسن ويحمل منه إلى كثير من البلاد.

ويحف بالمدينة غوطة عظيمة أنيقة ذات بساتين مشتبكة الأشجار بأنواع الثمرات الحسان والفواكه المختلفة الألوان.

وبعلبك في ظاهرها عين ماء سارحة، متسعة الدائرة، مشهورة بالزينة، ماؤها في غاية الصفاء، عليها بهجة الحسن بين ممرج أخضر وبستان مونق. وعليها مسجد واستجد إلى جانبها مسجد جامع كمل به طرازها المذهب وجمالها المبدع. يمد منها نهر يتكسر الحصباء في خلال تلك المروج كنصل سيف يسن فوق مسن إلى أن يدخل للمدينة وينقسم منه في بيوتها وجهاتها، ويسمى «ماء رأس العين».

ولبعلبك عين أخرى أبعد من هذه الأولى مدى يقال لها «عين اللوجوج» في طرف بساتينها البعيدة، خفيفة الماء هاضمة، لا يشرب أكابر بعلبك وأهل النعمة بها إلا من مائها، ويتصل منها فرع إلى الجانب الشمالي /٢٦٨/ من بعلبك ويصب منه في قناة هناك ويدخل إلى القلعة منه، وهو من الماء المستطاب الموصوف في البلاد.

وبعلبك بلد لطيف ظريف كثير الخير والأرزاق أرخى أسعاراً من دمشق، كثيرة الأطايب وبها الملبن المعمول على أنواع يقل وجود مثلها في الأرض، لا يكاد يفوتها من دمشق فائت.

وبها جبل لبنان المشهور المبارك البقعة موطن الأولياء والصلحاء والسواح، يأوي إليه كثير ممن انقطع إلى عبادة الله عز وجل، وهو مدرج طريق الفقراء وقطب مدار الأولياء يقر بهذا من عرفه، ولا يستطيع الكاره من جهله.

ومع ما ذكرنا من حسنها قد ذمَّها القاضي الفاضل فقال: «وكتابي إليها من إحدى المضايق بل المطابق المسماة بعلبك، وأنا نازل على عين يصم السمع هديرها، فوق جبال يقمر العين صديرها، تحت سماء قد رابني منها الغداة سفورها، أمامي قتال يدير كأس المنون فيه مديرها، ورأى أحجار المنجنيقات التي إذا رأت نفطها حروف البروج محيت سطورها. والله المستعان على ما يصفون».

حمص

مدينة قديمة اسمها القديم سوريا كانت معظمة عند ملوك الروم، كرسي ملك لهم، ولم تزل يشار إليها بينهم بالتعظيم. وهي في وطاءة ممتدة على جانب نهر العاصي في شماليه مبنية بالحجر الأسود الصغير، وبها قلعة لا تمنع، ويستدير بها سور هو أمنع من القلعة، وأسمح من أبراجها في الرفعة، ولها من العاصي ماء مرفوع يجري إلى دار نائب السلطنة[1] بها وبعض مواضع بها. ولها من بر بعلبك أنواع البر، وظاهرها أحسن من باطنها، لاسيما في زمان الربيع، وما تلبس به ظواهرها من حلل الربيع الموشعة بالأزهار ما مد النظر، ترنو بأحداق النرجس وثغور الأقاح، وتتوسط بها البحيرة الصافية الماء الضافية النماء ذات السمك المنقول من الفرات إليها حتى تولد فيها، والطير مبثوث في نواحيها.

وبها إلى جانب مسجدها الجامع قبة العقارب لا يوجد/ ٢٦٩/ لها نظير يقال: إنها طلسم قديم موضوع لدفع العقارب عنها، ولأجل هذا لا يوجد بها شخص عقرب، ولا يحمل عقرب إليها إلا ويموت بها. ومن أخذ تراباً من أرض حمص وخلطه بماء حتى يصير طيناً ثم ألصق تلك الطينة ببعض جدران تلك القبة من داخلها وتركها حتى تسقط بذاتها من غير أن يلقيها أحد، ثم أخذها ووضع شيئاً منها في بيته لا تدخله عقرب، فإن ذر على عقرب منه أحدث بها مثل السكر وربما زاد عليها فقتلها. هذا لا يحتاج يسأل عن تحقيقه، ولا يأبى من هو في غاية المشرق أو المغرب من تصديقه، بل والذي يقال: إن هذا الأمر لا يختص بهذه القبة وإنما هو خاصة في

(١) عن نيابة السلطنة، راجع: الصبح ٤/ ٢١٧.

عامة أرض حمص لا تقرب عقرب ثيابه وأمتعته ما دام عليه من غبار ترابها.

حدثني خلق بهذا، ورأيت بعيني وجربت ما يتعلق بالطين الملصق بالقبة، وإلى هذا أشار الفاضل في البشرى بفتوحها: «ودب إليها من عقارب المجانيق ما خالف عادة حمص في العقارب، ورميت بها الحجارة على الحجارة فظهرت العداوة المعروفة بين الأقارب».

وحمص تتلو الإسكندرية فيما يعمل فيها من القماش الفائق على اختلاف الأنواع وحسن الأوضاع لولا قلة مائه وفحولة جسمه، مع أنه يبلغ الغاية في الثمن، وإن لم تلحق إسكندرية مصر فإنها تفوق صنعاء اليمن.

حماة

مدينة قديمة وهي في وهدة حمراء ممتدة عليها نشزان عاليان مطلان عليها يسميان قرون حماة. ذكرها امرؤ القيس هي وشيزر في شعره لما مر بهما في طريقه إلى قيصر[1].

وهي مدينة على ضفة العاصي بناء مكيناً بالحجارة، ولها قلعة ملونة الأحجار يستدير بها سور، وبيوت ملوكها وسرواتها مطلة على النهر. بها القصور الملوكية، والدور السرية والمساجد والمدارس والربط والزوايا والأسواق التي لا تعدم نوعاً من الأنواع ولا صنفاً من الصنوف جليلها وحقيرها. وغالب مبانيها العلية، وآثار الخير الباقية فيها من فواضل نعم / ٢٧٠/ الدول الأيوبية فيها. ولها النواعير المركبة على العاصي، تدور بذاتها وترفع الماء إلى الدور السلطانية ودور الأمراء والبساتين والغيطان. وفي بساتينها الأشجار والغراس المفنن الأفنان، وبها بقايا الناس وأنموذج الكرام يخدمهم العلماء بتصانيفهم والشعراء بمدائحهم، ويقصدهم الفقراء والسؤال وطوائف بني الآمال، ويتفنن أرباب الصنائع في دقائق الأعمال وتقدم إليهم التحف ويختصهم التجار ببدائع الطرف، وكرمهم يربي على الأمل ويزيد على الرجاء، حتى إن كل أحد ليعلق من ملوكها للطماعية بنصيب ويفردهم بقصد، وهم أجود من الغمام السكوب وأندى من الرياح ندى عند الهبوب.

---

(١) في قوله: [من الطويل]

تَقَطَّعَ أسبابُ اللُّبَانَة والهَوَى ... عَشِيَّةَ جاوَزْنا حَمَاةَ وشَيْزَرَا

(ديوان امرىء القيس، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٩٦٩، دار المعارف، ص ٦٢).

ثم نعود إلى ذكر حماة فنقول: إنها لم تكن في القديم نبيهة الذكر، وكان الصيت دونها لحمص، ثم تنبه في الدولة الأتابكية ذكرها. فلما جاءت الدولة الصلاحية الناصرية، وانتقلت حماة إلى ملوك بني أيوب مصروا مدينتها بالأبنية العظيمة والمساكن الفاخرة، وتأمير الأمراء فيها وتجنيد الجند بها، وعظموا أسواقها وزادوا فيها القصور والغراس وجلبوا إليها من أرباب الصنائع كل من فاق في فنه، وبقي كل ما لمحاسنها يكبر ويزداد إلى أن أضحت الآن تامة المحاسن معدودة في أمهات البلاد وأحاسن الممالك.

وبها الفواكه الكثيرة والخيرات الغزار. وأسعارها حية وسمتها ملوكية، خلا أنها ذات وغر في الصيف لحجب الهواء عن اختراقها، ويعرض لها في الخريف تغير ينسب إلى الوخم، ولا يبقى بها الثلج كما يبقى في بقية الشام مدخراً إلى الصيف ولكنه يجلب إليها مما جاورها.

وحول حماة مروج ممتدة وبر فسيح يكثر به مصائد الطير والوحش. وليس بعد دمشق في الشام لها شبيه، ولا يدانيها في لطف ذاتها من مجاورتها قريب ولا بعيد. وليس لها سوى عملين: عمل «بارين» وعمل «المعرة».

وحلب

مدينة عظيمة قديمة، أم أقاليم وبلاد وأغوار وأنجاد، وبها معظم قلاع الشام ومعاقله وحصونه /٢٧١/ وثغوره وتسمى «حلب الشهباء» وهي ذات القلعة البديعة العلية المنار، وهي ـ أعني حلب ـ في وسط وطاءة حمراء ممتدة، والقلعة على تل عليٍّ.

كانت قد عظمت أيام بني حمدان، وتاهت بهم شرفاً على كيوان، ثم جاءت الدولة الأتابكية فزادت فخاراً واتخذت لها من بروج السماء منطقة وأسواراً، ولم تزل على هذا يشار إليها بالتعظيم ويأبى أهلها في الفضل عليها لدمشق التسليم، حتى وطئها هولاكو بحوافر خيله، وأقام عليها مفرقاً في أقطار الشام بعوث سراياه وجنده فهدمت أسوارها وخربت حواضرها، فأصبحت يرثى لها الشامت، ويبكي بها اللاهي، وهي على ما توالى عليها من المحن وأطاف بها من نوب الأيام، مصر جامع ومبصر رائع، مبنية بالحجر الأصفر الذي لا يوجد مثله في البلاد، كأنها به رافلة في حلل الديباج ماثلة في ذهبيه الأصيل.

وبها الديار العظيمة والجامع ذو المأذنة العليا الفائقة، والمارستان والمساجد والمدارس والربط والخوانق، ووجوه البر الدائم والصدقات الجارية. ويجري إلى داخل المدينة فرع ماء يتشعب في دورها ومساكنها وهو قليل نزر لا يبل صداها ولا يكفي نغبتَها. ولها الصهاريج المملوءة من ماء الأمطار، صافية النطاف باردة الزلال، منه شرب أهلها ويدخل إليها الثلج من بلادها، وليس لأهلها إليه كثير التفاف لبرد هوائهم ومائهم وقرب اعتدال صيفهم وشتائهم.

وبها نهر قويق[١]، وهو نهرها القديم. ونهر الساجور، مستجد فيها ساقه هذا السلطان إليها وحكمه جارياً عليها.

وحلب أوسع الشام بلاداً وأوطأ أكنافها لخيل الأمل مجالاً. ولها المروج الفيح والبر الممتد حاضرة وبادية، ومنازل عرب وأتراك بها جند كثيف وأمم من طوائف العرب والتركمان. وبها البطيخ القليل في الشام مثله، وأنواع من الفواكه أكثرها مجلوبة من بلادها، متصلة بسيس والروم وبلاد ديار بكر / ٢٧٢/ وبرية العراق.

وفي أعمالها وادي الباب وبزاعة، الوادي المشهور، نزل به المنازي الشاعر[٢] ووصفه بقوله[٣]: [من الوافر]

وقَاناَ لَفْحَةَ الرَّمْضَاء وادٍ ... وقَاهُ مضاعَفُ النبتِ العميمِ
نزلنا دَوْحَهُ فَحَنَا علينا ... حُنُوَّ الوالدات على الفَطيمِ
وأرْشَفَنَا على ظمأٍ زُلالاً ... ألَذَّ منَ المُدامةِ للنديمِ
تَرُوعُ حَصاهُ حاليةَ العَذارى ... فتلْمُسُ جانبَ العِقْدِ النَّظيمِ
تصدُّ الشمسَ أنَّى واجهتْها ... فيحجُبها ويأذنُ للنَّسيمِ

وأما عملها فهو كثير منه قلاع وحصون، ومنه ما ليس له قلعة، وعدة الجميع ثلاثة وعشرون عملاً وهي:

عمل «شيزر» المدينة المشهورة.

---

(١) عن نهر قويق، انظر: الأعلاق الخطيرة ١/ ١/ ١٣٨- ١٣٩.

(٢) هو أحمد بن يوسف المَنَازي المتوفى سنة ٤٣٧هـ.
ترجمته في: «وفيات الأعيان ١/ ١٤٣- ١٤٥، العبر ٣/ ١٨٧، الوافي بالوفيات ٨/ ٢٨٥- ٢٨٨، شذرات الذهب ٣/ ٢٥٩.

(٣) الأبيات في الوفيات ١/ ١٤٣- ١٤٤ والوافي ٨/ ٢٨٥، وقارن: نفح الطيب ٤/ ٢٨٨ وفيه أنها لحمدة العوفية.

وعمل «الشغر وبكاس» وهي قلعة.

وعمل «القصير» وهي قلعة.

وعمل «دبركوش».

وعمل «حارم».

وعمل «أنطاكية» المدينة العظيمة المشهورة المذكورة.

وعمل «بغراس». وهي قلعة حصينة ثغر الأرمن.

و«الدربساك» وهي قلعة.

وعمل «حجر شغلان» وهي قلعة.

وعمل «الروندان» وهي قلعة.

وعمل «عينتاب» وهي مدينة مليحة جليلة.

وعمل مدينة «بهنسىٰ» وهي مدينة جليلة على ما يذكر.

وعمل «كركر» وهي قلعة.

وعمل «الكختا» وهي قلعة.

وعمل «البيرة» وهي القلعة الجليلة المشهورة.

وعمل «قلعة المسلمين» وهي قلعة جليلة.

وعمل «منبج».

وعمل «الحبول».

وعمل «تيزين».

وعمل «عزاز».

وعمل «سرمين» ومعها الفوعة وقنسرين.

وعمل «كفرطاب».

وعمل «الباب وبزاعة» المقدم الذكر[١].

---

(١) راجع تفصيل هذه الأعمال في: الصبح ٤/ ١١٩ـ ١٣٩.

أطْرَابُلس

قد قدمنا القول على أنها بنيت عند الفتح عوض أطرابلس العتيقة[١]، وكانت تسمى قديماً بدار العلم وتداولها ملوك بني عمار وكانوا في الأول لهم القضاء بها. ولما بنيت هذه المدينة الجديدة، كانت وخيمة البقعة ذميمة المسكن، فلما طالت مدة سكنها وكثر بها الناس والدواب، وصرفت المياه الأجنة التي كانت حولها نقائع وعملت بساتين، ونصب بها المنصوب والغراس فخف بقلها وقل /٢٧٣/ وخمها.

وقد كان بها أسندمر الكرجي[٢] نائباً، وبقي لا يستقل من لوثة وخم، فشكا إلى الحكيم الفاضل أمين الدين سليمان بن داود[٣] المتطبب وخامتها، وسأله عما يخفف بعض ذلك، فاشار عليه أن يستكثر بها من الجمال وبقية الدواب ففعل ذلك، وأمر به الأمراء والجند فخف ما بها وكان الأمر كما أشار به الحكيم. وسألت عن تعليل هذا كثيراً من الأطباء فقال: إنه لا يعرفه. وفوق كل ذي علم عليم.

وأما ما قاله لي الصدر بهاء الدين أبو بكر بن غانم[٤]، رحمه الله، فإنه قال: إن السبب فيما يعرض للأجسام بها أنها لمجاورة البحر وعرة حارة فتكون في أول الليل كذلك فلا يقبل فيها تقبل الغطاء، فإذا نام النائم قليل الدثار يفاجئه البرد الشديد في آخر الليل من قبل الجبال المجاورة لها، فيجيء البرد عقيب الحر والمسام مفتحة والنائم في غفلته فيحدث له ما يحدث.

---

(١) معجم البلدان ١/ ٣٠٧- ٣٠٩ و٣/ ٥٣٣، الروض ٣٩٠، الأعلاق ٣/ ١٠٤- ١١٢، التعريف ١٨٢، رحلة ابن بطوطة: ١/ ٥٢-٥٣، الصبح ٤/ ١٤٢- ١٤٣ وفيه: «قال السمعاني: وقد تسقط الألف منها فرقاً بينها وبين طرابلس التي في الغرب، وأنكر ياقوت في «المشترك» سقوطها وعاب على المتنبي حذفها منها في بعض شعره»، «طرابلس الشام، تاريخها وآثارها في العصر الإسلامي»، مجلة كلية الآداب - جامعة الاسكندرية ١٦ (١٩٦٢) ٤٣- ١٢٧، تاريخ وآثار مساجد ومدارس طرابلس في عصر المماليك(طرابلس - دار البلاد ١٩٧٤)، نفسه: تاريخ طرابلس السياسي والحضاري - عصر دولة المماليك (بيروت، المؤسسة العربية للدراسات ١٩٨١)، ولعبد العزيز محمود عبد الدايم: إمارة طرابلس الصليبية في القرن الثاني عشر الميلادي (رسالة ماجستير بجامعة القاهرة).

(٢) أسندمر الكرجي بن طرابلس المملوكي (ت ٧٢١هـ / ١٣٢١هـ)
ترجمته في: الوافي بالوفيات ٩/ ٢٤٨.

(٣) هو سليمان بن داود بن سليمان الدمشقي: كان رئيساً لأطباء دمشق، توفي سنة ٧٣٢هـ.
ترجمته في: الدرر الكامنة ٢/ ٢٤٦، الوافي ١٥/ ٣٨٠ رقم ٥٢٧.

(٤) أبو بكر، محمد بن غانم، كاتب السّر في طرابلس (ت ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م)
ترجمته في: الوافي بالوفيات ١٠/ ٢٥٣ - ٢٥٨ رقم ٤٧٤٩.

ولها نهر يحكم على ديارها وطباقها يتخرق الماء في مواضع من أعالي بيوتها التي لا يرقى إليها إلا بالدرج العلية. وحولها جبال شاهقة صحيحة الهواء خفيفة الماء ذوات أشجار وكروم ومرج وأغنام ومعز. ومجتمع بها الجوز والموز وقصب السكر والثلج، ويعمل بها السكر، ويهوى إليها وفود البحر ترسى بها مراكبهم موضع زرع وضرع.

وهي الآن مدينة ممتدة كثيرة الزحام، ذات مارستانين، ومساجد، ومدارس وزوايا، وأسوار جليلة، وحمامات حسان موصوفة وجميع أبنيتها بالحجر والكلس مبيضاً ظاهراً وباطناً، تحيط بها غوطتها ويحيط بغوطتها مواضع مزدرعاتها بديعة المشترف تحسن بعين من يشرف من هضبة عليها.

وهي مملكة ذات جيش وتركمان. وخاصة لأهل الجبال بها يد في الرمي على القوس الثقيل بالنشاب الخارق.

ولها حصون وقلاع وتجاورها قلاع الدعوة المعروفة، وبقاعدتها مصياف ومن جملتها: «قلعة القدموس». وبها حمام يخرج بها أنواع حيات كثيرة /٢٧٤/ لا تحصى، حتى إن القاعد في داخلها ليغتسل والحيات طافرة من الأنبوب مع الماء، حتى إن الخارج من الحمام ليرفع قماشه من الأرض ليلبسه والحيات تتساقط منه، ولكنها لا تؤذي أحداً ولا عرف هذا عنها في وقت من الأوقات.

وبالقرب من هذه القلعة «قلعة الخوابي». حدثني الأديب بدر الدين حسن الغزي أن في سورها ـ أعني قلعة الخوابي ـ مكاناً إذا لدغت أفعى أو حية أحداً وحمل لكي يشاهد ذلك الموضع من سور الخوابي بعينه، أو كان الملدوغ عاجزاً فأرسل رسولاً له في ذلك الموضع فأتى إليه وشاهده بعينه قبل عطب السليم الملدوغ، نجا السليم وكانت عاقبته إلى سلامة. وهذا من عجائب ما يُحدَّث به في الآفاق، فما أدري أهذا لطلسم هناك أو لخاصية في ذلك الحجر. وعلى كل الحالين هذا السر عجيب غريب وأغرب ما فيه هذا يفيد نفع اللديغ برؤية رسوله له إذا لم يره هو بنفسه. فسبحان من له الحكم وإليه مرجع الأمر كله.

و«وادي الفوار» قريب حصن الأكراد[1] غرباً بشمال على الطريق السالكة، صفته

---

(١) عن حصن الأكراد، راجع: الأعلاق الخطيرة ٣/ ١١٥ـ١٢٠، رحلة ابن بطوطة ١/ ٥٣.

هناك صفة بئر قائمة في الأرض. وفي سفل البئر سرداب ممتد إلى الشمال يفور في كل أسبوع يوماً واحداً لاغير، فتسقى به أرض ومزدرعات، وينزل عليه التركمان ويردوه، وبقية الأيام يابسٌ لا ماء فيه، ويسمع له دوي كالرعد قبل فورانه، والسرداب خلفه البناء. وذكر لي من دخل السرداب أن في نهايته نهراً كبيراً آخذاً من الغرب إلى الشرق تحت الأرض وله جريان معين وبه موج وريح عاصف ولا يعرف إلى أين يجري ولا من أي جهة يجيء.

وداخل البحر الشامي بطرابلس عند برج الخصاص بقدر رمية حجر فوارة ماء حلو عذب يطلع على وجه الماء علو ذراع أو أكثر يبين ذلك عند سكون البحر لكل أحد.

وصفد

مدينة[1] في سفح جبل، صحيحة الهواء، خفيفة الماء، يحمل إليها /٢٧٥/ الماء على الدواب من واديها، وبها عين ماء لو أنها دمع لما بلت الآماق ولا ملأت بلى البكاء به الأحداق. وأكثر ما يدخل أهلها حمامات الوادي بها، ولا ترضى حمامات المدينة لقلة مائها وسوء بنائها.

وبها عسكر من الجند والحلقة وهي على مسافة يومين من دمشق، فحكمها حكمها وكل ما يوجد بدمشق فيها مما هو من صفد وبلادها ومما هو مجلوب من دمشق إليها. وهي إلى جانب عكا وقد خربت عكا وبقيت هي مدينة ذلك الساحل وقاعدة ذلك.

ولها قلعة قل أن يوجد لها شبيه، كأنما عليها من ذهب الأصيل تمويه، لا تروم السحب إلا من صَبَب، ولا يطوف عليها سوى الشفق لمدام عليه من مواقع النجوم حبب، ولا تجاوز الأرض إلا وهي إذا رامت السماء لا يعوقها سبب. ولما فتحها الملك الظاهر بيبرس عظم أمرها، وهي تستحق التعظيم وتستوجب الرفعة بما رفع الله من بنائها العظيم.

ولقد ذكرها ابن الواسطي الكاتب[2] فقال: وقلعة صفد بنتها الفرنج، وكانت

---

(١) عن صفد، راجع: معجم البلدان ٢/ ٣٩٩، الأعلاق الخطيرة ٣/ ١٣٦ـ ١٥١، التعريف ١٨٢، الصبح ٤/ ١٤٩ ـ١٥٠، ولطه ثلجي الطراونة: مملكة صفد في عهد المماليك (بيروت، دار الآفاق ١٩٨٢).

(٢) ابن الواسطي، هو أبو بكر، محمد بن أحمد بن محمد المقدسي، كان موجوداً في القرن الخامس =

أولاً تلاً عليه قرية عامرة تحت برج اليتيم بنتها الداوية في سنة خمس وتسعين وأربعمائة، وقال: وهي قلعة حصينة على جبل تحف به جبال وأودية.

ولها أحد عشر عملاً[(١)] وهي:

ولاية «برها».

وولاية «الناصرة»[(٢)] منبع الطائفة النصرانية.

وولاية «طبرية»[(٣)] ذات البحيرة المشهورة[(٤)] والحمَّة العجيبة[(٥)].

وطبرية في سفح جبل مطل على البحيرة، وطول البحيرة اثنا عشر ميلاً وحمتها يقصدها المبرودون للاستشفاء ويكاد أن يسلق بها البيض والجدا. وماؤها حلو ويخرج منها نهر الأردن. ومن عملها قدس، وكان بها قديماً السواد وبيسان ثم خرجا عنها.

وولاية «تبنين» ومنها هونين. وهما حصنان منيعان بناهما الفرنج بعد الخمسمائة، وهما من جبل عاملة بين بانياس وصور.

وولاية «عثليث».

/ ٢٧٦/ وولاية «عكا».

وولاية «صور». وشهرتهما تغني عن ذكرهما.

وولاية «الشاغور».

وولاية «الإقليم».

= الهجري ونقل عنه ابن فضل الله في الجزء الأول من المسالك ١/ ٢٥٣.
ألّف حوالي عام ٥٠٠هـ كتاباً في فضائل بيت المقدس حققه أ. حسُّون ونشره معهد الدراسات الأسيوية والإفريقية ـ بالجامعة العبرية بالقدس سنة ١٩٧٩.

(١) ذكر صاحب «تاريخ صفد» الذي نشره لويس أن لها عشرة أعمال فقط هي: عمل المدينة ويسمى الزنَّار، بلاد الشقيف والنحارير ومرج العيون، بلاد تبنين، ولاية صور، ولاية عكا، ولاية عثليث... وبها جبال الكرمل، مرج بني عامر وبه ولايتان: اللجون وجنين، ولاية الناصرة، ولاية الشاغورين، ولاية طبرية.

(٢) عن الناصرة، راجع: معجم البلدان ٤/ ٧٢٩، الروض المعطار ٥٧١، الأعلاق الخطيرة ٣/ ٢٨٤.

(٣) عن طبرية، راجع: معجم البلدان ٣/ ٥٠٩، الروض ٣٨٥ ـ ٣٨٦، الأعلاق ٣/ ١٢٩ ـ ١٣٥ـ، الصبح ٤/ ١٥١.

(٤) راجع عن البحيرة: الأعلاق ٣/ ١٣٠ـ ١٣١، الصبح ٤/ ٨٣.

(٥) راجع عنها: الأعلاق ٣/ ٣٠، الصبح ٤/ ٧٣.

وولاية «شقيف أرنون». وعلى الشقيف قلعة حصينة يقاربها شقيف نيرون، وهو حصن جلة مغرة منيعة وما هي من صفد [وأهل هذا العمل رافضة].

وولاية «جينين».

فهذه جملة أعمال صفد.

ومما يذكر فيها:

«حيفا» وهي خراب على الساحل.

و«قلعة كوكب» وهي [التي] قال فيها العماد الأصفهاني: راسية راسخة، شماء شامخة.

و«قلعة الطور» وهي مفردة على جبل الطور بناها العادل أبو بكر بن أيوب، ثم غالبه عليها الفرنج فهدمها.

والقدس الشريف

الأرض المقدسة[١] مشتملة على مدينة القدس وما حوله إلى نهر الأردن المسمى بالشريعة، إلى فلسطين المسماة بالرملة طولاً، ومن البحر الشامي إلى مدائن لوط عرضاً. غالبها جبال وأودية، إلا ما هو في جنباتها.

وأما مدينة «القدس الشريف»[٢] فعلى جبل مدينة مستديرة في وسطها السور

---

(١) اكتسبت مدينة القدس مكانة خاصة عند المسلمين، فهي أول قِبْلة ولّى المسلمون وجههم شطرها، وهي ثالث الحرمين التي لا تشد الرحال إلاّ إليها يفوقها في ذلك مكة والمدينة.
وعندما نشأت الحركة الصليبية في آواخر القرن الخامس من الهجرة، قادت مصر والمدن الشامية، خاصة منذ عهد الأيوبيين وفي زمن خلفائهم، قادت حركة تحرير فلسطين والأرض المقدسة من الاحتلال الصليبي.
وواكب هذه الحركة التحريرية ازدهار المؤلفات الخاصة بالتعريف بالأرض المقدسة في فلسطين سواء منها ما جاء على نمط الفضائل، وهو الذي يرجع في أغلبه إلى القرنين الرابع والخامس للهجرة، أو ذو الطابع الطبوغرافي التاريخي الذي ازدهر ابتداء من القرن السابع الهجري، وبلغ ذروته في القرن العاشر الهجري بتاريخ القدس والخليل.
انظر: تاريخ الأدب الجغرافي العربي ٥٠٦ـ ٥١٦، مقدمة حَسُّون لكتاب «فضائل البيت المقدس» للواسطي (الجامعة العبرية ١٩٧٩).

(٢) القُدُس بضم القاف والدال لفظ غلب على مدينة بيت المَقْدِس بفتح الميم وسكون القاف وكسر الدال المهملة. (ن. م ٤/ ١٠٠)، وراجع: معجم البلدان ٤/ ٣٨، الأعلاق ٣/ ١٨٥ـ ٢٣٨، الروض ٣٤٤ و٥٥٦ ـ ٥٥٧ والكتب الخاصة بتاريخ بيت المقدس.

المحيط على «الصخرة» والمسجد المسمى الآن «المسجد الأقصى»، وإنما حقيقة المسجد الأقصى جميع ما يحيط به السور المذكور وهو المعروف بالسور السليماني. ويشرف عليها من شرقيها جبل أعلى منها يفصل بينهما الوادي المعروف بوادي جهنم ويعرف بالطور، وبه إلى الآن بناء جليل رومي يقال: إن منه كان صعود المسيح، عليه السلام، إلى السماء. وبهذا الوادي عين سلوان وهي تخرج من مكان في الجبل الذي عليه بناء مدينة القدس، ويجري إلى داخل ذلك الجبل أزيد من غلوة نشاب تقديراً، ثم يخرج من صدع في الجبل إلى ساحة لطيفة في انفراجه في الجبل لا يرى إلا جدولاً جارياً، والنبع من داخل الصدع ثم يسرح على وجه الأرض ويرمي إلى الوادي ويسقي المباقل. وماؤها قليل ليس بالكثير.

ومدينة القدس مبنية بالحجر والكلس، وغالب حجرها أسود. وهي وعرة المسالك. وكان بها آثار /٢٧٧/ بقلعة قديمة خربة جددت في أيام هذا السلطان سنة عشرة وسبع مائة على يد بكتمر الجوكندار[1]، إذ كان كافل الممالك، ووجودها وعدمها سواء إذ لا نفع بها ولا تحصين لها.

وبالقدس مدارس وخانقاه وربط وزوايا وترب. وللمسجد الأقصى بها وقوف كثيرة جارية على مصالحه والمؤذنين به وخدمه وجماعة من العلماء والقراء به. وقد تقدم في أول هذا الكتاب على أن في القدس لكل الملل معتقداً وإليه توجهها، وأن اليهود تزوره، والنصارى تحج به قمامة وتزور كنيسة بيت لحم مكان مولد عيسى، عليه السلام.

وقد كانت مدينة القدس، بعد تولي أيدي الفرنج عنها، يغلب عليها الهدم والخراب إلى هذه المدة القريبة، انصرفت الهمم إلى عمارة أماكن بها، وتوفرت الدواعي عليها، ووفر نائب السلطان بالشام الآن الاهتمام بذلك، وساق إليها قناة بسطها إلى بركة، هو مجتمع يرفدها بالماء زمان قلة الماء، وتجري إلى مدينة القدس وتدخل إلى سور المسجد الأقصى وتجري به.

---

(١) الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار.
ترجمته في: الوافي بالوفيات ١٠/ ١٩٨ـ ١٩٩، الدرر الكامنة ٢/ ١٨، المنهل الصافي ١/ ٣٤٨، و الدليل الشافي ١/ ١٩٤.

وعمر نائب السلطان إلى ما جاور الرباط المنصوري قلاوون مدرسة جليلة وقفها على مدرس وفقهاء ومتفقهة على مذهب الإمام أبي حنيفة، رضي الله عنه. وبأعلاها خانقاه مشرفة، وبحضرتها مكتب أيتام حصل له به الأجر التام وللناس الرفق العام وأثابه الله وتقبل منه.

وعمر بها حمامين جليلين، كانت أحوج شيء إليه؛ لأنه لم يكن بها حمامات مرضية. وأنشأ بها الأسواق والعمائر، وأصبحت مدينة القدس ضاحية المرآى آهلة الرحاب، وعادت إلى ما كانت إليه من التمدن بعد أن كانت لا تعد من القرى ولا يندى في جوانبها الثرى.

وأما بلد «الخليل» عليه السلام[1]، وهي مزرعة إبراهيم، فإنها بلدة غير مسورة على نحو يوم من القدس بالسير المعتاد /٢٧٨/ وهي منطوية بين جبال، لا هي في صحراء ولا في واد، وهي قرية أم عمل، ولولا مكان الخليل، عليه السلام، بها لم تذكر فيما يذكر، وأنما عادت عليها بركات ذلك المثوى الكريم، فباهت الأقطار بفضلها، وتأهلت الأمصار بأهلها. وأجرى بكتمر الجوكندار، قبل أن يكون كافل الممالك، إليها عين ماء كانت على بعد منها. ولقد شاهدت بها الماء جارياً في طبقة علية، يصعد إليها من نحو عشرين درجة في العلو. و[قبر] الخليل، عليه السلام، بها يحيط به سور هو داخل ذلك المسور، ولا يصح مكان القبر به على التخصيص. وبه سرداب الخليل، المنسوب إليه، داخل ذلك السور يوقد عليه قنديل، ولهذا يقول العامة: صاحب السرداب والقنديل، وقد أشرنا إلى ذلك فيما تقدم.

والكرك

مدينة[2] ذات قلعة تعرف بكرك الشوبك، والشوبك أقدم منها. والكرك مدينة

---

(١) تعرف أيضاً بَحْبرون، راجع: معجم البلدان ٢/ ٤١٨، الأعلاق ٣/ ٢٣٩ـ ٢٤٢، الصبح ٤/ ١٠٢ـ ١٠٣، وانظر زيارة المؤلف لها سنة ٧٤٥ في المسالك ١/ ٢٧٠، ٢٧٢ـ ٢٧٣، وذكرها الروض ١٨٦ تحت جيرون وعلّق على ذلك القلقشندي بأن ما ذكره الحميري يدل على إبدال الحاء بجيم والباء الموحدة بمثناه تحت (الصبح ٤/ ١٠٢)، بينما اعتبره محقق الروض من أوهام الحميري.

(٢) عن الكرك، راجع: معجم البلدان ٤/ ٢٦٢، الأعلاق الخطيرة ٣/ ٦٩ـ ٧٩، الروض ٢٠٢ـ ٢٠٣ و٤٩٣، التعريف ١٨٣ ـ ١٨٤، الصبح ٤/ ١٥٥ـ ١٥٦، ولمحمد أحمد بخيت: مملكة الكرك في العهد المملوكي (رسالة ماجستير بالجامعة الأمريكية في بيروت ١٩٦٥).

محدثة البناء كانت ديراً يتديره الرهبان، ثم كثروا فكبروا بناءه وكثروا ابناءه، وأوى إليهم أناس من مجاوريهم من النصارى فقامت لهم به أسواق ودارت لهم به معايش، وأوت إليه الفرنج فأدارت أسواره فصار مدينة مشهورة، ثم بنوا حصنه فكانت قلعة مذكورة، فاستولى عليها الفرنج حتى فتح في زمان السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب، رحمه الله تعالىٰ.

وهو في مكان صعب المرتقى لا تلين عقارب صخوره للرُّقَى، قد زاحم الشِّعْرى العَبُور بمناكبه، وعلا في السماء فالقى الهلال ثقل راكبه، وقعد من البر المقفر على نشز عال لا يبلغه النسر إلا محلقاً، ولا يغدو مصباح الصباح إلا على شرفاتها معلقاً. فلهذا اتخذته الملوك لمآلها حرزاً ولمالها كنزاً. ولم يزل لأولاد السلاطين في الأمور ملجا ومن الدهر منجا.

وماؤها من مطر السماء، وله واد تتفجر عيونه بالماء، وهو /٢٧٩/ بلد خصب وإقبال، ومنبت زرع ومسرح مال.

وفيه يقول القاضي الفاضل: «وكان الكرك شجًى في الحناجر وقذى في المحاجر، ورصد الطرقات المسلوكة وصبر في السبل المشكوكة، قد أخذ من الآمال بمخنقها، وقعد بأرصاد العزائم وطرقها، وصار ديناً للدهر في ذلك الفجر، وعذراً لتارك فريضة الله من الحج، وجلس من هام الإسلام مكان عمامته، وجثم على أنفاس الحجاز فلم يدع نفساً يصعد من تهامته؛ فواديه من مائل المعاقل بمجمعها، وظله من نجوم الأسنة بمطلعها، وهو والشوبك سر الله الآخر كبيت الواصف للأسدين: [من المنسرح]

مـا مَـرَّ يـومٌ إلاَّ وعـنـدهـمـا لـحـمُ رجـالٍ أو يـولـغَـان دَمَـا

وكفى إشارة أنه مكان الغزاة ومقرها، ومستودع الفريضة ومستقرها، مجاورته لتبوك وغزاتها آخر الغزوات النبوية، وإلى طريقه انتهت الخطى الحميدة المحمدية، والعمل على آخر الأعمال الشرعية، والوقوف عنده إشارة لا تخفى على الأفهام اللوذعية. وتحف بهذه القلعة مدينة قد عقل الجبل حبوتها، وأزلق الغراب أن يطأ ذروتها، وعصم سوار الوادي الملوك معصمها، وحمت غرة الوادي المطل أدهمها، فمنكبها حاطم والله يحطمه، وفمها من ندى الغمام راضع ومهد المنجنيق يفطمه،

وهصروه هصرة؛ فإذا البلد قائم على عروشه بل طريح على نعوشه، قد محيت سلة دنانيره من الدور فما يتعامل بالسكن فيه أهل الغرور، وصار كل مذبح في الكنيسة مربطاً، وكل مصعد من قلّه مهبطاً، وكل مسقط رأس بالحقيقة لرأس مسقطاً».

وفيه يقول أيضاً: «ومما فتحه الله على سلطاننا بلاد الكرك، وما أدراك ما هو، قلعة كانت على الإسلام أية مضرة، بل كانت لكعبة الإسلام زادها الله شرفاً أية صره. وإن نعم الله لأكثر من أن يقصر لها حديثاً، وأن الله قد أعشى ليل الشرك / ٢٨٠/ نهار الإسلام بطلبه حثيثاً[١]، وما أشك في أن أهل الحرم الشريف مع الرماة رماة بسهام الأسحار ومجاهدون، وبالمجاورة ما خرجوا ولا بعداً عن البيكاد، ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٢].

والشَّوْبَكُ

المنسوب إليه الكرك مدينة صغيرة[٣] أكثر في البر دخولاً منها وانحرافاً إلى التغريب في القبلة عنها. ذات أكواب من جداول الأنهار موضوعة، وسرر من مقاعد الأبراج مرفوعة وفاكهة، كما قال الله تعالىٰ في الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة[٤].

قلت: والشوبك فتح وقت فتوح الكرك بعد أن دام الحصار سنتين على الكرك، وأقطعهما الملك الناصر لأخيه الملك العادل ولم يزالا في يده حتى أعطاهما لولده الملك المعظم عيسى، فصرف إليهما العناية حتى ترك الكرك مدينة تعنى بنفسها وزادها تحصيناً وتحسيناً، وجلب إلى الشوبك غرائب الأشجار حتى تركها تضاهي دمشق في روائها وتدفق مائها، وتزيد بطيب هوائها.

قلت: وذكر ابن جرير كورة الجبال فقال: وقد أحدثت بها مدينة تسمى الكرك. وقال البلاذري في كتاب «فتوح البلدان»: مدينة هذه الكورة العرندل[٥].

---

(١) إشارة إلى الآية الكريمة ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [سورة الإعراف: الآية ٥٤].

(٢) سورة الحديد: الآية ١٠ .

(٣) عن الشوبك، راجع: معجم البلدان ٣/ ٣٣٢، الأعلاق الخطيرة ٣/ ٨٠ـ ٨١، الصبح ٤/ ١٥٦ـ ١٥٧.

(٤) إشارة إلى الآية: ﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ۝٣٣﴾ [الواقعة: الآيتان ٣٢ـ ٣٣].

(٥) في الأصول بالعين المعجمة تصحيف، وفي معجم البلدان ٣/ ٦٧٥ بالعين المهملة، وكذلك ضبطها الدكتور سامي الدهان في الأعلاق الخطيرة ٦٧.

وأما أعمال الكرك فهي أربعة:

«زغر» وهي مدينة قديمة حارة متصلة بالبادية وبها نبل جيد[١]

و«معان» وكانت مدينة قديمة خربت هي وعملها.

و«مؤتة» وهي باقية ووقعتها معروفة، وبها قبر جعفر بن أبي طالب، عليه السلام.

و«الشوبك» وهو محدث كما ذكرنا.

وغزة

وهي مدينة[٢] بين مصر ودمشق بها دفن هاشم بن عبد مناف، وبها ولد الشافعي، رحمه الله.

وهي مبنية بالحجر والكلس، موثقة البناء على نشز عال على نحو ميل عن البحر الشامي. ذات هواء صحيح، وماء مصرف هاضم لا يستلذ، وشرب أهلها من الآبار، ولها مجمع للمطر يدوم به ماء الشتاء لكنه يستقل. /٢٨١/ ولها فواكه كثيرة أجلها العنب والتين. وبها مارستان بناه هذا السلطان، أثابه الله، أحوج ما كانت المارة إليه في مكانه. وبها من المدارس والترب ما ازدانت به.

وهي نيابة جليلة، وبها طائفة من العسكر والعرب والتركمان، وهي آخذة من البر والبحر بجانبيها متصلة بتيه بني إسرائيل، في قبليها موضع زرع وماشية، وموضع مجمع حاضرة وبادية، وقرارية أهلها عشران بعضهم عدو لبعض، لولا مهابة الدولة لما خمدت فيها نار ولا ألم فيها بالجفون غرار. لا يطمئن فيها ساكن ولا يستقر ظاهر ولا باطن.

ومما استجد مضافاً إلى هذه المملكة فهي البلاد الجهانية، ومحل النيابة بها مدينة «إياس» وهي الآن عامرة آهلة وكذلك «كاروه» و«اسفندكار» ونصف «المصيصة» لأن الذي استقر للمسلمين هو كل ما هو إلى هذه الجهة الشامية من جهان ونصف إذنه منه ونصفها الآخر قاطع جهان من جهة الأرمن فهو لهم. وأما ما خربه المسلمون وبقي عمله لهم فهو الهارونية وحميص وتل حمدون والنقير، وكل ذلك من دون جهان إلى الشام. وكذلك مما استجد قلعة جعبر وهي شرقي الفرات. وقلعة درنده وهي قاطع بهنسي إلى الروم.

فهذه جملة هذه المملكة.

---

(١) الصبح ٤/ ١٥٧ وفيه أنها سميت بزغُر بنت لوط عليه السلام.

(٢) راجع: معجم البلدان ٣/ ٧٩٩، الروض المعطار ٤٢٨، الأعلاق الخطيرة ٣/ ٢٦٤_٢٦٦، الصبح ٤/ ٩٨_٩٩، وانظر: وفيات الأعيان ١/ ٦٠_٦٢.

فائدة جليلة تتعلق بذكر غزة:

قالوا: يجوز أن يكون اسمها مأخوذاً من الغز، والغز الشذق وهما غزان، سميت بذلك لأنها في فم الشام مما يلي شقه البحري. أو يكون مأخوذاً من قول العرب: أغزت البقرة فهي مغز إذا عسر حملها، سميت بذلك لعسر السير إليها على الناس والدواب للرمل المتاخم لها. وتعرف في القديم بغزة هاشم، سميت بهاشم بن عبد مناف[١]، جد رسول الله ﷺ، وإليها كانت رحلة قريش ـ وهي إحدى الرحلتين المذكورة في القرآن[٢] رحلة الشتاء والصيف، وهي الصيفية منهما ـ وكان عليها حصن منيع قد بقيت منه بقية إلى الآن هدمته / ٢٨٢/ قيس لما جاء إليها بعض قبائل اليمن. وفيها يقول أبو عامر السلمي في قصيدته المسماة بالذاهية، وهي ثلاث مائة بيت، يهجو بها اليمن ويذكر مثالبهم من القرآن والأخبار ويذكر مناقب قريش: [من الوافر]

ونحن الموقدونَ على حروري ونحنُ لحصن غَزَّةَ هادمونا

وفي غزة هاشم بن عبد مناف، وكانوا أربعة أخوة: هاشم هذا وقبره بغزة، ثم مات بعد أخوه عبد شمس وقبره بمكة بالحجون، ثم مات بعدهما أخوهما نوفل بطريق العراق بموضع يقال له سلمان: وقبره هناك، ثم مات بعده أخوه المطلب بأرض اليمن في موضع يقال له: ردمان وقبره هناك. فهؤلاء بنو عبد مناف الأربعة.

تتمة في ذكر سبب سفرهم الموجب لموت من مات منهم غريباً.

اتفقوا على أنه كان لعبد مناف خمسة بنين وهم سادة قريش كلها: هاشم والمطلب ونوفل وعبد شمس وأبو عمرو، وكان يقال لهاشم والمطلب البدران، ولنوفل وعبد شمس الأزهران. وأبو عمرو مات صبياً فلم يكن له خبر مع إخوته وكانت العرب وقريش كلها تسمى بني عبد مناف هؤلاء الأربعة «قداح النضار» لشرفهم وجمالهم وبهائهم. وكانت قريش كثيرة التجارة، إلا أنهم كانوا لا يخرجون من مكة والحجاز، وكانت الأعاجم تأتيهم بالبضائع فيشترون منهم ويبيعون لهم، فأقاموا على ذلك زماناً طويلاً حتى ركب هاشم بن عبد مناف فخرج إلى الشام فنزل بقيصر، ملك الروم، واسم هاشم يومئذ عمرو العلا، فكان يذبح كل يوم شاة، ويصنع جفنة ثريد ويجعل اللحم عليها أوصالاً ويدعو من حوله فيأكلون معه. وكان هاشم من أحسن الناس وجهاً وأكرمهم أخلاقاً، فقيل لقيصر: ها هنا رجل من قريش

---

(١) راجع: نهاية الأرب ١٦/ ٣٣ ـ ٣٨، ولصدر الدين شرف الدين كتاب «هاشم وأمية في الجاهلية» طبع.

(٢) سورة قريش: الآيتان ١ و٢ ﴿لإيلاف قريش، إيلافهم رحلة الشتاء والصيف...﴾.
انظر: السيرة النبوية لابن هشام ١/ ١٤٣، تاريخ الطبري ١/ ١٠٨٩.

يهشم الخبز ويصب عليه المرق /٢٨٣/ ويجعل عليه اللحم، وإنما كانت العجم تجعل المرق في صحاف واللحم في المرق ويأتدمون بذلك، ولم يكونوا رأوا الثريد فسمي هاشم «بهشيم الثريد». وفيه يقول شاعرهم بمكة[1]: [من الكامل]

عمرو العلا هَشَمَ الثريدَ لقومهِ ورجال مكة مُسْنُتونَ عِجاف

وهو أول من فعله من العرب والعجم. فدعاه قيصر، فلما رآه وكلمه أعجبه إعجاباً عظيماً، فقال له هاشم: أيها الملك إن لي قوماً هم تجار العرب، فإن رأيت أن تكتب لي كتاباً تؤمنهم فيه على أنفسهم وما معهم من المال والبضائع وغير ذلك، فإنهم يقدمون عليك بما تستظرفه من أدم الحجاز وثمره وغير ذلك مما يصير إليهم ولا يبلغك من طرف البلاد. فأمر أن يكتب له كتاب جامع للعرب، وأخذه هاشم وسار فصار كلما جاء حياً من أحياء العرب على طريق الشام أخذ من أشرافهم إيلافاً - والإيلاف أن يأمنوا عندهم وفي ارضهم على أنفسهم وأموالهم - وأخذ هاشم الإيلاف من جميع القبائل ممن بينه وبين الشام حتى قدم مكة فأتاهم بشيء لم يأتهم بمثله أحد قط، فسروا بذلك سروراً عظيماً، وخرجوا بتجارة عظيمة، وخرج هاشم معهم يحوطهم ويؤمنهم ويجمع بينهم وبين رؤساء العرب في جميع طريقهم حتى ورد بهم الشام فأحلهم غزة. ومات هاشم في ذلك السفر فدفن بغزة.

ثم خرج أخوه المطلب إلى اليمن ففعل كفعل هاشم بالشام وأخذ من ملوك اليمن عهداً لمن يجيء ويسافر إليهم من قريش، ثم أقبل يأخذ الإيلاف ممن يمر به من العرب حتى أتى مكة، كما فعل هاشم، وكان المطلب أكبر ولد عبد مناف وكان يسمى «الفيض» لكرمه. وهلك المطلب بردمان من أرض اليمن في سفرة سافرها.

وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى ملك الحبشة فأخذ منه كتاباً وعهداً لمن يجيء من قريش ورجع يأخذ/ ٢٨٤/ الإيلاف من كل من مر به من العرب من بلاد الحبشة إلى أن أتى مكة - كما فعل هاشم والمطلب - فمات بمكة وقبره بالحجون، وكان أكبر من هاشم.

وخرج نوفل بن عبد مناف - وكان أصغر إخوته - إلى العراق فأخذ عهداً من كسرى، ثم عاد يأخذ الإيلاف إلى أن أتى مكة. ثم رجع تاجراً إلى العراق، فمات بسلمان في طريق العراق.

---

(١) في الطبقات الكبرىٰ ١/ ٤٣ نسب ابن سعد البيت إلى عبد الله بن الزبَعْرى، وفي الطبري ١/ ٨٨، أنه لمطرود بن كعب الخراعي، لكن العمري يرُجِّح نسبته إلى ابن الزبعرى.
«انظر: ص ١٢٠- ١٢١».

تنبيه: البيت المقدم ذكره اختلف فيه، واصح الروايات أنه لابن الزبعرى[١] ـ والزبعرى في اللغة القصير الأذن الكثير شعر الأذنين والرأس وفيه قصر وغلظ ـ وهو من قصيدة له في هاشم وإخوته على إقواء في البيت الأخير منها وهي: [من الكامل]

يـا أيـهـا الـرجـلُ الـمـحـوِّلُ رحـلَـهُ هَـلاَّ مَـررتْ بـآل عـبـدِ مَـنـافِ

هَـبـلـتْـكَ أمـكَ لـو مـررتَ بـدارِهـمْ لـحَـمَـوك مـنْ جُـوعٍ ومـنْ إقـرافِ

الـمـطـعـمـونَ إذا الـريـاحُ تـنـاوحـتْ والـظـاعـنـونَ لـرحـلـةِ الإيـلافِ

والآخـذون الـعـهـدَ مـنْ ألـفـافِـهـا والـنـاهـشـونَ لـمـقـدِمِ الأصـنـافِ

عـمـرُو الـعُـلا هَـشَّـم الـثـريـدَ لـقـومِـهِ ورجـالُ مـكـةَ مُـسْـنِـتُـونَ عِـجـاف

[الرملة]

قلت: وهذه خاتمة في ذكر الرملة[٢]، جر الكلام إليها قربها من غزة. يقال: إن الذي أحدثها سليمان بن عبد الملك بن مروان، وإن مدينة فلسطين كانت قبلها له، وإن سليمان وليها من قبل أبيه وهو صبي، وكان معه من قبل أبيه من يدبره ويشير عليه، والاسم في الإمارة لسليمان. وكان إلى جانب كنيسة لد بستان حسن العمارة مليح الموضع كثير الفواكه، وكان سليمان كثيراً ما يستحسنه ويجلس فيه ويستطيبه، فقال يوماً للشيخ الذي يرجع إلى رأيه ـ وكان يسمى رجاء بن حيوه ـ: أحب أن تشتري لي هذا البستان حتى أبني فيه من الأبنية ما يصلح لمثلنا.

وكان البستان للقسيس الذي يتولى أمر الكنيسة، فأحضره رجاء / ٢٨٥/ وقال له ذلك، فقال: سمعاً وطاعة أحضرني القاضي والشهود حتى أشهد على نفسي بذل وأفرغ منه الساعة، فأحضرهم وحضر القسيس فقال لهم جميعاً: ألستم تعلمون أن هذا البستان لي وفي ملكي ويدي لا مانع لي ولا معارض لي فيه؟ فقال له القاضي والشهود: نعم، يريدون بذلك تصحيح الملك ليصح البيع. فقال لهم: اشهدوا الآن أني قد حبسته على الكنيسة حبساً بتاً نعاييلا [كذا] لا رجعة لي فيه ولا مثنوية فيه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فسقط في أيديهم وتم مكره وعظم ذلك على من حضر، وهم سليمان بقتله فمنعه من ذلك رجاء ورفق به وشاغله وقال له: سر بنا

---

(١) طبقات فحول الشعراء ٢٣٥ـ ٢٤٣.

(٢) معجم البلدان ٢/ ٨١٧ـ ٨٢٠، الروض المعطار ٢٦٨، الأعلاق الخطيرة ٣/ ١٨١ـ ١٨٤، الصبح ٤/ ٩٩ـ ١٠٠.

نتفرج ونبرم أمراً يكون فيه هلاك الكنيسة وغيرها، فركب وأمر سليمان أن لا يتبعهما أحد. فلما فصلا من لد رأيا بيتاً من الشعر مضروباً على ربوة من الأرض ـ هي الآن موضع المصلى ـ وكان الحر قد اشتد فقال له رجاء: اعدل بنا إلى هذا البيت لننظر من به ونريح فيه إلى أن يبرد النهار، فقربا من البيت وسلما على من فيه، وهما لا يريان أحداً، فبرزت لهما امرأة ذات برقع ردت عليهما السلام بأحسن رد ولفظ، وسألتهما النزول عندها بلسان فصيح وعزم صحيح، فنزلا وسألتهما أن يتخففا ويستريحا عندها وأعجبهما فعلها، ونسي سليمان أمر البستان إعجاباً بكرمها وعقلها وسألاها عن اسمها فقالت: رملة وعرَّفتهما أن لها بعلاً في ماشية اسمه لد وعرضت عليهما الغداء واللبن وقالت: عندي اللبن الحلو واللبن الحامض والخبز الحار والبارد؛ لأن إيثاري يخالف إيثار بعلي في الطعام وأن أعد له ما يؤثر وأعد لنفسي ما أشتهيه، وقدمت لهما من كل شيء من ذلك وثردت لهما وقد ذهلا من حسنها وجمالها وأدبها وحسن فعلها في جميع ما تحاوله، وأقسمت عليهما ليأكلان وقالت: لو جاز لي أن آكل معكما لفعلت والطعام يدعو الكرام /٢٨٦/ إلى نفسه، فأكلا ونظرا إلى ما حول البيت من الشجر والضياع وغير ذلك، فاستحسنا الموضع وإشرافه على ما حوله من العمارة فقال رجاء لسليمان: لو أمرت ببناء دير هاهنا للنصارى ومسجد للمسلمين، وأمرت في النداء بالناس: من أحب أن يكون في حمى من المسلمين والنصارى فليبن داراً إلى جنب مسجده وديره لصارت مدينة ولتعطلت الكنيسة بالدير، وهذا الموضع أحسن من موضع لد وأعلا ففعل ذلك.

وتبادر الناس من كل أوب من المسلمين والنصارى يخطون المنازل والقصور على قدر هممهم ونعمهم. وكان سليمان خط مسجداً صغيراً وداراً للإمارة لطيفة، فقال له رجاء: غير هذا؛ فإنها ستكون مدينة عظيمة فخط جامعاً كبيراً وداراً واسعة، وهو هذا الجامع وهذه الدار المعروفة بدار الإمارة.

ثم إن سليمان أراد هدم الكنيسة وأخذ رخامها وعمدها للجامع فراجعه رجاء عند ذلك وبعث إلى عبد الملك يخبره بما فعل القسيس من غدره ومكره، وما فعلاه من بناء المدينة والجامع. فكتب عبد الملك إلى ملك الروم ـ وكان الإسلام في ذلك الوقت ظاهراً على الروم ـ فأنفذ ملك الروم إلى عبد الملك من دله على موضع أخرج منه عمداً لم ير مثلها في الاعتدال والحسن، وأخرج معها رخاماً منشوراً وغير منشور

ما كفى الجامع وفضل عنه، يقال: إنه كان في ضيعة من الداروم ـ داروم غزة ـ يقال لها: عمودا. وكان أكثر ما نال النصارى من ذلك أن ملك الروم ألزمهم نقل العمد والرخام من عمودا إلى الجامع. وسميت المدينة الرملة ـ باسم المرأة المقدم ذكرها ـ وأحسن سليمان إليها وإلى بَغْلِها[1].

* * *

(١) في مخطوطة أحد الثالث (مصورة سزكين) بعدها بياض بمقدار ٣ أسطر، ومما يظهر ان الجزء الرابع يلحق به مباشرة دون إشارة، كما هو ملحوظ في بداية الجزء الرابع.
وإلى هنا انتهت نسخة أيا صوفيا، ونسخة باريس، وهي الأصول التي قابلت عليها هذا السفر.

مصادر ومراجع التحقيق

- **آثار البلاد وأخبار العباد**: لزكريا بن محمد بن محمود القزويني (ت ٦٨٢هـ) ط دار صادر ـ بيروت (دت).
- **أئمة اليمن**: محمد زبارة، محمد بن محمد بن يحيى بن عبد الله الصنعاني (ت نحو ١٣٨٠هـ) ج١، ط تغر ١٩٥٢.
- **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**: لشمس الدين، أبي عبد الله محمد بن أحمد البشاري المقدسي (ت نحو ٣٨٠هـ) نشر: دي خويه ط ليدن ١٩٠٦م.
- **الأحكام السلطانية والولايات الدينية**: لأبي الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي الماوردي (ت ٤٥٠هـ) ط٣ ـ القاهرة ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.
- **إحياء التذكرة في النباتات الطبية والمفردات العطارية**: د. ر مزي مفتاح، ط البابي الحلبي ـ القاهرة ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م.
- **أخبار الدول وآثار الأول**: للقرماني، ط على هامش الكامل لابن الأثير ط بولاق ١٢٩٠هـ.
- **أزهار الأفكار في جواهر الأحجار**: لشهاب الدين أحمد بن يوسف التيفاشي (ت ٦٥١هـ) تحقيق وتعليق: محمد يوسف حسن ومحمود بسيوني خفاجي، ط القاهرة ١٩٧٧م.
- **الإسلام والحضارة العربية**: لمحمد كرد علي، ط مصر ١٩٣٤ـ ١٩٣٦م.
- **أطلس تاريخ الإسلام**: د. حسين مؤنس، ط القاهرة ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- **الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة**: لعز الدين، ابن شداد، أبي عبد الله محمد بن علي بن إبراهيم الحلبي (ت ٦٨٤هـ) تحقيق: دومنيك سورديل وسامي الدهان، ط المعهد الفرنسي ـ دمشق ١٩٥٣ـ ١٩٦٣.

● **الأعلام، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين**: خير الدين الزركلي (ت) ط٤/ دار العلم للملايين - بيروت ١٩٧٩.

● **الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر**: موفق الدين، عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادي (ت٦٢٩هـ) ط المجلة الجديدة - القاهرة ١٩٣١.

● **الألقاب الإسلامية**: د. حسن الباشا، ط دار النهضة المصرية - القاهرة ١٩٧٨م.

● **أمراء البيان**: لمحمد كرد علي، ط مصر ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م.

● **أنباء الزمن في أخبار اليمن**: يحيى بن الحسين بن المنصور بالله القاسم بن محمد، القسم الأول من سنة ٢٨٠ـ ٣٢٢هـ، تحقيق: محمد عبد الله ماضي، ط ليبتسج - برلين ١٩٣٦.

● **الانتصار لواسطة عقد الأمصار**: لابن دقماق، ط بولاق ١٣٠٩، ١٣١٤هـ.

● **أنباء الغمر في أبناء العمر**: لشهاب الدين، أبي الفضل، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ). تحقيق: حسن حبشي، طـ المجلس الأعلى - القاهرة ١٩٦٩ـ ١٩٧٢م.

● **الأنساب**: لعبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني (ت ٥٦٢هـ) ط حيدرآباد - الدكن - الهند ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

● **أهل الذمة في مصر العصور الوسطى**: قاسم عبد قاسم، ط دار المعارف - القاهرة ١٩٧٧.

● **الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٦٤٨ـ ٩٢٣هـ/ ٢٥٠ـ ١٥١٧م، دراسة تاريخية وثائقية**: محمد محمد أمين، ط دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٨٠.

● **بدائع الزهور في وقائع الدهور**: لابن إياس، أبي البركات محمد بن أحمد (ت نحو ٩٣٠هـ) ط١ - مط الأميرية - بولاق - القاهرة ١٣١١م، ثم بتحقيق محمد مصطفى - ط القاهرة ١٩٦٠ـ ١٩٧٥م.

● **البداية والنهاية**: للحافظ ابن كثير، عماد الدين، أبي الفدا، إسماعيل بن عمر الدمشقي (ت ٧٧٤هـ) ط مصر ١٣٥١ـ ١٣٥٨هـ، ثم ط مكتبة المعارف ـ بيروت ١٩٦٦م.

● **البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع**: لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ) ط القاهرة ١٣٤٨هـ.

● **بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة**: لجلال الدين السيوطي، ط مصر ١٣٢٦هـ.

● **بلدان الخلافة الشرقية**: كي لسترانج ترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عواد ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

● **بهجة الزمن في تاريخ اليمن**: تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد (ت ٧٤٤هـ) نشر: مصطفى حجازي ـ القاهرة ١٩٦٥.

● **تاج العروس من جواهر القاموس**: لمحمد مرتضى الزبيدي، ط مصر ١٣٠٦ـ ١٣٠٧هـ.

● **تاريخ آداب اللغة العربية**: جرجي زيدان، ط٢ ـ دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٧٨م.

● **تاريخ الأدب الجغرافي العربي**: اغناطيوس يوليا نوفتش كراتشكو فسكي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، ط ليننغراد ١٩٥٧م. ثم ط القاهرة ١٩٦٣ـ ١٩٦٥م.

● **تاريخ الإسلام في الهند**: عبد المنعم النمر، ط دار العهد الجديد ١٣٧٨هـ/ ١٩٥٩م.

● **تاريخ بخارى**: للغرشخي، ترجمة: د. أحمد الساداتي، ط القاهرة.

● **تاريخ بخارى**: لفامبري.

● **تاريخ بغداد**: للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣هـ) ط دار الكتاب العربي ـ بيروت.

- **تاريخ البيمارستانات في الإسلام**: لأحمد عيسى بك، ط٢/ دار الرائد العربي - بيروت ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.
- **تاريخ ثغر عدن**: لأبي محمد، عبد الله الخطيب بامخرمة (ت ٩٤٧م) تحقيق: أوسكر لوفجرين ط ليدن ١٩٣٦.
- **تاريخ حكماء الاسلام**: للبيهقي، ط دمشق ١٣٦٥هـ/ ١٩٤٦م.
- **تاريخ الخلفاء**: لجلال الدين، عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١هـ)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط السعادة - مصر ١٩٥٢م.
- **تاريخ خليج الاسكندرية القديم وترعة المحمودية**: عمر طوسون، ط الاسكندرية ١٩٤٢.
- **تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس**: لحسين بن محمد الديار بكري، ط مصر ١٢٨٣هـ.
- **تاريخ ابن خياط**: لخليفة بن خياط (ت حدود ٢٤٠هـ) تحقيق: د. أكرم ضياء العمري ط٢ - بيروت ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.
- **تاريخ دول الإسلام**: رزق الله منقريوس، ط مصر ١٩٠٧م.
- **تاريخ دول آل سلجوق**: للأصفهاني، محمد بن محمد بن حامد (ت ٥٩٧هـ) اختصار: الفتح بن علي بن محمد البنداري (ت ٦٤٣هـ) ط٢ دار الأفاق الجديدة - بيروت ١٩٧٨م.
- **تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء**: لحمزة بن الحسن الأصفهاني، ط برلين ١٣٤٠هـ.
- **تاريخ الشعراء الحضرمين**: لعبد الله بن محمد بن حامد السقاف، ط مصر ١٣٥٣هـ وما بعدها.
- **تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)**: لمحمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢/ دار المعارف - القاهرة (دت).
- **تاريخ العراق بين احتلالين**: عباس العزاوي، ط بغداد ١٣٥٣- ١٣٧٦هـ.

- **التاريخ الكبير**: للبخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم الجعفي (ت ٢٥٦هـ) د.م، د.ت.
- **تاريخ فاتح العالم جهانكشاي**: عطا ملك جويني حاكم بغداد، ترجمة: د. محمد التونجي ط حلب ١٩٨٥.
- **تاريخ مدينة دمشق**: للحافظ ابن عساكر، أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي (ت ٥٧١هـ) مج٢ (خطط دمشق) تحقيق: صلاح الدين المنجد، ط المجمع العلمي العربي ـ دمشق ١٩٥٤.
- **تاريخ مدينة دمشق**: للحافظ ابن عساكر، أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي (ت ٥٧١هـ) ط دار الفكر ـ بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.
- **تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن حتى نهاية القرن السادس الهجري**: أيمن فؤاد سيد، ط القاهرة ١٩٧٤.
- **تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية وحضارتهم**: لأحمد محمد الساداتي ط مكتبة الآداب ـ القاهرة.
- **تاريخ المماليك البحرية**: د. علي إبراهيم حسن ط، ٣ ـ مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٧م.
- **تاريخ اليعقوبي**: لأحمد بن إسحاق ابن واضح اليعقوبي، ط النجف ١٣٥٨هـ.
- **تتمة المختصر في أخبار البشر (تاريخ ابن الوردي)**: لابن الوردي زين الدين عمر (ت ٧٤٩هـ) تحقيق: أحمد رفعت البدراوي ط دار المعرفة ـ بيروت ١٣٨٩هـ/ ١٩٧٠م.
- **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**: لمحمد بن عبد الرحيم الغرناطي ـ المعروف بأبي حامد الأندلسي (ت٥٦٥هـ).
- **التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة**: لشمس الدين، أبي عبد الله، محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ) ط القاهرة ١٩٥٩ـ ١٩٦٢.
- **تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة**: لأبي الريحان، محمد بن

أحمد البيروني (ت ٤٤٠هـ) ط حيدرآباد ـ الدكن ـ الهند ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م.

- **تذكرة الحفّاظ**: لأبي عبد الله، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ) ط دار إحياء التراث العربي ـ بيروت [دت].
- **تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه**: لابن حبيب، الحسن بن عمر بن الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ) تحقيق: د. محمد محمد أمين، ط الهيئة المصرية ـ القاهرة ١٩٨٢م.
- **تركستان من الفتح العربي حتى الغزو المغولي**: ف. ق. بارتولد، ترجمه عن الروسية: صلاح الدين عثمان هاشم، ط الكويت ١٩٨١.
- **التعريفات**: لعلي بن محمد الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ) ط مكتبة لبنان ـ بيرت ـ ١٩٨٥م.
- **التعريف بالمصطلح الشريف**: لشهاب الدين، أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ) ط القاهرة ١٣١٢هـ ثم تحقيق: محمد حسين شمس الدين، ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- **تعريف مدن الهند وتحديدها، الواردة في كتاب فتوح البلدان للبلاذري**: د. سيد رضوان علي، بحث منشور في مجلة العصور ـ الرياض مج٢، ج١ / ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
- **تقويم البلدان**: لأبي الفداء، عماد الدين، إسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢هـ) ط باريس ١٨٤٠م.
- **تكملة المعاجم العربية**: رينهارت دوزي، ترجمة: د. محمد سليم النعيمي، ط دار الرشيد ـ بغداد ١٩٨١م.
- **تهذيب التهذيب**: لأحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) ط حيدرآباد ـ الدكن ١٣٢٧هـ.
- **الجامع لمفردات الأدوية والأغذية**: لابن البيطار، ضياء الدين، أبي محمد، عبد الله بن أحمد الأندلسي (ت ٦٤٦هـ) ـ ط بولاق ١٢٩١هـ/ ١٨٧٤م ثم ط مكتبة المثنى ـ بغداد (دت).

● **الجغرافية التاريخية للعالم الإسلامي خلال القرون الأربعة الأولى**: موريس لومبارد ترجمة: د. عبد الرحمن حميدة. ط دار الفكر ـ دمشق (دت).

● **جغرافية القارات**: د. محمد الحمادي ود. علي موسىٰ، ط١ ـ دار الفكر ـ دمشق ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

● **جغرافية مصرفي كتاب الممالك والمسالك لأبي عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري (ت ٤٨٧هـ)**: بحث وتحقيق: عبد الله يوسف الغنيم، ط الكويت ١٩٨٠.

● **حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة**: للحافظ جلال الدين، عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١هـ) تحقيق: محمد أبي الفضل إبراهيم، ط دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م.

● **حضارة الهند**: د. غوستاف لوبون ترجمة: عادل زعيتر، ط دار إحياء الكتب العربية ـ القاهرة ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م.

● **حفريات الفسطاط**: علي بك بهجت (ت ١٣٤٢هـ) ترجمة محمود عكوش، ط دار الآثار العربية ـ القاهرة ١٩٢٧.

● **الحكومات العربية في الهند والسند**: لأطهر مبارك بوري، ترجمة: د. عبد العزيز عبد الجليل، ط مؤسسة المدّالله ـ الرياض ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

● **حماسة سراي در إيران**: ذبيح الله صفا، ط طهران ١٣٦٩.

● **الحوادث الجامعة، والتجارب النافعة، في المائة السابعة**: المنسوب لابن الفوطي، ط بغداد ١٣٥١هـ.

● **خريدة القصر وجريدة العصر ـ قسم شعراء الشام**: للعماد الأصفهاني الكاتب تحقيق: شكري فيصل، ط المجمع العلمي العربي ـ دمشق ١٩٥٥ـ ١٩٦٨.

● **خطط الشام**: محمد كرد علي (ت ١٣٧٢هـ) ط بولاق ١٢٧٠هـ، ثم ط دار صادر ـ بيروت (دت).

● **الدارس في تاريخ المدارس**: لعبد القادر النعيمي الدمشقي، ط المجمع العلمي العربي ـ دمشق ١٣٦٧ـ ١٣٧٠هـ.

- **درر الفوائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المكرمة**: لعبد القادر بن محمد الأنصاري الحنبلي (ت نحو ٩٧٧هـ) ط السلفية ـ القاهرة ١٩٦٥.
- **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**: لأحمد بن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢هـ) تحقيق: محمد سيد جاد الحق ط دار الكتب الحديثة ـ القاهرة ١٩٦٦.
- **الدليل الشافي على المنهل الصافي**: لابن تغري بردي، جمال الدين، أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ) ط مكتبة الخانجي ـ القاهرة (د. ت) ثم تحقيق: فهيم محمد شلتوت، ط مركز البحث العلمي ـ مكة ١٩٨٣.
- **دولة المماليك الأولى**: دراسة وتحقيق: دوروتيا كرافولسكي ط١ ـ المركز الإسلامي للبحوث ـ بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.
- **الديارات**: للشابشتي تحقيق: كوكيس عواد، ط بغداد ١٩٥١م.
- **ديباج المذهب في تراجم أعيان المذهب**: لبرهان الدين، إبراهيم بن علي بن محمد اليعمري (ت ٧٩٩هـ) تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، ط دار التراث ـ القاهرة ١٩٧٩.
- **ديوان امرىء القيس**: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم ط دار المعارف ـ مصر ١٩٦٩.
- **ديوان مروان تحقيق د. حسين عطوان.**
- **الذريعة إلى تصانيف الشيعة**: لمحمد محسن الشهير بأغا بزرك الطهراني، ط النجف ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م وما بعدها.
- **الذهب المسبوك في ذكر من حج من الخلفاء والملوك**: لتقي الدين، أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥هـ) تحقيق: جمال الدين الشيّال، ط القاهرة ١٩٥٥.
- **ذيل على ذيل العبر في خبر من غبر للذهبي**: لأبي المحاسن، محمد بن علي بن الحسن بن حمزة الحسيني (ت ٧٦٥هـ) تحقيق: أبو هاجر محمد السعيد بن البسيوني زغلول، ط١ ـ دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٠٥هـ.
- **رحلة ابن بطوطة (تحفة النُّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)**: ط القاهرة ١٩٣٩م ثم ط دار بيروت ـ بيروت ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

● **رحلة ابن جبير**: لأبي الحسين محمد بن أحمد بن جبير الأندلسي (ت ٦١٤هـ) ط دار صادر ـ بيروت ١٩٦٤.

● **رسالة ابن فضلان في وصفة الرحلة إلى بلاد الترك، والخزر، والروس، والصقالبة**: لأحمد بن فضلان بن العباس بن راشد بن حمّاد (ت ٣٠٩هـ) تحقيق: د. سامي الدهان، ط المجمع العربي ـ دمشق ١٩٥٩، ثم ط مديرية إحياء التراث ـ دمشق ١٩٧٧م.

● **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**: للقاضي محيي الدين بن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ)، تحقيق: عبد العزيز الخويطر، ط الرياض ١٣٩٦هـ/١٩٧٦

● **الروض المعطار في خبر الأقطار**: محمد عبد المنعم الحميري: (ت أوائل القرن الثامن الهجري) تحقيق: إحسان عباس، ط مكتبة لبنان ـ بيروت ١٩٧٥.

● **روضة الصفا في سيرة الأنبياء والملوك والخلفا**: لمير خواند، ترجمة: د. أحمد عبد القادر الشاذلي، ط القاهرة ١٩٨٨.

● **زبدة الحلب من تاريخ حلب**: لابن العديم، كمال الدين، عمر بن أحمد بن هبة الله بن أبي جرادة العقيلي (ت ٦٦٠هـ) تحقيق: سامي الدهان، ط المعهد الفرنسي ـ دمشق ١٩٥٣ـ ١٩٦٨.

● **زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**: غرس الدين، خليل بن شاهين (ت ٨٧٣هـ) اعتنى بتصحيحه: بول رافيس، ط باريس ١٨٩٤م.

● **كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك**: لغرس الدين، خليل بن شاهين الظاهري (ت ٨٧٣هـ) ط باريس ١٨٩٤م.

● **سفرنامة**: ناصر خسرو، ترجمة: يحيى الخشاب، ط دار الكتب الجديد ـ بيروت ١٩٧٢.

● **السلوك لمعرفة دول الملوك**: لتقي الدين، أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥هـ) تحقيق: محمد مصطفى زيادة وسعيد عبد الفتاح عاشور، ط القاهرة ١٩٣٤ـ ١٩٧٣.

● **السمط الغالي الثمن في أخبار الملوك من الغزّ باليمن**: لبدر الدين محمد بن حاتم

اليامي الهمداني (ت بعد ٧٠٢هـ) تحقيق: ج. ركس سمث، ط لندن ـ بيروت ١٩٧٤.

● **سمط اللآلي**: يحتـوي على «اللآلي في شرح أمالـي القالي» لأبي عبيد البكري، و«شرح ذيل الأمالي وصلة ذيله والتنبيه على الأغلاط المعدودة فيـهما» و«فهارس سمط اللآلـي» تنسيق وتعليـق: عبـد العزيز الميمني، ط مصر ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٦م.

● **سير أعلام النبلاء**: لأبي عبد الله، شمس الدين، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي (ت ٧٤٨هـ) تحقيق: عدة محققين، ط١ ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٣م.

● **السيرة النبوية**: ابن هشام (ت ٢١٨هـ)، تحقيق: مصطفى السقا، ابراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، ط مصر ١٩٣٦م، ثم ١٩٥٥م.

● **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**: لأبي الفلاح، عبد الحي بن العماد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ) نشر: حسام الدين القدسي، ط القاهرة ١٣٥٠هـ/ ١٣٥١هـ، ثم ط المكتب التجاري ـ بيروت [دت].

● **الشرفنامه**: في تاريخ الدول والإمارات الكردية: ألّفه بالفارسية: شرف خان البدليسي ترجمة: ملا جميل بندي روزبياني، ط بغداد ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م.

● **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**: لأبي العباس، أحمد بن علي الفزاري القلقشندي (ت ٨٢١هـ) ط الأميرية ـ القاهرة (دت) ثم ط دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩١٢ـ ١٩٣٨.

● **صفة جزيرة العرب**: لسان اليمن، الحسن بن أحمد (ت ٣٦٠هـ) تحقيق: محمد بن علي الأكوع، ط دار اليمامة ـ بيروت ١٩٧٤.

● **صورة الأرض**: لأبي القاسم ابن حوقل النصيبي (ت بعد ٣٦٧هـ) تحقيق: كريمرز، ط ليدن ١٩٦٧) ثم ط دار مكتبة الحياة ـ بيروت ١٩٧٩م.

● **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**: لشمس الدين، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ) ط مكتبة القدسي ١٣٥٣ـ ١٣٥٥هـ.

- **الطالــع السعيد الجامع أسماء النجباء الصعيد**: لكمال الدين، أبو الفضل جعفر بن ثعلب (ت ٧٤٨هـ) تحقيــق: سعد محمد حسن ط الدار المصريــة ـ القاهرة ١٩٦٦.
- **طبقات الشافعية الكبرى**: لتاج الدين، أبو نصر، عبد الوهاب بن علي السبكي (ت ٧٧١هـ) تحقيق: عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي، ط البابي الحلبي ـ القاهرة ١٩٦٣ـ ١٩٧٦.
- **طبقات فقهاء اليمن**: لعمر بن علي بن سمرة الجعدي (ت بعد ٥٨٦ هـ) تحقيق: فؤاد سيد، ط السنة المحمدية ـ القاهرة ١٩٥٧.
- **الطبقات الكبرى**: لمحمد بن سعد بن منيع الهاشمي مولاهم، أبو عبد الله البصري (ت ٢٣٠هـ) ط دار إحياء التراث (دت).
- **الطبقات الكبرى (لواقح الأنوار في طبقات الأخيار)**: لعبد الوهاب الشعراني ط مصر ١٢٧٦هـ.
- **طبقات النحويين واللغويين**: للزبيدي، ط مصر ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م.
- **العبــر في خبر من غبر**: لشمس الدين، محمد بن أحمد بن قايماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ) تحقيــق: صلاح الدين المنجد وفــؤاد سيد، ط الكويت ١٩٦٠ـ ١٩٦٦.
- **عجائــب المخلوقات وغرائب الموجودات**: لزكريا بن محمد بن محمود القزويني (ت ٦٨٢هـ) تحقيــق: فاروق سعد، ط٢ ـ دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ١٩٧٧م.
- **العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في طبقات الخلفاء والملوك**: لإسماعيل بن العباس بن رسول المعروف بالأشرف الغساني (ت ٨٠٣هـ) تحقيق: شاكر محمود عبد المنعم، ط دار التراث الاسلامي ـ بيروت، دار البيان ـ بغداد ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥.
- **العصر المماليكي في مصر والشام**: د. سعيد عبد الفتاح عاشور، ط٢ ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٧٦م.

● **عطا ملك جويني وكتابه جهانگشاي**: د. محمد السباعي رسالة دكتوراه ـ جامعة القاهرة ط إيران.

● **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**: لتقي الدين، محمد بن أحمد الفاسي المكي (ت ٨٣٢هـ) تحقيق: فؤاد سيد ط القاهرة ١٩٥٩ـ ١٩٦٨.

● **العقد الفريد**: لأحمد بن محمد بن عبد ربه (ت ٣٢٨هـ) تحقيق: د. محمد مفيد قميحة، ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م.

● **العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية**: لموفق الدين، أبي الحسن علي بن أبي بكر الخزرجي (ت سنة ٨١٢هـ) نشر: محمد بسيوني عسل، ط القاهرة ١٩١١.

● **العلاقات السياسية بين دولة الخطا والدول الإسلامية المعاصرة**: د. حامد غنيم أبو سعيد، بحث منشور في مجلة كلية العلوم الاجتماعية ـ الرياض ع ٥/ ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

● **عيون الأخبار**: لابن قتيبة، أبو محمد، عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ) ط دار الكتب المصرية ـ القاهرة (دت).

● **الفتح الوهبي على تاريخ أبي نصر العتبي**: للمنيني، ط مصر ١٢٨٦هـ.

● **فتوحات هولاكو خان في ميزان النقد التاريخي**: د. أحمد عبد القادر الشاذلي، ط القاهرة ١٩٩٠.

● **فتوح البلدان**: لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري (ت ٢٧٩هـ) نشر: صلاح الدين المنجد ط القاهرة ١٩٥٦م.

● **فتوح مصر وأخبارها**: لأبي القاسم، عبد الرحمن بن عبد الله القرشي (ت ٢٥٧هـ) نشر: تشارلز توري، ط ليدن ١٩٢٠.

● **الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية**: لمحمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقي، ط مصر ١٣٤٠هـ.

● **فرهنك أدبيات فارسي**: زهرا خانلري كيا، ط ١٣٦٦.

● **فرهنك عميد.**
● **الفن الحربي للجيش المصري في العصر المملوكي البحري**: محمود نديم، ط القاهرة ١٩٨٣.
● **الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية**: حسن الباشا، ط دار النهضة العربية ـ القاهرة ١٩٦٥ـ ١٩٦٦.
● **الفنون الجميلة في العصور الإسلامية**: لعمر رضا كحالة (ت) ط المطبعة التعاونية ـ دمشق ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م.
● **الفوائد البهية في تراجم الحنفية**: محمد بن عبد الحي اللكنوي (ت ١٣٠٤هـ) ط القاهرة ١٣٢٤هـ.
● **فوات الوفيات**: لمحمد بن شاكر الكتبي (ت ٧٦٤هـ) تحقيق: د. إحسان عباس، ط دار الثقافة ـ بيروت [دت]، وطبعة دار صادر ـ بيروت ١٩٧٤.
● **الفهرس التمهيدي للمخطوطات المصوّرة**: الادارة الثقافية في جامعة الدول العربية استنسل، مصر ١٩٤٨.
● **فهرس الكتب العربية المحفوظة بالكتبخانه**: (دار الكتب المصرية) ط مصر ١٣٤٢ـ ١٣٦١هـ.
● **كتاب الفهرست**: النديم، أبي الفرج، محمد بن أبي يعقوب إسحاق المعروف بالورّاق (ت ٣٨٠هـ) تحقيق: رضا تجدد.
● **القاموس الجغرافي للبلاد المصرية**: محمد بن عثمان رمزي (ت ١٣٦٤هـ) ط دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٥٣ـ ١٩٦٨.
● **القاموس المحيط**: لمجد الدين، محمد بن يعقوب الفيروزآبادي (ت ٨١٧هـ) ط المؤسسة العربية ـ بيروت (دت).
● **قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين**: دراسة وتحقيق: دوروتيا كرافولسكي ط١ ـ المركز الإسلامي للبحوث ـ بيروت ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.
● **قوانين الدواوين**: لابن مماتي، أبي المكارم، أسعد بن مهذب الخطير أبي سعيد بن مينا (ت ٦٠٦هـ) تحقيق: عزيز سوريال عطية، ط الجمعية الملكية الزراعية ـ القاهرة ١٩٤٣.

- **قرّة العيون في أخبار اليمن الميمون**: لوجيه الدين عبد الرحمن بن علي الشيباني (ت ٩٤٤هـ) نشر: محمد بن علي الأكوع ط القاهرة ١٩٧٧.
- **الكامل في التاريخ**: لابن الأثير، عز الدين، أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت ٦٣٠هـ) ط دار صادر ـ دار بيروت ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.
- **كتاب السلاح**: لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) ط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.
- **كشف الأسرار العلمية بدار الغرب المصرية**: لابن بعرة، منصور الذهبي الكاملي (كان معاصراً للسلطان الكامل الأيوبي) تحقيق: عبد الرحمن فهمي، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة ١٩٦٥م.
- **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**: لحاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني الرومي الحنفي، الشهير بملا كاتب الجلبي (ت ١٠٦٧هـ) ط دار الفكر ـ دمشق ١٤٠٢هـ.
- **كنز الدرر وجامع الغرر (ج٩ المسمى**: الدر الفاخر في سيرة الملك الناصر) لأبي بكر، عبد الله بن أيبك الدواداري (ت بعد ٧٣٦هـ) تحقيق: هانس روبرت رويمر، ط المعهد الألماني للآثار ـ القاهرة ١٩٦٠.
- **اللباب في تهذيب الأنساب**: لابن الأثير، عز الدين، أبي الحسن، علي بن أبي الكرم محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني (ت ٦٣٠هـ) ط بغداد ـ مكتبة المثنى (د.ت).
- **لسان العرب**: لابن منظور، جمال الدين، محمد بن مكرم الانصاري (ت ٧١١هـ) ط بولاق ـ القاهرة.
- **لسان الميزان**: لابن حجر العسقلاني ط حيدرآباد ـ الدكن ١٣٣١هـ.
- **مباهج الفكر ومناهج العبر، صفحات من جغرافية مصر**: للوطواط، جمال الدين محمد بن إبراهيم بن يحيى الكتبي (ت ٧١٨هـ) نشر: عبد العال عبد المنعم الشامي، ط الكويت ١٩٨١.

- **المحبر**: لمحمد بن حبيب، ط حيدرآباد ـ الدكن ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م.
- **محيط المحيط**: المعلم بطرس البستاني ط مكتبة لبنان ـ بيروت ١٩٧٧م.
- **مختار الصحاح**: لمحمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي (ت بعد ٦٦٦هـ) ط مكتبة لبنان ـ بيروت ١٩٨٦م.
- **مختصر أخبار الخلفاء**: لابن الساعي، ط مصر ١٣٠٩هـ.
- **مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي**: لسيد أمير علي (بالإنكليزية) نقله إلى العربية: رياض رأفت، ط مصر ١٩٣٨.
- **المختصر في أخبار البشر (تاريخ أبي الفداء)**: لعماد الدين، إسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢هـ) ط مصر ١٣٢٥هـ، ثم ط دار المعرفة ـ بيروت (د.ت).
- **المخصص**: لابن سيده، أبي الحسن علي بن إسماعيل النحوي اللغوي (ت ٤٥٨هـ) ط دار الفكر ـ بيروت (د.ت).
- **مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحالين المسلمين**: صلاح الدين المنجد، ط دار الكتاب الجديد ـ بيروت ١٩٦٧.
- **مرآة الجنان، وعبرة اليقظان، في معرفة حوادث الزمان**: لعفيف الدين، عبد الله بن أسعد اليافعي (ت ٧٦٨هـ) ط حيدرآباد ـ الدكن ١٣٣٧ـ ١٣٣٩هـ ثم تحقيق: عبد الله الجبوري، ط مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٤م.
- **مرآة الزمان في تاريخ الأعيان**: لشمس الدين، أبي المظفر، يوسف بن قزأوغلي، سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ) مج٨ ط حيدرآباد ـ الدكن ١٣٣٧ـ ١٣٣٩هـ.
- **مراصد الاطلاع**.
- **مروج الذهب ومعادن الجوهر**: لأبي الحسن، علي بن الحسين بن علي المسعودي (ت ٣٤٦هـ) تحقيق: شارل بلا، ط الجامعة اللبنانية ـ بيروت ١٩٧٠ـ ١٩٧٩، ثم دار الأندلس (د.ت)
- **مساجد مصر وأولياؤها الصالحون**: سعاد ماهر، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ القاهرة ١٩٧١ـ ١٩٨٠.

- **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**: لشهاب الدين، أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ) ج١ تحقيق: أحمد زكي باشا، ط دار الكتب المصرية ١٩٢٤.
- **مسالك الأبصار في ممالك الأقطار، الباب الأول، في مملكة الهند والسند**: لأحمد بن يحيى بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ) دراسة وتحقيق: د. محمد سالم بن شديد العوفي، ط المدني ـ القاهرة ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.
- **المسالك والممالك**: للإصطخري، أبو إسحاق، إبراهيم بن محمد الفارسي (ت في النصف الأول من القرن الرابع الهجري) تحقيق: محمد جابر عبد العال الحيني، ط دار القلم ـ القاهرة ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.
- **المسالك والممالك**: لابن خرداذبة، عبيد الله بن عبد الله (ت ٣٠٠هـ) ط مكتبة المثنى ـ بغداد (د.ت).
- **مستفاد الرحلة والاغتراب**: للقاسم بن يوسف السبتي التجيبي (ت ٧٣٠هـ) تحقيق وإعداد: عبد الحفيظ منصور، ط الدار العربية ـ تونس ١٩٧٥م.
- **مسند أحمد**: أحمد بن حنبل، ط الميمنية ـ مصر ١٣١٣هـ.
- **مصادر تاريخ اليمن في العصر الإسلامي**: أيمن فؤاد سيد، مط المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ـ القاهرة ١٩٧٤م.
- **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**: للرافعي: لأحمد بن محمد بن علي المقري الفيومي (ت ٧٧٠هـ) ط مصطفى البابي الحلبي (د.ت).
- **مطالع البدور في منازل السرور**: علي بن عبد الله النبهاني الغزولي الدمشقي (ت ٨١٥هـ) ط مصر ١٢٩٩ـ ١٣٠٠هـ.
- **معاهد التنصيص على شواهد التلخيص**: لعبد الرحيم بن أحمد العباسي، ط مصر ١٣٦٧هـ.
- **معجم الأدباء**: لياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (ت ٦٢٦هـ) نشر: أحمد فريد رفاعي ط القاهرة ١٩٣٦.

● **معجم الألفاظ العامية**: أنيس فريحة، ط بيروت ١٩٧٣.

● **معجم الأنساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي**: للمستشرق زامباور، إخراج: زكي محمد حسن وآخرين، ط مصر ١٩٥١.

● **معجم البلدان**: لشهاب الدين، أبي عبد الله، ياقوت بن عبد الله الحموي (ت ٦٢٦هـ) نشر: وستنفلد ط ليبتسج ١٨٦٦ـ ١٨٧٠م، ثم ط دار صادر ـ بيروت ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

● **معجم الشعراء**: من العصر الجاهلي حتى سنة ٢٠٠٢م: كامل سلمان الجبوري، ط دار الكتب العلمية ـ بيروت ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٣م.

● **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**: لعبد الله بن عبد العزيز البكري (ت ٤٨٧هـ) تحقيق: مصطفى السقّا، ط٣/ عالم الكتب ـ بيروت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

● **معجم المؤلفين (تراجم مصنفي الكتب العربية)**: لعمر رضا كحالة، ط مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي ـ بيروت (د.ت).

● **معيد النعم ومبيد النقم**: لتاج الدين، أبي نصر، عبد الوهاب بن علي السبكي (ت ٧٧١هـ) تحقيق: محمد علي النجار وأبو زيد شلبي ومحمد أبو العيون، ط الخانجي ـ القاهرة ١٩٤٨.

● **المغرب في حلى المغرب**: لأبي سعيد، علي بن سعيد المغربي (ت ٦٨٥هـ) ج١ من القسم الخاص بمصر، نشر وتحقيق: زكي محمد حسن وشوقي ضيف وسيدة كاشف، ط جامعة فؤاد الأول ١٩٥٣.

● **مفاتيح العلوم**: لمحمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي (ت ٣٨٧هـ) تقديم وإعداد: د. عبد اللطيف محمد العبد، ط دار النهضة المصرية ـ القاهرة (د.ت).

● **مفتاح السعادة، ومصباح السيادة في موضوعات العلوم**: لأحمد بن مصطفى طاش كبري زاده، تحقيق: كامل كامل بكري وعبد الوهاب أبو النور، ط دار الكتب الحديثة ـ القاهرة (د.ت).

- **مفرّج الكروب في أخبار بني أيوب:** لابن واصل، جمال الدين، أبو عبد الله محمد سالم بن نصر الله (ت ٦٩٧هـ) تحقيق: جمال الدين الشيّال، ط القاهرة ١٩٥٣ـ ١٩٦٠، وتحقيق: حسنين محمد ربيع، ط القاهرة ١٩٧٢ـ ١٩٧٧.
- **المقاصد النحوية:** لمحمود بن أحمد العيني ط على هامش خزانة الأدب للبغدادي ط مصر ١٢٩٩هـ.
- **مقدمة ابن خلدون:** لابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) تحقيق: د. علي وافي ط٣، دار النهضة المصرية ـ القاهرة (د.ت).
- **المقفى الكبير:** لتقي الدين، أحمد بن علي المقريزي (ت ٨٤٥هـ)، ط دار الغرب الاسلامي ـ بيروت ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- **الملابس العربية الإسلامية في العباسي من المصادر التاريخية والأثرية:** د. صلاح حسين العبيدي، ط دار الرشيد ـ بغداد ١٩٨٠م.
- **الملابس المملوكية:** أي. جي. ماير ترجمة: صالح الشيتي، ط الهيئة المصرية ـ القاهرة (د.ت).
- **الملل والنحل:** لأبي الفتح، محمد بن عبد الكريم بن أبي أحمد الشهرستاني (ت ٥٤٨هـ) ط دار المعرفة بيروت ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.
- **ممالك مصر والشام والحجاز واليمن (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار):** تحقيق: أيمن فؤاد سيد، ط المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ـ القاهرة ١٩٨٥.
- **مملكة صفد في عهد المماليك:** طه ثلجي الطراونة، ط دار الآفاق ـ بيروت ١٩٨٢.
- **المنتظم في تاريخ الملوك والأمم:** لأبي الفرج ابن الجوزي، ط حيدرآباد ـ الدكن ١٣٥٧، ١٣٥٨، ١٣٥٩هـ.
- **من ذيول العبر:** لشمس الدين، محمد بن أحمد بن قايماز الذهبي (ت ٧٤٨هـ) تحقيق: محمد رشاد عبد المطلب، ط ـ الكويت ١٩٧٠

- **منشور بمنح إقطاع من عصر السلطان الغوري**: محمد محمد أمين، مجلة حوليات إسلامية An.Isl ١٩ (١٩٨٣) ص١ ـ ٢٣.
- **المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي**: لابن تغري بردي، جمال الدين، أبي المحاسن، يوسف (ت ٨٧٤هـ)، تحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمد محمد أمين ط دار الكتب المصرية ١٩٥٥م. ثم ط الهيئة المصرية ـ القاهرة ١٩٨٤م،
- **مورد اللطافة**: لابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ) ط كمبرج ١٧٩٢م.
- **موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية لبلاد السند والبنجاب (باكستان الحالية) في عهد العرب**:. د. عبد الله مبشر الطرازي ط ـ ١ عالم المعرفة ـ جدّة ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.
- **الموسوعة العربية الميسرة**: إشراف: محمد شفيق غربال، صورة عن طبعة دار الشعب ومؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر ١٩٦٥م.
- **موسوعة الفرق الاسلامية**: د. محمد جواد مشكور، ترجمة: علي هاشم، ط مجمع البحوث الاسلامية، بيروت ١٤١٥هـ / ١٩٩٥م.
- **مؤيد الدين ابن العلقمي**: محمد الشيخ حسين الساعدي. ط النجف.
- **النبات**: لأبي حنيفة أحمد بن داود (ت ٢٨٢هـ) تحقيق: برنهار دلفين، ط ـ دار القلم ـ بيروت ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.
- **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**: لابن تغري بردي، جمال الدين، أبو المحاسن، يوسف (ت ٨٧٤هـ) ط ـ دار الكتب ـ مصر ١٩٢٩ـ ١٩٧٢م
- **نزهة الألباء في طبقات الأدباء**: لعبد الرحمن بن محمد الأنباري، ط ـ مصر ١٢٩٤هـ.
- **نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر**: لعبد الحي بن فخر الدين الحسني، ط ـ حيدرأباد ـ الدكن١٣٥٠هـ.
- **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق (وصف الهند وما يجاورها من بلاد)**: للادريسي، محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس (ت ٥٦٠هـ) جمع وتصحيح السيد مقبول

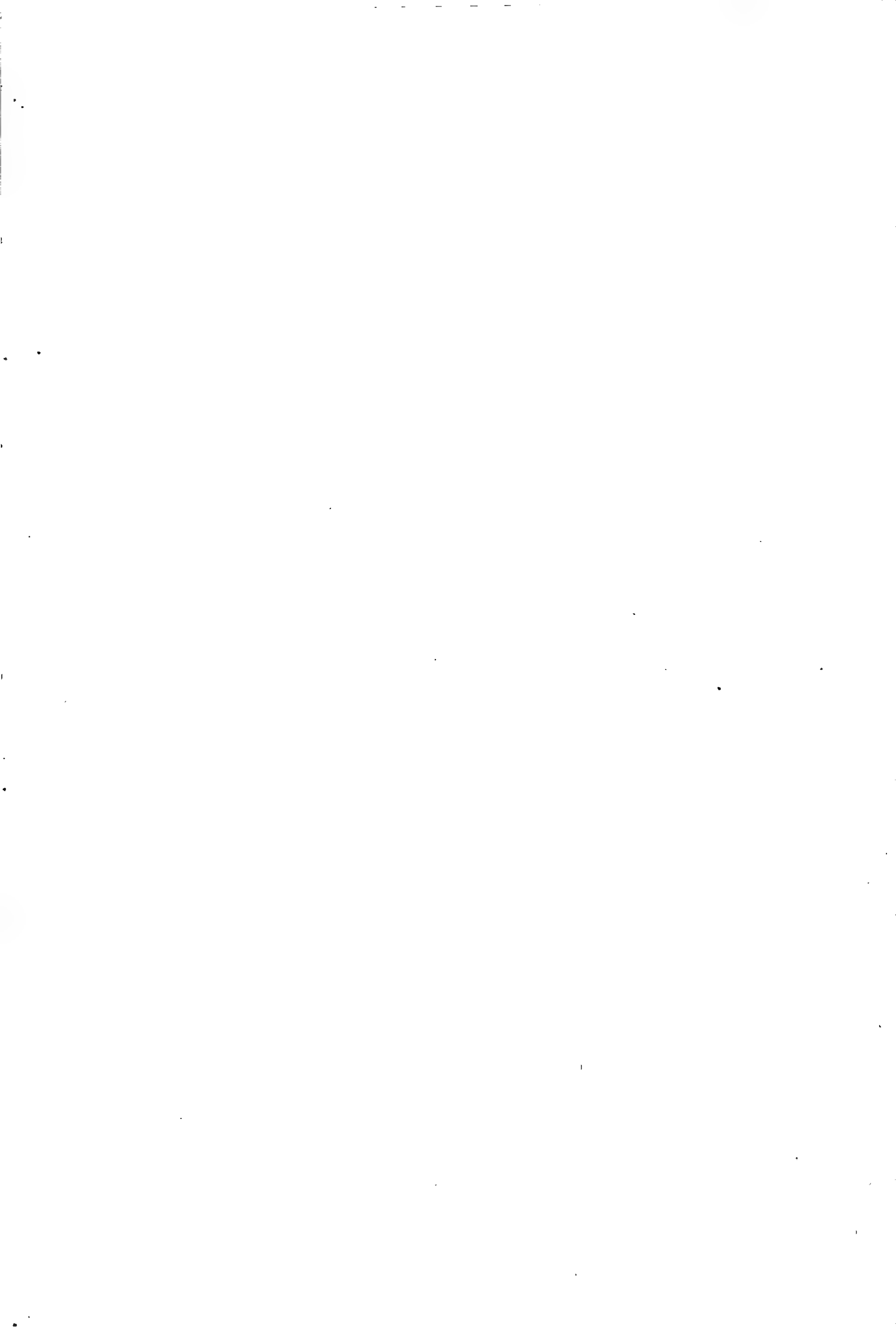
أحمد، ط ـ الجامعة الاسلامية علي كره ـ الهند ١٩٥٤م

- **النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى**: إبراهيم علي طرخان، ط ـ دار الكاتب العربي ـ القاهرة ١٩٦٨.
- **نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر**: عبد المنعم ماجد، ط ـ مكتبة الأنجلو ـ القاهرة ١٩٦٧ و١٩٧٩.
- **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**: للمقري، ط مصر ١٣٠٢هـ.
- **كتاب النقود الاسلامية (شُذور العقود في ذكر النقود)**: لتقي الدين، أبي العباس، أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) تحقيق: السيد محمد بحر العلوم، ط ـ المكتبة الحيدرية ـ النجف ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م
- **نهاية الأرب في فنون الأدب**: لشهاب الدين، أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت ٧٣٣هـ) ط ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٢٣ـ ١٩٨٤م.
- **نهاية الرتبة في طلب الحسبة**: لعبد الرحمن بن نصر بن عبد الله الشافعي الشيزري (ت نحو ٥٨٩هـ) تحقيق ومراجعة: السيد الباز العريني، ط لجنة التأليف ـ القاهرة ١٩٤٦.
- **هدية العارفين، أسماء المؤلفين، وآثار المصنفين من كشف الظنون**: لإسماعيل باشا البغدادي (ت ١٣٣٩هـ) ط ـ دار الفكر ـ دمشق ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- **الوافي بالوفيات**: لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي (ت ٣٦٤هـ) تحقيق: مجموعة من العلماء استامبول ـ بيروت ـ النشرات الاسلامية ١٩٤٩ـ ١٩٨٣م.
- **ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية**: حسن حسني باشا عبد الوهاب (ت ١٣٨٨هـ) ط تونس ١٩٦٦.
- **وصف دمشق في مسالك الأبصار للعمري**: صلاح الدين المنجد، مجلة معهد المخطوطات العربية ع ٣/ ١٩٥٧ ص ١١٣ـ ١٢٦.
- **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**: لشمس الدين، أبي العباس أحمد بن محمد بن

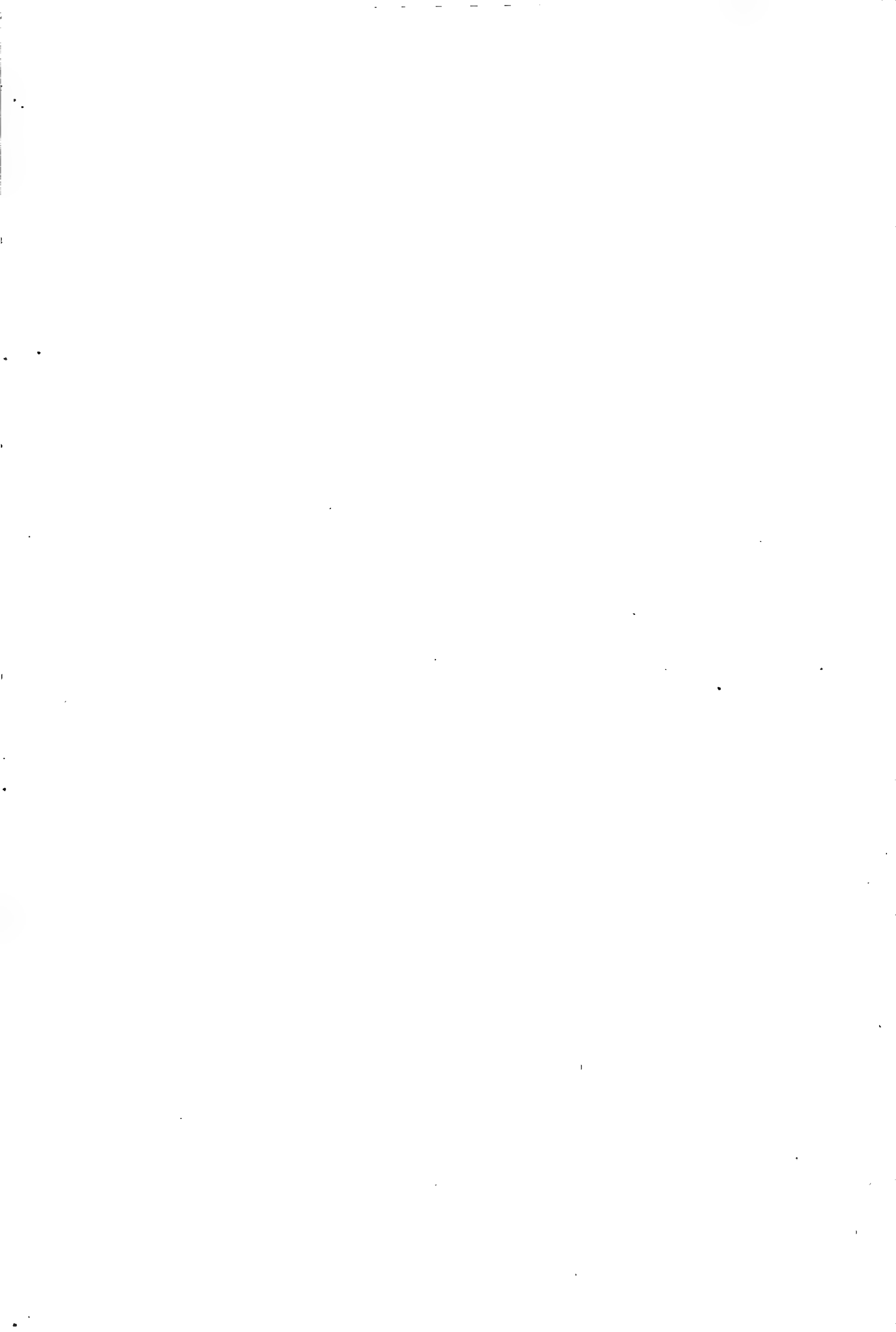
خلكان (ت ٦٨١هـ) تحقيق: إحسان عباس، ط دار الثقافة ـ بيروت ١٩٦٩ـ ١٩٧٢م.

- **الوفيات**: لتقي الدين، أبو المعالي محمد بن رافع السلامي (ت ٧٧٤هـ) تحقيق: صالح مهدي عباس، ط ـ مؤسسة الرسالة ـ بيروت ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
- **الولاة والقضاة**: لمحمد بن يوسف الكندي، ط ـ بيروت ١٩٠٨م.
- **يتيمة الدهـر في محاسن أهل العصر**: لأبي منصور عبد الملك الثعالبي النيسابوري (ت ٤٢٩هـ) تحقيـق: مفيد محمد قميـحة، ط ـ دار الكتب العلميـة ـ بيروت (د ت)

* * *



فهرس المحتويات



فهرس المحتويات

مقدمة التحقيق ٣

صور المخطوط ٧

مسالك الأبصار في ممالك الأمصار بن فضل الله العمري ١٩

النوع الثاني: في ذِكْر مَمَالِكِ الإسلام جملة ٢١

الباب الأول: في مملكة الهِنْد والسِّنْد ٣١

الباب الثاني: في ممالك بيت جنكز خان ٨٩

الفصل الأول: في الكلام عليهم جُملياً ٩١

[جنكزخان] ٩٣

الفصل الثاني: في مملكة القان الكبير صاحب التخت، وهو صاحب الصين ١١١

الفصل الثالث: في التورانيين ١١٧

الفرقة الأولىٰ: في ما وراء النهر وما قبلها وما بعدها من ممالك تركستان ١١٧

قاعدة خوارزم ١١٩

أمّا أكابر مدنها المشهورة ١٢٠

أما بخارىٰ ١٢٩

الفرقة الثانية: في خوارزم والقبجاق ١٤٣

«عين جالوت» ١٤٧

الفصل الرابع: في مملكة الإيرانيين ١٥٩

الباب الثالث: في مملكة الجيل ١٨٩

الفصل الأول: في بومن ١٩٢

الفصل الثاني: في صاحب توليم ١٩٣

الفصل الثالث: في كسكر ١٩٣

الفصل الرابع: في رسفت ١٩٣
الباب الرابع: في مملكة الجبال ١٩٥
الفصل الأول: في الأكراد ١٩٧
الفصل الثاني: في اللرّ ٢٠٧
الفصل الثالث: في الشول ٢٠٩
الفصل الرابع: في شنكارة ٢٠٩
الباب الخامس: في مملكة الأتراك بالروم ٢١٣
الفصل الأول: في مملكة كرمينان ٢٤٣
الفصل الثاني: في مملكة طغرلو ٢٤٦
الفصل الثالث: في مملكة توازا ٢٤٧
الفصل الرابع: في مملكة عميدلي ٢٤٧
الفصل الخامس: في مملكة كصطمونية ٢٤٨
الفصل السادس: في مملكة قاويا ٢٤٩
الفصل السابع: في مملكة بُرْشا ٢٤٩
الفصل الثامن: في مملكة أكيرا ٢٥٠
الفصل التاسع: في مملكة مرمرا ٢٥١
الفصل العاشر: في مملكة نيف ٢٥١
الفصل الحادي عشر: في مملكة مغنيسيا ٢٥٢
الفصل الثاني عشر: في مملكة بركي ٢٥٢
الفصل الثالث عشر: في مملكة فوكه ٢٥٣
الفصل الرابع عشر: في مملكة أنطاليا ٢٥٤
الفصل الخامس عشر: في مملكة قراصار ٢٥٤
الفصل السادس عشر: في مملكة أرمناك ٢٥٥
الباب السادس: في مملكة مصر والشام والحجاز ٢٧٥
مملكة مصر ٢٨١

عساكر المملكة ٢٨٧
زي أعيان هذه المملكة ٢٩٠
السلطان ٢٩٢
ذكر هيأته في جلوسه للمظالم ٢٩٢
ذكر هيأته في بقية الأيام ٢٩٣
ذكر هيأته في الأسفار ٢٩٤
الاسمطة السلطانية ٢٩٦
هيأته في صلاة الجمعة ٢٩٦
ذكر انتهاء الأخبار إليه ٢٩٧
العلامة السلطانية ٢٩٨
الإقطاع ٣٠٠
أرزاق أرباب الدولة ٣٠٢
زي ذوي العمائم المدورة ٣٠٣
الكلام على أرباب الوظائف في هذه المملكة ٣٠٤
الوظائف الكبار ٣٠٥
من ذوي السيوف ٣٠٥
ومن ذوي الأقلام ٣٠٥
ومن ذوي العلم ٣٠٥
ذكر الوظائف ٣٠٦
وظائف أرباب السيوف ٣٠٦
وظائف أرباب الأقلام ٣٠٩
وظائف ذوي العلم ٣١١
ذكر عادة هذه المملكة في الخلع ومراتبها ٣١٧
أما «الوزراء والكتاب» ٣١٩
المدن المشهورة بهذه المملكة ٣٢٩

قلعة الجبل ٣٣٠
القاهرة ٣٣٤
الفسطاط ٣٣٤
قوص ٣٣٥
الإسكندرية ٣٣٧
دمياط ٣٤٢
كُوَرُ الدِّيار المصرية وأعمالها ٣٤٤
الوجه القبلي ٣٤٤
الوجه البحري ٣٤٥
الواحات ٣٤٦
مما يتعلق بذيل هذه المملكة ٣٤٦
ذكر برقة ٣٤٦
ذكر المملكة الثانية وهي مملكة الشام ٣٤٨
ذكر دمشق وبنائها ٣٥٠
أما جملة أعمال دمشق ٣٦٠
الصفقة القبلية ٣٦١
الصفقة الساحلية ٣٦٣
الصفقة الشرقية الشمالية ٣٦٣
وبعلبك ٣٦٤
حمص ٣٦٥
حماة ٣٦٦
حلب ٣٦٧
أطْرَابُلس ٣٧٠
صفد ٣٧٢
القدس الشريف ٣٧٤

الكرك ٣٧٦
الشَّوْبَكُ ٣٧٨
غزة ٣٧٩
الرملة ٣٨١
مصادر ومراجع التحقيق ٣٨٥
فهرس الموضوعات ٤٠٧

MASĀLIK AL-ᵓABṢĀR
FĪ MAMĀLIK AL-ᵓAMṢĀR

by

Šahābuddīn Ibn faḍlullah al-ᶜUmari

Edited by

Kāmil Salmān al-Jubūri

Volume II
Volume III

